Livre de leschiele mahomet

Ce est li livre qi hom appele en sarrazinois halmiraerig qe vault tant dire en francois come monter en alt et ce livre fist mahomet a lui mist cestui nom et por ce lappelent issinc les sarrazins et mostre li livre lo monter de mahomet coment il par les chiele monta ou ciel si come vos orrez en avant et vist totes les merveilles qe dieu lui mostra si com il meisme dist et li livre tesmoigne et cest livre translata habraym alfaqui fisicien de arabic en espaignol par le comandement du noble seignour don alfons por la grace nostre sire dieu Rois des Romeins tot adés acressant et Rois aussinc de Castelle de Tollede de lion de Gallice de Sibile de Cordoe de murce de Gien et de Algarbe et departi ce livre par lxxv chapitres por ce qe hom poust plus legierement demostrer les choses que en lui se contienent as celz qui en demandassent et lor poust plus tost respondre des choses demandees et si com ce livre estoit par le devantdit habraym translatez d'arabic en espaignol tot aussinc par chascune chose je Bonaventure de Sene notaire et escrivein mon seignour le Roy devant nomez par son comandement le tornei de espaignol en francois estant por com ieo en sai et le tornei de ce livre fis ieo mout volentiers par deus raisons lune en est por faire le commandement mon seignour et lautre si est p qe les genz sachent la vie mahomet et sa escience et qe quant il ouvrit et convinrent les abusions et les choses non covenables quil contient ce livre la prove lor … la verite qe est en la loy crestien plus seant et plus delitables … touz celz qui sont Cristiens sont et se auront du lui … tois que ieo fais a nul defaute quil ne sort si ad droit torne come il convient si pri touz celz qui droit francois sevent quil le me pardoignent quar mieulz vault quil lavent issinc qe se il veussent point.

Le primer chapitre parole coment g… li ange vient ad a… et de ce qui li dist

Le ii chapitre

سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

تعرّبَتْ... وتغرّبَتْ
أو
نقلُ الحضارة العربيّة إلى الغرْب

١٩٨٧

مقدمة

بوركت ساعة كتب فيها موسى بن نصير حاكم افريقية الى الوليد بن عبد الملك يستأذنه بالعبور الى بلاد القوط ، الاندلس.

وتردد الخليفة الاموي باعطائه الإذن بحجة أنه لا يريد أن يورط جند المسلمين في بحر كثير الاهوال. ورد عليه موسى بن نصير أن هذا البحر لا يزيد على بضعة اميال وبعدها الاراضي الخصيبة والانتصار السهل المنال. ورضي الخليفة بشروط.

وكان العبور وكان الفتح المبين ، وكان الاستيلاء على غنائم لا تأكلها النيران ، وتوغل العرب في بلاد الفرنجة حتى ادركوا جبال «البرتات» البيرنيه ، وعبروا منها الى الاراضي الكبيرة وتوطدت اقدامهم في بلاد الاندلس أي شبه الجزيرة الابرية الحالية. واقبل المعمرون من كل فج وصوب ، من شمال افريقيا ومن المشرق العربي مستبشرين يعمرون تلك الاراضي ويستثمرون خيراتها. وطابت لهم الاقامة فيها ، واتخذوا موطنا جديدا لهم واطلقوا على مدنها اسماء مدنهم في بلاد الشام. ولم يتغير عليهم في الاندلس تغير الحكم في المشرق بانتقاله من الامويين الى العباسيين. فقد تمكن الامويون من المحافظة على سلطانهم في تلك البلاد النائية ، لما اقبل اليها عبد الرحمن بن معاوية الهارب من العباسيين فأسس الدولة الاموية التي ازدهرت طيلة اربعة قرون تقريبا ، ضاهت بعظمتها الدولة العباسية في بغداد.

ولما بدأ الانحلال يدب في جسم الدولة العباسية بعد تغلب العنصر التركي على العنصر العربي رأى عبد الرحمن الناصر أن يعلن الخلافة في الاندلس عام ٩٢٩ م ، فاعلن ذاته خليفة امويا وانتقلت الخلافة بعده الى ابنه الحكم المستنصر (٩٦١ – ٩٧٦) الذي شهدت الاندلس على عهده اعظم ازدهار عرفته البلاد في جميع النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية والعلمية.

جمع مكتبة ضمت ما يقارب من ستمائة الف مجلد ، بينمَا مكتبات الاديار في اسبانية المسيحية لا يزيد العدد فيها على مائة او مائة وخمسين مجلدا على ابعد حد في اواخر القرن الثاني عشر بينمَا نحن ما زلنا في القرن العاشر الميلادي.

والامور اذا تناهت انتهت ، فما دخل القرن الحادي عشر حتى اخذت تظهر بوادر التعب على السلالة الاموية في الاندلس ، وما مرّ الربع قرن الاول حتى بان التفكك والانحلال : الثورات والفتن والقلاقل ، تدمير مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر على بعد بضعة اميال من قرطبة ، تدمير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن ابي عامر الذي قاد جيوش المسلمين في خمس وخمسين معركة دون أن يؤخذ له علم فيها . وجاء عهد ملوك الطوائف الذين وصل عددهم في الاندلس الى ما يزيد على ثلاثين طائفة.

ووجدها الفرنجة فرصة سانحة يستكلبون فيها على هذه الدويلات الاسلامية المتناحرة ، يقتطعون منها ما يريدون ، واذا تسامحوا فرضوا الجزية لقاء الحماية من الجار والجار في اغلب الاحيان ليس سوى الاخ المسلم يتناحر مع اخيه المسلم العربي ، والفرنجي يقف الى جانب هذا دون ذاك حسب ما تقتضيه الظروف والمصلحة.

ومما زاد الطين بلة أن سقطت طليطلة في ايدي الفرنجة عام ١٠٨٥ وملوك الاندلس في غمرتهم ساهون وعن عواقب الاسلام لاهون كما قال الشاعر ابو الحسن بن الجد :

«أرى الملوك اصابتهم باندلس — دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
قد كنت انظرها والشمس طالعة — او صح للقوم في امثالها النظر
ناموا واسرى لهم تحت الدجى قدر — هوى بانجمهم خسفا وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح — يحدو به مزهياه الناي والوتر
صمت مسامعه من غير نغمته — مما تمر بـه الآيـات والسـور
تلقاه كالفحل معبودا بمجلسه — له خوار ولكن حشوه خور
من حوله كل مغتر وما علموا — أن الذي زخرفت دنياهم غرر
فقل لمن نام اصبحت انتبه فلقد — مضى بك الليل نحبا وانقضى السحر
... اماتكم قبل موت سوء فعلكم — وكيف بالذكر إن لم تحسن السير».

وتدارك الامر ملك اشبيلية المعتمد بن عباد وطلب مساعدة المرابطين من المغرب فاقبلوا بقيادة يوسف بن تاشفين ، وكانت معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ التي أخّرت بقاء العرب في الاندلس اربعة قرون ، وكف ملوك الطوائف عن دفع الجزية لملك قشتالة الادفونش الذي

استطاع النجاة من معركة الزلاقة مع عدد قليل من جنوده يعدون على اصابع اليد. ووحد المرابطون الاندلس من جديد فعاد اليه ازدهاره.

ولكن رغم الانتصار العظيم الذي احرزه المرابطون لم يتمكنوا من استرداد طليطلة التي بقيت في ايدي النصارى، غير أنها حافظت على عروبتها، ومن الغريب في الامر أن هذه المدينة التي قاومت سلطة قرطبة باستمرار ونشبت فيها ثورات وشب عصيان ووثب التمرد على السلطة الاموية اخلصت اكثر من أي مدينة اندلسية لوجهها العربي، فالمعاملات على اختلاف انواعها بين السكان تجري باللغة العربية والتخاطب باللغة العربية ايضا الى جانب اللغة الاسبانية الناشئة.

ونقل الادفونش (الفونسه السادس) الذي استولى على طليطلة عاصمته الى هذه المدينة واستعان بالمسلمين واليهود الذين اتخذ منهم كتّابه وحجّابه ووزراءه نظرا لثقافتهم وعلومهم.

وهنا في طليطلة حصل الاتصال بالثقافة العربية، وأدرك الفرنج الفرق الشاسع بين ثقافتهم والثقافة العربية، فاقبلوا عليها ينهلون منها وفي طليعتهم رجال الاكليروس القادرون على تلقي هذه الثقافة اذ ان عامة الشعب تجهل القراءة والكتابة حتى الاشراف منه. فرجال الاكليروس قبل غيرهم ادركوا تقدم العرب في كافة النواحي لما قاسوا ما عندهم بما لمسوه عند العرب.

وصادف في ذلك الحين أن دعت امرأة الادفونش رهبان جمعية كلوني الفرنسية الى اسبانية المسيحية لادخال الطقس الروماني اليها بدلا عن الطقس المستعرب السائد في بلاد الاندلس آنذاك ودعوتها لهم راجعة الى كونها فرنسية مثلهم. واقبل هؤلاء الرهبان ومن جملتهم الراهب «ريمونده» الذي اصبح فيمَا بعد رئيس اساقفة طليطلة، وبالتالي رئيس الكنيسة الاسبانية المسيحية. وجاء بعده في النصف الاول من القرن الثاني عشر رئيس عام جمعية «كلوني» الآباتي بطرس المحترم لتفقد اديرة الرهبنة في اسبانية التابعة لجمعيته وبالتالي تحمل اسم رهبانية كلوني. والآباتي هذا من العلماء فأحب الاطلاع على الديانة الاسلامية وعلى الاسباب التي ساعدت على انتشار هذه الديانة وازدهارها وقوتها، فعمد الى ترجمة القرآن الكريم الى اللاتينية، مستعينا طبعا، باشخاص يعرفون اللغتين العربية واللاتينية. فكان له ما اراد بعد جهد كبير لأن الترجمات لم تكن ترضيه كما سنرى. وقصده من ترجمة القرآن والكتب الاسلامية الدينية الاخرى مهاجمة هذه الديانة والعقيدة الاسلاميتين عن طريق البرهان والحجة لأن القوة لم تجد نفعا.

واذا كان الآباتي بطرس المحترم عمل على ترجمة الكتب الاسلامية المقدسة ليضحدها فإن رئيس اساقفة طليطلة الذي ينتمي ايضا الى رهبنة الآباتي بطرس قد سلك طريقا آخر، فهو لم ينصرف الى ترجمة الكتب الاسلامية الدينية بل الى الكتب الفلسفية وقد شعر الذين حوله برغبته

في الاطلاع على الفلسفة العربية واليونانية فلبّوا رغبته. وفي طليعة هؤلاء دومنقه غندسلبه «ويوحنا الاسباني» الذي اصبح فيمَا بعد رئيس اساقفة طليطلة.

ومنذ ذلك الحين شرع الاوروبيون يتواردون على طليطلة وبقية المدن الاسبانية من كافة انحاء العالم الاوروبي: من ايرلنده وانكلترة وفرنسه وبلجكة والمانية والبلقان وايطالية...

قدم من شمالي ايطالية من مدينة «كريمونة» احد العلماء، اسمه «جيرارده الكريموني» باحثا عن كتاب «المجسطي» لبطليموس والمترجم الى العربية، لأنه قيل له أنه يستطيع وجود هذا الكتاب في طليطلة، لأنه بعد أن دمّرت مدينة الزهراء والقصر الاموي في قرطبة ونهبت مكتبة الحكم المستنصر الضخمة نقل قسم منها الى طليطلة لما بيع بالمزاد العلني.

قلنا أن جيرارده الكريموني اقبل الى طليطلة في منتصف القرن الثاني عشر وعثر على كتاب المجسطي، واذهله ما عثر عليه من المخطوطات في بقية العلوم في طليطلة. فاقبل على دراسة اللغة العربية وفي الوقت ذاته على الترجمة مستعينا باحد المستعربين اسمه غالب الذي اقترن باسم جيرارده الكريموني، كما اقترن اسم غندسلبه باسم يوحنا الاسباني.

استعان اولا بغالب في الترجمة، ولما تمكن من اللغة العربية استغنى عنه وانصرف وحده الى نقل الكتب العربية الى اللاتينية في كافة فروع المعرفة فوصل عدد ما ترجمه من الكتب الى ثمانين كتابا تقريبا. وكل هذا العمل جرى في طليطلة التي دخلها على قصد البقاء فيها بضعة اشهر حتى يتيسر له ترجمة كتاب «المجسطي» من العربية الى اللاتينية، فقضى فيها حياته ومات في تلك المدينة الامبراطورية كما يسميها الاسبان. فهذا الرجل وحده ترجم تقريبا ربع الكتب العربية التي نقلت الى اللاتينية في القرون الوسطى.

اخذت هذه الكتب المترجمة تنتشر في اوروبة وعليها قامت الثقافة الغربية. ثم دخلنا في القرن الثالث عشر المسيحي وطليطلة ما زالت مطمح انظار الناس الراغبين في العلم لا سيمَا وأن ملكها آلن الفونسه العاشر شغف بالعلم والمعرفة. فنالت طليطلة في اوروبة شهرة لم تشرفها كثيرا في نظر الاوروبيين على العموم اذ أنه شاع في ذلك العهد أن من يريد أن يتعلم السحر واشكاله فليتوجه الى طليطلة، لأن عقلية القرون الوسطى الاوروبية لم تكن قادرة على فهم العلم وقدرته على استنباط الحلول الكثيرة للمشاكل البشرية، فنسبوا كل شفاء عجيب او اختراع علمي الى السحر او الى عمل الشيطان، لأن ادراكهم محدود ومعارفهم معدومة. تلك هي الشهرة التي نالتها طليطلة في ذلك العهد.

واذا تميز القرن الثاني عشر بالترجمة من اللغة العربية الى اللاتينية ، فالقرن الثالث عشر اشتهر بالترجمة من العربية الى الرومنسية اي اللغة الاسبانية الناشئة ، ففي العهد الاول للترجمة برز رجال الاكليروس ، مثل غندسلبه ويوحنا الاشبيلي كما رأينا . وقد تعهد رئيس اساقفة طليطلة «دون ريمونده» الناقلين برعايته وشملهم بعطفه وحمايته . اما في العهد الثاني من الترجمة فالمتعهد بصيانة المترجمين ملك من ملوك قشتالة ، الفونسه العاشر ، الملقب بالحكيم ، الراغب في السيطرة على اوروبة وحمل لقب محام عن الامبراطورية الرومانية المقدسة . جمع هذا الملك حوله عددا ضخما من المترجمين من نصارى ومسلمين ويهود وايطاليين بنوع خاص . لم ينتسبوا الى الاكليروس ، وبالتالي معرفتهم باللاتينية ضعيفة ، فاكتفوا بالنقل من العربية الى الرومنسية اللغة التي يتكلمها ابناء البلاد . وبذلك يكون الفونسه العاشر الحكيم قد انزل العلم من علياء مجده وجعله في متناول الجميع . واذا اقتصر على اللغة الرومنسية دون اللاتينية فما ذاك الا بتحريض من مستشاريه ومترجميه اليهود ، رغبة منهم في اضعاف اللغة اللاتينية ، لغة الكنيسة الكاثوليكية ، انتقاما منها بسبب الاضطهادات التي تلحق باليهود من جرائها .

على كل حال فقد توفق الى حد كبير . واذا كانت المرحلة الاولى من الترجمات في طليطلة اقتصرت على نقل المؤلفات الفلسفية دون سواها ، ففي الحقبة الثانية تناولت الترجمات تلك النواحي الاخرى من العلوم مثل علم الفلك وعلم النجوم وعلم الحساب والكتب الادبية والقصصية مثل كليلة ودمنة وليلة الاسراء والمعراج التي نقلت من العربية الى الرومنسية والفرنسية واللاتينية وتاثر بها دانتي في كتابه «الكوميديا الالهية» .

والملك الفونسه نفسه اشتغل ايضا في العلم والتأليف والترجمة فقد نسبت اليه مؤلفات قد لا تكون من انتاجه ، مثل الجداول الفلكية الالفونسية التي راجت في القرون الوسطى المتاخرة وتحمل اسم الفونسه هي بالحقيقة من اعداد علماء الفلك في طليطلة على عهد العرب مثل الزرقالة وغيره ، اذ إن طليطلة بعد أن تقلص ظل الحكم العربي عنها عام ١٠٨٥ م . توقفت عن الانتاج وانصرفت الى نقل المؤلفات العربية واليونانية المنقولة الى العربية على عهد الحكم العربي مثل مؤلفات الزرقالة وابن وافد ومسلمة المجريطي وابن الصفار وغيرهم كثيرون .

وتغير وجه الثقافة في اوروبة تغييرا كاملا بعد ظهور الترجمات كما قال ارنست رينان في كتابه «ابن رشد والرشدية» . تلقحت الثقافة الغربية بعناصر جديدة حيوية عربية ويونانية لم تألفها من قبل فنتج عن ذلك مخلوق حضاري جديد غريب على الحضارة الاوروبية ، إنه وليد اجيال

طويلة من الحضارات التي توالت على حوض البحر الابيض المتوسط وانغرست ونبتت واثمرت وتغذت منها اوروبة.

لم يهتم الدارسون الاوروبيون بمصدر هذه الثقافة الواردة عليهم، المهم عندهم الاستفادة منها قدر المستطاع. يقول المثل العربي: «كل العسل ولا تسل». جاءت هذه الثقافة بثوب عربي اسلامي فالبسها الغربيون ثوبا لاتينيا نصرانيا ولكن ظلت هذه الثقافة بجوهرها على حالها فلا يمكن أن يقال عنها أنها يونانية فقط او عربية او فرعونية او اشورية او بابلية او هندية او فارسية او فنيقية فقط، بل انها خلاصة جميع هذه الحضارات. تلك هي الثقافة التي وصلت الى اوروبة عن طريق العرب مطعمة بجميع هذه الحضارات، فلا فضل لحضارة على اخرى، جميعها اسهمت في هذه الثقافة التي زجها العرب في الغرب.

واقبلوا من جميع اطراف اوروبة الى اسبانية ينهلون من هذا النبع الصافي وحملوا الى بلادهم ما ترجموه عن العربية الى اللاتينية ونسجوا على منواله. فاول من تأثر بهذه الترجمات في الحقل الفلسفي مثلا دومنقه غندسلبه اذ انه لم يكتف بالنقل فبادر الى التاليف في الفلسفة ينهج نهج الفارابي وابن سينا والغزالي والكندي...

وانتشرت الترجمات في اوروبة انتشارا كبيرا فاستعان بها كل واحد من علماء الغرب بمَا خصه من العلم: الفلك، الحساب، الطب، الصيدلة، الفلسفة وغيرهم اشتغل في الكيمياء بحثا عن اكسير الحياة او الحجر الفلسفي لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب او فضة. ووصل تاثير الترجمات الى العالم العظيم البرتوس الكبير والى تلميذه توما الاكويني والى دانتي والى بوكاشووالى ديكارت والى بسكال والى كوبرنيك نفسه والى القديس يوحنا الصليبي المتصوف والى القديسة تريزيا يسوع المتصوفة ايضا والى رامون لول الفيلسوف الميورقي والى رامون مرتي اللاهوتي والفيلسوف ايضا والى الاطباء الذين ظهروا في القرون الوسطى المتاخرة وفي عصر الانبعاث.

لم تتفرد اسبانيا في الترجمات من العربية الى اللاتينية بل حصلت ترجمات اخرى في مناطق غير اسبانية، مثلا في جنوب ايطالية. فقد ولدت في «سلرنه» مدرسة للطب خلال القرن العاشر الميلادي، وتطورت بعض الشيء وادركت شهرة محدودة حتى منتصف القرن الحادي عشر لما قدم اليها قسطنطين الافريقي من تونس. اعتنق هذا الرجل المجهول الاسم الحقيقي الديانة المسيحية ثم اصبح راهبا في دير «مونتي كاسينه» الشهير، ونقل العديد من الكتب الطبية العربية التونسية الى اللاتينية، فتطعمت هذه المدرسة الطبية بهذا العنصر العربي الجديد وانتشر اسمها انتشارا كبيرا

وامتد في جميع انحاء ايطالية ، وازدهر الطب في هذه البلاد بفضل هذه النواة الخيّرة ، مدرسة سلرنه الطبية التي تلقحت باللقاح الطبي العربي.

وشرعت اوروبة تتقدم في شتى فروع المعرفة معتمدة في تقدمها هذا على ما نهلته من الثقافة العربية في مختلف فروعها في اواخر القرون الوسطى وفي عصر النهضة ايضا فإن هذا العصر لم ينجُ من النفوذ العربي فالترجمات انتشرت انتشارا كبيرا لا سيمّا بعد ظهور فن الطباعة ، فاكثر الكتب العربية المنقولة الى اللاتينية طبع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وبين ايدينا الكثير من هذه الطبعات.

والغريب في الامر أن منبع هذه الترجمات قد افرغها جميعها على الآخرين ولم يترك منها شيئا عنده فالشعوب الاوروبية انتجعت من هذا المنبع لجامعاتها ومدارسها ، فالجامعات الفرنسية والايطالية والالمانية والبلجيكية تستعين بهذه المؤلفات العربية لبناء حضارة سميت فيمَا بعد الحضارة الاوروبية ووصلت الينا وانبثقتْ عنها تلك المذاهب الفلسفية التي عاشت في القرون الوسطى المتاخرة وفي عصر الانبعاث. نعطي مثلا واحدا في الفلسفة:

ظهر في القرون الوسطى مذهب فلسفي اطلق عليه اسم «مذهب الرشدية »، نسبة الى الفيلسوف ابن رشد الذي نُقلت كتبه الى اللاتينية. تبنى مذهبه الكثيرون من الفلاسفة واللاهوتيين خاصة توما الاكويني الذي تعرضت كتبه لتحريم قراءته لأنه اتبع مذهب ابن رشد الشارح لمذهب ارسطوطاليس. وقد نسبت الى ابن رشد مبادئ تبرأ منها هذا الفيلسوق العربي. ولكن ممَا لا شك فيه أن المادية الماركسية الحاضرة ليست بالحقيقة سوى امتداد لمذهب الرشدية ، مذهب الحقيقتين: الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية. ومن المعروف ان ابن رشد والفلاسفة العرب الآخرين شاءوا التوفيق بين العقل والايمان ، بين العلم والدين وهذه الطريقة لم يسبقهم اليها احد. ثم جاء القديس توما الاكويني وسلك الطريق نفسه ونهج منهجه الكثير من اللاهوتيين الغربيين.

بنى الغربيون حضارتهم على مخلّفات العرب ، والثقافة توزعت على مختلف البلدان الاوروبية ، لم تعد هناك ثقافة واحدة كما كانت على ايام العرب الذين حملوا وحدهم الثقافة على اكتافهم وتفردوا بحملها قرونا عديدة ، فخرج منهم الاطباء والصيادلة والفلاسفة وعلماء الفلك والحساب والمهندسون المعماريون والكيمياء. اجل حمل الشعب العربي وحده كل هذه العلوم ولمّا توارى عن مسرح الاحداث وشاء الغربيون ان يحلوا محله لم يتمكّن شعب واحد من القيام بهذه المهمّة فوزعوها فيمَا بينهم فأخذ الفرنسي قسما والالماني قسما آخر والانكليزي تناول نصيبه

والإيطالي نال حظه ، بينمَا الإسباني لم يصب شيئا منها مع انها نبتت ونمت على أرضه ، فكأنه ملّ من عشرتها وطلقها ثلاثا فهي ليست منه وليس منها. لم يشأ الإسبان أحفاد العرب الاستفادة من هذه الكنوز الوافرة التي خلفوها لهم : مئات الالوف من المخطوطات العربية في كافة نواحي المعرفة ، صناعة مزدهرة ، زراعة متطورة الى أقصى حدود التطور في ذلك العهد تشرف عليها ايدي عاملة اختصاصية نشيطة قادرة على تمويل البلاد بمَا تحتاج اليه من مأكل ومشرب ، وقادرة أيضا على توفير المواد اللازمة والمونة المطلوبة لمغامرات عسكرية في أوروبة وفي أميركة ولكن لسوء الحظ ، إن الاسبان أو بالأحرى رجال الاكليروس منهم رفض الاستفادة من هذه الموارد الضخمة المادية والروحية لأنها آتية عن أناس لا يدينون بالنصرانية. نستطيع إعطاء اسم هذا الكردنال «سيسنروس» «CISNEROS» في النصف الاول من القرن السادس عشر، واسبانية آنذاك في أوج عزّها تتمتع على هواها بالميراث الذي خلفه لها العرب : امكانات لا تحصى ومشاريع جارية لا ينقصها سوى الاستمرار في العمل وفي السير نحو انجازات جديدة. هذا الكردنال جمع الكتب العربية والمخطوطات التي انقذت من مكتبة الحكم المستنصر في قرطبة ومن غيرها من المكتبات الخاصة والعامة فعمل منها اكواما وجعلها طعاما للنار أمام توسل الكثيرين للابقاء عليها للاستفادة منها انها عصارة ثمانية اجيال من الثقافة ، فلم يشفق إلّا على بضع مقالات في الطب نجت من الحريق لكي تغذي المدرسة الجديدة التي أسسها هذا الكردنال في مدينة «قلعة النهر» القريبة من مدريد العاصمة الاسبانية. شاء محو كل اثر للعرب والاسلام في اسبانية فحرّم عليهم الكلام بلغتهم او اقتناء اي كتاب عربي ومن عثر معه على كتاب يعاقب اقصى العقوبات ، وحرّم أيضا الاستحمام والحمامات.

في اوائل القرن السابع عشر صدر مرسوم بطرد جميع العرب الباقين في اسبانية ، ويقول بعض المؤرخين ان العدد الذي ارغم على مغادرة البلاد الاسبانية يصل الى ما يقرب من تسعمائة الف شخص ، فاقفرت المزارع والحقول من الايدي العاملة النشيطة وتوقفت المعامل والصناعات الصغيرة عن الانتاج وعمّ الفقر والحاجة ولم يعد من السهل تغذية الآلة العسكرية العاملة في أروبة وفي أميركة الجنوبية ، فدبّ الضعف فيها وعمّت الثورات وظهر الانحطاط ، فالاكتشافات والفتوحات الاسبانية في أميركة الارض الجديدة وفي أروبة لم تكن سوى برق خلّب ، استمرت قائمة طيلة وجود العرب في اسبانية فلمّا طردوا انهار ذلك الصرح المنيف وكأنه كان مبنيا على الرمل. واستمر هذا الضعف ولم تتمكّن اسبانية من النهوض من كبوتها بعد ان فقدت تقنلوجيتها ، لكي تلحق بركب الحضارة السائر بخطى سريعة الى الأمام في البلدان

الاوروبيـة الناهضة. ولمّا تمكّنت من الوقوف على اقدامها وجدت ان أروبة قد سبقتها اميالا واميالا ولا سبيل الى اللحاق بها.

لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، ظلت الثقافة العربية تستهوي الكثيرين من ابناء العالم الغربي، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتبارا من منتصف القرن الثالث عشر عندما بدأت الكتب اليونانية تنقل رأسا الى اللاتينية دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتها وشخصيتها، فقد انتجت الكثير ممّا لم تستطع الثقافة اليونانية انتاجه في كافة الحقول: اضافات وتعليقات وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان.

وبينما كانوا في اسبانيا يطعمون النيران احسن ما انتجته العبقرية العربية طوال ثمانية قرون كان الفرنجة في أروبة يدرسون هذه المؤلّفات الثمينة ويعلقون عليها الحواشي ويتقبلونها على عواهنها او ينتقدونها او يقرونها او ينكرونها ولكن لم يفكروا قط في جعلها طعامًا للنار.

فهذا «اندريا ويساليو» «ANDREA WESALIO» طبيب جراح من اشهر أطباء القرن السادس عشر، وهو الذي مهد الطريق الى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى نهائيا، مع ان ابن النفيس الطبيب العربي السوري الذي عاش في القرن الثالث عشر أول من تحدث عن هذه الدورة الدموية الصغرى مخالفا آراء جميع الذين سبقوه من الاطباء سواء كانوا من العرب او من اليونان.

شاء اندريا ويساليو الحصول على لقب «دكتور في الطب من جامعة «لوفين» الشهيرة في ذلك العهد، وما زالت الى اليوم، فلم يخطر بباله سوى كتاب «الطب المنصوري» الذي وضعه الرازي (٨٥٠–٩٢٣) للأمير منصور بن اسحق بن اسماعيل بن احمد صاحب خرسان. اختار «ويساليو» منه المقالة التاسعة «في الامراض الحادثة من القرن الى القدم». وكان جيرارده الكريموني وغيره قد ترجموه من العربية الى اللاتينية وطبعت المقالة التاسعة منه في البندقية عام ١٤٨٣ و١٤٩٠ و١٤٩٣ و١٤٩٧، وفي بادوفا عام ١٤٨٠ (انظر كتابي عروق الذهب... صفحة ٢٩٢ وما بعدها).

اعجبه الكتاب ولكن عثر فيه على اخطاء كبيرة في الترجمة فشاء تصحيح ترجمته وتفسيره والتعليق عليه حتى يصبح في متناول الطلاب في الطب ريثمًا يتيسر له ان يؤلف كتابا افضل منه، ويكون في الوقت ذاته الاطروحة التي يقدمها لنيل الدكتوراه.

كان هذا التأليف اول كتاب وضعه فيساليو متخذا هذا الشعار : «نشر كتب الاقدمين بعد تطهيرها من الاخطاء الفاضحة التي ارتكبها بحقها المترجمون الفاسدون ، ثم اضافة الاكتشافات الجديدة اليها في حقل الطب».

طبع هذا الكتاب الذي وضعه ويساليو عن المقالة التاسعة من كتاب المنصوري للرازي في اول شباط عام ١٥٣٧ وانتشر انتشارا كبيرا. يقول في مقدمته : انه فحص كتاب الرازي هذا كما يفحص الجواهري الدرر الكريمة وقابله بالمؤلفات اليونانية لأنه سمع من معلمه «جاكوبيو سلفيوس» ان الرازي يعتبر من اقدر الاطباء في فن الشفاء. ثم شرع في اعادة النظر بالترجمات اللاتينية لكي يخفف عن الاطباء عبء هذه المهمة ، ومن ناحية اخرى لكي يوفر على نفسه في المستقبل عناء التفتيش عن اسماء الادوية خالية من الالفاظ البربرية في لغة لاتينية غير مفهومة ، بحيث ان هذه النصوص اللاتينية الصعبة الفهم نظرا لمَا تحتويه من الكلمات البربرية اصبحت الآن خالية منها ولم يعد القارئ بحاجة الى مجهود كبير لاستيعابها. وينتهي الى القول : ان هذا التأليف قد نال حقه واصبح بنجوة من الالسنة الفاسدة التي تريد ان تحط من قدره وقدر مؤلفه الرازي الطبيب العربي الكبير ، ريثما يتيسر لواسيليو ان يضع كتابا في مادة الطب اكمل منه.

ليس جميع الترجمات حصل في اسبانيا ، فانه ما كاد ينتهي القرن الثالث عشر حتى انتهى معه عصر الترجمات في البلاد الاسبانية وتحول الى مناطق اروبية اخرى ، مثل جنوبي فرنسة وايطالية وصقلية.

اضطر اليهود لمغادرة اسبانية فحملوا معهم مكتباتهم العربية ، وغيرهم لم يحمل معه كتبا ، وما طال الامر حتى نسي هؤلاء اليهود اللغة العربية التي نطقوا بها في اسبانيا والاجيال الجديدة منهم لم تتعلم هذه اللغة العربية في فرنسة ، فاضطر علماؤهم الى نقل الكتب العربية الى العبرية لكي يتمكن ابناء جنسهم من الاطلاع عليها. وراج سوق الترجمة في جنوبي فرنسة من العربية الى العبرية بالدرجة الاولى والذي تعهد هذه المهمة آل طبون اليهود الغرناطيون الذين نزحوا من غرناطة الى المدن الفرنسية الجنوبية. وقد نقل قسم من هذه الكتب العبرية الجديدة الى اللاتينية.

وهكذا ظل الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد ان تقلص ظلها عن الاندلس بجيلين او اكثر حتى وصل الى العصور الحديثة ، عندنا من ذلك قصة حي بن يقظان الفلسفية التي كتبها الفيلسوف والطبيب العربي ابن طفيل الاندلسي والمتوفي عام ١١٨٥ ، لم يتح لهذه القصة ان تترجم الى اللغات الاوروبية قبل اواخر القرن الثان عشر ، ومنذ ذلك الحين اصبحت نموذجا للكثيرين من ادباء الغرب ينسجون على منوالها.

هذا هو فضل العرب على العالم فقد حافظوا على الثقافة اليونانية من الضياع اذ انه لولا العرب لمَا وصلت الى ايدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في اصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية مثل «الآثار العلوية» لارسطوطاليس فالكتاب ضاع في اصله اليوناني وبقيت الترجمة العربية. ولمّا شاء اباطرة القسطنطينية احياء التراث اليوناني استعانوا بالنصوص العربية – اليونانية ونقلوها الى اليونانية من جديد. ولم يكتف العرب بالمحافظة على التراث اليوناني بل شرحوه شروحا عديدة واقتدوا به واضافوا عليه وكمّلوه فوصل الى الغرب لقمة سائغة يسهل هضمها.

كل هذا نجده مفصلا فيمَا يأتي.

شتاء ١٩٨٧ **المؤلف**

IOANNIS MESVAE
DAMASCENI
MEDICI CLARISSIMI.
OPERA

De medicamentorum purgantium delectu, castigatione, & vsu, Libri duo.
Quorum priorem Canones vniuersales, posteriorem de
SIMPLICIBVS vocant.

GRABADIN, *hoc est Compendij secretorum medicamentorum, Libri duo.*
Quorum prior ANTIDOTARIVM: *posterior de Appropriatis vulgo inscribitur.*

Cum MVNDINI, HONESTI, MANARDI, & SYLVII in tres priores libros
obseruationibus, quæ vulgo cum his prodire consueuerunt.

His Accessere

PLANTARVM in libro Simplicium descriptarum imagines ex viuo expressæ

Atque item IOANNIS COSTÆI *Annotationes, tum quas in editione priori dedimus,*
tum præterea nouæ aliæ in postremas nouem Antidotarij sectiones, quæ desiderabantur.

Reliqua vero, quæ cum Mesuæ operibus exire solent, in aliud volumen coniecimus, quod nomine
Supplementi in MESVEN inscriptum est.

Quæ omnia accuratissime hac postrema editione prodeunt emendata, & ab innumeris mendis, & erroribus
qui in superiori irrepserant, adhibita doctorum hominum industria expurgata.

الدمشقي



يوحنا ماسويه

VENETIIS, M DCII.

الفصل الأول

العلوم الاسبانية العربية

انتقلت ميزات العلوم عند العرب المشارقة في بغداد والقاهرة الى اسبانية الاسلامية. انه لحدث معروف عند المؤرخين العرب انفسهم وهو ان العلوم تأخرت بالتطور على الارض الاسبانية العربية، لان الحروب الاهلية بين مختلف الطوائف هدت حيل اسبانية الاسلامية.

بدأ الفجر يطل على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط فقد وصل شيء من الحضارة العربية في بغداد الى الاندلس. جاء الفتى زرياب المغني، واستقبل احسن استقبال واجريت له الجرايات من خزينة الدولة، وقد حمل معه الذوق الشرقي في طريقة اللباس والغناء والاكل والشرب والاواني المستعملة على الموائد. وازداد عدد القاصدين الى الشرق العربي للدرس والمعرفة، وقصد الاندلس عدد كبير من العلماء من مختلف فروع المعرفة منهم الطبيب الحراني وقصته معروفة مع الفتى نصر ومع الاطباء الاندلسيين[1].

وجاء عبد الرحمن الثالث او الناصر وشاء مزاحمة الخلفاء العباسيين في بغداد بعد ان اخذت دولتهم بالاضمحلال والانحلال فبذل كل ما في وسعه لتقدم العلوم والفنون والآداب في الاندلس، وقد شعر الدارسون ان عطف الخليفة يشملهم ولا خوف عليهم من الفقهاء. ولمّا تبودلت الهدايا بين امبراطور القسطنطينية وعبد الرحمن الناصر لم يجد هذا الامبراطور من هدية انسب من كتاب الحشائش لديوسقرديس، مكتوب باحرف ذهبية ومصورة عليه جميع الحشائش الواردة في الكتاب، وارسل معه راهبًا يونانيًا اسمه نقولا ترجم الكتاب من اليونانية

(١) راجع كتابي «عبد الرحمن الاوسط – مقتل نصر الفتى.

الى اللاتينية بينما طبيب الخليفة حسداي بن سبروت ينقل الترجمة اللاتينية الى العربية ، وعلى هذا النحو تحسنت وتكملت الترجمة التي حققها حنين بن اسحق في الشرق.

ابتدأ عبد الرحمن الناصر ببناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥/٩٣٦ ، ولا بأس اذا استرسلنا قليلا في وصف تلك المدينة التي تقع على ستة اميال من قرطبة ويعمل الاسبان الآن على اعادة بنائها.

كان يضرب فيها من الصخر المنجور العريض الضخم كل يوم ستة آلاف صخرة سوى صخر التبليط والتأسيس ، وجلب اليها الرخام حتى من تونس وقرطاجة ، وجلب اليها من سوارى الرخام ٤٣٢٤ سارية ، وجلب اليها من بلاد الروم على يد ربيع الاسقف حوضا منقوشا بالذهب ينقل هوينا من مكان الى مكان حتى وصل الى البحر ورفع منه الى بلده. وجلب اليه «احمد بن حزم» حوضا ثانيا منقوشا احتيل في اجتلابه من بلاد الشام ، فوضعه في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف «بالمؤنس» وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الاحمر المرصع بالدر النفيس.

ويقول التاريخ ان قوت الاسماك في بركات قصوره بلغ في كل يوم اثني عشر الف خبزة.

توفي الناصر لدين الله سنة ٣٥٠/٩٦١ فكانت ولايته خمسين سنة وستة اشهر وثلاثة ايام. وكان عدد فتيان الصقالبة بمدينة الزهراء لحين وفاته ٣٧٥٠ وعدد النساء بالقصر ٦٧٥٠ يجرى على الجميع اللحم والخبز والسمك والطير.

الحَكَم الثاني: جاء الحكم الثاني «المستنصر» وامتدت خلافته من سنة ٩٦١ الى ٩٧٦ وهو الذي اقتنى المكتبة المشهورة.

والامويون في الاندلس شجعوا العلوم والآداب وجمع الكتب. فمنذ عهد الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط المتوفي ٨٨٦م كانت المكتبة الاموية بالقصر اعظم مكتبات قرطبة. وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق حتى ان قيصر قسطنطينية حينما ارسل اليه سفارته حرص على ان يهديه كتابين من ذخائر الاقدمين هما كتاب «ديوسقورديس» عن الاعشاب الطبية وكتاب «اورسيوس».

ولمّا توفي الناصر عني ولده الحكم الثاني بجمع مكتبة القصر وتنظيمها. وكان الحكم يبعث الى اكابر العلماء المسلمين من كل قطر بالصلات الجزيلة للحصول على النسخ الاولى من مؤلفاتهم. فقد بعث الى ابي الفرج الاصبهاني الف دينار من الذهب العين ليحصل منه على كتابه «الاغاني». فارسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل ان يحصل عليه احد في العراق او ينسخه احد منهم.

وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد لا سيّمَا في بغداد والقاهرة ودمشق ينقبون له عن الكتب ويحصلون منها على النفيس النادر. كما كانت له في بلاطه طائفة اخرى من البارعين في نسخ الكتب وتجليدها وتصنيفها. وبذل في هذا السبيل من الجهود والاموال ما لم يسمع به. واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ما لم يجتمع لاحد قبله.

ولمّا ضاقت ابهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد الضخم من الكتب الواردة اليه باستمرار انشأ الحكم على مقربة من القصر صرحا عظيما خاصا بالمكتبة افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه وانارة ابهائه. ويقول ابن حزم: «ملأ الاندلس بجميع كتب العلوم، وقد بلغ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب الموجودة بخزانة العلوم بقصر بني امية في الاندلس اربع واربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط.

وعهد الحكم بادارة المكتبة الاموية العظيمة الى اخيه عبد العزيز، وعهد بالاشراف على جامعة قرطبة واساتذتها الى اخيه المنذر. وكان يقضي معظم اوقاته بمدينة الزهراء في ابهائها المنيفة منعكفا على القراءة والدرس وتعليق الحواشي بيده على المخطوطات.

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب في عصر الحكم الثاني مقتصرا على الامير فقد عنى كثير من كبار العصر وعلمائه بانشاء المكتبات ومن اشهر هؤلاء «عائشة بنت احمد بن قادم». وكانت من ابرع نساء عصرها علما وادبا وشعرا. وكانت خزانة مكتبتها من اغنى المكتبات الخاصة. وكانت سوق الكتب في قرطبة من اشهر الاسواق واحفلها بالحركة. ولقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب الى النصارى واليهود الذين يجيدون اللغة العربية ويتذوقون ثمرات الفكر العربي من ادب وشعر وفلسفة. وكان من اشهر هؤلاء الطبيب اليهودي، «حسداي» طبيب الحكم الخاص.

وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الاموية العظيمة التي انشأها الحكم المستنصر فقدرها بعض المؤرخين باربعمائة الف مجلد، وقدرها البعض الآخر بستمائة الف[1].

ولبثت المكتبة الاموية قائمة بقصر قرطبة حتى وقعت الفتنة الكبرى سنة ٤٠٠/١٠١٠، وحاصر البربر قرطبة فاخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار وبيعت بامر الفتى «واضح» مولى المنصور بن ابي عامر. ثم انتهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة.

(١) المقرى: نفح الطيب جزء ١ ص ١٨٤.

واذا علمنا ان اشهر مكتبة في اسبانيا المسيحية في ذلك العهد وهي مكتبة دير «ربول»، وكانت في عام ٩٥٧م لا يزيد عدد كتبها على ٥٣ مخطوطا، ادركنا الفرق الشاسع بين الحضارة العربية في الاندلس والحضارة المسيحية في شمال البلاد[1].

ولا شك ان الزهراوي تردد الى هذه المكتبة الضخمة واطلع على ما فيها من نفائس الكتب الطبية للاستعانة بها على كتابة موسوعته الطبية «التصريف لمن عجز عن التأليف» التي تقع في ثلاثين مجلدا.

وفي عام ٩٧٦ توفي الحكم المستنصر وجاء ابنه هشام الثاني «المؤيد» وهو طفل لم يناهز عشر سنوات فتولى «المصحفي» الحجابة له، وتولى الوزارة «محمد بن ابي عامر».

وما شاع خبر وفاة المستنصر حتى هب الاعداء في الشمال يتكالبون على البلاد. ولم يشأ احد من الوزراء في قرطبة الدفاع عن الثغور، فانتُدِب محمد ابو عامر للجهاد فشرع في الحركة واختار الرجال والعدة وقصد جليقية وادرك النصر على الجلالقة وعاد الى قرطبة بعد خمسين يوما غانما ظافرا فسر الناس به كل السرور واحبه الجند.

وتوالت انتصاراته على الاعداء، وبلغت غزواته ٥٥ غزوة لم يؤخذ له فيها علم. ووصل الى مدينة سانتياغو واحتلها وغنم ما بها. وفي تلك المدينة قبر الرسول يعقوب احد الحواريين الاثني عشر، يحج اليه النصارى من جميع بلدان اوروبة. ولمّا وصل المنصور الى قبر يعقوب وجد راهبا عند القبر. فسأله عن مقامه. فقال الراهب: أُوانس يعقوب. فقال ابو عامر المنصور لاصحابه: «دعوه وشأنه». ولم يتعرض للقبر مع انه هدم الكنيسة وما حولها.

توفي المنصور بن ابي عامر سنة ١٠٠٢ ثم اخذت الدولة بالانحلال فلم يستطع الذين جاءوا بعده المحافظة عليها فنشبت الثورات والفتن والقلائل بين العرب والبربر وكانت النهاية.

قد يكون الزهراوي شهد هذه الفتن اذ طال عمره لعام ١٠١٠.

وهكذا نرى ان العصر الذي عاش فيه الزهراوي كان ازهى العصور في الاندلس وقد يكون في العالم الاسلامي على الاطلاق...

ولا شك ان الزهراوي شهد مقدم رسول امبراطور القسطنطينية على عبد الرحمن الناصر سنة ٩٤٥/٣٣٤ وحمل معه «كتاب الاعشاب» لديوسقريدس هدية للناصر ولقد اطلع

---

(١) Bonilla y San Martin. Hist. de la Filosofia española I, Madrid 1908 nota 33.

الزهراوي على هذا الكتاب الثمين الذي يتحدث عن الاعشاب ، بعد ان نقل الى العربية ، ولقد استعان به الزهراوي على كتابة القسم المتعلق بالصيدلة في موسوعته الطبية الشهيرة.

وكتاب «ديوسقريدس» يقع في خمس مقالات :

المقالة الاولى : تشتمل على ذكر ادوية عطرية الرائحة وافاويه وادهان وصموغ واشجار كبار.

المقالة الثانية : تشتمل على ذكر الحيوانات والحبوب والقطاني والبقول المأكولة والحريفة.

المقالة الثالثة : تشتمل على ذكر اصول النبات وعلى نبات شوكي وعلى بزور وصموغ وعلى حشائش بازهرية.

المقالة الرابعة : تشتمل على ذكر ادوية اكثرها حشائش باردة وعلى حشائش حارة مسهلة ومقيئة وعلى حشائش نافعة من السموم وهو ختام المقالة.

المقالة الخامسة : تشتمل على ذكر الكرم وعلى انواع الاشربة وعلى الادوية المعدنية.

وقال جالينوس عن هذا الكتاب : «اني تصفحت اربعة عشر مصحفا في الادوية المفردة لاقوام شتى فمَا رأيت فيها اتمّ من كتاب «ديسقوريدس» الذي من «عين زربة».

ويقول ابن جلجل : «كان من جملة هدايا «ارمانيوس» ملك قسطنطينية للناصر كتاب ديسقوريدس ، مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب. وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي. وكتب ارمانيوس الى الناصر : «ان كتاب ديسقوريدس لا تجنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف اشخاص تلك الادوية ، فان كان في بلدك من يحسن ذلك فزت ايها الملك بفائدة الكتاب».

ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس من يقرأ اللسان الاغريقي فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر ولم يترجم الى اللسان العربي واكتفى الناس بترجمة اسطفن الواردة من مدينة السلام بغداد.

فلمّا جاوب الناصر ارمانيوس ساله ان يبعث اليه برجل يتكلم الاغريقي واللاتيني ليعلم له اناسا يكونون مترجمين. فبعث ارمانيوس الملك الى «الناصر» براهب اسمه «نقولا». فوصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ وكان يومئذ بقرطبة قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من اسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس الى العربية وكان ابحثهم حسداي الاسرائيلي فسّر من اسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولا ، وهو اول من عمل بقرطبة «ترياق الفاروق». وكان في ذلك الوقت من الاطباء الباحثين عن تصحيح اسماء عقاقير الكتاب «محمد» المعروف

بالشجّار، ورجل كان يعرف بالبسباسي و«أبو عثمان الجزار» و«محمد بن سعيد» الطبيب وابو عبدالله الصقلي، وكان يتكلم اليونانية ويعرف اشخاص الادوية.
يقول ابن سعيد عن مسلمة المجريطي انه ابرز عالم حسابي في عصره اشتغل في كتاب المجسطي لبطليموس وجداول الخوارزمي وغير السنة الفارسية بالسنة الهجرية، واضاف بعض الجداول. وقد اتبع مذهب الخوارزمي غير انه لم يذكر اخطاءه.

وقد وصلت الينا من اعمال مسلمة الفلكية كتابه في نقد جداول الخوارزمي، وترجمه الى اللاتينية «اديلار الباثي» وطبعه «سوتير» طبعة ممتازة في كونبنهاجن عام ١٩١٤.

وترك مسلمة مدرسة كاملة من التلاميذ يقول عنهم ابن سعيد: لم يسبق ان عرف الاندلس مثلهم. التجأ بعضهم اثر انحلال الخلافة في قرطبة الى ملوك الطوائف. يذكر ابن سعيد منهم ابا القاسم اصبغ المعروف بابن السمح، له مؤلفات عديدة منها كتابان في العمل بالاسطرلاب. ووضع جداول على طريقة «السند هند».

تلميذ آخر هو ابو القاسم احمد المعروف بان بن الصفار: له جداول مختصرة على شاكلة السند هند وكتاب آخر هام في العمل بالاسطرلاب.

واسس هذان التلميذان بدورهما مدارس اخرى اخرجت ابن برغوث تلميذ ابن الصفار. وآخر اسمه عبدالله بن احمد السرقسطي. ومن تلامذة ابن برغوث محمد احمد بن الليث.

وكان محمد بن موسى الخوارزمي في ايام المأمون قد وضع زيجه المسمى بالسند هند وعول فيه على اوساط السند هند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذهب الفرس وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس.

دخل هذا المذهب الاندلس بعد اواسط القرن الرابع لمّا اختصر مسلمه بن احمد المجريطي المتوفي سنة ٣٩٨هـ ١٠٠٧ زيج محمد بن موسى الخوارزمي.

وممّا يدل على انتشار هذا المذهب في الاندلس ان أبا اسحق ابراهيم الزرقاله في غير موضع من كتابه في الاسطرلاب المسمى الصفيحة الزرقالية يذكر حساب الاوساط والتعاديل على مذاهب شتى منها مذهب السند هند وكذلك كثيرا ما اشار ابراهيم بن عزرا في تصانيفه العبرانية الى استخراج الاوسط من الازياج على مذهب السند هند.

وابراهيم بن عزرا ولد بطليطة سنة ١٠٩٢ وتوفي سنة ١١٦٧ واقام بايطالية مدة سنين وهو من اشهر العلماء الاسرائيليين له تصانيف عديدة في تفسير التوراة وعلم الكلام وعلم الهيئة

واحكام النجوم والحساب كلها باللغة العبرانية. وترجم من العربية كتاب البيروني، في علل زيج الخوارزمي وصل الينا من هذه الترجمة نسختان خطيتان محفوظتان في «برمة» PARMA من مدن ايطالية وفي اكسفرد من اعمال انكلترة.

اما قول ابراهيم بن عزرا في مقدمة ترجمته العبرانية لكتاب شرح ابن المثنى في علل زيج الخوارزمي ما ترجمته حرفيا: «وعن لسان ذلك الحكيم الهندي بواسطة اليهودي المترجم الى العربية نقل حكيم اسمه يعقوب بن طارق كتاب جداول الكواكب السبعة السيارة وكل عمل الارض والمطالع والبروج في الفلك المستقيم والميل الطالع واقامة البيوت الاثنتي عشرة ومعرفة الكواكب العلوية وكسوف النيرين.

ولكن لا يذكر في الكتاب علل جميع هذه الامور وانما يذكر العمل على وجه التقليد واوساط الكواكب السيارة فيه على حساب الهند الذين يسمون «دورهم هازروان» وهو عبارة عن اربعمائة الف واثنين وثلاثين الف سنة.

ويقول ابن جلجل: وكان هؤلاء النفر كلهم في زمان واحد مع نقولا الراهب ادركتُهم وادركت نقولا في ايام المستنصر وصحبتهم. وفي صدر دولته مات نقولا.

وابن جلجل هذا طبيب له كتاب: «تفسير اسماء الادوية المفردة» من كتاب ديسقوريديس، الّفه سنة ٣٧٢هـ بمدينة قرطبة في دولة هشام بن الحكم.

وله مقالة في ذكر الادوية التي لم يذكرها ديسقوريديس في كتابه ممّا يستعمل في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكي يغفل ذكره.

ويقول ابن جلجل ان ديسقوريديس اغفل ذلك ولم يذكره اما لانه لم يره ولم يشاهده عيانا واما ان ذلك كان غير مستعمل في دهره.

ولا بأس علينا في ذكر بعض العلماء الذين عاصروا الزهراوي واستفاد منهم واستفادوا منه وتتلمذ لهم وتتلمذوا له.

يحيى بن اسحق: يقول عنه ابن ابي اصيبعة: كان طبيبا ذكيا عالما بصيرا بالعلاج صانعا بيده وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر. وكان قائد بطليموس زمانا. وكان له من امير المؤمنين الناصر محل كبير وله كتاب في الطب يشتمل على خمسة اسفار وهو كتاب كبير».

سليمان ابو بكر بن تاج: كان في دولة الناصر وخدمه بالطب. عالج امير المؤمنين من رمد عرض

له . كان يعالج وجع الخاصرة بحب من حبه فيبرأ بالوقت. وكان ضنينا بنسخ الادوية.

ابن ام البنين: سمي «بالاعرف» ، وكان من اهل مدينة قرطبة وخدم امير المؤمنين الناصر بصناعة الطب. وكان ينادمه وكانت معه فطنة في الطب ، وكان معجبا بنفسه وكان ان الناصر ربّمَا استثقله لذلك ، وربّمَا اضطر اليه لجودة فطنته.

عمير بن حفص بن بُرْتَق: كان طبيبا فاضلا رحل الى القيروان وهو الذي ادخل الى الاندلس كتاب «زاد المسافر» وخدم بالطب الناصر.

إصبع بن يحيى: الطبيب كان متقدما في صناعة الطب وخدم بها الناصر والّف له «حب الانيسون».

محمد بن تَمْلِيح: خدم الناصر بصناعة الطب وله في الطب تأليف حسن الاشكال وادرك صدرا من دولة الحكم المستنصر وكان حظيا عنده وخدمه بصناعة الطب وله كتاب في الطب.

ابو الوليد بن الكتاني: لم يكن يرغب في المال ولا جمعه وكان لطيف المعاناة وخدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب ومات بعلة الاستسقاء.

ابو عبدالله بن الكتاني: اخو السابق خدم المنصور بن ابي عامر وابنه المظفر. كان بصيرا بالطب انتقل في صدر الفتنة الى مدينة سرقسطة واستوطنها كان بصيرا بالطب متقدما فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة.

ابو عبد الملك الثقفي: كان طبيبا اديبا عالما بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وخدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب وله في الطب نوادر.

حسداي بن اسحق: معتن بصناعة الطب وخدم الحكم بن عبد الرحمن وكان حسداي من احبار اليهود متقدما في علم شريعتهم فلمّا اتصل بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق. فعلم يهود الاندلس ما كانوا قبل يجهلونه.

ابن سمجون: فاضل في صناعة الطب متميّز في قوى الادوية المفردة وافعالها متقن لمَا يجب في معرفتها ، وكتابه في الادوية المفردة مشهور بالجودة. وقد ألّف كتابه هذا في ايام المنصور بن ابي عامر. ولابن سمجون من الكتب: كتاب الادوية المفردة ، وكتاب الاقراباذين.

عريب بن سعيد الكاتب: عاش على عهد الخليفتين الاندلسيين عبد الرحمن الناصر ٩١٢-٩٦١ والحكم المستنصر ٩٦١-٩٧٦ وكتب لهما.

في سنة ٩٦٤ أمره الحكم ان يضع كتابا عن الطب فوضع كتابا عنوانه: «خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود». والمخطوط ما زال في مكتبة الاسكوريال رقم ٢/٨٣٣.

هذا قليل من كثير جئنا على ذكره عن الاطباء وقد صرفنا النظر عن الادباء والشعراء واللغويين وعلماء الفلك والفلسفة والنجوم والحساب.

كانت قرطبة في ذلك العصر محط انظار العالم المسيحي والاسلامي بينما الخلافة العباسية في الشرق تنهار وتضمحل، فرأى عبد الرحمن الناصر ان يعلن الخلافة في الاندلس وكان ذلك عام ٩٢٩م.

الفصل الثاني

الثقافة الرومانية ودير «ربول» «RIPOLL»

لا نفهم بالثقافة الرومانية تلك الثقافة الوثنية التي شهدها عصر قياصرة الرومان بمَا فيها من طابع نفعي صرف ، بل نقصد تلك الثقافة التي انبثقت عن رومة البابوات ، ثقافة منسجمة في وحدة انسانية مستقاة من الكتب المقدسة تهدف الى الولوج في اعمق اعماق اسرار الحقيقة الموحاة. ثقافة دينية وفلسفية نادى بها القديس امبروسيوس والقديس اغسطينوس والقديس «اسيدرز» الاشبيلي والمحترم «بيدا» «BEDA» الذي حرك الشعلة المتشوقة الى العلم والمعرفة.

واذا شئنا الكشف عن ذلك المجهود نذكر الايام الصعبة التي عاشتها تلك الحقبة من القرون الوسطى المتقدمة ، فالهزات السياسية تجتاح الغرب : موجات من الشعوب تتلاطم راغبة الخروج من عصر للدخول في عصر آخر. الفندلوس والهونس والقوط واللومبارديون والافرنج والسكسون ثم العرب في الاندلس وجنوبي فرنسة. واذا لم تنطفئ تماما تلك الشعلة او بالاحرى ذلك البصيص من الثقافة الرومانية فمَا ذاك الا بفضل العناية التي اسبغها البابوات عليها ، مثل البابا غريغوريوس الكبير وغيره فارسلوا رهبان القديس اغسطينوس الى انكلترة النائية حيث اسسوا الاديار وخلقوا بالفعل تاريخ تلك البلاد. بينما رهبان آخرون على عهد البابا نفسه انطلقوا نحو غرب اوروبة وبنوا الاديرة والصوامع على ضفاف نهر الرين وفي سفوح جبال الالب. وبعد فترة غير طويلة بشر رهبان ايرلنديون بالانجيل في «بايرن» الالمانية. وفي اوائل القرن الثامن جنى البابا غريغوريوس الثاني ثمار ما زرعه سلفه الصالح في انكلترة التي اعطت القديس «بونيفاس فنشر الايمَان المسيحي في جرمانية باسرها. واسس الاديرة في غاباتها الفسيحة ومنها دير «فولدة» «FULDA»

وقد ذكر المؤرخون بالخير جميع هؤلاء الرهبان الذين حولوا تلك الشعوب الوثنية الى شعوب مؤمنة ونظموا حياتها القبيلية فأصبحت حياة اجتماعية ضمّت المهنيين واصحاب الحرف وخلقت الطبقات الاجتماعية ، وحسنت حياتها الاقتصادية فاوجدت مصادر الثروة في ازمة قاسية ، ونشطت الزراعة وتربية المواشي . ولم تهمل الناحية الثقافية فحافظت على شعلة المعرفة في زمن كان العمل الفكري قد فقد مفهومه بين الاكثرية الساحقة من السكان .

ولكن لم يجمع المؤرخون على استحسان هذا الصنيع من قبل رهبان البندكتان في العصور الوسطى المتقدمة ، فلم يعتبروها بداية مرحلة يزدهر فيها الروح العلمي الاوروبي بل انها مرحلة او حقبة سبقت تاريخ هذا العلم ، ازدهرت فيها فنون الشعر والبساطة المسيحية الاولية ، ولكن لا يمكن ادخالها في معبد الثقافة والفكر العلمي . ان العهد العلمي ، حسب رأيهم يبدأ في عصر انبعاث الفكر الكلاسي في أوروبة ، عن طريق العرب عندما اخذت ترجمات الافلاطونية الحديثة وارسطو والمدرسة الاسكندرية تدغدغ العقول الفتية في اوروبة ، فيقول رينان في كتابه : «ابن رشد والرشدية صفحة ٢٠٠ ، باريس ١٨٦٦ : «جاءت اكثرية هذه الترجمات عن طريق طليطلة وهي تقسم تاريخ الفكر في القرون الوسطى الى عهدين مختلفين تمَام الاختلاف : عهد ظلام فيه هزات ضعيفة غير متكاملة ، وعصر نور شعّ عليه ضياء العقل العلمي » .

ان حكما مثل هذا يجرد الثقافة الرومانية من كل قيمة . وسنبيّن مدى صحة هذا الكلام في حديثنا عن النهضة العلمية التي بزغت في دير القديسة مريم في ربول RIPOLL

رميت الثقافة الرومانية المسيحية بالفقر من حيث فحواها فقد اقتصرت على بعض التآليف المنتحلة مثل «طبيعة الاشياء» «NATURA RERUM» للمحترم «بيدا» و«عن الكون» De Universo للأباتي «ربنه موره»«RABANO MORO» من دير «فلدة» وقد ظهر في هذين التأليفين تأثير Etimologias القديس اسيدرز «ازيدوروس» الاشبيلي . ولكن هل كانت رومة الوثنية قادرة ان تقدم اكثر من هذا؟

امر لا يقبل الريب وهو ان رومة القيصرية خلت تماما من الشطحات العلمية والابحاث النظرية فالمسائل الفلسفية التجريدية عند الافلاطونيين المحدثين والمشاكل الحسابية والمعادلات الفلكية عند بطليموس لم تجد مرتعا خصبا تنمو فيه . واذا استثنينا ما وصل الى الرومان من سنيكا الفيلسوف القرطبي الاسباني صاحب كتاب : «مسائل طبيعية » «Questiones naturales» او ما وصل اليها من «بلينيوس «Plinius» في تآليفه «التاريخ الطبيعي » Naturalis Historia

يتفق جميع المؤرخين على ان فجوة واسعة وفراغاكبيرا شمل الحضارة اليونانية الوثنية. ويقول العالم الفيزيقي «فيرنديل» «VIERENDEL» : «ان الشعب الروماني الذي سيطر على العالم طيلة سبعة قرون، كان عقيماكل العقم في العلوم، فلا نعرف اي عالم روماني في الحساب او الميكانيك «علم الحيل» او الفيزياء او التقنولوجية، فالعقل الروماني غير قادر على تخطي النطاق العملي ليحلق في جو علم الفلك. ولم يهتم الرومان في علم الحساب الا بقدر ما يفيدهم في معرفة مساحة الاراضي لتحديد العقارات».

لم تستلم العصور الوسطى المسيحية من العصور القديمة سوى اليسير من المعرفة غير الكاملة، وبالتالي لا يسعنا الا ان نشكو من عجز الثقافة الرومانية الوثنية وعقمها العلمي، اذ انها لم تستطع ان تنضم الى موكب التفكير النظري المزدهر في الاسكندرية. وهذا النقص الفلسفي يقابله في رومة رغبة شديدة في تقبل الديانات الشرقية الآتية من ضفاف نهر العاصي: افروديت وادونيس ومن وادي النيل ازيس وايزريس، ومن ايران ومن الرين ومن بريطانية. كل هذه المجموعة من الديانات الشرقية باكثرها بمَا فيها من تصوف حسي وحكمة سامية سرحت ومرحت في المرابع الرومانية الخصبة، فقد تقبلت رومة جميع الديانات الشرقية النفعية التي تتفق وطبيعة الشعب الروماني.

وكما نرى، فان لرومة المسيحية عذرها في عدم الوصول الى مصادر المعرفة العلمية. بقي علينا ان نعذرها او نبرر موقفها من تهمة اخرى الصقت بها، لقد عزى الى رومة كرهها للعلم وموقفها المعادي له.

وصلت الروح العلمية الى اوروبة بوصول الفكر اليوناني اليها، وقبل وصوله عمّ النقص اوروبة كلها في القرون الوسطى المتقدمة وامتدّ هذا النقص والفراغ الى العصور الوسطى المتأخرة. وبدأت النهضة فعلا في منتصف القرن العاشر المسيحي في دير «ربول» فهناك في هذا الدير تلقحت الثقافة العلمية الرومانية المسيحية بالثقافة العربية في الاندلس.

بغداد نقطة تحرك العلم، بينما الغرب يمرّ باشد ازمات ثقافية بعد ان فشل عهد النهضة الكارولنجية. ومن الواضح ان تلك الحركة الثقافية التي وضعت بذورها في بلاط الامبراطور شارلمان لم تكلل بالنجاح. برز في ذلك البلاط المعلمون الايرلنديون مثل «الكوين» و«جون سكوت اريوجين» وبعض المعلمين الاسبان الذين حملوا معهم تعاليم القديس ازيدوروس «اسيدرز» كما يسمّيه العرب، ولسوء الحظ لم تزدهر تلك النهضة الناشئة، فقد اجمع الذين كتبوا عن ذلك العهد: المرجاة منها لم تكن حسب المأمول منها، فقد مرت اوروبة في ذلك العصر

باسوأ حالاتها، وانهكت الحروب العصر الكارولنجي وهدت حيله غزوات الاردمانيين، فزالت الحماسة من المدارس المسيحية الحكومية وبقيت المدارس المطرانية والرهبانية ولا سيّمَا رهبانية البندكتان فانتشرت محتويات ديرهم العلمية في جميع انحاء اوروبة المسيحية، واذا لم ينتثر عقد الثقافة التقليدية، فقد كان على وشك الانتثار. بقيت لنا شخصيات رهبانية مثل «اودون» الذي نقل الثقافة من دير «اورياك» الى رهبانية «كلوني» بفرنسة.

وفي انكلترة لم تكن الحالة افضل فبعد وفاة «الفرد» الاول عام ٩٠١ وقد سمّي مؤسس النثر الانكليزي، وصلت الثقافة الى حالة يرثى لها بحيث انه قلّما وجد واحد من رجال الاكليروس يحسن الكتابة باللغة اللاتينية.

الحالة في المانية احسن بقليل فقد شاءت سلالة «اودون» التي ورثت روح شارلمان ان تظل محافظة على العلاقات مع بيزنطية، وفي الوقت ذاته ارسلت سفارات الى الاندلس.

يقع «الحد الاسباني» بين ينبوعين ثقافيين: اللاتيني الديني او الكارولنجي، والينبوع الثقافي العربي. كيف تكونت هذه الشخصية في القرن التاسع والعاشر؟

ان منطقة «الحد الاسباني» لم تتأثر بالخلافات التي وقعت في آخر عهد الكارنجيين بل ساعد موقعها على التحرر من نيرهم. ونستخلص من هذا ان الثقافة التي وجدت ذاتها مهددة تهديدا مباشرا في فرنسة لم تلاق هذا التهديد في شمالي شرقي اسبانية، بل على العكس تدعمت الثقافة اللاتينية وتقوّت باتصالاتها بروما وخاصة لتأثرها بالثقافة العربية. وما طال الامر ان ادخلت ميزة جديدة على الناحية العلمية فيها من حيث الحساب وعلوم الفلك والتقنولوجية. انها العلوم العربية التي وصلت للمرة الاولى عن طريق «قطالونية» الى اوروبة المسيحية.

فهذا المجهود الثقافي في «الحد الاسباني» مرتبط بدير ربول. انه منارة مضيئة تهدى الى الطريق الثقافي الذي سلكته قطالونية في تلك الاعصر الصاخبة المتخبطة في صراع مادي وروحي.

اسس «قندية برشلونة» «وفرد الاشعر» «Wifredo el velloso» وهو الذي اسس دير «ربول» وقدم ولده راهبا في الدير الجديد وامله ان يصبح المعقل الروحي لامارة برشلونة الناشئة.

يقع في واد مصون في قلب «القندية البرشلونية»، عند سفح جبال «البرتات» «بيرني» على الطريق المؤدية الى فرنسة... وقد اظهر الآباتي «دكينوس» «Daquinus» غيرة شديدة فزوده

بكتب طقسية لا تزيد على بضع عشرات . . . ، ولكن بعضها له قيمة لا تقدر منها كتاب Psalterium argenteum مكتوب كله باحرف فضية وذهبية ، وقد تعرض للحريق عام ١٨٥٣ لمّا احرق دير ربول . اصل هذا الكتاب كارولنجي نسخه الخطاطون في « اكيسغران » . AQUISGRAN وقسم كبير من المخطوطات القديمة الموجودة في دير ربول RIPOLL يرجع الى اصل اسباني قوطي ومستعرب وهو يعكس تأثير المناطق الاسبانية الداخلية حيث يعيش المستعربون وخاصة في طليطلة . وليس من احد يجهل او ينكر تأثير العنصر المستعرب في اسبانية المسيحية خلال القرنين التاسع والعاشر، وان ملوك ليون اسكنوا العناصر المستعربة في الاراضي الواسعة الواقعة في حوض نهر الدويره حيث ازدهرت الاديار مثل دير «ساغون «SAHAGUN» والتأثير المستعرب ظاهر فيها .

ونجد ايضا في « ربول » بين المخطوطات القديمة ما هو مكتوب بالخط القوطي وله طابع عربي اذ ان بعض الحواشي مكتوب باللغة العربية ، وهذا يدل على ان صاحب المخطوط او ناسخه يحسن العربية مثل المخطوط « رقم ٤٩ » الموجود بدير « ربول » وعنوانه «كتاب الاحكام للقديس غريغوريوس »

وهو مكتوب بخط قوطي والناسخ من المستعربين ، ومخطوط آخر يحمل رقم ١٦٨ وهو لبويسيوس في الحساب ، «BOETHIUS DE ARITHMETICA» يرجع الى القرن العاشر وعلى الهوامش تظهر كتابات عربية الى جانب كتابات قوطية . وفي اديرة اخرى شروح لرؤيا القديس يوحنا كتبها القديس «بياتوس ليبيانا» «LIEBANA» وتبين فيها اهمية التيار المستعرب . . .

ولكن التأثير الحقيقي العربي في دير ربول يرجع الى القرن العاشر الممثل في ترجمات لمؤلفات علمية عربية في الحساب وعلوم الفلك . انه تأثير عربي محض وليس مستعربا .

تقوت الحياة العلمية خلال القرن العاشر في دير ربول فازداد عدد المخطوطات فيه لمّا زوده القند «سونيير» «SUNIER» بمجموعة من الكتب وحلى واراضي في محلة « فيلامليك » «VILAMELIC»

وعندما اصبح رئيس هذا الدير مطرانا على ابرشية «جيروندة» عام ٩٥٤ ازدادت ثروة مكتبة الدير بفضل العلاقات بين المطران وروما وجنوبي فرنسة . وعندما كان البناؤون يعملون في ترميم ربول كان الرهبان دائبين على نسخ المخطوطات ذات الطابع الموسوعي والتربوي .

ومنذ ذلك العهد تحتفظ المكتبة بمخطوط ثمين للغاية يحمل رقم ٢٢٥ وهو عبارة عن

مقالات في الحساب وعلم الفلك اكثرها مترجم عن العربية. وسنرجع الى هذا المخطوط.

ان دير ربول منذ تكوينه شعر برغبة تدفعه نحو العلم والمعرفة والتقبل الفكري فالعلم والتقنية الاسكندريان اللذان انتقلا الى الشرق العربي زارا اوروبة للمرة الاولى عن طريق قرطبة واسبانية المسيحية. وفي الايام نفسها عندما كانت قرطبة عاصمة الخلافة الاموية في الغرب تنافس بغداد السائرة نحو الانحطاط، امتلأت كتبا وحكماء على عهد الحكم الثاني المستنصر بنوع خاص وتشكل جو علمي حقيقي. والرهبان النصارى في «الحد الاسباني» «MARCA HISPANICA» اكتشفوا اهمية هذه العلوم الجديدة في قرطبة لم يترددوا في نقلها الى اللاتينية بتعابير غير مألوفة وكلمات غريبة مثل «السمت» و«المقنطرة» و«الصفيحة» و«الدبران» و«النسر الواقع» وغيرها من الكلمات العربية التي دخلت في اللغة اللاتينية.

فجر جديد طلع على الثقافة الرومانية المسيحية، فالشعلة التي كانت تسهر بصمت وسكون بصوامع دير ربول صارت تبث الآن اضواء ساطعة اقبلت من الشرق العربي.

لا يجب ان يثير فينا هذا الحدث الثقافي الدهشة والاستغراب رغم اهميته في تاريخ الثقافة، لا سيّما اذا وضعناه في الجو الاجتماعي والسياسي المهيمن على اسبانيا في القرن العاشر الميلادي. فليس المستعربون الذين هاجروا من الاراضي الاسلامية الى الاراضي المسيحية هم الذين وحدهم مدوا الجسر الثقافي بين قرطبة واوروبة بل ايضا المسيحيون الموجودون في الممالك الشمالية الاسبانية والقطالانيون والاراغونيون والقشتاليون فجميعهم توجهوا الى الاندلس وشاهدوا عظمة وفخامة قرطبة على عهد الخلافة الاموية. فقد تجلت هذه العلاقات الودية وبرز هذا التعايش السلمي باجلى مظاهره في ايام الحكم المستنصر الذي تعشق العلم واستقبل العديد من السفارات القاصدة قرطبة من الممالك المسيحية طالبة السلام.

وصلت ايضا من برشلونة سفارات الى قرطبة، وبينها رجال الدين من مطارنة ورهبان ولا حرج علينا اذا اوردنا بعض النصوص عن ابن حيان في وصف هذه السفارات:

«... في عقب شعبان سنة ٩٧١/٣٦٠ احتل صاحب الشرطة وقائد طرطوشة وكورة بلنسية، هشام بن محمد بن عثمان بمحلة فحص السرادق قادما من عمله ومعه «القومس بون فلي بن سندريط»[(١)]، ثقة بريل بن شنير[(٢)] ومقدمه على حصونه ومهات مدنه بكتابه الى

(١) «انيكو بونفيل سيندريدو» ENNECO BONFIL SINDEREDO

(٢) «بريل، حاكم برشلونة ابن سونيير» BORRELL hijo de SUÑER

الخليفة الحكم مطالعا لخبره معرفا بالذي هو عليه من تصحيح طاعته من التقرب اليه باهدائه اليه ثلاثين اسيرا من اسارى المسلمين جمعهم في قاعدته واطراف عمله من ذكر وانثى ، اذ أُعلِم ان ذلك افضل ما يسر به امير المؤمنين ويبتهج به ويكافئ عليه. ورد الباب في عشرين فارسا من وجوه رجال «بريل» واتباعهم ومعهم رسول «لغيتار القومس» النبيه مقدم الامير بريل على مدينة برشلونة المتقدمة وفادته الى الحضرة بكتابه الى الخليفة في ثلاثة فوارس من اصحابه بكتاب «غيتار» الى الخليفة. تحرك بهم صاحب الشرطة هشام بن محمد بن عثمان يوم الثلاثاء سلخ شعبان. فلمّا انتهى الى جسر قرطبة امر بانزال الاعاجم بمنية نصر، وتقدم هشام الى الزهراء فتوصل الى امير المؤمنين الحكم المستنصر بشأنهم فامر باكرام مثواهم.

فلمّا كان يوم السبت لاربع خلون من شهر رمضان منها قعد لهم الخليفة الحكم على السرير في محراب المجلس الشرقي المنيف على الرياض قعودا فخما كامل الترتيب كافخم ما جرت به العادة في امثاله. وتوصل الوزراء فقعدوا على مراتبهم وحجبه منهم عن ذات اليمين الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن وتحته الوزير صاحب الحشم قاسم محمد بن طملس ، ومن ذات اليسار الوزير صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، وتحته صاحب المدينة بالزهراء محمد بن افلح. وتوجه في رسل «بريل بن شنير» جمهور بن الشيخ في قطيع من الجند ومعه النفر من كبار النصارى بقرطبة المترجمون ، فاقبل وقد قدموا بين ايديهم هدية بريل الى الخليفة الحكم ، وكانت ثلاثين اسيرا من المسلمين بين رجل وامرأة وصبي ، الى احمال ديباج واسلحة اداهم «جمهور» الى مقعدهم بمجالس الجند في قصر الزهراء الى ان استوى جلوس الخليفة ، وخرج الاذن فيهم ، فدخلوا يقدمهم «بون فلي القومس» ومعهم المترجمون عنهم.

فلمّا وصلوا الى باب المجلس الذي السرير فيه خروا سجودا ، الى ان قربوا من يدي الخليفة فقبلوها وناولوا كتاب صاحبهم. فنظر الخليفة فيهم وفاتحهم بالسؤال عن احوال مرسلهم «بريل» صاحبهم وبلده وذكر لهم حسن موقع اهله لديه وانه مكافيه عن ذلك ومجازيه. قالت الرسل ما عنّ لهم فترجم المترجمون عنهم اليه وعنه اليهم ، وانفض المجلس وانقلب بهم «جمهور بن الشيخ» الى منية نصر محلة نزله مشيعا لهم في جيش. وعهد الخليفة برفع الصلات الى الاسرى الذين بعث بهم كيمًا يحتملوا الى اوطانهم. فنفذ ذلك.

ولا شك ان هؤلاء السفراء في هذه المرة وفي سواها استفادوا من وجودهم في قرطبة ووقفوا على الحضارة العربية وحملوا في عودتهم الى بلادهم بعض المخطوطات الحسابية والفلكية والهندسية لكي تساعدهم في تحديد مساحات اراضيهم واراضي الدير.

ولا يدهشنا هذا البزوغ الفكري الذي ظهر باكرا وانطلق بديهيا من ذلك الدير، اذا علمنا ان اسقف جيروندة «غوتمار» سلف «ارنولفو» وضع للخليفة الحكم المستنصر تاريخا لملوك الفرنجة وصل الينا مختصرا في كتاب المسعودي «مروج الذهب». وان اسقفا آخر من جيروندة اسمه «ميرون بونفيل» من اقارب العائلة الحاكمة في برشلونة والمرتبطة ارتباطا وثيقا بدير ربول زار قرطبة يرافق السفارة المبعوثة الى الحكم الثاني كما رأينا.

ان مجرد وصول العلوم اليونانية الشرقية الى مكتبة ربول في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي يكشف لنا المحيط الذي تحرك به الراهب «جربرت» «GERBERT» والذي اصبح فيما بعد بابا باسم سلفستير الثاني. قضى هذا الراهب – البابا ثلاث سنوات في «الحد الاسباني» في ربول و«فيك» مستفيدا من معارف الاسقف «اتون» من «فيك» والاسقف «بونفيل» من جيروندة ومن رجال آخرين مثقفين من «الحد الاسباني» لكي يتعرف على الفنون الحرة لا سيّما الحساب وعلم الفلك والموسيقى على ايدي معلمين اسبان.

يقول المترجم له وهو تلميذه «ريتشير» «RICHER»

«كان جربرت قد بلغ سن الشباب عندما توجه الدوق «بريل» للصلاة في دير «اوريلاك»، فاستقبله الآباتي رئيس الدير احسن استقبال وسأله عمّا اذا كان يوجد في اسبانيا اناس يجيدون الفنون الحرة. فاجابه «بريل» في الحال بالايجاب. فطلب اليه الآباتي ان يستصحب بعض رهبان الدير لاقتباس تلك الفنون الحرة. وقبل الدوق المهمة واخذ معه، بموافقة بقية الرهبان، الراهب «جربرت» ووضعه تحت رعاية «اتون ATTON» اسقف «فيك VICH». فدرس معه «جربرت» علم الحساب. وظلت تلك الاعوام التي قضاها جربرت في الحد الاسباني عالقة في ذهنه ويحن اليها بعدما اصبح معلما في البلاط الجرماني. وقد كتب الى اصدقائه القدامى في قطالونية لكي يزودوه بالكتب والترجمات. وقد عثر له على كتاب موجه الى احدهم اسمه «ليوبيت» يقول له فيه من بعض ما يقول: ارسل لي الكتاب في علم الفلك الذي ترجمته انت.

ولا ندري من هو هذا «ليوبيت» الذي يرد اسمه كثيرا في ذلك العهد، فانه يطلب من المطران «بونفيل» ان يبعث له الى «رينس» في اوائل عام ٩٨٤ كتابًا في الضرب وقسمة الاعداد» «DE MULTIPLICATIONE ET DIVISIONE NUMERORUM» وهو كتاب وضعه العالم «يوسف الاسباني». ولا شك ان يوسف هذا هو مسلم او يهودي مؤلف هذا الكتاب في علم الحساب، المترجم الى اللاتينية.

وهذا يدل على ان علاقات الراهب «جربرت» استمرت قائمة مع «الحد الاسباني». كما ان

المعارف التي استقاها من بعض الاكليروس المثقف في منطقة برشلونة تفسر لنا تأثير الثقافة العربية الاسبانيةفي جربرت ، والدهشة الكبرى التي احدثها هذا الفن الجديد الداخل الى اروبة.

حيكت اساطير عجيبة حول شخصية جربرت ، فقد اشيع عنه انه مكث حقبة طويلة بين العرب في قرطبة واشبيلية وتعلم منهم فنون السحر. غيران الراهب ريشير لا يؤمن بهذه الاقوال ، مع انه امر لا يقبل الريب وهو تسلل الثقافة العربية الى القطاع المسيحي في شبه الجزيرة الابرية في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، ولا سيّمَا عند اولئك الذين تعلم منهم جربرت ، ولا حاجة بنا الى الخوض في البحث عن افتراضات اخرى لتفسير الطابع العربي الذي دخل في حياة الراهب البندكتي «جربرت» ، البابا سلفستر الثاني.

ان اكثرية الترجمات المحفوظة في مخطوط ربول رقم ٢٢٥ تدور حول المسائل المتعلقة بالهندسة وعلم الفلك ، وقد عرفنا اصلها العربي ولكن لم نعرف من هو المترجم.

ظل جربرت على اتصال برهبنة ربول ولا شك انه استفاد من تلك الترجمات عن العربية التي ، بعد عودته الى فرنسة وايطالية ، نشرها بين الدارسين الراغبين في معرفتها وقد ساعدت على امتداد نفوذ وشهرة جربرت في بلاط «اتون» الاول الالماني. ان جربرت هذا مدين بجبريته على كرسي رومة لهذه العلوم الجديدة ذات المصدر العربي مثل الحساب والهندسة وعلم الفلك التي تعلمها في برشلونة.

ويقول عنه تلميذه الراهب «ريشر» : «ان الفتى جربرت ، لمّا كان من الرهبان المبتدئين في رهبنة «القديس مريم في اورياك» من اعمال «اوفرني» «AU VERGNE» سلمه رئيس الدير ، كما اشرنا الى قند برشلونة «رامون بريل» لما زار ذلك الدير ، لكي يتلقن الحساب والموسيقى في احد الاديار في امارة برشلونة حيث ان هذه المواد العلمية متوافرة ولكنها مجهولة تماما في فرنسة ، واستمر جربرت في «الحد الاسباني» ثلاث سنوات ٩٦٧-٩٦٩ مع مطران «فيك» «اتون» يدرس معه بجد ونشاط الفنون الحرة وقد تمكن من الاستفادة من الترجمات اللاتينية لمواضيع عربية في الفلك والحساب موجودة في مكتبة ربول.

وبعد هذه الاعوام الثلاثة التي قضاها جربرت في اسبانية انتقل الى رومة برفقة القند «بريل» والمطران «اتون» ، فقدماه للبابا فانذهل هذا واعجب بمعارف الفتى جربرت فاوصى به الامبراطور «اتون» خيرًا. لم يرجع جربرت الى «الحد الاسباني» ولكنه لم ينس العلاقات الطيبة التي تركها هناك فظل يراسل بعض اصدقائه في «ماركا اسبانيكا» «الحد الاسباني» كما يتبين من رسائله الموجهة الى عدد من الشخصيات الثقافية في قطالونية فيها منهم مؤلفات علمية.

يعتبر جربرت اول سفير لهذا العلم العربي وللتقنية الجديدة في مراقبة النجوم والكواكب ، انه اول اتصال يجري بين العالم العربي الجبار وبين اوروبة الهزيلة علميا ، فقد نشر جربرت هذه العلوم في «رينس» «REIMS» بين تلامذته وهؤلاء بدورهم نقلوها الى مدارس اللورين.

لا يذكر المؤرخ ريشير ما اذا كان جربرت قد توجه الى قرطبة لتحصيل العلم ، لانه اذيع عنه انه تعلم السحر في قرطبة ، فقد صدرت هذه الاشاعة عن «ADHEMAR DE CHABANNES» «ادهمار الشباني» في الثلث الاول من القرن الحادي عشر اذ يقول : بناء على رغبة جربرت في تحصيل العلوم زار اولا فرنسة ثم قرطبة»

«Causa Sophiae primo Franciam, deinde Cordobam lustrans»

وقد شاء «ملياس فليكروسا» ان ينفي عن جربرت تهمة توجهه الى قرطبة فقال ان الفرنسيين والجرمن في ذلك الحين يرون ان اسبانية الحقيقية هي طليطلة وقرطبة حيث الخلافة الاموية ، بينما بقية المناطق الاسبانية لا تعد شيئا . ولذلك فعندما يقول «ادهمار» انه زار قرطبة يعني بذلك انه زار اسبانية الاندلس.

غير ان «منيندس بيدال في كتابه : «اسبانية جسر بين المسيحية والاسلام»

«ESPAÑA ESLABON ENTRE EL CRISTIANISMO Y EL ISLAM»

يقول : «... ومن المعلوم ان مسافرين كثيرين جاءوا من اوروبة قاصدين اسبانية التي تستهويهم بمَا فيها من علوم اسلامية متفوقة تفوقا ملموسا على الحضارة الاوروبية في ذلك العهد . حالات عديدة تبين كيف ان الحضارة الاسلامية – العربية اشرقت على اوروبة.

واول هؤلاء المسافرين هو الراهب جربرت «GERBERT» اورياك (البابا سلفستر الثاني) وعندما نأتي على ذكره ونستشهد به انه اول قادم على اسبانية نصطدم بمعارضة اولئك المناوئين للاسلام كما لو ان الاسلام كابوس يرزح على عقول الكثيرين فيبلبل ادراكها ويخلق الاضطراب في احكامها ... واليوم فان فكرة توجه جربرت الى قرطبة مسألة لا تتعدى حد الاسطورة في نظر البعض وفي نظر البعض الآخر مشكوك بها ...

يقول لنا المؤرخ «ادهمار الشباني» : ان جربرت توجه الى قرطبة لاجل دروسه . ومن المعروف ان ادهمار معاصر لجربرت ومواطن له ، لانه عندما توفي جربرت كان ادهمار قد بلغ الخامسة عشرة من سنه . ان هذه الضمانات المتأتية من معاصر لجربرت لا يمكن انكارها بسهولة ، ولكي ننكرها علينا ان نبرهن انه ليس من المعقول ان يكون جربرت توجه الى قرطبة وهذا امر لا يقدر احد على ان يبرهن عن عدم وقوعه . وعلى العكس لدينا الكثير من الاسباب

التي تؤكد الخبر الذي اعتبره البعض اسطورة. نحن نعرف ان جربرت قام برحلات دراسية عديدة، وانه مكث ثلاثة اعوام في اسبانية كما رأينا، ونعرف ايضا انه توجه بعد ذلك الى رومة ثم الى رينس تحمله رغبته في الدراسة مع احد رجال الاكليروس المشهور بعلمه فاستقر هناك عامين يدرس ويعلم الفلسفة...

ما هي العلوم التي يعثر عليها في اسبانية هذا الراهب الدارس؟ ليس في قطالونية ثقافة تستهوي احدا للقدوم اليها من حيث شهرتها. الشهرة كلها لقرطبة دار العلوم حيث تزدهر المدارس والمكتبات حيث مكتبة الحكم المستنصر تضم مئات الالوف من المخطوطات بينما المكتبات في اسبانية المسيحية لا تضم سوى عشرات المخطوطات.

لم يدخل في حساب من ينكرون قدوم جربرت الى قرطبة ان القند «بريل» «BORELL» الذي عهد اليه امر جربرت هو على اتصال وثيق بقرطبة مثلما كانت بقية الممالك المسيحية في ذلك القرن العاشر الميلادي في شبه الجزيرة الابرية، فقد كانت شبه خاضعة للخلافة الاموية في قرطبة، وبريل هذا وجه الى الخليفة الاموي سفارتين الواحدة عام ٩٧١ والاخرى عام ٩٧٤، وقد اشترك فيهما اعضاء من رجال الاكليروس، ومكثوا عدة اشهر في العاصمة الاندلسية، وانه لامر بعيد الاحتمال الا يكون القند بريل فكّر في ارسال جربرت الى قرطبة عاصمة الامويين في الاندلس.

ومن المعروف ان جربرت هذا (البابا سلفستر الثاني) قد تعرض في القرن الثاني عشر للنميمة والنيل من سمعته، الصقوا به التهمة وهي انه درس الفنون السحرية في اسبانية مع المسلمين في اشبيلية. ولكن هذه الاسطورة المتأخرة في الزمن لم تعرف على عهد «ادهمار الشباني» الذي كتب: ان جربرت توجه الى قرطبة طلبا للحكمة، فالاسطورة صادرة اذا عن الرحلة الى قرطبة وليس العكس.

وعلى كل حال ما دام يستحيل البرهان على ان جربرت، طيلة السنوات الثلاث التي قضاها في اسبانية لم يغادر «فيك» وربول «وبرشلونة» فان رحلته الى قرطبة تبقى ثابتة وصحيحة، ويشهد ادهمار ان قرطبة في القرن العاشر والحادي عشر هي محط رحال طالبي العلم والمعرفة».

هذا ما يقوله «منيندس بيدال» المؤرخ والباحث الكبير، بشأن رحلة جربرت الى قرطبة وهذا هو الرأي الاصح والاقرب الى الصواب والمنطق.

ولمّا غادر جربرت «ماركا اسبانيكا» «الحد الاسباني»، وتوجه الى رومة احيط بهالة من

الاعجاب اذ انه اول سفير لعلوم الحساب والفلك العربية الى اوروبة النصرانية التي ، حتى ذلك التاريخ ، لم تتغذَ الا بكسرات يابسة من مخلفات «كاسيودورس» و«بيدا» و«ازيدورس الاشبيلي» وهي مخلفات هزيلة معدومة تماما من العناصر الحسابية والفلكية وقد اعجب الدارسون بذلك الراهب الفتى القادم اليهم من الاندلس يفسر لهم ما غاب عن علمهم في استعمال الاسطرلاب والجداول الحسابية والفلكية العربية فدهشوا منه وطارت شهرته بسرعة لانه على اتصال بالعلوم العربية والسحر العربي الذي اشيع عن قرطبة.

ومن كل ما تقدم يتبين انه في النصف الاخير من القرن العاشر الميلادي شرعت اسبانية النصرانية تتدرج في معرفة الحساب العربي الممثل في مؤلفات الخوارزمي ومنه اشتقت التسمية الرقم (غوارسمو) «GUARISMO»

بقي علينا ان نطرح هذين السؤالين : هل تعلم جربرت العربية وماذا استفاد من وجوده في اسبانية؟ تصعب الاجابة على السؤال الاول ، فقد ذهب البعض الى انه لم يتوصل الى معرفة اللغة العربية بحجة انه طلب من احد اصدقائه في برشلونة «لوبيتوس» ان يبعث له ترجمة مقالة عن العربية في علم الفلك. غير ان هذه الحجة لا تثبت ان جربرت لا يعرف اللغة العربية ، يفضل الحصول على ترجمة باللغة اللاتينية التي يجيدها طبعا اكثر ممّا يجيد العربية. يبقى اذا هذا السؤال بدون اجابة مقنعة.

اما الاجابة على السؤال الثاني اي ماذا استفاد من اقامته في اسبانية؟

قلنا انه مكث ثلاثة اعوام في برشلونة ومن الواضح انه لم يستطع ان يقف موقف اللامبالي تجاه الحركة العلمية النامية في اسبانية الاسلامية التي هادنت النصارى في ذلك العهد كما رأينا. وكانت قد برزت شخصية علمية في الاندلس اثناء وجود جربرت في امارة برشلونة ، وهذه الشخصية هي مسلمة المجريطي فقد اشتغل في علم الكيمياء والحساب وعلم الفلك وجمع حوله طلبة عديدين اشتهر بينهم ابن الصفار وابن السمح[1].

ولقد اشرنا سابقا الى ان جربرت طلب من «لوبيتوس» صديقه ارسال ترجمة مقالة في علم الفلك ولا شك ان طلبه قد لبي وارسلت المقالة التي خرجت من مدرسة مسلمة المجريطي منقولة عن العربية.

(١) سيمون الحايك : كتاب عروق الذهب في مناجم الروم والعرب ، فصل مسلمة المجريطي.

ولا شك انه وصلت الى اسماع جربرت قبل مجيئه الى اسبانيا انباء وصول سفارة من امبراطور القسطنطينية الى خليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله تحمل له كتاب ديسقوريدس في الحشائش مع صورها.

ولنذكر ايضا وصول سفارة «اوتون» الى قرطبة عام ٩٥٦ على عهد الناصر لدين الله والسفير هو «يوحنا غورزي» «GORZE» ونعلم ايضا ان الملك شانجه السمين الذي خلعه رعاياه لانه لا يستطيع ركوب الخيل نظرا لسمنه، جاء الى قرطبة بصحبة جدته طوطة ملكة نبارة وشفاه اطباء عبد الرحمن الناصر من سمنته واستعاد ملكه بفضل الجيش الذي ارسله معه خليفة قرطبة... وبناء على ذلك فلا يصح قول القائل ان هوة سحيقة تفصل بين المسلمين والنصارى في الاندلس وفي القرن العاشر هذا ترجم يوحنا اسقف اشبيلية الكتاب المقدس الى العربية ليستفيد منه النصارى الموجودون في المناطق الاسلامية.

وعرفنا ايضا ان جربرت طلب مقالة في الضرب والقسمة الّفه في اسبانية المدعو «يوسف» والبعض يظن انه مسلم والبعض الآخر يهودي او مسيحي من منطقة برشلونة ومهما كانت الطائفة التي ينتسب اليها المؤلف فان الكتاب صادر عن المدرسة العربية للحساب وقد اجتاز جبال البرتات لان جربرت طلبه من «اورياك» «Aurillac»

ويقول لوسيان لكليرك: «اذا نقصتنا المعلومات بشأن اقامة جربرت في برشلونة واذا لم يظهر لنا برهان على انه تردد الى المدارس العربية وتعلم هذه اللغة، واذا حق لنا ان ندرج في عداد الاساطير الروايات الخيالية الملفقة التي خلقتها مخيلة «فينسان دي بوفي»، فنحن على الاقل واثقون ان البابا سلفستير الثاني قد طلب كتابين من اصل اسباني عربي: كتاب في الحساب وكتاب آخر في علم الفلك. فهذا يدل دلالة واضحة على ان جربرت مطلع على احوال العلوم في الاندلس، وانه استفاد من اقامته في برشلونة واستهل هذه السلسلة من علماء الغرب الذين استفادوا من الثقافة العربية في الاندلس. الا نقدر ان نسترسل اكثر فاكثر في تأويلاتنا فنقول ان مسلمة المجريطي اشتغل في علم الكيمياء وان جربرت مارس هذه الصنعة الا يمكن القول ان جربرت اطلع ايضا على مؤلفات «مسلمة» في علم الفلك وعندما اعتلى كرسي الاسقفية في رينس REIMS ثم «رافن» «Ravenne» ثم الكرسي البابوي اضطر الى محو اثر الذكريات التي تورطه في الدواهي؟، والروايات والقصص التي كتبها «فينسان دي بوفي» «V. De BEAUVAIS» ليست سوى هذه الذكريات المحرفة والمجسمة بواسطة المخيلة»[1].

(١) Histoire de la Médecine arabe, Tome II, Paris, Ernest LEROUX, 1876 page 349-353.

المخطوط رقم ٢٢٥

درس هذا المخطوط درسا مطولا الباحث الاسباني «ميلياس فلييكروسا» ونحن نقتطف من هذه الدراسات الطويلة المعلومات التالية :

يبتدئ هذا المخطوط بالكلام عن الصفات الخاصة بعلم النجوم والكواكب. ثم يتحدث عن سير الكواكب ويذكر النظريات بهذا الشأن، فيما اذا كان كل كوكب له فلك خاص به او فلك واحد لجميع الكواكب. ويقسم الابراج الاثني عشر حسب المناخات والعناصر الاربعة، فاذا كان مصير الناس مرتبطا بصفات الابراج فهذه بدورها مرتبطة بالعناصر الاربعة وعلامات الاستشراق.. ويحتوي على رسوم تشير الى ٢٧ بيتا للقمر مذكورة باسمائها العربية بلفظ عربي عامي اسباني وقد يكون هذا التأليف مأخوذ عن الكندي في كتابه عن (الامطار والغيوم والرياح) «De pluviis, imbribus et ventis»

ثم تأتي رسالة «ارغفلوس» «Argafalus» الى الاسكندر وهي من اصل شرقي وصلت عن طريق العرب. انتشرت بسرعة الترجمات اللاتينية عن العربية الموجودة في دير ربول في اوروبة بسبب العلاقات الوثيقة بين الاديرة في القرون الوسطى وجربرت نفسه ساعد على هذا النشر المبكر، فلا نعجب اذا وجدنا في المكتبات الاوروبية الكبرى مثل مكتبة الفاتيكان والمكتبة الـوطنية بباريس ومكتبة المتحف البريطاني مخطوطات من القرن الحادي عشر، وقفنا عليها سابقا في دير ربول. «RIPOLL»

هذا الدير الواقع في سفح جبال البرتات يضم مكتبة قيّمة يعثر فيها على مجموعة من الترجمات العلمية منقولة عن العربية الى اللاتينية في اواسط القرن العاشر. وقد وصلت هذه الترجمات الينا في مخطوط يحمل رقم ٢٢٥ محفوظ بين مخطوطات تاج اراغون، يرجع الى القرن العاشر يدل عليه الحرف الكارولنجي، وهو مجموعة من البحوث في العلوم الطبيعية والحساب والهندسة وعلم الفلك مرتب حسب اصول تعليم تلامذة الدير. قسم كبير من مقالات هذا المخطوط منقولة عن العربية الى اللاتينية. انه يسبق مائة سنة الترجمات من العربية الى اللاتينية في طليطلة. وتتضمن هذه الترجمات كلمات عربية مكتوبة كما تلفظ باللهجة العربية الاسبانية.

وهذا جدول الترجمات العربية التي تظهر في هذا المخطوط رقم ٢٢٥ في ربول مستعملين الترقيم الذي وضعه بولبون في كتابه : «Gerberti opera mathematica, Berlin, 1899»

١ – في قياس الاسطرلاب «De mensura astrolabii»

له مقدمة ومكتوب باسلوب شيّق وهو ترجمة مباشرة عن نص عربي وقد يكون هذا النص يشكل القسم الاول من كتاب «ما شاء الله» في صنع الاسطرلاب ، من ورقة رقم ١ الى ١٠ .

٢ – منافع الاسطرلاب «De utilitatibus astrolabii»

نسبه بعضهم الى جربرت نفسه وهو نص موضوع باسلوب معتنى به ، انه ترجمة مباشرة عن العربية وقد تكون القسم الثاني من تأليف «ما شاء الله» حول العمل بالاسطرلاب .

٣ – هندسة مجهولة المؤلف : «Geometria incerti auctoris»

لا يوجد سوى فصول قليلة من هذه الهندسة الخاصة وهي مكتوبة باسلوب سهل ، مترجمة بدون ريب عن مخطوط عربي يبحث في العمل بالاسطرلاب ومنافعه .. من صفحة ٢٠ الى ٢٣ .

٤ – في قياس الاسطرلاب «De mensura Astrolapsus»

انه فصل قصير لا يبلغ صفحتين (٢٣) من ترجمة مباشرة عن العربية تطابق «كتاب ما شاء الله» في صنع الاسطرلاب .

٥ – احكام الاسطرلاب : «Astrolabii sententiae»

فصل قصير ايضا يبحث في استخدام الاسطرلاب

٦ – «اسماء اجزاء الاسطرلاب» «De nominibus laborum in ipsa tabula»

من صفحة ٢٥ الى ٣٠ قفا . وكما اسمه يدل عليه فهو توضيح كلمات اجزاء الاسطرلاب سهل الاسلوب قد يكون مأخوذا عن الفصل الاول من القسم الثاني من كتاب «ما شاء الله» حول استخدام الاسطرلاب .

٧ – توضيح عمليات الاسطرلاب «Capitula horlogii Regis Ptolomei»

من ورقة ٣٠ الى ٣٥ ، وهو نص مبتور في هذا المخطوط . اسلوبه سهل جدا شأن كل نص مترجم مباشرة عن العربية .

٨– في تركيب الاسطرلاب : «De astrolabii compositione»

من صفحة ٦٥ الى ٨٤ يصف الاسطرلاب اكثر مما يوضحه .

٩ – وصف آلة على شكل ساعة :

من ورقة ٨٧ الى ٩٣ ، نص مبتور وليس من المؤكد ان اصله عربي .

١٠ – وصف ساعة شمسية (ورقة ٩٤–٩٧) «Descripción de un gnomon»

«De divisione igitur climatum quae fit per Almucantarah»

١١ – تقسيم المناخات

نص ابتر من ورقة ٩٨ الى ١٠٢.

تلك هي محتويات المخطوط الشهير رقم ٢٢٥ الموجود حاليا بين محفوظات تارج اراغون ويرجع الى النصف الثاني من القرن العاشر وقد تبين انه نقل عن العربية دون معرفة اسم الناقل في تلك الحقبة المتقدمة من القرون الوسطى لمّا لم تكن الترجمة عن العربية قد بدأت في الغرب ، اذ ان الترجمات سواء كان في صقلية او سلرنه او طليطلة او غيرها من المدن الاسبانية لم تبدأ قبل منتصف القرن الحادي عشر، بينما هذه الترجمة المبكرة ترجع الى منتصف القرن العاشر اي سبقت الترجمات الاخرى قرنا كاملا.

Latitudo.	Altitudo.	Casae.	Stelle.
xxiiii.	lxv.	Libra.	Alramech.
xvi.	lxvi.	Scorpius	Alfecat.
xxiiii.	lvii.	Sagittarii	Alhawi.
xviii.	liiii.	Capcorni.	Altair.
xxv.	lviiii.	Capcorni	Delfin.
xx.	lxv.	Aquarii.	Alferat.
xxii.	lxxiii.	Taurus.	Alhcadib.
xxviiii	lxx. I. ncd	Capcorni	Alrif.
i.	lxxii.	Capcorni.	Wega.
xviii.	lxxiiii.	Libra.	Behenib.
xxv.	xiiii.	Scorpius.	Calbagrab.
viii.	xli.	Libra.	Alcimec.
xviii.	xli.	Virgo.	Algvrab.
	xxxii.	Cancer.	Alhabor.

Latitudo.	Altitudo.	Casae.	Stelle.
viii.	xxxviii.	Gemini.	Rigel.
xx.	xxxvi.	Aries.	Panlanoaitot.
xx.	xxxv.	Pisces.	Denebgait.
vii.	xviiii.	Aquarius.	Denebalig.
xxvii.	xli. I. ncd	Taurus.	Aldevaran.
xviii	lv.	Gemini.	Malgevze.
xi.	lvi	Cancer.	Algoize.
vi.	lii.	Leo.	Aldiraian.
xviiii.	xli.	Leo.	Calbalaze.
x.	lxxii.	Taurus.	Algol.
iii.	lxxiiii.	Gemini.	Alhaioc.
xviiii.	lxv.	Leo.	Arrucaba.
xxvi.	lxvii.	Cancer.	Egreget.

جدول بالكواكب باسماء عربية ولاتينية كما يظهر في المخطوط رقم ٢٢٥ من ربول والموجود حاليا في محفوظات تاج اراغون (ورقة ٩ – ١٠)

جدول بالاقاليم السبعة مكتوب باللاتينية والعربية موجود في المكتبة الوطنية بباريس مخطوط لاتيني رقم ١١٢٤٨ (ورقة ١٨ — ١٩)

مكتبة «ربول»

تعتبر من اغنى المكاتب في اسبانية المسيحية حتى القرن العاشر في عام ٩٥٧ لم تكن تضم اكثر من ٥٣ مخطوطا اكثرها نصوص من التوراة، ومخطوطات طقسية دينية مع بعض مؤلفات لآباء الكنيسة، ولا تحتوي على كتاب واحد صالح لدراسة الفنون الحرة.

وفي عام ١٠٤٦ سجلت المكتبة ١٩٢ مخطوطا فيها الكثير من مؤلفات آباء الكنيسة، بالاضافة الى ٤٦ مخطوطة لتعليم الفنون الحرة[١]. وبينها كتب باليونانية من «فورفوريوس» ومخطوطات من «الايساغوجي» باللاتينية وكتاب «المقولات» و«بارارمينيناس» لارسطو

(١) Bonilla y Sanmartin: Historia de la Filos. española. I. Madrid, 1908 p. 247 Nota 3.

وشرح «بويسيوس» على نصوص لارسطو. وقد حصلت على هذه المجموعة التي لم تتوافر لديها قبل مائة سنة، بعد قدوم جربرت الى اسبانية عام ٩٧٧.

ومع ان دير ربول اخذ يفقد اهميته في القرن الحادي عشر لمّا ظهرت المنافسة بين «امارة برشلونة» و«مملكة اراغون»، فقد ظلت المكتبة مزدهرة وتزايد عدد المخطوطات فيها.

وفي القرن الثالث عشر وصلت الى هذه المكتبة مؤلفات طبية جيء بها من «سلرنه» في جنوبي ايطالية، ومؤلفات في القانون جاءت من «بولونية» الايطالية، ومؤلفات لاهوتية جاءت من عدة نواحي من ايطالية وكتاب: «Liber sententiarum» لمؤلفه «بدره لمبرده» Pedro Lombardo مع شروح القديس بونافنتورا «على الفصلين الثاني والثالث، دخلت الى المكتبة في تموز ١٢٣٨ وكتاب «النفس» للقديس توما الاكويني».

وجاء القرن الرابع عشر فدخل هذه المكتبة عدد كبير من المؤلفات الفلسفية واللاهوتية منها «الخلاصة اللاهوتية» و«الايمان الكاثوليكي» «لتوما الاكويني»، والشروح على «كتاب «Sentencias» احكام» لواضعها «ريكاردو ميديافيلا» و«جون دونز سكوت» وتعليق القديس توما الاكويني على كتاب ارسطو «في النفس»، بصرف النظر عن العدد الكبير من المؤلفات الفلسفية التطبيقية. وقد حصلت المكتبة في هذا القرن على مجموعة ممتازة من النصوص المدرسية في المنطق والفلسفة، ومنها كتاب الخلاصة الصغيرة «لبطرس الاسباني كما سنشير اليه في وقته، وشرح مفصل لها، ومؤلفات اخرى عديدة...

ولكي نكوّن فكرة واضحة عن ثورة «ربول» في المخطوطات تكفي الاشارة الى اي دير اسباني ازدهر في ذلك العصر. مثلا دير القديس «عبد الاحد» في «سيلوس» لم يكن يضم في القرن الثالث عشر اكثر من ١٠٥ مخطوطات في مكتبته وهي عبارة عن مؤلفات آباء الكنيسة امثال القديس اسيدرز الاشبيلي، ومقالة ضد اليهود للقديس ذاته ومؤلف آخر للقديس «ليندره» «LEANDRO» الاشبيلي ايضا، ومحاورات «القديس غريغوريوس». اما من الكتب العلمانية فيتراوح عدد المخطوطات بين ٤٥ و٥٠ مخطوطا، وهو رقم مرتفع بالنسبة الى ذلك العصر منها مؤلفات لارسطو وبويسيوس وغيرهما...

دير سان سلفادور في «اونية» «OÑA» كان يضم في القرن الثاني عشر ١٣٢ مخطوطة ولكنها فقيرة للغاية لاهوتيا وفلسفيا وعلميا فليس فيها مخطوط واحد في علم «المنطق» وهذا يحملنا على الظن ان علوم الفلسفة في ذلك الدير وضواحيه لم تدرس قبل القرن الثالث عشر.

كان اشعاع مكتبة ربول الثقافي في قطالونية عظيما جدا ومن مظاهره تأسيس دير للقديسة مريم في جبال «مونسرات» من قبل رهبنة «ربول» في القرن الحادي عشر، فاكتسب الدير الجديد من جراء هذا التأسيس ٢٥ مخطوطا بعثها رئيس دير ربول الى فرعه الناشئ. ورغم هذا العدد الضئيل فلم يخل من مؤلفات القديس غريغوريوس والقديس اغسطينوس، والمحترم «بيدا» وكتب في المنطق من «فورفوريوس» و«بويسيوس» و«ارسطوطاليس».

اعتبرت مكتبة طليطلة من اهمّ المكتبات في القرون الوسطى. الا ان اكثرية الكتب الموجودة فيها جاءت هدية من المطران «بدره تنريه» «Pedro Tenorio» في القرن الرابع عشر. اما المخطوطات السابقة لهذا العهد فهي من مؤلفات آباء الكنيسة وكتب الغرامطيق ونصوص كلاسيكية لتعليم اللغة اللاتينية، وبنوع خاص ترجمات عن مؤلفات عربية من مدرسة الترجمات في طليطلة في عهديها الاول والثاني، كما سنرى وهي مخطوطات لاتينية منقولة عن العربية لبطليموس وارسطوطاليس واقليدس.

تلك هي المكتبات المشهورة في القرون الوسطى المتأخرة اي بعد القرن العاشر اذ انه قبل القرن العاشر لم يكن لها وجود. فاذا قابلناها جميعها بمكتبة عربية واحدة في القرن العاشر، مكتبة الحكم الثاني المستنصر في قرطبة، لوجدنا المقابلة غير متكافئة اطلاقا وبالتالي لا تسمى مقابلة.

عندنا معلومات وافية عن مكتبة الحكم المستنصر في كتابي «صبح البشكنسية»، يمكن الرجوع اليه وقد يشق على القارئ الكريم الرجوع الى هذا الكتاب فنذكرها ببعض الايجاز:

«كانت المكتبة الاموية اعظم مكتبة بقرطبة ونعرف ان عبد الرحمن الناصر شغف بالكتب. ودرى قيصر القسطنطينية بشغفه فاهداه كتابين من ذخائر الاقدمين هما: «كتاب» ديسقوردس في الاعشاب وتاريخ اوروسيوس».

وعنى ولده الحكم الثاني في حياة ابيه بجمع مكتبات القصر وتنظيمها لتكون بداية طيبة للمكتبة الاموية العظيمة.

ويقول ابن حيان: «انه لم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم المستنصر في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها. افاد على العلم ونوه باهله ورغب الناس في طلبه ووصلت عطاياه وصلاته الى الفقهاء في الامصار النائية... وكان الحكم يبعث الى كبار علماء المسلمين من كل قطر بالصلات الجزيلة للحصول على النسخ الاولى من مؤلفاتهم ومن ذلك انه بعث الى ابي

الفرج الاصبهاني الف دينار من الذهب العين ليحصل منه على نسخة من كتابه «رنات المثالث والمثاني في روايات الاغاني» ، فارسل اليه نسخة حسنة منقحة قبل ان يحصل عليها احد في العراق او ينسخه احد منهم . وارسل اليه ابو الفرج الاصبهاني ايضا ، وهو ممن ينتمون الى المروانية كتابا الفه في انساب قومه بني امية يشيد فيهم بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة . وفعل الحكم مثل ذلك مع القاضي ابي بكر الابري المالكي اذ بعث اليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الاولى من شرحه «لمختصر ابن عبد الحكيم...»

وكان للحكم المستنصر طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ولا سيّمَا في بغداد والقاهرة ودمشق ينقبون له عن الكتب ويحصلون منها على النادر ، كما كانت في بلاده طائفة اخرى من البارعين في نسخ الكتب وتحقيقها وتجليدها وتصنيفها . واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ما لم يجتمع لاحد قبله . ولمّا ضاقت ابهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد الضخم من الكتب الواردة اليه باستمرار انشأ على مقربة من القصر صرحا خاصا بالمكتبة اعتنى المهندسون في ترتيبه وتنسيقه وانارة ابهائه.

قال ابن حزم : «ملأ الاندلس بجميع كتب العلوم»...

وذكر أن تليدا الفتى ، وكان على خزانة العلوم بقصر امية بالاندلس ، اخبره ان عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط .

وعهد الحكم بعد ان تولى الخلافة ، بادارة المكتبة الى اخيه عبد العزيز ، وعهد بالاشراف على جامعة قرطبة واساتذتها الى اخيه المنذر.

وشغف النساء والمثقفات كذلك بجمع الكتب وانشاء المكتبات . ومن اشهرهن عائشة بنت احمد بن قادم ، وكانت من ابرع نساء عصرها علما وادبا وشعرا . وكانت خزانة كتبها من اغنى واقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب في قرطبة من اشهر الاسواق واحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف بالكتب واقتنائها الى النصارى واليهود انفسهم.

اما جامعة قرطبة فقد كانت يومئذ من اشهر الجامعات في العالم . وكان مركزها في المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم . وكان يدرس الحديث ابو بكر معاوية القرشي ، ويملي ابو علي القالي ، ضيف الاندلس ، دروسه عن العرب قبل الاسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وامثالهم . وكان ابن القوطية يدرس النحو. وكان يدرس باقي العلوم اساتذة من اعلام العصر. وكان الطلبة يعدون بالآلاف.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير محتويات المكتبة الاموية العظيمة التي انشأها الحكم المستنصر، فقدرها بعضهم باربعمائة الف مجلد، وقدرها البعض الآخر بستمائة الف، وانهم لمّا نقلوها اقاموا ستة اشهر في النقل.

لم يصل الينا من هذه المكتبة الضخمة سوى مخطوط واحد كتبت عليه ملاحظات الحكم المستنصر، فهذا كان يقضي الساعات الطويلة في المكتبة يطالع المخطوطات ويكتب عليها الملاحظات.

الراهب هرمان «المقفع» «Hermann Contractus»

في جزيرة معزولة تقع في بحيرة «كنستانزا» «Constanza» دير St. GAL اسمه «ريشنو» RICHENEAU في النصف الاول من القرن الحادي عشر يعيش فيه راهب اسمه «هرمان المقفع» «HERMANN CONTRACTUS» لقب بالشعراني، عرف عنه انه الف كتابا في «الاسطرلاب واستخدامه.

سمي هذا الراهب «المقفع» بسبب مرض اصابه كالمرض الذي اصاب والد عبدالله بن المقفع صاحب كتاب كليلة ودمنة.

ولد هذا الراهب عام ١٠١٣ وتوفي عام ١٠٥٤، شغف بالدرس وانخرط في سلك رهبانية البندكتان لكي تتاح له الفرصة للانصراف اكثر فاكثر الى الدرس. حل في دير «سان غال» ثم دير «ريشنو». نظم الشعر والف في الموسيقى والهندسة وعلم الفلك. ينسبون اليه نظم نشيد Salve Regina «السلام عليك يا سلطانة السموات والارض...» يقصد بها مريم العذراء.

نسب اليه كما اشرنا، كتاب «صنع الاسطرلاب والعمل به». يقول لكليرك عن هذا الكتاب انه اثار مناقشات عديدة ولم تقل الكلمة الاخيرة فيه. وسواء كان مترجما او مقتبسا فان التقنية فيه عربية محضة. وقد تسوئل فيمَا اذا كان هرمان يعرف اللغة العربية، وقد حكمت عليه عاهته بالعزلة في الدير، وحالت بينه وبين سفره الى الاندلس قدوة بغيره من علماء عصره قصدوا الاندلس وافادوا واستفادوا ولكن استفادوا اكثر ممّا افادوا بكثير.

هذا ما يقوله «لكليرك» في منتصف القرن الماضي، في كتابه «تاريخ الطب العربي». اما اليوم فقد توصل الباحثون الى حل هذا اللغز ومنهم بنوع خاص «ملياس فلييكروسا»، في كتابه: «دراسات جديدة في تاريخ العلم الاسباني».

فيقول «ملياس» ان هذا الكتاب الذي نسب الى هرمان المقفع والى جربرت ليس هو من تأليف هرمان المقفع ولا جربرت، فقد عثر عليه في المخطوط رقم ٢٢٥ الموجود في مكتبة «ربول». ومقالة العمل بالاسطرلاب هي ايضا موجودة في المخطوط ذاته والنص اللاتيني مأخوذ عن نص عربي لا مجال للريب فيه.

هذا ما يقول «ملياس» كما اشرنا الى ذلك. فيكون ان الراهب «هرمان المقفع» قد وصلت الى يده نسخة من هذا المخطوط الموجود في ربول فاخذ عنها نسخة اوضح واصح من حيث التعبير اللاتيني، وليس من الصعب عليه الوصول الى المخطوط في دير ربول لان هذا الدير ينتسب ايضا الى رهبانية البندكتان وهي الرهبانية نفسها التي ينتسب اليها هرمان المقفع.

وكما نرى فان هذه القضية التي شغلت بال «لكليرك» و«جوردين» بنوع خاص قبله بقليل[١] قد حلّت نهائيا.

(١) Millas Vallicrosa: Nuevos Estudios sobre Historia de la Ciencia Española. Barcelona 1960.

الفصل الثالث

مدرسة الترجمات في طليطلة

الحقبة الاولى :

طليطلة عاصمة مملكة القوط القديمة ، استولى عليها طارق بن زياد ، وهي مدينة حصينة على ضفة نهر «التاجه» «TAJO» ولها قصبة حصينة في غاية المنعة.

وكان المأمون يحيى بن ذي النون قد بنى بها قصرا تانق في بنائه وانفق فيه اموالا كبيرة وضع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسيق الماء الى راس القبة على تدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض. فكانت القبة في غلالة من الماء سكب بدون فتور ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل.

فبينمّا هو ذات يوم فيها اذ سمع منشدا ينشد :

«اتبني بناء الخالدين وإنما بقاؤك فيها لو علمت قصير
لقد كان في ظل الاراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل.

وبالواقع لم يطل اجله بعد ذلك فقد توفي عام ١٠٧٥ م. وبويع لحفيده القادر بالله. واستبشر الناس بمبايعة القادر فعلقوا عليه الآمال الواسعة ، ولكن خاب ظنهم به بخبر طويل لا حاجة لذكره هنا بل يمكن مراجعته في كتاب السيد عنترة الاسبان»[(١)] .

... وفغر الادفونس (الفونسه السادس) فمه على ثغور طليطلة فجعل يطويها طي الرداء وابن ذي النون يلقمه افلاذ كبده والادفونس يطالبه برد الامس.

---

(١) سيمون الحايك : «السيد عنترة الاسبان» صفحة ١٠٠ وما بعدها.

وكم رام اهل طليطلة قتل القادر بعدما شاهدوه يدعو الادفونس ويمشي بين يديه ويمالئه ويطلب نصرته عليهم هم ابناء جلدته ورعاياه.

وفي خبر طويل ايضا دخلت طليطلة في حكم الادفونس عام ١٠٨٥ وراح شعراء العرب يرثونها فقال احدهم:

«يا اهل اندلس شدوا رحالكم فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من اطرافه وارى سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في السفط؟»

ولم يتمكن العرب من استعادة هذه المدينة الحصينة رغم الانتصار الساحق الذي احرزته جيوش المرابطين على الادفونس في العام التالي لسقوط المدينة (١٠٨٦) في معركة «الزلاقة» حيث أبيد جيش الادفونس عن بكرة ابيه.

وما لبثت هذه المدينة أن تحولت الى نقطة انتقال الثقافة العربية اليها فأقبل عليها العلماء من اوروبة المسيحية ينهلون منها العلوم بدل التوجه الى قرطبة عاصمة الخلافة الاموية سابقا واكبر مركز علمي في الاندلس.

تميزت طليطلة بمكتباتها الكبيرة بمَا فيها من الكتب العربية، فملوكها العرب السابقون شغفهم جمع الكتب فجاءوا بها من جميع الاقطار الاندلسية حتى أن مكتبة الحكم المستنصر الشهيرة في قرطبة التي كانت تضم ما يزيد على ٤٠٠٠٠٠ مخطوط انتقل قسم كبير منها الى طليطلة بعد أن توارى ظل الخلافة عن قرطبة وتدمرت مدينة «الزهراء» التي بناها عبد الرحمن الناصر، ومدينة «الزاهرة» التي بناها المنصور بن ابي عامر.

لقد تمكنت طليطلة، نظرا لكونها مستودعة الكنوز العلمية العربية، أن تغني بها الغرب المسيحي. كما تميزت بأنها جمعت في تعايش سلمي ثلاثة شعوب: المسيحي والمسلم واليهودي.

اطل عهد جديد على طليطلة بدراسة لاتينية عربية على عهد رئيس اساقفة المدينة «ريموندو» ١١٢٦ – ١١٥٢، فإن رئيس الاساقفة هذا لم يعتن شخصيا بدراسة اللغة العربية غير أنه شجّع على دراستها ومعرفة آدابها بقوة ظروف الساعة. والاساقفة الذين توالوا على كرسي طليطلة حذوا حذوه بحيث أن هذه المدينة احتلت طيلة قرن ونيف المركز الدائم بين الكاتدرائيات الاوروبية، في هذا العصر الذي اخذت فيه مدارس الاسقفيات تزدهر في اوروبة.

ولقد انكر البعض على مدرسة الترجمات بطليطلة هذه التسمية. ولكن لا بد من التمييز: اذا

فهمنا بالمدرسة : مجموعة منظمة من المعلمين والطلاب والقاعات والحجاب ، فليس في طليطلة مدرسة وليس من احد يفكر بمدرسة على هذا النوع . غير أنه وجدت في طليطلة مدرسة كانت على شكل دراسات متواصلة في مكان واحد وفي المكتبات نفسها وبطرق واساليب واحدة ، والحقل واحد هو حقل العلوم العربية .

والآن ، ماذا تتضمن هذه النصوص العربية الجديدة المكوّمة في طليطلة ما لا تتضمنه النصوص اللاتينية؟

إن هذه النصوص ، قبل كل شيء ، تتضمن معارف المفكرين اليونانيين. لقد كانت العلوم في رومة مرتبطة بالعلوم اليونانية ، ولكن عندما تشيدت على انقاض الامبراطورية الرومانية الغربية الممالك الجرمانية حصل انحطاط تميز بالعزلة الفكرية بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية الشرقية . فقد اقتصر كل ما عند الغرب من علوم ومعرفة على بعض الملخصات الموسوعية ظهرت بطابع يختلف حسب اختلاف البلدان التي ظهرت فيها : اولا في القرن الخامس في افريقية الرومانية التي استولى عليها الفندال «الاندلسيون» وكلمة اندلسة مشتقة من «فاندالوس» . ثم في القرن السادس بايطالية التي استولى عليها القوط وظهر «بويسيوس» ثم في القرن السابع اطل في اسبانيا القديس ازيدوروس. ثم في القرن الثامن لمع نجم «بيدا» المحترم في انكلترة.

هؤلاء هم المعلمون الوحيدون الذين وجهوا العلم في القرون الوسطى المتقدمة فكان انتاجهم الفكري محدودا جدا وناقصا كل النقص ، لأنه منذ اجيال عديدة انقطع ذلك الخيط الذي ربط هذه المناطق الجغرافية بالعالم اليوناني .

فلما تمكن النصارى في طليطلة من الاطلاع في الكتب العربية على مؤلفات بطليموس وارسطوطاليس واقليدس وغيرهم انكشف اتساع آفاق هذه المعارف لا سيمّا وان المؤلفات اليونانية وصلت الى ايديهم مشروحة ومعلق عليها ومضاف اليها معارف جديدة اكتسبها العرب ثمرة الازدهار الكبير الذي شهدته الثقافة الاسلامية في العصر العباسي بنوع خاص ونتيجة الاتصال الاسلامي بالعالم الهندي حيث أن العلوم والآداب بلغت شأوا بعيدا ، كانت مجهولة تماما في الامبراطورية الرومانية القديمة .

يأسف الباحث الاسباني «منيندس بيلايو» «Menendez Pelayo» أن يكون مكتشف مدرسة طليطلة للترجمة اجنبيا ، هو «جوردن» الذي نشر عن مدرسة الترجمة هذه في كتاب طُبع بباريس سنة ١٨٤٣ ، ويرى أن تاريخ الثقافة الاسبانية قلما شهد حقبة مثل تلك العصور

الوسطى لما اخذت العلوم العربية تنتشر من طليطلة وترسل انوارها الى فرنسة وتخلق اضطرابا وصراعا طويلا بين المدرسيين، أدّى اخيرا الى نشوء المذهب الرشدي. ولكن قبل ابن رشد ظهرت باللغة اللاتينية بفضل المترجمين في طليطلة مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن جبيرول فقد انبثق من كتاب هذا الاخير «ينبوع الحياة» مذهب الحلولية عند «املريكو» «Amalrico» الذي يمكن أن نخلطه بابن رشد (١).

ويقول في المصدر نفسه أن الفضل يرجع لاسبانية لأنها ابرزت كل ما هو حسن وسليم في الثقافة العربية كما ترجع اليها المسؤولية في ذيوع مذهب الحلولية فيها. على يدى فيلسوفين كبيرين في ذلك العصر هما «غندسلبه ويوحنا الاسباني» فإنهما مرقا على غير وعي منهما.

ويواصل منيندس بيلايو كلامه قائلا: «بدا التاثير السامي يظهر بعد احتلال طليطلة بقليل ووصل الى الذروة على عهد الامبراطور الفونسه السابع المتوفي عام ١١٥٧ الذي استقبل العلماء اليهود المطرودين من الاندلس بموجب مرسوم صدر عن عبد المؤمن خليفة الموحدين، ومنذ ذلك الحين تمركزوا في طليطلة وجلبوا معهم المدارس القديمة التي ازدهرت في قرطبة ولوسينة. «LUCENA».

والفضل الاكبر في صيانة العلوم والعلماء وتنشيطهم وادخال النصوص العربية في الدراسات الغربية يرجع الى «ريمونده» رئيس اساقفة طليطلة وهو غير اسباني ايضا.

حتى عصر ريمونده لم يفكر احد بترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية فاستعان بمترجمين «دومنقه غندسلبه» ويوحنا الاسباني اللذين ذكرناهما آنفا.

الاسقف ريمونده

المعلومات عن هذا الاسقف نادرة، تولى كرسي طليطلة اي رئاسة الكنيسة الاسبانية، وهو ثاني اسقف على طليطلة منذ احتلالها او استرجاعها عام ١٠٨٥ من ايدي العرب.. ذكر عنه انه شجع ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ولكن لم يهتم احد بوضع نبذة عن حياته.

كل ما يعرف عنه في اواخر القرن الثامن عشر ان اسمه مسجل على لائحة اساقفة طليطلة عندما درس الباحث الفرنسي جوردن في القرن الماضي الترجمات اللاتينية لارسطو عثر على ادلة

(١) Historia de los Heterodoxos españoles, Tomo I. BAC pp. 426-428.

تثبت تدخل المطران ريموندو في ترجمات غندسلبه ويوحنا الاسباني. وكما لم يتوصل جوردن Jourdain الى نتيجة حاسمة في التعريف عن المترجمين المذكورين فانه لم يوفق اكثر في بحوثه عن حياة المطران ريموندو، فقد اكتفى بنقل ما قاله «فرنسيسكو البيسي» «Francisco de Pisa» اذ جعل من المطران ريموندو رئيس اساقفة طليطلة ورئيس الكنيسة في اسبانية. يفترض انه ولد في «اجين» «AGEN» ؟ ودخل رهبانية القس «بنيتو» وهو واحد من الرهبان الذين جاء بهم الآباتي «برنرده» من فرنسية الى اسبانية. استمرت حبريته من عام ١١٣٠ الى ١١٥٠.

ثم ظهرت صورة هذا المطران في كتاب «Heterodoxos» لمنندس بيلايه عندما درس هذا الباحث الاسباني مؤلفات غندسلبه ويوحنا الاسباني الفلسفية ذات الطابع الافلاطوني الحديث. ولكن منندس بيلايو اكتفى بايراد المعلومات المعروفة عن رئيس اساقفة طليطلة رغم انه توسع في المعلومات العائدة الى دمنقه غنسلبه ومعاونه يوحنا الاسباني. ونحا هذا النحو ايضا «بونيليا» «Bonilla» في كتابه «تاريخ الفلسفة الاسبانية»، جزء اول صادر في مدريد عام ١٩٠٨.

ولم يذكر المؤرخون المعاصرون امثال «جورج سارتون» و«هاسكنز» معلومات توضح عمّا اذا عثر على ما يزيدنا معرفة بالمطران «ريموندو».

عندما توفي مطران «اوسمة» «Osma» «دون بدره» في آب سنة ١١٠٩ عين خلفا له في ذلك المركز الاسقف «ريموندو» برعاية الآباتي «برنرده» الذي سعى لدى الملكة «اوراكة» URRACA لصالح هذا المطران المنتسب الى رهبانيته.

كان «ريموندو» من محلة «سالفيتا» «SALVETAT» من غسكونية، جاء به الى اسبانية الآباتي «برنرده»، دون تحديد تاريخ الوصول، مع رهبان آخرين فرنسيين لكي يدركوا مراتب سامية جدًّا في الكنيسة الاسبانية.

استلم ابرشية «اوسمة» في العام الذي ورثت فيه الملكة «اوراكة» تاج قشتالة عند وفاة الملك الفونسه السادس عام ١١٠٩ في اول تموز.

انصرف الاسقف الجديد الى مساعدة المطران الطليطلي «دون برناردو» «Don BERNARDO» في بعض القضايا المتعلقة بالحدود مع اسقفية برغش، فقد استولى على عدد من المحلات وضمها الى ابرشيته.

وما لبث ان وصلت الشكاوى الى رومة من اسقف برغش ، ووصلت ايضا براءة بابوية مؤرخة في ١٨ آذار سنة ١١١٠ تقضي بان يعيد مطران «اوسمة» الى ابرشية برغش جميع المحلات التي استولى عليها ، وذلك قبل حلول عيد القديس يوحنا المعمدان في شهر حزيران و يمتثل بعدئذ امام البابا ليقدم حسابا عن تصرفاته قبل اول ايلول من السنة نفسها تحت طائلة منعه ممارسة وظيفته الحبرية اذا تمنع عن تنفيذ هذه الاوامر.

ومن المعروف ايضا انه في شهر ايلول ١١٠٩ ترملت اوراكة وتزوجت الملك الفونسه الاول عاهل اراغون ، ولم تمضِ اشهر قليلة على هذا الزواج حتى انكره الحبر الاعظم.

في أواخر عام ١١١١ اجتاح ملك اراغون مملكة قشتالة بجيش من الاراغونيين والنبريين والمسلمين ، فطرد اسقف طليطلة من كرسيه واسقف برغش واسقف ليون واودع السجن اساقفة اورنسه واوسمه وبلانسية ، وفي ١٨ نيسان اعلن ذاته ملكا على طليطلة واراضيها...
Palencia Osma Orense

في ٢ نيسان سنة ١١٢٥ توفي الاسقف «برنرده» المشاغب الذي في آخر ايامه ضعفت هيبته اذ ان الكرسي الرسولي منعه من ممارسة بعض الشعائر الدينية في ابرشية «سانتياقوب»
Santiago

وفي ١٢ كانون الاول ١١٢٥ اصدر البابا «انوريه الثاني» (١١٢٤ — ١١٣٠) براءة منح بموجبها الاسقف «دون ريمونده» السيادة على جميع الممالك الاسبانية.

توصل في ٢٢ ايار ١١٢٨ الى استخلاص مرسوم صادر عن «مكيدة» Maqueda من اعمال طليطلة يقضي بالاعفاء من الخدمة العسكرية الاكليروس التابعين له ، فانهم يحاربون لاجل الله ويخدمونه فقط دون ان يكونوا ملتزمين بممارسة اي خدمة عسكرية اخرى لكي يستطيعوا الانصراف الى خدمة الله في صلواتهم.

وفي الوقت نفسه اعفى الملك لقاء اعفاء الاكليروس من الخدمة العسكرية. من دفع العشور عن ممتلكاته.

وكان على رئيس اساقفة طليطلة الجديد ان يعمل طيل حبريته على زيادة الخيرات الزمنية للكاتدرائية والكنيسة بالاجمال. ففي ١٥ آب ١١٢٩ اوصى لكاهن رعية القديس اندراوس بكرم يملكه في المحلة المسمّاة «كوبية» لمعبد القديسة مريم في طليطلة ، لاجل راحة نفسه ونفوس آبائه.

ويقول ايضا في الوصية ذاتها انه يهب المطران ريموندو نصف بقية املاكه والنصف الآخر يقدمه لاكليروس كاتدرائية طليطلة...

ولم ينس ابرشيته الاولى «اوسمه» ، فقد اصدر امرا عام ١١٣٠ يمنح غفران اربعين يوما جميع اولائك الذين يزورون كنيسة «اوسمة» ويعفيهم من نذورهم بالذهاب الى رومة او سانتياقوب على شرط ان يتبرعوا لانجاز كاتدرائية «اوسمة» بنصف كمية تكاليف رحلتهم الى رومة او سانتياقوب(١).

وقد اهدى الملك الفونسه السابع والملكة «برنغلة» BERENGUELA ، جريا على العادة التي سلكها اسلافهم ، الى كنيسة القديسة مريم في طليطلة ودون ريموندو رئيس اساقفة اسبانية والى الكهنة الذين يخدمون الله في الكاتدرائية ، قلعة «كومبلوتم» «Complutum» وجميع ممتلكاتها اي الاراضي والمروج والمياه والكروم والمنيات والجبال والاشجار المثمرة وغير المثمرة والقرى والضياع والمزارع التي تخص التاج الملكي ، هبة ابدية لراحة نفسها وغفرانًا لذنوبهما ، مع تسليط الحرم ودفع غرامة مائة ليرة ذهبية وتعويض الاضرار مضاعفة ضد من يخالف هذه الوصية.

اشترك «دون ريموندو» «DON RAIMUNDO» في حفلة تتويج الملك الفونسه السابع سنة ١١٣٥ ، ٢٦ آذار في ليون (اسبانية) وقد وصفت هذه الحفلة بالتفصيل : دخل الملك الى ليون والملكة استقبلا بالحفاوة المعتادة في مثل هذه الاحوال. وقدم مع الملك الاميرة «شانجة» «SANCHA» وشقيقتها والملك غرسية من نبارة مع حاشية كبيرة العدد وريموندو رئيس اساقفة طليطلة الفاضل والشهم والحكيم. اجتمعوا في الكاتدرائية التي ضمّت الكثير من رجال الاكليروس ورؤساء الاديرة والرهبان.

اقيم قداس احتفالي والملك جالس على العرش وبعد انتهاء الذبيحة الالهية تفرق الحضور.

وفي اليوم التالي وهو ثاني الفصح اجتمع رؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء الاديرة والاشراف من المملكة في الكاتدرائية نفسها ووصل الملك الفونسه يرافقه ملك نبارة والاميرة

---

(١) يمنح رؤساء الكنيسة غفرانات كاملة وغير كاملة اولئك الذين يخدمون الكنيسة باي شكل من الاشكال ، والغفران يعني ان الانسان اذا توفي وهو في حال الخطيئة العرضية لا يذهب الى جهنم بل الى المطهر ليكفّر عن هذه الخطايا العرضية ، فهذه الغفرانات تعفيه من هذا التكفير اي القضاء في المطهر المدة المعيّنة ، لكي يتمكن بعد انتهاء تكفيره من الصعود الى السماء.

شانجه واختها واعلن الاساقفة ان الملك الفونسه هو سيد اسبانية جمعاء وان ملك نبارة وملك المسلمين «ZAFADOLA» ورامون قند برشلونة والفونسه قند «تلوسة» وقند غسكونية قدموا هدايا للملك ومنحوه لقب «امبراطور».

وفي اليوم الثالث توج امبراطورا بعد اقامة الذبيحة الالهية، تقدم رئيس اساقفة طليطلة «دون ريمونده» بلباسه الحبري، والملك ايضا مزين بحلة ذهبية، فمسحه رئيس الاساقفة بالزيت المقدس ووضع تاجا ثمينا جدا على رأسه ووضع في يده صولجانا ثم هتف الحاضرون: عاش الامبراطور. وارتجت انحاء الكنيسة من الهتافات.

ثم ان الملك الامبراطور وزع هبات وعطايا كثيرة من الذهب والفضة والثياب الثمينة على الاساقفة ورؤساء الاديار وامر بتوزيع الثياب على فقراء المدينة واطعامهم طيلة اسبوع، وجرت العاب بهلوانية وفروسية.

وفي عام ١١٣٧ منح الملك كنيسة طليطلة عشر النقود المسكوكة في المدينة على شرط ان تستعمل في شراء البسة لكهنة الكاتدرائية.

وفي تموز من السنة ذاتها وقع المطران ريمونده على الهبة التي قدمتها ماريا ابنة الوكيل «مائر تمَام» للكاتدرائية وهي الحصة التي تصيبها من الميراث العائد اليها: البستان الذي يملكه والدها في الربض بحي القديس بطرس. وكان يعرف على عهد المسلمين بملك «ابن الحنشي». وقد وضع شرط لصحة هذه الهبة وهو ان ماريا المذكورة تتصرف بجميع منافع هذه الحصة طيلة حياتها واذا شاء احدهم نزعها منها تلغى الوصية بذات الفعل. ويوجد شرط آخر وهو ان تدفن الموصية في الكاتدرائية كما جرت العادة.

وتجدر الاشارة الى ان هذه الوصية مكتوبة بالعربية ولكن لم يتيسر لنا الوصول اليها وقد ذكرها «غنصالس بلانسية «في كتابه»: «تاريخ المستعربين» المجلد الاول ص١٧٥–١٧٤.

وقد رافق «دون ريمونده» الامبراطور في حملته على «كورية» في ايار ١١٤٢ ورافقه ايضا اساقفة برغش وسنتياقوب وشقوبية وبلانسية وابيط وليون ومندنيده Mondoñedo، حتى ضواحي المدينة وبعد ان احتل المدينة توجه الى سلمنقه حيث منح الآباتي بطرس المحترم الذي ورد اسمه مرات عديدة في هذا الكتاب، دير الفرديني ومنتفعاته.

وقد اوصت الاميرة شانجة، اخت الامبراطور الفونسه السابع بجميع ممتلكاتها، بعد موافقة اخيها، لدون ريمونده وللكاتدرائية.

كما ان الامبراطور وامرأته «برنغلة» «BERENGUELA» منحا الاسقف ريمونده وخلفائه حصن «قنالش» «CANALES» الواقع على نهر وادي الرامة بين «المس» «OLMOS» وطليطلة وذلك في ٢١ آب سنة ١١٤٣ لراحة نفسها ونفوس آبائهما واجدادهما.

وقضية المياه والري تثير خلافات في جميع العهود. وقع خلاف بين الاسقف ريمونده واسطفان حبيب صاحب مدينة «طلبيرة» بشأن السد والمطاحن هناك. ونظر في القضية رئيس البلدية «يوليان بن حارث» وامام محكمة طليطلة. وقبل ان يصدر الحكم في القضية تم الاتفاق بين الطرفين على النحو التالي: يكون للمطران الثلث من السد والطاحونة ولاسطفان حبيب الثلثين، كما ان المطران يدفع لاسطفان حبيب جميع النفقات التي تكلفها على السد وعلى الطواحين بعد اخذ رأي اصحاب المشورة والخبرة.

ويعترف اسطفان حبيب امام الشهود الموقعين على الوثيقة ان الثلث من السد والطواحين هو ملك الكاتدرائية وبالتالي ملك دون ريمونده.

وفي عام ١١٤٧ احتل الامبراطور قلعة رباح في شهر كانون الثاني وفي ٥ شباط سلم المسجد الاكبر في المدينة وجميع ممتلكاته لكاتدرائية طليطلة فالملك يتذكر الشرور التي جاءت من قلعة رباح على عهد المسلمين واصابت مدينة طليطلة وسكانها النصارى ويبتهج لان الله منحه النصر وانقذ المدينة. واعترافًا بذلك واقرارًا بالفضل لمَا خصه الله دون سواه من اسلافه ملوك اسبانيا، ان يكون هذا النصر الكبير على يده، يتبرع للاسقف ريمونده رئيس اساقفة طليطلة والكنيسة في اسبانية ولجميع خلفائه على الكاتدرائية ولجميع كهنتها في الحاضر وفي المستقبل بالجامع الاكبر في قلعة رباح وجميع ما يملكه. وذلك لخلاص نفسه ونفوس آبائه واجداده برضى الامبراطورة «برنغلة» وابنه شانجه فيتحول هذا المسجد الى كنيسة الله والمؤمنين ولكي تضم عشرة اعضاء من رجال الاكليروس لخدمة المذبح.

كما انه لاجل راحة نفسه يمنح الكاتدرائية في طليطلة عشر الدخل الملكي من قلعة رباح في الوقت الحاضر وعلى عهد خلفائه، من الضرائب والمكوس المترتبة على الحمامات والافران والخبز والخمر والطواحين وصيد الاسماك.

وعلى هذا النحو يكون الامبراطور قد منح دون ريمونده المسجد الاكبر في قلعة رباح، وعشر مداخيل الخزينة من الضرائب المستوفاة من تلك المدينة.

قضية المستعربين :

لا نعرف بالضبط السنة التي اصدر فيها الحبر الاعظم اوجنيه الثالث ، (١١٤٥-١١٥٣) الوثيقة التي تنص على انه لا يجب على الاكليروس والشعب في طليطلة ان يرضوا بان الذين يسمون انفسهم «مستعربين» يرفضون الطاعة لرئيس الاساقفة وان يظلوا يمارسون طقوسهم الدينية كما مارسوها على عهد المسلمين وان يلبسوا الثياب الاكليريكية ويحلقوا رؤوسهم.

ومن الواضح ان امورا مثل هذه من شأنها ان تشغل بال الاسقف كما يشغل باله ويقلقه عدم الاعتراف بسلطته كما يتصرف اسقف «طراكونة». فارسل الحبر الاعظم الى هذا الاخير براءة يلزمه فيها بتقديم الطاعة لرئيس اساقفة طليطلة «دون ريموندو» ، واذا لم يخضع لهذا الامر عليه ان يتوجه الى رومة ويمثل امام الحبر الاعظم نهار احد القيامة المصادف ٣٠ آذار ١١٥٢ او يبعث من ينوب عنه.

لم تتدبر هذه القضية على عهد «دون ريموندو» اذ ان الحبر الاعظم في ٧ شباط ١١٥٣ اي خمسة اشهر قبل وفاته يعجب كيف ان مطران طراكونة «برناردو» لم يخضع لسلطة طليطلة ولم يتوجه الى رومة في عيد الفصح السابق اي ٨ نيسان ١١٥٢.

توفي دون ريموندو في اواخر عام ١١٥٢ ودفن في كنيسة القديس اندراوس في طليطلة.

صفات دون ريموندو :

شهدنا في الصفحات السابقة النشاط الذي تميّز به الاسقف «دون ريموندو» فتارة يشهد في البلاط الملكي على الهبات التي يقدمها الملك للوقف وطورا يدافع عن امتيازات الكنيسة والاكليروس ومن هم تحت طاعته محاولا زيادة ممتلكات الوقف وحينا يتدخل في شؤون الكنيسة المعقدة وحينا آخر يحضر المجامع الكنسية.

وقد استفاد من وظيفته في مجلس شورى الدولة للحصول على مكاسب مادية وادبية لصالح الكنيسة ولهذا ازدادت ثروة الوقف خلال سنوات حبريته. نال من الامبراطور الفونسه السابع مواقع حصينة مثل قلعة رباح وقلعة النهر HENARES تنازل عن عقارات صالحة للزراعة لعلمانيين واكليريكيين على الطريقة السارية في القرن الحادي عشر وهي ان من يستثمر الارض خلال اربع اوست سنوات يمتلكها ، وعلى هذا النحو زاد في زراعة الكرمة والزيتون والاشجار المثمرة والبساتين. وما يقال عن الزراعة يقال عن البناء فقد تكاثر السكان في المدن وارتفعت

الابنية في العاصمة طليطلة ، كما تبرع بعقارات لتشييد المباني والدكاكين ومصانع الفخار وغيرها .

واهتم بالمشاريع المائية كيف يستفيد من الماء لري الاراضي وبناء السدود واصلاح المطاحن المهملة والمعطلة ، واضعًا نصب عينيه مصلحة الوقف ، ولا يتورع عن اللجوء الى المحاكم لحل المشاكل ، كما انه اهتم بصيد الاسماك .

ويقول غنصالس بلانسية : وقد دلت الوثائق على حبه للثروة وبالتالي انكماش يده كما يصوره الكهنة العاملون في الكاتدرائية المتذمرون من عدم المساواة في توزيع الثروات بين اعضاء الاكليروس والوقف . وقد حدد عدد الكهنة في الكاتدرائية واجورهم ودافع عن كرسي طليطلة وتوصل الى اخضاع اسقف «براغة» لسلطته غير انه لم يتوصل الى اخضاع اسقف طراكونة الذي ظل متمردا حتى بعد وفاة رئيس اساقفة طليطلة . ولكن في بعض الحالات تخطى حدود صلاحياته وتدخل في شؤون مطرانيات وهذا التدخل ادّى به الى ان يسمع من الحبر الاعظم في رومة ما لا يرضيه وينغص عليه ايامه الاخيرة»(١) .

المعاونون :

تدل الوثائق على ان المطران «ريمونده» جمع حوله عناصر متنوعة مشكلة من المجتمع الذي يعيش فيه بمَا في ذلك بعض الاجانب مثل «غيليرموس ستاتفورد» Guillelmus Stattford شخصية انكليزية ظهرت عام ١١٤٨ فاصبح «ارشدياكن» لمدريد وبهذه الصفة وقع على وثيقة صادرة في عام ١١٥٤ . وقد يكون هو ذاته «غليوم» ، الذي الّف له يوحنا الاشبيلي مقالة في تحويل الاشهر العربية الى اشهر رومانية .

ومن المعروف ما تنطوي عليه اهمية قدوم «الآباتي بطرس المحترم» الى اسبانية ، وهو رئيس رهبانية كلوني ، وهو السابع من سبعة رؤساء على هذه الرهبانية .

رأينا كيف انه في عام ١١٤٣ زار اديرة رهبانيته في اسبانية لاسباب مالية وعلى ما يبدو ان الامبراطور الفونسه السابع رفض دفع العشور التي كان جده قد تعهد بدفعها سنويا لرهبانية «كلوني» غير ان الامبراطور ، بحضور جميع الاساقفة من قشتالة وليون ، تنازل للآباتي بطرس

---

(١) المخل غنصالس بلانسية : «دون ريمونده ، رئيس اساقفة طليطلة» .

المحترم عن دير «قردنية» ومنتفعاته في وثيقة صدرت في ٢٩ تموز ١١٤٣ وقد سبب هذا التنازل خلافات ودعاوى استمرت اعواماً. ولا شك ان اتصال المطران الطليطلي ببطانته سمح له تقدير قيمة الثقافة الاسلامية، فحملته رغبته على معرفة القرآن لكي يستطيع ضحد حجه.

ونرى المطران «ريموندو» يتعاطى مع المستعربين الطليطليين ويتعاقد معهم، ونلاحظ بعض التواقيع بالعربية وهذا يدل على ثقافة المتعاقدين، كما نجد وثائق اخرى مكتوبة بالعربية بكاملها، والاسقف يصادق على صحة التوقيع والوثيقة.

ولا نعجب اذا لجأ الى هذه العناصر المستعربة لتنمية الدراسات وازدهارها وهم القادرون على قراءة الكتب العربية وتفسيرها. اتصل برجال الاكليروس العارفين باللاتينية والقادرين على تأدية خدمات جلّى للثقافة الغربية. وقد دلّت الحواشي المكتوبة باللغة العربية على كتب صلواتهم باللاتينية على الصعوبة التي يلاقونها في فهم اللغة اللاتينية فيفسرونها باللغة العربية لغتهم الام. فهؤلاء قادرون على ان ينقلوا الى اللغة «الرومنسية النصوص العربية. كما ان رجالا من الاكليروس اكثر ثقافة يحولون تلك اللغة العامية الى لغة لاتينية.

اجل على هذا النحو تمّت اكثر الترجمات ولا نعجب بعد ذلك اذا شوهد فيها نقص، فانه بالاضافة الى الصعوبات التي يلاقونها في النقل من لغة الى لغة تظهر صعوبة اخرى هي العثور على الكلمات التقنية في مختلف فروع العلم والمعرفة ولا ندهش من الكلمات الغريبة الموجودة في النصوص اللاتينية لانه في كثير من الاحيان لم يفهم المترجم الكلمة العربية او ما يقابلها باللغة الرومانسية فتركها على حالها...

يوحنا الاسباني وغندسلبه المترجمان:

لا ننكر تدخل يوحنا الاسباني في الترجمات التي ننسبها الى غندسلبه بل نبرز الدور الرئيسي الذي لعبه غندسلبه في هذه الترجمات بصفته الدافع الاول لها وفي بعض الاحيان تفرد بالترجمة.

اعتاد المؤرخون والباحثون المحدثون ان يروا في غندسلبه ويوحنا الاسباني مترجمين متعاونين على شاكلة جيرارده الكريموني وغالب او يوحنا غنصالس البرغشي وسليمان. غير ان الامر يختلف تمام الاختلاف فالمبادرة الاولى في ترجمة المؤلفات الفلسفية من العربية الى اللاتينية لا ترجع الى غندسلبه ولا الى اي شخصية لاتينية اخرى بل الى يوحنا الاسباني الذي كان يجهل اللغة اللاتينية الفصحى ويحسن اللاتينية العامية او «الرومنسي». ولكنه يعرف العربية معرفة تامة والفلسفة

العربية معرفة اكمل من اي معرفة توصل اليها مترجم آخر في ذلك العهد... بينما المبادرات الاخرى في الترجمة ترجع الى عالم لاتيني يجيد اللاتينية ولكنه يجهل العربية أو لا يجيدها تماما فيلجأ الى مترجم عربي. اما في حالة يوحنا الاسباني (ابن داود) وغندسلبه، فالفيلسوف ليس لاتينيا يجهل العربية بل يهوديا تكلم منذ نعومة اظفاره اللغة العربية الى جانب اللغة العبرية ودرس الفلسفة باللغة العربية وشرح دروسًا بالفلسفة طيلة سنوات عديدة.

اما في حالات الترجمات الاخرى فالعربي يجهل الفلسفة كما يجهل اللغة اللاتينية الفصحى، وبالتالي ليس مؤهلا لمعرفة الكلمة المناسبة للمقام باللغة الدارجة «الرومنسي» التي تتفق تماما والنص العربي.

كان غندسلبه لاتينيا فصيحا ومثقفا ومشتغلا بالفلسفة وبالتالي يجيد استعمال الالفاظ الفلسفية التقنية.

ونستطيع التصور ان اللاتينية العامية توصلت في القرن الثاني عشر الميلادي الى تلك الوسائل والتعابير التي تؤدي المعاني الفلسفية كي تنقل الى اللاتينية السليمة. وهذه اللغة الرومنسية الجديدة لم تكن غريبة بالنسبة الى المستعرب او اليهودي الذي يعيش بين ظهراني المسلمين والنصارى في طليطلة، بل وسيلة للتلاقي والوساطة بين العربية الفصحى واللاتينية الفصحى.

غير ان ابن داود المتعمق بالفلسفة الواقف على اسرار اللغة العربية والمتخصص بالتعابير والمعاني الفلسفية استطاع التوصل الى تفهيم المعلم اللاتيني معنى العبارات والجمل التي عليه ان يترجمها. ويستطيع في الوقت ذاته، وان كان لا يجيد اللاتينية، معرفة ما اذا كان المعلم اللاتيني قد اجاد او اصاب في انتخاب التعابير اللاتينية المطابقة للاصل العربي.

وكما قلنا فان «غندسلبه» يعرف الفلسفة والفلاسفة اللاتين وخاصة «بويسيوس».

ان المترجمين المتشاركين غندسلبه ويوحنا الاسباني قادران اكثر من اي فريق آخر للترجمة على اخراج معنى المؤلفات الفلسفية اخراجا صادقا ونقلها الى اللاتينية دون اخطاء كبيرة. فقد ترك لنا غندسلبه مؤلفات فلسفية لم يترك مثلها احد، لا جيرارده الكريموني، ولا هرمان الكرنتي ولا غيرهما ممّن اهتموا بالترجمات الفلسفية. ومع هذا فان غندسلبه لا يلعب تجاه ابن داود الدور الذي لعبه جيرارده الكريموني تجاه مساعده غالب، ومن هنا فالنتيجة تختلف ايضا حتما. فاذا قابلنا الترجمات الفلسفية التي خرجت عن دمنقه غندسلبه ويوحنا الاسباني مع الترجمات التي اخرجها يوحنا غنصالس وسليمان نلمس الفرق الشاسع بينهما ونتبين افضَلية ترجمة الاولين على

هذين الاخيرين ، فالاخطاء عند الاولين في ترجماتهما لا تتعدى النواقص الملموسة في كل عمل بشري . بينما في الترجمات الاخرى نشاهد اخطاء فاضحة وكلمات غير مفهومة وجملا لا معنى لها .

هذا بصرف النظر عن ان يوحنا الاسباني يبذل جهده في دراسة اللغة اللاتينية ليعرفها معرفة تتناسب وحالته الاجتماعية الجديدة ، رئيس اساقفة طليطلة ، اي رئيس الكنيسة الاسبانية . كما ان غندسلبه من جهته يحاول التعمق في معرفة اللغة العربية لكي يتمكن بدون معاونة مترجم مساعد من نقل تلك المؤلفات الفلسفية العربية الى اللاتين لكي يطلعوا عليها .

بينما المترجمون الآخرون يحاولون دراسة اللغة العربية مع المستعرب او المسلم المتنصر ولكن لا هذا ولا ذاك قادران على ايصاله الى مفاوز التعابير الفلسفية العويصة . . .

ولقد ادرك روجير بيكون ان يوحنا الاسباني وغندسلبه لم يكونا مترجمين عاديين مثل الباقين الذين ينتقدهم بعنف ، فليسا مثل جيرارده الكريموني ولا مثل غليوم البلجيكي . لم ينج احد من المترجمين من غضب «روجير بيكون» الا «غندسلبه ويوحنا الاسباني» ، فقد سكت عنهما وان اورد بعض الاخطاء التي ارتكباها .

ويمكن القول ان هذين المترجمين علاوة عن معرفتهما اللغة العربية واللاتينية معرفة جيدة ، كانا واقفين على التعابير والالفاظ الفلسفية اكثر من اي مترجم آخر . وقد ترك لنا غندسلبه مؤلفات فلسفية من اخراجه .

فالضمانة الصحيحة في الترجمة عند غندسلبه ويوحنا الاسباني متوفرة ، بينما ليست هذه الضمانة بالذات مكفولة عند بقية المترجمين .

يوحنا الاسباني (ابن داود) :

خرج ابن داود من الظلمة التي كان قابعا بها بقناعة منذ قرون عديدة ليبصر النور ، بفضل الدراسة التي قدمها «جوردن امابل» .«Amable Jourdain»

عنوانها :

«Recherches critiques sur l'âge et l'origine des traductions latines d'Aristote et sur les commentaires grecs et arabes employés par les docteurs scolastiques».

نشر البحث للمرة الاولى عام ١٨١٩ ثم اعيد نشره مع بعض اضافات وتصحيحات عام

١٨٤٣ ، والناشر في المرة الثانية هو «شارل جوردن» ، فقد اكتشف ترجمة «النفس» De anima واهداها لرئيس اساقفة طليطلة. انها بالحقيقة وثيقة ذات فائدة جلى اذ انها تتضمن ليس فقط اسمي مترجمين من طليطلة بل معلومات ثمينة عن الاسلوب المتبع اجمالا في النقل من العربية الى اللاتينية.

ومن المعروف ان اللغة العربية صعبة ، والرهبان المتشوقون الى اكتشاف كنوز العلم عند المسلمين لم يتوافر لهم الوقت ولم يملكوا الوسائل لاجادة هذه اللغة. غير انه في اروبة منطقة امتازت عن غيرها من حيث هي ملتقى الحضارتين الغربية والشرقية ، ممّا اجبر الناس على تعلم عدة لغات. فبعد ان استرد الاسبان طليطلة التي تعايش فيها المسلمون واليهود والمستعربون تحولوا الى وسطاء لا يمكن الاستغناء عنهم بسبب معرفتهم اللغة العربية الى جانب اللغة الرومنسية ، دون اللاتينية او يعرفون هذه الاخيرة معرفة ناقصة ، وعليهم والحالة هذه ، ان يستعينوا بالمثقفين القادرين على كتابتها بسهولة. العمل يتم بالتعاون ، وقد وصف بوضوح في مقدمة ترجمة «النفس». فالمستعرب يترجم النص حرفيا الى اللغة العامية ثم يأتي رجل الدين فينقله الى اللغة اللاتينية ، والنتيجة من هذا العمل بعيدة كل البعد عن الكمال في الترجمة. وشتان بين الترجمات في بغداد قبل عهد طليطلة بثلاثة اجيال والترجمة في هذه المدينة الاسبانية في القرن الثاني عشر. ففي هذه المرة تنقل العلوم من العربية الى اللاتينية ، بينما في بغداد من السريانية واليونانية والفارسية والهندية الى العربية. اجل لقد تغربت الثقافة العربية ومن هنا كان عنوان هذا الكتاب : «من الاستعراب الى الاستغراب».

وطليطلة ليست بغداد في سعتها ورخائها وازدهارها ولا تملك الاشخاص الاكفاء العارفين والمتضلعين بالثقافتين لكي يحظوا بعطف الخليفة وسخائه كما حَظِيَ حنين بن اسحق ، مثلا ، بعطف الخليفة المأمون الذي كان يعطيه وزن الكتاب المنقول ذهبا فاغتنم حنين هذا السخاء فاستعمل الورق الغليظ وكتب سطورا قليلة على كل صفحة ليزيد الوزن وتزيد العطية.

اما في طليطلة فالامر يختلف ، على المترجم ان يستعين بغيره وليس من مكافأة مالية مغرية ، يجب عليه ان يشتغل لاجل العلم وجل ما يحظى به انه يهدي كتابه الذي ترجمه الى احد الاساقفة النافذين ويعتبر القبول من لدن الاسقف شرفا كبيرا له...

استعان جوردن بثلاثة مخطوطات في اكتشافه : الواحد من المكتبة الملكية آنذاك رقم ٦٤٤٣ والثاني من «السوربون» يحمل رقم ١٧٩٣ واصبح الآن يحمل رقم ١٦٦١٣ ، يحتوي على كتاب «النفس» لابن سينا. والمخطوط الثالث رقم ٨٨٠٢. وقد جاء في مقدمة هذا المخطوط

ان كتاب «النفس» لابن سينا قد نقله الى اللاتينية الاسرائيلي المتنصر يوحنا بن داود يساعده الارشدياقن «دمونقه غندسلبه»، وقد اهداه الى رئيس اساقفة طليطلة «دون ريموند» كما جاء في المقدمة.

وبعد نصف قرن ظهر مستعرب آخر «شتانشنيدر» وكشف القناع عن وجه يوحنا بن داود الاسباني وتضاربت الآراء بشأن هذا الرجل فمنهم من قال انهما شخصان ومنهم من قال انه شخص واحد ولم يرجح رأي على الآخر، ونحن نميل الى الرأي الثاني اي انهما شخص واحد يحمل اسمين: يوحنا الاسباني، وابن داود، يهودي تنصر وحسنت نصرانيته فسيم اسقفا على كنيسة طليطلة وقد تعاون مع دومنقه غندسلبه في ترجمة الكثير من الكتب العربية الى اللاتينية. وقد ذكرنا لائحة الكتب التي كان لغندسلبه الباع الاطول في ترجمتها والآن نورد الكتب التي اسهم فيها ابن داود اكثر من غندسلبه.

١ – «De differentia» «**الفرق بين النفس والروح**»، لقسطا بن لوقا البعلبكي.

النص الاصلي: نشره الاب لويس شيخو في مجلة «المشرق» عدد ١٤ (١٩١١) من صفحة ٩٤ الى ١٠٦ عن المخطوط رقم ٣٥٣ الموجود في جامعة القديس يوسف ببيروت. ثم نشره من جديد في مجموعة «مقالات فلسفية قديمة» بيروت ١٩١١ من صفحة ١٠٧ الى ١٣٣ توجد في الاسكوريال نسخة عن هذا المخطوط تحمل رقم ٨٨٨ من صفحة ٨٥ الى ٨٦.

الطبعات اللاتينية: في باسيل سويسرة عام ١٥٣٦. وطبعة اخرى في انسبروك عام ١٨٧٨.

المخطوطات اللاتينية: الولايات المتحدة: بلتيمور «ولترز ليبرزي» Baltimore, H. Walter's library

النمسة: فيينة المكتبة الوطنية رقم ٨٧ ومدن اخرى كثيرة.

بلجكا: «بروج» مكتبة البلدية رقم ٤٧٨. بروكسل: المكتبة الملكية ٢/٢٥٥٨

انكلترة: كامبردج «غونفيل اندكايوس كولدج، ١٠٩». لندن: المتحف البريطاني ٣٢٥. اكسفورد: باليول كولدج ٢٣٢، كوربوس كريستي كولدج، ١١١.

فرنسة: بوردو: مكتبة البلدية ٤٢١. كليرمون: مكتبة البلدية: ١٦٨. مونبليه: مكتبة كلية الطب: ١٧٧. باريس: مازارين: ٣٤٥٦، ٣٤٥٧، ٣٤٦٠، ٣٤٦١.

كما انه يوجد في اماكن اخرى كثيرة من العالم في ايطاليا والمانية واسبانية.

ويتحدث جوردن عن النسخ الموجودة في باريس فيقول انه جاء فيها ما يلي :

«In Dei nomie et ejus auxilio. Incipit liber De differentia inter animan et spiritum quem filius Luce medici, nomine Coste ben Luce, cuidam amico suo scriptori cujusdam regis, eddit. Johannes Hispanensis ex arabico in latinum reverendo Toletano archiepiscopi transtulit» (١)

تاريخ هذه الترجمة سابق لعام ١١٤٣

٢ – ينبوع الحياة لابن جبرول Ibn Gabirol: **«Fons vitae»**

النص العربي : غير موجود

الطبعة اللاتينية : «بومكير» حققه ونشره تحت هذا العنوان :

«Avencebrolis, fons vitae, ex arabico in latinum translatus ab Johannes Hispano et Dominico Gundisalino ex codicibus parisinis (B.N. lat. n⁰ 14700, fol. 161-228).

وقد استعان بالمخطوط الموجود في المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٤٧٠٠ (مخطوطات لاتينية) من القرن ١٣

– والمخطوط في مكتبة مازارين رقم ٣٤٧٢ ويظن انه من القرن الرابع عشر

– المخطوط الكولبي : موجود في مكتبة الكاتدرائية باشبيلية ويرجع الى القرن الثالث عشر

– المخطوط «امبلونيانونه (ف٣٣١) Amploniano

كما ان هذا المخطوط موجود ايضا في مكتبة كاتدرائية طليطلة ٩٥–٢١

توجد ترجمة اسبانية لكتاب «ينبوع الحياة» وضعها «فدريكه دي كاسترو» F. De Castro عنوانها «La fuente de la vida» في مجموعة «Biblioteca de Filosofia y Sociologia»

٣ – De mundo لحنين بن اسحق : السماء والعالم.

النص العربي : غير موجود.

الطبعة اللاتينية : لوكاتيلوس ، البندقية ١٥٠٨ Venetiis, Locatellus, 1508.

(١) A. Jourdain, «Recherches critiques, Paris 1853, p. 116.

المخطوطات اللاتينية :

- روما الفاتيكان رقم ٢١٨٦ لاتيني
- اوكسفورد بودليان ٤٦٣
- باليول كولدج .Balliol coll ١٧٣ . مرتون كولدج Merton college, ٢٨٢
- كامبردج «غونفيل اند كايوس» رقم Gonville et Caius Cambr, ٥٠٤
- ليون بفرنسة مكتبة البلدية ٤١٢
- باريس المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية ٦٤٤٣

تنسب هذه الترجمة ليوحنا الاسباني كما جاء في فهرس كوبنهاجن :

«De celo et mundo Avicene interprete Johanne Hispalensi»

بينما في فهرس باريس جاء :

«Ejusdem Avicenne liber de celo et mundo interprete Gundisalvo».

ومخطوط الفاتيكان اللاتيني يقول : Manusc. lat. N⁰ 2186:

«Avicenna liber de Celo et mundo interpretantibus»

ونسبة هذا المخطوط الى ابن سينا غلط كما بين ذلك الاب الونسه الونسه في مقال طويل نشر في مجلة الاندلس العدد ١٦ صفحة ٣٧-٤٧ سنة ١٩٥١.

ومن بعض ما يقول في هذا المقال : ان ابا اصيبعة يقدم لنا لائحة بمؤلفات حنين بن اسحق ومنها : «جوامع كتاب السماء والعالم... جوامع تفسير القدماء اليونانيين لكتاب ارسطو في السماء والعالم... ويقصد بهؤلاء الاقدمين اسكندر الافروديسي وسمبليقيوس وتمستيوس، وقد اقترح اسكندر الافروديسي ان يسمى هذا الكتاب : «كتاب العالم فقط، وقد جادل سمبليقيوس وتمستيوس الفكرة ثم قبلاها وهذا ما تعني الترجمة اللاتينية القائلة :

«In libro Aristotelis De mundo qui dicitur lib er Celi et mundi».

٤ - «Prologus discipuli et capitula Avicene»

النص الاصلي موجود في المتحف البريطاني رقم المخطوط ١٦٥٥

الطبعة اللاتينية : آ. بركنماير A. Birkenmajer ، ٣٦ عام ١٩٣٤ RNSP

المخطوط اللاتيني : في بلجكا : «بروج» مكتبة البلدية مخطوط ٥١٠

انها عبارة عن مقدمة مأخوذة عن حياة ابن سينا التي كتبها ابو عبيد الجوجزاني ، كما جاء في «عيون الانباء» لابن ابي اصيبعة.

ويقول يوحنا الاسباني ان هذه المقدمة لا تظهر في جميع المخطوطات التي تتضمن كتاب «الشفاء» والمترجم هو يوحنا الاسباني (ابن داود) كما يظهر في المقدمة الصغيرة لهذه المقالة :
Verba Avendeuch Israhelite.....

٥ – De Universalibus لابن سينا «الكليات»

النص الاصلي : المكتبة الوطنية باريس فهرس المخطوطات العربية رقم ٦٥٢٧
لندن المتحف البريطاني رقم ٧٥٠٠
ليدن رقم ١٤٤٠

المخطوطات اللاتينية : بلجكا : «بروج» مكتبة البلدية رقم المخطوط ٥١٠
فرنسة : المكتبة الوطنية باريس رقم ٦٤٤٣ لاتيني.
انكلترة : اكسفورد مرتون كولدج رقم ٢٨٢
ايطالية : رومة الفاتيكان : رقم ٢١٨٦ لاتيني.
النمسة : Graz, Universidad II. رقم ٤٨٢

الطبعة اللاتينية : Avicenne... Opera البندقية ، لوكاتلوس Locatellus عام ١٥٠٨

المترجم هو يوحنا الاسباني او ابن داود فقد حمل العبء الاكبر من العمل ولقد ساعده ايضا دومنقه غندسلبه ، انما المقدمة تقول : «كلمات ابن داود الاسرائيلي»...
«Verba Avendeuch Israhelite.....»

٦ – (Sextus Naturalium) Liber de Anima كتاب النفس لابن سينا

النص الاصلي موجود في لندن المتحف البريطاني رقم ٧٥٠٠
Library of the India office : ٤٧٦

الطبعة اللاتينية : Avicenne... Opera, Venetiis, البندقية لوكاتلوس ، ١٥٠٨

المخطوطات اللاتينية :

– بلجكا : «بروج» مكتبة البلدية : ٥١٠

– انكلترا : كامبردج G. and Caius coll. : ٤٩٧ اكسفورد بودليان ٤٦٣
– مرتون كولدج Merton College : ٢٨٢
– فرنسة : انجه Angers مكتبة البلدية : ٤٥٠ . ليون Lyon مكتبة البلدية : ٤١٢ .
– باريس : مكتبة الارسنال Arsenal : ٧٠٣ . باريس المكتبة الوطنية رقم ٦٤٤٣ لاتيني .
– المانية : ارفورت Erfurt, Ampl. رقم ٣٣٥
– ايطالية : رومة الفاتيكان رقم ٢٠٨٩ لاتيني و٣٠١٠ لاتيني .

ويوجد ايضا في فلورنسة والبندقية وميلانو .

– الاسكوريال f. II. 6 Escorial

المترجم الحقيقي هو ابن داود وان كان غندسلبه قد ساعده في الترجمة وقد نشر جوردن المقدمة ونظرا لقيمتها التاريخية نوردها بالنصين الاتيني والعربي .

تبتدئ هكذا في اكثر المخطوطات :

«Prologus ejusdem (Dominici) ad Archiepiscopum Toletanum Remundum.

Reverendissimo Toletanae sedis Archiepiscopo et Hispaniarum Primati, Johannes Avendeut Israelita, philosophus gratiem debitae servitudinis obsequium.

Cum omnes constent ex anima et corpore, nonomnes sic certi sunt de anima sicut corpore. Quippe cum illud sensu subjaceat, ad hanc vero non nisi intellectus attingat, unde homines sensibus dediti aut anima nichil credunt, aut si forte ex motu corporis eam esse conjiciunt quid est, vel qualis est plerique fide tenent, sed pauci ratione convincuntur.

Qua propter jussum vestrum, Domine de transferendo Avicennae philosophi libro «de Anima» effectui mancipare curas quatenus vestra munere et nostro labore latinis fieret certum quod hactenus extitit Incognitum; scilicet au sit anima, et quid, et qualis sit, secundum essentiam et effectum, rationibus verissimis comprobatur.Hunc igitur librum vobis proecipiente et me singula verba vulgariter proferente, et Dominico Archidiacono singula in latinum convertente, ex arabico translatum in quo quidquid Aristoteles dixit libro suo «de anima» et de sensu et sensato, et de Intellectu et intellecto ab autore libri scias esse collectum».

وهذه ترجمتها العربية :

الى سيادة رئيس اساقفة طليطلة ورئيس الكنيسة الاسبانية.

يوحنا بن داود الاسرائيلي، الفيلسوف يقدم الاكرام معترفا بالطاعة الواجبة.

البشر جميعهم مركبون من نفس وجسد ولكن كلهم واثقا من ان له نفسا مثلما له جسد، لان الجسد يقع تحت الحواس، النفس لا يدركها سوى العقل، ومن هنا فان الناس الذين تسيطر عليهم حواسهم اما يفكرون ان النفس ليست شيئا او اذا اقرّوا بوجودها بفضل حركة الجسد يقبلون، واكثرهم عن طريق الايمان انها موجودة ولكن قليلون جدا اولئك الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن وجودها بالتفكير. انه لمن المخجل حقا ان الانسان لا يعرف هذا الجزء منه والذي تأتي منه المعرفة، ولا يفهم بواسطة العقل انه كائن عاقل. كيف يستطيع بالواقع معرفة ذاته ومعرفة الله اذا كان مقتنعا انه يجهل اثمن شيء لديه، لان الانسان، من حيث الجسد، ادنى من جميع الخلائق ولا يتفوق على بقية المخلوقات الا بالنفس التي يحمل فيها اكثر من الآخرين صورة خالقه.

ولذا بذلت جهدي، يا صاحب السيادة، في تنفيذ اوامركم بترجمة كتاب ابن سينا الفيلسوف «في النفس» لكي نبرهن للاجيال القادمة، بفضل كرمكم وبفضل علمي، ماكان مجهولا حتى الآن : اي بالدلالة عن طريق العقل عن وجود النفس بالبراهين الواضحة، وما هي واي شيء هي حسب ماهيتها واعمالها.

هوذا الكتاب الذي ترجمته عن العربي بموجب توجيهاتكم. انا اقول كل كلمة باللغة العامية والارشدياقن دومنقه ينقلها الى اللاتينية. هل تعلمون ان مؤلف هذا الكتاب قد جمع كل ما قاله ارسطوطاليس في كتابه عن النفس وعن الحس والمحسوس وعن العقل والمعقول؟

والآن وقد عرفتم كل هذا باذن الله ثقوا انكم تستوعبون تماما الكتب الثلاثة الاخرى الموجودة فيه...

٧ – De speciebus cordium في احكام الادوية القلبية

النص الاصلي موجود في مكتبة الاسكوريال رقم ٥/٨٤٤

– باريس المكتبة الوطنية رقم ٥٩٦٦

– المتحف البريطاني رقم ٥٢٨٠

الطبعة اللاتينية Avicenne... Opera Venetiis, البندقية ، لوكاتلوس ، ١٥٠٨

المخطوطات اللاتينية : يجب النظر في المخطوطات التي ضمّت كتاب «النفس» ، لان القديس البرته الكبير عثر عليها الى جانب كتاب «النفس».

غير ان الترجمة التي نحن بصددها ليست كاملة. ارنلده فيلانوفا «Arnaldo Villanueva» ترجم التأليف بكامله والترجمة تقسم الى مقالتين : الاولى من عشرة فصول والثانية من خمسة. غير ان المخطوطات العربية تقسمها الى فصلين.

طبعت ترجمة «فلانوفا» مرات عديدة مع مؤلفات اخرى لابن سينا.

وقد اهمل يوحنا الاسباني الفصل الاول وغيره. الترجمتان مختلفتان كثيرا انما النص الاصلي الذي اخذنا عنه واحد...

ولا شك ان الترجمة الناقصة هي من يوحنا الاسباني كما يستدل على ذلك من طبعة البندقية التي جاء فيها : ...Dixit Auohaueth iurganus (Hispanus)... ..

٨ – **Liber De Vegetalibus في النبات ، لابن سينا** :

النص الاصلي : لندن المتحف البريطاني ٧٥٠٠
Library of the India office ٤٧٦

والترجمة مفقودة ولكنها في القرن الرابع عشر كانت موجودة في السوربون :

Z. i. Liver ejusdem (Avicennae) de vegetalibus sequitur tractare utiliter de vegetalibus

هذا النص يدل على انها كانت موجودة ، والمترجم هو يوحنا الاسباني او ابن داود بعد ان قرر ترجمة القسم الثاني من كتاب «الشفاء» لابن سينا.

٩ – **Sufficientia physicorum الفن الاول من الطبيعيات** لابن سينا :

النص الاصلي العربي : موجود في برلين : .Qu ١١٣٩
لندن المتحف البريطاني : ٧٥٠٠
Library of the India office ٤٧٦
مدريد : Madrid ٥٠٠٨

طبع في البندقية .Venecia, Locatellus, 1508 ١٥٠٨

النص اللاتيني غير كامل.

النص اللاتيني : في النمسة ٤٨٢ ، ,Graz. Bibl. Univ. II

انكلترة : اكسفورد ٢٨٤ Balliol College

Merton College, ٢٨٢

Bodl. Digby ٢١٧

- فرنسة : ليون ٤١٢ ،
- باريس ، المكتبةالوطنية رقم ٦٤٤٣٠ لاتيني
- باريس ، المكتبة الوطنية ١٦٦٠٤ لاتيني.
- مازارين : ٣٤٧٣

ايطالية : نابلي : المكتبة الوطنية مخطوط ٤٩ XI A. A

- رومة الفاتيكان المخطوطات اللاتينية : ٢٠٦
- البندقية : القديس مرقس مخطوط رقم ١٧١

المانية : كويس Kues : ٢٠٥

يقول الاب الونسه الونسه : «يوحنا الاسباني او ابن داود هو غير يوحنا الاشبيلي ، والطريقة للتمييز بينهما هي ان جميع الترجمات المرتبطة بدمنقه غندسلفه او برئيس اساقفة طليطلة عن قرب او عن بعد هي ليوحنا الاسباني او ابن داود بينما جميع بقية الترجمات يجب ان تنسب الى يوحنا الاشبيلي. وينتج عن ذلك ان يوحنا الاسباني او ابن داود اشتغل في الفلسفة بينما يوحنا الاشبيلي اشتغل في العلوم وخاصة علم الفلك وعلم النجوم»[(١)]

دومنقه غندسلبه : DOMINGO GUNDISALVO

لا نعرف الكثير عن حياته ، يظهر باسماء عديدة فهو «غندسلفي» وغندسلينوس وغنسلفي.

(١) الاب الونسه الونسه : ترجمات ابن داود. مجلة الاندلس العدد ١٧ - غرناطة ومدريد ، صفحة ١٥١ ، الفرزة ١.

كان رئيس شمامسة «ارشدياقن» في شقوبية ، وهو لقب كنسي لا يستهان به في ذلك العهد ولا يدركه الا كل صاحب رتبة كبيرة في اكليروس كاتدرائية طليطلة .

عاش في هذه المدينة وبيته فيها ومزارعه ، ظهر اسمه مرارا عديدة في صكوك البيع والشراء والتنازل والميراث والهبة منها هذا الصك الذي يقول :

صك بيع يخوله الارشدياقن دومنقه غنصلبه واندرس بن عبدالله ، ودون تومه سترنين ، منفذو وصية رئيس الكهنة «دون نقولا» من اكليروس الكاتدرائية . هذان الاثنان (اي اندرس بن عبدالله ودون تومه سترنين) عن نفسها وباسم الارشدياقن دون غنصلبه منفذ وصية مثلها لصالح رئيس الاساقفة دون بدره بن مخائيل ، إمام في كنيسة سانتا مريا من طلبيرة ، بيع بيت واسطبل تجاه الكنيسة التي كانت في السابق مسجدا في حي الكاتدرائية في قلب طليطلة . يحد المنزل شرقا منزل آخر يخص ورثة القائد دون شبيب وغربا شارع ينطلق من الكاتدرائية الى البئر المرة ، وجنوبا شارع يقطع الشارع السابق ويطل باب الدار على هذا الشارع وشمالا بيت رئيس جوقة الكاتدرائية .

والاسطبل يحده شرقا منزل ورثة بدره ، وغربا دار صغيرة لرئيس الكهنة «دون نيقولاس» وجنوبا دار كانت تخص «اباريسيه» «APARICIO» وشمالا شارع يطل عليه الباب ، بقيمة ٢٠٢ مثقالا من الذهب الالفونسي .

التاريخ حزيران ١٢١٦ اي عام ١١٧٨ ، يسلم البائعون صك التملك

انا دون كولار ارشدياقن اثبت

انا فرنسيسكو ارشدياقن اثبت

انا ريموندس كاهن اشهد

انا يوحنا السكرستاني اشهد

انا بطرس من كنيسة القديس ميخائيل دياقن اشهد

انا دومنقس المستعرب اشهد

وانا غندسلبه الارشدياقن منفذ وصية رئيس الكهنة نقولا ابيع واثبت .

انا خادم مذبح القديس توما في كنيسة القديسة مريم اشهد .

ونلاحظ وجود عدة «ارشدياقن» (رئيس شمامسة) في الوقت ذاته في طليطلة تابعين للكاتدرائية . واذا راجعنا الوثائق الطليطلية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر نرى ان رئيس

الشمامسة لقب يطلق على «ارشدياقن مدريد» وآخر «ارشدياقن وادي الحجارة» و«طلبيرة» و«شقوبية» ، وهؤلاء الذين يحملون هذا اللقب لا علاقة لهم بكنائس المدن المذكورة الا اذا كانوا يقضون بعض حاجات المؤمنين المنتسبين الى هذه المدن ، وتحت رعاية «البرماط» «Primado» ، رئيس الكنيسة الاسبانية.

ليس لنا ما يقال في صحة هذه الوثيقة ولكن قد يشاء البعض ان يرى في الارشدياقن غندسلبه هذا غير المترجم المشهور ، ولا ندري ما هي الحجة التي تحملهم على هذا الافتراض فانه من المستبعد جدا ان يكون شخصان لها الرتبة ذاتها والاسم ذاته وابوهما يحمل ايضا الاسم ذاته ، مختلفين بل شخصا واحدا ، الا اذا وجد برهان يثبت عكس ذلك.

يحمل غندسلبه لقب «ارشدياقن» شقوبية في ترجمة «مقاصد الفلاسفة» للغزالي ، لان بقية المخطوطات التي تذكر الترجمات التي انجزها غندسلبه لا تعطيه اللقب السابق بل تكتفي بالقول «ارشدياقن». وبالفعل فان يوحنا الاشبيلي في مقدمة ترجمة كتاب «النفس» لابن سينا يقول «دومنقه ارشدياقن» والمخطوط المتضمن هذه الترجمة موجود في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ٦٤٤٣ لاتيني ويقول على الهامش :

Liber Avicence de Anima, translatus de arabico in latinum a Dominico archidiacono».

وفي المخطوط ذاته توجد ايضا ترجمة متفيزقا ابن سينا وتقول في الخاتمة :

«Completus est liber quem transtulit Dominicus Gundisalvi archidiaconus Toleti, de arabico in latinum».

وكذلك فانه في كتاب «تكوين العالم» «Processione mundi» الذي هو من تأليف غنْدسلبه وموجود في المخطوط ذاته يقول :

«Completus est liber quem transtulit Dominicus Gundisalini archidiaconus Tholeti, de arabico in latinum».

ومعناه : «تم هذا الكتاب الذي ترجمه دومنقه غندسلبه ارشدياقن طليطلة ، من العربية الى اللاتينية.

وعلى ما يبدو ان غُنْدِسَلْبُه لم يكن من المستعربين ، ولكن مع الوقت ، ونظرا لدراساته وتعلم اللغة العربية اصبح قادرا على الترجمة. واذا كان لا يعرف العربية بين عامي ١١٤٠ و١١٥٠ فهذا لا يعني انه بعد هذا التاريخ ظل على جهله اللغة العربية واذا كان هو الذي وضع النص

اللاتيني فلا يعني انه لا يعرف العربية والتأثير الذي نشاهده في مؤلفاته بعد عام ١١٥٠ يدل على انه تأثير مباشر من مصادر عربية.

لا يعرف بالضبط تاريخ وفاته، غير انه في عام ١١٨١ كان ما زال حيا وبالفعل نستخلص ذلك من الصك التالي:

«بيع بستان وكرم عنب ملاصق له، بمَا فيه من الاشجار المثمرة وغير المثمرة، ومعصرة وطاحونة وناعورة مع حوض في ضواحي طليطلة، يحده شرقا بستان يخص الارشدياقن دومنقه غندسلبه، وكرم لرهبان سانتياقوب، التاريخ شهر آذار سنة ١٢١٩ اي ١١٨١ [١].

غُنْدِسَلْبُه المؤلف:

لم يقتصر غندسلبه على الترجمة بل شعر من نفسه بالقدرة على التأليف وان اقتفى في ذلك اثر الذين ترجم لهم مثل الفارابي وابن سينا. نسبت اليه المؤلفات التالية:

١ – الوحدة والواحد De unitate et Uno.

٢ – في خلق العالم De processione mundi

٣ – في خلود النفس De immortalitate animae

٤ – في العلوم De scienciis.

٥ – في تقسيم العلوم. De ortu scienciarum.

١ – شاء غندسلفه في كتابه «الوحدة والواحد» ان يبرهن ان الله خلق، مباشرة وبدون اي توسط، ثلاثة انواع من الكائنات.

آ – السماوات بكل ما فيها.

ب – الكائنات القابلة للكون والفساد.

ج – الملائكة باجواقهم وعددهم الكامل.

ويرى غندسلبه ان هذه المخلوقات الثلاثة جاءت الى الوجود في وقت واحد فلا اسبقية بين بعضها البعض لا بالزمان ولا بالعلة. كما ان وجود واحد من هذه الكائنات لا يفترض تدخل الكائن الآخر وبالتالي فليس من وسط بين اجناسها وانواعها.

---

(١) Angel Gonzalez Palencia: doc. 154: «Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII.

هذا المذهب الفلسفي يخالف مذاهب الفلاسفة العرب مثل الفارابي وابن سينا وما جاء في كتاب «ينبوع الحياة» لابن جبرول وكان قد ترجمه غندسلبه من العربية الى اللاتينية.

ويقسم الكائنات الى: الكائن الموجود منذ الازل.

– والكائن الزمني الذي وجد مع الزمن، والله وحده ازلي ليس له اول ولا آخر وهو خالق جميع الاشياء اما بقية المخلوقات فهي من صنع الله وابتدأت بالوجود. ولكن يوجد فرق بين المخلوقات: بعضها ابتدأ بالوجود قبل الزمان مثل الهيولي والملائكة، وغيرها ابتدأ بالوجود مع الزمان مثل الاجرام السماوية والعناصر الاربعة. واخيرا الكائنات ابتدأ وجودها بعد الزمن وهي كل بقية المخلوقات.

المادة والصورة:

يرى غندسلبه أن الاجسام تتركب من المادة والصورة فالمادة خاصة بكل فرد والصورة عامة ومشتركة مع جميع افراد النوع الواحد، وتصبح فردية عندما تلتحق بمادة معينة.

التجريد:

اقتبس غندسلبه التجريد عن ابن سينا. فلكي ندرك الصورة الشاملة يكفي أن نخلع عنها بالتجريد، المادة الملتصقة بها واللواحق الاخرى التي تجعلها مشخصة، وبهذا نحصل على فكرة الماهية عند الاشياء.

فالتجريد اذاً ليس سوى تصور ساذج لصورة شيء ما.

يوجد تجريد كامل وتجريد غير كامل. فالحواس الخارجية والتصور يكون تجردها غير كامل لأنها تقبل الصورة مع المادة واللواحق والعوارض. العقل فقط يستطيع أن يحقق تجريدا كاملا مسلوخا تماما عن المادة والعوارض الفردية.

في كتاب خلق العالم يبتدئ غندسلبه بتقديم البراهين على وجود الله ومعرفته وصفاته. نقطة الانطلاق عنده هي العالم المنظور.

ترك الله اثره في المخلوقات ولذلك نستطيع الوصول الى معرفته فإن الخلائق تعكس السلطة والحكمة والوجود والجودة عند الله.

يملك الانسان عدة قوى عاقلة تنطلق متدرجة من الحواس الخارجية الى التصور الى العقل الى الفهم والى الادراك. ذلك هو التدرج للوصول الى معرفة الاشياء الالهية، فالحواس تلتقط

الصور الحسية مع المادة الملتصقة بها ، والتصور يلتقط الصور الحسية بتغيب مادتها ، بينمَا العقل يلتقط الصور الحسية دون مادة ، والادراك يأخذ الصور المعقولة فقط والفهم يلتقط الصور البسيطة كاملة.

وقد ذكر غندسلبه عدة براهين يثبت فيها وجود الله :

١ - تركيب الكائنات الطبيعية من مادة وصورة ولها صفات مميزة تختلف الواحدة عن الاخرى ولذلك فإنها تحتاج الى من يركبها وهو الله.

٢ - كل ما ابتدأ بالوجود له بداية. والعالم ابتدأ بالوجود بحيث أنه انتقل من الامكان والقوة الى الفعل ، ولذا له بداية وعلة وهذه العلة هي الله.

٣ - العالم مر من القوة الى الفعل وهذا الانتقال هو حركة ، ولكن كل ما يتحرك فهو يتحرك بآخر ، اذاً لم يبتدئ العالم بذاته بل بعامل آخر اعطاه الكيان وهذا هو الله.

٤ - بامكان الوجود وضرورة الوجود ، وهذا البرهان مأخوذ عن ابن سينا.

انه يوجد كائن واجب الوجود له الميزات التالية :

- انه السبب الاول ومصدر جميع الكائنات والاشياء.
- واحد
- لا يتحرك.

الخلق :

تحت العلة الاولى الواحدة والوحيدة الابدية غير المتحركة ولكنها تحرك جميع الاشياء وتسبب العلل الثانوية توجد : الارواح السماوية والنفس الطبيعية وكل هذه صادرة عن العلة الاولى.

وجميع المخلوقات تصل الى الوجود بطريقة من هذه الطرق : اما بالخلق واما بالتركيب واما بالتوالد فالعلة الاولى تسبب في وجود حركتين : الواحدة وهي خاصة بالعلة الاولى وهي الخلق ، والاخرى التركيب.

العلل الثانوية تنتج حركات للتركيب والتكون.

الخلق هو اخراج الاشياء من العدم. اما التركيب والتكوين فإنهما يعنيان العمل في حقائق

موجودة والتكون ناتج عن المبدأين الاولين لجميع الكائنات وهما المادة والصورة الصادرتان راسا عن الله بواسطة الخلق. وجميع الكائنات تخرج عن تركيب المادة والصورة الاولين.

يقول غندسلبه ان الله واحد بسيط ولكن الخليقة الاولى التي تصدر عنه يجب أن تكون مركبة ومزدوجة وهذه هي المادة والصورة وعلى هذا النحو فالله الواحد البسيط الضروري يقابل عند المخلوقات: الثنائية والتركيب وامكانية الوجود.

ثلاثة هي مبادئ التكوين: العلة الفاعلة التي بواسطتها يتم التكوين، والمادة التي بها يجري التكوين والصورة، فلا المادة تستطيع الوجود بدون الصورة ولا الصورة بدون المادة.

والكائن بالاجمال يقال عنه: كائن بالقوة وكائن بالفعل، اي تجمع الصورة والمادة، ولذلك لا يمكن وجود صور مفارقة ولا مادية لأن الصورة يمكن أن توجد فقط في المادة.

والمادة والصورة قبل أن تتحدا لهما كائن بالقوة اي ذلك الكائن الموجود في حكمة الباري تعالى.

والمادة والصورة هما كائنان بالقوة وكل واحدة منفصلة عن الاخرى في فكر الله، وتصبحان كائنا بالفعل عندما تتحدان. ويحل مسالة خلق المادة والصورة عندما يطبق مبدأ التمييز بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل. والمادة والصورة ازليتان اي موجودتان منذ الازل في حكمة الخالق.

والمادة والصورة هما شيئان متميزان ومتعارضان ولا تتحدان من تلقاء انفسهما بل تحتاجان الى علة تجمعهما، وهذه العلة لا يمكن أن تكون غير الله، وبالحقيقة فإن خلقهما من العدم يعني التوحيد بينهما.

فالمادة والصورة غير متاتيتين من الله بالتوليد بل بالخلق من العدم. وتدرج الكائنات عند غندسلبه يتبع الطريقة الانحدارية: الله، العلة الاولى، الوحدة والبساطة، يخلق في الحال، المادة والصورة هما وحدتان بسيطتان.

من الاتحاد بين المادة والصورة يخرج خلق ثالث هو العقل والاجسام السماوية والعناصر الاربعة.

العقل يخلق النفوس التي تحرك السماوات
ومن حركة السماوات تاتي حركة العناصر
ومن حركة هذه العناصر ياتي مزيجها وخليطها.

ومن هذا المزيج وعن طريق الكون والفساد تصدر جميع الكائنات في العالم الارضي.

ومن هنا نستطيع ادراك الخطوة التي سار بها غندسلبه في طرح المشاكل وطريقة حلها وعرضها على الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر والمصادر التي استقى منها.

وكما نرى فإنه قد جمع بين مذهب ارسطو: «المادة والصورة» ومذهب الافلاطونية المحدثة مبدأ الصدور. كما نراه عند الفارابي وابن سينا مع بعض الاختلاف.

غُنْدِسَلْبُه المترجم: DOMINGO GUNDISALVO

لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده، كما لا يعرف تاريخ وفاته، وعلى الارجح أنه ولد في اوائل القرن الثاني عشر وتوفي بعد عام ١١٨١. يظهر اسمه في عدة وثائق بيع وشراء في ذلك العهد مكتوبة بالعربية ويظهر اسمه على هذا النحو: «الارسدياقن دون دمنقة غنصالبة».

«ARCEDIANO DOMINGO GONZALBO»

وقد كانت المعلومات عنه غامضة قبل أن يكتشفه «جوردين» فقد ذكره «نقولاس انطونيو» بثلاثة اسماء مختلفة: «غنصاله الاسباني، ودومنقه ارسديانه الشقوبي وخوان غوندسالفه»، وهذه كلها اسماء لشخص واحد.

وله اسماء اخرى مثل «غندسلينوس، وغندسلفي»،

GUNDISALINUS, GONZALBI.

كان له معاون في الترجمة هو يوحنا الاشبيلي او يوحنا الاسباني او ابن داود وهي اسماء لشخص واحد، يهودي اعتنق الديانة المسيحية.

الترجمات المنسوبة اليه موجودة في مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس يحمل الرقم ٦٤٤٣ يرجع الى القرن الثالث عشر وفي القرن السادس عشر كان في حوزة «دي تو» «DE THOU» ويتضمن:

١ — ميتافيزقا ابن سينا «Metaphysica Avicennae...»

وبعد نهاية الكتب العشرة الاولى نقرأ

«Completus est liber quem transtulit Dominicus Gundisalvus archidiaconus Toleti, de arabico in latinum, fol. 43.

٢ – «Physicorum Avicennae liber primus» « الكتاب الاول لفيزياء ابن سينا » .

لا يذكر شيئا عن اسم المترجم ولكن ليس من شك في أن الترجمة هي من صنع غندسلبه نظرا للموضوع والاسلوب والمكان الموجود فيه النص اللاتيني في المخطوط .

٣ – كتاب النفس لابن سينا Liber de Anima Avicennae

وتنقسم هذه المقالة الى خمسة فصول وتنتهي في الورقة رقم ٨٩ في المخطوط الآنف الذكر... لا يذكر اسم المترجم في هذا المخطوط غير أن الاسم وارد في المخطوط رقم ٦٥٥٢ اذ يقول أن المترجم هو المعلم دومنقه ارسدياقن الشقوبي .

٤ – Incipit Physica Algazelis «تبتدئ فيزياء الغزالي» صفحة ١٥٦ ، وعند انتهاء الفصول الخمسة في ورقة ١٦٤ يقول : .Explicit Algazelis totus

٥ – «Liber Avicennae de ortu scientiarum» «كتاب ابن سينا في اصل العلوم» : ورقة ١٨٥ .

٦ – «Incipit Logica Algazel» «يبتدئ منطق الغزالي» ورقة ٢٠١ من المخطوط ٦٤٤٣ .

٧ – «Logica Avicennae» «منطق ابن سينا» ورقة ٢٠٨ ، ينسبه البرت الكبير الى ابن داود اي معاون دومنقه غندسلبه...

والمخطوط رقم ٦٥٥٢ في المكتبة الوطنية بباريس في الورقة ٤٣ منه تبتدئ متافيزقا الغزالي وقد استهلت هكذا :

«Incipit liber Philosophiae Algazel, translatus a Magistro Dominico archidiacono Segobiensi, apud Toletum, ex arabico in latinum».

٨ – وفي الورقة ٦٢ من المخطوط رقم ٦٥٥٢ نقرأ : «Incipit liber fontis vitae»

هذا الكتاب «ينبوع الحياة» ترجمة دومنقه غندسلبه من العربية الى اللاتينية ، وهو من تاليف بن جبرول وكان «مونك» قد نشر مقاطع طويلة منه واعتبره مغفلا ، غير أن جوردين شك في المترجم ، غير أن نسخة اخرى من كتاب Fons vitae عثر عليها في مكتبة «مازارينا» تحمل هذه النسخة رقم ٥١٠ من المخطوطات اللاتينية وينتهي المخطوط على النحو التالي : انجزت المقالة الخامسة التي تبحث في المادة الاولى والصورة الاولى وبانتهاء هذه الترجمة انتهى الكتاب كله بعون الله ورحمته والكتاب هو لابن جبرول .

المترجمان هما الاسباني يوحنا ومساعده دومنقه غندسلبه ، والنقل جرى من العربية . ولا حاجة الى ذكر النص اللاتيني .

وقد عثر منينديس بيلايو على مخطوط آخر لكتاب «ينبوع الحياة» «Fons vitae» في اشبيلية المكتبة الكولومبينة يحمل رقم ٥ – ٢٥ في سلسلة الكتب التي كانت تخص فرناندو وكولون . والمخطوط يرجع الى القرن الثالث عشر مثل مخطوطي باريس ويبتدئ المخطوط هكذا :
«Incipit liber fons vitae Avicebronis philosophi. Scinditur autem in quinque tractatus.»

وينتهي : «Consummatus totus liber cum auxilio Dei et ejus misericordia».

٩ – ترجم غندسلبه للفارابي كتابين تقسيم العلوم للفارابي : «Alfarabii, De scienciis»

١٠ – «Fontes questionum» عيون المسائل للفارابي .

ترجماته مفصلة :

نتحدث عن الترجمات المنسوبة عادة اليه وهي عشر ترجمات : وقد بحث الموضوع كثيرون دون الوصول الى نتيجة حاسمة في القضية ، لأنه من المعروف أن غندسلبه تعاون مع يوحنا الاسباني او ابن داود وبالتالي من الصعب جدا معرفة ما ترجم غندسلبه وما ترجم ابن داود . وقد شاء ستينشنيدر أن ينسب جميع الترجمات الى ابن داود ، وفي الوقت ذاته لا يريد أن ينكر على غندسلبه اسهامه في هذه الترجمات . من المفيد معرفة النسبة الكبرى لكل واحد منهما في كل ترجمة ، اذ انه توجد عشرون ترجمة مشتركة بينهما . . .

١ – كتاب تقسيم العلوم عند الفارابي : انه من ترجمة غندسلبه ولا حاجة بنا الى ذكر مخطوطاته العربية فقد وردت في كتابي «عروق الذهب في مناجم الروم والعرب» صفحة ٤٦٠ وما بعدها .

النص اللاتيني : له ترجمتان : الواحدة في باريس ، المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية رقم ٩٣٣٥

والاخرى في بروج Bruges : المكتبة العامة مخطوط رقم ٤٨٦ .

اما مخطوطات الترجمة الثانية فقد ضمت الى مخطوطات اخرى موجودة في النمسة وانكلترة ورشستير Worcester واكسفورد .

وقد طبع غنصالس بالنسية هاتين الترجمتين واعطانا النص العربي الموجود في دير الاسكوريال مضيفا اليه لائحة بالتغييرات في هذا النص المقابل مع ما نشر في القاهرة.

الترجمة الاولى منسوبة الى جيرارده الكريموني من شهادة المخطوطين القائلة:

«Liber Alpharabii de scientiis translatus a magistro Girardo Cremonensi in Toleto, de arabico in latinum cujus in eo haec sunt verba».

والترجمة الثانية هي سابقة الاولى وينسبونها عادة الى دومنقه غندسلبه، وهي بالفعل لغندسلبه الذي نقل عنها كتابه «في العلوم» De scientiis على اساس كتاب الفارابي.

واذا قابلنا بين الترجمتين اللاتينيتين نلاحظ أن نص غندسلبه اقصر بكثير من نص جيرارده الكريموني، فبينمَا الاول لا يزيد على ٢٩ صفحة. يصل الثاني الى ٥٨ اي ضعف الاول.

نص جيرارده الكريموني كامل ويطابق مطابقة تامة المخطوطات العربية الموجودة في الاسكوريال والقاهرة والنجف.

بينمَا نص غندسلبه يهمل الكثير من الجمل ويبدل ويشير الى نصوص تختلف عن نصوص الفارابي واذا قابلنا النصين نجد الفرق واضحا.

جيرارده الكريموني

Haec scientia dividitur in septem partes magnas, quas comprehendimus in principio libri.

دومنقه غندسلبه

Sciencia vero doctrinalis dividitur in has partes quae sunt Arithmetica, Geometria, scietia de aspectibus, scientia stellarum, Musica, scientia de ponderibus, scientia de ingeniis».

اما الفارابي فيقول: هذا العلم ينقسم الى سبعة اجزاء احصيناها في أول الكتاب [١].

ويقول الاب الونسه الونسه: إن من المقابلة بين الترجمتين نرى أن ترجمة جيرارده الكريموني متاخرة عن ترجمة غندسلبه في الزمن كمَا يتبين من هذين النصين:

---

(١) غنصالس بالنسية: الفارابي: احصاء العلوم مدريد ١٩٥٣، صفحة ٥٤.

دومنقه غندسلبه	جيرارده الكريموني
Et hoc docetur in libro qui intitulatur de animalibus, et in libro de anima, et in libris qui sunt usque ad ultimum librorum de naturalibus	Et octavo et est in libro animalium et libro de anima et qui sunt post utrosque usque ad postremum librorum naturalium est consideratio in eo in quo communicant species animalium.»
(١)	(٢)

ويقول الفارابي : «... والثامن وهو كتاب الحيوان وكتاب النفس... النظر فيمَا تشترك فيه انواع الحيوان وما يخص كل نوع منها.

فنرى أن نص غندسلبه سابق لنص جيرارده، لأن العبارة اللاتينية في نص جيرارده :

«et qui sunt post utrosque usque ad postremum librorum naturalium».

غير واردة في نص الفارابي، وقد استعارها جيرارده من نص غندسلبه.

ويمكن القول أن ترجمة غندسلبه جرت حوالي عام ١١٥٠ بينمَا جيرارده تاخر في ترجمته حتى سنة ١١٧٥ لأنه كان ما زال بحاجة الى توسط مساعده غالب لترجمة كتاب «المجسطي».

٢ – Liber Al-Kindi de intellectu – كتاب الكندي في العقل

النصوص اللاتينية موجودة في الولايات المتحدة «بلتمور» Walter's Library والمخطوط غير مرقم.

- في باريس المكتبة الوطنية : مخطوطات لاتينية رقم ٦٣٢٥
- في رومة الفاتيكان رقم ٢١٨٦ مخطوطات لاتينية.
- في اكسفورد Merton College رقم ٢٢٨.
- في بودليانا، Digby ٢١٧ . 217
- في البندقية بايطالية بسان مرقس، ٣٩.

(١) غنصالس بلانسية، الفارابي، صفحة ١١٠.

(٢) غنصالس بلانسية، الفارابي، صفحة ١٦٣.

– في فيينة، المخطوط رقم ١٧٧٢.
– في الدانمرك Kohenhaum، المكتبة الملكية ١٦٤.

وتوجد ترجمة اخرى منسوبة الى جيرارده الكريموني وتحمل عنوان «De ratione» «في العقل» مخطوط باريس، المكتبة الوطنية رقم ٦٤٤٣، وروما : angelica رقم ٢٤٢.

نقابل الترجمتين :

	غندسلبه	جيرارده
عقل	Intellectus	Ratio
معقولات	Intelligibilia	rationabilia
عقل	intelligere	rationari

وقد طبع الترجمتين ناجي : نقدم انموذجا عنهما :

غندسلبه

«Sententia eorum est, quod intellectu est secundum quatuor species, prima est intellectus qui semper est in actu, secunda est intellectus qui in potencia est in anima, tertia est intellectus cum exit in anima de potentia ad effectum, quarta est intellectus quem vocamus demonstrativum, et hunc intellectum assimilavit Aristoteles sensui».

جيرارده الكريموني

«Comprehensio quidem sermonis Platonis et sermonis discipuli ejus Aristotelis est quod ratio est secundum quatuor species, prima quarum est instrumentum omnium rationatorum et rationatum secunda est ratio quae potentia est in anima, tertia est ratio cum exit in anima de potentia ad effectum, quarta ratio est illa quam denominamus demonstrativam et est assimilatio rationis cum sensu.»(1).

وهذا هو النص العربي : فلنقل في ذلك على السبيل الخبري أن رأي ارسطوطاليس في العقل : أن العقل على اربعة انواع : الاول منها العقل الذي بالفعل ابدا، والثاني العقل الذي بالقوة وهو للنفس، والثالث العقل الذي خرج في النفس من القوة الى الفعل، والرابع العقل الثاني كما نسميه وهو يمثل العقل بالحس.

---

(1) Dr. Albino Nagy Die Philosophischen abhandlungen des Yacub Al-Kindi, Munster 1897 p.l.

ونرى أن دومنقه غندسلبه يذكر ارسطوطاليس في آخر الجملة.
ولنلاحظ الفرق بين الاثنين في النص التالي:

جيرارده الكريموني	دومنقه غندسلبه
Haec igitur forma, quae materiam non habet nec phantasiam, est radio «adquisita» animae ex ratione prima».	Haec igitur forma, quae jam materiam non habet nec phantasiam, est intellectus «adeptus» animae ab intelligentia prima».

يقول النص العربي: «فهذه الصورة التي لا هيولي لها ولا «فنطاسيا» هي العقل المستفاد للنفس من العقل الاول».

جيرارده يستعمل لترجمة كلمة عقل: «Ratio» بينمَا غندسلبه يستعمل الكلمة «Intellectus»

٣ – De intellectu et intellecto **العقل والمعقول لاسكندر الافروديسي:**

نجد النص العربي في مخطوط الاسكوريال رقم ٧٩٨.

اما بشان النص اللاتيني فإن «تيري» G. Théry يذكر خمس عشرة مخطوطة منه في تأليفه:
Autour du décret de 1210. II Alexandre d'Aphrodise.... Desclée, 1926 p. 68-83.

وهذا الكتاب ليس من ترجمة جيرارده، بل من دومنقه غندسلبه لأن المترجم لا يستعمل كلمة «Rationale» للدلالة على العقل كما يستعملها جيرارده، بل يستعمل كلمة Intelligibile المفضلة عند غندسلبه اذ يذكرها ٢٧٥ مرة ولا يذكر «Ratio rationabilis» مرة واحدة.

مخطوطات هذه الترجمة موجودة في: المكتبة الوطنية بباريس رقم المخطوط اللاتيني ٦٣٢٥ صفحة ٢٣٠ نقرأ هذه العبارة:

«Incipit liber Alexandri de intellectu et intellecto secundum sententias Aristotelis translatur a G. de Greco in latinum ab, Ysaac filio Johannitii».

ومعناها العربي: يبدا كتاب اسكندر الافروديسي عن العقل والمعقول حسب ما جاء عند ارسطوطاليس وهذا الكتاب مترجم من اليونانية الى اللاتينية من قبل اسحق بن حنين.

ونرى أن هذا العنوان غير معقول اذ انه كيف أن اسحق بن حنين قد نقله من اليونانية الى اللاتينية ، فهذا الخطأ كاف لكي نشك بصحة نسبة الكتاب...

وتجدر الاشارة الى أن هذه الترجمة موجودة بين المخطوطات التي تضم ترجمات غندسلبه.

– مكتبة الفاتيكان ، المخطوطات اللاتينية رقم ٢١٨٦.

– باريس المكتبة الوطنية ، المخطوطات اللاتينية رقم ١٦٦١٣.

ويجب مقابلة سبعة عشر مخطوطا لاتينيا موجودة فيها الترجمة ، مع النص العربي وقبل ذلك مقابلة النص العربي بالنص اليوناني وعلى ما يظهر أن النص العربي يتفق والنص اليوناني اكثر من اتفاقه مع النص اللاتيني.

٤ – De intellectu de Al-Farabi العقل عند الفارابي :

نجد النص اللاتيني في – مكتبة باريس الوطنية المخطوطات اللاتينية رقم ٩٥٧٠

– مكتبة باريس الوطنية المخطوطات اللاتينية رقم ٦٣٢٥

– مكتبة باريس الوطنية المخطوطات اللاتينية رقم ٨٨٠٢

– مكتبة باريس الوطنية المخطوطات اللاتينية رقم ١٦١٥٩

– رينس مكتبة البلدية : ٨٦٤ ، ٨٦٥ Reims

– رومة الفاتيكان المخطوطات اللاتينية : ٢١٨٦

– النمسا Admont. Stiftsbibliothek : ٤٨٧

لا نعرف شيئا عن المترجم والعنوان ذاته يقول لنا أن المترجم ليس جيرارده الكريموني فلو كان هو لوضع له عنوان «De ratione» بدل «De intellectu» على الاقل مرة من اصل مائتي مرة ترد الكلمة اللاتينية الاخيرة في هذا النص.

وقد استعمل البرتوس الاكبر هذه الترجمة.

٥ – عيون المسائل للفارابي «Fontes quaestionum»

النص اللاتيني نجده في رومة الفاتيكان المخطوطات اللاتينية رقم ٢١٨٦

Roma angelica رومة انجلكا : ٢٤٢

وحتى الآن لم يذكر احد هذه المقالة ولا اسم مؤلفها واقل منه الكلام عن مترجمها الى اللاتينية . واذا اجرينا مقابلة بسيطة بين النص العربي والنص اللاتيني نجدهما يتفقان تماما وكلمة flos Alpharabii يجب أن تكون «Fontes Alpharabii»

اما من حيث المترجم فلا نجد هذه المقالة في لائحة الكتب التي نقلها جيرارده الكريموني الى اللاتينية ، بينما نجد اسلوب غندسلبه فهو يستعمل كلمة : «Intellectum purum intelligens»

ولذلك نعتقد مع الاب الونسه أن مترجم هذه المقالة «عيون المسائل للفارابي» هو غندسلبه وليس جيرارده الكريموني .

٦ - كتاب التنبيه على سبيل السعادة Liber exercitationis ad viam felicitatis

وقد طبع هذا الكتاب في حيدر اباد ١٣٤٦ هـ. ويجب تمييزه عن كتاب آخر للفارابي هو «كتاب تحصيل السعادة» ، وقد طبع ايضا في حيدر اباد سنة ١٣٤٥ هـ.

المخطوطات اللاتينية لهذا الكتاب : نشر الاب سلمان النص اللاتيني في مجلة : Recherches de Théologie ancienne et medievale XII, 1940 Libienfeld Bibl. يوجد مخطوط في النمسة : ١٥٢ .

اما بشان المترجم فلا احد يذكر عنه شيئا . النص موجود في مخطوط «بروج» «Bruges» ويأتي بعده تأليف لغندسلبه ثم ترجمة لجيرارده الكريموني ، ومجرد وجود الكتاب بين هذه الكتب يدل على أن هذه الترجمة حصلت في الحقبة الاولى من الترجمات الفلسفية ، وبهذا فإن المترجم هو اما جيرارده الكريموني ، او غندسلبه وابن داود مجتمعان.

علينا أن نفحص جوهر المخطوط ، فننطلق من كلمة «Credulitas» «تصديق» في كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالي «اعتقاد» .

من ناحية اخرى كلمة «ذهن» العربية لم تترجم قط بكلمة «Ratio» «العقل» على طريقة جيرارده الكريموني بل ترجمت بكلمة «Intellectus» على طريقة غندسلبه .

نلاحظ ايضا في هذه الترجمة استعمال كلمات جديدة مثل كلمة «تعليم» ، يترجمها الى اللاتينية بكلمة «Quadrivialia»

وهذه التجديدات هي من صنع غندسلبه ، فقد ذكر «بومكير» «Baeumker» اكثر من

مائتي كلمة جديدة كتاب «ينبوع الحياة» لابن جبرول. والمترجم هو غندسلبه كما سنرى.

وفي ترجمة كتاب «مقاصد الفلاسفة» تظهر ايضا اكثر من مائتي كلمة جديدة. وهذا الاسلوب خاص بغندسلبه.

ويمكن القول أن مترجم هذه المقالة لم يصب دائما في اعطاء النص اللاتيني معناه العربي الحقيقي، وهذا يعني أن ابن داود لم يشترك في هذه الترجمة والتبعة تقع كلها على غندسلبه وحده.

٧ – كتاب التعريفات لاسحق الاسرائيلي Liber de definitionibus

النص العربي ضائع وليس عندنا سوى النص العبري.

النص اللاتيني موجود في مونيخ المخطوطات اللاتينية رقم ٨٠٠١، وهي ترجمة غير كاملة.

– باريس: المكتبة الوطنية رقم المخطوط ٦٤٤٣
المكتبة الوطنية رقم المخطوط ٦٨٧١
المكتبة الوطنية رقم المخطوط ٧٠٣٤
المكتبة الوطنية رقم المخطوط ١٤٧٠٠
المكتبة الوطنية رقم المخطوط ١٦٠٨٤

– فيينا: Bib. Dominikanenkloster رقم ١٢١
المكتبة الوطنية رقم ٢٤٣٨

– اكسفورد: Corpus Christi رقم ٨٦

– رومة: الفاتيكان رقم ٢١٨٦

وقد نشرت في ليون سنة ١٥١٥ ترجمة لاتينية كاملة لجميع مؤلفات اسحق الاسرائيلي «Omnia opera Isaaci. Lugd. 1515

مثلما وجدنا في كتاب «احصاء العلوم للفارابي» هكذا في كتاب «التعريفات» لاسحق الاسرائيلي نصان الواحد مترجم باختصار او مقتبس من النص الاصلي والثاني ترجمة كاملة، والاخيرة منسوبة الى جيرارده الكريموني بينمّا الاولى مجهولة المترجم، ويذكرها غندسلبه في كتابه «De divisione philosophiae» «تقسيم الفلسفة».

فلنقابل الترجمتين مع كتاب «تقسيم الفلسفة» الذي وضعه غندسلبه:

تقسيم الفلسفة	غندسلبه	جيراده الكريموني
Philosophi vero philosophiam duabus descriptionibus descripserunt quarum una sumpta est expropriétate ejus et altera ex effectu ejus.	Eam tribus descrip. tionibus descripserunt quarum una sumpta est ex nomine ejus, alia ex proprietate ejus alia ex effectus ejus.	Descripserunt eam descriptionibus tribus una earum est derivata ex nomine suo et secunda est sumpta ex proprietate sua, et tertia est accepta ex scientia sua.

ويمكن تقدمة امثلة اخرى عديدة للبرهان على أن غندسلبه في كتابه «تقسيم الفلسفة» يتبع النص المقتبس، وهو يختلف عن ترجمة جيرارده الكريموني الذي وضع امامه الترجمة المقتبسة وكتاب غندسلبه يأخذ من هذا ومن ذاك ما يشاء ويترك ما يشاء.

واليكم هذا المثال الآخر:

Descriptio vero philosophie sumpta ex effectus est haec: «philosophia est integra cognitio.	Descriptio philosophie ex effectu suo, Philosophia est cognitio hominis sui ipsius.	Philosophie vero descriptio ex scientia sua est quod philosophia est cognitio sui ipsius.

والنتيجة هي أن الترجمة المقتبسة من صنع غندسلبه، وقد اخرجها على الطريقة التي اخرج بها كتاب «احصاء العلوم للفارابي».

٨ — «رسالة العقل والمعقول»

Liber introductorius in artem Logicae demonstrationis.

ليست هذه الرسالة للكندي بلا لاخوان الصفاء، وعنوانها الحقيق باللاتينية: «In epistola de intellectu et intellecto»، وهي موجودة في المكتبة الوطنية بباريس رقم المخطوط اللاتيني ٦٤٤٣.

وفي رومة مكتبة الفاتيكان، المخطوطات اللاتينية رقم ٢١٨٦.

وفي اكسفورد DIGBY رقم ٢١٧. .

وقد تعرف ناجي على هذا المخطوط الموجود في طبعة «دياتريشي»«Dieterici» صفحة

٢١١ ولكنها ليست من ايراد جيرارده الكريموني لأنه كان وضع لها عنوانا آخر «de ratione et rationato» لا سيّمًا وقد ترجم قبل ذلك رسالة الكندي. كما أن كلمة «Intellectus» ومشتقاتها تظهر عشرات المرار في هذا النص الذي لا يوجد في لائحة الكتب التي نقلها جيرارده من العربية الى اللاتينية وسنأتي على ذكرها في محلها.

واذا لم يكن جيرارده المترجم فلا يبقى سوى غندسلبه نظرا للاسلوب والعبارات، كما انه يذكر هذه المقالة في كتابه «تقسيم الفلسفة». «De divisione philosophie»

كما ان بغناني – اوديبه عندما يعدد المؤلفات الموجودة في مخطوط الفاتيكان رقم ٢١٨٦ يقول:

«Al-Kindi Yacoub b. Ishaq, Liber introductorius in artem interpretantibus Johanne Hispalensi et Gundisalvo»(1).

وقد تكون هذه الترجمة من اول الترجمات التي حققها غندسلبه.

٩ – مقاصد الفلاسفة للغزالي:

النص اللاتيني لهذا المخطوط موجود في لاون Laon مكتبة البلدية: رقم ٤١٢

– باريس: المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية: رقم ٦٤٤٣

المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية: رقم ٦٥٥٢

المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية: رقم ١٤٧٠٠

المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية: رقم ١٦٠٩٦

المكتبة الوطنية المخطوطات اللاتينية: رقم ١٦٦٠٥

– رومة الفاتيكان: رقم ٤٤٨١

– طليطلة (اسبانية): Bib. Capitular ١٥ – ٤٧.

وفي اماكن اخرى من النمسة وانكلترة.

مترجم هذا الكتاب هو غندسلبه وليس من شك في ذلك فإن الطبعة الصادرة عام ١٥٠٦ تقول ما يلي:

«Incipit liber philosophiae Algazelis translatus a Magistro Dominico archidiacono Secobiensi apud Toletum ex arabico in latinum».

1 - J. Bignami-Odier: Le manuscrit Vatican latin 2186, en Archives d'Histoire XI (1938), 138.

وهذا النص نجده ايضا في المخطوط رقم ٦٥٥٢ المذكور اعلاه :

«Incipit liber philosophiae Algazel translatus a Magistro Dominico archidiacono Segobiensi apud Toletum ex arabico in latinum».

والترجمة على الاجمال حسنة فقد تمكن غندسلبه من نقل فلسفة الغزالي الى العالم اللاتيني وقد كان لهذا الكتاب تاثير كبير عند جميع فلاسفة القرون الوسطى فليس من احد منهم الا ذكره مرارا كثيرة[1] .

١٠ – الفن الثالث عشر من كتاب «الشفاء في الالهيات» :

Metaphysica Avicennae... Sive de prima philosophia

النص العربي : – طهران ١٩٠٣ – ١٨٨٥

– ليدن ١٩٣٧

– الاسكوريال : المخطوط ٦٢١ ، يوجد قسمان هامان من كتاب «الشفاء»

النص اللاتيني : طبعة البندقية .Bernardus Venetus, 1495 Locatellus 1508

المخطوطات اللاتينية : – باريس المكتبة الوطنية قسم المخطوطات اللاتينية : ٦٤٤٣

المكتبة الوطنية قسم المخطوطات اللاتينية : ١٥١١٤

المكتبة الوطنية قسم المخطوطات اللاتينية : ١٦٠٩٦

– مازارينا : Mazarino رقم ٣٤٧٣

– لاوون : Laon رقم ٤١٢

– الفاتيكان : رقم ٢١٨٦

– اكسفورد بودليان : رقم ٢١٧

– طليطلة : Bib. Capitular رقم ١٥ – ٤٧

ويقول المخطوط رقم ٦٤٤٣ :

«Completus est liber quem transtulit Dominicus Gundisalvus archidiaconus Tholeti de arabico in latinum».

(١) سيمون الحايك : «عروق الذهب في مناجم الروم والعرب : الغزالي ، صفحة ٥٣٦ – ٥٣٧ .

فلم يعد من شك في أن المترجم هو غندسلبه دون تدخل اي شخص آخر كما يشهد هذا المخطوط اللاتيني الموجود في المكتبة الوطنية بباريس، وبما أن المترجم واحد لم يتخلص من الوقوع في بعض الاخطاء فقد قرأ «ولا بالعرض»: ولا بالغرض. «الثانية» قرأها: «ثابتة»، واخطاء اخرى على هذا الشكل.

ولذلك فنكرر القول أن المترجم الوحيد هو غندسلبه. بعض المخطوطات تقول أنه تعاون مع يوحنا الاسباني الفيلسوق اليهودي وهذا امر مستبعَد جدا، اذ إنه لو تعاون معه لما وقع في اخطاء التي اشرنا اليها.

١١ — De convenientia et differentia subjectorum de Avicena.

من الصعب تحديد هذه المقاطع من موسوعة ابن سينا الضخمة.

النص اللاتيني: «باوير»

Baur. Domingos Gundisalinus: De divisione philosophiae, Beitrege Z. Gesch. IV (1903) 124-133.

– اكسفورد: بودليان رقم ٦٧٩ من المخطوطات اللاتينية

– بلجيكا المكتبة الملكية: المخطوط رقم ٢٨٩٨

ليس من احد يشك في صحة نسبة هذه الترجمة الى دومنقه غندسلبه، اذ انه شاء أن يدرجها في كتابه «تقسيم الفلسفة»، وهذه المقالة لم تنشر وحدها قط بل دائما ضمن كتاب «تقسيم الفلسفة».

جلنا في جميع الترجمات العربية اللاتينية التي يظهر فيها غندسلبه المترجم الاساسي، رغم أن يوحنا الاسباني مد اليه يد المساعدة في بعضها.

جيرارده الكريموني: Gerardo da Cremona

من اشهر المترجمين بحيث يمكن القول انه وحده ترجم بقدر ما ترجم الآخرون متجمعين. اشتغل في جميع فنون المعرفة: الفلسفة والحساب وعلم الفلك والعلوم الطبية. اضطر الى درس اللغة العربية واستعمال كلمات تقنية لم تكن معروفة في ذلك العهد. لا شك أنه اكبر عالم في القرون الوسطى، ادّى خدمات جليلة للعلم نظرا لسعة معارفه. غير أن شهرته لا توازي استحقاقاته.

نبحث عن السبب فنجده في تواضعه ، اذا اهمل ذكر اسمه في اكثر الترجمات . ولكن في منتصف القرن الماضي شرع الباحثون في اكتشافها شيئا فشيئا ، ولهذا الاكتشاف اهميته الكبرى التاريخية اذ يدل على أن القرون الوسطى ارتبطت بالعرب بعلاقات وثيقة فوق ما تصوره الباحثون وبدلت وجهات نظرهم فقلبتها راسا على عقب. اهتم الباحثون بترجمات جيرارده الكريموني ولكن معرفتهم لها هزيلة شاحبة.

احسن ما كتب عن جيرارده الكريموني درس وضعه «مرشان» P. MARCHAND في قاموسه التاريخي «Dictionnaire historique» ولكنه لم يتعرف على اكثر من عشر كتب لهذا الناقل الكبير.

ثم جاء فبريسيوس Fabritius فلم يذهب ابعد من «مرشان» الى أن جاء مورتوري Muratori ونشر كتاب «Chronique de Pipini» ضمن معلومات واسعة عن الكريموني وذكر أن الكتب التي نقلها عن العربية زادت على سبعين كتابا.

جاء جوردين «Jourdain» واضاف كتبا عديدة على اللائحة التي وضعها فبريسيوس.

وفي عام ١٨٥١ نشر بون كومباني «Boncompani» في رومة لائحة باسماء الكتب التي نقلها جيرارده الكريموني من العربية الى اللاتينية.

وفي عام ١٨٧٤ عثر لكليرك في باريس على لائحة شبيهة بلائحة بون كومباني الذي استلم من اكسفورد لائحة اخرى باسماء الكتب التي نقلها الكريموني في علم الفلك وتصل الى اثنين وعشرين كتابا.

تتضمن لائحة اكسفورد الكتب الفلكية المذكورة في اللوائح الكاملة.
لائحة روما مأخوذة من المخطوط رقم ٢٣٩٢ من مكتبة الفاتيكان.
لائحة باريس مأخوذة من المخطوط رقم ١٤٣٩٠ من المكتبة الوطنية بباريس.

وهاتان اللائحتان الاخيرتان متفقتان مع اختلافات ضئيلة راجعة الى صعوبة قراءة بعض الكلمات.

ترجع لائحة باريس الى القرن الثاني ، وهو القرن الذي عاش فيه جيرارده الكريموني ومن المحتمل أن تكون وضعت بعد وفاته بقليل.

وقد تضمن مخطوط باريس رقم ١٤٣٩٠ الذي اكتشفه «لوسيان لكليرك» حياة جيرارده الكريموني بحد ذاتها جدول الكتب المنقولة واخيرا بعض الاشعار يشيد فيها المؤلف بجيرارده.

وقد راينا أن ننقل هذه الاشعار كما جاءت في كتاب «تاريخ الطب العربي للدكتور لوسيان لكليرك». فكما أن المصباح النيرلا يجب أن يوضع تحت مكيال بل على شمعدان، هكذا الاعمال الباهرة للرجال الصالحين لا يجب أن تظل مطمورة يخيم عليها الصمت بل تعرض على بصائر الخلف اذ انها تفتح له طرق الفضيلة وتكشف لانظار المعاصرين مثالا عن اسلافهم الصالحين قدوة يقتدى بها.

ولكي لا يظل المعلم جيرارده الكريموني مدفونا في ظلمات السنين ولكي لا يخسر اكرام الشهرة الذي استحقه، وتجنبا لاعمال سارقين وقحين يلصقون اسماء غريبة على كتبه، لأنه امتنع عن ذكر اسمه على اي منها، نريد بعد ذكر شرح الصناعة الصغيرة الذي انجز نقله منذ عهد قريب جدا، نقدم لائحة باسماء الكتب التي نقلها جيرارده واحتفظ بها اصدقاؤه بعناية فائقة. واذا شاء بعض الناس معرفة مضمونها يتمكن بسهولة معرفة ما نقل جيرارده في علم الجدل والهندسة والفلك والفلسفة والطب وبقية العلوم.

ورغم انه لم يأبه للمجد والشهرة، وتهرب من المدائح والمجد الباطل والفخفخة السائدة في عصره، ولم يشأ نشر اسمه سعيا وراء امور وهمية خيالية، الا أن مؤلفاته قد اثمرت عند الخلف وكانت مصداقا لاستحقاقاته.

ورغم غناه من خيرات هذا العالم فقد رضي عن طيبة خاطر بالحلو والمر وتحمل بشجاعة المدح والذم على السواء. وكافح شهوات الجسد وانصرف انصرافا كاملا الى امور الروح، وحرص على أن يكون نافعا في الحاضر وفي المستقبل واضعا نصب عينيه كلمة بطليموس هذه: «عندما تصل الى نهاية حياتك ضاعف ممارسة الخير».

وبعد أن تمرس منذ نعومة اظفاره في علوم الفلسفة ووصل الى مجاهلها المعروفة عند اللاتين شاء الحصول على كتاب «المجسطي» الذي لم يجده عندهم فتوجه الى طليطلة.

ولما راى أن العرب يملكون الكتب بغزارة في جميع فنون المعرفة واسف للفقر العلمي المدقع في العالم اللاتيني.وحزن لذلك الحزن الكله عمد الى درس اللغة العربية لكي ينصرف الى النقل. ولما تزود بهذه الازدواجية من المعرفة، معرفة العلم ومعرفة اللغة، لأن «احمد» يقول في كتابه بين النسبة والتناسب، إن على الناقل أن يعرف ليس فقط اللغة التي نقل عنها واللغة التي ينقل اليها بل ايضا يجب أن يعرف العلم الذي يشتغل فيه... وكما إن الرجل العاقل الذي يتجول في مرج اخضر يصوغ اكليلا ليس من كل الزهور بل من اجمل الزهور، استعرض الآداب العربية ونقل الى اللغة اللاتينية، كما لو كان ينقل الى وريث عزيز عليه، عددا كبيرا من المؤلفات العربية باحثا في

مواضيع مختلفة اجملها واوضحها واعقلها. ولم يكف عن النقل طيلة حياته حتى سار على الطريق الذي يسير عليها جميع البشر فوافته المنية عن ٧٣ عاما في سنة ١١٨٧ مسيحية...

وبعد هذا التقريظ والثناء تأتي لائحة الكتب التي نقلها الى اللاتينية وسنوردها بنصها الكامل كما ذكرها «لكليرك»، محاولين ترجمة عناوين الكتب الى العربية، اي اعادة نقلها او ردها الى مصدرها. الجدول ماخوذ عن مخطوط باريس، ونذكر بين هلالين الفروق بينه وبين مخطوط روما.

Haec sunt nomina librorum quos transtulit:

- Liber analiticorum posteriorum Aristotelis tractatus duo
- Liber Comentarii Temestistii (Themistii) super posteriores analeticorum, tractatus I.
- Liber Alfarabii de Silogismo
- De Geometria.
- Liber Euclidis, tractatus XV.
- Liber Theodosii de spheris, tractatus III.
- Liber Archimedis tractatus I
- Liber arcubus similibus, tractatus I.
- Liber Milei, tractatus III.
- Liber Thebit de figura alchata, tractatus I.
- Liber trium fratrum, tractatus I
- Liber Ameti de proportione et proportionalitate, tractatus I
- Liber Judei super decimum Euclidis, tractatus I.
- Liber Algorismi -Alchoarismi) de jebra et almucabala
- Liber de practica Geometrie, tractatus I.
- Liber Anaritii super Euclidem, tractatus I.
- (Liber ditorum Euclidis, tractatus I. R)
- Liber Tidei de speculo, tractatus I.
- Liber Alchindi de espectibus, tractatus I.
- Liber demonstrationum -divisionum R.) tractatus I.

DE ASTROLOGIA.

- Liber Carastonis, tractatus I.
- Liber Alfragani continens capitula XXX (XXR)
- Liber Almagesti, tractatus XIII.
- Liber introductorius Tholomei ad artem sfericam.
- Liber Jebri, tractatus VIII.
- Liber Meshala de orbe, tractatus I.

- Liber Theodosii de locis habitatibus, tractatus I.
- Liber Thabit de motu accesionis et -recessionis R.) translationis, tractatus I.
-

  Liber Actolici de sefra mota (tractatus I R.)
- Liber tabularum Jaberi (Jahem, R) cuun regalis suis.
- Liber de crepusculis, tractatus I.
- De Filosofia.
- Liber Aristotelis de expositione bonitatis pure.
- Liber Aristotelis de naturali auditu, tractatus VIII.
- Liber celi et mundi, tractatus III.
- Liber Aristotelis de causis propietatum elementorum, tractatus III (I.R) Tractatum autem secundum non transtulit eo quod non in venit in arabico nisi de fine ejus parum.
- Liber Aristotelis de generatione et corruptione.
- Liber Aristotelis metehororum, tractus III. Quartum non trastulit quia (eo quod, R) sane (eum, R) translatus invenit.
- Tractatus unus Alexandri Afrodisii de tempore et alius de sensu, et alius de eo quod augmentum et incrementum fiunt in forma et non in yle.
- Distinctio Alfarabii super librum Aristotelis de naturali auditu
- Liber Alchindi de V essentiis.
- Liber Alfarabii de scientiis.
- Liber Jacobi Alchindi de sompno et visione.
- De Physica.
- Liber Galieni et elementis, tractatus I.
- Expositiones Galieni super librum Ypocratis de regimene acutarum egritudinum, tractatus III.
- Liber de secretis Galieni, tractatus I.
- Liber Galieni de complexionibus, tractatus III.
- Liber Galieni de malitia complexionis (diverse, R) tractatus I.
- Liber Galieni de simplici medicina, tractatus V.
- Liber Galieni de creticis diebus, tractatus III.
- Liber Galieni de expositione libri Ypocratis in pronosticatione, tractatus III.
- Liber veritatis Ypocratis (tractatus I, R) tractatus III.
- Liber Isaac de elementis, tractatus III.
- Liber Isaac de descriptione rerum et deffinitionibus eorum et de differentia inter descriptionem et deffinitionem, tractatus I.
- Liber Abubecri Rasis qui dicitur Almansorius, tractatus I.
- Liber divisionum (almansoris, R) continens CLIII capitula cum quibusdam confectionibus ejusdem.

- Allengnesim (Albenguefiti) medicinarum simplicium et ciborum.
- Breviarius Johannis Serapionis, tractatus VII.
- Liber Azaraqui (Azanigui, R) de Cirugia, tractatus III.
- Liber Jacobi Alchindi de gradibus, tractatus I.
- Canon Aviceni, tractatus V.
- Tegni Galieni cum expositione Hali ab Rodoan.

De ALCHIMIA.

- Liber divinitatis (de, R) LXX.
- Liber de aluminibus (luminibus, R) et salibus.
- Liber luminis luminum.

DE GEOMANTIA.

- Liber geomantie - de artibus divinatoriis.
- Liber Alfodochi de arabachi (Alfadhol, R)
- Liber de accidentibus alfel (alfeb, R).
- Liber anoe et est tanquam sacerdocii in ar in arlogium, tractatus I.

١ — Liber analiticorum posteriorum كتاب انالوطيقا الثانية «البرهان»

نجد مخطوط هذا الكتاب في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ١٤٧٠٠، اثبت جوردين إن هذا الكتاب منقول عن العربية، كما إن الناقل العربي هو متى بن يونس معلم الفارابي وقد نقل كتاب «البرهان» انالوطيقا الثانية عن الترجمة السريانية لاسحق بن حنين.

٢ — «Liber Commentarii Temestistii super posteriores analeticorum»

كتاب شرح شمسطيوس على الأنالوطيقا الثانية «البرهان»

نجده في المخطوط رقم ١٦٠٩٧ في المكتبة الوطنية بباريس وكان سابقا يحمل رقم ٩٥٤ في مكتبة السوربون.

٣ — «Liber Alfarabii de Sillogismo» «كتاب الفارابي في القياس»

وجدت ترجمتان للفارابي: الاولى تحمل عنوان: «De Scientiis» وهي منسوبة الى جيرارده الكريموني. والثانية عنوانها «De ortu scientiarum» «تقسيم العلوم».

نجد العنوان الاول في المخطوط رقم ٩٣٣٥ في المكتبة الوطنية بباريس.

والعنوان الثاني «تقسيم العلوم» في المخطوط رقم ٦٢٩٦.

٤ – «Liber Euclidis» «اصول اقليدس»

وقد نقل «اديلار الباثي» هذا الكتاب الى اللاتينية ، وكما يقول «لكليرك» : اننا لم نعثر على اي مخطوط يشير الى أن هذه الترجمة منسوبة لجيرارده الكريموني ، غير انه في المخطوط ٧٢٩٢ والمخطوط ٧٢١٦ توجد ترجمتان مغفلتان يمكن نسبتها الى الكريموني.

٥ – «Theodosii de Speris» «كتاب الاكر»

الترجمة موجودة في المخطوط رقم ٧٣٩٩ والمخطوط ٩٣٣٥ ، والترجمة ماخوذة عن العربية بدون شك ، نظرًا لإثبات بعض الكلمات العربية في هذا المخطوط مثل «المحور».

٦ – «Archimenidis, tractatus I» «تربيع الدائرة» «De quadratura circuli»

المخطوطات رقم : ٧٢٤٤ و ٩٣٣٥ و ١١٢٤٦.

المصدر عربي من عنوان الكتاب «Liber Ersemidis» ومن عبارة «باسم الله الرحمن الرحيم».

٧ – «De arcubus similibus» «في الاقواس المتشابهة»

مذكور في المخطوط رقم ١١٢٤٧ ويحمل اسم «ابو جعفر احمد بن يوسف» ويستهل هكذا :

«Omnes namquam Geometre diffiniunt eos esse similes arcus qui angulos recipiunt equales».

يذكره ابن القفطي في كتاب تاريخ الحكماء ويقول عنه : «انه المنجم ابو جعفر احمد بن يوسف». رجل مشهور في العلم بهذا الشأن فمن تصانيفه «كتاب النسبة والتناسب» وله في احكام النجوم شرح «الثمرة لبطليموس».

٨ – «Liber Milei de figuris sphaericis» «كتاب الاشكال الكرية»

ترجم هذا الكتاب الى العربية حنين بن اسحق ثم نظر في هذه الترجمة ناصر الدين الطوسي من القرن الثالث عشر.

المخطوط اللاتيني في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٩٣٣٥.

٩ – «Liber Thebit de figura alchata» **«كتاب الشكل القطاع او «في الشكل الملقب بالقطاع»**.

يوجد منه ثلاث نسخ: الواحدة في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٧٣٣٧
الثانية في مزارين رقم ١٢٥٦ «MAZARINE»
الثالثة في الارسنال رقم ٩٦ Arsenal

احتفظ مخطوط مازارين بكلمة «Cata» «القطاع» بالعربية، وباللاتينة «Sectore»

اصل المخطوط موجود في اكسفورد والاسكوريال. فهرس اكسفورد القديم رقم ٦٥٦٧ يستعمل التعبير العربي «Cata» «القطاع».

ونقرأ في مخطوط مازارين:

«Liber de figura que dicitur «Cata» nam ea docet producere duas proportiones ex una».

١٠ – «Liber trium fratrum Geometria» **«كتاب الاخوة الثلاثة»**

طبع هذا الكتاب «كورتزي» عام ١٨٨٥ «CURTZE»

الاخوة الثلاثة هم بنو موسى بن شاكر: محمد واحمد وحسن وقد ورد اسمهم في مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ٩٣٣٥ ومكتبة مازارين ١٢٥٦.

يقول عنهم ابن النديم: ... وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب واتبعوا فيها انفسهم وانفذوا الى بلد الروم من اخرجها اليهم، فاحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني فاظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم...

هذا الكتاب يتحدث عن مساحة الاكر وقسمة الزوايا.

١١ – «Liber Ameti de proportione et proportionalitate» **«كتاب احمد في النسبة والتناسب»**

جئنا على ذكره في رقم ٧ اعلاه. ويقول لكليرك ان مخطوط مازارين رقم ١٢٥٦ يذكر احمد بن موسى بدل احمد بن يوسف، ممّا حمله على الشك في صحة نسبة الكتاب الى احمد

ابن يوسف ولكن كما ذكر ابن القفطي أن احمد بن يوسف له كتاب عنوانه «النسبة والتناسب» فلم يعد من سبيل للشك.

وهذه المقالة ليست بالحقيقة سوى المقالة الخامسة من اصول اقليدس وهي مذكورة في المخطوطين رقم ٧٣٧٧ و ٩٣٣٥ في المكتبة الوطنية بباريس. فقد جاء في المقدمة ما يلي:

«Jam respondeo tibi ut scias quod quesivisti de causa geometrie et proportionis et ejus essentie et proportionalitatis et causarum eorum et quod voluit Euclides de multiplicibus in libro suo qui vocatur Elementorum».

يريد أن يقول: «إني اجيبك لكي تعرف ما تريد معرفته عن غاية الهندسة والنسبة وماهيتها والتناسب واسبابه وما اراد اقليدس بيانه في كتابه المسمى «الاصول».

١٢ – «Liber Judei super X Euclides» «كتاب اليهودي حول المقالة العاشرة من تاليف اقليدس»:

جاء في الفهرست لابن النديم: «... ونقل ابو عثمان الدمشقي منه (اصول اقليدس) مقالات رايت منها العاشرة في الموصل في خزانة علي بن احمد العمراني... حدثني نظيف المتطبب اعزه الله، أنه رأى المقالة العاشرة من اقليدس وهي تزيد على ما في ايدي الناس اربعين شكلا والذي بيد الناس مائة وتسعة اشكال... وفسر المقالة العاشرة رجل يعرف بابن راهويه الارجاني... وكان سند بن علي قد فسره فرأى ابو علي منه تسع مقالات وبعض العاشرة ايضا ابو يوسف الرازي.

ومن المعروف أن سند بن علي يهودي الاصل فيكون هو المقصود به والترجمة اللاتينية نظمت على شرحه.

١٣ – «Liber Alchoarismi de Jebra et Almucabala» «كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة»:

نجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٧٣٧٧ و ٩٣٣٥، والمؤلف هو محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعا الى خزانة الحكمة للمأمون وهو من اصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الاول والثاني ويعرفان بالسند هند.

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية، طبعة «ليبرى»:

Edition LIBRI: Hist. scienc. mat., I, 1835.

وله مقالة اخرى في حساب الهنود ترجمت تحت عنوان: «Algoritmi de numero indorum» طبع بون كومباني جزءًا منها.

١٤ – «De practica Geometrie» «في ممارسة الهندسة»:

نجده في المخطوطات رقم ٧٢٦٦ و ٧٣٧٧ و ٩٣٣٥ بالمكتبة الوطنية بباريس ويحمل هذا العنوان

«Liber in quo terrarum corporum que continentur mensurationes, ab Abhabucri, qui dicebatur Heus, translatus a Girardo Cremonensi in Toleto».

عجز لكليرك عن اكتشاف هذا الاسم فعزاه الى ابي بكر الرازي ويقول: ان الرازي كتب في الهندسة.

ولكن ابو بكر هذا ليس سوى محمد بن حفص بن الفرخان الطبري لأن كلمة «حفص» «Heus» مذكورة في النص اللاتيني. ويقول عنه ابن النديم:

«إنه احد افاضل المنجمين وله من الكتب: كتاب المقياس، كتاب العمل بالاسطرلاب، كتاب المسائل، كتاب المدخل، كتاب الاختيارات، كتاب المسائل الصغير...

١٥ – «Liber Anariti super Euclidem» «شرح النيريزي لاقليدس»:

ليس هذا الكتاب سوى شرح النيريزي لاقليدس، كما ذكر ابن النديم...

والنيريزي هذا هو ابو العباس الفضل بن حاتم النيريزي ممن يشار اليه في علم النجوم ولا سيّمَا في علم الهيئة وله من الكتب: كتاب الزيج الكبير – كتاب الزيج الصغير – كتاب سمت القبلة – كتاب تفسير – كتاب الاربعة لبطليموس.

شرح النيريزي لاقليدس موجود في ليدن رقم ٩٦٥ إنما الترجمة اللاتينية مفقودة.

١٦ – «Liber datorum»: معطيات اقليدس:

نجده في المكتبة الوطنية بباريس رقم المخطوط ٨٦٨٠.

١٧ – «Liber Tidei de speculis» «كتاب تيديوس في المرايا» :

من هو هذا «تديوس بن يتودوروس»؟ الاب معروف هو ثيودوروس وله من الكتب كتاب الاكر – كتاب المساكن – كتاب الليل والنهار.

اما الابن فلا نعرف عنه شيئا.

المخطوط اللاتيني موجود في المكتبة الوطنية بباريس رقمه : ٩٣٣٥.

١٨ – «Liber Alkindi de aspectibus» «كتاب الكندي في اختلاف المناظر» :

نجد المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٩٣٣٥ ويحمل هذا العنوان :
«Liber Jacobi Alchindi de causis diversitatum aspectus et dandis demonstrationibus geometris super eas».

كما إنه يوجد مخطوط آخر في مكتبة بودليان.

١٩ –«Liber divisionum»–«كتاب في التقسيمات» :

قد تكون هذه الرسالة منسوبة لاقليدس.

٢٠ – «Liber Carastonis» «كتاب القرسطيون : »

نجده في المخطوطين رقم ٧٣٧٧ و ١٠٢٦٠ اللاتينيين في المكتبة الوطنية بباريس
والعنوان الكامل هو هذا : «Liber Carastonis editus Thebit filio Chore»

ونجده ايضا في المخطوط رقم ٨٦٨٠ بالمكتبة ذاتها تحت هذا العنوان :
«Liber Thebit de ponderibus qui dicitur Carastonis».

٢١ – «Liber Alfagrani continens XXX capitula» «كتاب في جوامع علم النجوم واصول الحركات السماوية :

يقول عنه مخطوط الفاتيكان أنه لا يتضمن سوى عشرين مقالة.

نجده في مكتبة بودليان ٨٧٩/١.

له عدة نسخ في المكتبة الوطنية بباريس، وقد نقل نقلا :

احدهما لجيراردو الكريموني وعنوانه : «De agregationibus stellarum»
ونجده في المخطوط رقم ٧١٩٥ و ٧٢٦٧ و ٧٢٨٠ و ٧٢٨١ و ٧٢٩٨ و ٧٣١٦ و ٩٢٧ و ١٨٢٠ ، اسم جيراردو الكريموني جاء في المخطوط رقم ٧٤٠٠.

ترجمة اخرى ليوحنا الاشبيلي وتحمل عنوان : «Rudimenta Astronomie» نجده في المكتبة الوطنية رقم المخطوط ٦٥٠٦ و ٧٣٧٧ و ٧٤٣٤ بباريس ، ثم في مكتبة «سان فكتور» تحت رقم ٨٤٨ و٩٠٠.

وقد ترجم يوحنا الاشبيلي الكلمة العربية «اصول» بالكلمة اللاتينية «radix» فقال : «في اصول الحركات السماوية» «in radicibus motuum celestium»

بينما جيراردو الكريموني ترجم الكلمة ذاتها بالكلمة اللاتينية «Principiis» نقلت هذه الترجمة الى العبرية.

ثم نقلت الترجمة العبرية الى اللاتينية والناقل هو «يعقوب كريستمان» «Jacobo Christmann» فرانكفورت ١٥٩٠

٢٢ – «Liber almagesti» «كتاب المجسطي» :

قدم جيراردو الكريموني الى طليطلة بحثا عن هذا الكتاب لأنه لم يعثر عليه في ايطالية.
طبعت الترجمة اللاتينية في البندقية عام ١٥١٥.
وكان جيراردو الكريموني قد انجز ترجمته في طليطلة عام ١١٧٥.
اعتمد على النقل العربي الذي وضعه الحجاج بن يوسف بن مطر في بغداد.
انتشرت ترجمة جيراردو الكريموني في القرون الوسطى وما بعدها انتشارا كبيرا.

كان بويسيوس [1] قد وضع ترجمة لاتينية ولكنها ضاعت فأخذ جيراردو الكريموني النص العربي وهذا هو الذي انتشر في اروبة ، بينما اخرجت ترجمة اخرى في صقلية عن اليونانية ولم تنتشر الا قليلا.

---

(١) بويسيو فيلسوف روماني (٤٨٠–٥٢٥) ارسله ابوه الى اثينة للدراسة ومكث فيها خمس عشرة سنة ، تضلع من الادب والفلسفة ثم عاد الى رومة وتقلب في عدة وظائف عالية في الدولة. كان قصده نقل الثقافة اليونانية الى اللاتينية ، ولكن لم ينقل سوى الانالوطيقا الاولى والثانية لارسطو والطوبيقا ونقل ايضا وشرح مقولات ارسطو وباري ارمينياس ، غير انه حبس بتهمة التآمر والخيانة العظمى ونفذ فيه حكم الاعدام في بافية عام ٥٢٥.

توجد ترجمة جيراردە الكريموني في مكتبة مدريد الوطنية.

ويقول ابن النديم في الكلام عن المجسطي : هذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة واول من عني بتفسيره واخراجه الى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره له جماعة لم يتقنوه . ولم يرض ذلك فندب لتفسيره ابا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فاتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن احضر النقلة المجودين فاختبر نقلهم واخذ بافصحه واصحه وقد نقله الحجاج بن مطر واصلح ثابت بن قره الكتاب كله بالنقل القديم. ونقل اسحق هذا الكتاب واصلحه ثابت نقلا غير مرضي لأن اصلاحه الاول اجود.

توجد في فلورنسة نسخة منسوبة الى جيراردە الكريموني.

٢٣ – «Liber introductorius Ptolomei ad artem sphericam» «كتاب المدخل الى فن الكرة لبطليموس

هذا الكتاب هو لجمينوس Geminos [1] معاصر تيودوسيوس Theodosius

٢٤ – «Liber Jebiri, tractatus VIIII» «كتاب جابر بن افلح المقالة التاسعة

عاش جابر بن افلح الاشبيلي في الاندلس في النصف الاول من القرن الثاني عشر وتوفي عام ٥٤٠/١١٤٥ وعنوان كتابه الذي نحن بصدده هو «اصلاح المجسطي» بيد ان هذا الكتاب خال من الجداول. ترجمه جيراردە الكريموني والترجمة موجودة في المخطوط رقم ٩٦ «ارسنال» Arsenal

طبعت الترجمة عام ١٥٤٣ تحت عنوان :

«Gebiri Affla Hispalensis de Astronomia LIX sine commentarii in Ptolomei Almagestum. Norimb.»

٢٥ – «Liber Messheala de Orbe» «كتاب «ما شاء الله» في الكون»

كان «ما شاء الله» يهوديا وعاش في عصر المأمون وكان فاضلا أوحد زمانه في علم الاحكام. وله من الكتب كتاب : المواليد الكبير ويحتوي على اربعة عشر مقالة.

(١) جيمنس هو من علماء القرن الاول قبل المسيح.

لا يعرف سوى جزء من هذا الكتاب المنقول وهو موجود في المخطوط رقم ٧٣٢٨ يحمل عنوان:
«De ratione circuli celestis»

٢٦ - «Liber Theodosii de locis habitabilibus» «الاماكن التي يسكن فيها الناس»

موجود في المخطوط اللاتيني رقم ٩٣٣٥ بالمكتبة الوطنية بباريس ويحمل هذا العنوان: «De locis in quibus morantur homines» وتيودوسيوس من اهل طرابلس (لبنان) عاش في القرن الاول قبل المسيح.

٢٧ - «Liber Esculegii (Hypsicles)» «كتاب بسقلاوس»[1]

قد يكون المقصود فيه المقالتان اللتان عثر عليهما بسقلاوس وهما الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب الاصول لاقليدس.

وبسقلاوس هذا هو تلميذ اقليدس.

نجد الكتاب هذا في المخطوط رقم ٩٣٣٥ بالمكتبة الوطنية في باريس. وفي المخطوط رقم ٧٢١٦ في المكتبة الوطنية بمدريد يوجد «اصول اقليدس» مترجمة عن العربية.

ويقول ابن النديم ان بسقلاوس وجد المقالتين الاخيرتين من كتاب اصول اقليدس.

ولبسقلاوس مؤلفات منها: كتاب الاجرام والابعاد، مقالة.

كتاب المطالع وهو الطلوع والغروب مقالة.

وقد يكون هذا هو الكتاب المقصود.

٢٨ - «Liber Thebit de expositione nominum Almagesti» «كتاب تسهيل المجسطي»

موجود في مكتبة «مازرين» رقم ١٢٥٦ تحت هذا العنوان.
«De iis que indigent expositione antequam legatur Almagestus»

(١) ابسقلاوس من اهل الاسكندرية عاش في القرن الثاني قبل المسيح.

٢٩ – «Liber Thebit de motu accessionis et translationis»

وضع ثابت بن قرّة عدة كتب في علم النجوم. نجد هذا العنوان في المخطوط رقم ٩٣٣٥ من مخطوطات بودليان ويحمل هذا العنوان : «In motu accessionis et recessionis»

ونجده ايضا في مكتبة «مزرين» رقم المخطوط ١٢٥٦.

وقد جاء في تاريخ الحكماء لابن القفطي وعيون الانباء لابن ابي اصيبعة تأليف لثابت بن قرة عنوانه : «كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها وتوسطه بحسب الموضع الذي يكون فيه من الفلك الخارج المركز.

٣٠ – «Liber Autolici de spera mota» «كتاب الكرة المتحركة لاوطولوقس»

اوطولوقس عاش حوالي سنة ٣٣٠ قبل المسيح.

نجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٩٣٣٥ والترجمة عن النص العربي ظاهرة فقد ترك الناقل اللاتيني كلمة «محور» العربية دون ترجمة ويقول ابن النديم في الفهرست صفحة ٣٧٥ ان الكندي قد اصلحه.

٣١ – «Liber tabularum Jaberi cum Regulis suis»

يقول «لكليرك» ان هذا المخطوط ينطوي على مشكلتين الاولى قراءة كلمة «Jaberi» فقد قرأها بون كومباني «جاهن» «Jahen» ولكن في كتابة جابر وجاهن فرق ضئيل. يمكن قراءة كلمة جابر بسهولة في مخطوط باريس. والمقصود هنا جابر بن افلح العالم الفلكي وقد جئنا على ذكره. والصعوبة الاخرى وهي انه لا يعرف لجابر بن افلح جداول فلكية، الجداول هي من صنع الزرقالي وقد ترجمها جيرارده الكريموني.

نجد هذه الجداول في المكتبة الوطنية بباريس ولكن بدون ذكر العنوان.

رقم المخطوطات: ٧١٨٩، ٧٢٨١، ٧٣٣٦.

٣٢ – «Liber de crepusculis» «كتاب الفجر والشفق» [١]

(١) سيمون الحايك: عروق الذهب في مناجم الروم والعرب صفحة ١٥٨.

وقد حور هذا العنوان على الشكل التالي:

«Liber Abhomadi malfegeyr, id est in crepusculis matutino et in soffe id est in crepusculo vespertino».

فكلمة «Abhomadi» تعني علي محمد، وهو ابن الهيثم

وكلمة «soffe» تعني الشفق

وكلمة «malfegeyr» تعني الفجر [1].

٣٣ — «Liber Aristotelis de expositione bonitatis pure» «كتاب الخير المحض»

توجد عدة نسخ لهذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس: رقم ٦٣١٨ و٦٣٢٥ و٦٥٠٦ و٨٨٠٢ و٦٢٩٦ و٦٧٩١ و١٤٧١٧.

وليس من مخطوط يحمل اسم جيرارده الكريموني.

ويقول لكليرك ان المخطوطين رقم ٦٣١٨ و٨٨٠٢ مرفقان بشرح للفارابي ينتهي كما يلي:

«Expliciunt canones Aristotelis de puro Eterno sive de intelligentia, sive de esse, sive essentia pure bonitatis, sive de causis expositis Alpharabio».

٣٤ — «Liber Aristotelis de naturali auditu» «في السماع الطبيعي»

لا يوجد اسم جيرارده الكريموني.

٣٥ — «Liber celi et mundi «كتاب السماء والعالم»

وما يقال عن الكتاب السابق يقال عن هذا الكتاب.

٣٦ — «Liber de causis proprietatum elementorum» «في علل خواص الاسطقسات»

نجد هذه الترجمة في المخطوط رقم ٤٧٨ و٦٣٢٥ و١٤٧١٧ و١٤٧٠٠ بالمكتبة الوطنية بباريس وقد اثبت جوردين ان الترجمة مأخوذة عن اصل عربي، وهذا الكتاب منحول كما يقول لكليرك.

---

(١) نسبة هذا الكتاب الى ابن الهيثم خطأ يقول عبد الحميد صبره في كتاب المناظر صفحة ٤٦ انه لابي عبدالله محمد بن معاذ الجياني الاندلسي عاش في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

٣٧ – «Liber Aristotelis de generatione et corruptione» «كتاب الكون والفساد لارسطو»

برهن جوردين ايضا ان الكتاب هذا مأخوذ عن المخطوط العربي الذي يحمل رقم ٦٥٠٦ في المكتبة الوطنية بباريس.

٣٨ –«Liber Metehororum» «كتاب الآثار العلوية»

لم يترجم جيرارده الكريموني سوى ثلاث مقالات، بعد ان عثر على ترجمة صالحة للمقالة الرابعة وقد جاء في خاتمة المخطوط رقم ٦٢٥ بالمكتبة الوطنية بباريس ما يلي:

«Completus est liber Metheororum cujus tres libros transtulit M. Girardus de arabico in latinum. Quartum transtulit Henricus de greco in latinum».

الترجمة: انتهى كتاب الآثار العلوية الذي ترجم منه المعلم جيرارده من العربية الى اللاتينية ثلاث مقالات، اما المقالة الرابعة فقد ترجمها هنريكوس من اليونانية الى اللاتينية.

٣٩ – «Tractatus Alexandri Afrodisii» «مقالة اسكندر الافروديسي»

اسكندر الافروديسي هذا كان في ايام ملوك الطوائف بعد الاسكندر وكان يلقب جالينوس براس الفيل. فسّر اكثر كتب ارسطوطاليس:

– تفسير كتاب المقولات لارسطو
– تفسير كتاب باري ارميناس
– تفسير كتاب «البرهان» انالوطقا الثانية لارسطو ايضا.
– تفسير كتاب «طوبيقا» ومعناه الجدل
– مقالة في الهيولى وانها معلولة مفعولة

ذكر جوردين ان مقالة «De sensu» «في الحس» موجودة في مخطوط «سان فيكتور» رقم ١٧١، ومقالة «De tempore» في الزمان؟ في مخطوط السوربون رقم ١٧٨٦ وهما لجيرارده الكريموني. ويجب ان نضيف مقالة «De intellectu» «في العقل» ومقالة «Augmento» اخرى. وهي موجودة في المخطوط رقم ٦٣٣٥ بالمكتبة الوطنية بباريس وتبتدئ هكذا:

«Tractatus Alexandri quod augmentum et incrementum fiunt in forma et non in Yle».

اي : «مقالة اسكندر الافروديسي» في ان الزيادة والنمو يكونان في الصورة ولا في الهيولى.

٤٠ – **«Distinctio Alfarabii super librum Aristotelis de naturali auditu»** **«شرح الفارابي على السماع الطبيعي لارسطوطاليس»**

يقول ابن ابي اصيبعة بشأن هذا الكتاب : «شرح كتاب السماع الطبيعي» لارسطوطاليس على جهة التعليق.

٤١ – **«Liber Alchindi de quinque essentiis»** **«كتاب الكندي في الماهيات الخمس»**

نجد الترجمة في المخطوط رقم ٩٣٣٥ الوارد ذكره والمخطوط ١٤٧٠٠

تحمل هذه الرسالة عنوان : «رسالة في ان طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الاربعة وانه طبيعة خامسة».

٤٢ – **«Liber Alfarabii de scienciis»** **«كتاب الفارابي في العلوم»**

نجده في المخطوط رقم ٩٣٣٥ الوارد اعلاه على هذا الشكل :

«Liber Alfarabii de scienciis translatus a Magistro Girardo Cremonensi in Toleto de arabico in latinum.»

٤٣ – **«Liber Jacobi Alchindi de sompno et visione»** **«رسالة الكندي في ماهية النوم والرؤيا»**

ترجم هذه الرسالة جيرارده الكريموني بين عامي ١١٦٧ و١١٨٧ في طليطلة ونشر الترجمة «البينو ناجي» وهي موجودة في المخطوط رقم ٦٤٤٣ و١٦٦١٣.

٤٤ – **«Liber Galieni de elementis»** **«كتاب الاسطقسات لجالينوس»**

نجد في المخطوطين رقم ١١٨٦٠ و١٤٣٨٩ مقتطفات من مؤلفات جالينوس منقولة بعضها عن اليونانية والبعض الآخر عن العربية.

جاء في المخطوط رقم ١١٨٦٠ مقالة في «فن الشفاء»، وهي لا تظهر في لائحة الكتب التي

نقلها جيرارده من العربية الى اللاتينية وتنتهي المقالة على هذا النحو:

«Explicit liber de ingenio sanitatis qui continet particulas XIII, translatus a Magistro Girardo Cremonensi in Toleto de arabico in latinum»

التعريب: انتهى كتاب «حيلة البرء» الواقع في اربع عشرة مقالة وقد ترجمه المعلم جيرارده الكريموني في طليطلة من العربية الى اللاتينية

٤٥ — **«Expositio Galieni super librum Ypocratis de regimene egritudinum»**

«تفسير جالينوس لكتاب ابقراط في شفاء العلل الحادة»

موجود في عدة مخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس. المخطوط رقم ١٤٣٩٠ يذكر ان جيرارده هو الناقل.

٤٦ — **«Liber de secretis Galieni»** **«كتاب في الادوية المكتوبة»**

هذا الكتاب منحول وقد نسب الى جالينوس وهو عبارة عن مجموعة من الوصفات الطبية لم يعرفها سوى العرب.

يقول حنين بن اسحق في هذا الكتاب: «غرض جالينوس فيه ان يصف ما جمعه طول عمره من الادوية الخفيفة الخواص وجربها مراراكثيرة فصحت فكتمها عن اكثر الناس ضنا بها عنهم، ولم يطلع عليها الا الخواص من ذوي الالباب وصحة التمييز من اهل الصناعة. وقدكان غيري فسّر هذا الكتاب فصحّف وزاد فيه ما ليس منه ونقص منه ما لم يفهم تفسيره، فساعدت نفسي فيه بحسب الامكان والطاقة وقابلت به على التجارب التي اجتمعت عندي وفسرت ذلك الى العربي لابي جعفر محمد بن موسى».

ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء جزء اول صفحة ١٥٤.

٤٧ — **«Liber Galieni de complexibus»** **«كتاب جالينوس في الامزجة»**

نجده في المكتبة الوطنية بباريس رقم المخطوط ١١٨٦٠ و١٤٣٨٩ مع مؤلفات اخرى لجالينوس منقولة عن العربية دون ذكر اسم جيرارده الكريموني.

٤٨ — «Liber Galieni de simplici medicina» «كتاب جالينوس في الادوية المفردة»

نجده في المخطوط رقم ٦٨٦٥ بالمكتبة الوطنية بباريس ومصدره عربي نظرا لكثرة الكلمات العربية التي لم تنقل الى اللاتينية.

٤٩ — «Liber Galieni de criticis diebus» «كتاب جالينوس في الايام الحادة»

يقول المخطوط رقم ١٤٣٨٩ بباريس ان هذا الكتاب ترجم في طليطلة.

٥٠ — «Liber Galieni de crisi» «كتاب جالينوس في البحران»

يقول المخطوط رقم ١٤٣٨٩ المذكور اعلاه ان هذا الكتاب من ترجمة جيرارده

٥١ — «Liber Galieni de expositione libri Ypocratis in pronosticatione»

«كتاب تشخيص الامراض لجالينوس على مذهب ابقراط»

نجده في المخطوط رقم ١٥٤٥٧ و٧٠٣٠ بالمكتبة الوطنية بباريس.

٥٢ — «Liber veritatis Ypocratis» «كتاب حقيقة ابقراط»

لا نعرف لبقراط كتابا بهذا العنوان فهل المقصود به الكتاب المنحول المذكور في المخطوط رقم ٦٨٩٣ بالمكتبة الوطنية بباريس بعنوان Liber secretorum Hippocratis «كتاب اسرار أبقراط».

٥٣ — «Liber Isaac de Elementiis» «كتاب اسحق الاسرائيلي في الاسطقسات»

المقصود به اسحق بن سليمان الاسرائيلي ولد في مصر وقصد القيروان على عهد زيادة الله الاغلبي عمر عمرا طويلا الى ان نيف المائة، لم يتخذ امرأة ولا اعقب ولدًا توفي بعد سنة ٩٥٣

ترجم هذا الكتاب جيرارده الكريموني كما انه ترجم ايضا الى العبرية.

٥٤ — «Liber Isaac de definitionibus» «كتاب التعريفات»

ترجم هذا الكتاب ايضا الى العبرية. وقد نشرت في ليدن ترجمة كاملة لاعماله باللاتينية سنة ١٥١٥.

٥٥ — «Liber Abubacri Rasis qui dicitur «Almansorius»» «كتاب ابي بكر الرازي المسمّى المنصوري»

نجده في المكتبة الوطنية بباريس في المخطوطات اللاتينية رقم ٦٨٩٣ و١٠٢٣٤ و١٥٤٥٨.

نقرأ في اول الترجمة ما تعريبه: يبتدئ كتاب ابي بكر بن زكريا الرازي، ترجمه المعلم جيرارده الكريموني في طليطلة ويسمّى هذا الكتاب «المنصوري» الّفه للامير منصور بن اسحق صاحب خرسان.

ونقرأ المقدمة ذاتها في المخطوط رقم ٥٨ ورقم ١٥٩ في «ارسنال».

ومؤلفات الرازي المطبوعة تقول: «Liber ad Almansorem»

الطبعة الاولى في ميلانو عام ١٤٨١

يقول ابن ابي اصيبعة: ان الرازي تحرى في هذا الكتاب الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علمها وعملها وهو عشر مقالات.

٥٦ — «Liber divisionum continens CLIV capitula cum cuibusdam confectionis ejusdem».

«كتاب الحاوي وتقسيمه الى مائة واربعة وخمسين فصلا:

وهو اجل كتب الرازي واعظمها في صناعة الطب وذلك انه جمع فيه كل ما وجده متفرقا في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه. ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله هذا مع ان الرازي توفي ولم يفسح له في الاجل ان يحرر هذا الكتاب.

٥٧ — «Liber parvus Rasis introductorius in medicina» «كتاب المدخل الصغير الى الطب»

وقد طبع هذا الكتاب مع الكتاب السابق ومع كتاب آخر عنوانه De juncturarum aegritudinibus في البندقية عام ١٥٠٠ تحت عنوان «Opera parva» «الاعمال الصغيرة».

٥٨ — «Liber Abengufiti medicinarum simplicium et ciborum» «كتاب ابن وافد في الادوية المفردة والاطعمة»

طبع هذا الكتاب عام ١٥٣١ في استرسبورغ مع كتاب «تقويم الصحة» لابن بطلان تحت عنوان:
«Liber Abenguefit philosophi de virtutibus medicinarum et ciborum translatus a Magistro Gerardo Cremonensi de arabico in latinum».

٥٩ — «Breviarius Johannis Serapionis» «الكناش الصغير» لابن سرابيون

وقد جاء في خاتمة المخطوط ان المعلم جيرارده الكريموني قد نقل هذا الكتاب في طليطلة من العربية الى اللاتينية.

طبعت الترجمة في البندقية عام ١٤٧٩، وطبعت في فرارا عام ١٤٨٨ تحت عنوان
«Practica therapeuticae methodus».

ثم طبعت في البندقية عام ١٤٩٧ و١٥٠٧ و١٥٣٠ و١٥٥٠. كما طبعت في ليون ١٥١٠ وباسيل سويسرة ١٥٤٣ واسم الناشر في هذه الطبعة الاخيرة «البانوس تورينوس» «Albanus Torinus»

٦٠ — «Liber Azaragui de Cirugia» «كتاب الزهراوي في الجراحة»

جاء في نهاية المخطوط رقم ٧١٢٧ في المكتبة الوطنية بباريس ان «هذا الكتاب قد نقله المعلم جيرارده الكريموني في طليطلة من العربية الى اللاتينية وهو الكتاب الثلاثون للزهراوي ابي القاسم [١].

٦١ — «Canon Avicenni» «قانون الطب لابن سينا»

من جملة المخطوطات الموجودة فيها ترجمة قانون الطب لابن سينا، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٤٠٢٣ وقد طبع طبعة غير كاملة عام ١٤٧٣ في ميلانو وطبعة اخرى كاملة في البندقية عام ١٥٤٤ وافضل طبعة متقنة للترجمة اللاتينية هي طبعة البندقية عام ١٥٨٢.

---

(١) راجع كتابي عروق الذهب... من صفحة ٣٢٦ – ٣٣٤.

٦٢ – «Liber Alkindi de gradibus rerum» «كتاب الكندي في درجات الاشياء»

نجده في المخطوط رقم ٩٣٣٥ في باريس ثم طبع في استراسبورج عام ١٥٨١ مع «التقويم» دون ذكر اسم المترجم.

٦٣ – Tegni Galeni cum expositione Ali Ab. Rodoan.

«شرح ابن رضوان لجالينوس في صناعة الطب»

المقصود هنا كتاب جالينوس في صناعة الطب وشرحه لعلي بن رضوان الطبيب المصري المتوفي عام ثلاثة وخمسين واربعمائة بمصر.

طبع هذا المخطوط في البندقية وليون.

٦٤ – «Liber divinitatis de LXX» «كتاب اللاهوت من السبعين»

هو لجابر بن حيان نجد الترجمة في المخطوط رقم ٧١٥٦ من المكتبة الوطنية بباريس وقد جاء في المقدمة ما يلي:

الترجمة اللاتينية: كتاب السبعين من السبعين كتابا ترجمه المعلم رينلدو الكريموني في الحجر الحيواني، كتاب اللاهوت هو الاول في كتاب السبعين.

يقول ابن النديم: وله «ابن حيان» بعد ذلك سبعون كتابا منها: كتاب اللاهوت، كتاب الباب، كتاب الثلاثين كلمة، كتاب المنى، كتاب الهدى، كتاب الصفات، كتاب العشرة، كتاب النعوت، كتاب العهد، كتاب السبعة، كتاب الحي، كتاب الحكومة، كتاب البلاغة، كتاب المشاكلة، كتاب خمسة عشر، كتاب الكوفؤ، كتاب الاحاطة، كتاب الرواق، كتاب القبة، كتاب الضبط، كتاب الاشجار، كتاب المواهب، كتاب الاكليل، كتاب الخلاص، كتاب الوجيه، كتاب الرغبة، كتاب الخلقة، كتاب الهيئة، كتاب الروضة، كتاب الناصع، كتاب النقد، كتاب الطاهر، كتاب ليلة، كتاب المنافع، كتاب اللعبة، كتاب المصادر، كتاب الجمع فهذه اربعون كتابا من السبعين كتابا ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر اولى ثانية ثالثة رابعة خامسة سادسة سابعة ثامنة تاسعة عاشرة ولا اسماء لها وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات اولى الى العاشرة وله في الاحجار عشر رسائل على هذا المثال، فذلك سبعون رسالة.

٦٥ – «Liber de aluminibus et salibus» «كتاب الالومينا والاملاح»

يقول المخطوط رقم ٦٥١٤ من المكتبة الوطنية بباريس ان هذا الكتاب مغفل وليس موجودا في كتب الرازي كما تقول الترجمة اللاتينية.

٦٦ – «Liber lumen luminum» «كتاب نور الانوار»

وهذا الكتاب ايضا منسوب الى الرازي في المخطوط المذكور اعلاه ٦٥١٤ تحت هذا العنوان:
«Liber Razis qui dicitur lumen luminum magnum».
وهذا وارد ايضا في المخطوط رقم ٧٥١٦ من المكتبة ذاتها.

٦٧ – «Liber geomantie de artibus divinatoriis qui incipit estimaverunt Indi».

الترجمة موجودة في مكتبة اكسفورد. هل ممكن ان نرد هذا المخطوط الى المخطوط رقم ٧٤٥٨ الذي ينتهي هكذا.
كتيب ضرب الرمل عند العرب نقل من العربية الى الاسبانية ومن الاسبانية الى اللاتينية.

٦٨ – «Liber Alfadochi (Alfadhol) I de Arabichi»

يقول لكليرك قد تكون هذه مقالة في علم النجوم موجودة في المخطوط رقم ٧٣٢٣ في المكتبة الوطنية.

٦٩ – «Liber de accidentibus alfel» «كتاب في الفال»

٧٠ – «Liber anohe et est tanquam sacerdoti in ar in arlogium» «كتاب الانواء»

والعرب يسمّون انواء ما يتعلق بالعوامل الطبيعية او تقدمة المعرفة باحوال السنة واقسامها. وهذا الكتاب ليس كتاب ربيع الاسقف ولا عريب بن سعيد الكاتب بل جمع من الاثنين وضعه جيراردو الكريموني.

وقد نسبت ايضا الى جيرارده هذا ترجمات اخرى منها كتاب «النواظر» لابن الهيثم[1].

وقد نسب اليه كتاب آخر في التنجيم.

وكتاب آخر في الجبر والمقابلة يقول عنه بون كومباني انه من ترجمة جيرارده الكريموني في طليطلة من العربية الى اللاتينية.

تلك هي لائحة الكتب التي نقلها جيرارده الكريموني من العربية الى اللاتينية وهي موزعة على الشكل التالي:

في الجدل : ٣ كتب

في الهندسة : ١٧ كتابا

في علم الفلك : ١٢ كتابا

في الفلسفة : ١١ كتابا

في الطب : ٢١ كتابا

في الكيمياء ٣ كتب

في ضرب الرمل : ٤ كتب

المجموع يكون : ٧١ كتابا.

ذلك هو جيرارده الكريموني وتلك هي ترجماته التي اتهمت انها فاسدة في بعض الاحيان ومكتوبة بلغة لاتينية غير صحيحة. وجيرارده عذره واضح : كان عليه ان يتعلم اللغة العربية اولا ثم الموسوعة الضخمة من العلوم اشتغل فيها ، وقد عمل في جميع العلوم المعروفة في عصره ولم يملك الوسائل التي نملكها اليوم وتجعل ترجمتنا اسهل ومهمتنا ايسر. لم يأخذ الناقدون هذه الامور بعين النظر ولكن يجب ان نعلم ان هذه الانتقادات لم تأتِ من الاختصاصيين مثل «لبري» وبون كومباني وشارل وغيرهم.

---

(١) حقق درسا طويلا لهذا الكتاب عبد الحميد صبره وطبع بالكويت عام ١٩٨٢. يقول من بعض ما يقول:

في عام ١٥٧٢ نشر «رزنغ» في مدينة باسيل مجلدا من القطع الكبير بعنوان «الذخيرة في البصريات» اشتمل على ثلاثة مصنفات: اولها ترجمة لاتينية لكتاب «المناظر» لابن الهيثم في سبع مقالات. وثانيها ترجمة لاتينية لمقالة «الفجر والغسق» نسب الى ابن الهيثم. وثالثها كتاب «في البصريات» للعالم البولندي فيتلو في عشر مقالات. اما الترجمة اللاتينية لكتاب المناظر فلا نعلم حتى الآن صاحبها ولا تاريخ انجازها او مكانه على وجه التحقيق، والمحتمل انها عملت في اسبانية في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي أو اواخر القرن الثاني عشر. ويوجد الآن من الترجمة اللاتينية لكتاب ابن الهيثم عدد كبير من المخطوطات تبلغ العشرين منها سبعة على الاقل، نسخت في القرن الثالث عشر الميلادي وتوجد ترجمة ايطالية عن اللاتينية من القرن ١٤ الميلادي بمكتبة الفاتيكان.



LIBER ALBENGNEFIT Philosophi, de Virtutibus MEDICINARVM, ET CIBORVM, translatus a Magistro Gerardo Cremonensi, de Arabico in latinum.



X ANTIQVORVM LIBRIS, hunc librum aggregaui de uirtutibus Medicinarum, & Ciborum, in quo mentem meam diu fatigaui: & posui eum occupatiõem meam, fundendo preces in eo, quod DEO sublimi & glorioso appropinquat. quia per ipsum iuuamentum cõmune, & proprium speraui, ultra id, quod in cognitione illius est de iuuamento in arte Medicinæ.

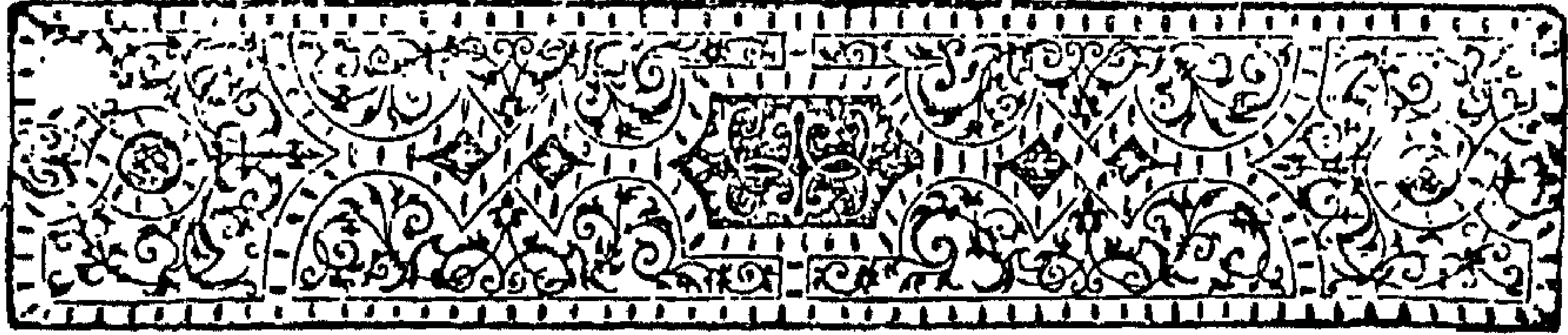
Medicinæ autem intentio est, sanitas: & est secundum duos modos. Primus modus, est cognitio complexionum corporum hominum. Secundus est, cognitio Medicinarum, & Ciborum, quorũ cognitione existit sanitatis permanẽtia in sano, & ipsius reditio super infirmum: & sunt materia curationis per medicinam, & electionem eius. Qui autem uirtutem Medicinarum simplicium, et Ciborum cognitionem uult habere, est indigens cognitione uiarum quibus earum uirtutes, & ipsarum operationes inueniuntur. Et hæ quidem uiæ sunt. 9. Vna earum est, ut sit medicina, cuius uirtutem experiri uult aliquis, uacua a qualitate adquisita accidentali. cuius exemplum est in medicina simplici, aqua frigida, quæ per accidens corpus calefacit, quando super ipsum funditur: quoniam infrigidat cutem, & aggregat eam, & inspissat ipsam, quam ob rem coartantur uapores qui exspirabant, quare calefacit corpus propter illud: sicut aqua calida infrigidat per accidens, quoniam rarificat corpus, quare respirant uapores calefacientes, & infrigidatur corpus. Et secunda est, ut sit ægritudo, in qua experitur medicina simplex. sicut febris ethica. Et tertia est, ut ea medicentur ægritudines contrariæ, donec certificetur. Et quarta est, ut sit uirtus medicinæ æqualis uirtuti ægritudinis, quæ cum ea medicatur, donec declaretur operatio eius in ea sufficienter. Et quinta est, ut consyderetur operatio medicinæ, an sit operatio eius in calefactione, & infrigidatione hora qua recipitur. Nam si non calefacit nisi post spacium, cum in principio infrigidauerit, tunc calefactio eius non est nisi per accidens: & similiter etiam si non infrigidat nisi post spacium, & iam in principio rei calefacit, tunc infrigidatio eius non est nisi per uiam accidentis. Et sexta est, ut consyderetur opatio eius in omni corpore, & in omni hora, quare est eius infrigidatio, & ipsius calefactio una res semper. Nam si est ita, tunc operatio eius est per naturam: & si non est ita, tunc operatio eius est per accidens. Et septima est, ut sit calefactio medicinæ in illa re, ad

Medicinæ intentio, sanitas.

Cognitio Medicinarũ et Ciborũ discitur octo uijs.

Margin numbers: 1 2 3 4 5 6 7

كتاب ابن وافد في فضائل الادوية والاطعمة ترجمة جيراردو الكريموني



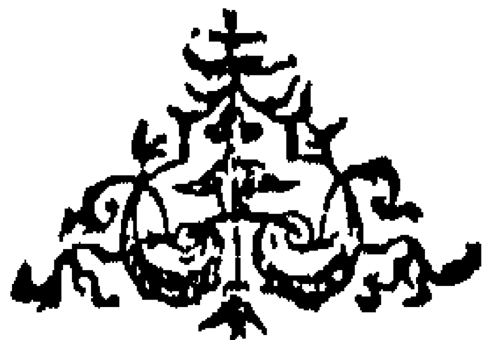
PETRI NONII SALACIENSIS, DE CREPVSCVLIS

LIBER VNVS.

ITEM Allacen Arabis vetustissimi, de causis Crepusculorum Liber vnus, à Gerardo Cremonensi iam olim Latinitate donatus, & per eundem PETRVM Nonium denuò recognitus.



SECVNDA EDITIO.



CONIMBRICAE.

Excudebat Antonius à Marijs.

Anno 1573.

في اسباب الغسق لابن الهيثم ترجمة جيرارده الكريموني

الفصل الرابع

مدرسة الترجمات بطليطلة

العهد الثاني :

اذاكان عصر الترجمات الاول في طليطلة قد تميز بالنقل من العربية الى اللاتينية فانه في العصر الثاني تميز بالنقل من العربية الى «الاسبانية—الرومنسية» ومنها في بعض الاحيان الى اللاتينية والفرنسية كما حدث في ليلة «الاسراء والمعراج» فقد نقلت اولا من العربية الى الاسبانية ثم من الاسبانية الى اللاتينية والفرنسية في بلاط هذا الملك الحكيم الذي شاء التشبه بالمأمون الخليفة العباسي... واذاكان المشرف على هذه الترجمات في الحقبة الاولى، اي في القرن الثاني عشر، رئيس اساقفة طليطلة، ففي الحقبة الثانية، اي في النصف الثاني من القرن الثالث عشركان الملك الفونسه العاشر، في العهد الاول كانت السلطة دينية وفي العهد الثاني السلطة مدنية.

بعد وفاة ابن رشد عام ١١٩٨ استمر نشاط المترجمين بطليطلة في القرن الثالث عشر.

يقول رينان : «ان ادخال النصوص العربية الى الدراسات الغربية قسم تاريخ العلم والفلسفة في العصور الوسطى الى حقبتين مختلفتين تمام الاختلاف. في الحقبة الاولى كان على الفكر الانساني ان يرضي رغباته ببقايا هزيلة محفوظة في المدارس الرومانية التي دخلت في الانحطاط منذ عهد بعيد. وفي الحقبة الثانية تنعم الغرب بالمؤلفات الاصلية اليونانية والعربية».

واكثر من رينان، روجير بيكون الراهب الفرنسيسكاني، وهو معاصر للملك الفونسه العاشر الحكيم. شغف هذا الراهب بالثقافة العربية فنوه بالفرق الكبير بين العصر الروماني الهزيل المعدوم من الثقافة على حد قول هذا الراهب، والعصر اللاتيني – العربي المزدهر. ولم يملّ في تأليفه «Opus mayor» عن الترديد : ان الفلسفة تحتاج الى ان تدرس باللغة العربية، وانه ليس عند

اللاتين شيء له قيمة الا ما اخذوه من بقية اللغات ، وان اسرار الفلسفة بكاملها كامنة في اللغات الغريبة عن اللاتينية.

تقبل الغرب من اسبانية الكنز الثمين من الحكمة المشرقية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بفضل الميزة التي لبستها اسبانية طوال تاريخها بصفتها الوسيطة بين اوروبة والثقافات العربية الشرقية.

اتخذت اسبانية موقفين امام الانتشار العربي العجيب الذي لم يجد من يقاومه ، الموقف الاول : دخل القسم الاكبر من سكان شبه الجزيرة الابرية في الاسلام وهذا موقف طبيعي ، اجل لقد دخلت في الاسلام تلك المناطق التي خضعت سابقا للنفوذ الروماني والبيزنطي ، بعد ان اجتاحتها الجيوش العربية. ولقد تأسبنت الثقافة العربية في الاندلس فنشأ عصر مدهش من الاسلام الاسباني عندما شرع الانحطاط يدب في جسم العالم العربي في المناطق الاخرى من البلاد.

والموقف الثاني الاسباني يعارض تمام المعارضة الموقف السابق ، وهو موقف استثنائي متطرف ، فليس من شعب من الشعوب الكثيرة التي سحقها العملاق المسلم ظلت مع ذلك تكافح ثمانية قرون لاستعادة ترابها الوطني كما فعل الشعب الاسباني.

فاسبانية الجديدة التي استعادت اراضيها المستعربة تمكنت من الاندماج في الغرب اللاتيني تلبية لشوقها القديم الى هذا الاندماج وادخلت معها تلك الكنوز من العلوم العربية الشرقية والكنوز الاسلامية الاندلسية.

الملك الفونسه العاشر:

ولد الفونسه في طليطلة ٢٣ تشرين الثاني ١٢٢١. ابوه الملك فرننده الثالث تزوج الاميرة بيتريس الالمانية ، ولد له منها : الفونسه وفدريكي «فردريك» وفرنانده وانريكي وفلبي وشانجه ومانويل. وابنتان هما : برنغيلة ، وليونور. BERENGUELA... LEONOR وتزوج الملك فرنانده ثانية بعد وفاة الملكة الالمانية بياتريس عام ١٢٣٤ ، بجنة الفرنسية.

قضى الفونسه ايام طفولته في منطقة برغش ، وكان ابوه يزوره بفترات متباعدة ، وعندما يتأخر عن زيارته يرسله المشرفون على تربيته الى البلاط الملكي لمشاهدة والده.

كان له من العمر خمس سنوات لما اصيبت امه بمرض عضال ولكنها استعادت صحتها باعجوبة من السيدة العذراء ، فبقيت هذه الحادثة راسخة في ذهن الفونسه فذكرها في اغانيه للعذراء ، الاغنية ٢٥٦.

اشترك عام ١٢٤٢ في معركة ضد الثائر «دياغه لوبس دي آره» «Diego Lopez de Haro» وتميز في هذه المعركة. وفي صيف ١٢٤٣ اوكل اليه ابوه احتلال مدينة مرسية MURCIA

كان في طليطلة لمّاوصلت اليه الانباء من مرسية تقول ان الملك العربي بهاء الدولة محمد بن هوديقدم مملكته على شكل اقطاع لملك قشتالة ، فان ثلاثة ملوك تهدد مملكته بالزوال : جقمة الاول الاراغوني من الشرق ، قشتالة من الشمال وابن الاحمر ملك غرناطة من الجنوب ، فرأى من الافضل الوصول الى اتفاق مع ملك قشتالة ، وقاسمه الرأي عظماء مملكته ما عدا لرقة وقرطجنة ومولة «LORCA, CARTAGENA, MULA»

وقع الاتفاق في «الكراز» وتم الاستيلاء على مملكة مرسية دون خسائر تذكر. وكان لهذا الاحتلال اهمية كبرى ليس من حيث توسيع رقعة اراضي المملكة القشتالية بل لانه سد الطريق في وجه اقوى مزاحم للملك قشتالة هو جقمة الاول الاراغوني JAIME I

اشترك الفونسه ، ولي العهد في حصار اشبيلية العربية سنة ١٢٤٧ واستسلمت المدينة عام ١٢٤٨ .

وكادت الحرب تنشب بين قشتالة واراغون بسبب مملكة مرسية ولكن تم الاتفاق على تزويج ولي عهد قشتالة اي الفونسه بابنة جقمة الاول الاراغوني. اسمها «فيولانت» «VIOLANTE» وهي ما زالت طفلة.

غير ان الامير الفونسه تعشق سيدة اسمها «دونيا مايور غليين دي قزمان» ورزق منها طفلة سماها بيتريس على اسم امه او جدتها. واحب الفنسه فتاة اخرى اسمها «دلاندة» DALANDA ابنة احد الفقهاء المسلمين ورزق منها ولدا اسماه «الفونسه فرنندس» ، وكان فارسا شجاعا.

وعلى ما يظهر ان الامير الفونسه كان سخي الكف لا قيمة للمال عنده ، ويقال ان مرتا زوجة الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية «بلدوين الاول» جاءت الى الفونسه تطلب منه فدية ابنها الذي وقع في قبضة المسلمين ويبدو ان المبلغ كان ضخما جدا ، خمسين قنطارا من الفضة ويقال ان الفونسه دفعه وحده ويقول آخرون دفع ثلثه والثلث الثاني دفعه البابا والثلث الثالث لويس التاسع ملك فرنسة .

وهذا التبذير سبب الاستياء عند الكثيرين في البلاط ومن جملتهم «انريكي» اخو الملك الفونسه والنبيل دياغه لوبس دي هاره «DIAGO LOPEZ DE HARO» وهرب الاثنان الى مملكة اراغون وما لبث انريكي ان دخل في خدمة ملك الانكليز هنري الثالث فاشترط عليه الامتناع عن الاعمال العدائية ضد اخيه الملك الفونسه لانه حليف الانكليز.

وممّا يروى عن الملك الفونسه انه سمع ان الخليفة العباسي هارون الرشيد كان ينظم الشعر، فاحب هو بدوره ان ينظم الشعر وفعلا نظمه، وهارون الرشيد تفصله عن الملك الفونسه العاشر الحكيم ثلاثة قرون...

واعجب الفونسه بالامبراطورية الرومانية واعتبر «فيرياتو» «VIRIATO» الاسباني الذي حارب الرومان بعنف «لصاً»، ويفاخر بالاباطرة الرومان الذين يرجعون الى الاصل الاسباني مثل «تراجانوس» و«ادريانوس»، ولذلك احب اعتلاء عرش الامبراطورية الرومانية.

وقد كتب الفونسه «التاريخ العام» واستقى مصادره من التوراة ومن اليونان والرومان والعرب، وصوّر الاحداث تصويرا دينيا تاريخيا ويستعين بتلك المصادر غير المسيحية على شرط الا تكون مخالفة للتوراة. وكتب تاريخ اسبانيا حتى وفاة والده فرننده الثالث والتاريخ الكبير يتوقف عند مولد السيد المسيح.

لم ترق علوم الكيميا لالفونسه العاشر الحكيم كما يقول عنه «سانتشس بيرش»، والتأثير العربي واضح تماما سواء كان في الكتب التي وضعها الفونسه او وضعت بامره او الكتب التي ترجمت الى الرومنسية «اللغة الاسبانية الناشئة»، وهذا التأثير العربي ظاهر ليس عند الملك الفونسه العاشر بل ايضا عند نسيبه الملك فردريك الثاني الالماني، فالملك القشتالي الاسباني لم يتردد في الاستعانة بعلماء اليهود والمسلمين ولم يخجل من التعامل معهم. وقد شاء تنصير العديدين منهم ولكن اشتهر جواب احدهم له وهو من العلماء المسلمين، لمّا قال: لا استطيع خدمة اله واحد فكيف اقوى على خدمة ثلاثة الهة؟ لم يغضب الملك الفونسه العاشر لهذا الجواب.

احب الملك الفونسه المطالبة بعرش المانية لان امه المانيّة، ولكن الاشراف والاكليروس في اسبانية لم يرضوا عن هذه المطالبة لان اسرة «شتوفين» الالمانية معادية للكنيسة، والمغامرات الاوروبية قد ترهق كاهل قشتالة فترزح تحتها ولا سيّما ان الاراضي المحتلة منذ عهد قريب من المسلمين لم تتثبت فيها تماما سلطة قشتالة، فاذا تورط الملك في حرب اوروبية قد تثور تلك الاراضي وترجع لاصحابها العرب، غير ان الملك الفونسه يرى انه اذا حصل انتصار حاسم وسريع يستطيع ان يخرس هذه الاعتبارات جميعها.

التدخل في الشؤون الايطالية:

ما الغرض من وجود هذا العدد الضخم من الايطاليين في بلاط الملك الفونسه العاشر الحكيم؟ لمَ هذا الذهاب والاياب المتواصلان بين اسبانية وشمالي ايطالية؟

يفهم كل هذا اذا سردنا قليلا بعض الاحداث التاريخية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ابتدأت العلاقات العائلية بين مملكة قشتالة الاسبانية وملوك فرنسة وانكلترة والمانية والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية منذ عهد الملك القشتالي الفونسه الثامن قاهر الموحدين في معركة «العقاب» عام ١٢١٢م.

فالفونسه الثامن هذا تزوج بالانكليزية ليونور ابنة هنري الثاني ملك الانكليز والمولودة في نورماندية فاستلمت من ابيها مهرها وهو دوقية غسكونية التي تنازل اخوتها الثلاثة عن حقوقهم فيها لها. وكان على الفونسه الثامن ان يعد حملة لاحتلال هذه الدوقية عام ١٢٠٤–١٢٠٦ ولم يوفق تماما، واعاد الكرة الفونسه العاشر.

ولمّا طالب الملك الفونسه الحكيم بدوقية غسكونية جلب الى بلاطه عددا كبير من اشراف تلك المنطقة واعترفوا به سيدا وملكا عليهم، وجاء معهم عدد ضخم ايضا من الشعراء المتجولين والرسامين والموسيقاريين والمعلمين والمشترعين والاطباء والتجار.

وقد شاء الفونسه تدعيم حقه الشرعي في الدوقية التي لم يشأ ملك انكلترة التخلي عنها ولكن الاشراف في تلك الدوقية غير راضين عن ملك الانكليز، وعندما تتوّج الملك الفونسه عام ١٢٥٣ وجهوا من يمثلهم في حفلة التتويج التي جرت في اشبيلية وحثوا الملك على استعادة غسكونية.

ولم تنجح الوسائط فشاءوا تسوية الامور عن طريق الزواج فتزوج ولي عهد الانكليز ادوار بالاميرة ليونور شقيقة الملك الفونسه الاسباني من ابيه واوعز الى اشراف غسكونية لكي يقبلوا بالملك الانكليزي هنري وابنه ولي العهد ادوار ملكا عليهم، وهذه المسألة ايضا لم يكتب لها النجاح.

وكان الملك فرننده والد الفونسه قد تزوج ببيتريس الالمانية، فطالب الفونسه بعرش المانية بصفته ابن بيتريس.

وجه الى المانية صنيعته «غرسية بيرش» الكاتب العدل الاكبر، وتوصل غرسية بيريش في فرنكفورت الى اقناع اكثرية الناخبين لانتخاب الملك الاسباني الفونسه العاشر، ولكن حضر ريشارد الانكليزي المطالب ايضا بعرش المانية الى فرنكفورت بجيش قوي واعلن ذاته امبراطورا. ولكن الناخبين لم يخشوا هذا الجيش وانتخبوا ملك قشتالة امبراطورا على المدينة وملكا على الرومانيين ووجهوا سفارة الى اسبانية لاطلاعه على النتيجة، فاستقبل السفراء في برغش بشهر آب ١٢٥٧ ووافق على انتخابه، ولكن ريشارد الانكليزي كان قد تتوج امبراطورا في «اكيسغران» «AQUISGRAN» في ١٧ ايار.

وقد حاول الفونسه العاشر اخفاء هذه الامور عن مواطنيه القشتاليين لانها لا ترضيهم، ولم يتصرف

بالسرعة التي تمليها الظروف في مثل هذه الحالات، بينما مزاحمه ريتشارد الانكليزي هاجم مرسيلية و«بيسا» وعاقبهما، كما ان البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤–١٢٦١) الذي سانده في الماضي تخلى عنه في الحاضر وانضم الى مزاحمه الانكليزي ريشارد.

وقد شاء عام ١٢٥٩ الذهاب الى رومة لكي يتوجه البابا امبراطورًا، وعقد مجلساً في طليطلة ليطلع الحضور على رغبته ولكن البابا اسكندر الرابع اقنعه بالعدول عن المجيء الى رومة ووعده البابا بالتزام الحياد.

وجاء عام ١٢٦٠ وكان ملائما للمصالح الالفونسية فقد وصلت وفود من الحزبين الرئيسين في ايطالية يرأسها «برونته لاتيني» مؤيدًا الفنسه.

وبرونته لاتيني وضع كتابا عنوانه «Tesoretto» عام ١٢٦٢ ثم كتابا آخر عنوانه «Tesoro» عام ١٢٦٦ وهو عبارة عن موسوعة علمية في القرون الوسطى، درسها دانتي. وهذان الكتابان الواحد شعري رمزي والآخر علمي ضخم الحجم ضما افكارا ومعلومات ذات طابع عربي استقاها «برونته لاتيني» جميعها من اسبانية، ويقول جورج سارتون: ان القسم العربي في كتاب «TESORO» يعد افضل محتوياته. ومرت الاعوام وجاء عام ١٢٧٢ وتوفي ريشارد في هذا العام ولم يبق من يزاحم الملك الفونسه، غير ان البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١–١٢٧٦) يعارض فكرة تنصيب القشتالي امبراطورا على المانية وملكا على الرومان وبالنتيجة لم يتوّجه امبراطوراً ولا ملكاً على الايطاليين.

وكان دانتي قد بلغ ثمانية اعوام من سنه لانه ولد عام ١٢٦٥.

اضطر الملك الفونسه العاشر لمحاربة اخيه الامير «انريكي» هنري وقهره فهرب الى بلنسية ونفى ذاته من اسبانية.

والحرب الشنيعة الاخرى وقعت مع اخيه الآخر الامير «فلبي» «FILIPE». والاشراف الذين لا يرضيهم الرضى ثاروا عليه ايضا بقيادة احدهم «نونيه» «NUÑO» وانضموا الى ملك نبارة والى ملك غرناطة العربي. وحروب اخرى مع ابنه الامير شانجه ولي العهد.

وكل هذه الحروب الاهلية حالت بينه وبين مواصلة الحروب مع المسلمين، فقد تحولت الى مناوشات لا اهمية لها كما ان المسلمين صغرت رقعة مملكتهم اذ اقتصرت على ما يسمونه مملكة غرناطة وقسم من المرية واشبيلية ومالطة وقرطبة. واصبحت هذه المملكة العربية الصغيرة مصدر قلق دائم لالفونسه لان الاشراف الذين يتمردون عليه يلجأون الى هذه المملكة.

توفي في ٤ نيسان ١٢٨٤.

الفونسه الحكيم

افضنا في الكلام عن هذا الملك لكي نستطيع فيمًا بعد تفسير وجود تلك الاعداد الضخمة من الفرنسيين والايطاليين واليهود والمسلمين في بلاطه حيث ترجمت كتب كثيرة من العربية الى الرومنسية الاسبانية، والفرنسية، واللاتينية.

لم يكن الملك الفونسه الوحيد في القرون الوسطى الذي كرس حياته او على الاقل قسماً كبيرا منها للشرود في معالم الفكر وآفاقه الواسعة المدى فقد شاركه الكثيرون من رجال الدين في اسبانية وخارجها، ولكنه اكثر من اي ملك آخر بذل مجهودا تاريخيا لاخراج «التاريخ العام» و«تاريخ اسبانية». وكان له نصيب وافر في الشرع وفي الشعر ايضا له باع طويل، وفي علم الفلك وفي علم المعادن والالعاب، كل هذا لم يفته.

لم يتميز الملك الفونسه العاشر الحكيم بالابتكار لان الابتكار من شيمة القرون الوسطى، فنجد كل ما كتبه الفونسه عند الذين سبقوه كلمة كلمة، الابتكار قائم في الجهد المبذول، فاذا جمعت الكتب التي صنفت في قصره وبامره تصل الى اكثر من عشرين مجلدا ضخما.

جمع حوله علماء عصره من مسلمين ويهود ونصارى ورهبان وكهنة وعلمانيين. نذكر بعض الاسماء:

- فرنده مرتينس «Fernando Martinez»
- برنلده العربي Bernaldo el Arabigo
- رابي صاغ الطليطلي Rabi Sag de Toledo
- صموئيل ليفي Samuel Levi
- وغليين داسبا وقريبه يوحنا داسبا Guillen D'Aspa, Juan D'Aspa
- جيل التبلديسي Gil Tibaldis
- يهودا موسكا YEHUDA MUSCA
- غرسي بيرش GARCI PERES

يقال عن الفونسه الحكيم انه شجع دراسة التراث العربي.

وفردريك الثاني بحث ايضا في الترجمات عن مواد تصلح لدراسته الخاصة ولكن اهتمامه لم يقتصر على هذه الدراسات بل وسع آفاق معارفه الى الفلسفة والعلوم. الفونسه على العكس لم يترجم سوى علم

الفلك الى اللغة الاسبانية ولهذا لم يستطع الوصول الى ايدي كثيرة خارج اسبانية لانه لم يكتب باللغة اللاتينية.

جمع الفونسه الحكيم في طليطلة شلة من اليهود والمسلمين والنصارى من غسكونية وباريس وايطالية حتى زاد عددهم على الخمسين مترجما واقترح عليهم نقل كتاب بطليموس «TETRABIBLON» كتاب الاربعة وتراس اجتماعاتهم في قصر «غليانة» بالقرب من طليطلة وعندما لا يتمكن من حضور الاجتماعات يرأس عليهم «ابن الرجال».

قضى هؤلاء العلماء في طليطلة حوالي اربعين عاما في الدراسة ومراقبة النجوم ثم ارسلهم الى بيوتهم سعداء اغنياء، اذ نالوا منه اموالا طائلة واعفاهم من دفع الضرائب هم وذريتهم من بعدهم.

ويقال عن الملك الفونسه انه لم يكن راضيا عن علم الفلك وقد صدر عنه هذا الكلام: «لو ان الله استشارني قبل خلق العالم والكون لكنت اقترحت عليه ان يبسطه بدل ان يعقده هذا التعقيد العنيد».

اسماء بعض المترجمين:

يهوذا بن موسى:

يقال له «كوهين» او الكاهن او الفقيه او الحكيم القرطبي، من انشط المترجمين من العربية الى الاسبانية.

ترجم كتاب الاربعة لبطليموس بالاشتراك مع صموئيل وقد وضع هذه الترجمة باللغة اليونانية «جيديوس التبلديسي» «GIL DE TIBALDIS» وفي الوقت ذاته ترجموا شرح علي بن رضوان. ويوجد نسخة من هذه الترجمة في المخطوط رقم ٧٣٢١ في المكتبة الوطنية بباريس، وترجمة فرنسية نذكر منها بعض سطور المقدمة:

«Le ai mis en bon et plain latin par le commandement de haut et puissant prince monseigneur Alphonse, roy des Romains et de Castille. Et je supplie à Dieu le Père qu'il me doint pouvoir à ouvrir la voie de droiture, vu que Messire Alphonse le haut roy des Romains ayma moult et honnura la science et tous ceux qui en savaient, et en quist par toutes terres et par tous climats du monde toutes les sciences de toutes gens et de tous langaiges, et il les fit devant lui translater de arabic en espagnol, et lui ainsi comme maitre de toutes sciences et de toutes vertus par sa propre consideration a renouvelé moult de choses proufitables et a commencé à ordonner moult de libres et moult de sentences des sages anciens et leurs paroles qui gisaient ça et là perdues»

الترجمة : فقد وضعته بلغة لاتينية جيدة بامر من الامير العالي القدر سيدي الفونسه ملك الرومان وقشتاله ، وتوسلت الى الله الآب ان يمنحني القدرة ويفتح امامي الطريق المستقيم ورأيت ان سيدي الفونس الملك السامي على الرومان يحب كثيرا العلم ويكرمه كما يكرم جميع العلماء ويفتش في جميع انحاء العالم عن جميع العلوم عند جميع الامم وفي جميع اللغات لكي ينقلوها من العربية الى الاسبانية وهو ايضا بصفته عالما بجميع العلوم والفضائل جدد الكثير من الامور بحسن نظريته للاستفادة منها ونظم الكثير من الكتب والكثير من اقوال الحكماء الاقدمين واقوالهم المشتتة والضائعة هنا وهناك».

كما ان يهودا بن موسى بالاشتراك مع «اجيديوس التبلديسي» ترجم كتابا لعلي بن الرجال موجود في المخطوط رقم ٧٣١٧ بباريس في المكتبة الوطنية ويحمل هذا العنوان :

«Liber magnus et completus quem Aly Aben Ragel composuit de judiciis, quem Ihuda filius Musa precepto dni Alfonsi romanorum et Castiliae regis illustris transtulit de arabico in Yspanicum idioma, et quem Egidius de Tobaldis aulae imperialis notarius una cum Petro de Regio ipsius aulae pronotarius transtulit in latinum».

كما تنسب اليه ترجمة كتاب «الكواكب الثابتة» لابي الحسن ابن الهيثم وكتاب «الحلق» ترجمه الى اللاتينية : «Guillaume Arremon» صموئيل لاڤي الطليطلي : ساعد يهوذا بن موسى في ترجمة «كتاب الاربعة» لبطليموس.

فرننده الطليطلي :

ترجم جداول الزرقالي بمساعدة «رينلده» العربي وابراهيم البرغشي ونذكر ايضا اسماء مترجمين آخرين : يوحنا الطليطلي وغرسية ويوحنا المسيني J. Messine ويوحنا الكريموني«J. Cremona»

ويقول «بون كومباني» : ان اجيديوس التبلديسي ترجم الى الاسبانية كتاب المجسطي ، وان الملك فردريك الثاني جعل منه ترجمة لاتينية. ونقرأ في المخطوط رقم ٧٢٦٦ في المكتبة الوطنية بباريس المخطوطات اللاتينية ، ان ترجمة المجسطي قد هيئت في طليطلة وقد قام بها يهودي اسمه «روبرتس».

ومن جملة الذين ترجمت لهم كتب ولكن نجهل اسماء المترجمين : البتاني ، وابن سينا وجابر بن افلح ومسلمة المجريطي.

رابي صاغ : «RABBI SAG» (اسحق بن السيد)

ترجم اربعة كتب : – **كتاب الحلق** – **كتاب في الاسطرلاب** – **جدول عام**

وكتاب آخر هذا عنوانه بالاسبانية :

«Liber del instrumento del leviamento en arabigo Atacir»

ابراهيم الطليطلي :

ويسمونه الحكيم. اوعز اليه الملك الفونسه العاشر ان ينقل الى الاسبانية عن العربية «معراج محمد». وابراهيم الطليطلي هذا سمّي اليهودي الاسباني، ولد على ما يظهر في طليطلة كما جاء في الموسوعة اليهودية ١٩٠١ المجلد الاول صفحة ١٢١، ولا نعرف عنه شيئا اذا استثنينا اعماله الادبية، حتى ولا نستطيع الوثوق من ولادته في طليطلة.

نعرف انه ترجم المعراج، فالنص الفرنسي يقول ان الترجمة تمّت في ايار ١٢٦٤ وهذا يعني ان الترجمة الاسبانية قد انجزت قبل هذا التاريخ اي في عام ١٢٦٣.

ترجمة «الصفيحة» جرت في برغش عام ١٢٧٧.

ولا يعرف له تأليف آخر سابق لعام ١٢٦٣ غير ان الترجمة الاسبانية مفقودة.

وكان الملك الفونسه العاشر الحكيم يقدر ابراهيم الطليطلي الحكيم تقديرا كبيرا نظرا لقدرته العلمية ولدقة ترجمته. كما ان مقدمة «الصفيحة» تؤكد حسن اسلوبه ووضوح عرضه وتفهمه لمادته التي يترجمها وهي علم النجوم. والملك الفونسه وضع بين يديه مواد كتاب الزرقالي.

فتكون ترجماته واعماله :

١ – الترجمة من العربية الى الاسبانية لمقالة «ابن الهيثم» في «هيأة العالم» ترجمة فيها الكثير من التصرف وتعرف باسم «السماء والعالم» لا نعرف تاريخ انجازها ولكن يمكن ان نضعه بعد عام ١٢٧٠ لانه بين عام ١٢٧١ و١٢٧٥ نقلت الى العبرية والناقل هو جاكوبه بن ماهر، ثم نقلت الترجمة العبرية الى اللاتينية والناقل هذه المرة هو «ابراهيم البلمسي» «Abraham de Balmes»

٢ – «صفيحة الزرقالي» كانت ترجمة كتاب «الاسطرلاب» الذي ألّفه الزرقالي، اساسا للترجمات اللاتينية والايطالية لصفيحة الزرقالي وهذه اعطت ابراهيم الشهرة الذي نعم بها.

ويوجد نص من صفيحة الزرقالي بالعبرية وترجمة اخرى لاتينية مطبوعة عام ١٥٣٤ في نورمبرج. ويوجد نص ايطالي ترجم في اشبيلية عام ١٣٤١ والمترجم اسمه «جيروشيو» «Gerruccio»

وفي عام ١٢٧٧ اوعز الملك الفونسه العاشر الى «برنلده» العربي لكي يضع ترجمة جديدة اسبانية وطلب في الوقت نفسه من ابراهيم الطليطلي ان يعتني بالناحية الفنية من الكتاب وبالتعابير العلمية والصيغة اللغوية الاسبانية.

٣ -الاسراء والمعراج: اول من تحدث عن ترجمة «الاسراء والمعراج» من العربية الى الاسبانية «شتانشنيدر»، فقد ذكر وجود هذه الترجمة ثم نقلها الى الفرنسية، في فهرس المخطوطات العبرية الموجود بمكتبة بودليان باكسفورد رقم ٧٤٠٦ وقد اعطى بعض المعلومات الوجيزة عنه.

وقد جهل وجود النص اللاتيني في المخطوط رقم ٦٠٦٤ بالمكتبة الوطنية بباريس كما جهله جورج سارتون.

ومن المأسوف له فقدان الترجمة الاسبانية لانها كانت تساعدنا على دراسة النصوص الاخرى.

بونفنتورا دي سينا: «Bonaventura de Sena»

كاتب عدل عند الملك الفونسه العاشر. هذا ما قاله عن ذاته في المقدمتين ويظهر في وثيقة مؤرخة في اشبيلية ١٢ ايار ١٢٦٦.

اربعة على خمسة من معاوني الملك الفونسه الايطاليين هم من شمالي تلك البلاد وواحد فقط من جنوبها.

- اجيديوس التبلديسي من برمة «Gil de Thebaldis de Parma»
- بونفنتورا السياني «Bonaventura de Sena»
- يوحنا المسيني Juan de Mesina
- يوحنا الكريموني Juan de Cremona
- بدره الرجي Pedro de Regio

المهم في الامر ان هؤلاء الايطاليين قدموا الى اسبانية ونزلوا في البلاط الملكي واتصلوا بالعرب واليهود الذين غصت بهم مدينة طليطلة وغيرها من المدن الاسبانية وتوصلوا الى الاطلاع على المخطوطات التي تصلح للنقل.

اوعز الملك الفونسه العاشر الى «بونفنتورا السييني» لكي ينقل الى الفرنسية واللاتينية الترجمة الاسبانية التي وضعها لكتاب المعراج ابراهيم الحكيم.

اجيديوس التبلديسي من برمة :

كاتب عدل الملك وصل الى اسبانية من ايطالية ملحقا باحدى السفارات الايطالية العديدة التي قدمت الى بلاط الفونسه العاشر من شمالي ايطالية التي اعترفت بحقوق الملك الاسباني في التاج الالماني. انتقل من المهمة السياسية الى المهمة العلمية.

ترجم الى اللاتينية كتاب «البارع في احكام علم النجوم» لابن ابي الرجال، وكان يهوذا بن موسى قد نقله الى الاسبانية بامر من الملك الفونسه كما رأينا، واعطاه اسم El libro conplido موجود في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٣٠٦٥.

جاء تبلديس هذا ونقله الى اللاتينية وقد نقلت هذه الترجمة ثلاث مرات الى العبرية، طبعت في البندقية باللاتينية عام ١٤٨٥ وعام ١٥٢٥، وفي باسيل (سويسرة) عام ١٥٥١ و١٥٧١.

٢ – المقالات الاربع «Tetrabiblon»

ترجم هذا الكتاب للمرة الاولى الى اللاتينية «افلاطون التيفولي» عام ١١٣٨. ويعتقد سارتون ولكليرك ان هذا الكتاب ترجم مرتين الى الاسبانية، احداها ترجمة «المقالات الاربع» «TETRABIBLON» وحدها ثم ترجمته مع شرح علي بن رضوان والترجمتان الاسبانيتان نقلتا معا الى اللاتينية والناقل هو اجيديوس التبلديسي يوجد المخطوط في «نيوكولدج» اكسفورد، رقمه ٢٨٢ ويقول :

«Librum ipsum cum glossis prudentissimi Haly Ebaram tranferre providi jussu et beneplacito... Alfonsi Romanorum et Castellae Regis... de Hispanico in latinum planum et aptum... hunc librum de arabico transferri mandavit primitus in hyspanicum ydioma idem... scl. gloriosissimus Romanorum et Castellae rex inclitus et excelsus».

وينتهي هكذا :

«Explicit quadripartitum Ptolomei cum glossa Hali Abanrudiam»

وابن رضوان هذا هو ابو الحسن علي بن رضوان، وكان مولده ومنشؤه بمصر تعلم صناعة الطب وهو ابن خمس عشرة سنة، وقد قص علينا امره كله :

«ولدت بارض مصر في عرض ثلاثين درجة، وطول خمس وخمسين درجة والطالع بزيج يحيى بن ابي منصور الحمل «لو» وعاشره الجدي «كح» ومواضع الكواكب الشمس بالدلو «اه ل ب» والقمر «ح يه» وعرضه جنوب «ح يز»، وزحل بالقوس «كط» وللمشتري بالجدي «لـح» والمريخ بالدلو «كامح»، والزهرة بالقوس «كدك»، وعطارد بالدلو «يط» و«سهم»، السعادة بالجدي «ده» وجزء

الاستقبال المتقدم بالسرطان «كب ى» والجوزهر بالقوس «يزيا»، والذنب بالجوزاء «يزما» والنسر الواقع بالجدي «اكب»، والشعري العبور بالسرطان «يب».

ويتابع كلامه عن نفسه: فلمّا بلغت السنة السادسة اسلمت نفسي في التعليم، ولمّا بلغت السنة العاشرة انتقلت الى المدينة العظمى واجهدت نفسي في التعليم ولمّا اتممت اربع عشرة سنة اخذت في درس الطب والفلسفة ولم يكن لي مال انفق منه فلذلك عرض لي في الدرس صعوبة ومشقة فكنت مرة اكتسب بصناعة القضايا بالنجوم.

وكانت وفاة علي بن رضوان في سنة ثلاث وخمسين واربعمائة بمصر[1].

وما لبثت ترجمة خيل تبلديس اللاتينية ان نقلت الى الفرنسية كما يظهر في المخطوط رقم ٧٣٢١ الموجود في مكتبة باريس الوطنية.

ويقول سارتون: ان النص الاسباني «للمقالات الاربع» ضائع ولكن عندنا مخطوط يحمل رقم ١٨٦٦ بالمكتبة الوطنية بمدريد، والخط من القرن الخامس عشر والناسخ هو «لوبوس» ويبتدئ على النحو التالي:

«Aqui comiença et libro et qual es llamado Quarto partido, el cual compuso Tolomeo e es partido en quatro partes... es abreviado de los grandes prolongamientos de las lenguas glosas de Ali Abenrodoan, empero que esen el terto de Tolomeo salvo tres capitulos, que no son pertenecientes de estar en ningum libro ni de fazer dellos mencion ningund sabio nin de tratar en ellos ningund omen.».

يريد ان يقول: «هنا يبتدئ الكتاب المسمّى «المقالات الاربع» الّفه بطليموس وهو مقسوم الى اربعة اقسام ومختصر من الشروح الطويلة التي وضعها علي بن رضوان، والكتاب لبطليموس الا الفصول الثلاثة الاخيرة منه فهي لا توجد في اي كتاب ولم يذكرها اي عالم ولم يبحث بها اي انسان.

ويقول يوحنا خيل السموري «Juan Gil de Zamora» رأيت كتاب بطليموس «المقالات الاربع» شرح علي بن رضوان وهو كتاب مفيد جدا لمن يريد ان يتعلم احكام النجوم، ومشبع بآراء بطليموس واكثر منها آراء علي بن رضوان.

١ – ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء في طبقات الأطباء – دار الثقافة – بيروت لبنان – الجزء الثالث صفحة ١٦٤ وما يليها.

ويوحنا جيل السموري راهب فرنسيسكاني عينه الملك فرننده الثالث معلما لالفونسه ولده ، لمّا كان فتى ثم اصبح معلم الامير دون شانجه بن الفونسه الملك.

والكلمة الاخيرة عن المترجم اجيديوس التبلديسي ، فخلافا لمّا قاله عنه «ثرنديك» «Thorndike» و«وستنفيلد» «Wüstenfeld» انه ترجم هذين الكتابين اللذين ذكرناهما له رأسا عن العربية ، فالمقدمات لهما تقول : انه نقلها الى اللاتينية الصحيحة عن الاسبانية التي ترجمها الآخرون.

يوحنا المسيني : «Juan de Mesina»

لم تعرف شخصية هذا الرجل معرفة كاملة ، فقد جعله شتانشنيدر مع يوحنا الصقلي وبرتلماوس المسيني شخصا واحدا ، غير ان سارتون وان لم يستبعد كونهم شخصا واحدا الا انه شخصيا يعتقد انهم ثلاثة افراد مختلفين لان مجرد وجود اعمالهم في اماكن متفرقة يحمل على الاعتقاد انهم ثلاثة بالفعل :

- برتلماوس المسيني نجده في نابولي عام ١٢٦٢
- يوحنا المسيني في اشبيلية عام ١٢٧٦
- ويوحنا الصقلي في باريس عام ١٢٩٠

والمواضيع التي بحثها كل فرد منهم تختلف تماما.

برتلماوس ترجم ارسطوطاليس ، يوحنا الصقلي ترجم مؤلفات في علم الفلك وانتقد الجداول الالفنسية الطليطلية ، وهذا امر لا نراه منطقيا فلو كان يعمل تحت اوامر الملك الفونسه العاشر الحكيم ويتقاضى منه اجورا لا ينتقد هذه الجداول التي تحمل اسم الملك نفسه.

وفي عام ١٢٧٦ نراه يترجم او يساعد الملك الفونسه العاشر في ترجمة كتاب «النجوم» «Libro de las estrellas» بالتعاون مع يوحنا الكريموني واليهوديين «يهوذا بن موسكة» و«صموئيل هليفي» ، ويستنتج من المقدمة ان هذه الترجمة جديدة وتصحيح للترجمات التي اخرجها عام ١٢٥٦ يهودا بن موسى وغليوم «اريمون داسبا» عن النصوص العربية كما جاء في المقدمة :

«... Et despues lo endereço et lo mando componer este rey susodicho et tollo las razones que entendio eran sobeianas... Et en los otros saveres ovo por ayudantares a maestro Juan de Messina et a maestro Juan de Cremona et a Jhuda el sobredicho et a Samuel... año 1276.»

الترجمة وبعد ان عدله ارسله وامر بتأليفه هذا الملك المذكور وجميع الاسباب التي ذكرها كانت حكيمة للغاية... وفي المعارف الاخرى كان له مساعدون منهم المعلم يوحنا المسيني والمعلم يوحنا الكريموني ويهودا المشار اليه وصموئيل... عام ١٢٧٦.

يوحنا الكريموني :

وهذا ايضا ايطالي آخر من معاوني الملك الاسباني ، مشكوك بصحة نسبته ، ويشوب شخصه بعض الغموض وذلك ناتج عن أنه في القرن الخامس عشر نسب الى احدهم : جيرار الكريموني طبيب وعالم حسابي ايطالي ، نظريات حول الكواكب مستخرجة من المجسطي تأليف بطليموس.

فجيرار الكريموني هذا كان بالحقيقة من «سبيونيتا» Sabionetta ، وهي محلة صغيرة غير بعيدة عن كريمونة اعتاد أن يطلق على نفسه اسم «جيرارده الكريموني» غير جيرارده الشهير.

بدره الرجي : «Pedro de Regio»

يطلق عليه لقب «Protonatarius aulae imperialis» كما يظهر في جميع المخطوطات التي اشرنا اليها لما تحدثنا عن كتاب «احكام النجوم» الذي ترجمه اجيديوس التبلديسي واشتغل معه معاونا ، وقد اورده الكثيرون على أنه اسباني وترجموا اسمه فاصبح «بدره الملكي» «Pedro de Regio» وهذا بعيد الاحتمال فإنه ايطالي آخر في بلاط الملك الفونسه الحكيم.

فتسميته الاسبانية اعتباطية ولا تقوم على اساس من الصحة ، فبالقرب من «برمة» وعلى بعد ثلاثين كيلومترا من كرمونة في شمالي ايطالية محلة اسمها «رجيو» وفي جنوبي ايطالية مدينة رجيو الكبيرة في ولاية «كلابرية» ، وبالتالي ليس من سبب حقيقي يحملنا على انكار وصول هذا الرجل من رجيو كما جاء يوحنا المسيني من صقلية ، والارجح انه من رجيو الشمالية.

المعلم جاكوبو، صاحب الشرائع : «Maestro Jacobo de las Leyes»

وهذا ايطالي آخر يضاف الى قائمة الايطاليين الذين تعاونوا مع الملك الفونسه. ظهر تأثير هذا الرجل في كتاب وضعه الفونسه عنوانه : «PARTIDAS» ، الفه الملك ذاته وجعله مرتبطا بالحق الروماني الذي دخل على اسبانية في عهد الملك فرننده الثالث والد الملك الفونسه. وكان الملك فرننده قد عين جاكوبو معلما لولي العهد الفونسه في دراسة الحقوق.

يقول عنه «التميرا» في كتابه : «تاريخ الحقوق والتشريع المقارن» مدريد ١٩١٤ عندما يتحدث عن المعلم جاكوبو: انه ايطالي المولد...

وقد جاء في الوثائق التي تذكر دفنه في كاتدرائية مرسية أن اسمه الحقيقي هو «جاكوبو الجنتي» وعائلة «جونتي» ايطالية.

ويأتون على ذكره ايضا في توزيع الاراضي التي استولى عليها الاسبان في مملكة مرسية، فنراه تارة يظهر بلقب «قاضي الملك» وطورا «المعلم جاكوبو» وطورا «المعلم جاقمه» وايضا المعلم جقمه صاحب الشرائع.

وقد رفض المؤرخون اعطاءه اسم «رويس» كما يظهر احيانا بهذا الاسم «جقمه رويس» فالكلمة «Ruiz» جديدة وليست سوى تحريف كلمة قاض «خويس» «Juez»

واذا لم يكن ولد في ايطالية فالدلائل جميعها تشير الى أنه درس فيها وعلى الارجح في بولونية مركز الحركة الرومانية في القرن الثالث عشر، وقد اطلت على اسبانية في ذلك العهد.

له مؤلفات في الحقوق منها «زهرة الحقوق» «Flor del derecho»

وسواء ولد في ايطالية او درس فيها فقط فإن الملك فرنانده الثالث وجد فيه رجلا ناضجا له خبرة واسعة في العلوم القضائية، وهذا يتفق ورغبة الملك فرننده في خلق قوانين موحدة توجه حياة المواطن في مملكتي قشتالة وليون الاسبانيتين، فقرر هذا الملك توحيد التشريع في مملكته وامر بترجمة «Fuerojuzgo» القانون الجزائي الى اللغة الرومنسية، والقانون هذا اشتقاق من الحق الروماني الذي وضعه يستنيانوس «Justinianos». فهؤلاء الايطاليون لم يعيشوا بعزلة عن بلادهم بل ظلوا على اتصال بها ولا شك انهم ارسلوا نسخة عن ترجمة المعراج الى فلورنسة وسيانة وروما وبولونية وبارمة وكريموني. فاطلع عليها دانتي.

كتاب الاحجار

ينسب هذا الكتاب الى الفونسه العاشر الحكيم ولكن بالحقيقة ليس سوى ترجمة عن العربية تعهد بها «رابي يهودا موسكا هاقطون». شرع في الترجمة عام ١٢٤١ وقد عاونه فيها غرسيه بيرش. وقد جاء في مقدمة كتاب «الاحجار» ما يلي:

«كان ارسطو اكمل الفلاسفة وهو الذي اوضح الاشياء باسبابها القصوى فهمها على حقيقتها وقال: ان جميع الاشياء التي هي تحت الشمس تتحرك وتسير بحركة الكواكب كما امرها الله، وهي الفضيلة الاولى ومنها تنبثق بقية الفضائل. وقد برهن ان جميع الاشياء في العالم متماسكة مترابطة والواحدة تستلم قوتها من الاخرى، والمخلوقات الدنيا من المخلوقات العليا. وهذه الظاهرة موجودة في الحيوانات مثلما هي موجودة في النبات واخرى خفية مثلما هي في الاحجار والمعادن».

وقد وضع العلماء كتبا تحدثوا فيها عن الاجرام السماوية وهي ليست مشكلة من العناصر الاربعة مثلما هي الاجرام الارضية.

وقد عدد ارسطوطاليس سبعمائة نوع من الحجارة وقال عن كل حجر فضائله وحجمه ولونه وفي اي مكان يوجد. وهكذا تصرف علماء كثيرون تحدثوا عن الحجارة، غير ان بعضهم شاء معرفة المزيد من خصائص الاحجار فلا تكفي معرفة اللون والحجم وفضيلة هذا الحجر اذا لم تعرف الاجرام السماوية المرتبطة بهذه الحجارة التي تستلم فضيلتها من الاجرام السماوية.

ومن جملة العلماء احدهم اسمه «ابو العيش» فرغم اتباعه شريعة المسلمين كان يحب الوثنيين ولا سيّمَا الذين هم من الكلدانيين لأن اجداده متحدرون من هناك، وبصفته عالما فقد ادرك هذه اللغة الكلدانية لأنه سمع أن تلك الارض انتجت علماء اكثر من اي بقعة من العالم، وبسبب كثرة الحروب التي وقعت في تلك المناطق مات الكثير من الناس واهملت العلوم.

وابو العيش هذا كان له صديق يبحث له عن الكتب ويأتيه بها وبين تلك الكتب التي عثر عليها كتاب يتكلم عن ثلاثمائة وستين حجرا حسب الدرجات الموجودة في السماء الثامنة، ويذكر لون كل حجر واسمه وخصائصة وفي اي مكان موجود ويتحدث عن النجم والبرج ومجموعة الكواكب الثابتة حسب سير الشمس خلال السنة وعلامات الابراج.

وعندما عثر ابو العيش على هذا الكتاب سر به كل السرور لأنه سيجد فيه كل ما يرغب معرفته في هذا الحقل. وبعد أن قرأه طويلا وفهم فحواه نقله عن اللغة الكلدانية الى اللغة العربية وحاول أن يبرهن عن تلك الاشياء الموجودة فيه.

وبعد وفاته بقي الكتاب مجهولا مهملا لأن الذين يملكونه لا يفهمونه ولا يعرفون كيف يستخدمونه الى إن شاء الله أن يصل هذا الكتاب الى ايدي الملك الفونسه بن فرننده والملكة بياتريس وهو صاحب قشتالة وطليطلة وليون وجليقية واشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والغرب. وجده لما كان ولي العهد في العام الذي استولى به على مملكة مرسية اي ١٢٨١-(٣٨)=١٢٤٣ وحصل عليه في طليطلة من يهودي كان قد اخفاه ولا يريد الاستفادة منه ولا أن يستفيد احد منه.

وحال استلامه الكتاب وضعه بين يدي طبيبه «يهودا موسكا الاصغر»، لأنه يفهم بفن علم الكواكب، ويجيد العربية واللاتينية. ولما ادرك الفائدة التي تجنى من هذا الكتاب أمر طبيبه اليهودي هذا أن ينقله من العربية الى الاسبانية لكي يفهمه الناس بطريقة اسهل. وقد ساعده في هذه الترجمة «غرسية بيرش» وهو راهب عالم في معرفة النجوم والكواكب. انتهى.

والكتاب هذا مفيد جدا ولكن، لكي تكون الفائدة منه اهم واوسع يجب على من يطالعه أن يكون على معرفة بثلاثة امور.

الاول: علم الفلك لكي يعرف النجوم في اي حالة هي ومتى تكون فضائلها اكمل.

الثاني: أن يعرف الحجارة والوانها وتقاطيعها واين تخلق هذه الحجارة وكيف تنمو واين؟

الثالث: أن يكون على المام كبير بعلم الطب.

المخطوطات:

يوجد ثلاثة مخطوطات من هذه الترجمة لكتاب «الاحجار» «LAPIDARIO» من عهد الملك الفونسه العاشر الحكيم. مخطوطان في مكتبة الاسكوريال يحملان رقم h-I-15 h-I-16 ووصلا الى الملك فيليب الثاني من «دياغه دي مندوسه» «Diego de Mendoza»

والمخطوط الثالث في المكتبة الوطنية بمدريد ويرجع الى القرن السادس عشروهو نسخة عن المخطوط الموجود في دير الاسكوريال، وقد فقدت منه بعض الاوراق، ومجلد مع كتاب آخر لالفونسه الحكيم عنوانه: «كتاب معرفة علم الفلك» «Libro del saber de Astronomia» ويحمل الآن رقم ١١٩٧.

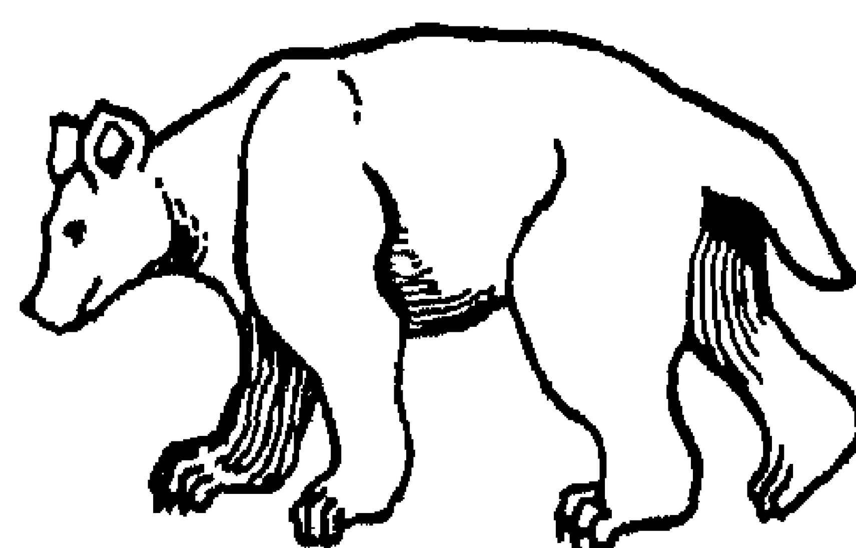
ومخطوطا الاسكوريال فريدان لأن مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد منسوخ عنهما وتنقصه بعض الاوراق، وقد طبعا في اواخر القرن الماضي لما طلب «فرنانده مونتانيه» «Fernandez Montaña» الاذن من اكاديمية التاريخ بمدريد بطبعها، غير أن اخطاء كثيرة ارتكبت بقراءتها.

المخطوط رقم h-I-15 مشكل من ١١٨ ورقة مكتوبة في عمودين، والمخطوط نفسه يتركب من اربعة كتب: الكتاب الاول يبتدئ في الورقة رقم ١ وينتهي في الورقة رقم ٩٤... يذكر في مقدمة هذا القسم اسم المؤلف وهو «ابو العيش»، عالم مسلم، كان له صديق يبحث له عن الكتب ويشتريها له. ومن جملة الكتب التي وقع عليها، هذا الكتاب فسر به ونقله من اللغة الكلدانية الى اللغة العربية. وتقول المقدمة: وبعد وفاة ابي العيش اهمل الكتاب حتى وجده الامير الفونسه في طليطلة عام ١٢٤٣ كما راينا، واشتراه من اليهودي الذي اخفاه. فدفعه الى طبيبه «يهوذا موسكا» لكي يقرأه ويطلعه على فحواه، وجاء التقرير موافقا فقرر الامير الفونسه نقله من العربية الى الاسبانية «الرومنسي»، فترجمه موسكا بمعاونة الراهب «غرسية بيرِش» وانجزت الترجمة عام ١٢٥٠.

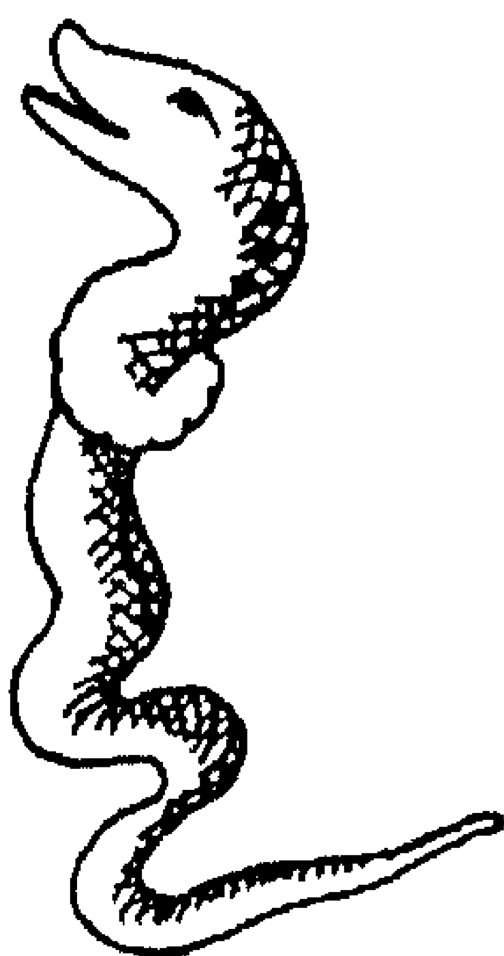
El primero de los adjuntos esquemas da idea de la decoración completa de estas figuras en el códice; ya hemos dicho en su descripción que no en todas lo está (pág. XXVII). Nótese la inexistencia de dos constelaciones: Leo (número 26) y Pez meridional (número 48). Ello es debido a la falta de dos trozos en el texto del lapidario (véase pág. XIV). En cambio hay dos figuras cada una de las cuales ha sido representada de dos maneras distintas: la 16 y la 18.



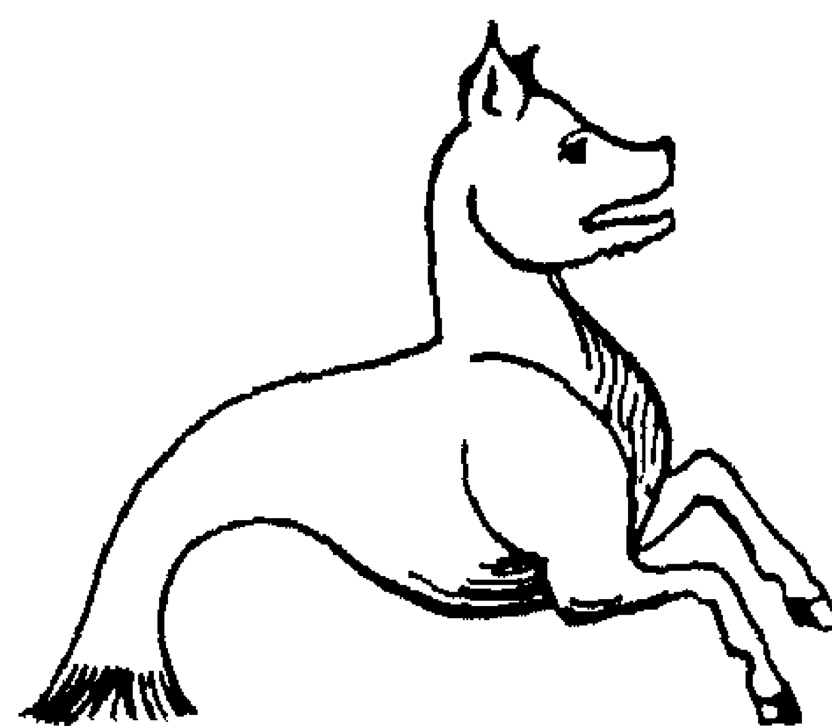
1. OSA MENOR. Grados 1, 17 (con Géminis) y 30 de Géminis; 5 de Cáncer.



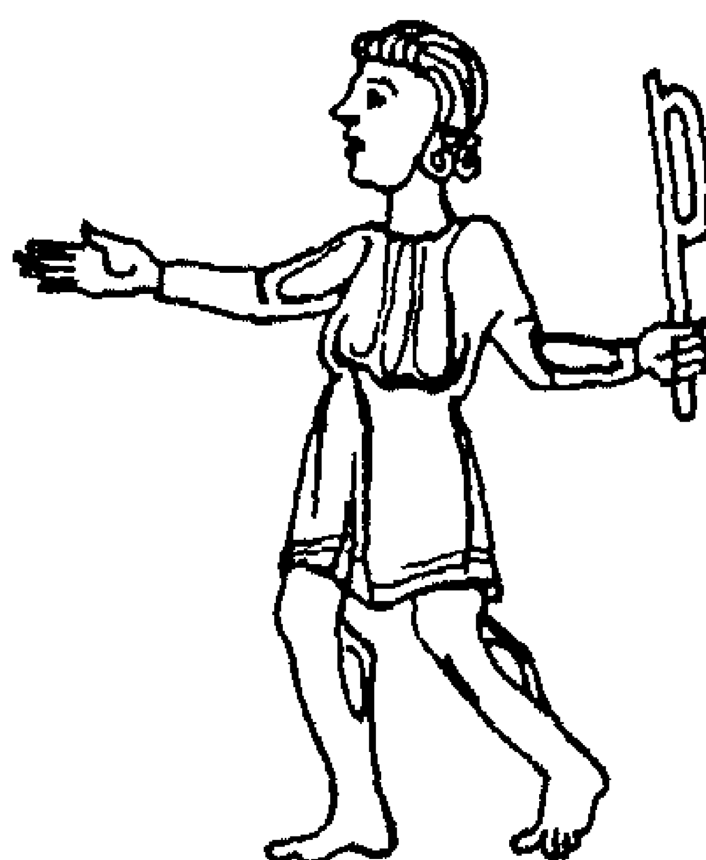
2. OSA MAYOR. Grados 26 y 28 de Géminis; 2, 6, 10, 18, 23 y 26 de Cáncer.



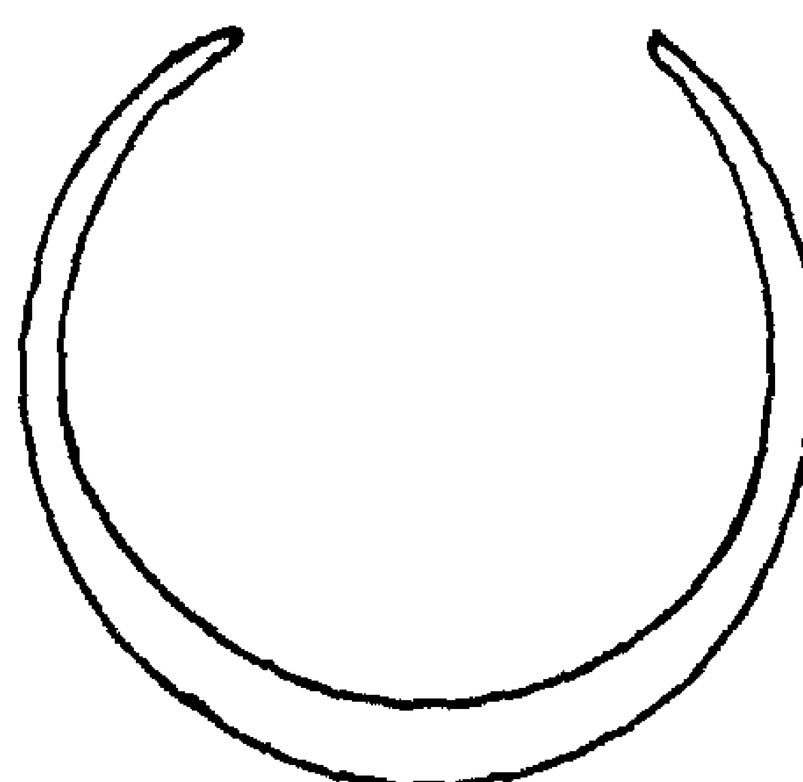
3. DRAGON. Grados 11 (con Mujer sentada) y 22 de Aries; 10 y 11 de Virgo.



4. CAYTOZ. Grados 13 y 23 de Aries.



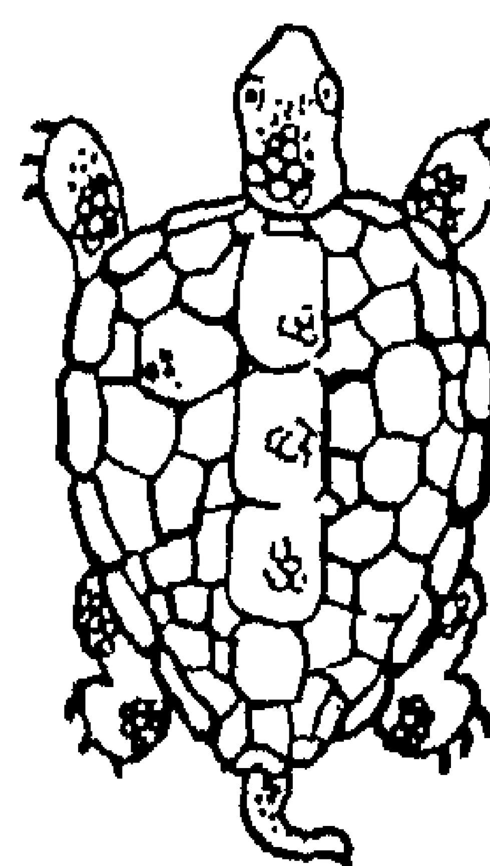
5. HOMBRE QUE DA VOCES. Grados 3, 4, 6, 21, 23, 24 y 26 de Virgo; 1 y 2 de Libra.



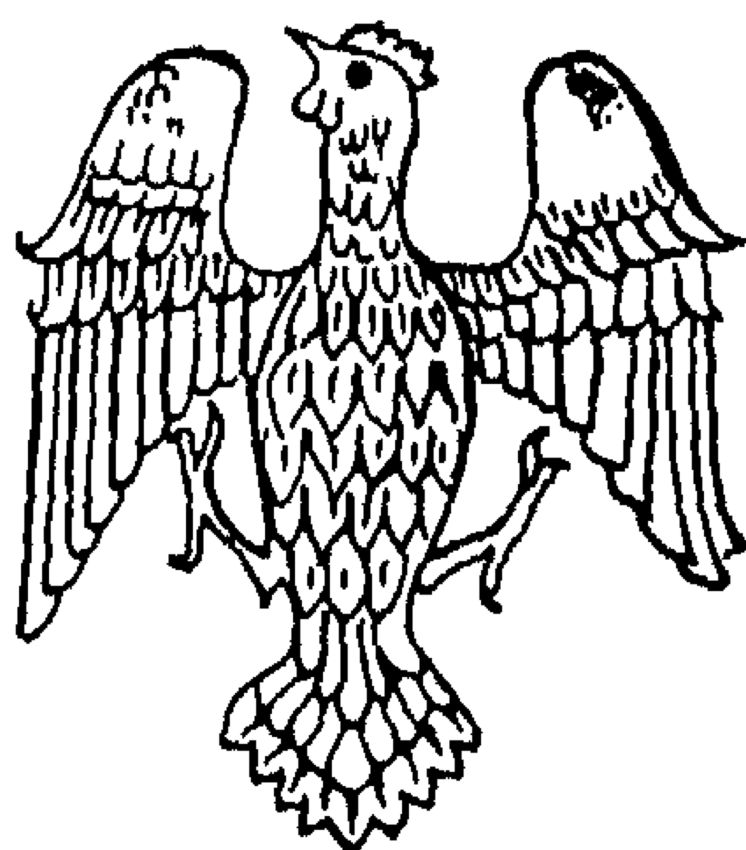
6. CORONA SEPTENTRIONAL. Grados 12, 14 y 15 de Libra



7. HOMBRE QUE TIENE EL *HINOJO* HINCADO. Grados 5, 11 y 29 de Libra; 2, 3, 4, 12, 16, 17, 18, 20 y 23 de Escorpión; 1, 2 y 6 de Sagitario.



8. TORTUGA. Grados 19 y 24 de Sagitario; 2 de Capricornio



9. GALLINA. Grados 5, 14, 15 y 23 de Capricornio; 3, 11 y 16 de Acuario.



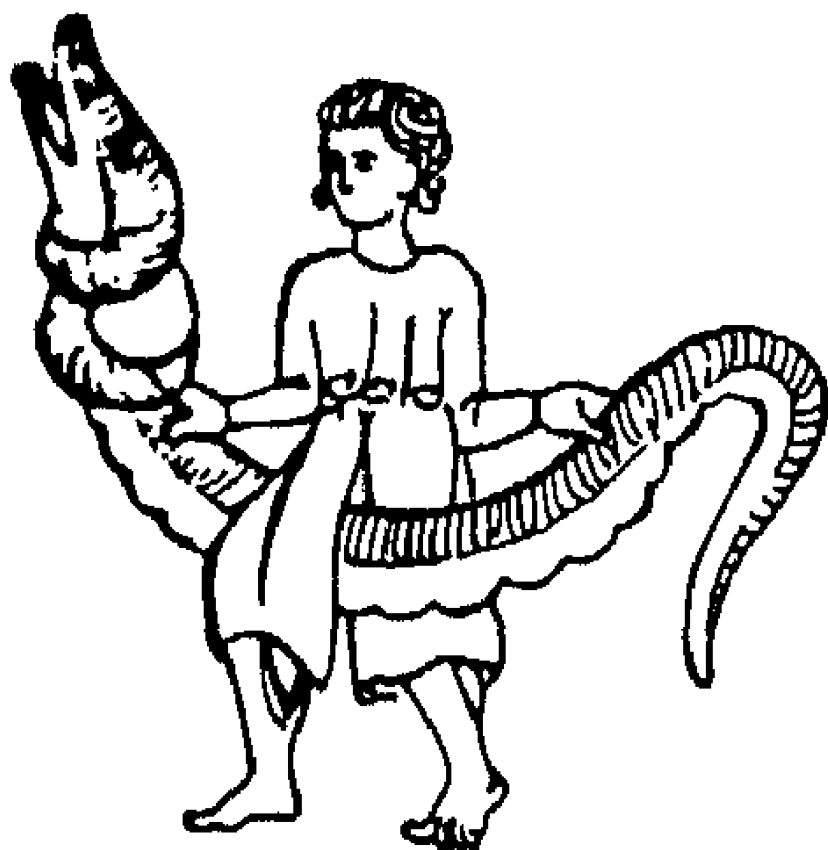
10. MUJER SENTADA. Grados 3, 8, 11 (con Dragón), 14, 21 y [illegible] de Aries.



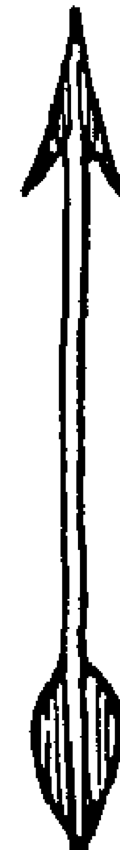
11. PERSEO Y ALGOL. Grados [illegible] y 30 de Aries; 1, 2, 5, 15 y 17 de Tauro; 1 de Cáncer.



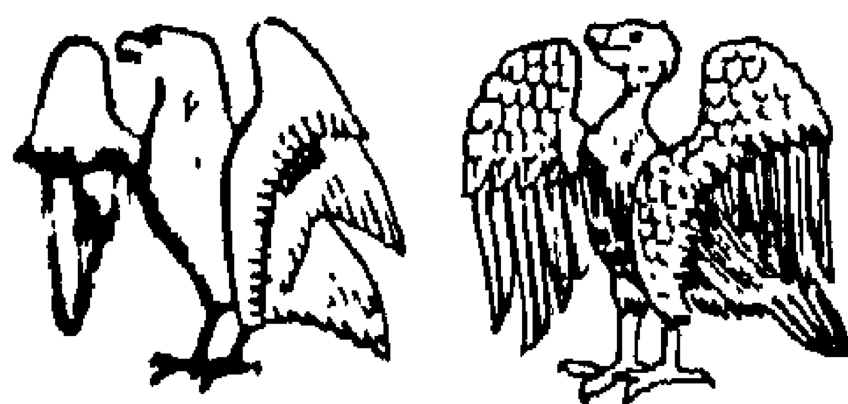
12. HOMBRE QUE TIENE LAS RIENDAS. Grados 20 (con Liebre), 23 y 26 de Tauro; 2 y 3 de Géminis.



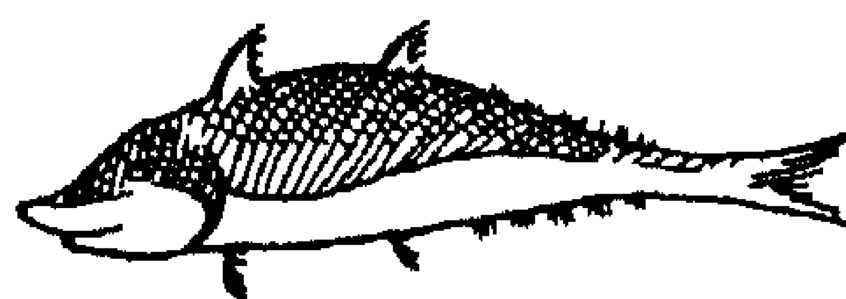
13.14. CAZADOR DE CULEBRAS. Grados 21, 24 y 27 de Libra; 9, 14, 22, 26 y 27 de Escorpión; 4 de Sagitario.



15. SAETA. Grado 3 de Capricornio.



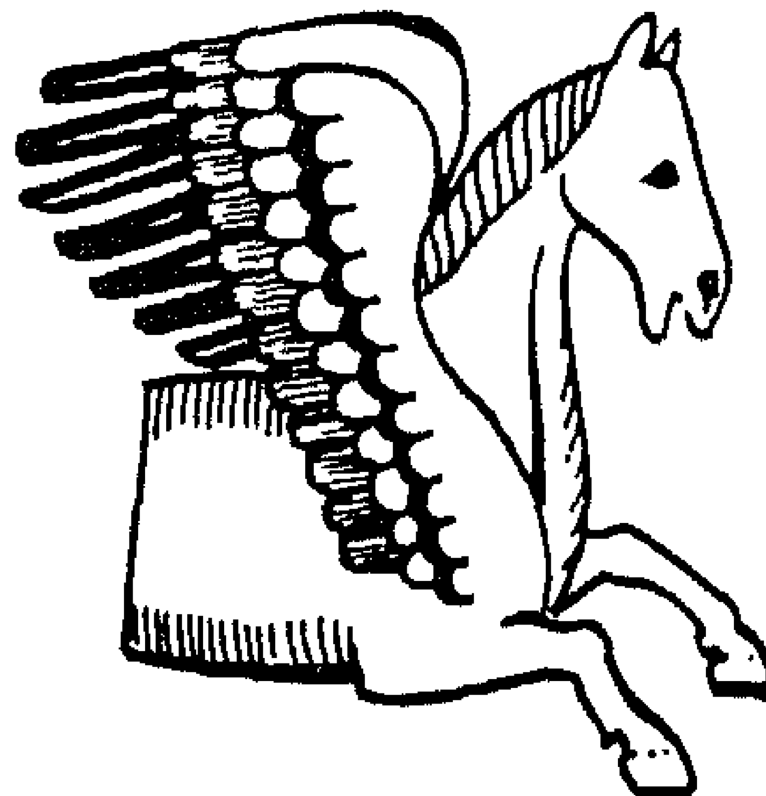
16. AGUILA o BUITRE VOLANTE. Grados 27 de Sagitario; 1, 3 y 7 de Capricornio.



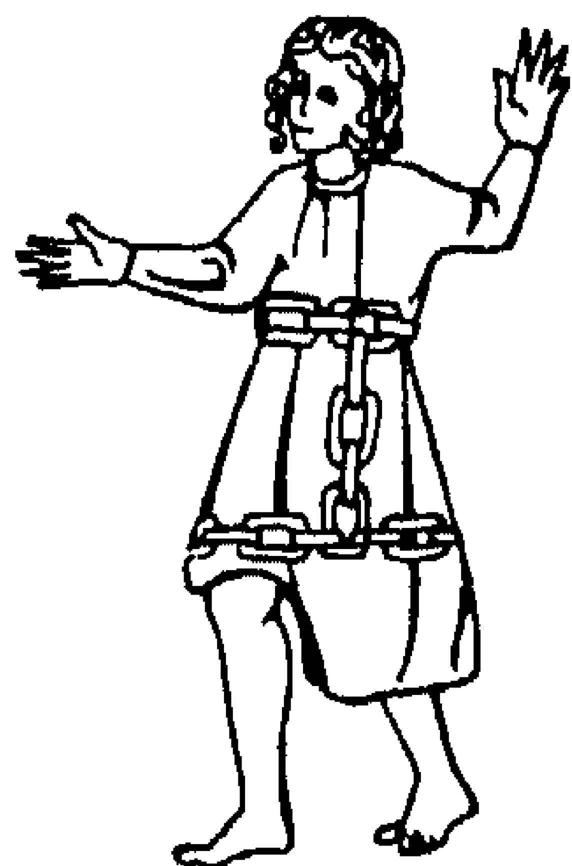
17. DELFIN. Grados 18 y 20 de Capricornio.



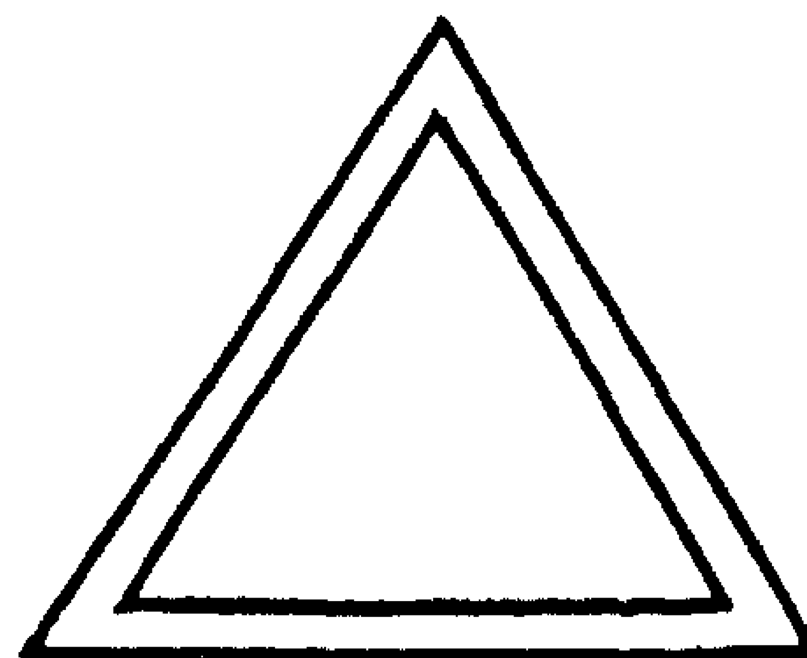
18. TROZO DE CABALLO. Grados 28 y 30 de Capricornio.



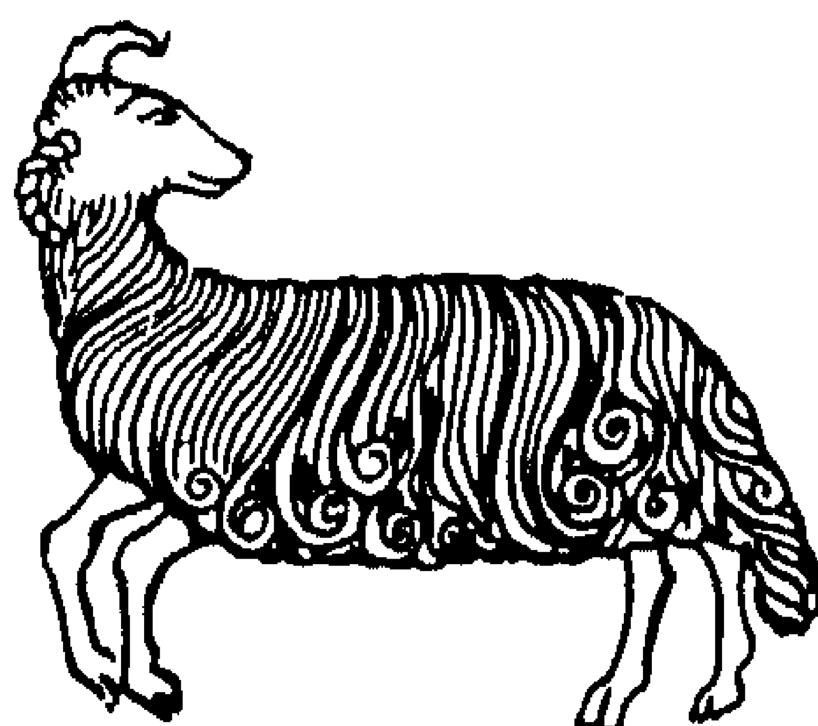
19. CABALLO MAYOR. Grados 10, 17 y 25 a 28 de Acuario.



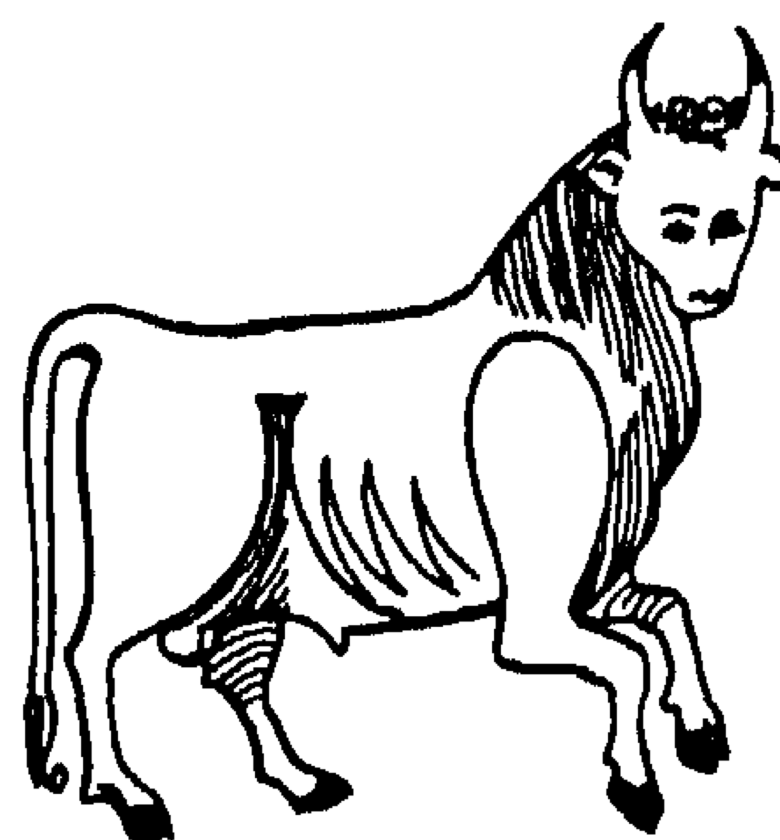
20. MUJER ENCADENADA. Grados 2, 4, 10, 16 y 18 (con Aries) de Aries.



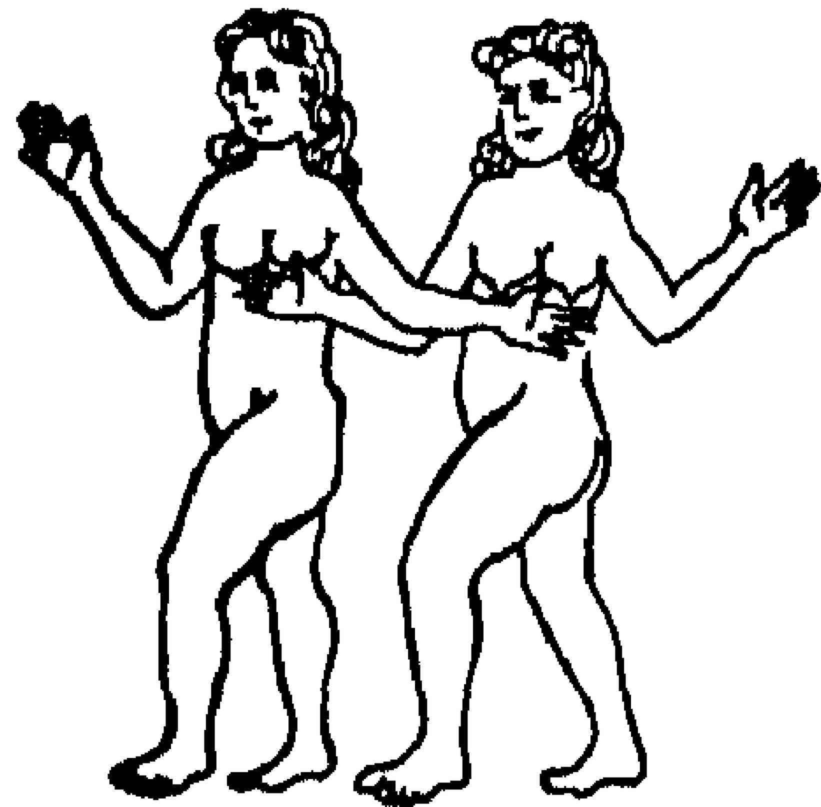
21 TRIANGULO. Grados 17 de Aries.



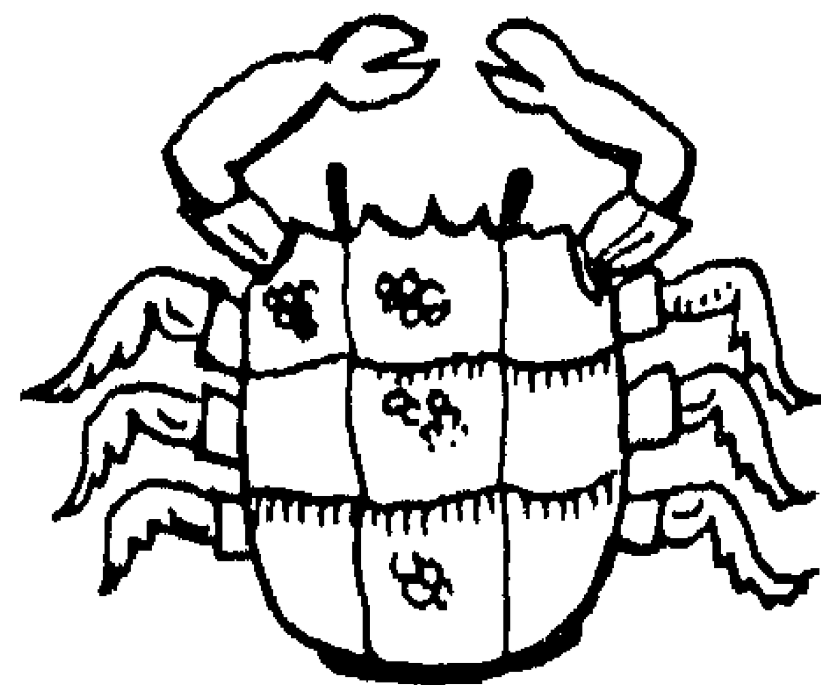
22. ARIES. Grados 7, 12, 18 (con Mujer encadenada), 19, 20, 24 y 26 de Aries.



23 TAURO. Grados 3, 7 a 14, 16, 18, 21 y 28 (con Orión) de Tauro



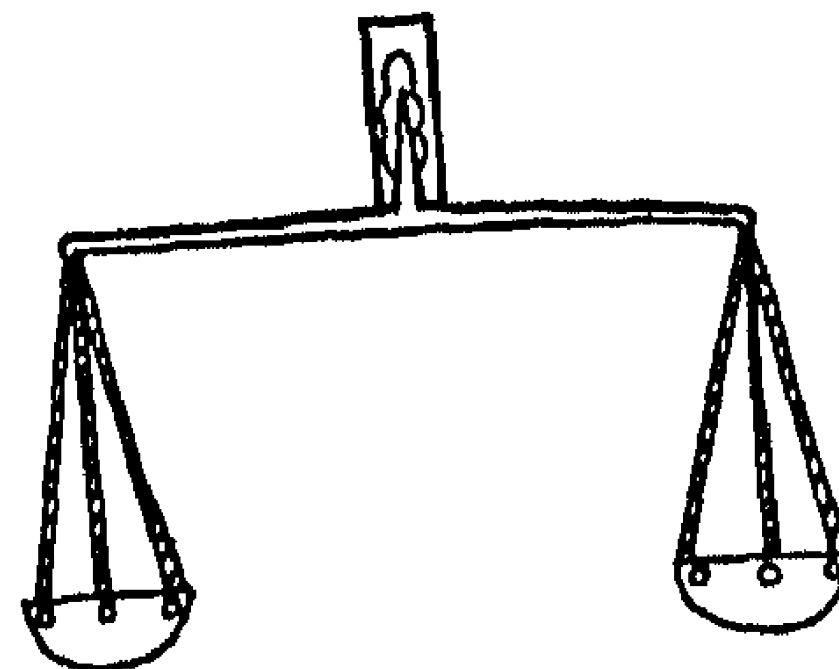
24. GEMINIS. Grados 9, 11, 13, 14, 15 (con Can mayor), 17 [illegible] Osa menor), 19, 22 a 25 y 27 de Géminis.



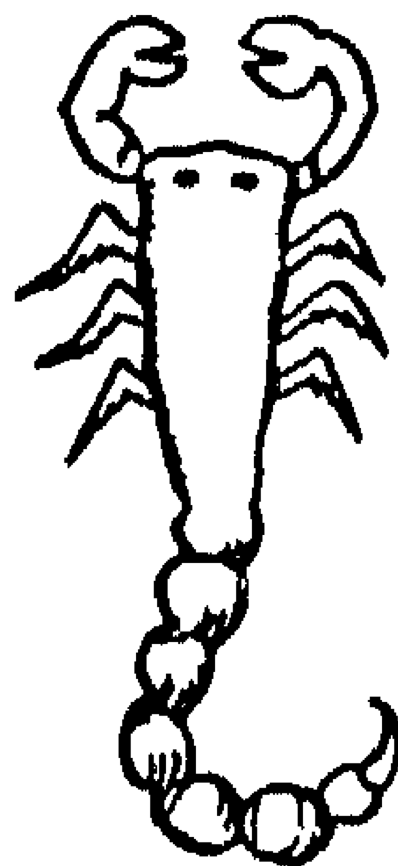
25. CANCER. Grados 3, 8, 9, 11, 12 y 17 de Cáncer.



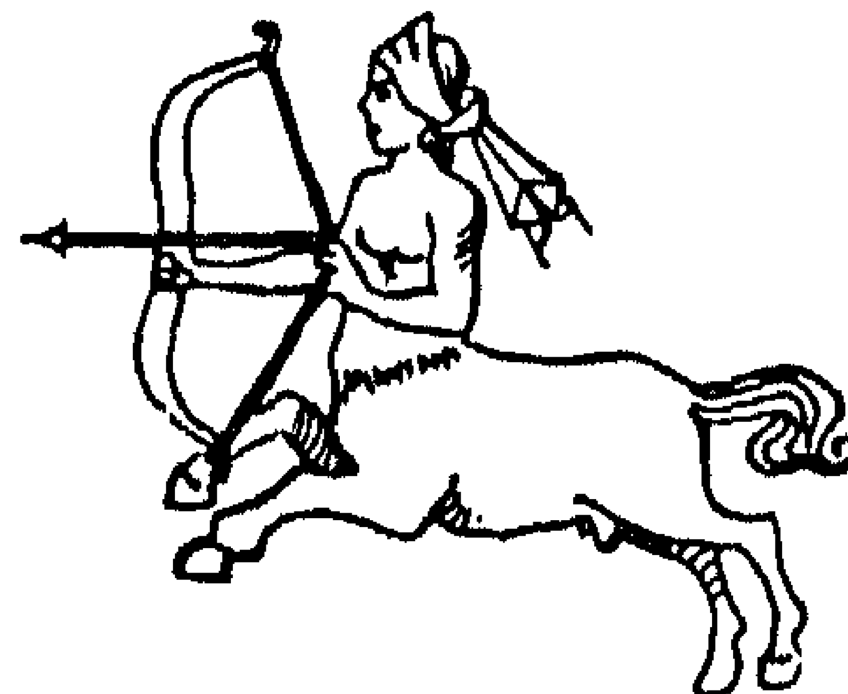
27. VIRGO. Grados 1, 9, 13, 14, [illegible], [illegible], 22, 25 y 27 de Virgo; 28 de Libra.



28. LIBRA. Grados 18, 19, 22, 23 y 25 de Libra.



29. ESCORPION. Grados 6, 7, [illegible], 10, 11, 13, 15, 19, 21, 24, [illegible] [illegible] y 30 de Escorpión.



30. SAGITARIO. Grados 5, 7 a 10, 14, 16, 17, 18, 20 a 23, 25, 26 y 28 a 30 de Sagitario.

ويصف هذا الكتاب : ٣٦٠ حجرا مرتبطة ميزاتها بـ ٣٦٠ درجة من دائرة البروج اي ثلاثين حجرا عن كل دائرة برج.

والكتاب الثاني من هذا المخطوط يبتدئ في الورقة ٩٤ وينتهي في الورقة ١٠٠ ، ولا يذكر المؤلف او المترجم ويذكر ابا العيش الذي وضع الكتاب الاول. ويأتي ايضا على ذكر بطليموس.

والكتاب الثالث يبتدئ في الورقة ١٠١ وينتهي في الورقة ١٠٩ ، يصف فضائل الاحجار التي تتغير حسب تغير الكوكب السيار ولا يذكر اسم المؤلف او المترجم.

والكتاب الرابع والاخير في المجلد h-I-15 يبتدئ في الورقة ١١٠ وينتهي في الورقة ١١٨ ، ويذكر اسم المؤلف واسمه هذه المرة «محمد بن القش».

وعلى ما يظهر أن ابن القش هذا لم يكتف بجمع فصول الكتاب من هنا وهناك بل اضاف اليها الكثير من عندياته.

المخطوط الثاني :

رقم h-I-16 مشكل فقط من ١٤ ورقة ، والخط يرجع الى القرن الثالث عشر ، وهو يتأخر عشرين سنة عن المخطوط الاول الذي بدأت ترجمته عام ١٢٤٣ وانتهت عام ١٢٥٠ كما رأينا ، غير أن هذا المخطوط الثاني يقول : انه بدأ في العام الخامس والعشرين من ملك الفونسه العاشر اي ١٢٧٦ وانتهى في العام السابع والعشرين من ملكه اي ١٢٧٩ مسيحية ومن سني القيصر ١٣١٧ ويبتدئ على هذا الشكل : «Aqui comienza el libro de las formas y de las imagenes que estan en los cielos y de las virtudes y de las obras que salen de ellas...»

الترجمة : هنا يبتدئ كتاب الاشكال والصور الموجودة في السموات وفضائلها والاعمال التي تخرج عنها.

يقسم المخطوط الى احد عشر فصلا.

ويتضمن هذان المخطوطان عددا لا يستهان به من المنمنمات الفنية بالالوان تمثل الفن الاسباني في القرن الثالث عشر. ويتضمن المخطوط الاول عددا اكبر من المنمنمات وهذه بعضها :

اخذت عن كتاب :

LAPIDARIO
Alfonso X rey de Castilla
Editorial Castilla, Zurbano 39, Madrid-10
1970

كتاب الشطرنج:

هذا الكتاب، مع كتب اخرى للتسلية، منقول عن العربية بادخال بعض الترتيبات، ترجم في اشبيلية عام ١٢٨٣.

يعتبر هذا الكتاب من اهم المؤلفات التي صدرت في القرون الوسطى عن لعبة الشطرنج. مخطوطه موجود في دير الاسكوريال وقد طبعه «وايت» White في ليبزيغ عام ١٩١٣، واعاد طبعه «ستيغر» Steiger عام ١٩٤١.

وقد جاء في مقدمة الكتاب ما يلي:

«Porque toda manera de alegria quiso Dios que hobiesen los homnes en si naturalmente por que pudiesen sofrir les cueitas e los trabajos cuando les viniesen, por end los homnes buscaron muchas maneras por que esta alegria pudiesen haber complidamientre.

Onde por esta razon fallaron e ficieron muchas maneras de juegos e de trebeios con que se alegrasen...»

الترجمة: لقد شاء الله أن ينعم على البشر بجميع انواع الترفيه، وقد بحث الناس عن التسلية بانواع كثيرة.

ولذا اخترعوا اشكالا متنوعة من الالعاب ليتسلوا بها.

الثقافة الالفونسية: كتب «فيسنتي كنترينه» «V. Cantarino» [1]

تعتبر صورة الملك الفونسه العاشر الحكيم (١٢٥٢ – ١٢٨٤) املاً واعداً وحقيقة واضحة وطلوع فجر مشرق وقمة مجد الثقافة الاسبانية في القرون الوسطى، اجل كان عهده تطلعاً وشوقاً الى المعرفة التي تميزت بها اوروبة النصرانية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ومن هذه الناحية فإن الفونسه اعلى قمم الثقافة الاوروبية في القرون الوسطى وفي الوقت ذاته يعتبر المهندس الاكبر ومواصل بنيان الجسر الذي مرت عليه المعرفة الاسلامية الى اوروبة المسيحية.

---

١ – فيستني كنترينو: «بين الرهبان والمسلمين، مطابع الحمراء – اسبانية (بالاسبانية صفحة ٢٥٠ وما بعدها)».

«ENTRE MONJES Y MUSULMANES». Edic. Alhambra - España.

لقد اجتمع في طليطلة المتعاونون مع الملك الفونسه وهم من النصارى واليهود والمسلمين. وفي اشبيلية شكل نواة شبيهة بنواة طليطلة فخرجت منها مؤلفات مشهورة تزينها نمنمات عجيبة وفي مرسية ايضا. واذا كان النفوذ الاسلامي في الحقل السياسي اخذ يتقلص ظله ، فالحضارة العربية عليها أن تلعب دورا خطيرا في اوروبة ، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر كان صدى العرب في العلوم والفلسفة والآداب والقصة يتردد بدون انقطاع ويستعد للتعبئة والانتقال الى مناطق اخرى اوروبية عن طريق اسبانية.

هذا الرأي الذي ابداه الكثيرون من الناقدين والمؤرخين بشأن الفونسه العاشر الحكيم ، يقدم هذا الملك وكأنه حكيم خارق العادة مهتما كل الاهتمام في ان ينشر بين رعاياه النصارى الثمار الناضجة من الثقافة الاسبانية – العربية. وتبدأ الثورة الفكرية لكي تتغلب على الفكر الاوروبي.

ويواصل كنترينه قوله : «ليس قصدنا ان نهضم حق الملك الفونسه ولا ننزع منه لقبه «الحكيم» ، ولا ان نغض الطرف عن الحماية التي اسبغها على اصحاب العلم والمعرفة واهتمامه بالشؤون الثقافية ، ولكن من خطل الرأي ان نقارنه بالفيلسوف الانكليزي المتكبش بالقضايا العربية واللاهوتي الذي سبق عصره وشك الناس بصحة آرائه وعقائده الدينية اعني به الراهب الفرنسيسكاني «روجير بيكون». او أن نضعه في منزلة ابن رشد والقديس توما الاكويني. وليس من العدل ايضا تسميته مدافعا عن العلوم باجمعها في شبه الجزيرة الايبرية او نقابله بالامبراطور فردريك الثاني او بالمأمون او الحكم المستنصر ابان الخليفة الناصر لدين الله في الاندلس ، لا سبيل لتشبيهه بهؤلاء».

الثقافة في شبه الجزيرة سلكت معارج تختلف عمّا اعتاد الناس ان يسلكوها في الانحاء الاوروبية الاخرى ، شغف الملك الفونسه شغف اسباني صرف كاد يقتصر على الادب العربي وعلى علم النجوم ، بحيث انه قيل عنه : لقد خسر امبراطورية كاملة لانه تطلع كثيرا في النجوم».

ويمكن القول ان شعلة الترجمة التي شعت في طليطلة طيلة القرن الثاني عشر لم تنطفئ في النصف الاول من القرن الثالث عشر فهذا هرمان الالماني يترجم ابن رشد في طليطلة عام ١٢٤٠ والاهتمام بالثقافة العربية ازداد بدل ان ينقص ، فولي العهد آنذاك الفونسه لم يكن بعيدا عن هذه الحركة ففي عام ١٢٥١ عمل على ترجمة مجموعة قصص كليلة ودمنة الى اللغة الاسبانية.

ويقول اميركو كاسترو في كتابه «España en su Historia» ما ترجمته :

«ان ظهور المؤلفات الكبرى التاريخية والقضائية والفلكية في بلاط الملك الفونسه ، مكتوبة باللغة الاسبانية دون اللاتينية ، عارض لم يدرسه الباحثون الدرس الكافي اذا قيل ان الملك الحكيم شاء ان

يكتب الموسوعات الضخمة التي اكتشفها في عصره باللغة التي يفهمها رعاياه. فليس اي ملك في اوروبة مهما بلغ من الرغبة في حب التفرد يعن له ان يكتب باللغة الدارجة مؤلفات ضخمة مثل كتاب «التاريخ الكبير» «Grande e General Estoria» اوكتب اخرى في علم الفلك او في القضاء والتشريع.

ان استعمال اللغة الاسبانية بدل اللغة اللاتينية لا نفسره بانه رغبة خالجت ضمير الملك الحكيم في تثقيف وتهذيب رعاياه، بل يجب ان نبحث عن غاية اخرى بعيدة المدى الا وهي النفوذ والتأثير الذي قبله الملك عن وعي او عن غير وعي، المتأتي عليه من اليهود الكثيرين الموجودين في بلاطه، فهؤلاء لاسباب سياسية ودينية حاولوا ابعاد الملك الاسباني عن الوحدة الاوروبية اللاتينية المسيحية السائدة في ذلك العصر. غير ان هذا الرأي الذي يبديه «امريكوكاسترو» لا يشاركه فيه الباحثون جميعهم، فهذا «سانتشس البرنوس» يرى رأيا مخالفا اذ يقول: «الغرض الذي يرمي اليه الملك الاسباني هو تهذيب ابناء وطنه لا اكثر ولا اقل».

وهنا نتساءل: هل ان القراءة والكتابة بين ابناء الشعب الاسباني كانت متفشية الى هذا الحد الكبير حتى تحمل ملكا في منتصف القرن الثالث عشر على مخالفة جميع الملوك الاوروبيين الذي يكتبون باللغة اللاتينية لغة الكنيسة ولغة الفئة القليلة المتعلمة المقتصرة ايضا على ابناء الكنيسة من الاكليروس دون سواهم.. ولهذا لا يمكن التصديق ان القراءة والكتابة منتشرة بين سكان بقعة صغيرة من اسبانية هي «منطقة قشتالة» لانه في عهد الملك الفونسه العاشر كان العرب ما زالوا يحتلون رقعة كبيرة منها وبالتالي لم تكن سلطة الملك الفونسه تتعدى قشتالة الحالية وبعض المناطق التي تتاخمها، فمن المعروف ان اسبانية لم تتوحد الا في اواخر الجيل الخامس عشر بعد احتلال مملكة غرناطة العربية وضم مملكة اراغون الى مملكة قشتالة.

فالتجديد عند الفونسه قائم في انه سمح بكتابة مؤلفات باللغة الاسبانية بينما اعتقدت بقية الممالك الاوروبية ان اللغة اللاتينية هي وحدها المقبولة لكتابة هذه المعارف والعلوم.

اذن تظل فكرة «اميركوكسترو» قائمة اي ان اليهود هم الذين حملوا الفونسه على الكتابة باللغة الاسبانية التي يعرفونها ولا يعرفون اللغة اللاتينية.

ان عمل الفونسه لذو استحقاق كبير ومليء بالثمار الطيبة والوعود السخية في ان يكون اوسع واشمل دون ان يكون مستعربا او متهودا. ولكن هذا لا يعني ان الوجود العربي غير ماثل في الثقافة الالفونسية وليس من احد يستطيع انكاره كما رأينا.

ولكن خلافا لمَا اعتقد الناس فان مؤلفات الملك الفونسه ليست شاملة ولا عامة ولا على شكل

موسوعات. فالتآليف ذات المصدر العربي محصورة في مواضيع معينة فلم يرع هذا الملك جميع المعارف ولم ينقل عن العرب جميع العلوم التي تخولنا ان نعطيه لقب «دائرة معارف عربية»، وما دامت لم تظهر مخطوطات جديدة وما زال لم يتبين العكس فان الملك الفونسه لم يهتم بالفيزياء ولا المرئيات ولا الجغرافية ولا الحساب ولا الفلسفة ولا الطب سواء كانت هذه العلوم اسلامية او يهودية او يونانية. ولا يظهر انه اهتم اكثر ممن تقدموه بارسطو او الفارابي او ابن سينا او ابن رشد.

ان الاهتمام الذي اظهره الفونسه الحكيم هو في علم الفلك وعلم النجوم وتلك العلوم الاختبارية لا النظرية. والسبب في ذلك يعود الى معاونيه الذين انصرفوا الى هذه العلوم دون تلك.

الامير فدريكي:

شقيق الملك الفونسه العاشر الحكيم الذي ترجم العديد من الكتب العربية الى الاسبانية ومن جملتها كتاب كليلة ودمنة. ففدريكي هذا داخله الحسد من اخيه الملك وشاء الاقتداء به، بعد ان قرأ كتاب «كليلة ودمنة» واعجبته تلك القصص التي ينطق فيها الحيوان. احب ان ينقل قصصا اخرى على شاكلة كليلة ودمنة دون ان تكون على لسان الحيوان. العائلة كلها مغرمة بالعلم والمعرفة لان المعرفة تقربهم من الكمال والخلود، فهذا ايضا «خوان مانويل» ابن اخ الملك الفونسه العاشر الحكيم، عاش في القرن الرابع عشر وشغف ايضا بكتابة القصص وله كتاب عنوانه «القند لوكانور» كما سيأتي الكلام عنه، وهو على غرار كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عمه عن العربية الى الاسبانية.

الامير فدريكه ابن الملك فرننده والملكة بيتريش الالمانية وهو يأتي بعد الملك الفونسه العاشر، ولد عام ١٢٢٣، اخوه الملك الفونسه ولد عام ١٢٢١، وكان ميلاده في بلدة «وادي الحجارة» التي تبعد زهاء ستين كيلومترا عن العاصمة الاسبانية الحالية مدريد.

كان شجاعا يجيد ركوب الخيل، محبا للصيد والقنص وقع له حادث صيد شق له شفته.

عاش سيدا في وادي الحجارة، واملاكه واسعة في اشبيلية، طمح لدوقية سويفية الالمانية ورأى من حقه ان يصبح امبراطورا على المانية ارثا يأتيه من امه الالمانية. قصد الامبراطور فردريك الثاني في ايطالية عام ١٢٤٠، ولكن الامبراطور هذا يميل الى الملك الفونسه العاشر شقيق «فدريكي» وهو احق منه بالملك ويلقب امبراطور لانه البكر، فتصادم الاخوان ولجأ فدريكي الى تونس حيث كان اخوه الآخر انريكي، ولمّا سافر «انريكي» الى رومة ظل فدريكي في افريقية.

كان شعاره في بادئ الامر القلعة وحدها ثم اصبح النسرين والاسود.

ترجمة السندبار:

يرجع «كتاب السندبار» الى اصل عربي، وليس الى كتاب عربي واحد لان قصصه مستقاة من «الف ليلة وليلة» ومن كتاب «كليلة ودمنة»، ومن كتب عربية اخرى.

قد يكون المترجم الامير فدريكي نفسه لانه قضى فترة طويلة في تونس وقد يكون تعلم اللغة العربية فيها. وجمع القصص التي ضمها كتاب السندبار او «حيل النساء»، او قد يكون تصرف على غرار اخيه الملك الفونسه العاشر فاوعز الى من يحسن العربية والاسبانية لكي يترجمه له، وهذا هو الارجح. غلب على الكتاب اسم «حيل النساء».

وتقول المقدمة: «ان الامير فدريكي، ابن المتناهي في الشرف والسعادة الملك فرننده، والملكة القديسة المكرمة عند الجميع السيدة بياتريس، شاء ان يظل اسمه محفوظا عملا باقوال الحكماء: «ان الذي يصنع الخير لا ينقصه العلم ابدا اذ انه ليس من شيء افضل من العلم لكسب الحياة الابدية».

وضع الامير فدريكي كل اهتمامه بالمعرفة وركب السفينة التي تضربها امواج البحر غير عابئ بالخطر لكي يصل الى الحياة الابدية، والانسان قصير العمر، والعلم واسع وصعب الادراك وبعيد المنال بكامله ولكن على كل انسان ان يتعلم ما يفيده وما هو ضروري له بالنعمة التي تأتيه من فوق.

وهذا ما شاء الامير فدريكي ان يصنع فنقل الكتاب من العربية الى الاسبانية.

ترجم هذا الكتاب عن العربية عام ١٢٩١ من سني الاسكندر اي ١٢٥٣ مسيحية.

تقول القصة: حكي ان ملكا عظيما لم يرزقه الله ولدا رغم زواجه من تسعين امرأة، واخيرا تحنن الله عليه ورزقه ولدا فارسل في طلب العلماء والمنجمين، فاقبلوا اليه ونظروا طالع الصبي، وانكشف لهم الطالع ان الولد سيعمر طويلا ولكن في العشرين من سنه يتعرض لخطر الموت. فحزن الملك حزنا شديدا وقال: فلتكن مشيئة الله

شب الولد وتعلم القراءة والكتابة على يد معلم اسمه «سندباد». ولمّا تعلم كل ما يجب معرفته قرأ له معلمه «سندباد» طالعه فوجد انه لا يحق له الكلام والنطق قبل سبعة ايام، فقال له: «اياك ان تنطق بشيء قبل سبعة ايام».

ووعد الشاب بالاخذ بنصيحة معلمه.

وطلبه والده الملك للمثول امامه وخاطبه فلم يرد عليه وكلمه الوزراء فلم يصغ لهم. ظن الملك ان الحكيم قد اعطاه دواء لكي يستفيد من العلم بسرعة، فربطت عقدة لسانه، واغتم والده. ودعا احدى نسائه المفضلة واخبرها بالقصة.

فقالت : لا تخش ايها الملك انه يطلعني على اسراره.

فقال لها : خذيه الى قصرك وتحدثي معه.

وعملت باوامر الملك وكلمته فلم يجب فعيل صبرها وقالت له :

«لا تتصنع الخرس فانا مدركة انك تصنع ما اشتهيه منك. لنقتل والدك فتصبح انت الملك واصبح زوجتك وابوك هرم وانت شاب ويحق لك التمتع بلذات الحياة.

ولمّا سمع منها هذا الكلام لم يقوَ على اخفاء غيظه فصرخ بها : «بعد سبعة ايام اجاوبك على وقاحتك».

وخشيت منه على نفسها ازاء هذا التهديد فتوجهت الى الملك قائلة شاكية : لقد شاء الاخرس اغتصابي.

فغضب الملك غضبا شديدا ما عليه من مزيد وامر بقتل ابنه.

وتشاور الوزراء فيمَا بينهم وقال الذي اوكل اليه الملك قتل ولي العهد :

ايها الملك، اذا تصرفت بهذه العجلة تندم، اسمع ما جرى لملك مع امرأة :

ويروي له قصة «المرأة والببغاء» التي كانت تخبر زوج المرأة بكل ما تصنعه زوجته، فدبرت حيلة جعلت زوجها لا يصدق الببغاء.

انها قصة مأخوذة من الف ليلة وليلة.

وامر الملك بالعفو عن ابنه لمّا لمس حيلة المرأة على الببغاء.

ولمّا عرفت المرأة التي اتهمت الولد زورا ان الملك قد عفا عنه اقبلت مسرعة اليه طالبة ان يقتل ابنه، والا اصابه ما اصاب الصباغ وابنه، وروت له قصة الصباغ وابنه، وهي ايضا مأخوذة عن الف ليلة وليلة.

وغيّر الملك رأيه فامر من جديد بقتل ابنه.

وجاء الوزير وروى للملك قصة تنبّهه الى كيد النساء، وهي ايضا مستعارة من الف ليلة وليلة.

فعفا الملك عن ابنه.

ولمّا سمعت المرأة بالعفو عن الابن قصت على الملك قصة واردة في الف ليلة وليلة.

وهكذا دواليك يأتي الوزير ويقص قصة فيعفو الملك عن ابنه وتأتي الخليلة فتقص قصة فيأمر الملك بقتله حتى سمع الملك منهما ثمان عشرة قصة.

وكانت قد مرت سبعة ايام واصبح الشاب قادرا على الكلام فاطلع والده على دسيسة المرأة فامر الملك باحراقها حية في مقلاة كبيرة.

وقد بلغت القصص المروية في هذا الكتاب ثلاث وعشرين قصة ، ست عشرة قصة مأخوذة عن الف ليلة وليلة ، وثلاث او اربع قصص مستقاة من كليلة ودمنة والقصص الباقية عن مصادر عربية اخرى لا ادري اين قرأتها.

النص العربي مفقود ، ولا يوجد نص عربي فقد انتخبت هذه القصص من الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ومصادر اخرى. لقد ترجم هذا الكتاب عن العربية عام ١٢٥٣ مسيحية.

من جملة القصص قصة الرجل الغيور على امرأته والمرأة والببغاء والخادمة. اشترى رجل ببغاء وعلمها ان تقول له كل ما تصنع امرأته في غيابه.

وذهب الرجل الى اعماله وجاء عشيق الزوجة وابصرت الببغاء كل ما صنعا. وعندما جاء الزوج اخبرته الببغاء بكل ما فعلت المرأة مع عشيقها ، فغضب الرجل وانقطع عن الكلام مع امرأته.

وسألت الخادمة عمّا اذا كانت اطلعت سيدها على علاقاتها مع العشيق ، فانكرت الخادمة. وعلمت المرأة ان الببغاء هي السبب ، فاحتالت على الببغاء حتى ظنت ان السماء ترعد وتبرق وان المطر نازل بشدة ، فلما جاء الزوج وسأل الببغاء عمّا جرى في تلك الليلة فقالت انها لم تستطع ان تشاهد شيئا من البرق والرعد والامطار.

فانكر الزوج على الببغاء الامر لان الليلة كانت صافية للغاية لا برق ولا رعد ولا امطار.. ولم يعد الزوج يثق بالببغاء وعاد الى زوجته.

هذه القصة مستعارة من الف ليلة وليلة.

دون خوان مانويل :

مقدم مملكة مرسية. وهذا نسيب آخر من انسباء الملك الفونسه العاشر الحكيم يهتم بالشؤون العربية.

يقول عن ذاته انه ولد في محلة «اسكلونة» «ESCALONA» من اعمال طليطلة ، يوم الثلاثاء المصادف الخامس من شهر ايار عام ١٢٨٢ وهو ابن الامير مانويل شقيق الملك الفونسه.

توفي والده عام ١٢٨٤ وامه عام ١٢٩٠.

وكان في الثانية عشرة من عمره لمّا ارسله الملك الى مواجهة العرب في مملكة مرسية وتغلب رجاله على يقظان بن بكر بن زيان.

ووجد ذاته متورطا في حروب داخلية عائلية وراثية. في عام ١٢٩٩ تزوج الاميرة ايزابيل الميورقية وتوفيت عام ١٣٠١ وفي عام ١٣٠٦ تزوج الاميرة «كونستنسة» ابنة الملك اراغون وتعهد بانه لا يدخل بها قبل ان تبلغ الثانية عشرة من عمرها. وفي ٣ نيسان ١٣١١ تزوج الاميرة نهائيا بعد ان بلغت الثانية عشرة من سنها. كانت وفاته عام ١٣٤٨ ودفن في دير الرهبان الواعظين في «بنيافيل» «PENAFIEL» وهو الدير الذي اسسه.

وكانت حياته مليئة بالتناقضات لقد كره الحرب دائما، كما يقول لابنه ولكن يحمل فكرة عالية عن الشرف والعرض ويفتخر باصله وان امه ارضعته.

مؤلفاته: ١ – كتاب الامير:

٢ – القند لوكانور: هذا الكتاب يهمنا.

٣ – كتاب الدول او الشرائع:

٤ – كتاب نصائح يقدمها لابنه دون فرننده.

شاء فرننده الرابع ملك قشتالة وجقمه الثاني ملك اراغون مهاجمة مملكة غرناطة العربية غير ان هذه الفكرة لم ترق كثيرا لخوان مانويل ولا لابن عمه دون خوان وقررا عام ١٣١٠ التخلي عن القتال، وفشلت الحملة وتاها في مملكة ليون خوفا من ملك قشتالة ثم ما لبثا ان تصالحا معه.

يقال عنه انه كان يستطيع السفر من مملكة غرناطة الى مملكة نبارة ويبيت كل ليلة في قصر او في قلعة من ممتلكاته...

كان مطلعا على الآداب اللاتينية واليونانية وعلى الآداب الشرقية والعربية، والبرهان على ذلك كتابه «القند لوقانور» «CONDE LUCANOR» الذي ضم الكثير من القصص العربية المسروقة من الف ليلة وليلة ومن كليلة ودمنة ومن كتب اخرى لها ارتباط بالتاريخ الاندلسي.

يتضمن هذا الكتاب احدى واربعين قصة:

مدار هذه القصص ان القند او الكونت «لوقانور» اجتمع ذات يوم بمستشاره «بطرونيو» «PETRONIO» وقال له: «انت تعلم، يا بطرونيو اني اتيت باعمال خير وصلاح لم يسبقني

اليها احد من قبلي ، واريد ان يذكرني الناس بالخير بعد موتي كما يذكرون «السيد» والقند «فرنان غنصالس» والملك «فرنانده» ارجوك ان تنصحني فيمَا يجب ان اتممه حتى لا تضيع اعمالي سدى بين الناس».

فقال بطرونيو: «اذا احببت يا سيدي القند ان تعرف ماذا يجب ان تصنع حتى يخلد اسمك ، اسمح لي ان اذكر لك ما جرى للملك عربي كان سيد قرطبة.

فسأله القند: وكيف كان ذلك؟ فقال:

كان في قرطبة ملك اسمه «الحكم» ، يحب اللهو والطرب ورخاء العيش ، وصادف ذات يوم انهم كانوا يعزفون على العود في حضرته فلم يعجبه العزف ولا العود ، فاضاف اليه وترا جديدا ، فلهج الناس بذكره وراحوا يرددون هذه العبارة بتهكم: «هذه زيادة الحكم» [1].

وصلت الى اسماع الملك هذه العبارة التي يرددها الخاص والعام في جميع انحاء المملكة ، ولم يطرب لها.

وسأل احد مستشاريه: لماذا يردد الناس هذا الكلام تهكمًا علي؟.

ولم يشأ معاقبة القائلين. ووجد ان الجامع الاكبر لم يكتمل بناؤه فانصرف الى انجاز البناء وانفق في ذلك اموالا طائلة.

فسر الناس بذلك كل السرور لان الجامع لم يكن يتسع لهم للصلاة ، وراحوا يرددون عن اعجاب وعرفان جميل لا عن تهكم: «هذه زيادة الحكم».

وتضيف القصة والآن فان هذا الجامع بالذات قد حوله الملك فرنانده الى كنيسة على اسم «السيدة مريم العذراء».

وهكذا ايها القند اذا شئت ان يمدحك الناس ويذكروا اسمك الى الابد فآت بعمل جليل. فقبل القند نصيحته وعمل بها.

ووجد الامير خوان مانويل ان هذه القصة تستحق التدوين فدونها في هذا الكتاب.

نذكر عناوين بعض القصص الواردة في هذا الكتاب الذي يمكن القول عنه انه عربي لابس ثوبا اسبانيًا.

---

١ – ذكر المؤلف هذه العبارة القصيرة باللسان العربي ولكنها مكتوبة بأحرف لاتينية وقد خبط فيها المستعربون خبط عشواء لمعرفة قراءتها ولم تستقم لهم قراءة واحدة.

وهذه بعض العناوين :

- ماذا جرى للثعلب مع الغراب الذي كان يمسك قطعة جبن في منقاره.
- ماذا جرى لقند بروفنسة مع الملك صلاح الدين الايوبي.
- ماذا حدث لفارسين كانا يعيشان مع الامير انريكي في تونس[1].
- ماذا جرى لاحد المغاربة مع اخته التي كانت تفرق من ادنى شيء ولم تفرق من كسر رقبة ميت مدفون لتنزع عنه الثوب الثمين الذي كان يرتديه.
- ماذا حدث للمعتمد بن عبد ملك اشبيلية مع جاريته الرميكية.
- ماذا حدث لملك عربي مع اولاده الثلاثة الذين شاء اختبارهم.
- قصة بائعة العسل، فقد سقطت الجرة عن رأسها وانكسرت وذابت احلامها مع العسل.
- ماذا جرى للغربان مع البوم (قصة مأخوذة عن كليلة ودمنة).
- حادثة الاسد والثور، من كليلة ودمنة ايضا.
- حادثة الاعمى الذي اراد ان يقود اعمى فوقع كلاهما في حفرة.
- ماذا جرى لشاب في ليلة زفافه مع امرأة قوية الشكيمة وكيف روضها.
- ماذا جرى لصلاح الدين الايوبي مع امرأة احد مواليه وكان قد شغف بها حبا.
- ماذا جرى لاحدهم وقد تسلم زمام الامور في مدينة لمدة سنة وعلم ان مصيره بعد هذه السنة هو النفي الى جزيرة قفراء ليس فيها عشبة خضراء. فبنى في تلك الجزيرة قصرا منيفا واحاط به البساتين الغناء، دون معرفة احد من ابناء تلك المدينة... ولمّا نفي الى تلك الجزيرة بعد انتهاء مدة ولايته وجد القصر في انتظاره وفيه الخدم والحشم فلم يتغير عليه شيء.

خورخي منريكي

ولد عام ١٤٤٠ في منطقة جيان اسم ابيه «ردريغه» «RODRIGO» ، اشترك في

(١) الأمير انريكي هذا هرب الى تونس خوفًا من أخيه الملك الفونسه العاشر الحكيم.

الحملات على مملكة غرناطة العربية عام ١٤٥٥ و١٤٥٦ و١٤٥٧ و١٤٥٨ على عهد الملك هنريكي الرابع وهي عادة متبعة لدى الاشراف ان يبادر اولادهم للقتال الى جانب الملك عندما يبلغون سن الرشد او السن التي تسمح لهم بدخول المعارك.

توفي شابا عام ١٤٧٩ وهو يقاتل ضد مركيز «فلبينة» «VILLENA» . ويظهر ان سبب القتال عائد الى ان بعض الغنائم قد سلبت من مزارعين يقعون تحت حماية خورخي منريكي ، فقاتل مركيز فلبينة وربح المعركة خورخي منريكي ولكن هذه المعركة كلفته حياته فدفن في مقبرة العائلة باقليس.

اشتهر خورخي منريكي بقصيدة له يرثي فيها اباه وهي قصيدة طويلة يظهر انه تأثر بقصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس ، مطلعها :

لكل شيء اذا تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش انسان.

وهي قصيدة قيلت اثر سقوط اهم مدن الاندلس في ايدي النصارى.

ونحن نميل الى الاعتقاد ان تأثير خورخي منريكي بالمراثي العربية واضح واظن ان تأثيره كان اكبر بقصيدة ابن عبدون يرثي بني الافطس ، وهذه بعض ابياتها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر   فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك موعظة   عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة   والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الراس تأخذه   يد الغراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرك من دنياك نومتها   فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي اقال الله عثرتنا   من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة   منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به   كالايم ثار الى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها   لم تبق منها وسل ذكراك عن خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله   وكان غضبا على الاملاك ذا اثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت   ولم تدع لبني يونان من اثر

وهكذا يسترسل ابن عبدون في ذكر الممالك والملوك الذين ذاعت شهرتهم في المعمر حتى يصل الى ملوك عصره وقد عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

اما قصيدة ابي البقاء الرندي فهي على هذا النمط ولكنها اقصر من قصيدة ابن عبدون

وبالتالي لم يأت فيها على ذكر جميع الملوك العظام الذين عرفهم التاريخ بل يقتصر على بعضهم دون الآخر، فمن بعض ما يقول:

هي الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساته ازمان
وهذه الدار لا تبقي على احد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... اذا نبت مشرفيات وخرسان
وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
واين الملوك ذوو التيجان من يمن ... واين منهم اكاليل وتيجان
دار الزمان على دارا وقاتله ... وام كسرى فما آواه ايوان
كان الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولم يملك الدنيا سليمان
اتى على الكل امر لا مرد له ... حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان.
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

وقد ترجم هذه القصيدة الطويلة الى الالمانية في القرن الماضي ادولف فردريك دي شاك ونقلها من الالمانية الى الاسبانية في القرن الماضي ايضا «خوان فليرا» Juan Valera نظمها شعرا على غرار قصيدة خورخي منريكي في رثاء ابيه ويرى «خوان فليرا» كما يرى غيره ان «خورخي منريكي» قد تأثر بشاعر روندة ابي البقاء، كما ان كربونيرو «CARBONERO» استاذ اللغة العربية في جامعة اشبيلية وقد عاش ايضا في القرن التاسع عشر يرى الرأي ذاته. وقد ترجم هذه القصيدة الى الاسبانية نثرا.

يقول «خوان فليرا»: «ان النواحي الكثيرة والافكار العديدة المنطوية عليها هذه القصيدة تجعلها شبيهة بمرثية خورخي منريكي وهذا الشبه لا يمكن ان يأتي عن طريق الصدفة او توارد الخواطر، ولذا فاعتقد ان خورخي منريكي اطلع على هذه القصيدة الرائعة لابي البقاء الرندي واقتدى بها في رثاء والده ولذا فقد عمدت الى نقلها شعرا بالتركيب والوزن ذاته اللذين وضع فيهما قصيدته خورخي منريكي»[1].

---

١ – العرب في اسبانية وصقلية: فردريك شاك ترجمة خوان فليرا، اشبيلية ١٨٨١ صفحة ٢٤٠ وما يليها.

وهذه هي قصيدة خورخي منريكي وقد ترجمتها كما تيسر لي :

١ – تذكرنا النفس الهاجعة
وتحرك الدماغ وتيقظنا
متأملين
كيف تنقضي الحياة
وكيف يأتي الموت صامتا
كيف تمر اللذة سراعا
وكيف بعد انحسارها
تخلف الالم
وكيف يبدو لنا
ان كل زمن مضى
كان افضل.

٢ – اجل نرى الحاضر
كيف توارى
وامحى
واذا اصبنا في حكمنا
اعتبرنا المستقبل
ماضيا
لا ينخدعن احد
اذا ظن انه سيدوم
ما يتوقعه
اكثر ممّا دام ما شاهده
اذ كل شيء سيزول
على هذا النحو.

٣ – حياتنا اشبه بالانهر
التي تنضب في البحر
الذي هو الموت
هناك ينتهي الاسياد
الى اجلهم والى زوالهم
هناك تصب الانهر الغزيرة
وهناك تختفي الانهر المتوسطة
وهناك تتوارى الانهر الصغرى
عندما تصل الى البحر
يتساوى ولا يتميز الكادحون
من الاغنياء.

٤ – اترك جانبا قصائد الشعراء
المشهورين والخطباء
لا اعباء بتكهناتهم
يتحدثون عن السحر العجيب
في قرارة نفوسهم
ان ما ادعو اليه
هو ان عالمنا لم
يتعرف على الالوهية

٥ – هذا العالم هو الطريق
الى العالم الآخر دار القرار
بدون كدر.

٦ – هذا العالم جميل
اذا احسنا الاستفادة منه
كما يجب.

علينا التذرع بالصبر
للسير في هذا العالم
دون ان نضل
نسير ما دمنا نعيش
ونصل عندما تأتي ساعتنا
وهكذا عندما نموت نستريح

لاننا كما يقول لنا الايمان
نحن هنا لكي نربح الآخرة
لان ابن الله
لكي يصعدنا الى السماء
انحدر وولد عندنا
وعاش على الارض
ثم مات.

٧ – انظروا ما اصغر
حجم الاشياء
التي تسعى وراءنا
ونركض
في هذا العالم الخائن
فان ادركناه
خسرناه.

٨ – قولوا لي: الجمال
وصفاء الوجه والجبين
واللون الابيض
عندما تأتي الشيخوخة
من يستطيع ايقاف الشباب
كل شيء يتحول الى شناعة
عندما تأتي موجة الهرم.

٩ – دم القوط
وشرف المحتد
العريق
كم من المرار
يضيع
في هذه الحياة.

١٠ –الدول والثراء تتخلى عنا
فمن شك في ذلك؟
نطلب منهم البقاء
ولا بقاء
انهم يتغيرون ويتحولون
وهذه الخيرات تأتي من الحظ
فلا يستقر على حال من الاحوال

١١ –هؤلاء الملوك الجبابرة
الذين قرأنا عنهم بالكتب
انتهوا الى اسوأ ما يكون
اتى على الكل امر الموت
على البابوات والاباطرة والاحبار
فالموت يرعاهم ويعاملهم

١٢ –لنتحدث عن الطروادييين
الذين لم نر بؤسهم ولا عزهم
لنتحدث عن الرومان
ورغم اننا سمعنا وقرأنا تواريخهم
لا نعرف ما حل بهم
وملوك الامس

كما يعامل الرعاة القطيع

١٣ –ماذا صنع الملك دون خوان؟
وامراء اراغون
ماذا جرى لهم؟
ماذا جرى لذلك الشاب النضر
اخترعوا وشادوا
فاصبحوا حصيدا على البيادر
وماذا اصبحت تلك المبارزات
والجولات والصولات
والزينات والحلى
والاسلة والاسل؟

اصابهم ما اصاب اولئك.

١٤ –ماذا دهى السيدات
وحلاهن وثيابهن؟
اين الشعلات التي اوقدنها
عند عشاقهن.
ماذا حل بذلك الشاعر المتجول
والموسيقى والغناء الموقعين.
وماذا صنع ذلك الراقص
وتلك الثياب المقصبة
التي تزينوا بها؟

١٥ –ولاخر دون انريكي خليفته
وما وصلت اليه سلطته
كم بسم لهم الدهر
ووفر لهم اللذة
او بالاحرى
كم قلب لهم ظهر المجن
وكما عاملهم بالقساوة
لم يطل وده لهم
وكم قاسوا من غلاظته.

تلك بعض المختارات من هذه القصيدة التي يمكن مقابلتها بقصيدة ابي البقاء الرندي او قصيدة ابن عبدون الرائية، اللتين يمكن وجودهما بسهولة.

هرمان الالماني:

عاش في برغش وطليطلة من عام ١٢٣٤ الى ١٢٦٠، منصرفا الى ترجمة تلخيص ابن رشد. ومن عام ١٢٦٠ الى ١٢٦٦ في نابولي ببلاد «منفريد» الذي خلف الامبراطور فردريك

الثاني ، ومن ١٢٦٦ الى ١٢٧٢ في «استرغة» «ASTROGA» من اعمال اسبانية ، اسقفا منصرفا الى ترجمة كتاب «Salterio» من العبرية ، وقد تكون اول ترجمة عن اللغة العبرية.

تعرفنا عليه من خلال ترجماته ومن المؤلفين الذين استعانوا به.

اسمه وشهرته ينمّان عن وطنه. ترجع ترجماته الى القرن الثالث عشر في طليطلة. ويخبرنا انه لاقى تشجيعا من مطران برغش «يوحنا» ومستشار قشتالة. غير ان الناس لم يستفيدوا كثيرا من ترجمة كتاب «الاخلاق» لارسطو عن العربية وقد قام بهذه المهمة هرمان الالماني ، فقد سبقه «غروستستي» ونقله رأسا عن اليونانية.

نعرف عنه انه اتصل بالملك منفريد كما يقول لنا روجير بيكون.

عندنا ثلاث ترجمات له : «الاخلاق» ، و«الخطابة» و«الشعر» لارسطوطاليس. ويذكر رينان كتابا آخر «السياسة» لارسطو ايضا.

ويتبين من مقدمة «بويتكا» «الشعر» ان هرمان الالماني قد ترجم «الاورغانون» بكامله.

عندنا منه مقدمة للخطابة «ريطوريكا» لارسطو بعد شرح الفارابي ، وقد نوه عن ذلك «جوردين» للمرة الاولى.

اول ما ترجم كتاب «الاخلاق» ، اخرج منه ترجمتين احداهما مختصرة والاخرى كاملة وهي موجودة في المخطوط رقم ١٦٥٨١ بالمكتبة الوطنية بباريس وتبتدئ هكذا :

«Incipit summa quorumdam Alexandrinorum quam excerserunt ex libro Aristotelis nominato Nichomachia quam plures hominum ethicam nominaverunt. Et transtulit eam ex arabico in latinum Hermannus Alemmannus».

يرى رينان ان الترجمة الكاملة الموجودة في المخطوطين رقم ١٧٧٣ و١٧٨٠ ليست سوى الشرح المتوسط لابن رشد وهي مطبوعة في مؤلفاته وتحمل في المخطوطات تاريخ ١٢٤٠. ويشك رينان في صحة هذا التاريخ اذ ان «البوتيقا» مؤرخة في ١٢٥٦. ويقول رينان : اننا لا نستطيع تفسير هذه الاقامة الطويلة في طليطلة دون ان يترجم هرمان سوى كتابين او ثلاثة كتب.

يقول هرمان في مقدمة الخطابة «ريطوريكا» : لا تعجبوا من خشونة ترجمتي لان الفارابي وابن سينا وابن رشدوا اصطدموا بغموض ولم يدفعوا بشروحهم حتى النهاية. والافضل تقبل ترجمتي على عواهنها بدلا عن اهمالها. لقد تهامل العرب في هذه المؤلفات ولم اجد بينهم معاونا لي في ترجمتي.

ويقول هرمان ايضا : انه بعد ان انهى الخطابة شرع في «الشعر» ولكن شعرت بالصعوبات الكثيرة الموجودة في الفوارق بين الوزن الشعري العربي والوزن الشعري اليوناني وبغموض الكلمات ولاسباب اخرى ظننت اني لن اقوى على نشر ترجمتين فتوجهت نحو ابن رشد واخذت منه ما وجدته قابل الفهم وصنعت ترجمتين لاتينيتين بقدر امكاني.

ارخت هذه الترجمة في طليطلة المدينة الشريفة عام ١٢٥٦ وهي موجودة في المكتبة الوطنية بباريس في المخطوط رقم ١٦٦٧٣ و١٦٠٩.

وفي هذا المخطوط الاخير ذكرت ترجمة هرمان الالماني باسم. «Didascalion»

وقد استعان هرمان الالماني ببعض الفلاسفة العرب في ترجمة كتبه مثلا : ابو بكر بن الصائغ المسمّى بابن باجة عند المدرسيين، هذا ما جاء في ترجمة كتاب «الاخلاق» اطيقا : «Dixit Abengekim filius Aurificis».

دخل هرمان الالماني في خدمة الملك «منفريدي» بصقلية ثم توجه الى طليطلة وتوفي في استرقة اسقفا على المدينة عام ١٢٧٢.

يقول عنه رينان في كتابه «ابن رشد والرشدية» : ان هرمان الالماني اتصل مثل «ميخائيل سكوت» بعائلة «هوهين ستوفين».

وعلى العموم فان هرمان انصرف الى تلك النصوص الارسطاطاليسية المهملة مثل الخطابة والشعر والاخلاق والسياسة. ولمّا كانت الشروح والتلخيصات العربية لهذه النصوص منتشرة بكثرة عمد اليها مفضلا اياها على سواها. وبدلا عن ترجمة كتاب «ريطوريكا» لارسطو ترجم شروح الفارابي على هذا الكتاب. وما يقال عن «الريطوريكا» يقال عن «البويطيقا» فقد ترجم مختصر ابن رشد له.

وقد طبع في البندقية عام ١٤٨١، ومن المعروف ان العصور الوسطى لم تتعرف على «بويطيقا» الا عن طريق هذا الشرح.

وقد اشتغل هرمان في ترجمة هذين الكتابين في طليطلة فخرجا في ٧ آذار عام ١٢٥٦.

وقد ذكر هرمان الالماني في مقدمة ترجمته لشروح الفارابي انه ترجم «اطيقا» عن مختصر عربي. وكما اشرنا ان هذا الكتاب ترجم رأسا من اليونانية الى اللاتينية، بينما ترجمة هرمان كانت ملخصا عن الشرح المتوسط لابن رشد.. توجد نسخة من هذه الترجمة في المكتبة اللورنتينية ويمكن قراءتها في جميع طبعات مؤلفات ابن رشد «الشارح». ويقول هرمان انه انجز هذه

الطبعة في «كابلة كنيسة الثالوث الاقدس» في طليطلة يوم الخميس المصادف الثالث من حزيران عام ١٢٤٠ ولكن يوجد خطأ في النسخ يجب ان تقرأ ١٢٦٠.

وتضم مكتبة السوربون تحت رقم ١٧٧١ ملخصا من عشر مقالات لكتاب «اطيقا» ولكن هذا النص المختصر الذي يحمل اسم هرمان لا مثيل له في النصوص الكاملة في المخطوطين رقم ١٧٧٣ و١٧٨٠.

ويمكن القول انه في منتصف القرن الثالث عشر وجدت مؤلفات ابن رشد الهامة منقولة من العربية الى اللاتينية باستثناء الشروح على «اورغانون» و«تهافت التهافت»، فعلى ما يظهر ان الفلاسفة اللاتين في القرون الوسطى لم يطلعوا عليهما مع انه توجد ترجمة لكتاب «تهافت التهافت» وضعها عام ١٣٢٨ اليهودي «كالو كالومينو بن كالونيمو بن مائير»، غير ان هذه الترجمة لم تنتشر كثيرا ولم يستشهدوا بها قبل القرن السادس عشر.

ميخائيل سكوت Michael Scot

ما كاد اسم جيرارده الكريموني يتسرب اليه النسيان والاهمال في مدينة طليطلة حيث توفي حتى اطل عليها اسم جديد نال شهرة لا تقل عن شهرة الكريموني وقد تفوقها في بعض النواحي الاجتماعية والسياسية لانه بقدر ما كان الكريموني منصرفا الى العزلة والعمل الصامت المثمر بقدر ما كان هذا الرجل الجديد الذي وصل الى طليطلة، ميشال سكوت يعمل على كسب الشهرة والتقرب من السلطات الدينية والمدنية.

لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاد ميخائيل سكوت، يمكن ان نرده الى الثلث الاخير من القرن الثاني عشر بين ١١٨٠ و١١٩٠، بلده انكلترة.

يخبرنا «بيتز» «PITS» مؤلف كتاب «De rebus anglicis» «في الشؤون الانكليزية» ان سكوت تلقن الدروس اولا في اكسفورد ثم في باريس وقد شغف بالعلوم الحسابية والفلسفية والفلك والنظر في الغيب، ويقال انه توفق في الكثير من تنبؤاته.

وطليطلة في ذلك العهد كانت محط رحال العلم فمن شاء المعرفة قصد طليطلة، وهذا ما صنعه ميخائيل سكوت فقد قصد طليطلة حوالي عام ١٢١٥ ومكث فيها بضعة اعوام مهتما بالترجمة من العربية الى اللاتينية وقد يكون ترجم ايضا من العبرانية الى اللاتينية لانه على ما يظهر كان يجيد اليونانية والعبرية والعربية والكلدانية.

عاصر البرت الكبير وروجير بيكون مواطنه. ونعرف عنه لمّا كان في طليطلة على عهد رئيس اساقفة المدينة «لذريق خيمنس الرادى» «Rodrigo Jimenez de Rada» وشاء هذا الاسقف الكبير التوجه الى المجمع المسكوني في «لتران» صحب معه ميخائيل سكوت ليكون مستشاره وهذا يعني ان ميخائيل سكوت جاء الى طليطلة قبل عام ١٢١٧ بكثير حتى توصل الى نيل الشهرة بحيث دعاه رئيس اساقفة المدينة لمرافقته الى مجمع مسكوني شهير مثل مجمع «ليتران» المذكور.

وفي نيسان من عام ١٢٢٧ كتب البابا غريغوريوس التاسع رسالة الى رئيس اساقفة «كانتربري» واسمه اسطفان يطلب اليه ان يرعى بالعناية هذا الرجال المثقف ثقافة عالية والمتضلع ليس فقط من اللغة اللاتينية بل العبرية والعربية ايضا، وقد انصرف الى ممارسة هذه اللغات منذ صباه.

لقد اعتدنا ان نعرف مسقط الرجل من تسميته وقد ظن البعض ان ميخائيل هو من بلاد «الاكوس» في انكلترة ولكن الامر يختلف اذ ان «سكوت» هي عائلة ميخائيل وليس اسم المكان الذي ولد فيه فقد ولد في ديرامو «Deramo» وفي هذه المحلة تلقن علومه الابتدائية التي تمكنه من الدخول الى اكسفورد فباريس. حوالي عام ١٢٢٠ مارس مهنة الطب في «بولونية» بايطالية ثم ما لبث ان دخل في خدمة الامبراطور فردريك الثاني المالك في صقلية واصبح منجم الامبراطور.

وفي عام ١٢٢٨ اهدى الى الامبراطور كتابه «Liber particularis» «الكتاب الخاص» حيث امتزج علم الفلك بعلم النجوم وبعلم العالم وتوقيت الازمنة.

لا نعرف بالضبط تاريخ وفاته. بيتز يرد الوفاة الى عام ١٢٩٠، غير ان جوردين يقول انه لم يعش طويلاً بعد وفاة الامبراطور فردريك الثاني، ومن المعروف ان هذا الامبراطور توفي عام ١٢٥٠. ولكن ظهرت ترجمة عام ١٢٦٠ منسوبة الى ميخائيل سكوت يتهمه روجير بيكون مواطنه بانه لا يفهم شيئا وجميع الترجمات التي حققها في طليطلة قد سرقها من مساعده اليهودي «اندريه».

والبرت الكبير انتقده ايضا بعنف لمّا قال عنه انه رجل جاهل الفلسفة الطبيعية ولم يفهم نصوص ارسطو فهما جيدا.

ترجماته :

١ – «Super autorem sphaerae»

اختلاف في صحة نسبة هذا الكتاب. يعتقد جوردين انه من شرح «سكربسكو» «Sacrobosco» بينمَا «هورو» «M. Hauréau» يعتقد انه للبطروجي.

والمخطوط رقم ٧٣٩٩ الموجود في المكتبة الوطنية بباريس يذكر في المقدمة ما يلي :

«Prosecutus sum dicta antiquorum, secundum quod posuit Tholomeus qui fuit fundamentum hujus scientiae, et secuti sunt eum sequentes sapientes, et non diversificati sunt aliqui ab eo, proeter Abu Isac Abrahim Enewah et Zarques in motu sphaerae stellarum fixarum et Abu Mahommeti Jeber autem Olfay Ispale nsis etc...»

ولكن هذا النص اللاتيني ليس سوى المقدمة التي جاءت في كتاب الهيئة للبطروجي وتقول هذه المقدمةما يلي :

«... وارغب اليك والى من نظر فيمَا كتبته ان يحسن الظن بي ولا يسبق بعذلي ويقبل علي باللوم لمخالفتي الاقدمين من العلماء ومناقضتي لاقاويل الجلة الفضلاء فاني ، علم الله ، لم اتعمد ذلك ، فمَا هنالك الا اني منذ صباي ، حين نظرت في الجزء التعليمي في حركات السماء وتتبعت فيها اقاويل القدماء بحسب ما وضعه رئيس هذا الفن بطليموس وسايره به من اتى بعده من العلماء ولم يخالفه احد منهم سوى ابي اسحق ابراهيم بن يحيى المعروف بالزرقاله في حركة الكواكب الثابتة وابي جابر بن افلح الاشبيلي في ترتيب فلك الشمس وفلكي الزهرة وعطارد.

وينتهي المخطوط على هذا الشكل :

«Perfectus est liber Aven Alpetrand. Translatus est a Magistro Michaele Scoto Tholeti, in anno decimo octavo die veneris Augusti, hora tertia cum Aboteoleucie, anno incarnationis jesu Cristi, 1217».

الترجمة : انتهى هذا الكتاب لابن البطروجي وقد ترجمه المعلم ميخائيل سكوت في طليطلة ١٢١٧ وهذا ما جاء ايضا في المخطوط رقم ١٦٦٥٤ في المكتبة الوطنية بباريس.

ومخطوط الارسنال رقم ٩٦ يتفق مع المخطوطين السابقين في كل شيء الا في التاريخ اذ يرد الى ١٢٢٧ وهذا راجع ولا شك الى خطأ في النقل.

٢ – «De constitutione mundi. Maxima cognitio...» **«تكوين العالم»**

جاء في مقدمة هذا الكتاب ما يلي :

«Tibi Stephane de Pruvino, hoc opus quod ego Michael Scotus dedi latinitati ex scriptis Aristotelis specialiter commendo, et si aliquid Aristoteles in completum demisit de constitutione mundana in hoc libro, recipies ejus supplementum ex libro Alpetradji quem similiter dedi latinitati, et es in eo exercitus».

اهدي اليك ، يا اسطفان بروفين هذا الكتاب الذي ترجمته انا ميخائيل سكوت الى اللاتينية من مؤلفات ارسطوطاليس حول تكوين العالم واذا كان ارسطوطاليس قد اهمل شيئا يتعلق بتكوين العالم فانك تجد تكملته في كتاب البطروجي (علم الهيئة) الذي نقلته الى اللاتينية ايضا.

نجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ١٦١٥٦.

يقول رينان ان اسم «بروفين» «Pruvino» قد ورد في رسائل كثيرة بين عامي ١٢١٢ و١٢٢١.

٣ – «Liber de anima» «كتاب في النفس»

نجد المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ١٤٣٨٥ ، وتقول المقدمة «كتاب النفس» شرح ابن رشد لارسطو وقد نقلها ميخائيل سكوت من العربية الى اللاتينية وتقول الخاتمة ان الناقل هو ميخائيل سكوت.

– ونجد هذه الترجمة ايضا في مكتبة السوربون رقم ٩٣٢ و٩٤٣.

وفي مكتبة سان فيكتور رقم ١٧١ ونقرأ في هذه المقدمة ما يلي : يبتدئ كتاب شرح النفس للفيلسوف ارسطوطاليس والشارح هو ابن رشد ، وقد نقله ميخائيل سكوت الى اللاتينية.

٤ – «De Coelo et mundo» «في السماء والعالم»

في المكتبة الوطنية بباريس نقرأ في المخطوط رقم ١٤٣٨٥ ما يلي :

«ابتدأت مقدمة الشرح على كتاب «السماء والعالم» والشارح هو ابن رشد في اليونانية؟ (وهذا خطأ) وقد نقله الى اللاتينية ميخائيل سكوت.

والخطأ الذي ذكرناه جاء ايضا في الكلام عن النفس».

٥ – De generatione et corruptione» «**في الكون والفساد**»

ذكر «بيتز» في لائحة الكتب التي ترجمها ميخائيل سكوت الى اللاتينية هذا الكتاب ايضا.

٦ – «De substancia orbis, de orbe» «**في جوهر العالم، في تركيب الجسم السماوي، في العالم**»

نجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس يحمل رقم ١٦١٥١

ويميل رينان الى الاعتقاد انه يمكن ان ننسب ترجمة الفيزيا والمتافيزقا لمخائيل سكوت.

٧ – **«Contra Averroem in Metheora»** «**الآثار العلوية لارسطو شرح ابن رشد**»

بشأن الآثار العلوية لارسطو وتفسير ابن رشد يميل رينان الى ان ميخائيل سكوت قد ترجم المقالات الاربع بينما جوردين يعتقد انه لم يترجم سوى المقالة الرابعة.

يتساءل لكليرك اليست هذه الترجمة موجودة في المخطوط رقم ١٦١٩٧ بالمكتبة الوطنية بباريس وقد اجريت هذه الترجمة في طليطلة عام ١٢٦٠.

٨ – **«Astrologorum dogmata**

في المكتبة الوطنية بباريس يوجد مخطوط رقم ١٤٠٧٠ يقول:

«مقالة لمخائيل سكوت بشأن انسجام العالم الارضي مع العالم السمَاوي».

٩ – De signis planetarum»

«مقالة لمخائيل سكوت حول تنبؤات النجوم»

وهذه المقالة موجودة ايضا في المخطوط السابق رقم ١٤٠٧٠

١٠ – **«De naturis animalium»** «**في طبائع الحيوان**»

نقل هذا الكتاب الى اللاتينية ميخائيل سكوت قبل عام ١٢٢٠، وكان قد نقله عن

اليونانية يحيى بن البطريق وكان البرت الكبير قد استعان بترجمة ميخائيل سكوت في «كتاب الحيوانات»

كما ان مطران قرطاجنة «بدره غلييغه» استعان بهذا الكتاب بنوع خاص لوضع ملخص للتاريخ، وقد توفي هذا المطران عام ١٢٦٧ (Pedro Gallego)

١١ – **«Liber Aboali Albincine de Anima in arte alchemiae»**

«كتاب ابي علي بن سينا في النفس بالفن الكيمائي»

وهذا الكتاب تم تأليفه في اسبانيا بعد سنة ١١٠٠، وهو ينسب الى ميخائيل سكوت [١].

١٢ – «Liber fisiognomie... cum multis secretis mulierum»

«علم الهيئة... مع اسرار كثيرة للنساء»

اهدى هذا الكتاب للامبراطور فردريك الثاني.

(١) D. Walley, «Michael Scot and alchemy» Isis, 13, 1929-1930.

الفصل الخامس

كليلة ودمنة في الغرب

كتاب كليلة ودمنة :

جاء في مقدمة كتاب كليلة ودمنة ان السبب الذي من اجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك في الهند كتاب كليلة ودمنة ان الاسكندر ذا القرنين الرومي لمّا فرغ من امر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب ، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم فلم يزل يحارب من نازعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس حتى ظهر عليهم . ، فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين فبدا بطريقه بملك الهند ليدعوه الى طاعته.

وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس يقال له « فورا » بلغه اقبال ذي القرنين نحوه فتأهب لمحاربته وجمع الفيلة المعدة للحرب والسباع المدربة على الوثوب.

فلمّا قرب ذو القرنين من « فورا » الهندي وبلغه ما قد اعد له من الخيل التي كأنها قطع الليل ممّا لم يبلغه احد من الملوك الذين كانوا في الاقليم ، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به ان عجل بالمبارزة وكان ذو القرنين ذا حيل ومكائد مع حسن تدبير وتجربة فرأى اعمال الحيلة والتمهل. واستدعى المنجمين وامرهم باختيار يوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه ، فاشتغلوا بذلك. وكان ذو القرنين لا يمرّ بمدينة الا اخذ الصناع والمشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف فامر الصناع الذين معه ان يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجرى اذا دفعت مرت سراعا ، وامر ، اذا فرغوا منها ان تحشى اجوافها بالنفط وتلبس وتقدم امام الصف في القلب وقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران واعاد ذو القرنين رسله الى «فورا» بمَا يدعوه اليه من طاعته والاذعان لدولته.

فاجاب جواب مصر على مخالفته مقيم على محاربته. فلمّا رأى ذو القرنين عزيمته سار اليه

باهبته. وقدم «فور» الفيلة امامه ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان فاقبلت الفيلة نحوها ولقت خراطيمها عليها فلما احست بالحرارة القت من كان عليها وداستهم تحت ارجلها ومضت مهزومة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمر باحد الا وطأته وتقطع «فور» وجمعه وتبعهم اصحاب الاسكندر واثخنوا فيهم الجراح وصاح الاسكندر: «يا ملك الهند ابرز الينا وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على الفناء فانه ليس من المرؤة ان يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه، فابرز الي ودع الجند فاينا قهر صاحبه فهو الاسعد».

فلمّا سمع «فور» من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه الى ملاقاته طمعا فيه وظن ذلك فرصة فبرز اليه الاسكندر فتجاولا على ظهري فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقي احدهما من صاحبه فرصة ولا حيلة، اوقع ذو القرنين في عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الارض والعساكر، فالتفت «فور» عندما سمع الزعقة وظنها مكيدة في عسكره فعاجله ذو القرنين بضربة امالته عن سرجه اتبعها باخرى فوقع على الارض.

فلمّا رأت الهند ما نزل بهم وما صار اليه ملكهم حملوا على الاسكندر فقاتلوه قتالا احبوا معه الموت فوعدهم من نفسه الاحسان ومنحه الله اكتافهم فاستولى على بلادهم وملك عليهم رجلا من ثقاته. ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجها نحو ما قصد له.

فلمّا بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغيرت الهند عمّا كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم واجمعوا يملكون رجلا من اولاد ملوكهم. فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم وخلعوا الرجل الذي خلفه عليهم الاسكندر. فلمّا استوثق له الامر واستقر له الملك طغى وبغى وجعل يغزو من حوله من الملوك، وكان مع ذلك مؤيدا مظفرا منصورا فهابته الرعية واستصغر امرهم.

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم، فلمّا رأى الملك وما هو عليه من ظلم الرعية فكر في وجه الحيلة في صرفه عمّا هو عليه ورده الى العدل والانصاف.

ثم ان بيدبا اختار يوما للدخول على الملك حتى اذا كان ذلك الوقت القى عليه مسوحه وهي لباس البراهمة وقصد باب الملك وسأل عن صاحب اذنه وارشد اليه وسلم عليه وقال له: «اني رجل قصدت الملك في نصيحة. فدخل الآذن على الملك وقال: بالباب رجل من البراهمة يقول انه بيدبا ذكر ان معه للملك نصيحة. فاذن له فدخل ووقف بين يديه وسجد له واستوى قائما وسكت.

وفكر دبشليم في سكوته وقال: ان هذا لم يقصدنا الا لامرين اما لالتماس شيء منا يصلح به

حاله واما لامر لحقه فلم تكن به طاقة . ثم قال : ان كان للملوك فضل في مملكتها فللحكماء فضلا في حكمتها اعظم لان الحكماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك باغنياء عن الحكماء بالمال .

ثم رفع رأسه الى بيدبا وقال له : نظرت اليك يا بيدبا ساكتا لا تعرف حاجتك ولا تذكر بغيتك فقلت ان الذي اسكته هيبة ساورته او حيرة ادركته وتأملت عند ذلك من طول وقوفك فسمحت لك بالكلام . فلمّا سمع بيدبا ذلك من الملك افرغ روعه وسرى عنه ما كان وقع في نفسه من خوفه وقال :

«قد عطف علي الملك بكرمه واحسانه ، والامر الذي دعاني الى الدخول على الملك والاقدام على نصيحته فان فسح في كلامي ووعاه فهو حقيق بذلك وما يراه وان هو القاه فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني قال الملك : «يا بيدبا ، تكلم كيف شئت فانني مصغ اليك ومقبل عليك وسامع منك حتى استفرغ ما عندك الى آخره واجازيك على ذلك بمّا انت اهله» .

قال بيدبا : «اني وجدت الامور التي اختص بها الانسان من بين سائر الحيوان اربعة اشياء : وهي جماع ما في العلم وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل والعلم والادب والروية داخلة في باب الحكمة والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل والصدق والاحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل ، والحياء والكرم والصيانة والانفة داخلة في باب العفة وهذه هي المحاسن واضدادها هي المساوئ فمتى كملت هذه في واحد لم يخرجه النقص في نعمته الى سوء الحظ من دنيا ولا الى نقص في عقباه ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه ولا يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه . ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك امسكت عن ابتدائه بالكلام فان ذلك لم يكن مني الا لهيبته والاجلال له وقد قالت العلماء : «الزم السكوت فان فيه السلامة وتجنب الكلام الفارغ فان فيه الندامة» . غير ان الملك ، اطال الله مدته ، لمّا فسح لي الكلام واوسع لي فيه كان اولى ما ابدأ به من الامور التي هي غرضي .

ايها الملك ، انك في منازل آبائك واجدادك من الجبابرة الذين اسسوا الملك قبلك وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ولا قطعهم عن اغتنام الشكر . وانت ايها الملك السعيد جده الطالع كوكب سعده قد ورثت من ارضهم وديارهم فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك بل طغيت وبغيت على الرعية واسأت السيرة وعظمت منك البلية وكان الاولى بك ان تسلك سبيل اسلافك وتحسن النظر برعيتك ويكون ذلك ابقى على السلامة وادوم على الاستقامة . فانظر ، ايها الملك ، فيمّا القيت اليك ولا يثقلن ذلك عليك ، فلم اتكلم بهذا ابتغاء معروف تكافئني به ولكني اتيتك ناصحا مشفقا عليك» .

فلمّا فرغ بيدبا من مقالته اوغر صدر الملك فاغلظ له في الجواب استصغارا لامره وقال : لقد تكلمت بكلام ما كنت اظن ان احدا من اهل مملكتي يستقبلني بمثله ولا يقدم على ما اقدمت عليه فكيف انت مع صغر شأنك وعجز قوتك ، وما اجد شيئا في تأديب غيرك ابلغ من التنكيل بك .

ثـم امر به ان يقتل ويصلب . فلمّا مضوا به فيمَا امر فكر به فاحجم عنه . ثم امر بحبسه وتقييده . فمكث بيدبا في حبسه اياما لا يسأل الملك عنه ولا يلتفت اليه ولا يجسر احد ان يذكره عنده ، حتى اذا كان ليلة من الليالي سهد الملك سهدا شديدا فذكر عند ذلك بيدبا وتفكر فيمَا كلمه فيه فقال في نفسه : لقد اسأت فيمَا صنعت بهذا الفيلسوف وضيعت واجب حقه وكافأته بخلاف ما يستوجب .

ثم انفذ في ساعته من يأتيه به . فلمّا مثل بين يديه قال له : «يا بيدبا الست الذي قصدت الى تقصير همتي وعجزت رأيي في سيرتي بمَا تكلمت به آنفا؟

قال له بيدبيا : «ايها الملك الناصح الشفيق انما نبأتك بمَا فيه صلاح لك ولرعيتك ودوام ملكـك» . قال له الملك : «يا بيدبا اعد علي كلامك ولا تدع منه حرفا الا جئت به . فجعل بيدبا ينثر كلامه والملك مصغ اليه ، وجعل دبـشليم كلما سمع منه شيئا ينكت الارض بشيء كان في يده .

ثم رفع طرفه الى بيدبا وامره بالجلوس وقال له : يا بيدبا اني قد استعذبت كلامك وحسن موقعك من قلبي وانا ناظر في الذي اشرت به وعامل بمَا امرت .

ثم امر بقيوده فحلت والقى عليه من لباسه وتلقاه بالقبول . فقال بيدبا : «ايها الملك ، ان في دون ما كلمتك به نهية لمثلك» .

قال : صدقت ايها الحكيم الفاضل ، وقد وليتك من مجلسي هذا الى جميع اقاصي مملكتي .

فقال : ايها الملك اعفني من هذا الامر فاني غير مضطلع بتقويمه الا بك .

فاعفاه من ذلك . فلمّا انصرف علم ان الذي فعله ليس برأي فبعث فرده وقال : اني فكرت في اعفائك ممّا عرضته عليك فوجدته لا يقوم الا بك ولا ينهض به غيرك ولا يضطلع به سواك فلا تخالفني فيه .

فاجابه بيدبا الى ذلك

ثم ان بيدبا لمّا اخلى فكره من اشتغاله بدبشليم تفرغ لوضع كتب السياسة ، فعمل كتبا كثيرة

فيها دقائق الحيل. ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية فرغبت اليه الملوك وفرحت به رعيته واهل مملكته.

ثم ان الملك دبشليم لمّا استقر له الملك صرف همته الى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه واجداده فوقع في نفسه ان يكون له ايضا كتاب مشروح ينسب اليه وتذكر فيه ايامه كما ذكر آباؤه واجداده من قبله. فدعا بيدبا وخلا به وقال له: يا بيدبا انك حكيم الهند وفيلسوفها واني فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي فلم ارَ فيهم احدا الا قد وضع كتابا يذكر فيه ايامه وسيرته، وقد احببت ان تضع لي كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه اخلاق الملوك وسياستها للرعية. اريد ان يبقى لي هذا الكتاب بعدي ذكرا على عابر الدهور.

فلمّا سمع بيدبا كلامه خرّ ساجدا ورفع رأسه وقال: فليأمر الملك بمَا شاء فاني صائر الى غرضه مجتهد فيه برأيي.

ثم ان بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم: ان الملك قد ندبني لامر فيه فخري وفخر بلادكم وقد جمعتكم لهذا الامر. ثم وصف لهم ما سأل الملك من امر الكتاب والغرض الذي قصده فيه. فلم يقع لهم الفكر فيه، ولم يزل يفكر فيمَا يعمله في باب الكتاب حتى وضعه مع احد تلاميذه كان يقف به، ولم يزل هو يملي وتلميذه يكتب حتى استقر الكتاب على غاية الاتقان والاحكام ورتب فيه اربعة عشر بابا وكل باب منها قائم بنفسه. وفي كل باب مسألة والجواب عنها. وضمن تلك الابواب كتابا واحدا وسمّاه «كتاب كليلة ودمنة» ثم جعل كلامه على لسان الحيوان والطير ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة وضمنه ما يحتاج اليه الانسان من سياسة نفسه واهله وجميع ما يحتاج اليه من امر دينه ودنياه.

ولم يزل بيدبا وتلميذه في خلوة بمقصورة حتى استتما عمل الكتاب في مدة سنة. فلمّا تم الحول انفذ اليه الملك ان قد جاء الوعد فماذا صنعت؟ فانفذ اليه بيدبا: اني على ما وعدت الملك فليأمرني بحمله بعد ان يجمع اهل المملكة لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم.

فلمّا رجع الرسول الى الملك سرّ به ووعده يوما يجمع فيه اهل المملكة. فلمّا كان ذلك اليوم حمل الكتاب تلميذه. ولمّا دخل على الملك وثب الخلائق باجمعهم وقام الملك شاكرا، فامره الملك ان يجلس لقراءة الكتاب وصار يسأله عن معنى كل باب من ابوابه والى اي شيء قصد فيه فاخبره بغرضه وفي كل باب فازداد الملك منه تعجبا وسرورا وقال له: يا بيدبا، ما عدوت الذي

في نفسي وهذا الذي كنت اطلب فاطلب ما شئت. قال: ايها الملك اما المال فلا حاجة لي فيه وام الكسوة فلا اختار على لباسي هذا شيئا، يأمر الملك بالمحافظة على هذا الكتاب فاني اخاف ان يخرج من بلاد الهند فيتناوله اهل فارس اذا علموا به. فالملك يأمر الا يخرج من بيت الحكمة ثم دعا الملك بتلاميذه واحسن لهم الجوائز.

ثم انه لمّا ملك كسرى انوشروان وكان مستأثرا بالكتب والعلم والادب والنظر في اخبار الاوائل وقع له خبر الكتاب فلم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى اخرجه من بلاد الهند فاقره في خزائن فارس، كما سنرى بالتفصيل.

عبد الله بن المقفع:

اسمه بالفارسية روزبه وهو عبد الله بن المقفع واصله من حوز مدينة من كور فارس وكان يكتب لداود بن عمر بن هبيرة، وهو الذي عمل شرط عبد الله بن علي على المنصور كما سنرى. فلمّا قتله سفيان بن معاوية حرقا بالنار وقع ذلك من المنصور بالموفق فلم يطلب بثأره وطل دمه. وكان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي متضلعا باللغتين فصيحا بهما وقد نقل عدة كتب تخص الفرس منها:

كليلة ودمنة
كتاب مزدك
كتاب التاج في سيرة كسرى انوشروان
كتاب الأدب الكبير
كتاب الأدب الصغير
كتاب اليتيمة في الرسائل.

يهمنا من هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة، فقد ترجم الى الفارسية في مدرسة الترجمات في جند سابور ثم ما طال الأمر ان نقل الى السريانية عام ٥٧٠، ومن جند سابور انتقل الى البصرة فتلقفه المسلمون ونقلوه الى العربية عام ٧٥٠ ثم نشروه في العالم الاسلامي والتركي والتتري والصقلبي والبيزنطي والمسيحي الاوروبي، ومنذ ذلك الحين تغلب عليه اسم «كليلة ودمنة».

وقد كان لانتشار النص العربي لهذا الكتاب تأثير خارق العادة، فقد نقل الى السريانية ثم الى اليونانية ثم الى الفارسية والعبرانية والاسبانية. وبعد ذلك الى بقية اللغات الاوروبية. وكانت

اسبانية الاولى بين دول الغرب التي نقلت الكتاب الى الرومنسية عام ١٢٥١ والى اللاتينية قام بها يوحنا الكابوي.

وهي اصدق ترجمة لكتاب ابن المقفع.

وقد صدر عن هذه الترجمة اللاتينية التي قام بها يوحنا الكابوي: «Johannes de Capua» السالف الذكر ترجمة المانية طبعت للمرة الاولى في عام ١٤٧٠ وعام ١٤٨٠ وخرج منها الترجمات الدنمركية والاسلندية والهولندية.

وقد صدرت ترجمة اخرى اسبانية عنوانها:

«Exemplario contra los engaños y peligros del mundo»

وقد اقتبس عنها ترجمتان ايطاليتان في القرن السادس عشر، كانتا أساسا لترجمات فرنسية وانكليزية.

ويقول الباحث الكبير مننديس بيلايو عن كتاب كليلة ودمنة انه من الصعب جدا التقاط جميع الترجمات والطبعات التي اخذت من هذا الكتاب. منذ ظهوره في القرن الثامن الميلادي مترجما الى العربية فانه يعتبر من الكتب الاوسع انتشارا في العالم.

وفي عام ١٣١٣ ميلادي طلبت «حنة النبارية» ملكة فرنسة من ريمون البيسي «Raymond de Beziers» ترجمته وقد اهدي الى الملك فيليب الرابع الجميل خلال اعياد العنصرة على شكل مخطوط انيق، والملكة ايزابيل الكاثوليكية كانت تحتفظ به بين كتبها.

وقد اخذ عنه «الانفنطي» «خوان مانويل» «في تأليف» قند لوقانور

«Conde Lucanor»

وكذلك الاخ انسلمه دي تورمدا في كتابه «مناقشة الحمار» «Disputa del asno»

واخيرا قصة الراهب الذي صب العسل والسمن على رأسه وقد اوحت هذه القصة الى «لافونتين» الفرنسي كتابه قصة بائعة الحليب ومن «لافونتين» استقى «سامنييغه» الاسباني كاتب القصص على لسان الحيوان فكتب من جملتها «بائعة الحليب».

كل هذه ليست سوى مقدمات، فلننتقل الى التفاصيل:

النص الأصلي لكتاب كليلة ودمنة:

وضع هذا الكتاب بالسنسكريتي في «PANCHATANTRA» «بانتشتنترة» اي الكتب

الخمسة وفي «مهاباراتا» «MAHABARATA» وهي الملحمة الوطنية الهندية...

«والكتب الخمسة» هو أقدم تأليف من حيث النشر الروائي في الهند ويرجع الى القرن الثالث او الرابع قبل المسيح، وقد جمعت هذه النصوص في خمسة ابواب تحتوي على خمس وسبعين قصة على السنة الحيوانات، لها طابع تربوي واخلاقي وتنتهي جميعها بمغزى او بتأملات واعتبارات أدبية.

لم يعثر على هذا الكتاب في الهند غير انه اخذت عنه نسخة سنسكريتية موجودة في كشمير عنوانها «Tantrakhyayika» يفترض انها نسخت ما بين ٢٧٥ قبل المسيح و ٢٧٥ بعد المسيح وهي تحتوي على ٩٥ بالمائة من النص الاصلي.

واذا رجعنا الى النص العربي الذي طبعه «سلفستر دي ساسي» «Sylvestre de Sacy» في باريس عام ١٨١٦ والاضافات الثلاث المأخوذة من مخطوطات مختلفة مدرجة فقط في النص السرياني واليوناني والعبراني والاسباني واللاتيني، توصلنا الى نتيجة وهي ان كتاب كليلة ودمنة مشكل من ثلاث عناصر هي: الهندية والفارسية والعربية. اثنا عشر بابا من اصل هندي او بوذي وهي الابواب: ٥ - ٧ - ٨ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٧ و ١٨.

وثلاثة ابواب من اصل فارسي.

وستة ابواب من اصل عربي ظهرت للمرة الاولى في كتاب ابن المقفع وهي الابواب: ١ - ٣ - ٦ - ١٦ - ٢٠ - ٢١.

وقد درس المستعرب الالماني «Theodor Benfey» (١٨٠٩ - ١٨٨١) محتويات كتاب كليلة ودمنة من العنصر الهندي فاذا هي الفصول الراجعة في النص العربي الى الارقام ٥ - ٧ - ١٠٩٨ ويوجد عنصر بوذي وهما البابان ١٤ و ١٥.

فاذا يمكن القول أن كتاب كليلة ودمنة قد وضع اساسا في الهند ثم وصلت هذه المجموعة من الحكايات الى الفرس حوالي عام ٥٧٠ ثم نقلها المسلمون الى اوروبة.

الترجمة البهلوية:

هذه هي الترجمة التي وضعها برزويه حوالي عام ٥٧٠ مسيحي، ولا بأس في ايراد الخبر كما جاء في كتاب كليلة ودمنة.

رزق الله الملك السعيد انو شروان من العقل افضله ومن المعرفة بالامور اصولها... بلغه من

فنون اختلاف العلم وبلوغ منزلة الفلسفة ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله ... وصل الى سمعه عن كتاب بالهند انه اصل كل أدب ورأس كل علم ومفتاح عمل الآخرة ومعرفة النجاة من هولها. فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يبحث له عن رجل أديب عاقل من اهل مملكته بصير بلسان الفارسية ماهر في كلام الهند ويكون بليغا باللسانين جميعا حريصا على طلب العلم والبحث عن كتب الفلسفة.

فأتاه برجل أديب كامل العقل معروف بصناعة الطب ماهر في الفارسية والهندية يقال له «برزويه»، فلمَا دخل عليه كفر وسجد بين يديه فقال له الملك: يا برزويه، إني قد اخترتك لمَا بلغني من فضلك وعلمك وعقلك وحرصك على طلب العلم حيث كان، وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم. فتجهز فإني مرسلك الى ارض الهند فتلطف بعقلك وحسن أدبك ونافذ رأيك لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم فتستفيد بذلك وتفيدنا وما قدرت عليه من كتب الهند ممَا ليس في خزائننا منه شيء فاحمله معك، وخذ من المال ما تحتاج اليه وعجل ذلك ولا تقصر في طلب العلوم وان كثرت فيه النفقة فإن جميع ما في خزائني مبذول لك في طلب العلوم.

وأمر باحضار المنجمين فاختاروا له يوما يسير فيه، وساعة صالحة يخرج فيها وحمل معه من المال عشرين جرابا كل جراب فيه عشرة آلاف دينار.

فلما قدم برزويه بلاد الهند طرق باب الملك ومجالس السوقة وسأل عن خواطر الملك والاشراف والعلماء والفلاسفة، فجعل يغشاهم في منازلهم ويتلقاهم بالتحية ويخبرهم بأنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والآداب وإنه يحتاج الى معاونتهم في ذلك. فلم يزل كذلك زمنا طويلا يتأدب على علماء الهند بمَا هو عالم بجميعه وكأنه لا يعلم منه شيئا، وهو فيمَا بين ذلك يستر بغيته وحاجته. واتخذ في تلك الحالة لطول مقامه اصدقاء اصفياء كثيرين من الاشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن اهل كل طبقة وصناعة.

وكان قد اتخذ من بين اصدقائه رجلا واحدا اصطفاه لسره واختصه بمشورته للذي ظهر له من فضله وأدبه. وكان يشاوره في الامور ويرتاح اليه في جميع ما اهمه، الا انه كان يكتم عنه الامر الذي قدم من اجله لكي يبلوه وينظر هل هو اهل أن يطلعه على سره.

فقال له يوما وهما جالسان: يا اخي، ما اريد أن اكتمك من امري فوق الذي كتمتك، فاعلم إني لأمر قدمت وهو غير الذي يظهر مني، والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره حتى يعلم سر نفسه وما يضمره قلبه.

قال له الهندي : إني وإن لم اكن بدأتك واخبرتك بمَا جئت له واياه تريد وانك تكتم امرا تطلبه وتظهر غيره فمَا خفي علي ذلك منه ولكني لرغبتي في اخائك كرهت أن اواجهك به... فإني مخبرك عن نفسك ومظهر لك سريرتك... انك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة فتذهب بها الى بلادك وتسر بها ملكك. وكان قدومك بالمكر والخديعة ولكنني لمَا رأيت صبرك ومواظبتك على طلب حاجتك والتحفظ من أن يسقط منك الكلام مع طول مكثك عندنا بشيء يستدل به على سريرتك ازددت رغبة في اخائك وثقة بعقلك فأحببت مودتك ، وإن عقل الرجل يبين في ثمان خصال :

الاولى الرفق والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها والثالثة طاعة الملوك والتحري لمَا يرضيهم والرابعة معرفة الرجل موضع سره وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه ، والخامسة أن يكون على ابواب الملوك اديبا والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظا ، والسابعة أن يكون على لسانه قادرا فلا يتكلم إلا بمَا يأمن تبعته والثامنة أن يكون بالمحفل لا يتكلم الا بمَا يسأل عنه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الراعي الخير لنفسه. وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك فالله تعالى يحفظك ويعينك على ما قدمت له. فمصادقتك اياي وإن كانت لتسلبني كنزي وفخري وعملي تجعلك اهلا لأن تسعف بحاجتك وتشفع بطلبتك وتعطي سؤلك.

فقال له برزويه : «إني قد كنت هيأت كلاما كثيرا وشعبت له شعوبا وانشأت له اصولا ، فلمَا انتهيت الى ما بدأتني به من اطلاعك على امري والذي قدمت له اكتفيت من اليسير بالخطاب معك ورأيت من اسعافك اياي بحاجتي ما دلني على كرمك وحسن وفائك فإن الكلام اذا القي الى الفيلسوف والسر اذا استودع اللبيب الحافظ فقد حُصّن وبلغ له نهاية امل صاحبه...

قال له الهندي : «لا شيء افضل من المودة ومن خلصت مودته كان اهلا أن يخلصه الرجل بنفسه ولا يكتمه سرا ، وانا فقد داخلني من مودتك سرور لا يعدله سرور وهذا الامر الذي تطلبه مني اعلم إنه من الاسرار التي لا تكتم فلا بد أن يفشو ويظهر حتى يتحدث الناس به فاذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكا لا اقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر لأن ملكنا فظ غليظ يعاقب على الذنب الصغير اشد العقاب. فكيف مثال هذا الذنب العظيم؟.

فقال برزويه : «إن العلماء قد مدحت الصديق اذا كتم سر صديقه وأعانه على الفوز ، وهذا الامر الذي قدمت له بك ارجو بلوغه وانا واثق بكرم طباعك ووفور عقلك واعلم انك لا تخشى مني ولا تخاف أن ابديه بل تخشى اهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا وانا ارجو الا يشيع شيء من هذا الأمر».

وتعاهدا على هذا جميعا.

وكان الهندي خازنا للملك وبيده مفاتيح خزائنه. فاجابه الى ذلك الكتاب والى غيره من الكتب فأكب على تفسيره ونقله من اللسان الهندي الى اللسان الفارسي واتعب نفسه وانصب بدنه ليلا ونهارا وهو مع ذلك وجل فزع من ملك الهند خائف على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب في وقت لا يصادفه في خزائنه. فلمّا فرغ من انتساخ الكتاب وغيره ممّا اراد من سائر الكتب كتب الى انو شروان يعلمه بذلك.

فلمّا وصل اليه الكتاب سرّ بذلك سرورا شديدا ثم تخوف معالجة المقادير ان تنغص عليه فرحه فكتب الى برزويه يأمر تعجيل القدوم فسار برزويه متوجهًا نحو كسرى.

فلمّا رأى الملك ما قد مسه من الشحوب والنصب قال له: «ايها العبد الناصح الذي يأكل ثمرة ما قد غرس، ابشر وقر عينا فإني بالغ بك افضل درجة».

وأمره أن يريح بدنه سبعة ايام. فلمّا كان اليوم الثامن امر الملك أن يجتمع اليه الامراء والعلماء. فلمّا اجتمعوا امر برزويه بالحضور فحضر ومعه الكتب ففتحها وقرأها على من حضر من اهل المملكة.

فلمّا سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحا شديدا وشكروا الله على ما رزقهم ومدحوا برزويه واثنوا عليه. وامر الملك أن تفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة وامره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مال وكسوة وقال: «يا برزويه، إني قد امرت أن تجلس على مثل سريري هذا وتلبس تاجا وتترأس على جميع الاشراف». فسجد برزويه للملك وقال: اكرم الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة فإني بحمد الله مستغن عن المال بمّا رزقني الله تعالى على يد الملك السعيد، ولكن اذا كلفني الملك وعلمت انه يسره امضي الى الخزائن فآخذ منها لمرضاته وامتثالا لأمره.

ثم قصد خزانة الثياب فاخذ منها تختا من طرائف خرسان من ملابس الملوك. فلمّا قبض برزويه ما اختاره ورضيه من الثياب قال: «إني اسألك ايها الملك حاجة تسعفني بها وتعطيني فيها سؤلي فإن حاجتي يسيرة وفي قضائها فائدة كبيرة».

فقال له كسرى انوشروان: «اذكر حاجتك فعلي ما يسرك».

فقال برزويه: «حاجتي أن يأمر الملك اعلاه الله، وزيره بزرجمهر ويقسم عليه أن يعمل فكره ويجمع رأيه في نظم تأليف كلام متقن محكم ويجعله بابا يذكر فيه امري ويصف حالي ويأمره اذا

استتمه أن يجعله اول الابواب التي تقرأ قبل باب الاسد والثور، فإن الملك اذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف وابقى لنا مالا يزال باقيا الى الابد حيثمَا قرئ هذا الكتاب».

فلمَا سمع انو شروان والعظماء مقاله وما سمت اليه نفسه من محبة ابقاء الذكر، استحسنوا طلبته واختياره وقال كسرى: «حبا وكرامة لك يا برزويه انك لأهل أن تسعف بحاجتك، فمَا اقل ما قنعت به وما ايسره عندنا وإن كان خطره[1] عندك عظيا».

ثم اقبل انو شروان على وزيره بزرجمهر فقال له: «قد عرفت مناصحة برزويه لنا وتشجمه المخاوف والمهالك فيا يقربه منا، وما افادنا الله على يده من الحكمة والادب... فإني احب أن تسعفه بحاجته وطلبته، وهو أن تكتب بابا مضارعا لتلك الابواب التي في الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه وحسبه ونسبه وصناعته وادبه... وتذكر فيه بعثته الى بلاد الهند في حاجتنا... فقل ما تقدر عليه من التقريظ والاطناب في مدحه واجتهد في ذلك اجتهادا يسر برزويه واهل المملكة».

فلمَا سمع برزويه مقالة الملك خرّ له ساجدا وقال: «أدام الله لك ايها الملك البقاء وبلغك افضل منازل الصالحين في الآخرة والاولى. لقد شرفتني بذلك شرفا باقيا الى الابد».

ثم خرج بزرجمهر من عند الملك فوصف برزويه من اول يوم دفعه ابواه الى العلم ومضيه الى بلاد الهند في طلب العقاقير والادوية وكيف تعلم خطوطهم ولغتهم الى أن بعثه انوشروان الى الهند في طلب الكتاب ولم يدع من فضائل برزويه امرا الا نسقه ثم اعلم بفراغه منه.

فجمع انوشروان اشراف قومه وامر بزرجمهر بقراءة الكتاب. وابتدأ بوصف برزويه حتى انتهى الى آخره.

ففرح الملك بمَا اتى به من الحكمة والعلم ثم اثنى على بزرجمهر وشكره ومدحه وأمر له الملك بمال جزيل وكسوة وحلي. ولم يقبل من ذلك شيئا غير كسوة كانت من ثياب الملوك.

وأقبل برزويه على الملك وقال: أدام الله لك الملك والسعادة فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بمَا أمرت به بزرجمهر من صنعه الكتاب في أمري وابقاء ذكري.

– كليلة ودمنة – المكتبة الحديثة للطباعة والنشر – بيروت شارع سوريا، من صفحة ٢١ الى ٣١.

(١) الخطر: ارتفاع القدر.

وقد احتفظ ملوك الفرس بعد كسرى انوشروان بترجمة برزويه البهلوية كأنها كنز عظيم. وظل الأمر كذلك حتى جاء يزد جرد الثالث ٦٣٢ - ٦٥٢، فاحتل العرب على عهده الامبراطورية الفارسية نتيجة لمعركة القادسية ٦٣٦ ونهوند ٦٤٠، مائة سنة بعد ذلك، اي في منتصف القرن الثامن سمع الخليفة العباسي الثاني المنصور ٧٧٥ - ٧٥٤ بهذه الترجمة فهزته رغبة لجوج في الحصول عليها، وعثر على نسخة سلمت من التلف فاحتفظ بها...

ابن المقفع :

روزبيه بن داذويه المعروف بابن المقفع من سراة الفرس المستعربين على غير اسلام. عمل ابوه داذويه للحجاج بن يوسف ولخالد القسرى فولاه احدهما خراج خرسان فامتدت يده الى اموال الجباية. ورفع امره الى الحجاج فعذبه بالبصرة حتى تفقعت يده اي تقبضت وتشنجت اصابعها فعرف «بالمقفع».

قد يكون ابن المقفع ولد في فيروزباد سنة ١٠٦/٧٢٤، على انه نشأ بالبصرة واتصل بآل الاهتم وهم ذوو فصاحة فأخذها عنهم وعني ابوه بتأديبه وتخريجه في صناعة الكتابة. وكان يميل من طبعه الى التأنق في التعبير تأنقه في مرافق المعيشة ومظاهرها.

عرف روزبه باسم عبد الله وكني بأبي محمد بعد أن تظاهر بالاسلام.

باشر المناصب الادارية فكتب للمسيح بن الحوارى في سابور. وظل في خدمة المسيح بن الحوارى حتى طرد هذا من سابور سنة ١٢٩/٧٤٧ فانتقل ابن المقفع الى كرمان واتصل بداود بن هبيرة فكتب له واستمر لديه حتى سنة ١٣١/٧٤٨، وفيها تراجع داود من كرمان هاربا امام قحطبة احد قادة ابي مسلم الخراساني متجها نحو واسط للقاء ابيه يزيد الذي كان قد عين واليا على البصرة والكوفة سنة ١٢٩/٧٤٦. فلم يقو على صد جيوش الثورة على الأمويين فقتل في واسط في ذي القعدة ١٣٢/٧٥٠.

ابتدأت شهرة ابن المقفع الادبية تظهر في كرمان حيث شهد مواقع تلك الحرب الاهلية الضارية وشهد حيرة الولاة الأمويين وترددهم بين الوفاء لارباب دولتهم المتداعية والانحياز الى قادة الثورة الجامحة، فازداد خبرة باخلاق الرجال.

ولم تكد تتوافر بوادر الانهيار في الحكم الأموي حتى مال ابن المقفع الى موالاة الدولة الناشئة. ولم تكن هذه لتستغني عن رجل مثله ثقافة وسياسة وادارة، فاتصل بابناء علي اعمام

السفاح والمنصور: عيسى والي كرمان واسماعيل والي الاهواز، وسليمان والي البصرة وانتقل معهم الى العراق واختص منهم بعيسى فكتب له. وأقام من ثم في البصرة وكان قد ولي عليها سليمان منذ سنة ١٣٣/٧٥١، فعاشر فيها ذوي الفكر والثقافة وارباب الآراء الحرة المستقلة. والبصرة اذ ذاك ملتقى النظريات المتباينة في الدين والدنيا قبل اختطاط بغداد عاصمة الخلافة الجديدة.

دين ابن المقفع المجوسية الملقحة بالمزدكية مع ميل واضح الى المانوية اذا ما استندنا الى ذلك الكتاب الذي ألفه في نقد القرآن مبدؤا بقوله: «باسم النور الرحمن الرحيم»، والذي رد عليه الامام الزيدي القايم ردا شديدا.

ويقول ابن خلكان نقلا عن البلاذري: ان ابن المقفع اسلم على يد عيسى بن علي.

جاء ابن المقفع الى عيسى بن علي فقال له: لقد دخل الاسلام في قلبي واريد أن اسلم على يدك. فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فاذا كان الغد فاحضر.

ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس، والزمزمة صلاة على الطعام تظهر بنغم داخلي بدون تحريك الشفتين ولا تلفظ بكلام واضح. فقال له عيسى: اتزمزم وانت على عزم الاسلام؟ فقال كرهت على أن أبيت على غير دين. فلمّا اصبح اسلم على يده.

على أن هذا الاسلام ظل عرضة للشك والنقد، وظل القوم على اعتبار ابن المقفع من الزنادقة على غرار اصحابه بشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن اياس وعلي بن الخليل وغيرهم.

وكان ان خرج عبد الله بن علي على ابن اخيه المنصور وطمح الى الخلافة على أثر وفاة السفاح، فسير عليه المنصور ابا مسلم الخراساني، ففت في عضده وبدد جيشه. فهرب عبد الله الى البصرة لائذا باخويه سليمان وعيسى. وكان سليمان واليا على البصرة فتوسط لدى المنصور. وتظاهر المنصور بقبول شفاعة سليمان وعيسى واتفقوا على أن يكتبوا له امانا يوقعه المنصور. وطالت المماطلة.

فلمّا تخلص المنصور من ابي مسلم رأى أن يحسم قضية عبد الله بن علي. فعزل عمه سليمان عن البصرة في رمضان ١٣٩/٧٥٧ وولى عليها احد خلصائه سفيان بن معاوية المهلبي الذي خاصم المسيح بن الحواري في سابور، وعدو ابن المقفع.

وفرضت الحياة الجديدة الرسمية على العدوين علاقات جديدة على تهكم ظريف عابث

واستخفاف خبيث من قبل ابن المقفع وعلى حقد مكبوت من قبل سفيان. فكان ابن المقفع اذا دخل عليه وهو منفرد في مكتبه قال: «السلام عليكما»، يعني نفسه وانفه. واذا دخل عليه وهو في حفل من جلسائه رمى الى تجاهله والسخرية بلهجة المستفتي: ما تقول في شخص مات وخلف زوجا وزوجة؟.

وقال سفيان يوما: «ما ندمت على سكوت قط».

فقال ابن المقفع: «الخرس زين لك، فكيف تندم عليه؟».

وكان ابن المقفع يطلق لسانه في امه كذلك. فكان سفيان يتربص ويقول: «والله لاقطعنه اربا اربا وعينه تنظر».

وشدد المنصور في طلب عمه عبد الله بن علي، وألح على سفيان في ذلك. فكلف عيسى بن علي كاتبه ابن المقفع أن يكتب الأمان ويبالغ في التوكيد كي لا يقتله المنصور. فكتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله: «ومتى غدرا أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق وعبيده احرار ودوابه حبس(١) والمسلمون في حل من بيعته.

وكان الذي شق على ابي جعفر المنصور ان ابن المقفع قال في النسخة: وإن انا نلت عبد الله ابن علي او واحدا ممن أقدمه معه بصغير من المكروه اوكبير او أوصلت الى احد منهم ضررا سرا او علانية على الوجوه والاسباب كلها تصريحا اوكتابة او بحيلة من الحيل فانا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة وقد حل لجميع امة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي واعانة من ناواني من جميع الخلف ولا موالاة بيني وبين احد من المسلمين، وهو متبرئ من الحول والقوة ومدع ان كان انه كافر بجميع الاديان ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المآكل والمشرب والمناكح والمراكب والرق والملك والملبس على الوجوه والاسباب كلها. وكتبت بخطي ولا نية لي سواه ولا يقبل الله مني اياه والوفاء به.

فأغاظ هذا الأمان المنصور ولكنه تظاهر بالحلم وطلب أن يقدم عمه اليه ليسلمه الأمان فقال: «اذا وقعت عيني عليه فهذا الأمان له صحيح لأني لا آمن أن اعطيه اياه قبل رؤيتي له فيسير في البلاد ويسعى علي بالفساد.

(١) حُبُس: كل ما وقفه صاحبه من أرض أو بستان أو حيوان لتجعل غلته في سبيل البر والاحسان

ثم سأل من كتب له هذا الأمان، فقيل: ابن المقفع، كاتب عيسى بن علي. فكتب الى سفيان متولي البصرة يأمره بقتله.

وكان سفيان ينتظر فرصة كهذه. وكان أن عرض لعيسى بن علي حاجة لدى سفيان فارسل اليه ابن المقفع، فأخر اذنه حتى خرج من كان عنده. ثم عدل به الى حجرة منفردة فقتله شر قتلة. قيل: رماه في بئر وغطاها بحجر حتى مات. وقيل انه طرحه في بئر النورة بالحمام فاحترق. وقال ابن المدائني: انه أمر بتنور فسجر[1] ثم أمر بابن المقفع فقطعت اطرافه عضوا عضوا والقيت في التنور وهو ينظر حتى أتى على جميع جسده ثم أطبق عليه التنور وقال: «ليس علي في المثلة بك حرج، لأنك زنديق وقد افسدت الناس».

ومما يروى أن ابن المقفع، لمَا أمر سفيان بتقطيعه وطرحه في التنور قال له: «والله انك لتقتلني فتقتل بقتلي الف نفس، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد». ثم قال:

«اذا ما مات مثلي مات شخص　　يموت بموته خلق كثير
وانت تموت وحدك ليس يدري　　بموتك لا الصغير ولا الكبير».

وسأل عنه سليمان وعيسى فقيل لها: انه دخل دار سفيان سليما ولم يخرج منها. فخاصماه الى المنصور واحضراه اليه مقيدا. وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج فأقاموا الشهادة عند المنصور فقال لهم المنصور: «انا أنظر في هذا الامر. ثم قال لهم أرأيتم ان قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت، واشار الى باب خلفه، وخاطبهم: ما تروني صانع بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟

فرجعوا كلهم عن الشهادة واضرب عيسى وسليمان عن ذكره وعلما أن قتله كان برضى المنصور.

حدث ذلك سنة ١٤٢/٧٥٩ او قبلها بقليل بدليل أن سليمان بن علي توفي في هذه السنة نفسها ومن المشهور أن ابن المقفع ذهب ضحية السياسة بالاولى لا ضحية الزندقة كما مال الى القول عدد من الباحثين.

بيد ان ذلك الأمان الصارم في شروطه لم يفد صاحبه ذرة وما هو ان تقدم عبد الله بن علي

---

(١) سَجَرَ يَسْجُر سجرًا التنور: أشعل الوقود فيه واحماه.

من البلاط لتسلمه حتى طرحه المنصور في السجن وبدد جماعته قتلا وتشريدا ، وكان ذلك في ذي الحجة ١٣٩ ، نيسان — أيار ٧٥٧.

آثاره : ١- الأدب الصغير : كتيّب في نحو ثلاثين صفحة ينسب الى الأدب الاخلاقي والتهذيبي والوعظي في اسلوب موجز.

٢- الأدب الكبير : وهو المعروف «بالدرة اليتيمة» موضوعه من باب أدب المخالفة. يتناول الكلام عن السلطان والولاة ورجال البلاط والحاشية، ويتحدث عن الصداقة وصفات الصديق.

٣- رسالة الصحابة : اصلاحية تناول فيها القضايا السياسية والادارية والقضائية والاقتصادية الناجمة عن التطور الاقتصادي والاجتماعي في أواخر العهد الأموي واوائل العباسي ويبدو انه كتبها الى الخليفة المنصور في اول عهده بالخلافة.

٤- كليلة ودمنة : أقدم الكتب العربية وأشهرها على الاطلاق. تضافرت على اظهاره بحلته الحاضرة ثقافات الهند والفرس والعرب ، فاتى خلاصة اختبار الشعوب على مر القرون ، وما هو ان انتقل الى التراث العالمي حتى تعاقبت عليه اجيال المستفيدين في الشرق والغرب على مختلف الطبقات والمنازع والمشارب فصح فيه قول ابن المقفع في مقدمته من انه جمع حكمة ولهوا فاختاره الحكماء لحكمته وجعله السفهاء لهوا لهم.

مخطوطاته : نخص بالذكر منها مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس من القرن الثالث عشر، وعن هذه المخطوطة أخذت النسخة التي استند اليها احمد حسن طباره في طبعته كليلة ودمنة ببيروت سنة ١٣٢٢ هجرية الا انه لم يطبع رسومها بالألوان فبدت خافتة غير متقنة.

في دار الكتب اللبنانية مخطوطة مصورة ترجع الى القرن الخامس عشر إذ انها تحمل

في صفحاتها الاخيرة حاشية يستفاد منها ان صاحبها اشتراها بقطعة ارض سنة ١٥٠٥/٩١١ والصور فيها صغيرة وملونة جميلة متقنة ولا سيّما رسوم الحيوانات والطيور.

أما طبعات الكتاب فتعد بالمئات في مختلف انحاء العالم واولها كاملة طبعة «سلفستر دي ساسي» في باريس سنة ١٨١٦ ومن ثم تعاقبت طبعاته في القاهرة ودلهي الجديدة والموصل وبيروت وبمباي وقازان وغيرها.

وقد وفق الاب شيخو اليسوعي الى اكتشاف نسخة قديمة منه في دير الشير (لبنان) مؤرخة بالسنة الهجرية ١٣٣٩/٧٤٩ م، فطبعها سنة ١٩٠٥ مع مقدمة نقدية اضافية وتعاليق باللغة الفرنسية، فكانت اول طبعة علمية لاقدم نسخة مؤرخة للكتاب.

ثم وقف عبد الوهاب عزام في مكتبة آيا صوفيا باسطمبول على نسخة تحمل تاريخ ٦١٨ هـ/١٢٢١ م فنشرها مع مقدمة نقدية في طبعة متقنة باخراج دار المعارف في مصر سنة ١٩٤١.

اما السنسكريتي فلا نعرفه الا بشذرات منثورة واشارات غامضة. واما الترجمة البهلوية فقد ضاعت منذ قرون ولم يبق في اصل هذا الكتاب المتشعبة فروعه في لغات العالم الا ترجمة ابن المقفع وترجمة سريانية نقلها عن الاصل البهلوي حوالي سنة ٥٧٠ اي قبل الترجمة العربية بنحو قرن ونصف، البرديوط «بون» وقد اكتشفها الاستاذ «سوسن» «Socin» في احدى مكاتب ماردين في منتصف القرن التاسع عشر فنشرها الدكتور «بيكل» «BICKELL» في ليبسيغ سنة ١٨٧٦ مع ترجمة المانية بيد انها لم تفقد الترجمة العربية شيئا من اهميتها.

وعلق بنسخة ابن المقفع النظام والمترجمون منذ القدم فعرفت اللغة العربية نحو عشرة شعراء قاموا بنظمها رجزا وقصيدا، من منظومة «ابان عبد الحميد اللاحقي»، معاصر ابن المقفع وصديقه ورفيقه في الاتهام بالزندقة، الى منظومات ابي سهل النوبختي وعلي بن داود وابن الهبارة، وابن مماتي وعبد المؤمن بن الحسن وجلال الدين النقاش، ولم يصل الينا كاملا من كل هذه المنظومات الا منظومة ابن الهبارة التي وفق الخوري نعمة الله الاسمر الى اكتشاف نسخة منها فنشرها سنة ١٩٠٠ في المطبعة اللبنانية ببعبدا وكان قد طبعها طبعة حجرية عن نسخة اخرى في بومباي سنة ١٣٠٤ هـ/١٨٨٧ م الشيخ غلام حسين بن المفسوح ثم منظومة النقاش التي تحفظ نسخة منها المكتبة الشرقية ببيروت.

– دائرة المعارف – بيروت لبنان الجزء الرابع –

والمخطوط موجود في المكتبة الوطنية بباريس كما اشرنا في المتحف البريطاني وفي المكتبة الوطنية بفيينة وفي مكتبة جامعة ليدن في مكتبة غوتا وفي المكتبة الوطنية ببرلين وفي المكتبة العامة بفرساي وفي مكتبة بودليان التابعة لجامعة اكسفورد وفي مكتبة جامعة كامبريج ، وفي مكتبة الفاتيكان والمكتبة الوطنية بمونيخ وفي المكتبة الشرقية لجامعة القديس يوسف.

الترجمات الاوروبية :

توجد ترجمة اسبانية لكتاب كليلة ودمنة وضعها خوسه انطونيو كوندي JOSE ANTONIO CONDE ١٧٦٥ - ١٨٢٠ .

وهو مستشرق اسباني متضلع من اللغة العربية نجد هذه الترجمة في مكتبة «اكاديمية التاريخ بمدريد» وهي مدرجة مع مؤلفات اخرى وضعها هذا المستعرب الاسباني تحمل هذا العنوان :
«Algunas traducciones del griego y arabe hechas por D. Josef Antonio Conde».

والترجمة الاسبانية لكتاب كليلة ودمنة تبتدئ في الصفحة ٧٨ وتنتهي في الصفحة ١٩٣ من المخطوط وانتهاؤها على هذا الشكل :
«Acabose de traducir del arabe este libro de la sabiduria indiana en 10 de Mayo de 1797. E-153, Sala 9 arm. 29 grada 5 5968».

اي «انتهت ترجمة هذا الكتاب من الحكمة الهندية عن النص العربي في ١٠ ايار ١٧٩٧ .

وقد اجمع المستعربون الاسبان والاجانب على أن هذه الترجمة الاسبانية مأخوذة عن طبعة «دي ساسي» العربية .

غير اننا نتساءل كيف كان ذلك اذا كانت الترجمة الاسبانية مؤرخة في عام ١٧٩٧ ولم تظهر طبعة سلفستر دي ساسي قبل عام ١٨١٦ اي بعد حوالي عشرين عاما من ظهور طبعة «كوندي» ؟

لقد شاؤا القول أن خوسه انطونيو كندي استعان لترجمته الاسبانية بأحد المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة باريس الوطنية ، وقد يكون المخطوط ذاته الذي استخدمه «دي ساسي» لاخراج طبعته عام ١٨١٦ .

ومن المعروف أن المكتبة الوطنية بباريس تضم المخطوطات التالية العربية من كتاب كليلة ودمنة :

١ – المخطوط العربي رقم ٣٤٦٥ تم شراؤه في القاهرة، ويرجع الى القرن الثالث عشر وهو مشكل من ١٤٦ ورقة مع رسوم بالألوان.

٢ – المخطوط العربي رقم ٣٤٦٦ عدد ورقاته ٣٤٥ ورقة مكتوبة بخط واحد ويظهر ان الناسخ انسان مثقف. ترك فراغا للرسوم التي لم توضع في امكنتها. وهذه النسخة اطول من سابقتها وقد تم شراؤها في حلب وسورية عام ١٦٧٣، ويرجع هذا المخطوط الى القرن الخامس عشر. امير المؤمنين ملك المغرب زار مكتبة «كولبر» في ٢١ كانون الثاني ١٦٨٢ واستعار هذا المخطوط وظل في حوزته ستة ايام، وعندما اعاده كتب عليه جملة بالعربية بخط يده.

٣ – مخطوط عربي رقم ٣٤٦٩، يرجع الى القرن السادس عشر، عدد ورقاته ٣٥٩ ورقة، وقد ترك مكان ابيض لتصوير الرسوم ولكن لم توضع فيها. نشاهد ملاحظات على الهامش دوّنها «جلبرت غولمين» «Gaulmin» ١٥٨٥ – ١٦٦٥ صاحبه السابق.

٤ – مخطوط عربي رقم ٣٤٧٢، تمّ شراؤه في حلب ايضا عام ١٦٧٣، وكان يخص مكتبة «كولبر» عدد ورقاته ١٦٦ ورقة مع رسوم، نسخ عام ١٠٨٠ هـ/١٦٦٩ – ١٦٧٠ م.

٥ – مخطوط عربي رقم ٣٤٧١ مؤرخ عام ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ – ١٦٤٤ م، عدد ورقاته ٤٢٩ ورقة.

٦ – مخطوط عربي مصدره مكتبة «سان جرمن دي بري» «Saint-Germain-des-Près» وقد اصبح في المكتبة الوطنية بباريس يحمل رقم ١٣٩، اوراقه كبيرة مزين بالرسوم، خطه جميل ولكنه غير كامل.

٧ – مخطوط عربي من مكتبة الفاتيكان رقم ٣٦٧.

وتحتوي الطبعة التي نشرها سلفستر دي ساسي ايضا على معلقة لبيد بالعربية والفرنسية.

– ظهرت طبعة انكليزية منقحة، نشرها المترجم «وندهام كنتشبول» «Knatchbull» تلميذ سلفستر دي ساسي وفي عام ١٩٠٥ اعيدت هذه الطبعة في رومة وقد قام بها تلامذة كنتشبول.

– ترجمة نروجية والمترجم هو «كريستوفر اندرياس» «Christopher Andreas» ١٧٩٦ – ١٨٨٢، وقد نشرت هذه الترجمة في «كريستيانا» «Cristiana» عام ١٨٨٠.

– طبعة المانية والمترجم هو «فليب ولف» ١٨١٠ – ١٨٩٤ وقد نشرت في شتوت غارت ١٨٣٧ بجزئين في مجلد واحد.

– طبعة ايطالية وضعها «ايغناسيو غويدي» ١٨٤٤ – ١٩٣٥، وقد عمد «غويدي» الى تنقيح نص سلفستر دي ساسي معتمدا على المخطوطات التالية:

– مخطوط مكتبة الفاتيكان.

– مخطوط مكتبة الآباء الموارنة اللبنانيين في دير القديس انطونيوس الكبير برومة.

– المخطوط الفلورنتيني في مكتبة «مدشيو – لورنتينا» «Medico-Laurentina» وقد جاء في هذه الطبعة نقد قيم لنص سلفستر دي ساسي كتبه «غويدي». «Guidy»

– ترجمة روسية عن مخطوط دي ساسي. والمترجم الى الروسية هو «اتاي» «Attaj» بعد أن راعى التصليحات التي ادخلها «غويدي» والتغييرات الظاهرة في طبعة خليل اليازجي ببيروت عام ١٨٨٤.

– طبعة ارجنتينية وقد جاء على الغلاف انها الطبعة الوحيدة باللغة الاسبانية ماخوذة عن العربية ويزينها احد وثمانون رسما.

لا بد من القول ان الترجمات التي ظهرت في مختلف هذه البلدان لكتاب كليلة ودمنة ليست كلها مأخوذة عن نسخة «سلفستر دي ساسي». «Sylvestre de Sacy»

الترجمة السريانية الثانية:

قد وضع هذه الترجمة الثانية بالسريانية راهب مسيحي مجهول عاش في القرن العاشر او الحادي عشر الميلادي ولا يوجد من ترجمته سوى مخطوط واحد معروف موجود في مكتبة «ترنتي كولدج» «Trinity College» في دوبلين ضمن مجلد يحمل عنوان: «Scientia mundana Syriac»، وقد اكتشفه عام ١٨٨٤ وليم وريت (١٨٣٠ – ١٨٨٩)، استاذ اللغة العربية في جامعة كمبردج. وقد ترجمه الى الانكليزية «جون غرانت نفيل كيت فلكنر» «Jon Grant Neville Keit-Falconer»

والمجلد الذي يحتوي النص السرياني مشكل من ٢٠٩ ورقات، يحتل منها ١٨٤ ورقة، الاولى والورقات الباقية تتضمن المقالات التالية:

– مجموعة من القصص والروايات على السنة الحيوانات تحمل اسم Fables of Josephus ولكن بالحقيقة من «ازوبوس» «Isopus»

– عدة اسئلة والغاز مع حلولها. وهي من أقوال فيتاغورس وغيره من الفلاسفة. ويرى البروفسور «وليم رايت» أو اوراق هذا المجلد المرقة من ١٦٠ الى ١٨٤ ومن ٢٠٠ الى ٢٠٧ ترجع الى اواخر القرن الثالث عشر، والباقي يعتبر من عصر متأخر. غير أن «كيت فلكنر» يفترض انها ظهرت في القرن الثامن بعد فترة قصيرة من تأليف ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة. وغيرهما يقول ان هذا المخطوط يرجع الى القرن العاشر او الحادي عشر الميلاديين، ويظن أن النص قد تلاعبت به ايدي كثيرة.

وقد قسم النص السرياني في هذا المخطوط الى خمسة عشر بابا تطابق الى حد بعيد الترتيب الذي خرج عن يدي «سلفستر دي ساسي» وهذا يعني أن النص الثاني السرياني مأخوذ مباشرة عن النص العربي لعبد الله بن المقفع.

والكاهن السرياني الذي يفترض انه صاحب هذه الترجمة السريانية الثانية لم يترجم النص العربي الاسلامي الذي وضعه أمامه، ترجمة أمينة تماما بل تصرف به فقد شاء اعطاءه صبغة مسيحية، والبرهان على ذلك تلك الاستشهادات الكثيرة والتلميحات والاشارات الى التوراة والكتب السماوية المسيحية وقد استعمل عددا كبيرا من الكلمات العربية في ترجمته اللاتينية، وهذا يدل على أن الكاهن السرياني هو عربي اللسان وقد تعلم اللغة السريانية ليدرس التوراة وبعض النصوص اليونانية عند آباء الكنيسة المحفوظة باللغة السريانية فقط.

ورغم الاخطاء الكثيرة الظاهرة في هذه الترجمة فانها تعتبر ذات قيمة كبيرة في دراسة كليلة ودمنة، لأنها من أقدم النصوص القريبة من النص العربي لابن المقفع.

وقد ترجم الورقات الاولى من هذا المخطوط الى الانكليزية وليم وريت W. Wright ثم بعد عشر سنوات نشر النص الانكليزي كاملا تحت عنوان:

«The book of Kalilah and Dminah, transleted from arabic into Syriac. Ed. b. W. Wright... Oxford, Clarendon Press, 1884».

ثم ما لبث «كيت فلكنر» بناء على اقتراح «ورايت» ذاته أن وضع ترجمة انكليزية مأخوذة عن النص السرياني طبعت عام ١٨٨٥ في جامعة كابردج، وقد جاء فيها ما يلي:

«Kalilah and Dimnah, or the Fables of Bidpai: being an account of their literary history, with an English translation of the later Syriac version of the same, and notes, by, I.G.N. Keit Falconer... Cambridge, University Press. 1885».

الترجمة اليونانية :

واضع هذه الترجمة «سيمون سيت» ، طبيب وكاتب بيزنطي ، عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، شغل منصبا هاما في بلاط امبراطور القسطنطينية على عهد ميخائيل السابع ١٠٧١ – ١٠٧٨ . له كتاب ادوية مأخوذ عن جالينوس والعرب ، وقد ترجم الى اللاتينية ونشر بهذه اللغة في باسيل عام ١٥٣٨ ، ١٥٦١ .

ومن المعروف عن سيمون سيت انه ترجم عن العربية الى اليونانية كتاب كليلة ودمنة عام ١٠٨٠ استعان بنسخة عربية عن ترجمة ابن المقفع التي لم تكن قد تلاعبت بها الايدي واضيفت اليها الحواشي والملاحظات . وعلى ما يبدو انه وضع النص اليوناني بناء على طلب الامبراطور « الخه الاول كومنينه » «Alejo I Comneno» واهداه اليه . وقد بدل الاسماء العربية باسماء خيالية خرجت من مخيلته فقد سمى «كليلة » « ستفانتس » «Stephanites» ومعناه « المكلل » ، و « دمنة » سماه « الباحث » «Ichnelates» وقد يكون ترجم اسم العلم «كليلة » القريب جدا من « اكليل » فجاء المكلل و « دمنة » من « دمن » وقد ترجم النص اليوناني لكليلة ودمنة «Stefanites kai Ichnelates» الى الايطالية واللاتينية والالمانية والروسية والسربية والكرواتية والبلغارية .

مخطوطات هذه الترجمة اليونانية عديدة جدا اشهرها :

١ – المخطوط الموجود Gimnasio Johannem هامبورج .Hamburg
٢ – المكتبة الوطنية فيينا رقم CCXXXV وآخر في مكتبة اوسبرج Ausburg
٣ – مكتبة جامعة اوبسالا رقم XLIX
٤ – مخطوط مدرج في المجلد رقم ١٧٨ في مكتبة امبروسينا Biblioteca Ambrosiana بميلانو
٥ – مخطوطان موجودان تحت رقم XXX و XIV في مكتبة Medico Laurencia
٦ – في فلورنسة .
٧ – مخطوط في مكتبة ليون
٨ – مخطوط يحمل رقم ٧٠٤ في مكتبة الفاتيكان .
٩ – مخطوط رقم ٢٠٩٨ Vaticanus graecus مؤرخ في رومة عامة ١٦٢٩
١٠ – مخطوطات في مكتبة بودليان من جامعة اكسفورد رقم ١٣١ ورقم ٨ و ٢٧٢

١١ – مخطوط رقم ٩٩ موجود في مكتبة بودابست.
١٢ – مخطوط رقم ١٣٦٥٠ في المكتبة الوطنية بفيينا وهو من القرن الخامس عشر
١٣ – مخطوط رقم ٦٩٢ في المكتبة الوطنية بباريس
١٤ – مخطوط رقم ١٢٣٣ في المكتبة الوطنية بباريس ايضا يرجع الى القرن التاسع عشر. كما ضمت هذه المكتبة مخطوطات اخرى لهذا النص اليوناني غير كاملة.
١٥ – مكتبة الاسكوريال رقم ١٣٧، ٢٧٣
١٦ – مخطوطات في اديرة جبل اثوس
١٧ – مخطوط رقم ٣٩٧ في مكتبة «بيربون مورغان «Pierpon Morgan» نيويورك»
١٨ – مخطوط في مكتبة «سينودال» «Sinodal» بموسكو.

وقد فاتنا ذكر الكثير من مخطوطات هذه الترجمة اليونانية عن العربية.

الترجمات اللاتينية:

عندما كان الراهب اليسوعي الفرنسي «بيار بوسين» «Pierre Poussines» (١٦٠٩ – ١٦٨٦)، يقلب مخطوطا يونانيا يتضمن تاريخ الامبراطور ميخائيل الثامن وجد اشارة تقصد كتاب «Stephanites Kai Ichnelate» (كليلة ودمنة) كما رأينا. وتخيل له ان المسألة ترجع الى كتاب شهير لا يعرف عنه شيئا، فبحث ونقب حتى حصل على مخطوط يوناني في مكتبة «ليون اللتشي» Leon ALLACCI لم يطبع، وقد فقد هذا المخطوط الذي يتضمن الترجمة اليونانية التي خرجت عن يد سيمون سيت، فسر كل السرور بهذا المخطوط القيم ونقله الى اللاتينية كاملا واضاف الى الجزء الاول من تاريخ الامبراطور ميخائيل الثامن، ويشغل الصفحات من ٥٤٥ الى ٦٢٠، وعلى ما يظهر ان النص ليس كاملا اذ ان الراهب اليسوعي الغى بعض القصص التي يعتبرها مشينة بالاداب.

ولقد قيل ان طبعة «بوسين» اللاتينية خدمت «لافونتين» في بعض قصصه. ثم ظهرت طبعة لاتينية جديدة لهذا النص في مدينة البندقية عام ١٧٢٩ ويوجد في مكتبة الكونغرس الاميركي طبعة ظهرت في باريس عام ١٦٦٩ – ١٦٦٦ منشورة بمجلدين. وظهرت طبعة اخرى لاتينية في برلين عام ١٦٩٧ الى جانب النص اليوناني والمترجم هذه المرة هو «سبستيان ستارك» Sebastien Stark والترجمة مأخوذة عن النص اليوناني الذي وضعه سيمون سيت.

الترجمة الاسبانية :

تعتبر الترجمة الاسبانية لكتاب كليلة ودمنة اول مظهر من مظاهر النثر الروائي في اسبانية . امر بوضع هذه الترجمة الملك الفونسه العاشر الحكيم ، وهوولي العهد . النص الاسباني مـأخوذ رأسا عن النص العربي الذي نقله ابن المقفع عن الفارسية سنة ٧٥٠ . وقد ارسلت نسخة عن هذه الترجمة الى مملكة نبارة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر او في اوائل القرن الرابع عشر ومن هناك انتقلت الى فـرنسة واصبحت مصدر الترجمة اللاتينية «Liber Dine et Calile» والمترجم هو « ريمون دي بزيه » ويقول فيها : ان الترجمة الاسبانية جرت في طليطلة وقد اخذت عن نص عبراني . وهذا خطأ.

النص الاسباني لكتاب كليلة ودمنة موجود في مخطوطين بمكتبة الاسكوريال . يقع المخطوط الاول في ٩٤ ورقة مرقمة بالارقام الرومانية ، ويقول البعض ان هذا المخطوط يرجع الى اواخر القرن الرابع عشر وغيرهم الى منتصف القرن الخامس عشر ينقص هذا المخطوط المقدمة التي وضعها عبد الله بن المقفع وينقصه ايضا الكتاب الثاني عشر والثالث عشر، وينتهي على هذا الشكل :

«Aqui se acaba el libro de Calila e Dimna fue sacado de arabigo en latin e romançado por mandato del Infante Don Alfonso fijo del muy noble rey Fernando en la era de mil doscientos e noventa e nueve años».
El libro es acabado. Dio sea siempre loado.

هنا ينتهي كتاب كليلة ودمنة المنقول عن العربية الى اللاتينية ومنها الى الاسبانية بامر من الامير دون الفونسه ابن النبيل الكبير الملك دون فرنانده عام الف ومائتين وتسعة وتسعين » ، [سني الاسكندر] اي في عام ١٢٦١ م

والمخطوط الثاني الموجود في مكتبة الاسكوريال احدث من الاول وهو ايضا غير كامل عدد ورقاته ١١٩ مرقمة بالعربية واللاتينية والباقي من المجلد حتى ورقة ٢٢٣ يتضمن خارطة العالم للقديس ازدروس .

ويذكر المخطوط ايضا ان هذا الكتاب قد ترجم بناء على أمر الامير دون الفونسه . وقد جاء في خاتمته « انه قد نسخ يوم الخميس من اواخر ايام شهر نيسان عام ٦٦ ، في بلد الوليد بخط « غرسية دي مدينة » ، على ما يبدو ان النسخ جرى في القرن الخامس عشر» .

لا يتفق المخطوط الاول مع المخطوط الثاني من حيث ترتيب الفصول كما توجد جمل وعبارات ناقصة في الاول وفي الثاني .

وقد فقد مخطوط ثالث كما يقول الاخ مرتين سرمينته «Sarmiento» الذي عاش من سنة ١٦٩٥ الى سنة ١٧٧٢ ، في مذكراته ان احد الشارين اشترى حوالي عام ١٧٣٧ مجموعة من المخطوطات تخص رجلا اسمه « بنتوخه »«Pantoja» عالم حريص على المعرفة وشديد الفضول . ثم بيعت هذه المخطوطات في البرتغال ومن جملتها مخطوط بالاسبانية يحمل عنوان : «كتاب كليلة ودمنة منقول من العربية الى اللاتينية ثم الى الرومنسية بامر من ولي العهد الفونسه بن الملك الاعظم فرننده في عام ١٣٨٩ ، ويبتدئ المخطوط هكذا :

«Este libro de Calila e Dimna que fixiezron los sabios, de los exemplos y de las fablas que ficieron».

ويقول ان المخطوط مزين بالرسوم وفي نهايته ملاحظة تقول : « ان الراهب خوان غوالنسي الفرنسيسكاني كتب هذا المخطوط عام ١٤١٦ . وقد لاحظ المستعرب الاسباني « غاينغس » «GAYANGOS» منذ اللحظة الاولى ان تاريخ المخطوط خطأ اذ انه بدل ان يكون ١٣٨٩ ، هو ١٢٩٨ ، اذ انه يجب ان نحذف ٣٨ سنة حتى يكون التاريخ الحقيقي ١٢٥١ وفي هذا العهد كان الملك الفونسه العاشر الحكيم ما زال ولي العهد...

وقد تبين فيما بعد ، عندما قوبل النص العربي الذي وضعه ابن المقفع مع النص الاسباني ان هذا الاخير مأخوذ رأسا عن العربية دون توسط اللاتينية ، حتى ان المستشرقين ، لما وجدوا ان هذه الترجمة الاسبانية ترجمة حرفية صرفة عمدوا الى اعادة ترجمة النص العربي الاصيل الذي افسدته ايدي الخطاطين الناسخين.

وقد ذهب البعض الى الظن انه اذا وجدت فعلا هذه الترجمة اللاتينية الوسيطة فانها لم تستخدم الا لتسهيل الترجمة الاسبانية . واذا كان الامر كذلك فان هذه الترجمة تكون واحدة من تلك المسودات الاولية السابقة للنص النهائي الاسباني وقد كثرت على عهد الفونسه العاشر الحكيم.

الطبعات الاسبانية :

طبعة « غاينغس » وتقول :

«Calila e Dymna, de Abdallah ben Al-Mocaffa[c]. Ed. Por Pascual de Gayangos y Arce (Madrid 1860)».

وقد اخذت عن المخطوطين الموجودين في الاسكوريال وهي مطابقة تمام المطابقة للنص العربي الذي نشره سلفستر دي ساسي عام ١٨١٦ .

ويقع النص الاسباني في ثمانية عشر بابا ولا نحسب المقدمة لانها غير موجودة في النص في المخطوط وقد أضيف بابان موجودان في النص العبراني والنص اللاتيني الذي وضعه Juan de Capua وهما السابع عشر والثامن عشر.

وقد ظهرت طبعات حديثة في اميركا اللاتينية بالارجنتين عام ١٩٤١ ، قرطبة والناشر هو خوسه غرايب «JOSE GURAEEB»

وطبعة اخرى في بونوس ايرس عام ١٩٤٨ اسم الناشر « البرته فرنكو »

وطبعة اسبانية اخرى في اسبانية وضعها فدريكو ساينس دي روبلس مدريد عام ١٩٤٥ .

طبعة ريمون بيزيه اللاتينية :

لا نعرف عن هذا الرجل سوى ما كتبه عن نفسه في المقدمة والاهداء في اول كتاب كليلة ودمنة ، وهي معلومات لا تسلط سوى اضواء شاحبة ، غير ان سلفستير دي ساسي وليوبولد هرفيوHervieux وغسطون باري Gaston Paris خصصوا له بعض الصفحات .

ريمون دي بيزيه فرنسي من مدينة بزيه ، وقد كتب ذلك عن نفسه في اهداء الكتاب الى الملك فليب الرابع الجميل ، ملك فرنسة ونبارة وهذا ما جاء في الاهداء :

«Christianissimo, devoto serenissimo que principi .pugili, defensori ac columnae sancte Ecclesie et fidei orthodoxe domino suo, domino Philipo, divina providentia benedicti et a Deo confirmati, regni Francie regi illustri, Raymundus de Biterris, physicus, de dicto regno oriundus, ejusque subditus et fidelis cum sui recomendatione humili et devote, presens opusculum et devotum in omnibus famulatum».

اعطى ذاته لقب طبيب ولكن لا يظهر في ترجمته اي أثر لمعرفته الطب . اشتاق الوصول الى الملك والبلاط . غادر مسقط رأسه واستقر في باريس ، ووجد الفرصة سانحة عندما وصل الى اسماعه ان احد رجال الاكليروس او الاشراف اهدى الى الملكة «حنة النبارية» زوجة الملك فيليب الرابع نسخة اسبانية عن كتاب كليلة ودمنة ، جيء بها من قشتالة «اسبانية» . وقد اشتهرت هذه الملكة بحماية الفنون والاداب وباهتمامها بالمخطوطات من أي نوع كانت . وقد احبت قراءة كتاب كليلة ودمنة لما بلغها عنه من الاشادة به ولكنه لم يتيسر لها لانها تجهل اللغة التي كتب بها ، فطلبت الى احد الاشراف ان يبحث عن شخص يترجم الكتاب الى اللاتينية . فلجأ الى ريمون دي بزييه الذي بلغه عنه انه راغب في الوصول الى البلاط . فتكون الوصية لم تصل

اليه مباشرة من الملكة على الاقل كما يقول في المقدمة والاهداء. وكان قد ترجم قسما لا يستهان به من كتاب كليلة ودمنة لما بلغه خبر وفاة الملكة في ٢ نيسان ١٣٠٥ ، فتوقف عن العمل بعض الوقت لانه كما يقول : الم به حزن شديد. ثم قرر المضي في الترجمة لاهدائها الى الملك يقول في هذه المقدمة :

«Librum quem tempore illustrissime domine Johanne bone memorie, Dei gratia regine Francie et Navarre tunc viventis, dotate tribus donis anime, et quatuor dotibus corporis, anima cujus cum sanctorum gloria requiescat, at cujus titulum et honorem tranferre inceperam de lingua hispanica in latinum, quem librum tunc inceptum, usque nunc pretermissum, desolatus propter prefate generose obitum, translationem quam tunc inceperam pretermisi. Et quia bonum principium absque bono fine a sapientibus non laudatus, ideo proposui et elegi jam librum preficere et complere ad ejus requisitionem».

ثم استأنف ريمون عمله ، يريد الوصول الى البلاط مهما كلف الامر. فرأى ان هذه الترجمة اذا وصلت الى يد الملك فلا بدّ سائل عن صاحبها ، وقد يدعوه للمثول في حضرته وعندئذ يطلب منه ما يريد.

انتهى من ترجمة كتاب كليلة ودمنة بعد ثمانية اعوام من وفاة الملكة حنة النبارية. فكتب النسخة بخط جميل وزينها بنمنمات واضاف اليها اشعارا وحكما وامثالا لا توجد في النص الاسباني ، وغرضه القدوم الى الملك فيليب الرابع بعد انتهاء الاعياد التي تجرى في باريس بمناسبة العنصرة عام ١٣١٣. ولكن النسخة لم تصل الى يد الملك فيلب الا بعد ٢ كانون الاول ، غير ان الملك توفي في تشرين الثاني ١٣١٤ اي بعد بضعة اشهر من استلام النسخة. لم يعثر لهذا المترجم على اي اسم له في سجلات البلاط والتاريخ يذكره في مخطوطين موجودين في المكتبة الوطنية بباريس يحملان رقم ٨٥٠٤ و ٨٥٠٥ في خزانة المخطوطات اللاتينية.

المخطوط رقم ٨٥٠٤ من الحجم الصغير مؤرخ عام ١٣١٣ ويبتدئ في الورقة العاشرة حتى يصل الى الورقة ١٦٩ وينتهي بها على هذا النحو:

«Explicit capitulum de «Dina et Calila», translatus et completus per Raimundum de Biterris, physicum, de Ydiomate Hspanico in latinum, anno Domini millesimo CCCXIII, inpreclaro et excellenti festo Penthecostes».

وقد زينت الصفحات الاولى سبع نمنمات.

والمخطوط الثاني رقم ٨٥٠٥ من الحجم الصغير ايضا عدد ورقاته ٢٠٨ يقسم الى قسمين : الاول تظهر فيه المقدمة والاهداء وفي الثاني يوجد النص.

وقد اجرى عليه دي ساسي وهرفيو «HERVIEUX» ودي ليل Deslile وغاسطون باري Gaston Paris دراسات توصلوا بها الى نتيجة وهي ان الترجمة اللاتينية التي قام بها ريمون بيزييه مأخوذة في قسمها الاول عن كتاب كليلة ودمنة الاسباني المترجم عام ١٢٥١ ، والقسم الثاني مأخوذ عن مخطوط لاتيني اسمه «Directorium» وضعه يوحنا من كابوا. وقد فسرت الطريقة على النحو التالي :

شرع ريمون في الترجمة عن المخطوط الاسباني ولم يدر ان هناك ترجمة لاتينية وضعها «يوحنا من كابوا». وعلى ما يظهر انه عند وفاة الملكة حنة النبارية عام ١٣٠٥ اضطر ريمون الى اعادة المخطوط الاسباني الى صاحبه دون تكملة الترجمة لفرط الحزن الذي اصابه من وفاة الملكة لانه كان قد علق عليها كل آماله في الوصول الى البلاط ، غيران الصدفة وضعت بين يديه المخطوط اللاتيني ليوحنا الكابوي J. de Capua ، جيء به من ايطالية الى البلاط البابوي في «افنيون» عام ١٣٠٩ . ولمّا كان مصرا على رغبته في التقرب من البلاط الملكي انجز الترجمة عن الترجمة اللاتينية ، ابتدأ من الفصل الخامس حيث يلاحظ انه استعان استعانة كبرى بنص يوحنا الكابوي مبدلا بعض الكلمات.

وقد استرعت هذه الترجمة انتباه المستشرقين منذ ان اكتشفها سلفستر دي ساسي في اوائل القرن التاسع عشر ، فقد اعتقد هؤلاء انهم يجدون فيها اداة وصل بين الكتاب البهلوي الآتي من الهند والادب الروائي في الغرب. ولكن خاب ظنهم فالترجمة المأخوذة عن الاسبانية فاسدة ، والقسم الآخر منحول عن الترجمة اللاتينية ولذا لم يعره عصره اي اهتمام ، واذا كان له بعض القيمة فهي راجعة الى انه قدم معلومات مفيدة عن نص كليلة ودمنة الاسباني.

وقد انتقد «هرفيو» ترجمة ريمون انتقادا لاذعا ، فقال عنه انه لم يخلص في الترجمة ولا يعرف اللغة الاسبانية وانه نسخ الترجمة اللاتينية دون ان يذكر اسم المترجم.

ويؤكد «هرفيو» من ناحية اخرى ان المخطوط رقم ٨٥٠٤ لا يتضمن ترجمة ريمون دي بيزييه بل ان يدا اخرى حورت النص وادخلت فيه تعديلات غريبة عنه ، قد تكون يد راهب عالم شاء ان يجعل من كتاب كليلة ودمنة مؤلفا مفيدا لتعليم وتهذيب الاخلاق المسيحية.

ترجمة يوحنا الكابوي اللاتينية Directorium

ان لهذه الترجمة اهمية كبرى في التطور التاريخي لكتاب كليلة ودمنة اذ ان الترجمات الاخرى

الاوروبية استقت من هذه الترجمة. فهذا الكتاب اللاتيني مأخوذ مباشرة عن نص عبراني وضعه «رابي جويل» والعنوان الكامل هو:

«Directorium humanae vitae, alias parabolae antiquorum sapientum».

واضع هذه الترجمة يهودي ايطالي اعتنق الديانة المسيحية واخذ اسم يوحنا الكابوي واقتبل سر المعمودية حوالي عام ١٢٦٥ ولا نعرف عنه سوى ماكتب في مقدمته لهذه الترجمة اللاتينية. يقول انه يهودي المولد وانه بوحي من الباري تعالى اقتيد من ظلمات الديانة اليهودية الى الايمان الارثوذكسي. وبعد تنصره وجد ان الكثير من الكتب المرتبطة بالتاريخ المقدس والاخلاق والطب موجودة باللغة العبرانية ومن المفيد نقلها الى اللغة اللاتينية لتهذيب وتثقيف مواطنيه. ومن بين هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذي اهديت ترجمته الى الكردنال ارسيني، كما يقول في مقدمة الترجمة:

«Ad salutem et meritum anime, fortitudinem reverendi corporis et roborationem atque dierum productionem reverendi patris et domini Mathei, et apostolice sedis gratia tituli Sancte Marie in Porticu diaconi cardinalis, motus sum present opusculum in latina lingua interpretari».

وكان البابا اوربانوس الرابع ١٢٦١ - ١٢٦٤ قريبا لهذا الكردنال الذي رفعه الى الرتبة الكردنالية عام ١٢٦٢ وقد توفي في حادث وقع له في ليون عام ١٣٠٥ في اليوم نفسه الذي تتوج فيه اقليمندوس الخامس حبرا اعظم (١٣٠٥-١٣١٤).

وقد عرف عن يوحنا الكابوي انه وضع كتابين في الطب من تأليف اطباء من الاندلس، الكتاب الاول: «تيسير»، وهو للطبيب الاندلسي ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر المتوفي ١١٦٢م. والكتاب باللاتينية مهدى الى رئيس اساقفة براغا. اما الكتاب الثاني «Dietetica» تدبير غذائي. من تأليف موسى بن ميمون وقد اهداه الى البابا بنيفاسيوس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣)، وقد يكون عاش في رومة او في «فيتربه» «Witerbo» لانه اهدى كتابين الواحد للبابا والآخر للكردنال.

وقد جاء في المخطوط رقم ٢٢٣١٣ في المتحف البريطاني انه يتضمن ثلاث مقالات في الطب ترجمة يوحنا الكابوي تاريخ ١٣٠٠:

«Tanslatus arabico in latinum, per Magistrum Johannem de Capua, physicum medicum in romanae curia».

وهكذا نرى يوحنا الكابوي كان يعمل طبيبا لدى الكرسي البابوي.

تبتدئ ترجمة كليلة ودمنة الى اللاتينية بمقدمة طويلة ينبه فيها الى الطريقة التي يقرأ بها هذا الكتاب للاستفادة منه.

وقد انتشر كتاب كليلة ودمنة في اوروبة عن طريق هذه الترجمة اللاتينية فنقل منها الى الالمانية والاسبانية والتشكية والايطالية والانكليزية والفرنسية والدنمركية والهولندية.

تعرف ثلاثة مخطوطات لاتينية عن «Directorum» والثلاثة ترجع الى القرن الخامس عشر والناسخون المان:

١ – المخطوط رقم ١٤١٢٠ في المكتبة الاهلية بمونيخ وهو ضمن مجلد يحتوي على خمسة مخطوطات اخرى مؤرخ عام ١٤٤٤ ويقول:

«Directorum humanae unitae S. Parabolae antiquorum (indiae) sapientum (Calila et Dimna), Johanne de Capua interprete».

٢ – مخطوط المتحف البريطاني رقم ١١٤٣٧ مؤرخ في ١٩ تشرين الاول ١٤٧٠ وهو ضمن مجلد يحتوي على ٣١٤ ورقة يشغل الورقات من رقم ٦٢ الى ١٠٩ ومقسم الى ١٧ فصلا عنوان المخطوط:

«Liber parabolarum antiquorum sapientiae, ex lingua hebraica in latinam versus per Johannem de Capua».

٣ – مخطوط رقم ٦٤٨ من خزانة المخطوطات اللاتينية المشتراة حديثا في المكتبة الوطنية بباريس تملكه منذ ١٠ تشرين الثاني ١٨٩٧. وقد تم شراؤه في المانية، عدد ورقاته ١٠٨ وخطه يدل على انه من اواخر القرن الخامس عشر.

٤ – مخطوط موجود في مكتبة دوكال ولفنبوتيل «Bib. Ducal de Wolfenbuttel» ضمن مجلد يحمل رقم ٢٦٦٢ عام ١٤٤٧ ويقول ما يلي:

«Johannis de Capua libro parabolarum antiquorum sapientum nacionum mundi et vocatur liber belite et Deymne».

طبعات هذا المخطوط:

قديمة جدا ونادرة الوجود. ظهرت طبعة عام ١٤٨٩ دون ذكر المكان والتاريخ بالضبط.

– طبعة ظهرت عام ١٤٨٠، في المكتبة الوطنية بباريس نسخة منها.

– طبعة اخرى في استراسبورج حوالي ١٤٨٦.

توجد نسخة في مكتبة الكونغرس الاميركي في واشنطن.

ايزوبوس الجديد «Novus Aesopus»

يحتوي هذا المخطوط على ٢٨ قصة شعرية نظمها «برناندو بالبه» واقتبسها من كتاب كليلة ودمنة خلال القرن الثالث عشر. العشرون قصة الاولى منها ذات مصدر شرقي.

موجودة في مخطوطين: المخطوط رقم ٣٠٣ في المكتبة الوطنية بفيينا عدد ورقاته ١٦٦ ورقة والكتابة هي من القرن الرابع عشر. المخطوط رقم ٢١٢ في فيينا ايضا ولكن في مكتبة دير سانتا كروس «Heiligenkreuz»

شخصية «برنرده بلبه» شبه مجهولة، يقال انه كان كاتبا ايطاليا البعض يظن انه عاش في القرن الثاني عشر والبعض الآخر في القرن الثالث عشر. يقال عنه ايضا انه كاتب قصصي لومباردي ولد في «بافية» وتوفي عام ١٢١٣ وكان ايضا قاضيا وشاعرا واخيرا سيم اسقفا على فاينتزا «Faenza» وقد نالت قصصه الشعرية شهرة واسعة في القرون الوسطى كما يشهد ريمون بيزييه في ترجمته اللاتينية التي اشرنا اليها.

طبعات هذا الكتاب:

ظهرت طبعة في باريس عام ١٨٥٤ جاء فيها:

«Poésies inédites du Moyen Age précédées d'une histoire de la fable esopique».

الفصل السادس

ترجمات من العربية الى اللاتينية في اسبانية

هرمان الكرنثي (HERMANN DE CARINTIA)

لكي نستطيع ان نتتبع خطى المدرسيين في اسبانية علينا ان نعرف الينابيع التي استقوا منها العناصر الاساسية وحوروا فيها وبدلوا قليلا اوكثيرا ، اذ لا بد من توقية هذه الغرسة الطرية العود التي اودعوها التراب .

اول تأليف يعول عليه هو الكتاب الذي وضعه «غندسلبه» على غرار التآليف العربية ، عنوانه : «De processione mundi» غير انه لم يدرس الدرس الوافي ولم يكشف عن المواد التي استعارها من العرب والمواد المبتكرة . والمصادر ذاتها التي استقى منها لم تدرس درسا كافيا اذ ان البعض منها ما زال على شكل مخطوطات ، ومن الواضح ان جهل المصادر لا يساعد على تقدير التأليف حق قدره .

وقد رأى الاب الونسه الونسه ان ينشر كتابا من تأليف «هرمان الكرنثي» ، عنوانه «De essentiis» في «الماهيات» . سبعة عشر مقطعا نقلها «غندسلبه» حرفيا عن هرمان الكرنثي ، وليس ذلك فقط بل اخذ عنه جملا صغيرة وبعض الافكار المصاغة بقالب جديد .

هرمان هذا يسمى ايضا «هرمان الدلماتي» و«هرمان الصقلبي» و«هرمانوس الثاني» ، كلها اسماء متعددة لشخص واحد ، غير انه يختلف عن «هرمان كونتركتوس» «المقفع» الذي جئنا على ذكره وهو راهب من «ريشنو» عاش من عام ١٠١٣ الى ١٠٥٤ ، ويختلف ايضا عن هرمان الالماني .

مستعرب عاش في القرن الثالث عشر على عهد الملك الفونسه العاشر الحكيم واصبح فيمَا

بعد مطرانا على «استرغة» ١٢٦٦ - ١٢٧٣ ، اما هرمان الذي نحن بصدده فقد نشط في اعماله من عام ١١٣٦ الى ١١٦٠ .

ترجم هذا المستعرب كتابا لابي معشر البلخي عنوانه :

«Introductorium in Astronomiam Albumasaris Abalachi»

وقد اسقط من النص العربي مقاطع اعتبرها قليلة المنفعة واضاف مقاطع تصورها اكثر فائدة وقد توصلنا الى معرفة مسقط رأسه من بعض المقاطع التي اوردها فقال :

... Histrie tres partes maritinia et montona: in medio patria nostra Carinthia.

ومن المفيد بالنسبة لنا معرفة موقع «قرنثية» وهل استطاع فيها ان يتعلم اللغة اليونانية منذ الصغر.

كتب رسالة «تيري دي شارتر» «Thierry de Chartres» وارسل له نسخة عن «Planispherium» كان قد ترجمه في السنة الماضية. ونعرف ان هرمان الكرنثي كان تلميذ هذا المعلم الشهير ولكن لا ندري مدة دراسته معه واين؟ هل في باريس ام في شارتر؟. وعلى كل حال فان الواقع يكشف لنا عن مذهبه العلمي الافلاطوني ثم وافقه مع التعليم الارسطاطاليسي العربي.

لم تكن العلوم التي تقدمها مدرسة شارتر كافية لاشباع نهم هرمان العلمي وتشوقه الى المزيد من المعرفة ، فانصرف الى المصادر العربية الفلسفية والعلمية وقد شغف بنوع خاص بالهندسة وعلم الفلك.

وما اطل عام ١١٣٨ حتى اصبح هرمان الكرنثي يجيد العربية بحيث يستطيع ان ينقل عنها كتاب «الكتاب السادس في علم الفلك» «Liber sextus Astronomiae» ولا شك في انه تعلم العربية لمّا قدم الى اسبانية عام ١١٣٦.

وفي عام ١١٤١ عثر عليه الآباتي بطرس الموقر على ضفاف نهر الابره بصحبة «روبرت الرتيني» ، صديقه الحميم.

والكتاب الذي وجهه الاباتي بطرس المحترم الى القديس برناردس يطلعنا على الكثير من المعلومات التي تفيدنا في التعرف عليه.

اعطاه المحترم لقب «Scholasticus» يعني «معلم» بكل معنى الكلمة ، ليس لقبا شرفيا بل انه لقب حقيقي «ماجستر» ، ومركز التعليم ولا شك في طليطلة لانه ليس من المعقول ان يمارس

هرمان وروبرت التعليم على ضفاف نهر الابره واذا وجد هرمان هنالك فمّا ذاك الا لقضاء فترة الصيف.

كان روبرت الرتيني عام ١١٤٣ يحمل رتبة «رئيس شمامسة» في «بنبلونة» كما يقول الآباتي بطرس الموقر، ثم نشاهده في انكلترة بينما يتوجه هرمان الى ايطالية ويظهر اولا في «سلرنه» ثم في جزيرة «صقلية».

وقد وضع «هاسكينز» «Haskins» جدولا بالمؤلفات التي خرجت عن يد هرمان القرنثي وتسرب الشك الى صحة نسبتها اليه.

١ – في عام ١١٣٨ «Zaelis Fatidica» او Liber sextus Astronomiae

وقد جاء في بعض المخطوطات:

«Explicit Fetidica Zael Baubinxeir Caldei, translatio Hermani Astronomiae libri. Anno domini 1138 3° Kal. octobris translatus».

٢ – ترجمة جداول الخوارزمي، ولقد شك بعض المؤرخين في نسبتها اليه

٣ – «Introductorium in Astronomiam Albumasaris Abalachi octo continens libros».

«كتاب المدخل الكبير الى علم احكام النجوم» لابي معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، يوجد طبعتان لهذا الكتاب في مدينة البندقية. وقد عدل هرمان عن ترجمة بعض المقاطع ومن ناحية اخرى اضاف مقاطع وفصولا كاملة.

4 - De generatione Mahumet et nutritura ejus quam transtulit Hermannus Sclavus scholasticus subtilis ingeniosus apud legionem Hispaniae civitatem».

٤ – حياة محمد

5 - Doctrina Mahumet que apud Sarracenos magne auctoritatis est ab eodem Hermanno translata cum esset peritissimus utriusque lingue latine sclicet et arabice.

٥ – عقيدة محمد

وقد اشرنا الى هذين الكتابين في مكان آخر لمّا تحدثنا عن ترجمة القرآن الى اللاتينية في القرون الوسطى.

٦ – في اول حزيران عام ١١٤٣ اكمل ترجمة «خريطة القارات»

«Planispherium» لبطليموس والترجمة موقعة في «تولوسا» «TOLOSA» وقد ترجم «جوردين» هذه الكلمة بـ«تولوز» الفرنسية مع ان «تلوسة» مدينة في شمالي اسبانية وقد رد عليه «دوهيم» «DUHEM» قائلا : وقد جاء في هذا المخطوط الموجود في المكتبة الوطنية بباريس :

«Cette interpretation me parait en desaccord avec les témoignages que nous avons citées et qui nous montrent Hermann et Robert succesivement sur les bords de l'Ebre, à Pamplune, à Leon», mais toujours en Espagne.

الترجمة «كتاب جغرافيا في المعمور وصفة الارض» لبطليموس نقله من العربية الى اللاتينية «هرمانوس الثاني» ثم في مكان آخر يهدي الكاتب الى «تيري» ويصفه قائلا : «Theodorice diligentissime preceptor» رقم المخطوط ٧٣٧٧ كما انه يوجد مخطوط آخر يحمل عنوانا يختلف قليلا رقم هذا المخطوط ٧٣٩٩.

٧ – في الماهيات «De essentiis» وهو كتاب من تأليفه. توجد نسخة منه في اكسفورد رقم ٢٤٣ ونسخة في نابولي المكتبة الوطنية.

٨ – كتاب الامطار الذي وضعه «هرمانوس» «Liber Ymbrium quem edidit Hermannus»

٩ – شرح كتاب «اقليدس» يوجد منه في باريس مخطوط لاتيني رقم ١٦٦٤٦ ، وهذه الترجمة تختلف عن ترجمة جيرارده الكريموني وللكتاب اهمية كبرى في تاريخ الفلسفة الاسبانية.

١٠ – «Hermanni secundi de opere numeri et operis materia»

١١ – كتاب الدائرات ، وقد ذكره هرمان نفسه «Liber de circulis»

١٢ – الكرة لتيودوسيوس «La Sphaerica» ولهذا الكتاب ترجمة اخرى قام بها افلاطون التيفولي وجيرارده الكريموني.

١٣ – «De occultis» «في الامور الخفية» وهو في علم الفلك توجد منه مخطوطة في ديجون رقم ١٠٤٥ من صفحة ١٤٨ الى ١٧٢ ويبتدئ هكذا :

احكام النجوم... «Astronomiae judiciorum»

١٤ – في الاسطرلاب : توجد ثلاث مقالات عن الاسطرلاب في مخطوط «ميني مل١٤٣» Migne, Ml. 143 . الاولى وضعها «هرمان المقفع» مل١٤٣ ، ٣٨١–٣٩٠

الثانية من ٣٨٩ الى ٤٠٤ وقد نسبت الى «جربرت» GERBERT الذي جئنا على ذكره طويلا وقد اصبح فيمَا بعد البابا سلفستر الثاني (٩٩٩–١٠٠٣ مسيحية)، وهذا محتمل جدا والثالثة من صفحة ٤٠٥ الى ٤١٢ وتتضمن كلمات عربية كثيرة ويفترض ان كاتبها مستعرب قد يكون هرمان الكرنثي.

١٥ – ترجمة المجسطي: المقصود هنا ترجمة المجسطي من اليونانية الى اللاتينية نحو عام ١١٦٠ ويوجد من هذه الترجمة اربعة مخطوطات واحدها يقول:

«Translatus in urbe Panormi tempore Roggerii per Hermannum de greco in latinum».

ترجم في مدينة بلرم على عهد الملك روجير هرمان من اليونانية الى اللاتينية».

ومخطوط آخر في لوفين يقول:

«Hermannus iste astrologus fuit natus de Karinthia, non Contractus de Suevia, et transtu lit Almag...».

هرمان العالم الفلكي المولود في قرنثية وليس هرمان المقفع من المانية ترجم المجسطي.

ومن المعروف ايضا ان جيرارده الكريموني ترجم المجسطي بمساعدة المستعرب «غالب» في طليطلة يستهل هرمان الكرنثي كتابه «في الماهيات» الذي نشره الاب الونسه الونسه اليسوعي [1].

«Athlantidum, his diebus, me crebro murmure concitum gravis et: insuper aget admiratio... Nos ex additis nostris in publicam Minerve pompam prodeuntes... ex intimis arabum thesauris».

فهذه الاشارة الى المحيط الاطلسي والى خفق الامواج يحملنا على الاعتقاد ان المحلة التي عاش فيها والف كتابه هذا تقع على شواطئ المحيط الاطلسي في شمالي اسبانية ويعني ايضا انه كان يعلم في المجالات العامة وقد استقى التعاليم التي يعلمها للناس من الكنوز العربية الخفية: ولكن اين كان يعطي هذه الدروس!؟

من الصعب الاجابة على هذا السؤال ولكن من المرجح ان يكون ذلك في طليطلة.

لمّا كان هرمان الكرنثي قد ترجم لابي معشر كتاب «المدخل الكبير الى علم احكام النجوم» نسوق كلمة عنه.

(١) Herman de Carintia: De essentiis: P. Manuel Alonso Alonso. 1946 Universidad Pontificia, COMILLAS (SANTANDER).

ابو معشر البلخي

هو ابو معشر جعفر بن محمد البلخي ، وكان اولا من اصحاب الحديث ومنزله في الجانب الغربي بباب خراسان ، وكان يضاغن الكندي ويغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلسفة ، فدس عليه الكندي من حسن له النظر في علوم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له ، فعدل الى علم احكام النجوم ، وانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم لانه من جنس علوم الكندي . ويقال انه تعلم النجوم بعد سبع واربعين سنة من عمره . كان فاضلا حسن الاصابة ، وضربه المستعين اسواطا لانه اصاب في شيء خبره بكونه قبل وقته ، فكان يقول اصبت فعوقبت .

وتوفي ابو معشر وقد جاوز المائة بواسط يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

درس التاريخ العام واخبار الفرس خاصة حتى غدا اعلم الناس بسير الفرس واخبار سائر الامم ، كما يقول ابن صاعد الاندلسي ، وقد قرن علم النجوم بصناعة التنجيم وكان الى التنجيم اميل حتى شهر به خاصة . قال ابن صاعد الاندلسي : «عالم اهل الاسلام باحكام النجوم وصاحب التآليف الشريفة والمصنفات المفيدة في صناعة الاحكام وعلم التعديل» .

يروي ابن خلكان هذه القصة : «ان ابا معشر كان متصلا بخدمة بعض الملوك وان ذلك الملك طلب رجلا من اتباعه واكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه . فاستخفى . وعلم ان ابا معشر يدل عليه بالطرائق التي يستخرج بها الخبايا والاشياء الكامنة . فاراد ان يعمل شيئا لا يهتدي اليه ويبعد عنه حدسه ، فاخذ طستا وجعل فيه دما ، وجعل في الدن هاون ذهب وقعد على الهاون اياما . وتطلب الملك ذلك الرجل وبالغ في التطلب . فلمّا عجز عنه احضر ابا معشر وقال له : «تعرفني موضعه بمَا جرت عادتك به فعمل المسألة التي يسخرج بها الخبايا وسكت زمانا حائرا . فقال له الملك : «ما سبب سكوتك ؟» قال : ارى شيئا عجيبا . فقال : وما هو؟

قال : ارى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم ولا اعلم في العالم موضعا من البلاد على هذه الصفة .

فقال له : اعد نظرك ، وغير المسألة وجدد اخذ الطالع .

ففعل ثم قال : «ما اراه الا كما ذكرت» . وهذا شيء ما وقع لي مثله .

فلمّا ايس الملك من القدرة عليه بهذا الطريق ايضا ، نادى في البلد بالامان للرجل ولمن

اخفاه، واظهر من ذلك ما وثق به. فلمّا اطمأن الرجل، ظهر وحضر بين يدي الملك. فسأله عن الموضع الذي كان فيه، فاخبره بمَا اعتمده. فاعجبه حسن احتياله في اخفاء نفسه ولطافة ابي معشر في استخراجه.

واتصل ابو معشر بالموفق اخي المعتمد فاتخذه منجما له. وكان معه في محاصرته للزنج بالبصرة توفي بواسط كما اشرنا وكانت وفاته بالصرع لانه كان يعتريه الصرع عند اوقات الامتلاءات القمرية. وكان مدمنا على الخمر مستهترا بمعاقرتها.

مؤلفاته:

تلك هي مؤلفاته كما ذكرها ابن النديم:

- كتاب المدخل الكبير: ثمانية فصول.
- كتاب المدخل الصغير.
- كتاب زيج الهزارات، نيف وستون كتابا.
- كتاب المواليد الكبير ولم يتمه والذي خرج منه: كتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه، خمسة فصول.
- كتاب الكدخداه.
- كتاب الهيلاج.
- كتاب القرانات كتب به الى ابن البازيار.
- كتاب تحاويل سني العالم، ويلقب بالنكت.
- كتاب الاختيارات على منازل القمر.
- كتاب الالوف: ثمان مقالات.
- كتاب الطبائع الكبير، خمسة اجزاء كذا جزأها ابو معشر: كتاب السهمين واعمار الملوك والدول، كتاب زائرجات والانتهاءات والممرات، كتاب اقتران النحسين في برج السرطان، كتاب الصور والحكم عليها، كتاب الصور والدرج والحكم عليها.
- كتاب تحاويل سني المواليد: ثمَان مقالات.
- كتاب المزاجات وكان عزيزا ثم وجد.
- كتاب الانواء.
- كتاب المسائل مجموع.

– كتاب اثبات علم النجوم كتاب جمعه وما اتمه اراد يسميه الكامل او المسائل.
– كتاب الجمهرة، جمع فيه اقاويل الناس في المواليد.
– كتاب الاصول وادعاه ابو العنبس.
– كتاب تفسير المنامات من النجوم.
– كتاب القواطع في الهيلاجات.
– كتاب المواليد الصغير مقالتان ثلاثة عشر فصلا.
– كتاب زيج القرانات والاحترافات.
– كتاب الاوقات على اثني عشرية الكواكب.
– كتاب السهام، يعني سهام المأكولات والملبوسات والمشمومات والرخص والغلاء والحكم على ذلك.
– كتاب الامطار والرياح وتغير الاهوية.
– كتاب طبائع البلدان وتولد الريح.
– كتاب الميل في تحويل سني المواليد.

وصلت الينا منها الكتب التالية:

١ – كتاب الالوف في بيوت العبادات، وهو في ثمانية ابواب مرتبة تاريخيا حسب الشعوب الحضارية الثامنية. نعثر عليه في المكتبة الوطنية بباريس رقم المخطوط ٢٥٨١.

٢ – المدخل الكبير الى علم احكام النجوم وهو في ثمانية ابواب نجده في: ليدن رقم ١٠٥١، المتحف البريطاني ٧٩٦٤، بودليانا ٢/٢٧٢، ٢٩٤، الاسكوريال ٩١٧، باريس المكتبة الوطنية ٥٩٠٢.

نقل هذا الكتاب الى اللاتينية مرتين الاولى حوالي عام ١١٣٠ والناقل هو يوحنا الاسباني والثانية حوالي عام ١١٥٠ والناقل هو هرمانوس الكرنثي، وقد طبعت هذه الترجمة في اغسبورج عام ١٤٨٩ تحت عنوان:

«Introductorium in astronomiam Albumasaris Abalachii octo continens libros partiales».

وقد طبعت ايضا في البندقية ويتحدث عن المد والجزر وهي ظاهرة لم تكن معروفة في اوروبة.

٣ – كتاب مواليد الرجال والنساء. وهو في التنجيم في ٢٤ قسما ٢ – منها للرجال ومثلها للنساء نجده في باريس المكتبة الوطنية رقم ٢٧١٨، برلين ٥٨٠١ – ٥٨٠٢.، طبع بعنوان

الكتاب في التمام والكمال بالقاهرة ١٢٩٠هـ.

٤ – كتاب الطوالع والنجوم: بودليانا ١١٤/١

٥ – كتاب القرانات في البروج الاثني عشر واتصالات الكواكب بعضها ببعض: باريس ٢٥٨٠/٣، بودليانا ٢٨٤/٢، الاسكوريال ٩٣٧. كتبه الى الفلكي المعروف ابن البازيار[1].

٦ – كتاب احكام تحويل سني المواليد، باريس المكتبة الوطنية ٢٥٨٨، بودليانا ٨٧٨/١، الاسكوريال ٩١٧. نقله الى اللاتينية يوحنا الاسباني تحت هذا العنوان:

«De magnis conjunctionibus et annorum revolutionibus ac eorum profectionibus octo continens tractatus».

٧ – كتاب اختيارات الساعات: المتحف البريطاني ٤٤٥ رقم ١٢.

٨ – كتاب النكت والاسرار: المتحف البريطاني ١١٢١٤.

٩ – كتاب السر لابي معشر البلخي: الاسكوريال ٩٣٨، يختلف عن كتاب اسرار النجوم في الاسكوريال رقم ٩١٨.

١٠ – اثنا عشر حكما فلكيا: بودليانا ٣٣٢ رقم ٤.

١١ – بغية الطالب في معرفة الضمير للمطلوب والطالب والمغلوب والغالب. طبع في القاهرة سنة ١٣١٦هـ. وطبع طبعة حجر في سنة ١٢٨٨هـ.

١٢ – معرفة النجوم وطبائع الناس: الامبروسيانا.

١٣ – مذكرات في علم النجوم وهي اجابات على اسئلة ابي سعيد شاذان: كمبردج ١٠٢٨.

١٤ – مختصر الاسرار: باريس المكتبة الوطنية ٦٦٨٠.

١٥ – رسالة في علم الاسطرلاب: المتحف البريطاني ٤٤٥.

١٦ – كتاب الملل والدول، الاعلام بشد البنكام، مرآة الايام، درجات الشمس: المتحف البريطاني ٧٧١٦.

---

١ – محمد بن عبدالله بن البازيار، عالم فلكي مقدم في صناعة النجوم تتلمذ لحبش بن عبد الله المروزي أحد أصحاب الأرصاد. ذكره ابن-النديم وسمى له من المصنفات كتاب «الاهوية» ١٩ مقالة، كتاب «الزيج» كتاب «القرانات»، وتحويل سني العالم. كتاب «المواليد» وتحويل سني المواليد.

١٧ – كتاب فيه جمل من دلالات الاشخاص العلوية.

١٨ – رسلاة في قرانات الكواكب في صور البروج ، في خمسة فصول : ولي الدين رقم بعنوان مزيف هو: «مصباح العلوم في احكام النجوم».

١٩ – الاصل في علم النجوم وسرائر الاسرار: القاهرة ٢٢٨/٥ ، بدايته في برلين ٥٧١١.

٢٠ – مسائل القمر: برلين ١٦١٧ رقم ١.

روبرت الكتنينسي Robert Ketenensis

جاء في اسماء عديدة ، فتذكر له المخطوطات اسم «روبرت الانكليزي» والرتينيسي والكتننسي تعلم اللغة اللاتينية في بلاده. تشوق الى المزيد من العلوم والمعرفة فعبر البحر واجتاز فرنسة وايطالية ودلماطية واليونان ووصل الى آسية وهناك عاش مع المسلمين ردحا من الزمن لاقى فيها ويلات حتى ان حياته تعرضت للخطر ، ولكنه توصل الى اجادة اللغة العربية ، فعاد الى بلاده مارًّا باسبانية مع احدهم اسمه هرمان الدلماطي الذي رافقه في رحلته فانصرف انصرافا تاما الى علوم النجوم. ونظرا لسمو معارفه رسموه رئيسا للشمامسة في بنبلونة.

اكتشفه الآباتي بطرس المحترم من رهبنة كلوني وطلب اليه ترجمة القرآن الكريم.

توفي ودفن في بنبلونة عام ١١٤٣.

قلنا انه اسهم في القسم الاكبر من ترجمة القرآن ووضع الاهداء للآباتي بطرس المحترم او الموقر ونقرأ في المخطوط رقم ٣٣٩٣ الموجود في المكتبة الوطنية بباريس هذه المقدمة :

«Explicit liber legis diabolicae sarracenorum qui arabice dicitur «Alchoran, id est collectio capitulorum seu preceptorum. Illustri gloriosimoque viro Petro Cluniacensi abbate precipiente suus angligena Robertus Retenensis librum istum transtulit anno Domini MCXLIII, anno Alexandri MCCCCIII, anno Alhigere DXXXVII, Anno Persarum DXI».

الترجمة : انتهى كتاب الشرائع الاسلامية التي تسمّى بالعربية «القرآن» اي مجموعة من الفصول او السور او الوصايا وقد ترجم هذا الكتاب روبرتوس رتنانسيس واهداه الى الممجد الافخم الآباتي بطرس من رهبنة كلوني عام ١١٤٣ مسيحية و١٤٠٣ من سني الاسكندر و٨٠٧ هجرية و٥١١ فارسية.

وقد ذكر «لكلرك» ملخص الرسالة التي وجهها روبرت الى الآباتي بطرس المحترم من رهبنة كلوني جاء فيها :

الى السيد بطرس بمشيئة الله ، رئيس عام رهبنة كلوني . انا روبرت احقر خدمه . لمّا كنت تبينت اهتمامكم الكبير الموقوف على عمل الخير دون سواه ورغبتكم الحارة في ان تجعل من مستنقعات المسلمين القاحلة ارضا خصبة وتنهل من موردهم وتدك اركانهم ، وانا الذي لست سوى الجندي البسيط من المشاة انصرفت بجد ونشاط الى شق الطرق وتعبيد الجادات ... وحتى الآن لم يهتم العالم اللاتيني اجمع ، ان عن جهل او عن كراهية ، في معرفة عدوه لمحاربته . لم تشأ عنايتكم الساهرة ان تستمر الحالة على هذا النحو. لقد تعرضت عبقريتي الضعيفة لصعوبات جمّة نظرا لقصر اللغة ولقلة معارفي . ومع ذلك فقد لبيت طلبكم . واذا لاموني ، وقد تكون الملامة عن حق ، بالتقصير من حيث السلاسة في المعنى والمبنى ، فليعلموا اني لم اشأ ان اغطي السم بالزهور وازين الامور التافهة المحتقرة . غير ان هذه العقائد الاسلامية رغم خطورتها ، تقر وتعترف في اكثر الاحيان بقداسة عقيدتنا . هذا ولم يغرب عن حكمتكم اني اهملت دراساتي في علم النجوم والهندسة .

وكما قال ، انه كان منصرفا الى علم الحساب والنجوم فقد ترجم كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي في شقوبية من اعمال اسبانية عام ١١٤٥ ، وكانت الترجمة اللاتينية الاولى للجبر والمقابلة ، وان كانت هذه الترجمة لم تبلغ منزلة الترجمة الاخرى التي حققها جيرارده الكريموني فيما بعد الا انها نالت شهرة كبيرة في القرون الوسطى .

وله مقالة اخرى في الاسطرلاب مؤرخة في لندن عام ١١٤٧ اعيد النظر فيها بعد عام ١١٥٠ .

وله جداول فلكية حسب توقيت لندن وطليطلة على اساس جداول الزرقالي والبتاني ، مفقودة .

وله شروح هلى جداول الخوارزمي التي ترجمها «اديلار الباثي» .

وقد عثر في مكتبة بودليان على ترجمة لمقالة في علم النجوم للكندي تحمل اسم «روبرت» الانكليزي ترجع الى عام ١٢٧٢ وهي لا شك نسخة عن الاصل .

في الكيميا :

نسب اليه كتاب «Turba gallica» مستوحى من «Turba philosophorum» وقد وضعه في تطيلة بين عام ١١٤٤ و١١٨٠ .

نسب اليه كتاب آخر في تركيب الكيميا «Liber de compositione alchemiae» طبع عام ١٥٥٩ و١٥٩٣ في باسيل من اعمال سويسرة ، وفي باريس عام ١٥٦٤ ، يقال ان هذا التأليف هو من خالد بن يزيد بن معاوية الحكيم من بني مروان وقد توفي في مصر عام ٧٠٨ .

ردولف البروجي

لا نكاد نعرف عنه شيئا سوى انه تلميذ هرمان القرنثي . وانه عاش في الربع الثاني من القرن الثاني عشر. نسبت اليه ترجمة «جغرافية المعمور وصفة الارض» لبطليموس ، وكان قد اشتغل على هذا الكتاب مسلمة المجريطي .

ولكن اذا لم يكن رودولف البروجي قد ترجم هذا الكتاب فانه قد ترجم كتابا آخر «مقال في الاسطرلاب» . يوجد في مكتبة «كتون» «Cotton» مخطوط جاء فيه :

«Descriptio‹cujusdam instrumenti cujus est usus in metiendis stellarum cursibus per Rodolphum Brugensem Hermani secundi discipulum».

هذا هو وصف الاسطرلاب الذي ترجمه رودولف البروجي واهداه لمعلمه هرمان الكرنثي وقد حصل خطأ في اسم هرمان اذ ان المخطوط يقول هرمان الثاني وهرمان الثاني هو المقفع ولا يمكن ان يكون هرمان الكرنثي او الاول .

والمخطوط المشار اليه اعلاه في مكتبة «كتون» هو ذاته الموجود في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ١٦٥٥٢ ، وقد نوه عنه جوردين ويشغل الورقة ٢٤ حتى الورقة ٢٨ .

يقول ابن النديم في هذا الكتاب : انه يقع في ثمان مقالات نقل للكندي نقلا رديئا ، ثم نقله ثابت بن قرة الى العربي نقلا جيدا ، ويوجد سريانيًا .

يبتدئ في هذا الكتاب بوصف الاسطرلاب وليس لهذا الكتاب خاتمة .

بقي ان نعرف فيمًا اذا كان هذا الكتاب منقولا عن العربية او انه منتخبات مجموعة من هنا وهناك . يتبين من وصف رودولف لهرمان انه يعرف العربية ، لانه جاء على ذكر اسم مسلمة المجريطي ، فان مسلمة بالفعل له مقالة عن الاسطرلاب موجودة في الاسكوريال رقم ٩٦٧ .

يمكن القبول بان رودولف البروجي سافر الى اسبانية ، ولكن من جهة اخرى يمكن ان يكون مسلمة قد وصل اليه من طريق آخر. ولكي نجد الحل لقضية الترجمة ينبغي مقابلة تأليف رودولف بالمخطوط الموجود في الاسكوريال. وبانتظار حصول هذه المقابلة يجدر القول ان رودولف ذكر اسم مسلمة الى جانب بطليموس وهذا لا يعني ان المشكلة قد حلت ، فمجرد ذكر الاسم لا يعني ان الذي ذكره يعرف العربية.

كما انه يجب القول ان مقالة الاسطرلاب التي وضعها مسلمة المجريطي كانت معروفة عند اللاتين.

هوغو سانتالا HUGO SANTALLA

لا يبدو ان هذا المترجم ارتبط مع مترجمي طليطلة بل انه سلك مذهبا مختلفا في مكان آخر من شبه الجزيرة الابرية. اهتم ايضا بالعلوم العربية في منطقة طراكونة مركز اساقفة اراغون منذ القديم. تبوأ كرسي الاسقفية آنذاك المطران ميخائيل في النصف الاول من القرن الثاني عشر، وبناء على طلب هذا الاسقف ترجم «هوغو سانتالا» «شرح ابن المثنى على الجداول الفلكية للخوارزمي» ونقل الشرح الى العبرية ابراهيم بن عزرا.

حفظت ثلاثة مخطوطات من الترجمة العربية الى اللاتينية التي وضعها «هوغو سانتالا» نجدها في مكتبة بودليانا ، رقم المخطوط ٣٤ ورقم ١٥ ، وفي مكتبة «غرونفيل «Gronville» التابعة لجامعة كامبريدج رقم ٤٥٦.

هوغو سانتالا معروف في الشمال الشرقي من اسبانية ففي مقاطعة «لك» «LUGO» توجد عشرون محلة تحمل هذا الاسم وكذلك في ليون واشتوريش.

اشتغل هذا المترجم تحت رعاية مطران طركونة «ميخائيل» الذي مارس وظيفته الحبرية على كرسي طركونة من عام ١١١٩ الى ١١٥١ وبالتالي سبق رئيس اساقفة طليطلة «دون ريمونده» في رعاية المترجمين اذ انه جلس على كرسي طليطلة عام ١١٢٥ الى عام ١١٥١.

يتبين لنا من المقدمات التي وضعها هوغو سانتالا لترجماته من العربية الى اللاتينية ان مطران طراكونة هو الذي حثه على عمله النقلي ، رغبة منه في الحصول على مؤلفات عربية ضخمة منقولة الى اللاتينية وهذا ما جاء في مقدمة ترجمة كتاب عنوانه باللاتينية :

«Liber imbrium ab antiguo Indorum astrologo nomine Jafar»

يقول :

«Qui ergo, mi domine antistes Michael, non solum compendiosa sed etiam certa et ad unguem correcte semper optare cognovi».

ولكن المقدمة التي اوضحت رغبة معلمه مطران طركونة هي التي تصدرت ترجمة ابن المثنى . فيقول لنا سانتالا باسلوبه اللاتيني الشيق : ان علم الفلك عند العرب وخاصة في كتاب الزيج او الجداول يهمل في كثير من الاحيان الاسباب او البراهين الخاصة بالقضية المطروحة . وهذا ما حدث في مؤلفات الخوارزمي الفلكية اذ انه يسترسل في الكلام عن الامور السهلة الادراك على العقل ويهمل تلك المواد العسيرة الفهم او يسكت عنها . ولمّا كان المطران ميخائيل قد طلب توضيح تلك النقاط الصعبة في علم الفلك ولمّا كان لا يستطيع ارضاء رغبته بذاته قرر ان يقدم له شرحًا لتأليف الخوارزمي مترجمًا الى اللاتينية . وقد عثر المطران ذاته على هذا الشرح باللغة العربية في مكان خفي من مكتبة «الروضة» فنقل هوغو سانتالا هذا الشرح الى اللاتينية في منطقة «الروضة» من اعمال طركونة TARRAGONA

وينهي المترجم هذه المقدمة مبينا عن استعداده لترجمات اخرى اذا طلبت منه مثل شرح الكندي للمجسطي .

وقد اشار هاسكينز HASKINGS الى نشاط هوغو في الترجمة وسجل له نقل كتاب «المائة» «Centiloquium» المنسوب الى بطليموس .

لا نملك معلومات تدل على ان هوغو ترجم شرح الكندي لكتاب الاربعة Quadripartium والمجسطي ، غير ان هوغو سانتالا ترجم كتابا منحولا لارسطو عنوانه .

«Liber Aristotelis de 225 Indorum voluminibus universalium questionum tam generalium quam circularium summan continens».

محفوظ في مخطوطين بمكتبة بودليان .

وترجم ايضا اربع مقالات عنوانها «De nativitates astrologicas» واحداها لـ«ما شاء الله» .

وترجم ايضا كتابا «لابي معشر» : «حول الآثار العلوية» ، موجود في عدة مخطوطات وقد طبع مرتين في البندقية عام ١٥٠٧ وفي باريس عام ١٥٤٠ .

كما انه الّف هوغو سانتالا كتابا في «ضرب الرمل» استعان بمصادر عربية ، كان له تأثير كبير

فيمَا بعد ، ويقول هوغو سانتالا انه اهمل التأليف في زجر الطير والفال والعيافة والقيافة ومعرفة ما تدل عليه النار والريح.

وقد عثر في دير قديم يقع في حي «سان جرمين دي بري» على ترجمة وضعها «هوغو سانتالا» عنوانها :

«Hermetis Trimegisti liber de secretis naturae et ocultis rerum causis ab Apollonio translatus».

«كتاب هرمس المثلث العظات في اسرار الطبيعة والامور الخفية واسبابها».

وهكذا فان جميع ما كتبه سانتالا موجه نحو علم الفلك وعلم النجوم ومختلف انواع علوم السحر والرقي والهيئة وجميعها معروفة عند الاقدمين وتلامذتهم العرب . ولا بد من القول ان كل هذا النشاط العلمي يتطلب سعة اطلاع كبيرة على المؤلفات العربية في هذه المواضيع . ولا شك ان هوغو سانتالا عثر على هذه المعلومات في مكتبة الروضة ، وحتى اليوم عندما نمر بسكة الحديد الممتدة من سرقسطة الى مدريد نشاهد على طول مجرى نهر «جلن» «JALON» آثار «قصر الروضة» في اعلى مرتفع يسيطر على غوطة «جلن» . وتقول لنا المعلومات التاريخية ان ملوك سرقسطة العرب ، بني هود ، يملكون قلعة وقد التجأ الى تلك القلعة آخر ملوكهم اسمه «عبد الملك» لمّا اقترب نصارى الملك الفونسه الاول المقاتل من سرقسطة لاجل احتلالها ، وقد سقطت سرقسطة فعلا بايدي النصارى عام ١١١٨ ، واضطر عبد الملك الى طلب مساعدة المرابطين ليدافعوا عنه ، فاقبل المرابطون وخلعوه عن ملكه ، فاعتزل في الروضة وهناك خلفه ابنه احمد عام ١١١٩ وسلم لالفونسه السابع قلعة «الروضة» لقاء بعض تنازلات في مقاطعة طليطلة و«اكستريمادورة» «EXTREMADURA»

ان ما يهمنا من كل هذا ان ملوك بني هود الذين ، على الاجمال ، احبوا العلم والمعرفة ، وخاصة علم الفلك كانوا يملكون مكتبة تضم مؤلفات في هذا الفرع من العلم . ولمّا سقطت سرقسطة في ايدي النصارى استولى هؤلاء على تلك المكتبة التي ضمّت ما يشبع نهم المطران من الكتب العلمية الفلكية . جرى كل هذا بعد سنوات قليلة من زوال سلطان بني هود في سرقسطة والروضة.

وممّا يدهشنا ويثير اعجابنا ان هوغو سانتالا لم يستعن باحد ، على ما نعلم ، في هذه الترجمات فلم يلجأ الى المستعرب او اليهودي كما لجأ غيره من المترجمين المعروفين في عصره . بل قام وحده بكل هذه الترجمات على وعي منه بثروة اللغة العربية وكثرة مفرداتها.

وعلى هذا النحو استحق هوغو سانتالا ان يوضع في مصاف المترجمين من العربية الذين اشتغلوا في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الابرية على وادي «الابره» في النصف الاول من القرن الثاني عشر، فقد سبق قليلا جماعة المترجمين في مدرسة الترجمة بطليطلة ، مثل «جيرارده الكريموني» و«دومنقه غنسلبه» و«يوحنا الاسباني».

اشتغل الى جانب «هوغو سانتالا» مترجم آخر هو «افلاطون تبرتينوس» «Platon de Tivoli» عمل في برشلونة مساعدا لابراهيم بر حجه البرشلوني ، و«روبرت كتينيسي» و«هرمان الدلماتي» ، شكلوا فريقا للترجمة في وادي الابره ، وعثرنا في بنبلونة على «رودولف البرجي» «Rodolphe de Bruges» تلميذ «Hugo» ، اشتغل في تولوز فهؤلاء جميعا لهم فضل كبير في ايصال العلوم العربية الى اللاتين.

ومن الميزات الاخرى التي تحلى بها سانتالا حنكته في استعمال اللغة اللاتينية لاقتبال البحر الزاخر من العلوم العربية. اشرنا الى مقدماته التي تميزت بحسن الصياغة والاسلوب الواضح ، فلا نجد عند هذا العالم اللاتيني القدير العارف باصول اللغة اللاتينية حق المعرفة ، تلك الكلمات العربية الكثيرة التي لم يحسن المترجمون الآخرون انتقاء الفاظ لاتينية لها ، كما شاهدنا في الترجمات الاولى لمقالات «العمل بالاسطرلاب» والدستور في مكتبة «سانتا مريا ربول» في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. وهذا واضح نظرا لعدم العثور في اللغة اللاتينية على تلك التعابير العلمية الجديدة ، فاضطر المترجمون الى ادخال الكلمات العلمية المستعارة من اللغة العربية واستعمال التعابير التقنية العربية ايضا.

والغريب ان هوغو سانتالا يستعمل دائما الكلمة «الجيب» «Aljeb» للدلالة على الكلمة اللاتينية «Sinus» في الهندسة. والمترجمون الآخرون امثال اديلار الباثي «Adelard of Bath» يكتفون بكتابة الكلمة العربية «امجيب» التي قد تكون مأخوذة عن الهندية «جيب» وتعني «Sinus» .

نرجع الى كتاب «شرح ابن المثنى على الجداول الفلكية للخوارزمي» المفقود في اصله العربي ولا يوجد منه سوى الترجمة اللاتينية والعبرية ، يجدر بنا ان نبلقي نظرة ولو عابرة على فحواه الفلكي والحسابي.

قد اعتاد المؤلفون الذين يضعون الجداول الفلكية ان يرفقوها بقوانين وشروح تساعد على فهمها واستعمالها. ويوجد عادة نوعان من هذه القوانين: الواحد مختصر يقتصر على تعليم استخدام الجداول وطريقة الحسابات الضرورية والنوع الآخر علمي ، لا يكتفي بتفسير طريقة

استعمال الجداول بل يصف الطرق المستعملة والاسلوب المتبع لتحسين وتكميل هذه الجداول. وهذه الطريقة الثانية العلمية تكشف بسهولة عن النظرية الفلكية التي سلكها المؤلف. ولكن عندما لا نستعمل هذه الطريقة العلمية بل نقتصر على استعمال الطريقة البسيطة للعمل بهذه الجداول، يجب الانصراف الى فحص ودراسة الجداول لاستخراج النظرية التي تنطوي عليها وهذه طريقة صعبة وليست موفقة في كثير من الاحيان.

تلك هي حالة جداول الخوارزمي وشرحها من قبل مسلمة المجريطي، وقد نشرها «سوتير» ولم يصل الينا منها سوى طريقة التعليم الصغرى. واكثر من هذا كله، وهنا الصعوبة الكبرى، ان اكثر الجداول المعمول بها في العالم الاسلامي تعتمد على نظرية بطليموس. ولكن جداول الخوارزمي تعتمد على الاسلوب الهندي وان كان يحتوي على نظرية فارسية واخرى بطليموسية. ولا نعجب بعد هذا اذا رأينا «سوتير»، في شرحه الطويل وتعليقه على جداول الخوارزمي يهمل بعض المسائل لانه عجز عن حلها، ولحسن النظر ونظرا للتوسع في معرفة علم الفلك الهندي حلت بعض تلك العقد وسلطت اضواء على غيرها. وقد ساعد على ذلك الاعمال التي حققها كندي في هذا القبيل[1].

وامام هذا الامر، ندرك الاهتمام الكبير في الحصول على شرح اوفى لقوانين الخوارزمي، ولم يصل هذا الشرح الى ايدينا ولكن عندنا تعليقات ابن المثنى المتضمنة جميع الشروح المطلوبة.

وقد ذكر ابن المثنى فقرات من كتاب الخوارزمي تختلف عن النص الذي اورده «سوتير» وتصف لنا هذه الفقرات كيف ركبت هذه الجداول وتعطينا الصيغة المستعملة لعملياتها الحسابية. وقد توسع فيها ابن المثنى وشرحها وبرهن في كثير من الحالات عن التسهيلات الحسابية التي ادخلها الخوارزمي لتسهيل العملية الحسابية ولكن ليست جميعها موفقة.

ان شرح ابن المثنى هو تعليمي بالاساس، فيكرر باستمرار الافكار ويقدم الكثير من الامثال لتسهيل الفهم بحيث ان شرحه عبارة عن كتاب علم الفلك يوضع بين ايدي المبتدئين في معرفة هذا العلم.

وبفضل ابن المثنى نستطيع حل اكثرية المشاكل المطروحة في جداول الخوارزمي والتثبت من عدة قضايا فيها. وسنقابل بين تأليف ابن المثنى والقوانين الموجودة في شروح مسلمة

---

(١) E.S. Kennedy, «A Survey of Islamic Astronomical Tables, Trs. A. Ph. S., Philadelphia 1956 V. 46 part. 2 p. 167».

للخوارزمي ، كما اننا ستتمكن من المقابلة بين شرح ابن المثنى وبين الجداول الطليطلية التي وضعها الزرقالي. ومن المحتمل جدا ان تكون الجداول الطليطلية مشتقة من جداول الخوارزمي نظرا للتأثير الكبير الذي مارسته هذه الاخيرة على الاولى وقد اثبت هذا التأثير اذ عثر بين جداول الزرقالي على جداول غير موجودة في زيج مسلمة المجريطي ولكن نعرف من ابن المثنى ان النص الاصلي العربي قد احتوى على هذه الجداول.

يبتدئ كتاب ابن المثنى بمبادئ تعريفية مثل تحديد التقاويم والتواريخ التي ضمها جدول الخوارزمي : وهي سنو يزدجرد آخر ملوك بني ساسان وسنو الاسكندر او السلوقي وسنو الهجرة. تلك هي السنون المستعملة الواردة في جداول الخوارزمي حسب سني يزدجرد التي تبتدئ في ١٦ حزيران ٦٣٢ مسيحية. وعندما اصلح مسلمة جداول الخوارزمي التي وصلت الينا ابدل سني يزدجرد بسني الهجرة المبتدئة في ١٥ تموز ٦٢٢ مسيحية. ثم يفسر الطريقة الانتقالية من تاريخ الى آخر والاسلوب المستعمل لتحديد اليوم او الاسبوع الذي تبتدئ فيه سنة او شهر معينان.

وبعد ذلك يبحث ابن المثنى في حركة الكواكب وطريقة الحصول على المواضع المتوسطة الموجودة في الجدول ويقول لنا الخوارزمي انه استعمل طريقة السند هند ، في الدلالة على موقع كل كوكب والشمس والقمر.

تأثير الترجمة اللاتينية لشرح ابن المثنى على الجداول الفلكية للخوارزمي :

ثلاثة مخطوطات فقط معروفة عن هذه الترجمة وهي في مكتبتي «كامبريدج واكسفورد» ، وهذا العدد الضئيل من المخطوطات لا يسمح لنا بالتمادي في الافتراض بان تأثير هذه الترجمة كان عظيما على الاقل بصورة مباشرة فانه في تاريخ ظهوره اي في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر كانت تجول في اوروبة اللاتينية جداول طليطلة او جداول الزرقالي ، ومن الصعب منافستها.

غير ان شرح ابن المثنى وترجمة هوغو سانتالا وجدت سبلا اخرى لفرض نفوذ كبير في اوروبة ، بفضل الاستشهادات الطويلة التي اخذها ابراهيم بن عزرا لمّا وضع تأليفه اللاتيني :
«Rationem tabularum astronomicarum»

فالتأليف هو نقد لجداول «بيسة» ، مؤرخ في انجيه (فرنسة) عام ١١٥٤.

ولم يكتف ابراهيم بن عزرا بالمنتخبات والاستشهادات التي اخذها عن ابن المثنى ، فقد

ترجم الكتاب الى العبرية لليهود. وهنا نتساءل الم يستعن ابن عزرا بترجمة هوغو سانتالا؟ بلا ريب لان ترجمة هوغو ظهرت قبل عام ١١٥١. ولذا فقد اختفى اسم هذا الاخير وحل محله اسم ابراهيم بن عزرا «Avenezra» كما ورد في النص اللاتيني، فقد نال تأليفه شهرة بين اليهود والنصارى معا كما ان رحلاته المتواصلة الى اسبانية وفرنسة وايطالية وانكلترة ونشاطه العلمي المتواصل من حيث نشر مؤلفاته وشروحه في كل مكان واستعمال اللغة اللاتينية في بعض تآليفه الفلكية ضمنت له شهرة واسعة ليس فقط في زمانه بل طوال القرون الوسطى المتأخرة حتى في عصر الانبعاث كما انه نقل بعض مؤلفاته بالعبرية الى اللغتين اللاتينية والرومنسية، وفي بعض الحالات نقل الرومانسي الى اللاتيني كما يقول شتانشنيدر في كتابه:

«Hebr. Uebersetzungen p. 869»

«ان مؤلفات ابراهيم بن عزرا الفلكية ترجمت اولا الى الرومنسية اي الفرنسي والقطالاني، ثم نقلت الى اللاتينية عن هاتين اللغتين».

ولكي ندرك اهمية الاستشهادات التي استقاها ابراهيم بن عزرا من ترجمة شرح المثنى يكفي المقابلة بين ابن عزرا وهوغو سانتالا، لا سيّمَا في القسم الثاني من كتاب ابراهيم بن عزرا الذي يتحدث فيه عن حساب المثلثات، واثر تأثيرًا ضخما في اوروبة، في هذا الكتاب بالذات اورد فصلا كاملا عن كتاب ابن المثنى المترجم الى اللاتينية.

كما اورد الرسوم الموجودة في النص العربي مثلما اوردها قبله «سانتالا».

وفي مكان آخر يورد ابن عزرا نصا طويلا من كتاب ابن المثنى ويشير الى علاقة هذا الكتاب بالمجسطي.

«Nunc de ascensionibus circuli directi dicendum verbaque Abenmucenne ipsa ponenda que ab Almagesti sumpsit».

واذا قابلنا النصين اللاتينيين لهوغو سانتالا وابراهيم بن عزرا نلحظ في النص الثاني ليونة وسهولة وتصرفا غير موجودة في نص هوغو سانتالا الذي تقيد بالنص العربي وترجمه ترجمة حرفية...

والنصوص المأخوذة عن هوغو سانتالا نجدها في كتاب ابراهيم بن عزرا في الصفحات ١٣٠ وما بعدها و١٤٧ وما بعدها ومن ١٥٠ الى ١٦٠ وفي اماكن اخرى ايضا من الكتاب المذكور.

وهذا يدلنا على ان انتشار كتاب ابراهيم بن عزرا كان اوسع من انتشار كتاب ابن المثنى الذي ترجمه سانتالا. كما ان النسخ المأخوذة عن تأليف ابن عزرا تزيد ثلاثة اضعاف على ترجمة هوغو

سانتالا غير ان النص العبري الذي وضعه ابراهيم بن عزرا اثر تأثيرا ضعيفا جدا لم يتعد النطاق اليهودي.

وتجدر الاشارة الى ان مسلمة المجريطي ادخل تعديلا واصلاحات على جداول الخوارزمي، والزرقالي استعان بشرح بن المثنى في وضع الجداول الطليطلية.

وعلى كل حال يمكن القول ان تأثير شرح ابن المثنى وترجمته الى اللاتينية هو محدود في اوروبة خلال القرون الوسطى وعصر الانبعاث بينما تأثير كتاب ابن عزرا اوسع فان اكثر المؤلفين النصارى في القرن الثالث عشر يتحدث ويلمح الى جداول ابراهيم بن عزرا وكذلك مؤلف جداول لندن عام ١٢٣٢ يشير الى جداول ابن عزرا. وكذلك روجيربيكون في تأليفه(١) «Opus Majus» يذكر جداول «بيسة» التي وضعها ابن عزرا.

غير ان شرح ابن المثنى على جداول الخوارزمي اذا لم يؤثر التأثير الكبير في القرون الوسطى المتأخرة فقد اثر في عصر النهضة وفي العصر الحديث وخاصة فيما يرجع الى حساب المثلثات، فنرى مثلا «فويرباخ» «J. PEURBACH» في كتابه:
«Tractatus super propositiones Ptolomei de sinibus et cordis»
طبعة نورمبرج ١٥٤١ ينسخ مقاطع كاملة عن ترجمة ابن عزرا، ولكن هذه المقاطع منسوخة عن شرح ابن المثنى. وعن طريق «بويرباخ» انتقل التأثير الى «Gmunden» «غومندين» في كتابه: .«De sinibus, chordis et arcubus»

وهكذا فاننا لا نستطيع ان نجرد الثقافة العلمية في عصر الانبعاث من تأثيرها الكبير بالتراث العلمي العربي وخاصة الفلكي منه. فقد جاء هذا التأثير اما مباشرة عن ترجمة هوغو سانتالا لكتاب شرح ابن المثنى على جداول الخوارزمي او عن طريق ابراهيم بن عزرا. بواسطة كتابه:
«Rationes tabularum astronomicarum»

وهذا الكتاب، كما اشرنا، متأثر تأثيرا كبيرا، لا سيّما من ناحية حساب الزوايا، بشرح ابن المثنى. اجل لقد كان العامل العلمي الحسابي والفلكي المكتوب بالعربي زيا شائعا في عصر الانبعاث.

---

(١) طبعة اكسفورد عام ١٨٩٧ المجلد الأول صفحة ٢٩٤.

هوغو سانتالا مترجم كتب الكيمياء :

واذا تميز هوغو سانتالا بترجمة الكتب الفلكية فقد تميز ايضا بترجمة كتب الكيمياء فهو اول من ترجم كتاب «لوح الزبرجد» : «Tabula maragdina, Tabla de esmeralda».

ويقصد به اثنتا عشرة حكمة رمزية[1].

وقد رأينا ان ننقلها الى العربية من جديد لانه لا وصول لنا الى اصلها العربي :

– انها الحقيقة الواضحة التي لا تقبل الشك وهي ان الذي هو فوق يأتي ممّا هو اسفل وان ما هو في الاسفل يأتي من الذي هو في الاعلى وجميع عجائب الكون تأتي من الوحدة في جميع الاشياء المتعلقة بالواحد عن طريق عملية واحدة.
– علم عجيب ابوه الشمس وامه القمر.
– جاءت به الرياح والارض ربته.
– النار تتحول الى تراب. افصل التراب عن النار وتستنير.
– الرقيق اشرف من السميك.
– الرقيق يرتفع قليلا قليلا نحو السماء يلبس النور ويرجع الى الارض له قوة الاشياء العلوية والسفلية.
– فيه يوجد نور الانوار وباسطته تبتعد الظلمة عنه.
– انه قوة كل قوة ويقهر جميع الاشياء اذ ان الرقيق اللطيف يدخل في الخشن.
– وهكذا خلق العالم سواء كان الاصغر او العالم الاكبر.
– انه مجدي الاعظم واسمي هرمس المثلث العظمات الحكيم الاكبر.

وعندما تتثبت هذه المقابلة الوثيقة بين العالم الاصغر والعالم الاكبر، يعلمنا ابولونيوس بوضوح ان الانسان الذي هو صورة العالم الاصغر في الوحدة الكبرى يمكنه ان يصنع بواسطة الفن خلائق اصطناعية على شاكلة الاعمال الطبيعية ويحول العنصر الى عنصر آخر: التراب الى النار والنار الى التراب والرصاص الى فضة او ذهب. وقد اجمع علماء الكيمياء على تفسير «لوح الزبرجد» على هذا النحو.

---

(١) مخطوط لاتيني رقم ١٣٩٥١ من القرن الثالث عشر درسه ف. نو في مجلة Revue de l'Orient chrétien ١٩٠٧ مجلد ١٢ والمخطوط اللاتيني رقم ١٣٩٥٢ هو نسخة عن المخطوط رقم ١٣٩٥١ أخذت في القرن السابع عشر.

ذلك ما كتبه هرمس للناس وقد انتشر هذا النص في العالم المسيحي الغربي انتشارا كبيرا لا سيّمَا بعد ان ادخله «البرتوس الكبير» في كتابه :

وقد اعتاد الكيمائيون على الاستشهاد بصورة مستمرة بكتاب «لوح الزبرجد» وظنوه انه البحث الاول الكيمائي المكتوب باللغة اليونانية . واخذ بهذه الفكرة العلماء المحدثون معتبرين ان هذا النص هو من اقدم النصوص اليونانية التي وصلت الينا غير ان «رسكا» في عام ١٩٢٦ وصف ثلاثة نصوص من لوح الزبرجد» باللغة العربية . واقدم نص موجود في كتاب العلل .

استخلص «روسكا» من دراسته ان «لوح الزبرجد» ليس سوى تأليف من تآليف كثيرة ظهرت في الاسلام ونسبت الى هرمس ، وهذا التأليف المقتبس عن نماذج قديمة يونانية دون ان يكون مترجما عنها ، او على الاقل لم يعثر حتى الآن على نص يوناني واحد مطابق لاحد هذه النصوص ومجرد ان جابر بن حيان اتى على ذكر لوح الزبرجد في القرن الثامن يدل على انه كان معروفا قبل ذلك التاريخ .

« افلاطون التبوري » «PLATO TIBURTINUS»

تنقصنا المعلومات عن « افلاطون التبوري » . وجل ما نعرف عنه انه عاش في اوائل القرن الثاني عشر واحدى ترجماته ترجع الى عام ١١١٦ . اقام في برشلونة من عام ١١٣٤ الى عام ١١٤٥ . وقد وجد معاونا له في شخص « ابراهيم برحجة » صاحب الشرطة فقد استفاد منه ليس فقط في معرفة اللغة العربية بل العبرية ايضا وترجم مؤلفات مكتوبة بهذه اللغة .

تحدث عنه طويلا « بون كومباني » ولكنه لم يكشف القناع عن شخصيته .

وهو على شاكلة جيرارده الكريموني ، يشكو من ضعف لغته اللاتينية في مادة علم الفلك ، ومثل جيرارده ايضا تشوّق الى كتاب « الماجسطي » ولكنه فضل اللجوء الى الملخص الذي وضعه عنه « البتاني » . ووجه شبه آخر مع جيرارده الكريموني : مثله غادر مسقط رأسه « تيبور » لكي يبحث عن العلم في اسبانية ، فان بعض ترجماته مؤرخة في برشلونة .

اذاً « افلاطون التبوري » هو اول جندي انخرط في هذه الصليبية التي لمع فيها جيرارده الكريموني في الطليعة . اناس متعطشون الى العلم يجوبون المناطق الاوروبية النائية يأتون الى اسبانية ويتقاسمون آثارها العلمية التي خلفها العرب . كان اول من دخل الى اسبانية وليس علينا ان نلومه ونؤنبه على الكلمات البربرية التي خلّفها في ترجماته .

نبدأ بذكر الترجمات الست المأخوذة عن العربية :

١ - ترجمة زيج البتاني التي تحمل عنوان : «Albategnius, De motu stellarum» ويستهلها هكذا :

«Incipit liber Maehometi filii Gebir filii Cineni in numeris stellarum et in locis motuum earum, continens 57 capitula».

يتذمر في مقدمته من المؤلفين الذين يهملون القضايا الهامة فالرومان يسعدون بالحروب والفتوحات ويهملون العلم. ورغم ان البعض يتجاسر ويقابل بين الرومان واليونان، فان الرومان هم دون اليونان بكثير ودون المصريين والعرب. فليس للرومان اي كتاب في علم الفلك، موضوع او مترجم، بينما نجد كتباً لا تحصى في هذه المادة عند بقية الامم. وبناء على ذلك، انا «افلاطون التبوري» شئت ان ارقع هذا الفتق في الادب اللاتيني بالغرف من كنوز لغة اخرى.

وبعد تأمل طويل فكر في كتاب «الماجسطي الكامل»، ثم اعاد الفكرة فوجد من الافضل كتاب البتاني الذي اقتدى بالمجسطي، فهو يختصر مطولات بطليموس وينبه القارئ الى وجود بعض الصعوبة في فهم ترجمته. يجب ان ينسب هذه الصعوبة ليس الى المترجم بل الى عسر المادة، كما ان هذا التأليف ليس موجها الى التجار.

«والبتاني» هذا كما يذكره ابن النديم في كتاب الفهرست هو «ابو عبد الله جابر بن سنان الرقي. وكان اصله من حران صابئا. ابتدا الرصد في سنة اربع وستين ومائتين الى سنة ست وثلاثمائة هجرية واثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين.

ورد الى بغداد مع بني الزيات من اهل الرقة في ظلامات كانت لهم. فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص سنة سبع عشرة وثلاثمائة ٩٣٩ م».

له من الكتب :

- كتاب الزيج وهو نسختان اولى وثانية والثانية اجود من الاولى كما يقول ابن النديم.

- كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الفلك.

وتعرف رسالته في تحقيق اقدار الاتصالات، عمله الى ابي الحسن بن الفرات. وقد ذكر البتاني في الباب الحادي والخمسين من كتابه «الزيج الصابىء» ما وقع من المنازل في كل صورة من صور البروج الطبيعية، اي مجموعة البروج حقا، وهي التي سميت اصلاً باسماء الحمل والثور

والجوزاء الخ ، بسبب حركة « تقدم الاعتدالين » «Précession des equinoxes» وقد سماها العرب في القرون الوسطى « حركة الكواكب الثابتة » لزيادة اطوال هذه الكواكب بسببها ، انتقلت شيئا فشيئا من مواضعها الاصلية الى جهة المشرق ، فمن زمان طويل زالت موافقة مواضع الصور الطبيعية للبروج النظرية المسماة بها.

والبتاني قسم فلك البروج ثمان وعشرين منزلة متساوية على مذهب الهند فأصاب كل منزلة اثنتي عشرة درجة وستة اسباع.

نرجع الى افلاطون التبوري فنقول ان ترجمة البتاني قد طبعت مرارا عديدة :

وقد ذكر « بون كومباني » الطبعات التالية : — طبعة نورمبرج عام ١٥٣٧.

كتاب الفرغاني في « جوامع علم النجوم واصول الحركات السماوية او « الفصول الثلثين » او كتاب علل الافلاك »[1] . وقد علق عليها « رجيومنتي » بعض الحواشي والاضافات.

— طبعة بولونيا عام ١٦٤٥

— طبعة « فبريسيوس » «Fabricius» بالبندقية عام ١٥٥٢

١ — والطبعة الاخيرة الحديثة ظهرت في ميلانو عام ١٨٩٩ — ١٩٠٧ تحقيق « نللينو » وتحمل عنوان :

«Al-Battani sive Albattenii opus astronomicum arabice editum latine versum adnotationibus instructum ac. A. Nallino, Mediolani Insubrum 1899-1907».

٢ — *Liber capitulorum* او *Capitula stellarum* : انه كتيب في علم النجوم لا يزيد على ورقتين او ثلاث ورقات ويظهر في المخطوطات على هذا الشكل :

«Capitula stellarum oblata regi. Magno Sarracenorum Almansor Astrologo filio Abrae a Tiburtino Platone translata».

« واحيانا » *«Almansoris judicia»* فاذا اخذنا بالشكل الاول يكون مؤلف الكتاب « المنصور » ؟ ولا يعرف من هو. طبع عام ١٤٨٤ ثم اعيد طبعه مرارا عديدة.

واذا اخذنا بالافتراض الثاني «Ad Almansorem» نقول ان الخليفة المقصود به هنا هو

(١) هذا الكتاب له ترجمتان قديمتان ، احداهما ليوحنا الاشبيلي الذي فرغ منها سنة ١١٣٥ وطبعت في اوروبة ١٤٩٣ ، ١٥٣٧ و ١٥٤٦ ، والثانية لجرارده الكريموني وطبعت بروما سنة ١٩١٠ ، ثم له ترجمة عبرية ايضا طبع نقلها اللاتيني سنة ١٥٩٠. اما الاصل العربي فنشر بعناية المستشرق « غوليوس » بمدينة ليدن سنة ١٦٦٩

المنصور الذي حامى عن علم النجوم ، وعندئذ يكون المؤلف « الفزاري » ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حبيب بن سليمان بن سمرة بن جندب الفزاري ، عالم صحيح الخط ، كما جاء عنه في كتاب الفهرست لابن النديم.

وهذا نموذج عن ترجمة « افلاطون التبوري »

«Mi rex, petisti ut tuis satisfaciam votis. Laborem ne quaquam subire recusavi Scripsi oequo avimo, accipias quoeso. Fortius testimonium est «ICTIZAL» lune ad planetam».

«ALGEBUTAR» fortior est.....
Cum fuerit Jupiter in Ariete directus absque malo aspectu fortunarum dabit fortitudimen et regnum in quo nulla fiet injusticia».

وكما نرى فان « افلاطون التبوري » اضطر الى ترك بعض الكلمات العربية على حالها لانه لم يفهمها او لم يجد ما يقابلها باللغة اللاتينية.

ويختم هذه المقالة الصغيرة على النحو التالي :

«Perfectus est liber capitulorum Almansor cum Dei Auxilio translatus de arabico in latinum a Platone Tiburtino quem Deus exaltet, in civitate Barcinonia, anno arabum DXXX, octava decima die mensis dul higida, sole in Virgine I. V, luna in Ariete XV, XVI.

٣ – «**Spherica Teodosii**» يذكرها لكليرك ويقول ان هذه الترجمة قد طبعت في البندقية عام ١٥١٨ وفي باريس عام ١٥٥٨ ، ويقول ايضا ان بونكومباني اورد مقطعا من طبعة باريس هو هذا :

«Cum enim sphericam doctrinam appeterent, nec haberent ut opinor Grecum exemplar, ad arabicam versionem confugerunt, et Theodosium qui Grece scripserat, non e greco et genuino fonte sed ex arabico et alieno in latinum verterunt, Imo etiam eam versionem annis ab hinc 40 Venetiis excuderunt, Quam a Platone Tiburtino factam fuisse asseverat auctor de speculis ustoriis, quiquis ille sit. Atqui si quis Theodosium ex arabico versum et Venetiis excusum cum greco conferat, incredibile discrimen non modo facilitatis sed etiam brevitatis inveniet».

٤ – **كتاب الاربعة لبطليموس** «**Tetrabiblon**» ترجمة عام ١١٣٨ ، والنص اللاتيني موجود في خزانة الكتب اللاتينية بباريس رقم ٧٣٢٠ على هذا النحو :

«Incipit liber fractatum Ptolomei Alfaludhi in scientia judiciorum astrorum, a Platone Tiburtino de arabico in latinum translatus».

«يبتـدئ كتاب الاربعة لبطليموس في علم احكام النجوم وقد نقله من العربية الى اللاتينية «افلاطون التبوري».

وكلمة «Tetrabiblon» لم تكن معروفة عند «افلاطون التبوري» لان الترجمة العربية تقول: «كتاب الاربعة» وذكر الكلمة العربية «alarbaa». وهذا اول كتاب لبطليموس ينقل الى اللاتينية وقد نال شهرة واسعة في القرون الوسطى وترجم مرارا عديدة:

ترجمه مجهول عام ١٢٠٦

ترجمه «اجيديوس التبلديسي للملك الفونسه العاشر الحكيم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر

ترجمه سيمون دي بريدون «Simon de Bredon» حوالي ١٣٠٥

وقد ذكر «هنري بيت» «Henry Bate» ترجمة مأخوذة عن اصل يوناني عام ١٢٨١

وكتاب الاربعة لبطليموس كتبه الى سورى تلميذه. نقل هذا الكتاب ابراهيم بن الصلت واصلحه حنين بن اسحق او ثابت بن قرة، وفسر المقالة الاولى اوطوقيوس وجمع المقالة الاولى ثابت واخرج معانيها وفسرها عمر بن الفرخان وابراهيم بن الصلت والنيريزي والبتاني.

٥ - **كتاب علم النجوم للقاسم**: نجد هذه الترجمة في المخطوط رقم ٧٤٣٩ في المكتبة الوطنية بباريس وعنوان الكتاب الحقيقي هو: «Alkassem de nativitatum revolutionibus»

يبتدىء المخطوط هكذا: «Dixit Alkassem filius Alkasit»

وينتهي:

«Expliciunt revolutiones nativitatum secundum Alkassem translate a Platone Tiburtino de arabico in latinum».

وهذا الرجل ليس سوى ابي بكر بن الحاسب فارسي من اواخر القرن التاسع، كتب بالعربية والفارسية من اواخر القرن التاسع.

ترجم هذا الكتاب ايضا «ساليو البادوي» عام ١٢١٨ «Salio de Padova» وقد ترجم ايضا الى العبرية، وطبع في البندقية عام ١٤٩٢ وفي نورمبرج عام ١٥٤٩

٦ - **في الاسطرلاب**: ذكر «بون كومباني ترجمة عثر عليها في مكتبة الفاتيكان تحمل هذا العنوان:

«Liber Abualcasim in operibus astrolabii a Platone Tyburtino, ad amicum suum Johannes David».

وهذا الكتاب لابن الصفار المتوفي «بدانية» عام ١٠٣٥، يقول عنه ابن ابي اصيبعة انه ابو القاسم احمد بن عبد الله بن عمر، كان متحققا بعلم العدد والهندسة والنجوم وقعد في قرطبة لتعليم ذلك وله زيج مختصر على مذهب السند هند وكتاب في العمل بالاسطرلاب موجز حسن العبارة قريب المأخذ. وكان من جملة تلامذة ابي القاسم بن احمد المجريطي، وخرج ابن الصفار عن قرطبة بعد ان مضى صدر من الفتنة واستقر بمدينة دانية قاعدة الامير مجاهد العامري وتوفي بها.(١)

٧ – **مقالة في الهندسة لصاحب الشرطة** عنوانها باللاتينية: «**Liber embadorum**» ويقرا العنوان واضحا في المخطوط رقم ١١٢٤٦ بباريس، واقل وضوحا في المخطوط رقم ٧٢٢٤ «Incipit liber embadorum a Savasorda in ebraico compositus et a Platone Tiburtino in latinum sermonem translatus anno Arabum DX mense Saphar». وقد ترجمه التبوري باختصار عام ١١٤٥ تحت عنوان «Liber embadorum» كتاب المساحات او الهندسة وطبعه كورتزي في ليبسيغ عام ١٩٠٢.

طبع غوتمان النص العبراني في برلين عام ١٩١٢ – ١٩١٣

ترجمه الى اللغة القطالانية ملياس فلبيكروسا عام ١٩٣١ وطبع في برشلونة.

استعان بترجمة افلاطون التبوري «ليوناردو فيبونتشي بيسانو» «Leonardo Fibonacci Pisano»

ويقسم كتاب المساحات الى اربعة فصول:

الاول يبحث في الهندسة النظرية،

الثاني في قياس المساحات

الثالث في تقسيمها

الرابع في قياس الاشياء الصلبة او المجوفة مثل الآبار والابراج

وكلمة «Embadus» ظهرت في ترجمة موسى بن شاكر واولاده، وضعها جيرارده الكريموني بمعنى «مساحة او قيمة مساحية لصورة نرغب في قياسها.

وجاء في ختام هذه الترجمة: انتهى كتاب المساحات الذي الّفه صاحب الشرطة اليهودي بالعبرية وقد نقله افلاطون التيبورتيني الى اللاتينية في الخامس عشر من شهر صفر سنة ٥١٠. «Finit liber embadorum a Savasorda judeo in ebraico compositus est a

(١) سيمون الحايك: عروق الذهب في مناجم الروم والعرب صفحة ٢١٨ وما بعدها.

Platone Tiburtino in latinum sermonem translatus anno Arabum DX mense Saphar die XV ejusdem mensis ora tertia sole in XX gradu et XV minuto leonis luna in XII gradu et XX minuto piscium Saturno in VIII gradu et L VII minuto tauri jove in Arietes XX VI gradu...».

مقدمة لأفلاطون التيبورتيني للبتاني

ÆFATIO PLATONIS TI- VRTINI IN ALBATEGNIVM.



NTER uniuersa liberalium artium studia, quæ Græcos, quæq; etiam prius inuenisse constat Aegyptios, quæ stellarũ scientiã profitetur disciplina, & est & habetur iure princeps. Quod inconcussis demonstrationũ rationibus asserere non grauaremur, nisi & à proposito longe recederet, et apud philosophiæ professores in fide constaret. Vbi enim tanta in inuentione subtilitas? tan ...monstrationibus firmitas? tanta in exercitijs iucunditas? tanta ...entione utilitas? Quo magis latinitatis ignorantiæ cæcitas de...da, magisq; desidiæ negligentia redarguenda est, quæ indigni ... & certe in leuioribus studijs occupata, huius scientiæ subtilem ...iam, aut ex desperatione attentare timuerit, aut ex contem...dierit. In bellorum quidẽ fœlicitate in imperij dilatatione Ro... non solũ Aegyptũ & Græciam, uerum omnis quotquot sunt na...antecessit. In artium uero gymnasijs, in disciplinarũ speculatio...licet quædã eam insolenter Græciæ conferãt, quædã insolentius ...ant, non tantũ Aegypto uel Græcia, sed & Arabia longè inferi...it? Hoc cum in cæteris artibus facile deprehendi possit, quas si ... Latini, nõ à se, sed aliunde mutuatæ sunt, tũ uel maxime in p...ata astrorũ disciplina declaratur. Cuius nõ dico auctorem, sed ...erpretem quidẽ quo se iactant audet ostentare latinitas. Habent ...multos in hac arte præcipuũ Hermetem Aegyptij, Aristotelem, ...his, Ptolemæũ, cæterosq; innumerabiles Græci, Arabes cũ com...bus Algorithmũ Messahala, Albategniũ, nostri. s. latini autorẽ q ...? pro libris, deliramẽta, somnia, fabulas aniles, hac causa per ...ego Plato Tiburtinus nostræ linguæ angustias, qua maxiẽ desi ... ex alienæ linguæ theusauris pro ingenij facultate ditare consti... Verũ cũ post longã & diligentẽ deliberationẽ nihil in Græco aut ...co, quod quidẽ ad hãc spectaret scientiã opere Ptolemæi, quod ...esti dicitur perfectius inuenirẽ, quippe ubi singula euentuũ cau...merorũ proportiõe signatur, descriptiõe geometricarum demõ...nũ firmitate subnixa sunt. Cumq; eius imitatorem perfectũ in ...rabes & Albategniũ deprehenderẽ, quiq; Ptolemæi prolixitatẽ ...endiosæ coartat eiusq; errores emendãs, quæ quidem rarissimi ... non ipsi sed Abrachis radici inputat. Asserens supra debile fun...entũ quamuis egregiũ mechanicũ stabile ædificium architectari ... posse. Hunc inquã Albategniũ meo labore Deo propiciãte transf...endũ, & latinis auribus offerendũ censui, in quo opere si qua forte ...cultas lectorẽ offenderit, ne hãc æstimet interpretis uicio accidisse,

a sed

corpore sphæra, cubus, columna, pyramis, serratile. Vtilitas uel est mensurandi scientia, & demonstratoriæ necessitudinis exemplum. Modus agendi is est: Agit nanque demonstratiuè. Est autem demonstratio argumentatio arguens ex primis & ueris illarum conclusionibus. Sic enim ars proposita contexta est, quòd sequentia accidunt præmissis necessario, à principijs deinceps. Est enim demonstratiua scientia, quæ docet & demonstrare & demonstrat, ut priores analet. & quæ demonstrat & non docet demonstrare, ut Geometria. Est duplex ratio ordinis in hoc opere. Ordo scilicet partium ipsius materiæ secundum quod inchoandum erat à lineis procedendum per superficiem & numerum tandē terminandum in corpore, nisi ratio demonstrationis derogaret, secundū quam oporteret præcedentia causas sequentium, secundū quod aliquando propositio pertinens ad lineam fidem trahit ex his quæ pertinent ad corpus uel superficiem. Exigentiæ ergo demōstrationis autor acquiescit in ordine. Titulus est: Primus liber Euclidis philosophi de arte Geometria incipit. V. Incipit ars Geometriæ, continens 364. propositiones, ab Euclide Arabico compositæ, & ab Adelhardo Goth. in Latinum assumptæ. Propositiones quidem per Indicatiuū propositæ, per Infinitiuū explicantur. Item propositiones proponunt, uel aliquid est uel non est. Propositia uero ut aliquid est faciendum uel non, causa patet. Deinceps terræ insistendū incipiendo à principijs. Hæc autem distinguuntur per axiomata, petitiones & cōceptiones. Axioma dignitas interpretatur: explicat enim diffinitiones rerum. Petitiones sunt, quibus concessis secundū Hypothesim nullū sequitur inconueniens. Conceptiones quæ ultro occurrunt humanæ intelligentiæ, in quibus non est exigendum propter quid. Nec tantū scripta principia, principia sunt reputanda, sed ad similitudinē horum quælibet æque manifesta, ut quodlibet maiori æquale maius est æquale minori. Principia sine expositione satis innotescunt. Liber iste principalit in duas partes diuiditur. In primis enim decem libris agitur de magnitudine simpliciter. In 5. uero ultimis de magnitudine corporali. In primis autem 6. agitur de magnitudine simpliciter non numerata. In decimo uero de magnitudinibus numeratis. Septimus aūt octauus & nonus sunt de numero simpliciter, & uocantur Arithmetica Euclidis, & est de bene esse, & sunt antecedentia ad decimum. In primis 4. agitur de magnitudine simpliciter non comparata. In sexto uero de magnitudine comparata. Quintus aūt non est de esse libri, sed potius de bene esse, quia de proportione magnitudinis simpliciter, & est antecedens ad sextum. In primo uero agitur de triangulis. In secundo de quadrangulis comparando unum ad alium. In tertio de circulis comparando unum ad alium. In quarto de circulis ad figuras alias.

BREVI

«Abraham Bar Hiyya ha-Barge loni» **ابراهيم برحجة «صاحب الشرطة»**

معلوماتنا عنه هزيلة فلم يتحدث عنه المؤرخون ، وجل ما نعرف عنه انه عاش في القرن الثاني عشر في برشلونة .

واذا فاتتنا معرفة حياته فلم تفتنا معرفة كتبه وترجماته . اذ انه لم يكن مترجما فحسب بل مؤلفا ايضا له كتاب بالعبرية نقله افلاطون التبرتيني الى اللاتينية تحت عنوان :«Liber embadorum» والكتاب باللغة العبرية موجود في المكتبة الوطنية بباريس المخطوطات العبرية رقم ١٠٤٨ و ١٠٦١ وهو عبارة عن مقالة في الهندسة وحساب المثلثات وتقسم الى اربعة فصول.

وذكر « لبري » ترجمة اخرى من اخراج « صاحب الشرطة » تحمل رقم ٩٦٠ في مكتبة السوربون وتنتهي هكذا :

« انتهى كتاب اختيار الاوقات لعلي بن احمد العمراني ، وقد نقله من العربية الى اللاتينية في مدينة برشلونة ابراهيم اليهودي المسمى صاحب الشرطة.

ويقول ابن النديم عن علي بن احمد العمراني انه كان من اهل الموصل وكان فاضلا ، جمّاعة كتب يقصده الناس من المواضع البعيدة للقراءة عليه . وتوفي سنة اربع واربعين وثلثمائة ، وله من الكتب : كتاب شرح كتاب الجبر والمقابلة لابي كامل

ويقول لكليرك انه عثر على هذه الترجمة في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٧٣٠٦ و ٧٤٠٦ و ٧٣٤٦ و ١٦٢٠٤ .

وله ترجمة اخرى تحمل عنوان : «Liber augmenti et diminutionis» «كتاب الزيادة والنقصان » موجود في المخطوطات رقم ٧٢٦٦ و ٧٣٧٧ و ٩٣٣٥ ، يظهر اسم المترجم بكلمة «ابراهيم» فقط وهذا لا يمكن ان يكون سوى ابراهيم صاحب الشرطة.

وهكذا يكون ابراهيم هذا عاش في برشلونة في القرن الثاني عشر اذ ان احدى ترجماته ترجع الى عام ١١٣٧. وكما رايناه يكتب بالعبرية ويترجم من العربية الى اللاتينية.

نجد في الوقت ذاته ببرشلونة مترجما آخر هو افلاطون التبرتيني وكانت تربط بين الاثنين صداقة ، ولا شك ان التبرتيني قد درس اللغة العربية في مدرسة صاحب الشرطة.

ترجم « ميلياس فلبيكروسا » كتابا لصاحب الشرطة من العبرية الى الاسبانية وقد اعطاه بالاسبانية عنوان :

«LA OBRA ENCICLOPEDICA de R. Abraham Bar Hiyya Madrid Barcelona 1952».

وهذه الموسوعة بالحقيقة لا تتناول سوى ثلاثة علوم : الحساب والهندسة والموسيقى كما ان المقدمة في مخطوط « برما »«PARMA» تقول ان هذا التأليف قد ترجم عن العربية الى العبرية والمترجم هو ابراهيم برحجة.

والكتاب موجود في مخطوط «برما» رقم ١١٧٠ ومخطوط مونيخ رقم ٣٦ ومخطوط الفاتيكان رقم ٤٠٠ ومخطوط برلين رقم ٧٩ ومخطوط بودليان رقم ١١٦٨

ترجمات يوحنا غنصالس البرغشي ومعاونه سليمان

اعتاد الباحثون ان ينسبوا الى يوحنا الاسباني وغند سلبه ترجمة مؤلفات ابن سينا :

١ – الفن الاول من الطبيعيات — 1 - Sufficientia Physicorum

٢ – مجموع اقوال الاقدمين من اليونان في كتاب ارسطوطاليس «العالم ويطلق عليه اسم السماء والعالم».

2 - Collectiones expositionum de antiguis grecis in libro Aristotelis de mundo qui dicitur liber celi et mundo

وهذان التأليفان اي الفيزياء عند ابن سينا وكتاب السماء والعالم موجودان في طبعة البندقية تحت عنوان :

«Avicenne perhypatetici philosophi: ac medicorum facile primi opera in lucem redacta: ac nuper quantum ars niti potuit per cononieos emendata. Logyca. Sufficientia. De celo et mundo. De anima». (Venetiis, Locatellus, 1508).

ترجمة هذه الكتب ترجع الى يوحنا الاسباني ودمنقه غندسلبه. وبعد مقابلة هذه الترجمات اللاتينية بالنص العربي الموجود في المخطوط رقم ٥٠٠٨ بالمكتبة الوطنية بمدريد تبين من هذه المقابلة ان يوحنا الاسباني وغنسلبه لم يترجما «السماء والعالم» «الذيَ يشكل الجملة الثانية من كتاب» الشفا لابن سينا اذ ان هذه الجملة الثانية لا علاقة لها على الاطلاق بما جاء في طبعة البندقية... غير ان هذا الكتاب من ابن سينا مترجم الى اللاتينية وموجود في مكتبة الفاتيكان في المخطوطات اللاتينية رقم ١٨٦.

وقد نتج ايضا من المقابلة التي أجريت بين ترجمة ابن داود وغندسلبه للفن الرابع من الطبيعيات ان هذه الترجمة غير كاملة، لان الفن الرابع قد قسمه ابن سينا الى خمس مقالات، فلم يترجم غندسلبه ويوحنا الاسباني سوى المقالة الاولى والثانية والفصل الاول والثاني من المقالة الثالثة، بينما الاعتقاد السائد هو ان الفن الرابع من الطبيعيات «De actionibus et passionibus» قد ترجم بكامله...

عندنا مخطوط آخر رقم ١٨٦ وهو يتضمن الترجمة اللاتينية للفنون الخمسة من الجملة الثانية من كتاب « الشفاء » لابن سينا . والفرق بين هذا المخطوط ومخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم ٥٠٠٨ ، هو ان الفن الرابع من الطبيعيات اكمل من مخطوط مدريد اذ تظهر فيه المقالة الثالثة بفصولها ٢ ، ٣ ، ٤ ، و ٥ مترجمة وكذلك الثانية فصول الاولى من المقالة الرابعة ثم المقالة الخامسة ، والمجموع هو حوالي ٣٠ ورقة . ولكن الاغرب من كل هذا هو ان الترجمة منسوبة الى « يوحنا غنصالس البرغسي وسليمان رفيقه والاثنان في خدمة مطران برغش « دون غنصاله » كما جاء في المخطوط رقم ١٨٦ في نهاية ترجمة الفن الثاني من الطبيعيات :

«Explicit Liber sufficientia phisicorum Avicenne translatus a magistro Johanne Gunsalbi de Burgis et Salomone de arabico in latinum. Ad preceptum reverendissimi Patris ac Domni Domni Gunsalbi episcopi burgensis que est civitas in Hispania. Sequitur ac incipit ejusdem Avicenne liber de celo et mundo. Ab eodem magistro Johanne Gunsalbi de Burgis trnaslatus et dicitur secundus naturalium»[1].

ومن السهل الاشارة الى وجود مترجمين مختلفين من جوهر الترجمة :

فالترجمة المنسوبة الى ابن داود وغندسلبه تستعمل العبارة التالية :

في ترجمة الكلمة العربية « ذو » « ذات » « ذوو » « ذوات »

«rerum que habent principia» «habent principia»

بينما في الترجمات المنسوبة الى سليمان وغنصالس نلاحظ اول ما نلاحظ حيرة كبيرة في ترجمة هذه الكلمة ولا يستعملان قط التعبير الذي وضعه غندسلبه بل تعابير اخرى من الصعب فهمها .

تعبير عربي آخر : « من شأنه » يترجمه غندسلبه على هذا الشكل :

١ — «et erit ejus»

٢ — «et hoc fit cum»

كما انه يستعمل تعابير اخرى كثيرة وهذا يدل على عدم اقتناعه من صحة اي تعبير منها .

ونجد عند سليمان وغنصالس التعبير ذاته ولكنه ليس مفهوما :

من شأنه De cujus usu est propter

من شأنه ... deinde usus est quod

من شأنه ... non est de sui usu recipere sectionem quia de usu

(1) Roma, Vat. Urb. lat. 186 f° 83r.

من شأنه ... erit de usu.

يظهر هذا التعبير ثمان مرات في الفن الثاني اي السماء والعالم ، وعشرين مرة في الفن الثالث اي الكون والفساد وثلاث عشرة مرة في الفن الرابع وعشر مرات في الفن الخامس اي الآثار العلوية. لا يمكن ان تطلب من المترجم امانة اكبر لهذا التعبير غير الموفق.

تعبير عربي آخر «ومع ذلك» فان سليمان وغنصالس يترجمانه على هذا النحو et cum toto isto بينما يترجمه غندسلبه : «et per hoc», et propter hoc totum»

يمكن الاشارة الى صيغ اخرى كثيرة مثل هذه تشير الى وجود مترجمين مختلفين. ثم ان المترجم هو اسباني ومن شبه الجزيرة الابرية يستدل على ذلك من تعابيره مثل هذا التعبير: «et cum toto isto» انه تعبير اسباني محض .وهذه الكلمة الاخرى «Tortuca» سلحفاة وهي كلمة اسبانية لان الكلمة اللاتينية هي testudo

ولنرجع الآن الى مخطوط «اوربيناتي» رقم ١٨٦ ولنتوقف قليلا عند المهدى له هذه الترجمة وهو مطران برغش :

ان المطران المذكور هو غنصاله غرسية غوديال وقد نقل الى طليطلة عام ١٢٨٠ ، فتكون الترجمات قد حققت بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٨٠ .

كلمة عن حياة هذا المطران : انه من اصل طليطلي ، كاهن في كاتدرائية برغش ثم رئيس كهنة في طليطلة . سيم مطرانا على قونكة ثم نقل الى برغش ومنها الى طليطلة . ولا شك ان المطران المذكور كان مولعا بجمع الكتب القيمة ، ولقد اهتم مرارا عديدة بجمعها وتصنيفها والحصول على تلك التي تنقصه منها مهما كلفه الامر ، فقد حصل على جميع الترجمات التي حققها «ميخائيل سكوت» . Michael Scott

وقد اهتم طيلة اقامته برومة بالخير العام لجميع المؤمنين ، ومن جملة الوسائل التي استخدمها اصدار الكتب التي يستنير بها العالم اجمع .

هكذا يقدمه لنا «الباره الطليطلي Alvaro de Toledo الذي اهدى الى هذا المطران المبعد الى رومة شرحه لابن رشد De substantia orbis . وقد خص ابن سينا باحترام فريد ، فانه في عام ١٢٧٠ كان له في مكتبته مؤلفات ابن سينا وكتب باللغة العربية وترجمات كثيرة عن العربية . ولقد شعر بحاجة الى تلك الكتب التي تنقصه لاسيمًا عندما تبين ان المدرسين يستخدمون هذه الترجمات . وينشط الملك الفونسه العاشر الحكيم كل تلك الترجمات غير الفلسفية . وقد

التقط تلك الترجمات الى الرومنسية التي جرت في بلاط الملك الفونسه العاشر الحكيم. فجو الترجمة هذا شجعه على انجاز ترجمات اخرى فلسفية ، فالعمل الذي ابتدأ به ابن داود يجب ان يصل الى نهاية حسنة. من حيث ترجمة كتاب الشفاء. «SUFFICIENTIA» – ابتدأ ابن داود بترجمة كتاب «الشفاء» ولم ينجزه –

والمترجمون الذين اعتمد عليهم مطران برغش هما خوان غنصالس من برغش وقد اعطاه لقب «معلم» وسليمان. واذا كان قد احتاج اليه يوحنا غنصالس لمساعدته في الترجمة فما ذاك الا لانه لم يكن يجيد العربية. وتشكل من الاثنين فريق للترجمة على النحو الذي تشكل فريق جيرارده الكريموني وغالب. وفريق يوحنا الاسباني وغندسلبه وغيرهم...

وبكلمة مختصرة ، علينا ان نسلم بوجود مترجم يختلف عن دومنقه غندسلبه ، اسباني مثل هذا ، وعمله يشمل الفنون الخمسة باستثناء الذي عثر عليه مترجما وبعض فصول لم يستطع ترجمتها. وعمل الترجمة هذا لا يجب ان يكون بعيدا عن عام ١٢٨٠ ، فان مخطوط اوربيناتي يقول ان عمل غنصالس البرغشي قد حصل بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٨٠ اذ انه يعمل لاجل مطران برغش غنصاله غرسية غودبال. وليس هناك اي سبب يقف حجر عثرة في قبول وجود يوحنا غنصالس المترجم

وبعد هذا الشرح الطويل ننتقل الى ما ترجماه :

١ – «Sufficientia physicorum» غير كامل Avicena

النص الاصلي : «الفن الاول من الطبيعيات ، المقصود هنا المقالة الثالثة (فصل ١ حتى ٥)

والمقالة الرابعة ولم تترجم منها الفصول الاربعة الاخيرة وهناك مقالة خامسة لم تترجم وهي تتكلم عن الحركة.

الطبعة الاصلية : في طهران ١٣٠٣/١٨٨٦

المخطوطات اللاتينية : موجودة في رومة الفاتيكان اوربناتي رقم المخطوط ١٨٦

ولكي نتبين صحة نسبة المخطوط الى يوحنا غنصالس وسليمان يكفي ان ننقل ما جاء في المخطوط الروماني :

«Explicit liber sufficientia physicorum Avicenne translatus a magistro Johanne Gunsalvi de Burgis et Salomone de arabico in latinum. Ad

preceptum Reverendissimi Patris Domni Gunsalvi episcopi Burgensis, que est civitas in Hispania. Sequitur et incipit ejusdem Avicenne liber de celo et mundo, ab eodem Magistro Johanne Gunsalvi de Burgis translatus et dicitur secundus naturalium».

٢ – «Liber de celo et mundo» الفن الثاني من الطبيعيات

النص الاصلي : موجود في المكتبة الوطنية بمدريد رقم المخطوط ٥٠٠٨ في مقالة واحدة والنص اللاتيني مطابق تمام المطابقة للنص العربي

الطبعة الاصلية : جرت في طهران عام ١٣٠٣/١٨٨٦ هجري وميلادي على التوالي.

المخطوطات اللاتينية : مخطوطة رومة الفاتيكان ١٨٦

ولا شك في ان نسبة الترجمة الى يوحنا غنصالس وسليمان صحيحة بسبب استعمال الكلمات التي اشرنا اليها.

٣ – «De generatione et corruptione» الفن الثالث من الطبيعيات (الكون والفساد) لابن سينا

النص الاصلي : موجود في المكتبة الوطنية بمدريد رقم المخطوط ٥٠٠٨ وهو في مقالة واحدة وهو مطابق تمام المطابقة مع النص اللاتيني.

الطبعة الاصلية : طهران عام ١٣٠٣ هـ او ١٨٨٦ ميلادي.

المخطوط اللاتيني : رومة الفاتيكان رقم المخطوط ١٨٦ ويقول ما ترجمته : «ابتدا القسم الثالث من الطبيعيات لابن سينا وهو كتاب الكون والفساد...

«Incipit pars tertia naturalium Avicenne que est «De generatione et corruptione... Jamque complevimus computare ac facere cognosci res universales complevimusque adnumerare corpora.
Explicit tertius naturalium Avicenne qui est De generatione et corruptione».

لا يظهر اسم المترجم في اي مكان من المخطوط ولكن مجرد وجود هذا النص بعد ترجمات يوحنا غنصالس وسليمان يدل على انهما هما المترجمان، كما ان عدم ذكر هذا النص واستعماله من قبل المدرسيين القدامى يدل على انه لم يترجم في القرن الثاني عشر بل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر... وما قيل عن الترجمات السابقة يقال عن هذه الترجمة.

٤ – «De actionibus et passionibus» الفن الرابع من الطبيعيات لابن سينا

النص الاصلي : في المكتبة الوطنية بمدريد رقم المخطوط ٥٠٠٨ في مقالتين وهما يطابقان النص اللاتيني.

الطبعة الاصلية : ضمن كتاب الشفا في طهران عام ١٣٠٣ هجرية و ١٨٨٦ ميلادية.

المخطوط اللاتيني : رومة الفاتيكان رقم ١٨٦ من صفحة ١٣٣ الى ورقة ١٥٠ ويقول :

«Sequitur et incipit quartus naturalium ejusdem qui est De actionibus et passionibus universalibus que fiunt ex qualitatibus elementalibus sive elementorum. Et primo ponitur Prologus Jam complevimus cognitionem rerum naturalium... Explicit pars quarta naturalium Avicenne que es de qualitatibus primis et de operationibus que consequntur ex eis».

بالنسبة للمترجمين نقدم الملاحظات ذاتها التي ذكرناها للنصوص الاخرى فهذه الصيغة تميز بها سليمان وغنصالس

٥ — «De Meteorologicis» الفن الخامس من الطبيعيات لابن سينا «الآثار العلوية»

النص الاصلي : موجود في المكتبة الوطنية بمدريد رقم المخطوط ٥٠٠٨ من ورقة ١٥٦ الى ١٧٣ وهو مشكل من مقالتين ويقابلها بالنص اللاتيني فصلان.

الطبعة الاصلية : طهران عام ١٣٠٣ هـ، او ١٨٨٦ مسيحية.

المخطوط اللاتيني : رومة الفاتيكان ويقول :

«Incipit pars quinta naturalium Avicenne que est de hiis que non habent animan generatis et mineralibus et aliis impressionibus. Et est liber primus. Sequitur secundus metheororum ejusdem. Explicit liber secundus metheororum et per consequens quinta pars naturalium Avicenne, Deo gratias».

بشأن المترجمين : الملاحظات ذاتها[1]

بدره الفونسه والقصة الشرقية Pedro Alfonso

«بدره الفونسه» من اليهود الاراغونيين، اعتنق الديانة المسيحية عام ١١٠٦ في وشقة Huesca وسمّي «بدره» لانه نال سر المعمودية في عيد القديس «بطرس» وكان عرابه الملك الفونسه الاول الاراغوني، فسمّي بدره الفونسه.

---

(١) هذا الفصل ملخص عن مقال طويل صدر في مجلة «الاندلس» العدد ١٤ عام ١٩٤٩ فرزة ٢ يبتدي من صفحة ٢٩١ وينتهي في صفحة ٣١٩ وقد نشره الاب الونسه الونسه اليسوعي.

وضع مجموعة من القصص الشرقية ، وصل عددها الى ثلاثين قصة قصيرة ، مصدرها شرقي ، جمعها وترجمها الى اللاتينية عن العربية واعطاها عنوان Disciplina clericalis وتهذيب الاكليروس وبالتالي لم يكتب هذه القصص لعامة الشعب. يقول في المقدمة : انه جمع اقوال الفلاسفة وحكمة العرب وقصصا عن الحيوانات والطيور ، لكي يعيد الى اذهان الرجل العاقل الكثير مما نسيه ، فيتعظ به[1] . انه يكتب للاكليروس او العقلاء من المسيحيين ، ويدرك جيدا ان المسيحيين لا يشمئزون من المحيط الشرقي التي تجرى فيه فصول قصصه ، بل على العكس يبدو لهم محيطا محترما مغريا نظرا للازدهار الذي عرفته الحضارة العربية ، فلم يتردد في اظهار مصدر هذه القصص العربية وما فيها من عقائد واساطير.

محور هذه القصص هو ان والدا استدعى ابنه لكي يرشده قبل مماته فتكلم باسم لقمان الحكيم الذي عاش قبل الاسلام.

يروي قصة عنوانها «الملك والخصيان» ، وقصة اخرى عن حضريين وبدوي متوجه الى مكة لقضاء فريضة الحج. ويتحدث عن الانموذج المثالي للصداقة الوفية حتى الموت وهي ليست من الاساطير القديمة بل من تاجر بغدادي وآخر مصري. وبين هذه القصص قصة اسباني يتوجه الى مكة ويترك امواله مودعة في مصر ، وفي مصر تدور حلقات القصة الى آخرها.

واذا جاء على ذكر بعض الامثال فانه يأتي على ما جاء عن لسان ارسطوطاليس وسقراط وافلاطون وخاصة في رسائل ارسطوطاليس الى الاسكندر ، وهذه الامثال والاقوال معروفة ومتداولة عند العرب . وبين الثلاثين قصة لا توجد سوى قصة نبيل من الاشراف توجه الى رومة للصلاة . فعلى ما يظهر ان بدره الفونسه يرغب ان يطعم قصته بالذوق الغربي فيعوده على كلمة الحج والحجاج ومكة.

اطلق بدره الفونسه على ذاته اسم خادم المسيح . يقول انه ألّف هذا الكتاب وصبغه بالصبغة الاسلامية لكي يعرف الانسان في هذا العالم ان يكون حذرا ويربح ملكوت السماء ويقول في نهاية مقدمته : اذا قرأ احدهم هذا الكتاب بعين بشرية ورأى فيه ما لا يرضيه اوصيه بالعودة الى قراءته مرة اخرى بعين يقظة حتى يرى فيه الايمان المسيحي. والحقيقة هو ان الكثير من هذه القصص الشرقية بعيد جدا عن الاخلاق التي يقتدى بها ، فقد وجدت في هذا الكتاب ست قصص تتحدث عن خبث النساء ومكرهن وحيلهن وخيانتهن. وهذه الناحية في الادب العربي

---

(1) Menendez Pidal: «España eslabon entre la Cristiandad y el Islam». Colec. Austral N⁰ 1280.pp. 20-21.

مستوحاة من الادب الهندي الذي يحفل بالكثير من القصص التي تتحدث عن خداع النساء وحيلهن.

وقد ادرك بدره الفونسه انه تناول موضوعا لا يتفق كثيرا والاخلاق المسيحية فاضفى عليه هالة من سمو الاخلاق مذكّرا ان سليمان الحكيم لعن المرأة الشريرة وامتدح المرأة الصالحة في سفر الامثال لما يقول: «المرأة الصالحة ومن يجدها فقد وجد اللآلىء». وعلى هذا النحو يذكر سليمان اثنتي عشرة سورة، ورغم حسن التخلص هذا فان كتابه «تهذيب الاكليروس» بعيد كل البعد عن سفر الامثال الذي يذم المرأة الشريرة ويمتدح المرأة الصالحة.

وقد اقتدى الوعاظ بالكنائس في القرون الوسطى ببدره الفونسه، فان هؤلاء الواعظين عندما يدركون ان الملل اصبح يتسرب الى نفوس المستمعين من المؤمنين، ولكي يوقظوا انتباههم من جديد يتلون عليهم قصة قصيرة.

وقد رأينا ان نقدم نموذجا من هذه القصص التي كتبها بدره الفونسه لتهذيب الاكليروس اليكم القصة العاشرة من هذه الروايات:

«شاء احدهم السفر الى الخارج فاوصى حماته بالسهر على امرأته. فصادف ان هذه الزوجة وقعت في هوى رجل آخر وتعذبت بهواها واطلعت امها عليه. فتألمت الام لعذاب الابنة فساعدتها على الوصول الى غرضها.

استدعت العشيق الى البيت، وجلس الثلاثة حول مائدة الطعام يأكلون ويشربون مسرورين، وبينما هم في بهجتهم وانشراح صدرهم وصل الزوج فجأة وقرع الباب، فنهضت الزوجة واخفت عشيقها في غرفتها ثم فتحت الباب للزوج.

دخل الى البيت منهوكا من التعب وطلب من زوجته اعداد السرير للراحة. فاضطربت الزوجة ولم تدر ما العمل لان عشيقها في غرفة الزوجين. وادركت امها حيرتها واضطرابها فبادرت الى انقاذها من ورطتها ووجهت الكلام الى ابنتها قائلة:

«لا تعجلي يا ابنتي في اعداد السرير قبل ان يرى زوجك اللحاف الذي اعددناه. وسحبت لحافا واخذت باحد اطرافه، وطلبت من ابنتها ان تأخذ الطرف الآخر حتى اصبح على شكل ستار اتخذه العشيق وسيلة للهرب والتخفي. ولما رأت الام ان العشيق قد اصبح بمأمن ولم يعد من خوف على ابنتها قالت لها: مدّي يا ابنتي اللحاف على السرير الذي اعددناه لزوجك.

فقال لها الزوج : « انت يا سيدتي تحسنين اعداد لحاف جميل مثل هذا ؟ فأجابت العجوز : نعم يا ولدي لقد نسجت ألحفة كثيرة.

نالت هذه القصص الشرقية شهرة بعيدة في العالم الغربي حتى ما بعد القرن الخامس عشر فوصل تأثيرها الى القصص الفرنسية والى المسرح الشعبي الانكليزي، وبنوع خاص بين الاكليروس العلماني والقانوني.

يصعب علينا في ايامنا هذه ان نتصور قصة مثل القصة التي جئنا على ذكرها توحي خشوعا للمصلين في الكنيسة. ولكن بدره الفونسه ينصح الناس الا ينظروا الى هذه القصص بعيون الجسد بل بعيون الروح. وقد اضفى علماء الاخلاق في القرون الوسطى صبغة رمزية على هذه القصص، فقد فسروا القصة التي سردناها على النحو التالي :

الزوج الذي يسافر الى الخارج اشبه شيء بكل مسيحي تعتبر حياته في هذا العالم كأنها سفر. وامرأته الخائنة ترمز الى اللذات الحسية والرذيلة.

عودة الزوج الغائب الذي يقرع باب داره هو رمز للانسان النادم، او الندم والصلاة والصوم.

والحماة الشريرة هي العالم الخاطىء الذي يعمي بصيرة الانسان بفراش الاباطيل واللذات.

وعلى هذا النحو فالقصة ارتدت طابعا روحيا رمزيا.

وقد اصاب بدره الفونسه في موضوع قصصه الاسلامية ليس من حيث انها مثال الاخلاق العلمانية في هذه الحياة، كما يعمل جميع الروائيين، بل انه جعل هذه القصص قاعدة للاخلاق المسيحية لتلك النفوس التي تريد ان تربح السماء، وبذلك يكون قد ساير الميل الاسباني المستتر في طبيعة الاسبان المهتمين بالحياة الاخرى فاتاهم بهذا الكتاب الذي يطابق ميولهم، ومن هنا نال نجاحا باهرا.

لقد كان نجاح هذه القصص ضخما جدا لانها جديدة وفريدة في نوعها، فللمرة الاولى تقرأ في اروبة قصص من النوع الادبي الذي لم يظهر له اثر في الآداب اليونانية – اللاتينية القديمة. وصارت تقرأ باعتبارها صادرة عن عالم جذاب ساحر يستهوي الناس تحت تأثير السلطة الفلسفية المشرقية. فانتشر كتاب «Disciplina clericalis» « تهذيب الاكليروس » بسرعة في جميع انحاء اوروبة، نظرا للجشع الاوروبي في التهام الانتاج الادبي العربي الشرقي المطعم بالصبغة الغربية.

اعتمد ناشر هذا الكتاب على ستين مخطوطا موزعة في جميع الانحاء الاوروبية من برشلونة

حتى كراكوفية في بولندة ومن رومة الى اوبسالة (اسوج). انه اصبح كتاب التأمل والصلاة في جميع المدارس الاكليريكية ويتخذه الواعظون الغربيون في القرون الوسطى امثولة يقتدى بها. وقد ترجم الى اللغات الكبرى الاوروبية كما نقل الى اللغات الشعبية واستمر سائدا طيلة اجيال. وقد نظم هذا الكتاب شعرا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما ترجم الى اللغة القطالانية. وترجم شعرا الى اللغة الافرنسية، وفي القرن الرابع عشر نقل الى اللغة الايطالية، وفي القرن الخامس عشر نُقِل في اسبانية وفرنسة والمانية وانكلترة الى هذه اللغات الاوروبية. وقد استقى منه الرواة في اروبة ونسجوا عليه وتوسعوا في القصص على طريقتهم الخاصة، وقد تساوى في هذا الاقتباس الادباء الكبار مع الادباء المغمورين، فكان منهم في اسبانية دون خوان مانويل والخوري اسقف الهيتي Archipreste de Hita وبكاشيو وغيرهم وجميعهم مدينون لهذه القصص العربية التي نقلها بدره الفونسه الى اللاتينية.

ادخل هذا اليهودي المتنصر الذي كان من الحخامين الكبار قبل تنصره، في الادب الاوروبي القصص الشرقية الشريرة لكي لا تقرأ بأعين بشرية بل بعيون طاهرة كاثوليكية. وهذا الترتيب على الذوق الاسباني ازدهر وطال عمره. حتى وصل الى خوري اسقف هيتا الذي وضع كتابه «الحب الحسن» على هذا الاسلوب وشاء أن نقرأه بعين بريئة لانه كتبه بهينمة الايمَان الكاثوليكي. «EL BUEN AMOR»

ومن ناحية اخرى فان الجديد في «تهذيب الاكليروس» هو انه شع في اسبانية وسبق القصص العربية الاخرى اكثر من قرن، مثل السندباد البحري او كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.

ان «كتاب» «تهذيب الاكليروس» هو من ذلك النوع الادبي الذي لا يهتم بصياغة الاسلوب، بل بجوهر القصة دون النظر الى الطريقة التي كتب فيها وان كتابا مثل هذا يلاقي انتشارا كبيرا لان ترجمته سهلة لا تتطلب العناء والجهد في التفتيش عن الالفاظ الغريبة لان هذه الالفاظ لا وجود لها في كتاب «التهذيب الاكليريكي». (١)

الافراط في الحب والاخلاص:

وهذه قصة وضعها بدره الفونسه وتداولتها القرون الوسطى ووصلت الى ايامنا، فقد نقلها

(١) منيندس بيدال، ظهر سابقا، من صفحة ٢٤ – ٢٥

« هرمان هسي » من اللاتينية الى الالمانية في الربع الاول من هذا القرن ثم نقلت الى الاسبانية عن الالمانية. وها نحن نردّ هذه القصة الى مصدرها الشرقي العربي. قال «هرمان هسي» حامل جائزة نوبيل للاداب :

« ذكر بدره الفونسه » انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجلان ، يقيم الواحد في مصر والآخر في « بلدخ » ، جمعتهما المراسلة ، فالمصري يطلع البلدخي على ما يحدث في مصر بلاده والبلدخي يعلمه بما يجري في بلدته. وعلى هذا النحو تولدت مودة صادقة عن طريق المراسلة دون الاقتران بمعرفة شخصية.

في احدى الليالي بينما البلدخي على فراشه قال في نفسه : يظهر لي صديقي المصري مودة خالصة ومع ذلك لم ار له وجها فعلي القيام برحلة الى مصر للتعرف عليه.

وفي اليوم التالي عمد الى تنفيذ فكرته فاكترى مركبا وتوجه الى مصر. وعندما وقف صديقه على نبأ قدومه اليه اقبل للقائه واخذه الى داره. وصادف ان شاهد البلدخي في منزل صديقه جارية بارعة الحسن شغف بها حبا ، والحب اول ما يكون بنظرة ، فقد سحرته بلحاظها التي نفذت الى فؤاده ، فامتنع عليه القرار فلا قرار ، فسأله صديقه المصري :

– ايها الاخ الكريم ، قل لي ماذا دهاك؟

فاجابه قائلا : رأيت في دارك جارية اخذت بمجامع قلبي ولا استطيع الحياة بدونها.

– الامر سهل.

ثم استدعى جواريه ، فاقبلن جميعهن الا التي يطلبها ، فقال البلدخي :

بغيتي ليست بين هؤلاء الجواري ، فالجارية التي ابصرتها عندك تخلفت عن الحضور.

ولمّا رأى صاحبه اصراره ، امر باحضار الجارية ، فلمّا وقعت عيناه عليها قال : هذه هي المتسلطة على حياتي ومماتي... فقال له صديقه : ربيت هذه الجارية منذ الصغر حتى تصبح يوما من الايام زوجتي وقرة عيني ، وبما انك صديقي ومحبّي لك عظيمة اهبك اياها بكل ما عندها ولا ادعك تتألم بسببها.

ولمّا سمع هذه الكلمات داخله سرور لا يوصف ، واتخذها زوجة ، واقبل السعد على وجهها فكسب اموالا طائلة اضيفت الى اموالها فاصبح ثريا فعاد الى مسقط رأسه تصحبه زوجته.

وما طال الامر ان حلت بالمصري كارثة افقدته جميع امواله وممتلكاته حتى اصبح فقيرا

معدما . ففكر في نفسه قائلا : لماذا لا التجئ الى صديقي البلدخي فهو قادر على انقاذي من شدتي فقد سهلت له السبل للوصول الى الثروة ، فلا شك انه يرثي لحالي .

وسار الى بلدة صديقه ، وداهمه الليل قبل بلوغها فقال في ذاته : اقبل الليل فاذا وصلت اليه ليلا اخشى الا يعرفني في حالتي هذه لاني رث الثياب ولا خادم يرافقني وانا اعتدت على ان السير وفي ركابي الخدم والحشم وارفل في الثياب الانيقة ، فعلي ان استريح هذه الليلة وغدا اتوجه اليه .

والتفت حوله فوقع نظره على المدافن وابوابها مفتوحة فدخل لقضاء ليلته بين المدافن ، وبعد قليل سمع جلبة في الشارع انهم رجال يتشاجرون وقتل احدهم الآخر وهرب القاتل الى المدافن وخرج من الباب الآخر متواريا عن الانظار . وعلت الصيحة : اين القاتل ، اين المجرم؟

فصاح بهم المصري : انا قاتل الرجل فاقتلوني به .

فقبضوا عليه واودعوه السجن فبات ليلته فيه ، وفي الصبح مثل امام القاضي فحكم عليه بالاعدام شنقا . فاقتيد الى الشنق وصادف ان صديقه البلدخي اقبل من جملة الناس لمشاهدة هذا الرجل الذي يقاد الى منصة الاعدام فعرفه فقال في نفسه هذا صديقي الذي اعطاني زوجتي بكل ما تملك من مال ، يسير الى الموت وانا ابقى في قيد الحياة؟ هذا لا يكون ، وصرخ بملء حنجرته :

– ايها الاخوان ، لا تشنقوا هذا الرجل البريء ، انه لم يرتكب جناية قط ، انا المجرم القاتل .

فدهش الناس لسماعهم هذا الاقرار ، فالقوا القبض عليه وقادوا الاثنين الى ساحة الاعدام .

وما كادت تتم الاستعدادات لتنفيذ حكم الاعدام بهما الا اطل القاتل الحقيقي وقال في ذاته : انا ارتكب الجريمة ويعاقب عليها هذان البريئان ، الله ينتقم مني لهذا العمل الشنيع فالافضل ان القى الجزاء القصير هنا ولا العذاب الابدي في الجحيم . وهتف بصوت عال :

ايها الناس ، بحق الله ، لا تعدموا هذين البريئين ، لم يأتيا قولا او فعلا يستحقان القتل ، بل انا القاتل ، ارتكبت الجريمة شخصيا فاقبضوا علي واطلقوا سراح هذين الرجلين .

فازدادت دهشة الناس عند سماع هذا الاعتراف . واقتادوا الثلاثة امام القاضي من جديد . فلما رآهم دهش بدوره وسألهم : لماذا رجعتم الي؟

فتلوا على القاضي القصة من اولها الى آخرها

فقال لاولهم : ايها الرجل ، ما الذي حملك على الاقرار بجريمتك ؟

فاجابه روايتي عجيبة اتلوها بدون كذب : انا مصري ، عشت في النعمة والرخاء ، وبعدها قلب لي الدهر ظهر المجن وفقدت كل ما املك ، فقلت اتوجه الى هذا البلد فقد اعثر على محسن يمد لي يد المساعدة ، وكرهت السؤال وفضلت الموت على الحياة وما زلت افضلها واطلب منك يا حضرة القاضي ان تحكم علي بالاعدام .

ثم ان القاضي خاطب البلدخي : وانت ما هي قصتك ؟

فاجابه : هذا الرجل ، واشار الى المصري ، اعطاني زوجة وثروة ضخمة كان يحتفظ بها لها فعدت من عنده سعيدا ، فلما ابصرتهم يقودونه الى الموت لم اتمالك ان هتفت بهم : انا المجرم الذي ارتكب الجناية وليس هذا الرجل ، لاني بكل طيبة خاطر مستعد للموت فداءه .

وتوجه القاضي بالكلام الى القاتل الحقيقي :

وانت ما الذي حملك على تصرفك هذا ؟

فقال القاتل : لقد نطقت بالحقيقة ، يا سيدي القاضي ، ان نفسي تربأ ان يموت بريئان بسببي واظل في قيد الحياة ، ولذلك فضلت الاعتراف بالحقيقة ، بجريمتي ، وملاقاة عقابي في هذه الدنيا ، ولا العذاب في الآخرة ، في جهنم او في مكان آخر .

فقال له القاضي : بما انك اعترفت بجريمتك وانقذت رجلين من الموت اهبك حياتك على شرط الا تعود لمثلها ، فاذهب بسلام .

فحبذ الجميع حكم القاضي بعفوه عن المجرم الحقيقي لانه باعترافه انقذ حياتين من الموت .

وهذا كاتب اسباني من القرن السابع عشر قد تأثر ايضاً بهذه القصة هو :

كريستوبال لوسانه CRISTOBAL LOZANO

ولد «لوسانه» في «البسيط» عام ١٦٠٩ درس في جامعة «قلعة النهر» ، سيم كاهنًا مارس وظيفة الكهنوت في مسقط رأسه «هلين» من اعمال البسيط ، ثم انتقل الى بلنسية ثم عاد الى مسقط رأسه ، توجه الى انكلترة . نال الدكتوراه في جامعة قلعة النهر عام ١٦٤٠ ، تنقل في عدة مدن اسبانية ، حتى استقر اخيرا في طليطلة واصبح المرشد الروحي للملك ، توفي في طليطلة عام ١٦٦٧ ، له مؤلفات كثيرة منها : «قصص واساطير» . ادرجت في هذا الكتاب القصة المأخوذة

عن «بطرس الفونسه» وقد ادخل عليها تحريفات تناسب منزلته الكنسية وهذا تعريب القصة ببعض التصرف الذي لا يؤثر على جوهرها.

مثالان للصداقة

حكي انه كان في احدى المدن تاجر غني جدا له امناء يرسلهم الى المدن الكبرى والمرافئ الهامة مثل القاهرة والاسكندرية وجنوى ومسينة وغيرها للشراء وللبيع.

وحدث ان بعضهم قصدوا مدينة شرقية فتعرفوا هناك على تاجر لطيف المعشر دمث الاخلاق غني جدا وليس فيه ما يدلّ على انه لا ينتسب الى الديانة المسيحية. فاكرمهم وسألهم عن مدينتهم وعن صاحبهم وارسل له معهم هدايا نفيسة.

عاد هؤلاء الى بلادهم واطلعوا سيدهم على ما لاقوه من الحفاوة والاكرام عند هذا التاجر الكبير وقدموا له الهدايا.

وسرّ الشاب لان اسمه وصل الى تلك البلاد النائية فشكر السماء. ثم ارسل امناءه مرة اخرى الى بلاد ذلك التاجر وزوّدهم بهدايا نفيسة على سبيل المبادلة.

وتوثقت الصداقة بين التاجرين على غير معرفة.

ودبت رغبة في صدر الشاب النصراني لزيارة صديقه الوثني والتعرّف عليه وجها لوجه.

وقصد تلك المدينة الشرقية يرافقه عدد ضخم من الخدم والحشم يحملون الهدايا والتحف والبضائع ليظهر بمظهر الغنى والثروة والجاه.

ولمّا علم صديقه الشرقي بقدومه خرج لاستقباله بابهة واخذه الى بيته وانزله احسن منزلة واكرمه اجمل اكرام.

ولمّا شاء العودة الى بلاده ادخله في دهليز يؤدي الى قاعات جمعت انفس الرياش والاواني الذهبية والتحف وطلب اليه اختيار ما شاء منها فرفض جميعها لانه بغنى عنها والحمد لله.. عند ذلك قاده الى قاعة اخرى من الدار ابصر فيها سبع جوار لم تقع عينه على اجمل منهن، اختارهن الشرقي للزواج بهن لان شريعته تسمح له بالزواج بمَا شاء من النساء.

جال النصراني بعينيه فيهن فاعجبته احداهن، ولكن صادف ان التي وقع اختياره عليها هي المفضلة عند صاحب الدار ولكن نظرا للصداقة التي تجمعهما اخفى الم بقدر المستطاع

وقال : ايها الصديق ، دعوتك لاختيار احداهن فاخترت التي احبها قلبي وارتضتها نفسي فخذها مبارك لك فيها .

ثم زوّدها بالتحف والحلى والجواهر والملبوسات . فودع النصراني صديقه والبهجة تملأ فؤاده ورجع الى بلاده واتخذ الجارية امرأة له بعد ان عمدها واصبحت نصرانية واقيم عرس تحدث عنه الناس شهرا .

اما صديقه داخله الحزن على فراق الجارية ، وفارقته لذة العيش واخذت تجارته تضعف ورزقه يقل حتى دخل اليه الفقر من الباب الواسع وشمت به حساده .

فقال في نفسه : لماذا لا اذهب الى صديقي النصراني فقد اجد عنده ما يقيلني من عثرتي .

ونفذ كلامه وتوجه الى مدينة صديقه واستهدى الى داره ، وانتظر قدوم الليل حتى يزوره ، فقرع الباب واقبل احد الخدم يفتح له وسأله عن سبب مجيئه فقال : انه يرغب في رؤية صاحب الدار.. فلمّا ابصره الخادم في حالته الرثة ولا ينتظر منه مكافأة انكره حاله واجابه بجفاء : ان سيده لا يستطيع مقابلة احد في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

فقال للخادم : انه صديق حميم لسيده فليسمح له بالدخول.

ولكن الخادم لم يعبأ بكلامه اذ اعتبره صادرا عن انسان خولط في عقله وبدون ان يرد عليه اغلق الباب في وجهه.

انصرف حزينا كئيبا يائسا من الحياة فانزوى عند مدخل كنيسة واستسلم للبكاء والنحيب حتى غلبه النعاس وصادف ان احد اللصوص سطا على بعض المارة ليسرق ماله فقاومه فمَاكان منه الا ان قتله وترك جثته قريبة من المكان الذي يرقد فيه التاجر..

وطلع الصباح وهب الناس الى اعمالهم فابصروا الجثة قرب الرجل النائم فاخذوه الى القاضي.

فاعترف بانه مرتكب الجريمة فاخذوه الى الساحة العامة ليصلب . واقبل الناس الى التفرج عليه ومن جملتهم صديقه التاجر فتأمله وعرفه فصرخ في الناس.

– هذا الرجل بريء ، انا القاتل خذوني بدلا عنه واطلقوا سبيله.

فدهش الجميع لمّا سمعوا هذا التاجر الكبير يعترف بارتكابه جريمة قتل.

وماكادت تذهب دهشتهم حتى سمعوا مناديا يهتف بهم صارخا : «ايها الناس ، انا القاتل

المجرم وهذان الرجلان بريئان وليس من العدل ان يؤخذ البريء بجريرة ، انا استحق الموت وليطلق سراح هذين الرجلين. ودهش القضاة من هذه الحادثة الغريبة انهم امام ثلاثة اشخاص يعترفون بارتكاب الجريمة نفسها فاوقفوا تنفيذ الحكم لاستجلاء الغامض في هذه القضية. وانكشفت الحقيقة واضحة : الاول شاء التخلص من الحياة بعد ان فقد كل شيء حتى صديقه ، والثاني شاء انقاذ صديقه ، والثالث هو القاتل الحقيقي ابت عليه مروءته في آخر لحظة ان يقتل بريء فاقرّ بجريمته وظروفها بحذافيرها.

فاطلق سراح التاجرين وعفوا ايضا عن القاتل لانه اعترف بجريمته.

وقاد التاجر النصراني صديقه الى داره واكرمه وقدم له الهدايا وطلب اليه اعتناق الدين المسيحي وتقبل سر العماد وسرّ به صديقه فزوّجه احدى قريباته وهي فتاة جميلة وغنية واعطاه نصف ثروته.

هذه هي الصداقة الحقيقية لا تلك الصداقة الكاذبة كما يقول الشاعر:

«ان قل مالي فمَا خل يصاحبني او زاد مالي فكل الناس خلاني»

ارناو فيلانوفا : ARNAU VILLANOVA

ولد ارنو في منتصف القرن الثالث عشر في قطالونية. درس عند الرهبان الواعظين الذين تركوا في صدره ذكريات جميلة ، وفي هذه المدة تعلم اللغة العربية الامر الذي سمح له بالوصول الى عدد كبير من الكتب الطبية في هذه اللغة.

حوالي عام ١٢٦٠ يتوجه الى مونبيليه لدراسة الطب ونال لقب معلم في الطب ، ثم ما لبث ان تزوج من اينيس بلاسي INES PALASI . ويظن انه قضى بعض الوقت في جامعة نابولي التي رممها شارل دانجو. ولكن تبين فيمَا بعد انه لم يتعرف على تلك الجامعة بل عاد الى بلنسية ومارس فيها مهنة الطب وفي عام ١٢٧٦ ولدت له ابنته ماريا.

وفي عام ١٢٨١ اصبح طبيب الملك بطرس الثالث كونت برشلونة وملك اراغون.

انتقل ارنو الى برشلونة ونال شهرة في ذلك العهد بانه مترجم من العربية الى اللاتينية ، وهناك يواصل دراسة اللغات ولاسيمَا اللغة العبرانية تحت اشراف رامون مرتين ، من المحتمل ان يكون تعلم اللغة اليونانية ايضا ، فقد عثر في مكتبته على اربعة كتب باليونانية ، الى جانب انه كان

على علاقات مع اديرة في جبل اثوس استمرت علاقاته حسنة مع بطرس الثالث حتى وفاته عام ١٢٨٥

وفي عام ١٢٩١ شرع في ممارسة مهنة تعليم الطب في مدرسة مونبيليه.

وما طال الامر ان دعاه الملك جقمه الثاني عام ١٢٩٣ الى قطالونية لتأدية بعض خدمات طبية، ثم ما لبث ان عاد الى مونبيليه.

وفي عام ١٢٩٩ اوكل اليه الملك جقمه الثاني Jaime مهمة سياسية لدى الملك الفرنسي فليب الجميل للتقارب بين المملكتين. وهنالك في باريس شاء تعريف الناس بافكاره الروحية فاحب ان يطلعهم على تأليفه الجديد بشأن مجيء «المسيح الدجال»، وفي ليلة ١٨ كانون الاول من ذلك العام اودع السجن بسبب عقيدته الدينية وفي اليوم التالي اطلق سراحه لقاء كفالة. غير انه بعد بضعة اشهر اضطر للمثول امام مطران باريس، وكانت النتيجة ان حكم باحراق الكتاب.

في عام ١٣٠٢ يعود الى اراغون ويشتبك بنقاش لاهوتي مع رهبان الدومنكان في مدينة جيروندة باسبانيا توفي عام ١٣١١ في طريقه الي افينيون لمعالجة البابا فدفن في جنوا.

طبعت مؤلفاته الطبية والفلسفية في باسيل عام ١٥٨٥

ترك مؤلفات كثيرة في الطب والفلسفة واللاهوت والكيميا تهمنا ترجماته عن العربية

ترجم لجالينوس كتابا عن العربية يحمل باللاتينية عنوان

«De rigore, jecticatione et spasmo.

وترجم لابن سينا كتابا اعطاه باللاتينية عنوان: «De viribus cordis»

وكتابا آخر لقسطا بن لوقا البعلبكي اعطاه عنوان: «De ligaturis physicis»

وكان هذا الكتاب قد نسب الى جالينوس ولكنه بالحقيقة هو لقسطا بن لوقا وعنوانه بالعربية: «مسائل في الحدود على رأي الفلاسفة».

الفصل السّابع

دانتي والاسلام

اول من اثار مسألة التأثير الاسلامي في دانتي «اسين بلاسيوس» ASIN PALACIOS المستعرب الاسباني في رسالته التي قرأها عند قبوله عضوا في اكاديمية التاريخ.

عنوان الرسالة بالاسبانية : «LA ESCATOLOGIA MUSULMANA EN LA DIVINA COMEDIA»

اي «فلسفة الحشر والنشر الاسلامية في الكوميدية الالهية» (لدانتي)

لاقت هذه النظرية الجديدة ضجة كبرى في الاوساط الادبية العالمية لاسيمَا الاوسَاط الايطالية ، وقد نقل البحث الطويل الى عدة لغات اوروبية ولسؤ الحظ لم يترجم الى العربية وقابله المتعصبون لدانتي بالعداء الشديد : دانتي في نظرهم لم ينقل عن المسلمين اي عبارة مما جاء في الكوميدية الالهية ، لانه ليس من احد يستطيع ان يبرهن ان دانتي كان يعرف العربية كما ان هذه الروايات التي ذكرها اسين بلاسيوس في كتابه لم تنقل الى اللغات الاوروبية حتى يتأثر بها دانتي... وهكذا ظلت القضية معلقة بين الشك واليقين : هل ان دانتي تأثر بالعرب؟ وعن اي طريق؟ مع ان مقابلة النصوص العربية مع النصوص الايطالية في الكوميدية الالهية لا تقبل الريب ، الكلمات ذاتها والموضوع ذاته والجمل والتعابير ذاتها كما يتبين في رسالة اسين بلاسيوس. ولكن ليس من شيء يثبت ان هذه النصوص العربية قد نقلت الى اللغات الاوروبية لكي يتأثر بها دانتي.

كان ذلك في الربع الاول من القرن العشرين. وطالت المناقشات والمجادلات بين مؤيد لاسين بلاسيوس وبين مؤيد لدانتي.

ودخلنا في الربع الثاني من هذا القرن ولم يستطع اسين بلاسيوس اثبات ترجمة هذه النصوص العربية التي تأثر بها دانتي الى اللغة اللاتينية او اي لغة اوروبية كان من الطبيعي ان يعرفها دانتي...

توفي اسين بلاسيوس عام ١٩٤٤ وما طال الامر ان اكتشفت نصوص دلت على ان المعراج قد ترجم في منتصف القرن الثالث عشر الى اللاتينية والاسبانية والفرنسية في بلاط الملك الفونسه العاشر الحكيم في طليطلة (اسبانية) فقد عثروا على مخطوطات لهذه الترجمة اللاتينية والفرنسية ولم يعثر على الترجمة الاسبانية ولا على النص العربي.

مسكين اسين بلاسيوس، رحمه الله، لم يتلذذ ببهجة انتصاره، توفي قبل هذا الاكتشاف بثلاث او اربع سنوات. فقد عثروا على مخطوطات في عدة اماكن لترجمة «معراج محمد» الى اللغتين الفرنسية واللاتينية ونشرت الترجمتان في الوقت ذاته في اسبانيا وايطالية: الناشر الاسباني هو مونيوس سندينه» «MUNOZ SENDINO» والناشر الايطالي «انريكو تشيرولي» والمخطوطات موجودة في الاماكن التالية:

١ – مخطوط بودليانا يحمل رقم ٥٣٧ يقع في احدى وخمسين صفحة من القطع الكبير ويحتوي على ترجمة «قصة المعراج» الى اللغة الفرنسية، وقد وصل الى انكلترة عن طريق شمالي فرنسة وهو من اواخر القرن الثالث عشر.

٢ – مخطوط المكتبة الوطنية بباريس يحمل رقم ٦٠٦٤ ويقع في مائة وست وعشرين صفحة ويحتوي على الترجمة اللاتينية لقصة المعراج وهو من اواخر القرن الثالث عشر ايضا.

٣ – مخطوط الفاتيكان يحمل رقم ٤٠٧٢، وهذا يدل على ان المخطوط كان منتشرا في عدة اماكن من اوروبة، فقد عثروا على مخطوطات اخرى في ايرلندة وغيرها من البلدان الاوروبية.

وكما قلنا: ان الترجمة الاسبانية التي جرت في بلاط الملك الفونسه العاشر الحكيم في اسبانية مفقودة وكذلك النص العربي الذي اخذت عنه هذه الترجمات. غير ان مونيوس سندينو قد توصل الى تركيب ترجمة اسبانية عن النصين اللاتيني والفرنسي [١].

---

(١) MUÑOZ SENDINO: «La ESCALA DE MAHOMA»

وقد استعنت بالدكتور صلاح فضل الذي بذل جهودا كبيرة ، كما قال لي ، للعثور على النص العربي لليلة الاسراء والمعراج[1] .

وهذا هو النص العربي كما جاء في كتاب «دكتور صلاح فضل» عنوانه «تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي».

وسنعود لهذا الموضوع عندما نتحدث عن الترجمات في طليطلة على عهد الملك الفونسه العاشر الحكيم ، ومن الذي قام بهذه الترجمات .

مقابلة بين الروايات الاسلامية ودانتي

دانتي في المطهر يقول :

«وسرت في المرج وئيدا
على الارض التي بعثت شذاها في كل جانب
هواء عليل لا تتبدل طبيعته اخذ يلمس جبيني
وصغار الطيور لا تكف عن تغريدها وترنمها
والارض المباركة مليئة بالثمار والفاكهة

(مأخوذة عن المطهر ترجمة د. حسن عثمان. النشيد ٢٨)

ونقرأ في بعض الروايات الاسلامية هذا الوصف للانهار التي تنبع عند باب الجنة :

«عين ماء عذب بارد في مثل صفاء القوارير
اصفى من البلور وابرد من الثلج واشد بياضا من اللبن

ويقول دانتي :

وان كل ما في هذا الجانب من المياه الصافية الرائقة
لتبدو عكرة بجانب تلك التي لا تخفي بين طياتها اي رواسب .
وان مذاقها ليفوق كل مذاق
فهي رحيق يجري ذكره على لسان الجميع .

(المصدر السابق)

---

(١) دكتور صلاح فضل : تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي ، دار المعارف ، الطبعة الاولى عام ١٩٨٠ صفحة ٢٢٥ – ٢٧٦ .

وصف نساء وحور الجنة

الرواية الاسلامية

فنظرت فاذا حوراء يقصر جمال كل الحور دون جمالها ويقل كل كمال دون كمالها. عليها حلة من الوان شتى. يكاد يخطف الابصار نور وجهها ويذهب الالباب بهجة بهائها بما كساها الله من الحسن والجمال والبهاء والكمال. ينظر الى وجهه في خدها اصفى من المرآة ويغلب ضوؤها ضؤ الشمس والقمر ولولا ما رزق الله وليه المؤمن من قوة الابصار وثبات الجنان لذهب بصره ووهمه بنور ما يرى منها وبهاء ما يبدو عنها فلو ان طاقة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها

الرواية الايطالية–دانتي في المطهر

هكذا بدت لي سيدة تكللت بغصن الزيتون فوق نقابها الابيض. وارتدت تحت العباءة الخضراء ثوبا قانيا احمر. وقد بدت لي انها قد فاقت جمالها القديم اكثر من تفوقها على سائر النساء هنا فنظرت الى النور البهيج في مقلتيها ورأيت كيف يتبين اشراق جمالها.

ايها الجلال المتألق للنور الابدي الساطع ظلت عيناي محدقتين مثبتتين عليها حتى غابت سائر حواسي عن الوعي ولقد حرمتني من النظر برهة الحال التي يؤول اليها البصر حينما تصيب اشعة الشمس العينين، ولكن بعد ان الف بصري ما هو اقل منها تألقا. (المطهر: الاناشيد ٣٠ – ٣١ – ٣٢ واسين بالاسيوس ص ٢٠١ – ٢٠٢)

صور من الفردوس:

يقول دانتي:

«رأيت معراجا يتجه الى الاعالي بلون الذهب الذي يعكس
اشعة الشمس حتى لم تقوى على متابعته عيني
وكذلك رأيت على درجاته انوارا كثيرة تهبط الى اسفل
حتى ظننت انه قد انتثر عليه كل ما يبتدىء في السماء من الانوار
(الفردوس: ترجمة الدكتور حسن عثمان نشيد ٢١)

جاء في قصة المعراج:

«اراني جبريل سلما يمتد من السماء الاولى الى الارض

اولى درجاته من ياقوت وثانيها من زمرد وثالثها من لؤلؤ ناصع البياض ، وكل درجة اخرى من حجر نفيس... كلها محوطة بالملائكة الذين يحفظونها ، وكانت من البهاء والاشراق بحيث يغشى نورها البصر... واخذ جبريل بيدي الى الدرجة الاولى وصعدنا الى السماء في لمح البصر

صورة اشتداد الضؤ في الرواية الاسلامية :

« ان الله اعطاني عند ذلك من الابصار مثل قوة اهل الارض وزادني من عنده ما هو اعلم به ومنّ علي بالثبات وحدد بصري لرؤية نورهم ولولا ذلك ما استطعت النظر ». « رأيت من الملائكة ما تحار ابصار الناظرين دونهم فنبت عيناي عنهم لما نظرت من شدة تلألؤ نورهم ».

« فلما نظرت اليه صار بصري دونه حتى ظننت ان بصري قد ذهب من شدة نور ذلك البحر حتى رددت يدي على عيني » ، « فلمّا نظرت اليه اسود بصري وغشي علي » فلولا ان الله ايدني بقوته لتخطف نورهم بصري ولكن درأ عني وهج نورهم وحدد بصري لرؤيتهم ».

« فلمّا نظرت اليه كاد شعاعه يخطف بصري حتى جعلت لا ابصر شيئا كأني انما انظر الى ظلمة لا الى نور ، ورد جبريل يديه على عينيه مخافة على بصره ان يذهب من تلألؤ نور العرش ، فحار بصري دونه حتى خفت العمى فغمضت عيني فرد الله بصري الى قلبي ».

صورة اشتداد الضؤ عند دانتي اذ يقول في اماكن متفرقة :

– واتجهت عيناي بكلتيهما الى بياتريس ولكن انوارها سطعت امام باصرتي حتى لم تقويا لاول وهلة على النظر اليها.
– ايه ايها السناء الحق للروح القدس ، كيف تألق بغتة امام عيني حتى لم تقويا وهما مبهورتان على شهوده.
– ثم استردت عيناي بفضلها القدرة على النظر الى العلياء.
– وكمن يشخص ببصره ويجهد نفسه لكي يرى الشمس وهي تنكشف قليلا ، وفي سعيه لكي يرى يصبح غير قادر على الرؤية.
– هكذا اصبحت امام هذا القبس الاخير.
– ومن خلال النور المتألق شع الجوهر المنير متلألئاً في عيني حتى لم اقو على احتمال بهائه.

- رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغي اغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بمَا اتاها من الحدة الفائقة.
- وكبرق خاطف يزيغ من قوى الابصار ، حتى ليحرم العينين من قدرتهما على رؤية اكثر الاجسام ضياء.
- هكذا احاط بي نور ساطع وتركني مغشى في نقاب من ضيائه حتى لم اعد استبين بنفسي شيئا.
- اذ ان بصري حين اضحى صافيا ، اخذ يتغلغل رويداً رويداً في شعاع النور الاسمى الذي هو نور الحق في ذاته.
- ومنذ تلك اللحظة فصاعدا صارت مشاهدتي اعظم من كلامنا الذي يعجز امام هذه الرؤية.
- واعتقد ان بصري كان سيتولاه الزيغ من حدة ذلك الشعاع الباهر الذي احتملته ، لولا ان عيني حادتا عنه.
- واذكر اني بهذا قد اصبحت اعظم قدرة على احتماله حتى اني وصلت بين رؤيتي والخير اللانهائي.
- ايتها النعمة الفياضة التي اجترات بفضلها على ان اسدد عيني الى النور الابدي حتى استنفذت هناك كل ابصاري».

صورة النسر والديك:

نموذج النسر العجيب عند دانتي:

«وكما تتطاير شرارات لا عداد لها بالضرب على الحطب المحترق
بدا لي عندئذ انه قد نهض اكثر من الف نور... وصعد بعضها
فوق بعض ، كما قدرت لها الشمس ان تشعلها
وحينما سكن كل منها في موضعه رأيت رأس نسر ورقبته
تتمثلان في تلك الانوار المتلألئة».

بجناحين ممدودين بدت امامي الصورة الجميلة
التي صنعتها الارواح المتآلفة المغتبطة بنعيمها العذب
وتبدت كل منها كانها ياقوتة صغيرة واشتد فيها

توهج اشعة الشمس حتى اصبحت منعكسة في عيني
وكالبازي الذي يتخلص من غمائه فيحرك رأسه ويعمد
الى خفق جناحيه مبديا تحفزه ومحملا نفسه.
هكذا فعلت الصورة المباركة التي خفقت جناحيها
وهي مسوقة بالكثير من رغائبها...
والقبرة التي تحلق في الهواء مفردة لاول وهلة ثم
تنسمت راضية نشوى بختام شدوها العذب.
هكذا مضت ارواح مباركة في طيرانها وهي تشدو
بداخل هذه الانوار.

في التراث الاسلامي، ولكن بدل النسر ديك:

«رأيت في السماء ديكا له زغب اخضر وريش ابيض كاشد خضرة وبياض رأيتها قط، واذا رجلاه في تخوم الارض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن له جناحان في منكبيه اذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب فاذا اخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول: سبحان الملك القدوس، فاذا فعل ذلك سبحت ديكة الارض خفقت باجنحتها، فاذا سكن ذلك الديك في السماء سكنت الديكة في الارض».

«فنظرت امامي واذا انا بملك على صورة الديك، اسمه ميكائيل عنقه تحت العرش ورجلاه في تخوم الارض ورأسه افرق ابيض اشد ما يكون البياض نورا عرفه اخضر واصفر وهو ساجد يقول في سجوده: سبحان الله العظيم فاذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الارض واذا سكت سكتوا، فلم ازل منذ سمعته مشتاقا اليه.

تدرج المتعة والرضا والقنوع:

تتولد من الرؤية الالهية لذة تتدرج في عمقها تبعا لحالاتها حتى تصل الى مرحلة السكر والفناء، هذه الفكرة نراها ماثلة عند دانتي في مثل قوله:

«انه نور روحاني مفعم بالمحبة بمحبة الخير الحق
الملىء بالبهجة التي تسمو على كل عذوبة».

(الفردوس نشيد ٣٠، ابيات ٤٠ - ٤٣)

ويقول دانتي ايضا :

«وعجزت ذاكرتي امام عظمتها
مثل من يرى في حلمه شيئا وتبقى من بعد حلمه اثارة
مما احس به لكنه لا يستعيد سائر ما رآه
هكذا اصبحت اذ كادت تخونني رؤيتي تماما
ايها النور الاسمى... فتعر عقلي ثانيا شيئا من الصورة التي بدوت عليها
ان لحظة واحدة تمنحني النسيان».

يقول ابن عربي :

«لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير فيتلذذون بها فانهم في وقت المشاهدة كانوا في حال فناء عنهم... فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم بل اللذة عند اول التجلي حكم سلطانها عليهم فافناهم عنها وعن انفسهم فهم في اللذة في حال فناء لعظيم سلطانها ، واذا ابصروا تلك الصورة في منازلهم واهليهم استمرت لهم اللذة وتنعموا بتلك المشاهدة فيتنعمون بهذا الموطن بغير ما افناهم في الكتيب».

(فتوحات مكية الجزء الثالث ص ٥٧٨)

من مشاهد العذاب :

التراث الاسلامي من قصص الانبياء	**من جحيم دانتي**
فساق الله السحابة السوداء التي اختارها	فهبت العاصفة الجهنمية بهوائها الاسود
– رأيت ريحا فيها كشهب النار	– ريح متقدة بالنار
– ريح فيها عذاب اليم تدمر كل شيء	– ريح مضنية أليمة.
– الريح العقيم	– هواء خبيث
– فتحملهم وتدفعهم حتى هلكوا	– رهقهم وهي تدور بهم.
– وتطير بهم الريح بين السماء والارض	– تقودهم في الفضاء بعنف لا يهدأ
– فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم	– تقودهم هنا وهناك الى اسفل والى اعلى
– فتحمله ثم ترمي به فيندق عنقه	– لا يحدوهم الامل في الراحة
	(الجحيم النشيد الخامس)

معراج محمد

الفصل الاول:

بينما كان محمد في بيته بمكة، على فراشه مع زوجته ام هانئ يتأمل في شريعة الله بين النائم واليقظان اذ جاءه جبريل على غرة بوجه ناصع البياض، وشعر اشد حمرة من المرجان وحواجب مزججة وفم جميل واسنان صافية وكان يرتدي حلىلا بيضاء نفيسة مرصعة باللآلئ والاحجار الكريمة، وقد شد على خصره شريطين من الذهب يتعامدان عند مجمع صدره وخصره وكانت يداه حمراوين كاللهيب وجناحاه وقدماه اشد خضرة من الزمرد.

اقترب منه وقال له: «انهض يا محمد، ضع نطاقك وائت في اثري فان الله اراد ان يريك هذه الليلة اسرار قدرته وآياته». فينهض ويضع رداءه ويمضي الى عتبة بيته حيث كان الملك في انتظاره.

الفصل الثاني:

وعندما يسلم عليه يلاحظ الرسول ان جبريل ممسك بزمام البُرَاق، وهو دابة اكبر من الحمار واصغر من البغل، له وجه انسان وعرفه من اللؤلؤ، وجبينه من الزمرد وذيله من الياقوت، عيناه ابهى من الشمس واقدامه وحوافره مثل الجمل وجسمه كله يشع نورا وبهاء، اما سرجه ومقعده فهو من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكان محوطا بزمرة من الملائكة الحفظة.

ويدعو جبريل الرسول كي يركب البُراق لكنه عندما يقترب منه ينفر ويأبى فيأمره جبريل ان يذعن ويصبح ذلولا له اذ انه اول انسان يركبه، فيسأله البُراق عمن يكون فيجيبه الملك بانه محمد، عندئذ يهدأ البُراق ويذعن له فيمتطيه محمد ويبدأ في السير نحو المسجد الاقصى بالقدس بخطوات تبلغ في اتساعها درجة انه يضع رجله على ابعد مدى يدركه طرفه.

الفصل الثالث:

وكان جبريل يمضي الى جواره وهو يبشره بمَا ينتظره من مكرمات، وفي الطريق يسمع محمد صوتا يناديه برفق مرة واحدة لكنه يمضي في طريقه لا يلوي على شيء، ثم لا يلبث مرة اخرى ان يسمعه وهو يناديه صائحا مرتين لكن محمدا لا يلتفت اليه ولا يأبه له. وبعد هنيهة طويلة يرى امرأة اجمل من وقع عليها نظره، وهي ترتدي حلىلا مبرقشة بكل الالوان فتناديه بصوت عذب رخيم ثلاث مرات ترجوه ان ينتظرها فيتوقف لكنها عندما تقترب منه وتهمّ بان تكلمه يصد عنها وينصرف الى طريقه، ويشرح له جبريل بعد ذلك ان الصوت الاول كان شريعة اليهود ولو كان قد رد عليه لاصبحت امته من اليهود، وان الصوت الثاني كان شريعة المسيح، ولو اجابه لتمسحت امته، واما المرأة الجميلة المزينة بكل الالوان والتي نادته ثلاث مرات فهي الدنيا

المليئة بالمتاع ، ولو اجابها لنعم قومه بزينة الحياة الدنيا التي لا تحصى . اما وقد صدها عنه فانه سيكون اطهر الانبياء واخلصهم من الذنوب والآثام.

ثم ما لبث ان انتهى بي الى المسجد الاقصى ، وانزلني امامه على الصخرة السوداء حيث كان ينزل الانبياء ، ثم ربط زمام البراق في الصخرة واخذني من يدي ودخل بي المسجد.

الفصل الرابع :

فوجدت بالداخل كل الانبياء وقد اصطفوا واقفين في دائرة المسجد فقد بعثهم الله من مراقدهم وجاء بهم تشريفا لي وعندما رأوني قادما تأهبوا للصلاة وعندئذ قال لي جبريل : تقدم انت لتؤمهم ، فانت سيد جميع الانبياء والمرسلين وخير خلق الله اجمعين. فتقدمت للصلاة بهم وعندما اديت الصلاة سلموا جميعا علي معظمين ومعانقين لي بفرح عظيم واخذوا يسألونني عمّا اعتزم عمله متمنين لي مزيدا من توفيق الله ونعمته وشرفه.

الفصل الخامس :

قادني جبريل بعد ذلك الى خارج المسجد وأراني سلما يمتد من السماء الى الارض وكان مشهدا رائعا فقد كان يرتكز على الصخرة السوداء ، اما درجاته كانت اولاها من ياقوت وثانيها من زبرجد وثالثها من لؤلؤ ناصع البياض وبقيتها كل درجة من حجر نفيس مختلف ، وكانت كلها مغطاة ببساط اخضر ومحوطة بالملائكة الحفظة وكانت من البهاء والاشراق بحيث تعشى البصر.

واخذ جبريل بيدي الى الدرجة الاولى واهاب بي ان اصعد فصعدت وهو برفقتي المرقاة ومعنا كل الحفظة من الملائكة.

الفصل السادس :

وفي عروجي رأيت ملكا عظيما جالسا على كرسي وبيده لوح كبير يبلغ طوله ما بين المشرق والمغرب ، وعلى يمينه جموع من الملائكة تلمع وجوههم كالقمر ليلة البدر ، تغطيهم اردية اشد خضرة من الزمرد وتفوح منهم رائحة المسك والعنبر وعلى يساره جموع اخرى اشد سوادًا من الحبر ، عيونهم حمراء كاللهب ورائحتهم نتنة كريهة اصواتهم كالرعد وقد بلغوا من القبح مداه.

امرني جبريل ان اسلم على هذا الملاك لانه من الملائكة المقربين لله فسلمت عليه فرد علي بايماءة من رأسه فحسب . حدقت فيه النظر فرأيته ينظر مرة الى اللوح واخرى الى العالم وعجبت من طاعته لله . لامه جبريل لانه لا يرد علي السلام مع انه يعلم اني محمد نبي الله ورسوله واني قد بعثت ، فمّا لبث عندئذ ان حياني واخبرني انني اشرف رسل الله وسيد كل العالمين ، وبعد دعوة قصيرة قال ان امتي ستكون اطول الامم بقاء على الارض ، لما خصها الله به من فضل وحب.

الفصل السابع :

وقال لي جبريل ان هذا ملك الموت ، فسألته حينئذ كيف ينزع ارواح الناس من اجسامهم عندما يحين اجلهم ، فاخبرني ان الله منذ خلق آدم عليه السلام وقد كلفه بهذه المهمة الى يوم القيامة ، وانه لن يبقى عليها من احد الا الله وهو ، ثم يقبض الله روحه ويظل حيا الى الابد . ثم اخبرني ايضا ان قبض ارواح الخلق في نفس الوقت ليس فيه مشقة عليه عندما يموتون ، احدهم في المشرق والآخر في المغرب لان العالم كله ليس الامثل الحبة في قبضة يده ، وعندما يموت خلق كثير في المعارك الكبرى فانني اقبض ارواحهم دفعة واحدة مناديا الارواح بصوت عظيم فتأتي الي يدي فاذا جاءت الى حضرتي عرفت من وجب لها ان تذهب الى الجنة ومن حق عليها ان تمضي الى الجحيم ، فعندي في هذا اللوح المحفوظ اسماء كل من خلق على وجه الارض وما قدر لهم بعد الموت من خير او شر.

الفصل الثامن :

ثم قال لي : اعلم انه عندما يحين اجل من مصيره الجنة ارسل اليه ملكا من على يميني جميلا زكي الرائحة حتى يقبض روحه بكلمات طيبة وعزاء جميل ويحضرها الي برفق فآخذها بدوري واسلمها لاجملهم الذي يرفعها الى الله عبر السمٰوات ، فيأمر الله ملكا من ملائكة النور ان يأخذها ويضعها في حلق طائر اخضر يحملها الى الجنة . اما عندما يموت احد الاشرار فاني ارسل له ملائكة من على يساري قبحا مرعبين ينزعون روحه بغلظة وكلمات قاسية مخيفة ويحضرونها الي ، فاعطيها لاشد الملائكة فظاظة وبشاعة يحملها الى السماء ، ولكن عندما يصل الى ابوابها تغلق من دونه ويرفض حسبما جاء في القرآن الكريم.

الفصل التاسع :

مضينا الى الامام وفي الطريق رأينا ملكا هائلا بلغ من ضخامته ان قرعت رأسه السماء وتدلت رجلاه في الفضاء ، شعره طويل مسدل على اكتافه وكان جناحاه من كل الالوان الجميلة التي لم تقع عليها ابدا عين انسان . وكانت خلقته على هيئة ديك ، وقد علمه الله اوقات الصلاة ، فعندما يحين اوانها ينبعث صوت من السماء يأمر الخلائق ان تسبح بحمد الله وحينئذ يهتف هذا الملك بصوت مرتفع : «تبارك الله القدوس ، مالك جميع النفوس» فتجيبه ديكة الارض كلها داعية الناس لحمد الله وتسبيحه.

ومضينا الى الامام فرأيت ملاكا آخر نصفه من نار ونصفه من ثلج فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار وقد اخذ يضرع الى الله ويدعوه ان يؤلف بين قلوب عباده مثلما جمع فيه بين النار والثلج . ورأيت ايضا ملكا آخر لا يبلغ الوصف مدى عظم خلقه ، فاردت ان اسلم عليه لكنه لم يرد علي لانه كان مشغولا بالصلاة والتسبيح بحمد الله حتى اخبره جبريل بانني محمد وانني قد بعثت ، عندئذ التفت الي وحياني هو وبقية الملائكة.

الفصل العاشر:

ومضينا قدما فرأينا ملكا آخر هائلاً يجلس على كرسي وبيده عمود عظيم لو ضرب به السماء والارض لفلقها ، فلمّا رأى جبريل هذا العمود اخذ يبكي قائلا لي ان هذا الملك هو خازن النار ، فاقتربت منه لاسلم عليه لكنه لم يرد علي السلام حتى اخبره جبريل عمّن اكون فحياني وقال لي ان كل من يذهب من امتي الى النار سيلاقي اخف العذاب.

الفصل الحادي عشر:

على وجه هذا الملك كانت تبدو امارات الحزن الشديد ، وقال لي ان سبب حزنه واسفه هم هؤلاء العصاة فسألته عن كيفية خلق الجحيم ومن فيها من ملائكة وكيف يعيشون. فاجابني بانه عندما خلق الله الجحيم اوقد فيه النار سبعين الف سنة حتى صار كله احمر ثم اوقد فوقه نارا اخرى لمثل تلك المدة حتى صار ابيض وبعد ذلك اوقد فيه نارا اخرى لمدة سبعين الف سنة حتى صار كله اشد سواداً من الليلة الحالكة. هذه النار دائما تصطلي من نفسها بشدة دون ان ينبعث منها ابداً لهب. اما ملائكة الجحيم فقد خلقوا من النار وهم يتغذون بها ولو خرجوا منها لحظة لماتوا مثل السمك اذ يخرج من الماء ، كما خلقوا صما بكما كي لا يسمعوا انين من يسومونهم سؤ العذاب ، وجعلت في قلوبهم قسوة وغلظة بحيث لا ترق ولا تتحرك بالرحمة للمذنبين وهم يضربونهم بهراوات حديدية غليظة.

ونترك هذا الملك مفعمين بالرعب ونستمر في طريقنا حتى نطرق السماء الاولى التي تسمى بسماء القمر.

الفصل الثاني عشر:

كانت السماء الاولى من حديد ، عرضها بمقدار مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثانية نفس القدر ، ونادى جبريل على الباب ففتح لنا ملك يبلغ طوله وعرضه الف عام من مسيرة البشر. ورأينا ابواب السماء بالغة الجمال ، وكثيرا من الملائكة الذين يحرسونها وهم يتقلبون في اعطاف الزينة والبهاء واراد جبريل ان يلج احد هذه الابواب فسأله ملك عما يريد ومن معه فأجابه بانه محمد خاتم الانبياء وسيد المرسلين وانه يريد الدخول عندئذ فتحت لنا فجأة كل الابواب ومن الداخل سلم علينا جميع الملائكة وهم يشيرون لنا لنرى العجائب العظيمة. كان لكل واحد منهم وجه انسان وجسم بقر وجناح عقاب ، وكان عددهم سبعين الفا ، لكل منهم سبعون الف رأس لكل رأس سبعون الف قرن لكل قرن سبعون الف جزء ، بين كل جزء وآخر مسافة اربعين سنة ، في كل رأس سبعون الف وجه في كل وجه سبعون الف فم في كل فم سبعون الف لسان كل لسان يعرف الكلام بسبعين الف لغة ويسبح بحمد الله كل يوم سبعين الف مرة.

وبينما كنا نتعجب من هذه الآيات البديعة رأينا وسط الملائكة رجلين بالغي الجمال جالسين على مقاعد من نور شعرهما ولحيتهما ابيض من الثلج وقد ارتديا حللاً ناصعة البياض تكاد تعشي من ضوئها الابصار ، وتحيط

براسيهما هالات من النور والبهاء ، وقال لي جبريل : ان احدهما هو يحيى بن زكريا والثاني هو عيسى بن مريم روح الله وكلمته. فاقتربت منهما وسلمت عليهما فلما عرفا اني محمد ردا لي التحية والسلام.

الفصل الثالث عشر:

ومضينا الى اعلى حتى وصلنا الى السماء الثانية وكانت كلها من البرونز ، وعرضها ومسافة ما بينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ، وفتح لنا الباب ملك هائل بلغت رأسه السماء السابعة وهوت قدماه الى اعماق الارض وقد اخذ هذا بيدي وادخلني هذه السماء وهناك رأينا ملائكة احجامها اضخم سبعين الف مرة من ملائكة السماء الاولى ، فسلموا علي بعد ان عرفوا من انا ، وبينما كانوا يحدثونني عن عجائب الله وآياته رأيت بينهم شابا عظيم الجمال فائق الحسن والبهاء يجلس على كرسي من نور ويشع الضوء من شعره وملابسه فأخبرني جبريل انه يوسف بن يعقوب ، فسلمت عليه ورد علي بترحاب وابتهاج كبير ثم واصلنا الرحلة حتى السماء الثالثة.

الفصل الرابع عشر:

كانت كلها من الفضة الخالصة سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء الرابعة مسيرة خمسمائة عام ، وعندما نادى جبريل فتح لنا الباب ملك هائل مكين يستطيع ان يضع في كف يده كل العالم وما فيه دون ان يؤثر ذلك عليه ادنى تأثير. ورأينا في الداخل ملائكة عجبا ، وجوههم مثل البقر وايديهم مثل القمر لا يكفون عن حمد الله وتسبيحه بورع شديد فسلمت عليهم وردوا لي التحية وبشروني بالطيبات الصالحات ورأيتهم منتظمين في مراتب ودرجات وقد احتشدوا في مواكب صافات متلاصقات لا يمكن لاحد ان يدخل بينهم شعرة واحدة ، وكانت رؤوسهم منكسة الى الارض من خشية الله وكانوا مستغرقين في التسبيح والطاعة حتى لو ان احدهم ذهب من المشرق الى المغرب لما تحرك الآخرون حتى عودته ولما اضطربت درجته ادنى اضطراب. وكانت جميع صفوفهم المتراصة تسير في حركة دائرية وهي تسبح بحمد الله وتقدس اسمه. ورأينا بينهم رجلين جالسين على مقعدين من نور ومتلفعين على رؤوسها بردائين ناصعي البياض فتأملتهما برهة طويلة وقال لي جبرائيل انهما الياس وادريس وقد انزلها الله مكانا عليا حيث لا شغل لهما سوى تسبيح الله وحمده مع الملائكة الصافات دون ان يكفوا عن ذلك غمضة عين فدنوت منهما وحدثهما عني جبريل فسلما علي ثم تابعنا طريقنا حتى وصلنا الى السماء الرابعة.

الفصل الخامس عشر

كانت كلها من الذهب الخالص ومسافة ما بينها وبين السماء الخامسة مثل سمكها مسيرة خمسمائة عام ، وفتح لنا الباب ملك بلغ من ضخامته ان كل المياه العذبة كانت على ابهام يده اليمنى وكل المياه المالحة كانت على ابهام يده اليسرى ، وكان كله من الضوء ووجدنا بالداخل سبعين الف ملك لهم وجوه النسور لكل واحد

سبعون الف جناح بكل جناح سبعون الف ريشة طول كل ريشة سبعون ذراعا.

وبينما كنت اتأمل هؤلاء الملائكة رأيت بينهم رجلا عظيم الحسن والوسامة يجلس على مقعد من نور، ثيابه تتلألأ وعلى رأسه تاج يعشى بريقه الابصار، واخبرني جبريل انه هارون وبعد ان سلم علينا واصلت مع جبريل طريقنا حتى بلغنا السماء الخامسة.

الفصل السادس عشر:

وكانت كلها لؤلؤة واحدة ابيض من الثلج لها نفس السمك وتفصل بينها وبين السماء السادسة نفس المسافة التي كانت لسابقتها، وفتح لنا الباب في الحال ملك من نار له سبعون الف ذراع لكل ذراع سبعون الف يد لكل يد سبعون الف اصبع وكل اصبع يسبح بحمد الله سبعين الف مرة في اليوم. وفي الداخل وجدنا ملائكة ذات اجسام كريمة نبيلة لكن رؤوسهم مثل النسور واجنحتهم تتألق من خالص النور لا يكفون عن تسبيح الله وحمده، وبعد ان تبادلنا معهم التحية رأيت بينهم رجلا عظيم الجمال يجلس على كرسي من نور وقد لف حول رأسه غطاء من نور، وفي يده عصا من نور فاخبرني جبريل انه موسى، وعندما عرف انني محمد حياني بمودة وترحاب وقال لي ان الله يريد ان يفرض على أمتي صلاة وصياما كثيرين ويجب علي ان اضرع اليه ان يخفف عنهم لانهم لن يحتملوهما، وقد لاقى هو عناء كبيرا مع بني اسرائيل لنفس السبب، اذ لم يكن الله قد خفف عنهم التكليف. فلو فعلت ذلك تبعتني أمتي وآمنت بي، وان لم افعل كرهتني أمتي وكذبتني. ثم افترقنا بعد اذنه ومضينا الى السماء السادسة.

الفصل السابع عشر:

وكانت من الزمرد الشديد الخضرة سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة سنة، واقترب من الباب فيها ملك اكبر من كل السابقين بمقدار سبعين الف مرة، من الضخامة بحيث يستطيع ان يبتلع السماء والارض دون ان يتأثر. وفي الداخل رأينا ملائكة اعظم ممن رأيناهم من قبل سبعين الف مرة وجوههم كالخيل وكلهم مسلحون لكل واحد منهم سبعون الف جواد لكل جواد سبعون الف سرج كلها من الزمرد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، وهناك ايضا كان جواد جبريل، وكانوا جميعا منظمين على مراتب باسلحة شديدة البريق واللمعان، وقال لي جبريل انهم جند الله، وان عندهم هذه الخيل المسرجة بامر الله كي يذهبوا عليها في عون عباده عندما يحتاجون، واضاف قائلا انني سأنزل بهم لاساعدك اذا احتجت، هذه الخيل لا تأكل ولا تشرب وتسبح بحمد الله فحسب.

ورأيت بينهم رجلا يجلس على كرسي من نور تغطيه ثياب اشد اشراقا من الشمس في وسط الظهيرة وعلى رأسه تاج من نور تحيط به الملائكة، وتسبح معه بحمد الله، وقال لي جبريل انه ابراهيم، وعندما عرف انني محمد قال لي ان الله حباني بكثير من نعمته وحبه وفضله علي وعلى أمتي وطلب مني ان أوصي أمتي بتكرار هذه الكلمات في الجنة «الحمد لله» ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله وكلما رددوها زاد نعيمهم في الجنة. تلك

الجنة التي اقيمت حولها الاسوار من الذهب الخالص ونصبت فيها الشرفات من فضة وملاطها المسك ، تلك الجنة التي وعد بها المتقون من أمتي واعدت لمن آمنوا بي وبشريعتي ، وبعد ذلك انصرفنا ومضينا الى السماء السابعة.

الفصل الثامن عشر:

كانت من ياقوت سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء الثامنة خمسمائة عام ، ونادى جبريل البواب فدنا في الحال ملك لا يمكن لاحد الا الله ان يبلغ صفته ، ولما صرنا في الداخل وجدنا ملائكة من الضخامة والروعة بحيث لا يوصفون ولا اجرؤ على ذلك لان الله حرمه علي. وكانت انظارهم ثابتة عليه هو لا عمل لهم سوى التسبيح بحمده وعندما راوني رفعوا اصواتهم وكان تسبيحهم من القوة والعظمة بحيث بدا لي ان كل الملائكة السابقين كانوا بالمقارنة بهم شبه نائمين ، وكانت تراتيلهم تسمع عبر السماوات والارض فأخذت انا وجبريل نبكي من خشية الله.

ثم نهض واحد من بين الملائكة وهو مؤذن السماء ، واخذ ينادي للصلاة ويقول : الله اكبر ، ثم : لا اله الا الله ، وبعدها : اشهد ان محمدا رسول الله ، ثم اضاف حي على الصلاة ، حي على الفلاح. فطلب مني جبريل حينئذ ان اقيم للصلاة فسجدت لله ركعتين قصيرتين ، فاذا بكل الملائكة الذين رأيتهم في السماء السبع يخرون على وجوههم ساجدين في الصلاة معي وقائمين بعدي وهم يدعون الله ان يسبغ علي من فضله ونعمته اكثر مما اعد لي. ورأيت من بينهم رجلا جالسا على مقعد من نور ، ثيابه نور وعلى رأسه تاج من بهاء ووجهه يشع الضياء. وقال لي جبريل انه ابونا آدم ، وعندما اخبره جبريل انني محمد رحب بي احسن ترحيب وحب وتشريف ، وقال لي ان الله يريد ان يشرفني فوق كل الناس ، واردف قائلا : اعلم ان الجنة مغلقة لا يدخلها نبي ولا انسان آخر حتى تدخلها انت وأمتك ، ثم اقترب مني حينئذ وعانقني وهو يضع يده على رأسي ، ودعا لي الله باخلاص وتواضع عظيمين. ولما انتهينا من الصلاة انصرفنا بعد اذنه وبلغنا السماء الثامنة.

الفصل التاسع عشر:

وكانت كلها من زبرجدة واحدة آية امام عيون الفانين وسمكها مسيرة خمسمائة عام ، ونادى جبريل على الباب فدنا منا ملك اعظم من الشمس بهاء سبعين الف مرة ، له سبعون الف رأس لكل رأس سبعون الف وجه ولكل وجه سبعون الف عين ولكل عين سبعون الف حدقة كل حدقة ترتجف سبعين الف مرة في اليوم من خشية الله ، فتح لنا الباب وفي الداخل سرنا كثيرا في هذه السماء حتى وصلنا الى حجاب من الستائر قد وضع بين الله والملائكة ، كما كانت هناك ايضا بعض الدوائر التي تفصل وتحجب وحول هذه الدوائر عدد هائل من الملائكة المقربين لا يعلم عددهم الا الله لكني استطيع ان اقول انهم كانوا اكثر من كل الملائكة السابقين سبعين الف مرة يسبحون بحمد الله دون انقطاع وعندما اقتربنا منهم ارتفعت اصواتهم بالتسبيح ثم دخلنا في الدوائر والحجب فرأينا ان حجب القسم الاول كانت سبعين ستارة كلها من السمط الاحمر الفاقع ، وبعد ذلك

سبعون ستارة من المخمل الاخضر اللامع ثم سبعون اخرى وهكذا تتوالى الحجب والاستار سبعون فسبعون من كل الالوان وكلها زاهية لامعة وبعد ان انتهت هذه الحجب وجدنا سبعين قسما آخر كلها من اللؤلؤ الناصع البياض وآخر مثله من الياقوت وآخر من الزبرجد وهكذا سبعين سبعين كلها من الاحجار النفيسة على جميع الاشكال المتصورة ، ثم وجدنا بعد ذلك سبعين قسما آخر كلها من الماء ومثلها من الثلج والبرد والسحب والضباب والنار والنور من مجد الله وبكل الالوان المتخيلة وبين كل هذه الاقسام جموع لا تحصى من الملائكة تروح وتغدو بلا توقف وهي تسبح بحمد الله. وبينما كنت اتأمل هذه الآيات مضى جبريل وتركني وحيدا.

الفصل العشرون :

لما رأيتني وحيدا نشطت وتحمست في حب الله وسرت اخترق هذه الاقسام حتى وصلت الى العتبات القدسية ، فلما دنوت منها سمعت صوتا يناديني : « اقترب مني يا حبيبي محمد فتقدمت الى الامام وتكرر في مسمعي الصوت مرة اخرى فزدت تقدما ثم تكرر الصوت مرة ثالثة واضاف : « اعلم يا محمد انك عندي اشرف الناس واسمى المخلوقات من الانس والجن والملائكة » عندئذ اقتربت اكثر ودنوت حتى لم يبق بيني وبين الله الا قاب قوسين او ادنى ، وبعد ان سلم علي وسألني عن أمتي فرض علينا الصيام ستين يوما في السنة والصلاة خمسين مرة في اليوم. ثم عدت بعد ذلك حتى قابلت جبريل ثانية وفي الطريق رأيت كرسي العرش وقد اتصل بالمساء حتى بدا لي انه خلق معها ، كان كله من نار وبه العناصر الاربعة : النار والهواء والماء والتراب والعالمين والجنة والجحيم كلها خلقها الله في نفس الوقت مع كرسيه الذي وسع كل شيء واشع اعظم الضياء ، ومعها خلق الله اللوح المحفوظ طوله مسيرة الف عام وكله من اللؤلؤ الابيض وحوافه من الياقوت ووسطه من الزبرجد وكل ما خط عليه من كتابة فهو مسجل بالنور الخالص ، ينظر الله الى هذا اللوح مائة مرة كل يوم ، وفي كل مرة يمحو الله ما يشاء ويثبت ، يحيي ويميت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وقد خلق الله مع اللوح قلماً من نور طويل عريض يبلغ مسيرة خمسمائة سنة وامره ان يكتب كل علمه وخلقه الذي كان منذ بدء العالم الى منتهاه ، فامتثل لامره وسجل بخطه الناعم الرقيق السريع كل شيء.

الفصل الواحد والعشرون :

الملائكة الذين يحملون عرش الله خلقوا مع العرش وتبلغ مسافة ما بين رؤوسهم واكتافهم حجم العرش الذي لا يبلغ الوصف مداه ولكل واحد اربعة وجوه وجه من الامام والآخر من الخلف والثالث والرابع على اليمين والشمال ، ولهم ايضا اربعة اشكال شكل انسان وعقاب واسد وثور ، وكل اجسامهم مغطاة بعيون ولكل واحد ستة اجنحة اثنان للطيران واثنان لتسبيح الله بخفقها والآخران من لهب لتغطية وجوههم ، لا يكفون عن حمد الله والثناء عليه وهم يرتلون « سبحان الله وسع كرسيه السموات والارض ، وللكرسي اربعة قوائم ، كل قائم اطول سبعين الف مرة من مسافة ما بين السماء والارض والعالم كله تبدو كأنها حبة خردل في كف اليد بالنسبة له ولا يعرف الملائكة انفسهم على اي بعد هم من الله ، ويفصل بين هؤلاء الملائكة

والاخرين الذين يحملون السماء ثلاثة اقسام او بيوت في الاول سبعون ستارة كلها من السحاب وفي الثاني سبعون اخرى كلها من البرد وفي الثالث سبعون اخرى كلها من النور الخالص ، كل حجاب عرضه ومسافة ما بينه وبين الآخر مسيرة خمسمائة سنة ، ولو لم يخلق الله هذه الاقسام والحجب لاحترقت بنوره العظيم جميع الملائكة الموجودين بالداخل ، اما حملة العرش الاربعة فسوف يبدلهم الله يوم القيامة حيث ينصرفون للدعاء ، فالملاك الذي خلق على هيئة الانسان يدعو الله من اجل الناس والذي على هيئة عقاب يدعو للطيور والذي على هيئة الاسد يدعو من اجل الحيوانات المتوحشة والذي على هيئة الثور يدعو الله من اجل الحيوانات المستأنسة.

الفصل الثاني والعشرون:

وفي نفس مكان الكرسي رأيت سبعين الف فئة من الملائكة كلهم على مراتب ، يمضون في حركة دائرية دائبة حول السماء وهم متقابلون يسبحون الله و يملأون السماء باصواتهم ، ورأيت سبعين الف فئة اخرى كلهم قائمون وقد عقدوا ايديهم خلف اعناقهم يرددون صدى تراتيل السابقين مسبحين بحمد الله كذلك ثم رأيت بعد هذا مائة الف صف من الملائكة قائمين وقد عقدوا ايديهم على صدورهم مغطون بالشعر والريش وشعرهم وريشهم يسبح بحمد الله بطرق مختلفة ولكل منهم اجنحة ما بين الجناح والآخر مسيرة ثلاثمائة سنة ونفس المسافة ما بين الاذن والكف ، وما بين المنكبين مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كعب القدم الى الركبة مسيرة مائتي سنة ، والركبة نفسها مائة سنة ومن الركبة الى العجز ثلاثمائة سنة ومن المرفق الى الكتف ثلاثمائة سنة كذلك وراحة ايديهم يمكن ان تتسع لكل جبال الارض وسهولها دون ادنى مشقة ، ثم رأيت عجائب اخرى ، فحملة العرش من الملائكة يبلغ طول كل واحد منهم مائتين وسبعة عشر الف عام من مسيرة البشر وعرض اقدامهم سبعة الآف سنة ولكل واحد منهم عدد لا يحصى من الوجوه والعيون ، وعندما يحملون السماء يقولون راكعين: «لا اله الا الله جلت قدرته على ما سواه» ، اما وهم قائمون فان اقدامهم تنفذ من اقطار السموات والارض حتى تصل الى الريح الذي يقع اسفل منها بخمسمائة عام وفي تسبيحهم لا يكفون عن تكرار ما سبق والدعوة بصفة خاصة لعباد الله من المؤمنين والمؤمنات.

الفصل الثالث والعشرون:

وبعد ان انتهينا من رؤية ذلك هبطنا الى السماء السابعة حيث يوجد الملائكة المقربون من الكروبين ، ورأيت انهم لا يحصون عددا وكانوا يسبحون بحمد الله باصوات بلغ من ارتفاعها ان اهل الدنيا لو سمعوا صوتا واحدا منها فحسب لماتوا من الخوف ، وكلهم مختلفون فيما بينهم في اللغة والصورة والاعضاء وحتى في دعواتهم. وبلغوا من الاستغراق في طاعة الله انهم بعد ان خلقوا لم يلتفت احد منهم برأسه ابدا الى جاره بل ان رؤوسهم منكسة دائما الى اسفل ، ورأيت سبعين الف صنف من الملائكة بلغت ضخامتهم الى درجة تجاوزت فيها رؤوسهم السماء السابعة واقدامهم مغروزة الى اسفل في الفضاء ، بين هؤلاء السبعين الف كان هناك تسعة

كل واحد منهم اكبر من الآخرين تسعين مرة ولم يكن بين رؤوس هؤلاء الملائكة ومناكبهم ادنى مسافة وهم يشبه بعضهم بعضا الى درجة انه ليس ثمة اي فرق يميزهم ، على ان المسافة بين كل صف وآخر تبلغ مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والعشرون :

هذه الصفوف التسعة من الملائكة كانوا يلتفون حول بعضهم في حلقات متداخلة وبينهم يجري نهر من الماء لا يعلم منبعه ولا مصبه الا الله وماؤه من الصفاء والاشراق بحيث تحول دون النظر اليه خشية فقدان البصر ، وبعد هذا النهر يوجد نهر آخر عظيم جدا ، كله مكون من اشد السحب تراكما وكثافة ، وبعده نهر آخر من نار ، دائما عظيم الاشتعال بنفسه ، وبعد الانهار هناك جبال من ثلج ناصعة البياض ، وبعدها بحر عظيم يخترق الاراضي السبع كله مليء بالملائكة التي تسكنه وكلهم من ضخامة الحجم بحيث لا يبلغ ماء البحر اعجازهم ، وهم يوم القيامة يدعون الله من اجل سمك البحار والانهار ، كما انهم لا يعرفون ماذا تحت البحر ولا اين يضعون اقدامهم وتصل رؤوسهم الى سماء العرش. لا يكفون ابدا عن حمد الله .

الفصل الخامس والعشرون :

وهناك بعد هذا البحر العظيم يوجد بحر آخر من ماء شديد الصفاء ، فيه جموع غفيرة من الملائكة الواقفين لا يكفون عن قول «لا اله الا الله» حتى يوم القيامة ، وقد وقفوا صفوفا متراصة مثل جدران مدينة وقلعة متصافة ، ومن العجائب الاخرى ان هذه السماء كانت تحوط بها اربعة انهار ، احدها عظيم الصفاء يفوق كل الانوار ما عدا نور الله وآخر ماؤه ابيض من الثلج بلغ من الصفاء الى درجة ان يرى الانسان قاعه على عمقه الذي لا يصدق ، وكل رماله من الاحجار النفيسة ومنه تنبع انهار الجنة ، وبعده يوجد نهر آخر من الثلج المتألق ، وآخر ماؤه خالص لذيذ الطعم ، مليء بالملائكة يروحون ويغدون على اقدامهم وهم يسبحون بحمد الله ، على ان رؤية هؤلاء الملائكة وتلك الانهار وما عداها لم تحل بيني وبين رؤية سماء العرش .

ومن الآيات الاخرى ان سماء العرش بها من الالسنة ما يزيد سبعين الف مرة على السنة جميع المخلوقات في كل السموات الاخرى والارض والعالمين ، كلها السنة لا تكف عن حمد الله وتسبيحه وتقديسه بجميع انواع اللغات .

الفصل السادس والعشرون :

وعرفت بعد ذلك ان الله كان قد خلق ثمانية عشر الف عالم وان هذا العالم الذي نعيش فيه واحد منها فحسب ، وفي هذه العوالم الف نوع من المخلوقات عدا الانسان والشياطين والجن وياجوج وماجوج ، وهي مخلوقات بين الانسان والشيطان ، كلها باعداد لا تحصى من هذه الانواع يوجد اربعمائة في الارض وستمائة في

البحر وبالاضافة الى ذلك فان كل السماوات غاصة بالملائكة المزدحمين الى درجة انه لا يمكن لأحد ان يضع بينهم شعرة واحدة، بعضهم واقفون وآخرون جالسون او ساجدون بوجوههم على الارض يسبحون بحمد الله ويخفقون باجنحتهم من خشيته.

الفصل السابع والعشرون:

ثم ذهب بي جبريل بعد ذلك الى ارض كلها بيضا، بياضها خارق للعادة مليئة بمخلوقات من صنع الله، ومن اجناس لا تحصى، لا يخرجون ابدا عن طاعة الله ولا لغمضة عين، ولا يمكنني القول ان كانوا آدميين ام لا، ولا ان كانوا من الشياطين او يعرفون شيئا عنها، فقد حرم الله على ذلك.

الفصل الثامن والعشرون:

ولما عدت من هناك حملني روح الله عبر السماوات وهو يريني في لحظة ما لا يرى الا بعد تمهل طويل، حتى وجدت جبريل ومعه اسرافيل الذي هبط بامر الله كي يريني الارضين السبع التي تحيط بالارض البيضاء المذكورة ولمّا هبطت وجدت ملاكا اسمه القطروفين بيده قلم من نور طوله مسيرة خمسمائة عام ينبثق منه مداد من نور، والقلم يعرف سبعين الف لغة لا يفهمها الا الملك الذي يعرفها ويعرف عددا آخر مثلها من اللغات التي يجهلها القلم.

الفصل التاسع والعشرون:

واراني جبريل واسرافيل ديكا قريبا من الله، وعرفه ورأسه يصلان الى سماء العرش ورجله في اعماق الارض السابعة هذا الديك من ملائكة الله وهو دائما يسبح بحمده وجناحاه هائلان لو فتحها لنفذ بهما الى جميع اقطار السماوات والارض من المشرق الى المغرب، وعندما ينتصف الليل يفتح جناحيه ويهزهما قائلا: «لا اله الا الله، فلا يكاد ينتهي من صياحه حتى تصيح ديوك الارض وتهز اجنحتها، فاذا سكت سكتت. وعندما يبزغ الفجر يكرر صيحة منتصف الليل وهي تجيبه، وهكذا يحدث في كل ساعات صياحه، اما ريشه فغليظ اعلاه ناصع البياض صغير اسفله رائع الخضرة لا يشبع الانسان من رؤيته ابدا.

ورأيت بعد ذلك ملكا آخر امام الله نصفه من ثلج ونصفه الآخر من نار فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج وهو دائما ماثل في حضرة الله يدعوه ويضرع اليه بلا كلل ان يجمع قلوب العباد على طاعته مثلما جمع في خلقه بين الثلج والنار دون ان يمس احدهما الآخر، وحول هذا الملك رأيت ملائكة آخرين يسبحون بحمد الله باصوات عالية، عددهم لا يحصى ووجوههم وعيونهم شاخصة دائما الى الله سبحانه وتعالى.

الفصل الثلاثون:

بعد ان رأينا كل هذا عدت مع جبريل الى سور الجنة فلاحظت ان احجاره الضخمة المربعة كانت شديدة

الاختلاف فيا بينها . فبعضها من ذهب وبعضها من فضة وآخر من ياقوت يتوسط بين الذهب والفضة ، وكان ينبعث من السور بريق هائل يخطف الابصار. اما الملاط الذي يمسك بهذه الحجارة فقد كان من المسك والعنبر المذاب في ماء الورد له شذى لا يضاهى به شيء آخر، وعرفت انه لا يمكن لاي كان ان يقيس ارتفاع السور الذي لا يعلمه الا الله. وقال لي جبريل انه لم يعبر هذا السور من قبل اي مخلوق من الملائكة او الانس او الشياطين او الجن لان الجنة مصونة عن انظار جميع المخلوقات ، وانني ساكون اول من يراها . وان بالداخل جنة الخلد التي يوزع الله تعالى نعمها على صور كثيرة حسب ما يستحقه ثواب عباده وانه سيعرفني بها ، وقد صنعها الله بيديه نفسها ، وليس بينه وبينها سوى حجابين وهي اشرف وانفس الجنات كلها فاقتربت مع جبريل من الباب وكان البواب يعرف اسمي ورسالتي ففتح لنا ودخلنا.

الفصل الواحد والثلاثون :

ولما صرنا بالداخل اخبرني جبريل ان عرض الجنة مثل السموات والارض جميعا ولكن طولها لا يعلمه الا الله وانه عندما يبدل الله السماوات والارض يوم القيامة فان مكانهما سيصبح هواء ، وسيجر بيده هذه الجنة واخرى معها جنة عدن التي خلق الله فيها آدم فتجر بدورها باقي الجنان وتقرب حتى لا يكون بينها وبين العرش سوى سدرة المنتهى ونورها . ومنذ ذلك الحين فانها تمتلىء جميعا بالنور وتعمرها الملائكة يوم الخلود ، واخبرني جبريل بعد ذلك ان الله لما خلق جنة عدن ملأها بكل شيء وخلق بداخلها جنانا اخرى بين السماء والارض اقصى من مشرق الشمس حتى رفعها الى اعلى على مسافة ستمائة وثلاثة وستين عاما.

الفصل الثاني والثلاثون :

سألت جبريل عن المسافة بين الارض والسماء الدنيا فأخبرني انها مسيرة ستمائة وثلاث وستين سنة وسألته كذلك عن مسافة ما بين سماء العرش والارض فقال لي انها مسيرة خمسة الآف عام من اعوامنا وشهورنا وأيامنا وقال لي انه لا ليل هناك ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وهكذا ادركت ان مسافة ما بين كل سماء واخرى مسيرة الف عام واننا اذا جمعنا مسافات كل السماوات والحجب وجدنا مسيرتها اثنين واربعين الف سنة.

الفصل الثالث والثلاثون :

اما الجنة التي كان فيها آدم فقد وجدتها على النحو التالي : من ناحية المشرق كلها مغطاة بالاشجار الوارفة الظلال ، يتلوها نهر عظيم تنبع منه جميع انهار الدنيا ، ويسير على تراب مصر ويسمى النيل فاذا كان في الجنة فهو من عسل اما اذا خرج منها فانه يتحول الى ماء ، ثم رأيت نهرا آخر عظيما يسمى الفرات يجري لبنًا في الجنة ويتحول خارجها الى ماء ونهرا آخر اسمه جيحان كله في الداخل من خمر وفي الخارج ماء كما رأيت نهرا آخر مثلها في العظمة اسمه سيحان من ماء صاف ومذاق لا توصف لذته. ومن هذه الانهار الاربعة يجري العسل ناحية المشرق واللبن ناحية المغرب والخمر ناحية الجنوب والماء ناحية الشمال.

الفصل الرابع والثلاثون :

وبينا كنا نسير في هذه الجنات رأيت انها قد خلقت على اشكال وهيئات مختلفة بعضها عن بعض لتشريف وتمجيد من يختارهم الله لنعمته ، وان لها اسماء مختلفة : منها جنة عدن التي خلق الله فيها آدم ودار القرار « ودار السلام » و « وجنة المأوى » وجنة الخلد « وجنة الفردوس » « وجنة النعيم » وهذه السابعة قلعة الجنان وقصبتها فهي تشرف عليها جميعا ، ومنها يأتي الله عندما يزور عباده في الجنة فهي داره الخاصة . عند هذه الجنة رأيت عمودين عظيمين احدهما من الزبرجد والآخر من الياقوت ، طولها وعرضها لا يحيط به العقل ، ومسافة ما بينهما ما بين المشرق والمغرب ، وقد ملئت هذه المسافة نورا خالصا ، وهما يقومان على مدخل هذه الجنة . اما الجنات الاخرى فهي من نور كذلك وفيها كثير من المدن والقلاع النورانية وكثير من البيوت والابهاء والاروقة والحجرات التي كلها من نور وهناك اشجار من كل صنف ونوع وثمراتها ابهى من الياقوت والزمرد واوراقها لا توصف ، وتجري تحت هذه الجنات انهار من لبن لم يتغير طعمه وخمر لذيذ للشاربين ، وانتصبت على حوافي الانهر بيوت جميلة وحجرات رائعة لا يبلغ الوصف مداها .

الفصل الخامس والثلاثون :

ورأيت كذلك في هذه البيوت والحجرات التي تقوم على شواطىء الانهار اجمل وانقى النساء اللاتي يمكن ان يحلم بهن انسان ، عيونهن حوراء رائعة الحسن والعطف والحنان يحلين رؤوسهن باحجار كريمة وكل ثيابهن من نور وقد عقدت كل واحدة منهن على خصرها شريطين من لؤلؤ مضمخ بالمسك والعنبر ، تفوح منها رائحة تشفي اكثر المرضى سقما واعتلالا ، كلهن جالسات بجوار بعضهن ينشدن ويغنين بانغام اصفى واحلى من كل صوت او موسيقى آدمية قائلات : « نحن العذارى الخالدات بلا دنس ، ونحن الناعمات فلا نباس ونحن الراضيات فلا نسخط ، خلقنا لازواج كرام فطوبى لمن كان لنا وكنا له » . وبينما يغنين تبدو اسنانهن ابيض من البرد المنضد ، وافواههن ادق واشد حمرة من الياقوت ، ويبدو عليهن الوله والعشق لازواجهن في الجنة حتى قبل ان يعرفنهم وهن مقصورات لا يجرؤ احد ان يطلع عليهن ولو كان الشيطان نفسه ، فلا تبدو الحورية الا لصاحبها الذي خصصت له ، وكلما جاءهن ازواجهن وجدنهن عذارى ابكارا لم يمسسن من قبل مثل المرة الاولى ، وقد كتب على صدر كل واحدة منهن اسم صاحبها ، وعلى صدر كل واحد من الازواج اسم صاحبته . وقد بلغن من التنعم والرفاهية بحيث يرى مخ ساقهن من وراء الدم واللحم والعظم كما ينظر الواحد الى السلك في قصبة الياقوت ، وما يفكرن فيه يبدو دائما لعيان ازواجهن وعلى كل واحدة منهن سبعون الف حلة بعضها فوق بعض ذات اكمام ضافية مثل اكمام القسس الذين يؤدون الشعائر في الكنائس وكلها من الذهب الخالص والالوان العديدة وهي خفيفة عليهن كانها قميص شفاف رقيق .

الفصل السادس والثلاثون :

والآن سأقول لكم صفة الجنات ، اولاها جنة النعيم وهي بيت الله الخاص ، حديقة زاخرة بكل النعم التي

لا تخطر على قلب بشر وجدرانها من الياقوت عالية الابراج التي تحمي البيوت في الداخل ، وفرشها واغطيتها من لؤلؤ ، وكذلك درجاتها واوانيها وابواب بيوتها ، وفي داخلها حوريات مدلهات اكثر جمالا ومرحا من السابقات ، وبها حجرات من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والاحجار النفيسة الاخرى مرصوصة كلها على حواف بعض العيون التي تنبع هناك من خمر وماء على كل لون ومذاق ، وحيث ذهبت تتردد الانغام العذبة والموسيقى والاناشيد التي تتغنى بها الحوريات وهن متكئات على الارائك تحت الاشجار الظليلة ، اشجار فروعها جواهر وثمارها اشهى واحلى من كل شيء وتصحبهن في الغناء والاناشيد انغام الآت موسيقية لا يبلغ الوصف مدى حلاوتها وعذوبتها ، وتحت هذه الحديقة تقوم حديقتان اخريان : احداهما مرصعة من الخارج والداخل بالاحجار النفيسة والاخرى من الذهب الاشقر الخالص.

وقد بنيت جنة النعيم على شكل درجات وصفوف دائرية ، كل صف عرضه مسيرة مائتي سنة ، درجة من ذهب واخرى من فضة وثالثة من ياقوت ورابعة من زبرجد وخامسة من لؤلؤ وهكذا ، اما الملاط الذي يمسكها فقد عجن بالعنبر والمسك وقد اعد الله هذه الجنة للمتقين من عباده ويقول لهم يوم القيامة : اعبروا الصراط المستقيم وانعموا بالجنة وما فيها واقتسموها كل على قدر فضله فقد خلقتها لكم.

الفصل السابع والثلاثون :

وهناك المزيد ، فان من سيكون في ادنى درجات الجنة سيمنح متسعا من الارض مسيرة خمسمائة سنة وسينعم الله عليه بخمسمائة زوجة واربعة الآف من الحور العين الابكار يختار منهن من يشاء وثمانية الآف ثيب لخدمته ، فاذا اراد ان يعانق احداهن هرعت اليه بفرح عظيم ورغبة جارفة واستمر العناق ما دام حبه لها دون ان يفتر او يبعد عنها وستوضع امامها الموائد والمناضد المليئة من الطعام والشراب بما لذ وطاب ، وكل لقمة او شربة سيكون لها لذة طعام العالم وشرابه اجمع ، ثم يأتي بعد ذلك ملك معه مائة ثوب من ذهب هدية لهم من الله ولو خطر لاحدهم ان يذهب الى جنة الخلد واراد التنعم بثمارها وفواكه اشجارها قام ملك في الحال بتقريبها منهم . ولو طلبوا هذا من اول شجرة يجدونها لألقت اليهم سبعين الف صحيفة بها جميع ما لذ وطاب من لحوم وطيور ، طيور بدون ريش او عظام ، لم تطبخ او تشوى على النار ، لذيذة كان مذاقها مزيج من عسل وسمن ورائحتها مثل العنبر ، يأكلون مرتين في اليوم حسبما يشتهون وآخر لقمة لها نفس طعم اللقمة الاولى . كل هذا يبعثه الله لهم مع ملائكته وعطايا اخرى لا يعلمها الا هو.

الفصل الثامن والثلاثون :

هذا الاكل يتحول في احشائهم وبطونهم الى بخار يخرج منهم بعد ذلك في شكل عرق زكي الرائحة ، ثم تفتح لهم الملائكة بابا يفضي الى جنة اخرى رائعة ، على مدخلها شجرة عظيمة تجرى من تحتها عينان نضاختان صافيتان ومن يدخلها يشرب من احد هذين النبعين فيصبح نظيفا صافيا من كل ما اكله دون ان تبقى فيه اية رواسب ، ويذهبون بعد ذلك الى العين الاخرى ويستحمون فيها وتحل عليهم نعمة من الله وفضل . ثم

يعودون الى الجنة فيجدون فيها غلمانا كأنهم اللؤلؤ المكنون في بياضه والورد الناضر في حمرته ، هؤلاء الغلمان يلعبون في الجنة ويعرفون من يدخلها باسمه ويرحبون به ويبشرونه بما ينتظره من الحوريات والقصور ونعم الله الاخرى التي اعدها له ، ثم يذهب الغلام منهم في الحال الى تلك الحسناء التي بشر صاحبها بها ويخبرها بقدومه فتمتلىء غبطة وحبورا وتذهب الى الباب للقائه. اما من يدخل الجنة فانه اذا ما رأى سور بيته من اللؤلؤ واحجار النفيسة وما أعد له من نعيم مقيم في الغرفات العليا فانه يوشك ان يغشى عليه من الروعة والسرور ، فاذا ما نظر الى اسفل ورأى العذارى الابكار اللاتي سيكن زوجاته والستائر والفرش الذهبية الوثيرة توجه الى الله بالشكر على نعمه الوفيرة والى رسوله بالحمد لانه هو الذي اخبره بانه سيرث كل هذا النعيم المقيم.

الفصل التاسع والثلاثون :

وفي الجنة شجرة تسمى شجرة طوبى وهي شجرة لذة ونعيم ، جذعها عرضه مسيرة رجل شديد السرعة اكثر من اي جواد يلف حوله مائة عام ، كله من الياقوت والارض التي غرست فيها من المسك والعنبر الابيض من الثلج وفروعها واغصانها من الزبرجد واوراقها من السميط وازهارها قماش من ذهب وفواكهها مثل اللالى الكبيرة ، تكفي الثمرة الواحدة منها مائة رجل يأكلون منها سنة كاملة وطعمها مزيج من عسل وزنجبيل ، اما الحشائش التي حولها فكلها من الزعفران الاخضر الزكي الرائحة وتنبع تحتها عيون كثيرة كلها من خمر وهو الذي يجري متدفقا في انهار الجنة ، هذه الخمر بعضها ابيض صاف وبعضها احمر مثل الياقوت وكلها رائعة شهية لذيذة ، وهناك نوعان آخران من الخمر : بعضها حامض مز في لونه وطعمه وبعضها اصفر فاتح مثل الزبرجد وكلها شديدة قوية في مذاقها ، هذه هي الينابيع الرئيسية الاربعة للجنة ، وبالاضافة اليها فهناك انواع اخرى كثيرة من صنوف الخمر التي تعقب لذة الشاربين.

الفصل الاربعون :

رأيت شجرة اخرى من اجمل وافضل ما في الجنة ، يجلس تحتها كل من في الجنة لسماع الحكايات والقصص التي يرويها لهم ملك خاص ، وبينما جلست اسمعها معهم اذا انا بموكب من الملائكة قادمين على جمال عقدت في اعناقها سلاسل من ذهب ، وجوهها مثل القناديل المتوهجة ووبرها كالحرير الابيض المشرب بحمرة ، ذلولة وادعة طائعة ، جاءت محملة بالذهب والفضة واللؤلؤ والاحجار الكريمة ، فلما وصل الركب حيث كنا نزل الملائكة الراكبون وانزلوا ما يحملون من كنوز ووزعوها على الجميع وامروهم ان يركبوا المطايا كي يذهبوا لرؤية الله الذي كان يريد ان يشرفهم برؤيته والحديث اليه ، وهكذا فعلوا وساروا صفوفا متساوية متجاورة منتظمة ، لا تمد مطية رأسها ولا تقدم رحلها عن الاخرى ، ولو صادفوا شجرة في الطريق هبطت ورقدت على الارض حتى لا تخل بنظام السير.

الفصل الواحد والاربعون :

ولمّا وصلوا الى حضرة الله سبحانه وتعالى كشف لهم عن وجهه الجميل العظيم. فقالوا له : «انت السلام

واليك وحدك يعود الشرف والسلام». فرحب بهم واثني عليهم لانهم حفظوا دينه واقاموا شريعته فضرعوا اليه ان يأذن لكنه انكر ذلك عليهم وقال : «لقد مضى زمن العمل والتكليف وجاء اوان الثواب فاطلبوا على قدر ما ترغبون» ، فطلبوا منه عوضا عمّا لم يستمتعوا به في الارض ان ينعم عليهم بنظير كل خير ونعمة وجدت في العالم من بدايته الى منتهاه فاجابهم الله ما ارادوا وزيادة ، فلمّا رفعوا ابصارهم رأوا قلاعا وقصورا شامخة كل جدرانها وابهائها وحجراتها من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد واحجار اخرى كريمة ، وكانت الأبهاء والسرادقات مغطاة بالحرير وموشاة بالذهب ولامعة الالوان فالاخضر فيها اشد خضرة من الزبرجد والاحمر اشد حمرة من الياقوت وكانت كلها غارقة في فيض عظيم من النور والبهاء الذي يكاد يخطف الابصار ويذهب بالنظر لولا ان الله يحول برحمته دون ذلك.

الفصل الثاني والاربعون :

بعد ذلك رأيت هؤلاء الولدان الذين ذكرتهم من قبل يجر كل واحد منهم اربعة خيول وديعة على كل منها سرير فاخر فوقه هوادج صغيرة من نور واحجار كريمة بداخلها قبة من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد وتحت القبة يجلس ملك في الصدارة ومن حوله ملائكة كثيرون ينتظرون القادمين الى الجنة ليخرجوا في استقبالهم والترحيب بهم ، فاذا ما اقتربوا من السرر طلب منهم الملائكة ان يصعدوا اليها ، فاذا ما استقروا بداخلها طاف بهم الولدان المخلدون في رياض الجنة النضيرة حتى يصلوا الى قصورهم وبيوتهم الكبيرة فينزلون من السرر وبصحبتهم الملائكة الذين يدخلونهم في هذه البيوت ويأخذون بايديهم حتى يجلسوا ويبدأ الملائكة في الضحك معهم والانس بهم والحديث اليهم حتى يسمع لذلك ضجيج من مسافة بعيدة ، ويقول لهم الملائكة انهم لم يضحكوا ابدا من قبل ولم يلعبوا ولم تنفرج شفاههم بغير التسبيح لله وانهم انما يفعلون ذلك الآن تشريفا لهم وايناسا ، ثم ينصرفون بعد ذلك تاركين كل واحد بمفرده في بيته.

الفصل الثالث والاربعون :

لكل منزل باب صغير يفضي الى نهر من انهار الجنة : ففيها انهار كثيرة غير ان هذا النهر الذي اقول لكم عنه الآن اجملها واروقها واصفاها فعلى ضفتيه تقوم جبال الفردوس وكلها من ياقوت ازرق تخرج من بطنها مناجم الذهب والفضة والاحجار الكريمة التي تنساب بعد ذلك وتجري في جداول الى النهر الذي تصبح حصباؤه من هذه الاحجار الكريمة ، اما الياقوت الازرق الذي قدّت منه الجبال فهو بالغ الشفافية الى درجة انك تستطيع ان تخترقه بنظرك وترى ما بداخله. وفي هذه الجبال مسارب اخرى تفضي الى حدائق غناء واقعة خلفها ، كل طريق من هذه الطرق يفضي الى حدائق الفردوس الاربع اثنتان منها عظيمتا الاتساع ينبع منهما عينان نضاختان جميلتان وبهذه الحدائق اشجار جميلة ذات ثمار وفيرة يبلغ عددها في كل شجرة مائة صنف كلها شفاء ، اما الحديقتان الاخريان فهما اقل اتساعا الا ان لكل منهما عين جارية صافية جميلة شفافة.

الفصل الرابع والاربعون :

في هذه الجنات نخيل شاهق الارتفاع واشجار رمان سامقة جميلة فاذا ما اكل الانسان من ثمارها تلذذ بمذاق كل فاكهة الارض وقد نصبت تحت الاشجار سرادقات وخيام تقطنها الحوريات الابكار اللائي اختارهن الله وحفظهن فلا يستطيع الاقتراب منهن حتى الشيطان نفسه ، جمالهن لا يبلغ مداه الوصف يجلسن على حشايا ومطارف وثيرة فاذا قدم عليهن من جعلن له من اهل الجنة خرجن للقائه وجذبنه ليجلس معهن ، ثم يأتي الله حينئذ لزيارتهم تحوطه الملائكة ويسألهم ان كانوا راضين عن هذه النعم الكثيرة فيجيبونه بانهم في غاية الرضا والحبور فيبشرهم ربهم بان هذه السعادة لن تزول عنهم ابدا .

الفصل الخامس والاربعون :

كل من يدخل الجنة يصبح فائق الحسن والجمال وقد رأيت بعد ذلك ملكا على كرسي من نور تحيط به ملائكة عديدة تقوم على خدمته . وقال لي جبريل انه خازن الجنة واسمه رضوان ، فتبادلنا السلام وابديت له رغبتي في رؤية كل الجنان فامسك بيدي وطاف بي فيها جميعا وهو يريني الانهار والاشجار والقلاع والقصور وجميعها تتلألأ بانوار تعشي الابصار ، اراني بيوتا من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ومن كل انواع الاحجار النفيسة ، واراني جبالا تحيط بالجنات وسهولا خضراء وغابات كثيرة جميلة وبداخل هذه الجبال حظائر مساحتها تزيد على خمسمائة عام ، فيها خيل وبغال من كل الالوان ، ولمّا اقتربنا منها لنراها بوضوح هرعت جريا من الذعر فاثارت بحوافرها غبارا ازكى من المسك والعنبر اللذين تمتلئ بهما كل الحظائر واخذني رضوان لحظيرة ملئت بالطير الاخضر والاصفر ومن كل الالوان وكانت عظيمة الحجم زكية الرائحة ، فلمّا اقتربنا منها وشرعت بالطيران وقعت تحت قدمي وكان باجنحتها من المسك ما ملأ كل الحظيرة بالعطر الفواح واراني كذلك فيها بيوتا من ذهب وفضة وجواهر مقاعدها وسررها وفرشها لم تره عين من قبل ولم تسمعه اذن ابدا .

الفصل السادس والاربعون :

وسار بي الى الامام فاراني نهرا يسمى «القطنوم» عرضه مسيرة خمسمائة عام اما طوله فلا يعلمه الا الله وهو النهر الذي يحتضن جميع الجنات فعجبت لطوله وعرضه وعجبت اكثر لما قام على شاطئيه من مساكن ضخمة عظيمة كثيرة ، كلها من قماش ذهبي وسميط وهي من البهاء والنور بحيث تخترقها الانظار . في هذه المساكن او الخيام تولد النساء الكرائم ذوات الكرامات وهن عظيمات الاجسام واهدابهن كأنها قوس قزح وجمالهن يعشي الابصار ويشع منهن بهاء ونور يفوق ضوء الشمس وهن مقصورات في خيامهن لا يدخل عليهن احد ابدا يولدن فيها مثلما ينبت الحشيش في الارض فاذا ولدت احداهن وكبرت تغطت بشعرها المرسل الجميل واخذت تنمو حتى تلامس رأسها سقف الخيمة ، وعندئذ تبدأ تلك السقوف بالتحرك البطيء فيعرف الملائكة الحفظة عليهن حينئذ انهن قد ولدن وكبرن حتى يبلغن حجمهن المقدر لهن فيفتح عندئذ كل ملك

خيمته فيجد وتجد السيدة امامها القماش المنسوج من الذهب واللؤلؤ وقد خلق ونسج على ما تشتهي وتود فاذا ما اخبرها الملك انه سيحملها الى الفردوس ترتدي هذه الثياب المطرزة بالذهب والمصنوعة من الحرير على مقاسها.

الفصل السابع والاربعون:

يمسك الملك بيدها ويذهب بها الى القلعة التي يحرسها وهي تلمع ببهائها على مسافة خمسمائة عام وفي الطريق تتغنى الحورية منشدة:

«طوبى لمن يؤمن بالله ويحظى بنعمته وفضله مثلنا»، ويصف لها الملك الرجل الذي جعلت له في الجنة وهو يسوقها لتنتظره فهي تعرف اسمه وتعرف انه قد قدر لها ان تكون في المستقبل عروسه وزوجته. وهكذا فان جميع سكان الجنة اذا اراد احدهم ان يأكل اية فاكهة من اشجارها فان اول شجرة يقابلها تمتد له فاذا ذاق ثمرتها وجدها طعم الفاكهة التي كان يشتهيها لان الله قد اخبرها بمَا يريد وعندما يصل الانسان الى الجنة يخرج اهلها للقائه بفرح وسرور اعظم ممّا يشعر به اقرباؤنا عندما نعود بعد حج او سفر طويل فهم يحبوننا اكثر من اهلنا وذوينا في هذه الحياة الدنيا.

الفصل الثامن والاربعون:

بعد هذا ذهب بي جبريل ورضوان الى مكان يسمى «سدرة المنتهى» وهو مكان فسيح جدا واروني شجرة عظيمة رائعة الجمال كانت كلها لؤلؤة واحدة ناصعة البياض بكل اوراقها وزهورها وثمارها وتحتها تنبع عين من ماء صاف تجل عن المدح وقال لي جبريل ان هذه عين النعمة الكاملة وان الله قد خلقها من اجلي وحدي ولا يشترك فيها معي احد.

وبعد ان قال لي ذلك ذهب وتركني لان الله كان يريد ان يكلمني وحدي فبقي جبريل مع رضوان اما انا فقد تقدمت الى الامام.

الفصل التاسع والاربعون:

فمضيت في الطريق الذي سلكته في المرة الاولى حتى وصلت الى الحجب القريبة من الله فأخذت في الارتفاع، فكلما مررت بحجاب رفع الآخر من تلقاء نفسه، لم يكن هناك احد يمسه بيده بل كانت قدرة الله تفعل كل شيء. وعبرت هذه الستائر والحجب ومضيت بعيدا حتى لم يصبح بيني وبين الله سوى حجابين احدهما من ضباب والآخر من نور، وفجأة سمعت من خلفها صوتا يتلو آيات من القرآن ويقول: «آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين احد من رسله ثم قال الله: يا محمد تلق هذا الكتاب الذي اوحي اليك قرآنا تتلوه على الناس فهو اعظم كنوزي في هذا العالم،

فتلقيت الكتاب من يده وشكرته على هذه العطية. وفي هذه اللحظة لم يكن بيني وبينه احد، لا ملك ولا انسان، لم يكن هناك الا هو وحده وانا امامه وجها لوجه، فسألني يا محمد ماذا يعلم اهل الدنيا عن الملأ الاعلى؟ فقلت يا رب انت اعلم بذلك مني، فأمرني ان ادنو منه اكثر، فارتفعت الحجب التي كانت تفصل بيني وبينه ونزع الله بصري من عيني واودعه في قلبي فكنت أرى بقلبي ولا أرى ببصري، وأمرني ان ادنو اكثر فاقتربت حتى اصبحت قاب قوسين منه او ادنى، وعندئذ وضع يده على رأسي حتى وجدت بردها في قلبي وافاض علي كل علمه حتى صرت اعرف ما كان وما سيكون. ثم سألني مرة اخرى هل يعلم الناس الدرجات والكفارات؟ فقلت ان الكفارات هي المشي على الاقدام الى الجماعات وان الدرجات هي افشاء السلام واطعام الطعام والقيام بالليل والناس نيام. فقال لي انك قد وصلت وادركت كل العلم والحقيقة.

الفصل الخمسون:

بعد ذلك ملاني حكمة من فضله وقال لي انه حبا لي ولأمتي واكراما منه فانه يأمرني ان اخبرهم بانه قد فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم وصوم ستين يوما في السنة وسيكون جزاؤهم الجنة فلم اجرؤ على ان اطلب منه ان ينقص الصوم لكن طلبت منه التخفيف في عدد الصلوات فجعلها اكراما لي خمس صلوات ثلاثة بالنهار واثنتان بالليل وانه يحب اقامتها بكل شعائرها وقال: «انني ساجعل ثوابها لكم من الجنة كأنها خمسين صلاة وكل حسنة تفعلونها ساجزيكم عنها بعشرة امثالها، وكل سيئة لا يجزى الا مثلها ولو استغفرتم الله عنها لمحوتها حتى من ذاكرتي، فلم اطلب منه اكثر من ذلك وانصرفت من حضرته.

الفصل الواحد والخمسون:

لما عدت من نفس الطريق ارتفعت لي الحجب واحدة اثر الاخرى كما حدث من قبل ووصلت في نزولي الى السماء التي كان بها موسى فلما اخبرته بلقائي مع الله وما امرني به من صوم وصلاة نصحني وطلب مني ان اعود لحضرته، واطلب منه تخفيف الصيام لانه سيكون تكليفا ومشقة على أمتي مثلما كان على بني اسرائيل فعدت الى الله وضرعت اليه بذلك فخفف عني عشرة ايام، ولمّا اخبرت موسى بذلك اعادني فخفف عني عشرة ايام اخرى وعشرة بعد ذلك حتى بقي ثلاثون وقد استحييت من ربي ان اطلب منه اكثر من ذلك طمعا في التخفيف.

الفصل الثاني والخمسون:

عدت الى لقاء جبريل ورضوان فرأيت جبريل يمسك بيده اربعة اكواب من الارض عظيمة الجمال وقال لي ان اشرب من ايها اريد واعطاني واحدا منها فوجدت له رائحة المسك وطعم اللبن فشربته كله واعطاني الثاني فوجدت له رائحة العنبر وطعم العسل فشربته كذلك. ثم اعطاني الاخير فوجدت رائحته وطعمه مثل الخمر فنفرت منه وتركته عندئذ ابتسم جبريل وسألني ان كنت اكره هذا الشراب فقلت له اجل فأخبرني ان الكوب

الاول معناه كما ان اللبن يغذي ويحكم الجسم البشري اكثر من اي شراب آخر فان أمتي ستحكم الجميع اما العسل فكما انه فيه شفاء للناس فان الله سيكون شفاء لأمتي الى يوم القيامة ، واما كوب الماء فكما ان الماء ينظف ويطهر كل دنس ونجاسة اكثر من اي شيء آخر فان أُمتي ستكون هكذا انظف من الآخرين الى النهاية . اما الخمر فكما انها تدعو الناس الى الرجس والاثم والحمق فانك لم تشرب منها لان الله سيطهر أُمتك من كل رجس واثم وحمق وسيجعل الخمر محرّمة عليهم دائماً ما عدا تلك التي ستشربونها في الجنة .

الفصل الثالث والخمسون :

اخذ جبريل بيدي وذهب بي بعد ذلك الى ادنى الجنات حيث اراني ماء اصفى واعذب من العسل عليه سد كله من البلور وطوله سبعون الف فرسخ اما عرضه فهو اقصى مدى بلغه نظر الانسان ، وعليه من اكواب الذهب والفضة مثل السحاب في السماء عندما يشتد الغيم ورأيت ان الله قد اعد لي هذا النهر ، وانه ما اعظم سعادة من يستطيع ان يشرب من مائه لانه الذ واشهى ماء ، ولن يشرب منه الا من يصدق بي ولا يتركني ليتبع نبيا آخر ، ثم اخبرني كذلك بانه يريد ان يريني بامر الله اشكال جميع الخلائق وصور الاحياء والاموات والجحيم وعذابه واهواله حتى انذر أُمتي وتعرف كيف تحافظ على ديني وملتي .

الفصل الرابع والخمسون :

اخبرني انه تحت هذه الارض التي يعيش عليها الناس هناك ارض اخرى كلها نار وسكانها من نار وبحارها واسماكها كذلك من نار وعندها ارض اخرى من نار هي وسكانها وبحرها وسمكها كذلك ، وهكذا حتى سبعة ارضين كل واحدة وراء الاخرى في كل منها بحر من نار وكل ما فيها نار ، وتحت هذه الارضين حجر يمسكها وتعتمد عليه ويقوم هذا الحجر على حوت يلتقي رأسه وذنبه في هيئة حلقة او خاتم ولا شيء تحت الحوت سوى الظلام والضباب وبعده لا يعرف ما وراء ذلك الا الله ، اما الارض التي نعيش عليها فيحملها بامر الله حجر وضعه ملك في كف يده وقد وقف هذا الملك متكئاً على ظهر حوت هائل قوي يمسك ما بين الارض والسماء ، هذه الارض معزولة عن غيرها من الارضين ، وتحتها خلق الله الريح العقيم الذي اصبح من قسوته وشدته كالمرأة التي لا تلد . وقد جعل الله لهذا الريح الف ممساك من حديد كي لا تنطلق ، يقبض على كل ممساك الف ملك شديد بهذه الريح اهلك الله عاداً وقوم هود الذين كذبوا برسله ، ولم يترك هذه الريح تخرج الا من فرجة مثل اصبع طفل طيلة سبعة ايام وليال حسوما فأتت على كل شيء ولم تذر فيهم باقية وبهذه الريح سوف يهلك الله قبل القيامة جميع الجبال والقلاع والبيوت والمباني على وجه الارض حتى يفنى كل من عليها كما جاء في القرآن الكريم وبهذه الريح سوف يعذب الله العصاة في الجحيم اذ ينزع عنهم جلودهم ويحرقها بلهيب الريح .

الفصل الخامس والخمسون :

وبعد ان وصف الارض الاولى قال لي عن الثانية انها تسمى « الجلادة » وقد جعل الله فيها عقارب الجحيم كبيرة كالبغال واذنابها مثل الرماح الطويلة في كل ذنب ثلاثمائة وستون حلقة ، في كل حلقة ثلاثمائة وستون قرنا ، في كل قرن ثلاثمائة وستون كوبا من السم الناقع بلغ من شدته الى درجة انه لو وضع منه كوب واحد فقط في وسط العالم لافنى جميع ما فيه من زرع وماء وانسان وحيوان وكل كائن حي لما يخرج منه من نتن شديد ، وقد سلط الله هذه العقارب على العصاة في النار فعندما يجدونهم ينزعون جلودهم ويشدونهم في شعورهم ويسلخونهم من رؤوسهم حتى اقدامهم فيظلون بعد ذلك مغشيا عليهم حتى لا يعرف احد ان كانوا احياء او اموات ، ثم يصبون عليهم بعد ذلك سم واحد من اكوابهم فيفصل في الحال لحمهم من عظامهم وعروقهم وهكذا يقضون عليهم ، ولكن الله يبعثهم مرة اخرى ليذوقوا سؤ العذاب.

الفصل السادس والخمسون :

وتسمى الارض الثالثة « ارقى » وقد ملأها الله بحيوانات « طاطاس » وهي عظيمة مثل الجبال ، خلقت جميعها من نار وتراب ممتزجين ، رهيبة اشد سوادا من الليل الحالك ، يحيط بها الضباب من كل جانب ، وبكل حيوان سم اقوى واشد اشتعالا من نار الجحيم فاذا اطلقه الله على العصاة والمذنبين انتزعهم وطرحهم على الارض بشدة ثم فتح افواههم وصب فيها السم الذي يذيبهم كما تذيب النار الشمع.

الفصل السابع والخمسون :

والرابعة تسمى «الحربة» وهي مليئة بحيات الجحيم وتبلغ من الضخامة والغلظة درجة يعجز الوصف عن الاحاطة بها ، وفي فم كل حية ثمانية عشر الف ناب كل ناب في طول النخلة تحت جذره سبعون الف كوب من السم الناقع لو صب على نار جهنم لاحرقها ، ولو عضت حية من هذه بناب من انيابها اكبر جبال الارض لصار رمادا ، وهي سوداء اللون بشعة الهيئة فاذا لامست احد العصاة غرست في جسده نابا من انيابها ونفثت فيه قليلا من سمها فيقضي عليه في الحال ويفتت اعضاءه من الرأس الى القدم. ويبلغ من سؤ هذا العذاب ان العصاة يتمنون لو ادركهم الموت الف مرة كل يوم قبل ان يعانوا منه.

الفصل الثامن والخمسون :

اما الخامسة فاسمها « مالطة » وهي مليئة بالاحجار الكبريتية من الجحيم التي اعدها الله لتعذيب الكفار والمذنبين وهي تشبه الكبريت الاحمر وكل حجر منها يفوق سبعين الف مرة اكبر جبال العالم ويشد زبانية الجحيم رقبة الكافر في احدى هذه الصخور ويلقون به في نار جهنم وهناك يشتعل الكافر والصخرة في شعلة هائلة واحدة يرتفع لهيبها بطريقة لا يبلغ الوصف مداها.

الفصل التاسع والخمسون:

اما السادسة فتسمى «السحيقة» وبها تحفظ كل كتب وسجلات العصاة المذنبين وما اقترفوا من آثام الى يوم القيامة بكل تفاصيل الزمان والمكان والحال، وفي تلك الارض بحار من ماء شديد المرارة اسوأ مذاقا من اي شراب خلقه الله حتى ان حيوانات الجحيم نفسها تنفر وتشمئز منه.

وقد بلغت هذه المياه من المرارة والحرارة الى درجة انه لو القي فيها بحجر اعظم من اكبر جبال العالم لاهلكته في الحال، في هذا الماء الحميم الغساق يغتسل العصاة بامر الله ويشربون منه حتى تذوب احشاؤهم.

الفصل الستون:

وفي الارض السابعة المسماة «حاجب» مقر ومسكن ومملكة الشيطان بجيشه واهله، وهناك صفد ابليس في القيود من بداية معصيته لله حيث القته الملائكة الاخيار وغلته بالسلاسل الحديدية وربطت يديه احداها خلف ظهره والاخرى من امام، وفعلت مثل ذلك بقدميه، ويبلغ ابليس من ضخامة الحجم درجة ان رأسه تنفذ من اقطار الارضين حتى تصل الى ارضنا هذه فتخرقها قرونه وسيجيء اليوم الذي يفك فيه وثاقه ويطلق سراحه الى هذا العالم حيث يأتي ومعه رفاقه وبصحبتهم كل البشر وارواح العصاة من اهل النار. وفي وسط تلك الارض قام حاجز فاصل من ضباب قد جعل بحيث لا يستطيع احد ان يقترب من ابليس دون ان يخترقه، ومن خلفه القلعة التي يسكنها، والخنادق المحيطة بها مترعة بالسم الناقع من كل الانواع، جدرانها وابراجها وشرفاتها وبيوتها جميعا من نار سوداء لا يهدأ لظاها ولا يخبو سعيرها، وهناك في جانب من القلعة باب يفضي الى جهنم الكبرى وفي الجانب الآخر باب ثان يؤدي الى الزمهرير، وتحت كل هذا هواء وضباب، اما وراء ذلك فلا يحيط بعلمه الا الله تعالى.

الفصل الواحد والستون:

وقال لي جبريل انه قبل يوم القيامة بقليل يأمر الله بفتح بئر قريب من جهنم مليء بالنار اسمه «الفلق» يبلغ من الشدة درجة ان ناره تحرق جهنم نفسها كما تحرق نار الارض القطن المندوف، فاذا بلغت هذه النار البحر العظيم المحيط بالجحيم وما حوله من بحار جففتها بكل ما فيها حتى لا يبدو انه كان هناك ماء.

هذا البحر العظيم هو الذي يفصل الجحيم عن الارضين السبعة، وعندما تصل تلك النار اليها تقضي عليها وتحيلها في طرفة عين الى جمرة متقدة.

اما كل العقارب والاحجار الكبريتية وحيوانات الطاطاس والريح العقيم وكل ما هنالك فانه يختنق كظما بنار الفلق هذه مثل السمكة اذا القيت على جمرة هائلة.

الفصل الثاني والستون :

ان تلك الارضين السبع بعد ان خلقها الله لم يضعها في مكان ثابت بل ظلّت مثل سفينة في البحر تضرب في كل اتجاه وهي تنكمش وتنبسط مثل قطعة قماش ضائقة بحركتها ، ولمّا رأى الملائكة ذلك ضرعوا الى الله راكعين ان تنتهي شقوة تلك الارضين وان يجعل فيها سكانها فاستجاب الله لهم وارسل واحدا من الملائكة الثمانية الذين يحملون عرشه الى قاع تلك الارضين السبع ليمسكها ، فنزل الملك وبسط ذراعيه ووضع الارضين على كتفيه فهدأت واستقرت ثم اعطى الله هذا الملك حجرا بالغ الجمال يقف عليه بقدميه . كان حجرا مربعا شديد الخضرة ثم ارسل الله ثورا من الجنة يعتمد عليه الحجر فعلقه على منكبيه ، ثم بعث الله للثور بحوت عظيم يقف عليه متكئا بقدميه ، اما حجمها فان مسافة ما بين قرني الثور مسيرة خمسمائة سنة ، ومثلها مسافة ما بين القرنين الى منكبيه ومن المنكبين الى منبت ذيله كذلك ، وطول ذيله خمسمائة عام ، ونفس المسافة هي التي تقع بين منتهى ذيله الى حوافره . اما الحوت فاسمه « الوزان » وهو فوق البحر العظيم الذي يحمل جميع ذلك دون ان تكل قواه مطلقا ، بل تزيد باستمرار ، وكل المياه التي تجري في بحار العالم وتهبط من السماء تدخل في انف الثور وتنزل الى بطنه دون ان يمتلىء ابدا حتى يوم القيامة .

وسوف ينبعث من الملك والحجر والثور والحوت بخار هائل هو الزلزال الذي ستعقبه القيامة .

الفصل الثالث والستون :

واضاف جبريل قائلا لي ان كل تلك الاشياء سيكون لها يوم القيامة قدر عظيم وقدرة هائلة وان كل واحدة من هذه الارضين السبع تحتوي في نفسها على بحر عظيم وبهذا يكون عدد البحار اربعة عشر وهناك كذلك بحر هائل على مدخل الجحيم يسمى بحر البحار وهو الذي يمنع نار جهنم ان تحرق الكون كله ، وهناك اسفل ذلك الجحيم ضباب وريح شديد في مكان يسمى « زار » لا يعرف مادونه الا الله وحده ، اما الارض التي يعيش فوقها فهي ممتدة فوق ظهر حوت ومتصلة من كل جانب بجبل يسمى « قاف » هو الذي يغلقها ويحيطها وتبلغ مساحته مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والستون :

اما بقية الاراضي السبع فان طول كل واحدة منها وعرضها مسيرة الف عام وسمكها مسيرة خمسمائة عام وبين تلك الارضين السبع وارضنا يقوم عالم الجن ، وسمكه مسيرة خمسمائة عام وبين عالم الجن والسماء الدنيا مسافة مائتي وعشرين عاما ، وفي هذا الهواء خلق الله طيورا عظيمة الحجم رؤوسها وذوائبها سوداء مناقرها صفراء اما بطونها وصدورها وهي الطيور الابابيل التي حملت الاحجار الكبريتية التي احرق الله بها قوم لوط في سدوم وعامورة وكان كل طائر يحمل ثلاثا منها بمنقاره .

الفصل الخامس والستون :

وشرح لي جبريل بعد ذلك كيف خلق الله الامانة وعرضها على السموات والارض والجبال والوديان قائلا انها ان رعتها كما يجب فسيكون لها جزيل الثواب والا فسيحق عليها العقاب ، ولكنها ابت ان تتلقاها وتحملها فاعطاها الله آدم امانة هي معرفة النفس والمثول الدائم امام الله حيث يكون في حضرته وامام عرشه مثل حبة خردل في كف اليد او مثل كوب صغير فوق مائدة عظيمة من اجل هذه الامانة فان الرجال والنساء والطير والوحوش وكل المخلوقات تسبح بحمد الله بل ان الضفادع تسبح بحمده مثلها جميعا عشر مرات ، لن تكف عن ذلك حتى يوم القيامة الذي تتحول فيه بامر الله الى تراب.

الفصل السادس والستون :

وقال لي جبريل ان يوم القيامة سيجتمع فيه كل الناس كي يسمعوا او يتلقوا الحكم عليهم وسيأتون حفاة عراة كما ولدوا وتكون اعمارهم ثلاثين سنة ولا يخجلون من عريهم لما سيكونون فيه من شغل بانفسهم وبذنوبهم وقرب الحساب الذي سيضعهم في موقف عسير حيث يتصبب منهم العرق وهم محملون بالذنوب حتى يصل الى اعجاز بعضهم ويصل من بعضهم الآخر الى الركب او الى الاقدام ، وعندما يرى الله ما هم فيه من شدة وكرب يأمر ملائكته بان يحضروا العرش ويضعوه على ارض ناصعة البياض ابهى من اشد انواع الفضة نقاء حيث لم يرتكب ذنب ابدا ولم ترق قطرة دم على الاطلاق ، ويتجلى الله سبحانه وتعالى لكل العالم حيث تراه عيون الناس لاول مرة.

الفصل السابع والستون :

يجلس الله على عرشه ويجمع امامه كل الخلائق ينادي على كل واحد باسمه ويجعله يمثل في حضرته حتى يراه ويسمعه جميع الناس ثم يأمر بان يحضروا كل ما فعله في حياته من خير او شر لتقرأ صحيفته على الملأ ثم يشير بان يتقدم كل من له شكوى ضده فيعوضهم الله من حسناته فاذا اصبحت السيئات اعظم من الحسنات حمل الى الجحيم ، وفي هذا اليوم لن ينجي احدا سوى حساب حسناته وسيئاته ، وسوف يكشف عن جميع الاسرار وحتى جوارح الانسان فتشهد عليه وتفضحه وتشهر باي ذنب ارتكبه واخفاه. اما الذين قصرت حسناته عن تعويضهم فان الله يجزيهم بفضله ، كل هذا يتم في لحظة واحدة لان الله عنده علم كل شيء حاضر في حكمه وعدله حتى لن يكون هناك ملك ولا نبي ولا شهيد ولا ولي من اوليائه لا يرتجف من دقة الحساب الالهي الذي لا يدع كبيرة ولا صغيرة الا احصاها.

الفصل الثامن والستون :

ولما سألت جبريل عما اذا كانت كل تلك السماوات والارض متصلة فيما بينها او منفصلة قال لي انه من الضروري مراجعة كل ما رأيت للاحاطة بفهمه ، وهكذا تذكرت انه عندما خلق الله الارضين السبعة امر

ملكا يسمى عزرائيل ان يمسكها وهو يركب ثورا يسمى « بهموت » وامر هذا الثور ان يعتمد على صخرة خضراء وعلى تلك الصخرة قام جزء من الجبل العظيم المسمى بجبل قاف ، اما الى اسفل فهواء وضباب يمتدان حتى قاع الماء ، وبين هذا الماء والضباب يقوم الحوت الكبير الذي يمسك بجميع الاشياء ان تقع والذي يحوطه الريح العقيم . اما جبل « زار » المذكور من قبل فهو مقسم دائريا الى سبعة اقسام كل منها منفصل عن الآخر وتبعد كل ارض عن الاخرى بمقدار خمسمائة سنة وكل هذا انما يدخل في جبل قاف.

الفصل التاسع والستون :

سألت ان كان هناك ناس فيما وراء جبل قاف فقال لي ان الهواء كانت فيه بعض المخلوقات الحية على هيئة الانسان لا يعلم امرهم الا الله وانه ما بين سماء العرش والسماء التي تقع اسفل منها يوجد ديك الله الذي تحدثنا عنه وان تلك هي ارض قاف ومنها يتفرع سبعة عشر فرعا مثل اغصان الشجر تمتد نحو السماوات وهي من الضخامة والعظم بحيث تنفذ حتى اقطار السماء الثامنة التي تعتمد عليها بقية السماوات دون ان تمس الافرع . ومن وراء جبال قاف تمتد الابحر السبعة التي تحيط بكل شيء ، اما فوهة الجحيم فهي في منتصف الجزء التالي للارض السابعة مثل البئر العظيم وكل هذا يقوم على اكتاف الملك المذكور والى جوار فوهة جهنم هناك سبعة ابحر من نار تصب كلها في بحر هائل يجعل الله ارواح العصاة تغتسل وتتطهر فيه ، ولكن ارواح المكذبين به تنغمس فيه حتى تلقى حسابها يوم القيامة وعندئذ يرفع الله الجحيم والجنة على السواء ، ولكن الجنة فوق الجحيم وعلى الجحيم يقوم الصراط يوم القيامة وهو جسر طوله مسيره خمسمائة عام وبجواره روضة مختبئة طولها خمسمائة عام كذلك وهي تقع ما بين ارضنا والارض الاولى من الارضين السبع والى جانبها روضة اخرى تقع بين الارض الاولى والثانية عرضها ثلاثون سنة وبين الثانية والثالثة روضة اخرى مسافتها ثلاثون سنة ايضا وهكذا تقوم رياض بنفس القدر بين بقية الارضين.

الفصل السبعون :

وشرح لي جبريل بعد ذلك كيف وزع الله رزقه بين مخلوقاته فعندما خلق السموات والارض قسم نعمته الى عشرة اجزاء واعطى تسعة منها ملائكة السماء الثامنة حيث يقوم عرشه ثم قسم الجزء العاشر الى عشرة اجزاء واعطى تسعة منها ملائكة السماء السابعة وهكذا قسم ووزع بنفس الطريقة في بقية السماوات حتى قسم العشر المتبقى من السماء الاولى الى عشرة اجزاء كذلك واعطى تسعة منها ارواح النار ثم اعطى تسعة اعشار الباقي الاشباح والجن في الهواء ومثله مما تبقى الى الطير في السماء ومثله مما تبقى الى السمك في الماء ، وقد اعطى الانسان نعمة عظيمة جعلته يعرف و يميز جميع الاشياء ، وبعد ذلك خلق الشر على الارض وقسمه على الناس بنفس الطريقة فاعطى تسعة من الاقسام العشرة الاولى الى ياجوج وماجوج ثم خلق الحسد من العشر الباقي واعطى العرب تسعة اعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الفجور واعطى الهنود تسعة اعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الزيف واعطى اليهود تسعة اعشاره ، ومن العشر الباقي خلق الكبرياء واعطى المسيحيين تسعة

اعشاره ومن العشر الباقي خلق البخل واعطى الفرس تسعة اعشاره ومن العشر الباقي خلق الجهل واعطى اهل الحبشة تسعة اعشاره ومن العشر الباقي خلق الخيلاء واعطى البربر تسعة اعشاره ، ثم وزع الباقي على العالم كله ثم خلق بعد ذلك الملذات وقسمها الى عشرة اجزاء ، واعطى تسعة منها النساء والباقي وزعه على العالم كله ، ثم خلق الجنة واعطى تسعة اعشارها من تبع ديني والباقي للعالم كله.

الفصل الواحد والسبعون :

ولما انتهينا من ذلك اخذ جبريل ينفث الزفرات قائلا لي انها من حزنه على ما يرى من عذاب المذنبين في النار. ثم امسك بيدي وذهب بي الى مكان رأيت منه الجحيم وابوابه السبعة بعضها فوق بعض ، وهي شديدة التوقد حتى ان اهونها لو كان في المشرق وكان الانسان في المغرب لصهرت مخه حتى يخرج من انفه من شدة الحرارة التي تنبعث منها. اما اسماء ابوابها فهي جهنم ولهب والحطمة والسعير وصقر والجحيم والهاوية ، ويبعد كل باب عن الآخر بمقدار سبعين الف سنة ، وامام كل باب جموع غفيرة من الناس والشياطين يأتي بهم الله كل يوم كي يروا من هناك ما ضيعوه من نعيم الجنة فتذوب انفسهم حسرات وتتضاعف احزانهم وبخارج الابواب على الشمال سبعون الف جبل من نار ينبع منها سبعون الف نبع من نار على حافة كل نبع سبعون الف قلعة من نار بكل منها سبعون الف بهو من نار وفي كل بهو سبعون الف امرأة من نار كلهم غاية في القبح والشناعة فاذا ما التقين بالعصاة والمذنبين اخذنهم بالاحضان الشديدة حتى يتراءى لهم انهم قد فقدوا حياتهم حرقا باشد مما تحرق كل النيران الاخرى فيتمنون لو مات كل منهم سبعين الف مرة في اليوم قبل ذلك كما تصب كل واحدة منهن عليهم سبعين الف نوع من العذاب ، وعلى شواطىء هذه الانهر النارية سبعون الف شجرة من نار بكل شجرة سبعون الف صنف من الثمار في كل ثمرة سبعون الف دودة ، اقل دودة بها من السم ما يكفي للقضاء على جميع اهل الدنيا وفصل لحمهم عن عظامهم ، وتحت كل شجرة سبعون الف تنين ومثلهم من العقارب وجهنم كلها مليئة بالوحوش الضارية من جميع الاشكال وهي تصيب الكفار والمذنبين بما يصل الى سبعين الف نوع من العذاب فتجعلهم يتمنون لو ماتوا سبعين الف مرة ، في اليوم قبل ان يلاقوه.

الفصل الثاني والسبعون :

وشرح لي جبريل بعد ذلك عقاب جهنم المقسم طبقا لانواع الذنوب المقترفة ، فقد امر الله ان يحشر من الباب الاول المسمى جهنم كل من يشرك به معتقدا في اصنام من طين او معدن ، اما الباب الثاني لهب فهو للمرتدين والثالث هو الحطمة للبخلاء ويأجوج ومأجوج والرابع وهو السعير للمقامرين والمجدفين والخامس وهو سقر للذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، والسادس وهو الجحيم لمن يكذبون انبياء الله ورسله والسابع وهو الهاوية لمن يطففون في الكيل والميزان ، وبقية النار مقسمة الى سبعة اجزاء ، ستة منها لمن يدعون مع الله آلها آخر ويفعلون ما يشتهون دون ان يأتمروا بأمر الله. وكل هذه الاصناف من الناس ستمحى اسماؤهم من سجل الحياة.

الفصل الثالث والسبعون :

ويوم القيامة سوف يأمر الله بان يحضر امامه وحش عملاق قد خصص للاخذ بزمامه سبعين الف زمرة من الملائكة هؤلاء الملائكة يعدون في السماء اربعة اعمدة عظيمة طول كل منها مسيرة سبعين الف سنة ، ثم يقيمونها في اركان المحشر الاربعة ويربطون فيها ذلك الوحش ليعذب العصاة والمذنبين. هذا الوحش له ثلاثون الف فم بكل فم ثلاثون الف ناب احد من السيف ثلاثين الف مرة ، وبكل مشفر من مشافره حلقة عظيمة من حديد وسلسلة كبيرة بكل سلسلة سبعون الف خاتم من حديد وقد امسك بكل خاتم ملك عظيم بلغ من الضخامة الى درجة انه يستطيع ان يزدرد الدنيا وما فيها دون ان ينال منه ذلك شيئا. هذا الوحش العملاق شديد البشاعة مهول الشكل حتى لو انه وضع في اقصى طرف من الارض وفي الطرف الآخر انسان لغشي عليه من الخوف والفزع ، وعندما يجد هذا الوحش نفسه وقد جرته الملائكة واحضرته امام الله يرتجف بشدة ويرجوهم ان يخبروه عن سبب احضاره امام الله ولكنهم يجيبونه بانهم لا يعرفون السبب ويفعلون ما يؤمرون وعندما يركع امام الله يخبره ان خلقه كي يعذب العصاة وينتقم من آثامهم ، خاصة هؤلاء الذين يشركون به آلها آخر. عندئذ يقدم له الوحش اعظم الحمد والثناء خضوعا واستسلاما لارادته ويزفر بشدة لو سمع اهل الكون زفرة واحدة منها لماتوا من الخوف ، ثم لا يلبث ان يمضي في الحال وهو ينفث من فمه لهبا لو امتد من فوق العالم كله هو والدخان الذي يخرج من انفه لاظلمت به الارض جميعا ولما استطاع احد ان يرى احدا الا بفضل من الله ، ثم سارت الملائكة الى جانبه وهي تقوده الى الجحيم.

الفصل الرابع والسبعون :

وانتابني لكل ذلك خوف وفزع شديدان فأخذ قلبي يدق في صدري وقد طلبت من جبريل ان لا يخفي علي من الامر شيئا فاخبرني ان كل الناس يوم القيامة سيرون هذا الوحش وسيبلغ بهم لذلك الفزع مداه حتى ليخيل اليهم ان قلوبهم ستنزع من صدورهم وان اعضاءهم ستقطع اربا اربا وسيغشى عليهم لمجرد رؤية الوحش وتذكر ذنوبهم ، ويأمر الله باحضار ميزان امامه يبلغ حده ما بين المشرق والمغرب وكل واحد من كفاته يبلغ من الضخامة درجة ان يغطي الارض جميعها ، احداهما من نور والاخرى من ظلام ، اما كفة النور فهي على اليمين وكفة الظلام على اليسار وتوضع الحسنات في كفة النور كما توضع السيئات في كفة اليسار والظلام ، ويحمل كل انسان قفتين مثل الحوضين يبلغ طولها مقدار ما يصل اليه بصر الانسان على ابعد مسافة ، يضع حسناته في احداهما وسيئاته في الاخرى ، وعندما يأتي الى الميزان يفرغ حسناته في كفة النور وسيئاته في كفة الظلام ويظل هو في الوسط حتى يذهب ناحية الظلام ان ثقلت سيئاته وفاقت حسناته ، وناحية النور ان ثقلت حسناته وهبطت كفتها في الميزان ، ومن اجلك يا محمد فان الله سيجعل كل انسان مهما كان جنسه او ملته ومهما كانت الذنوب التي ارتكبها ما دامت معه ورقة كتب فيها « لا اله الا الله محمد رسول الله » ويلقيها في كفة النور فانها سترجح وحدها كل ذنوبه في الكفة الاخرى ثم تغفر له جميع تلك الذنوب وما عداها و يمحوها الله من كتابه.

الفصل الخامس والسبعون :

ثم قال جبريل ان يوم القيامة سيكون طوله خمسين الف سنة ولكنه عند الله لا يزيد على طرفة عين وهذا لسببين لان الجموع سيكونون يوم الحشر واقفين على اقدامهم ولان الصالحين سيكون عندهم شوق عظيم للذهاب الى حيث ينعمون بثواب طيباتهم ، اما الآخرون فسوف يعروهم الحزن والكرب والجوع والعطش والخوف المقيم وهذا اليوم سيقال له يوم البعث والنشور واليوم الآخر لجميع الايام ، وفيه ترتجف السماوات والارض وينفخ في الصور فتسمع صيحة كبرى هائلة فيقوم جميع الموتى ويبعثون احياء وسيكون يوم الحساب والعقاب والعدل وفيه تتغير وجوه الناس فمنهم من تُبيّض وجوههم ومنهم من تُسود ولا مجال فيه للكذب ولا للغش ، ولا يغني والد عن ولده شيئا وتذهل فيه الحامل عمن في احشائها وترى الناس سكارى من الخوف ، في هذا اليوم يبدل الله ارضا غير الارض وسماء غير السماء ويكون كل شيء امام عظمة الله ضئيلاً صغيراً كانه سفينة صغيرة في بحر عظيم . وعنده لن تكون هناك ذنوب اخرى لان قلوب البشر سترى بكل وضوح صغارها وحماقتها ، وسيفقد الشر والكذب كل سلطانهما وسيكون يوم محنة خاصة وعذاب شديد لمن لم يؤمن بالله ومن لم يطع رسله فيمَا جاءوا به من عند الله .

الفصل السادس والسبعون :

وحدثني جبريل بعد ذلك عن الجسر المسمى بالصراط الذي خلقه الله ليبلو الصالحين والعاصين من عباده وهو معلق فوق الجحيم ارق من الشعرة وأحد من السيف محاط من جانبيه بكلاليب وخطاطيف حديدية اعظم واسن من اكبر الرماح وهو مقسم الى سبعة جسور بعضها فوق بعض اولها طوله مسيرة عشرة الآف سنة وثانيها عشرين الف سنة وثالثها اربعين الف سنة ورابعها ثمانين الف سنة وخامسها مائة وستين الف سنة وسادسها ثلاثمائة وعشرين الف سنة وسابعها ستمائة واربعين الف سنة .

ثم قال لي عندما يأمر الله أُمتك بالذهاب الى الجنة سيحاولون اجتياز الجسر الاول وسيختبرون حينئذ في ايمانهم وكيفية اعتقادهم ، اما المؤمنون الصالحون فسيمرون واما الطالحون فسوف تنهشهم الكلاليب وتمسك بهم الخطاطيف حتى يقعوا في النار ، ومن يمر الى الجسر الثاني فسوف يسأل عما اذا كان قد أقام الصلاة المفروضة فان كان قد اقامها مر وان لا سقط في النار مثل الاولين ، ومن يعبر الى الجسر الثالث فسوف يمتحن في حفظ القرآن ام لا فاما من حفظه فسيمر والا وقع في النار ، والذين يمرون الى الرابع سوف يسألون عن الصيام فمن اتم صيامه مر وان لا سقط في النار ، ومن يذهبون الى الخامس يسألون عن فريضة الحج الى مكة في الميقات المعهود فمن حج مر وان لا سقط في النار ، ومن يمرون الى السادس يسألون عن الغسل والوضوء عند الصلاة وبعد الجنابة فمن كان قد فعل مر ومن لم يفعل سقط في النار ومن يذهب الى الجسر السابع يسأل عن بر الوالدين الذي امر به الشرع فان كان قد برهما مر ونجا والا سقط على وجهه في النار ليذوق العذاب الابدي جزاء وفاقا على عقوقه وظلمه .

الفصل السابع والسبعون :

واخبرني جبريل ايضا عن هذا الجسر ان طرفه في وسطه وان الجزء الذي به الكلاليب والخطاطيف يكاد يشبه اكبر الجبال واعلاها في الارض اذ يشق الصعود عليه والهبوط منه الى اقصى درجة فيبدو النزول منه كما لوكان انحدارا الى هاوية ، وبه من هذه الجبال سبعون جبلا يستغرق الصعود اليها والهبوط منها سبعين الف سنة وبين كل جبل وآخر ظلام ممتد يبلغ مسافة ثلاثة الآف سنة. اما اللهب الذي يخرج من النار فانه يتجاوز رؤوس من يمرون على هذه الجسور المذكورة بمسافة مقدارها مسيرة سبعين الف سنة ، ويتصاعد ذلك اللهب على جانبي الجسر حتى ليخيل للعابرين انهم يسيرون في طريق من نار ولا يرون في كل اتجاه سوى اللهب والنار فاذا نظروا الى اسفل رأوا جهنم بابوابها السبعة حيث ينبع بجوار كل باب سبعون الف نهر من نار ويتفرع من كل نهر مائة الف جدول من نار في كل منها الف تنين ومثلها من العقارب التي يبلغ اصغرها مسيرة عشرة الآف سنة ، ولكل تنين وعقرب سبعون الف ذنب بكل ذنب عشرة الآف خاتم بكل خاتم عشرة الآف قرن صغير ملىء بالسم الناقع فاذا ما وقع احد المذنبين الى النار فانها تنهشه وتصب عليه من سمها ما يقضي عليه لكنه يعود مرة اخرى الى الحياة ليذوق سؤ العذاب. كذلك يجعلونه يرتدي سبعين جلدا منها كل جلد يبلغ سمكه سبعين ذراعا ومسافة ما بين كل جلد وآخر مليئة بالحيات والعقارب التي تلدعه وتسممه وتقطع جسده اربا اربا حتى يتمنى ان يأتيه الموت الف مرة وتحرقه نار الجحيم سبعين الف مرة في اليوم دون ان يستطيع موتا نهائيا بامر الله كي يذوق العذاب ، اما اثناء النهار فانه يجمع الاحطاب التي يحرق بها في الليل.

الفصل الثامن والسبعون :

وقد انهمرت دموعي غزيرة عند سماع اخبار هذه العقوبات ، وقال لي جبريل ان كثيرا من أُمتي سيقع في الجحيم رجالا ونساء وسيوزعهم الله الى سبع مجموعات ويقول لهم : من يظن منكم ان من حقه ان يعبر الجسر فليتقدم لعبوره. فيهرعون جميعا لاجتيازه اما انت يا محمد فستكون في الجانب الآخر من الجسر عند الجنة يرتفع صوتك بالدعاء قائلاً : « اللهم نج أُمتي » وعندما يسمعونك يهرعون الى الجسر متكالبين كأنهم سحب من جراد منتشر وهو يتساقط على الارض ، اما انا ، اي جبريل ، فسأكون مع أُمتك داعيا « اللهم ارزقهم النجاة ». وعند عبورهم يرتجف الجسر كانه نخلة تعصف بها الريح فاذا مرّ المتقدمون من اهل الزمرة الاولى مروا خفافا كأنهم البرق ومرّ اهل الزمرة الثانية كأنهم ريح اعصار والثالثة مثل الطير المحلق في اجواء الفضاء والرابعة مثل جواد السباق والخامسة مثل الرجل العداء والسادسة مثل الانسان النشيط السريع والسابعة مثل طفل صغير يحبو ويتعلم المشي ، بعضهم يجر نفسه على صدره وآخر يتشبث بيده بالجسر فاذا ما لسعته النار سحبها وتشبث باليد الاخرى ، فاذا ما لسعته رفعها وحاول التشبث بقدميه فاذا زلت احداها اعتمد على الاخرى ، وهكذا يظلون على تلك الصورة حتى يعبروا جسر الصراط وقد اسودت اجسامهم فصارت مثل الفحم من الحروق بعضهم يقاسي هذا العذاب طيلة يوم وليلة وآخرون طيلة يومين وآخرون طيلة شهر او شهرين او ثلاثة وآخرون طيلة عام او عامين او اكثر وهكذا حتى يكون هناك من يستغرق خمسا

وعشرين الف سنة وهي نصف يوم القيامة الذي يطول بمقدار خمسين الف سنة يعني ان من سيكون مصيره الجنة او النار عليه ان يكون فيها يوم القيامة قبل منتصف النهار.

الفصل التاسع والسبعون:

ولما فرغ جبريل من حديثه رأيت بعض العصاة والكفّار وهم يقاسون انواعا مختلفة من العذاب في جهنم مما جعلني اتصبب عرقاً من الكرب والضيق رأيت بعضهم تنزع شفاههم برماح متقدة، وقال لي جبريل هؤلاء دائما يزرعون الشقاق بكلماتهم، وآخرين تنزع السنتهم لما شهدوا به من شهادة الزور، وآخرين معلقين من ذكورهم في خطاطيف من نار وهؤلاء هم الزناة، ورأيت بعد ذلك افواجا من النساء معلقات في كتل من نار ربطت على فروجهن وعلقت تلك الكتل في سلاسل من نار وهن البغايا ورأيت افواجا اخرى ممن كان يعجبك منظرهم وملبسهم في الحياة الدنيا فعرفت انهم الموسرون من أُمتي وقد جعلوا يحترقون بنار هائلة لانهم على الرغم من صدقاتهم كانوا ظالمين ومتكبرين على الضعفاء من الناس، وهكذا انظر الى كل العصاة والمذنبين وهم يتعذبون طبقا لما اقترفوا من سيئات، فرجوت جبريل ان يبعد بي عن هذه المشاهد اذ لا اطيق ان أرى من هول وعذاب. فسألني جبريل عن رأيي في كل ما شاهدت من غرائب، فقلت له اني ادرك جيدا في الدرجة الاولى الشرف الذي خصني به الله سبحانه وتعالى عندما اطلعني على ما اعده لاوليائه الصالحين من نعيم وما اعده للاشرار من عذاب مقيم، ثم اجبته بانني سوف احتفظ في ذاكرتي جيدا بكل ما رأيت، فقال لي عليك ان تبلغ أُمتك بما رأيت حتى تتبع الطريق المستقيم وتتجنب المعاصي والذنوب.

الفصل الثمانون:

ثم اردف جبريل قائلاً: اما انت يا محمد فسوف ترجع الآن وسأكون بصحبتك، ستذهب الى بيت المقدس وتركب البُراق مرة اخرى وسيمضي بك الى بيتك، ثم امسك بيدي وهبطنا الى الصخرة السوداء التي ذكرتها من قبل حيث كان ينتظرني البُراق بفرح عظيم، وعانقني جبريل وباركني واوصاني كثيرا ان ابلغ هذه الاشياء الى أُمتي، فامتطيت البُراق ورجعت الى بيتي وكان الفجر قد بزغ فترجلت عن البُراق تطأطأ لي واختفى على الفور. دخلت بيتي فوجدت ام هانىء ما زالت نائمة في الفراش فلما جلست على حافته استيقظت ورأتني وقد غمرني الحبور والفرح فسألتني عن السبب فرويت لها كل ما رأيت، طلبت مني ان ارتاح وارقد حتى يطلع النهار، لكنني اخبرتها اني سأذهب من فوري الى المسجد لاخبر قريشا بكل شيء فاعترضت علي وقالت انهم سوف يعتبرونه افتراء ويسخرون منه.

الفصل الواحد والثمانون:

خرجت من منزلي وكان النهار قد اشرق فقابلت عند عتبة زوجتي الاخرى «حفصة» مع ابنتي فاطمة، وكانتا قادمتين لرؤيتي وبعد ان اخبرتهما بكل ما حدث طلبتا الي بالحاح كذلك ان لا اذهب لاقص مثل تلك

الاشياء على قبيلتي ، لكنني مضيت في طريقي فقابلت ابن عمي « ابن عباس » ولما عرف به حاول كذلك ان يثنيني عن هدفي ، لكني ذهبت حتى دخلت المسجد ، فوجدت كل قبيلتي مجتمعة ومعهم ابو بكر الصديق ، فنهضوا جميعا وقال احدهم وكان قاضيا بينهم اسمه « الحكم » وتبعه ابن عم آخر لي كان يكرهني ، ابو بكر (؟) قالوا للمجتمعين هاكم محمد جاء ليقص علينا تلك الاكاذيب التي لم يسمع بها احد قط من قبل.

الفصل الثاني والثمانون:

ولكني مع ذلك القيت السلام عليهم جميعا بنظرة ثابتة جذلة فافسحوا لي مكانا بينهم ، واخذت اشرح لهم كيف امرني الله ان ابلغهم ، ما رأيته في الليلة السابقة من آيات قدرته ونعمته ، والشرف الذي خصني به ، وكيف انه لا بد لهم من تصديقي وطاعتي في كلّ ما جئت به من الله من قول او عمل لانني قد بعثت رسولاً من الله للعالمين. فلما اخبرتهم بكل شيء صدقني ابو بكر الصديق في كل ما قلت ، اما الآخرون فقد لزموا الصمت وفي النهاية قاموا ثائرين ورموني بالكذب والافتراء اذ انني اطلب منهم ان يصدقوا انني في ليلة واحدة قد ذهبت الى بيت المقدس ورأيت اطباق الارض والسماوات والجنة والنار ، وان بين كل سماء واخرى مسيرة خمسمائة عام ، بينما هم يعرفون ان ما بين مكة وبيت المقدس مسيرة شهر على الاقل قالوا ان هذا وغيره من الكلمات المؤذية ، ولكن ابا بكر قال لهم ان كل هذا ممكن بقدرة الله.

الفصل الثالث والثمانون:

وتحملت اذاهم بصبر حبا لله ولهم ، وقالوا لي في نهاية الامر : ان كنت حقا رسولا من الله كما تزعم ، فقل لنا اين تسير قافلتنا التي ذهبت الى بيت المقدس وماذا تحمل ومتى تعود ؟ وكانوا قد بعثوا اربعين بعيرا لاحضار مؤونة ولا بدّ ان تمر ببيت المقدس ، فلم استطع ان ارد عليهم في الحال بشيء لان الله لم يكن قد اظهرني عليها في الليلة السابقة فنكست رأسي وغطيتها بالعمامة وبدأت افكر واصلي لله بخضوع حتى يهبني القدرة على ان اقول الحق لقبيلتي حتى يؤمنوا بكلمتي ويصدقوا رسالتي. ولمّا فرغت من صلاتي امر الله جبريل ان يحضر امامي العالم كله حتى يمكنني رؤيته كما لو كان في كفي ، وحدث هذا في الحال فرأيت بيت المقدس والقافلة وما تضمه من جمال وما تحمله من احمال ، رأيت كل شيء ثم رفعت رأسي ونظرت الى جميع الحاضرين فقال لهم ابو بكر الصديق انني صادق وقد عرفت كل الحقيقة.

الفصل الرابع والثمانون:

قلت لهم : لقد كذبتموني فيما اخبرتكم به واردتم مع ذلك ان تختبروني بشأن قافلتكم ، فاعلموا اذن ان الله قد جعل جبريل يطلعني على كل شيء ، انها اربعون دابة منها عشرة محملة بالبر وعشرة محملة بالتمر وعشرة محملة بالتين وعشرة محملة بالزبيب وقد اقتربت من هنا حتى انها لتصل اليوم نفسه ، فحثهم ابو بكر بعد ذلك

على ان يثبتوا مما قلت فنهضوا من فورهم وانطلقوا الى طريق القافلة فوجدوا ان كل شيء مطابق لما اخبرتهم به ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا بي ولا بما انزل علي من قرآن في ذلك ، فاعلموا اذن ان ما جاء في القرآن عن الذين لا يؤمنون بالحق فهو يشير الى اهل مكة الذين لم يريدوا الايمان الا بحد السيف وانه حيث يتحدث القرآن عن المؤمنين بالحق فهو يشير الى اهل المدينة لانهم هم الذين آمنوا وصدقوا بالحق لما جاءهم من كل قلوبهم.

الفصل الخامس والثمانون:

وبعد ذلك فان الغالبية العظمى من قريش آمنوا بكلماتي وبما قلت لهم عن القافلة ورجوني ان آمر بان تكتب كل تلك الاشياء لتكون شهادة وذكرا لمن يأتي بعدي وطبقا للاتفاق المشترك معهم فقد امرت ابا بكر وابن عز ان يكتبوا ما حدث لي وما سيحدث من بعد وكان الاثنان صالحين ومؤمنين موثوق بهما عرفا بالسمعة الطيبة والذكر الحسن فاستجابا لرجائي بفرح عظيم وسرعة فائقة وكتبا في هذا الكتاب المسمى بالمعراج ما حدث لي كلمة كلمة.

وقد كتب هذا الكتاب في السنة الثانية من بعد ان نزلت علي روح الله وصرت نبيا. اما نحن ابا بكر وابن عز فنشهد بضمير مستقيم وقلب سليم ان كل الاشياء التي قالها محمد حق وصدق وان على كل من يسمع روايتها ان يؤمن بصدقها وانها حدثت بالفعل كما سجلت وستسجل فيما بعد.

(انتهى)

الفصل الثامن

– مترجمون انكليز –

دانيال دي مورلي DANIEL DE MORLEY

ولد في انكلترة ودرس في اكسفورد دروسا عالية ثم انتقل الى باريس لتكملة دراسته شعر برغبة ملحة في معرفة الحساب ، فعرضت له فكرة الذهاب الى البلاد العربية التي تعتبر مصدر الحساب الاكبر.

علم ان الحساب يدرس في طليطلة فتوجه اليها وانصرف بجد ونشاط الى درس الحساب ولما تمكن من هذا العلم عاد الى بلاده ونشر مؤلفات قيمة عنوانها

– «De principiis rerum» «في مبادىء الاشياء».

– «De superiore mundo» «في العالم الاعلى».

– «De inferiore mundo» «في العالم الاسفل».

يمكن ان نرده الى اواخر القرن الثاني عشر اي عام ١١٩٠ ، اذ انه نال الشهرة في ذلك التاريخ.

تعلم دانيال اللغة العربية واستقى منها معارفه لكتابة المؤلفات الثلاثة التي اشرنا اليها وبالتالي فلا يعتبر مترجما بل مؤلفاً متأثراً بالعلوم العربية وعارفا هذه اللغة.

اديلارده الباثي ADELARD OF BATH

اول من نشر العلوم العربية في الغرب. ظهر نشاطه العلمي بين عامي ١١١٦ و ١١٤٢ يعتبر من الناقلين البارزين في ايامه رغم الترجمات القليلة التي حققها. ترك لنا عنه «بيتي» معلومات هزيلة ولكن جوردين اجرى عليه دراسة يمكن الاستعانة بها ولد في «باث» Bath

بانكلترة في اواخر القرن الحادي عشر. ظهرت عبقريته العلمية منذ حداثة سنه. غادر مسقط رأسه وهو ما زال فتى، مفتشا عن غذاء يرضي غريزته النهمة الى العلم، فجال في فرنسة ودرس في «تور» ثم انتقل الى المانية وايطالية، صقلية بنوع خاص قبل عام ١١١٦ ثم اليونان ومصر وفلسطين وسورية وجميعها مناطق عربية ثم انصرف الى ترجمة مؤلفات عربية في علم الفلك والحساب. عاد الى بلاده عام ١١٢٦ واستقر في «باث» منصرفا الى الترجمة. انه دقيق الملاحظة...، وقد اشتغل بالشعر والخطابة والحساب والفلسفة والطب واللغات. كان يملك في انكلترة آنذاك غليوم الفاتح. نقل كتبا عديدة الى الانكليزية بنوع خاص والى اللاتينية. دخل رهبنة القديس بندكتوس ولا نعرف تاريخ وفاته.

لما اقام في فرنسة كان على اتصال وثيق بمطران «بايو» Bayeux فقد اهدى اليه بعض مؤلفاته. وقد اطلق على هذا المطران اسم «ريشار».

وضع اديلارده كتابا عنوانه «المسائل الطبيعية». يقسم الى ٧٦ فصلا وكل فصل يبحث في قضية علمية يطلع القارىء على رأي العرب في تلك القضية.

وضع هذا الكتاب على شكل حوار بينه وبين ابن اخيه يقول فيه:

«لقد اتفقنا عندما غادرتك منذ سبعة اعوام في مدرسة ليون، على اني سانصرف الى دراسة الشؤون العربية وانت تدرس الآراء الفلسفية المعروفة في فرنسة... حان الوقت لنكتشف الى اي حد حققنا هذا القصد. غير اني لا اريد ان آخذ على عاتقي القضايا الجديدة التي سانشرها. اني ادرك جيدا المصير الذي ينتظر المؤلف او المعلم من الشعب. اني اعتنق مذهب العرب لا مذهبي الخاص.

ويقول جوردين ان هذا المقطع يدل على ان اديلار يرى العرب متفوقين على الغربيين.

طبع كتاب «المسائل الطبيعية» «Questiones naturales» في لوفين LOUVAINS بلجيكا عام ١٤٨٠ و ١٤٨٤ و ١٤٩٠. يتحدث فيه عن النباتات والحيوانات والانسان وعن قضايا نفسية وعن الهيكل البشري وعن الآثار العلوية وعلم الفلك. متبعا كما قلنا آراء العلماء العرب في هذه القضايا كلها، يأتي على ذكر افلاطون وارسطو وعلى ما يبدو انه هو اول اوروبي يتحدث عن الفيزياء عند ارسطو ويستشهد باوراسيوس ومكروبيوس وبويسيوس. وقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة في القرون الوسطى ويحفظ منه اكثر من عشرين مخطوطا موزعة في المكاتب العالمية. وقد استعان بهذا الكتاب ذي الطابع العربي «اسكندر نيكام» (Neckam)

وفينسان دي بوفي «Vincent de Beauvais» وروجير بيكون من القرن الثالث عشر وميراندولا «Mirandola» من القرن الخامس عشر. وله كتاب آخر فلسفي عنوانه «De eodem et diverso» المطابقة والمخالفة.

يقول جوردين مكتشف هذا الكتاب ان المؤلف اي اديلار الباثي ظهرت له في ضواحي مدينة «تور» الفرنسية آلهتان هما «الفلسفة ويرافقها سبع عذارى اي الفنون الحرة السبعة، والاخرى يسميها المؤلف «فيلوكوسمي» ويرافقها خمس عذارى اخريات وهن: الغنى والقدرة والكرامة والمجد واللذة.

تحدثت الالهة الثانية وشاءت اغراء الفتى لكي يميل اليها.

ردت عليها الالهة الاولى اي الفلسفة ردا صائبا فاقتنع بهذا الرد ومال اليها ونبذ الاخرى. فشاءت مكافأته لكونه اختارها ونبذ الاخرى فكشفت له عن العذارى السبع وعرفته عليهن تاركة له الخيار في التعلق بواحدة منهن او بجميعهن

ويقول لنا اديلار بعد ذلك انه سافر الى «سلرنه» وهناك فسّر له احد الاطباء خصائص المغناطيس. وقد اهتم اديلار ايضا بالفلسفة وطرح قضية: هل النجوم والكواكب حية وقد جاء في مخطوط بودليان رقم ١٦١٢ الذي يقول ان اديلار الباسي يعلم ان النجوم هي حية.

غير ان المهم عند اديلار هي الترجمات التي حققها من العربية الى اللاتينية ولاسيمًا في حقل الحساب:

١ – اهم ترجمة قام بها اديلار هي نقل اصول اقليدس الى اللاتينية، وهذا النقل نجده في المخطوط رقم ٧٢١٣ في المكتبة الوطنية بباريس مع شرح «كامبانو» ويحمل هذا العنوان:

«Euclidis philosophi Socratici liber. Elementorum artis Geometrice translatus ab arabico in latinum per Adelardum Gothum Bathoniensem sub commento magistri Campani».

والترجمة ذاتها نجدها في المخطوطين رقم ٧٢١٤ و ٧٢١٥. وقد اشتغل العرب كثيرا على اصول اقليدس. وكان الحجاج بن يوسف بن مطر قد نقله نقلين احدهما يعرف بالهاروني وهو الاول ونقلا ثانيا وهو المأموني وعليه يعول، كما يقول ابن النديم، ونقله اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرة الحراني ونقل ابو عثمان الدمشقيّ مقالات. شرحه النيريزي والكرابيسي وللجواهري شرح من اوله الى آخره وللمهاني شرح المقالة الخامسة من هذا الكتاب.

غير اننا لا نعرف اي نص استخدمه اديلارد الباسي ونقله الى اللاتينية.

٢ —كتاب آخر نقله اديلار الى اللاتينية وهو جداول الخوارزمي ، والترجمة هي بعنوان : «Erichiafarim ex arabico» وهذه الكلمة ليست سوى «الزيج الجعفري».

ويوجد عنوان اصح في مكتبة بودليان رقم ٤١٣٧ يقول :

«زيج الخوارزمي اي جداول الخوارزمي التي ترجمها من العربية الى اللاتينية اديلارد الباثي». ومن المعروف ان مسلمة المجريطي المتوفي سنة ١٠٠٧ ؟ قد اصلح جداول الخوارزمي وبدل التوقيت الفارسي بالتوقيت العربي ، وقد استعان اديلار الباثي بشرح مسلمة المجريطي لكي ينقل زيج الخوارزمي الى اللاتيني. وقد انتشر هذا الزيج في الغرب انتشارا كبيرا.

٣ — ينسبون الى اديلار مقالة في الحساب للخوارزمي تحمل عنوان : «Liber ysagogarum Alchorismi» وهذا الكتاب يتكلم عن سني الاسكندر وسني الفرس وسني الاسبان اي ان سنة ١١٥٣ الاسبانية تقابلها سنة ١١١٥ مسيحية. وهذا ما يحملنا على الاعتقاد ان لهذه الترجمة علاقة باسبانية.

٤ — **«Adelardi astrolabium»** «**اسطرلاب اديلارد**». نجد هذا المخطوط في مكتبة بودليان تحت رقم ٣٢٦٥ ، قد يكون وضع هذا التأليف في اواخر عمره وينصح فيه القراء بالرجوع الى المؤلفات العربية في علم الفلك دون الاكتفاء بما يوجد عند اللاتين.

٥ — **«Liber prestigiorum Thebidis»** مقالة في الرسوم الفلكية والابراج «من تأليف **ثابت بن قرة**».

٦ — **«Liber imbrium secundum Indos»** «**كتاب الغيوم عند الهنود**». ينسب جوردين ترجمة هذا الكتاب الى اديلار الباثي ونجده في المخطوطين رقم ٧٣١٦ و ٧٣٢٩ في المكتبة الوطنية بباريس.

نال اديلار الباثي اهمية كبيرة في تاريخ العلوم خلال القرون الوسطى. فانه انطلاقا من المعارف التي اكتسبها في مدارس الكاتدرائيات وهي معارف لم تشبع نهمه العلمي شاء الاتصال بالمعارف الشرقية فانتقل الى جنوبي ايطالية في سلرنه حيث استقى معارف في الطب ثم الى المشرق العربي فاكتسب معلومات جديدة وهضم الثقافة العربية ويمكن ان نعتبره الاول بين ابناء جنسه الذي شرع في بناء تلك النهضة العلمية التي برزت في القرن الثاني عشر.

كما انه اول من ادخل اصول اقليدس الى الغرب وعلم الفلك الجديد ، فهذا الرجل يعتبر الباحث المتفرد الذي جاب الشرق والغرب وأضفى على معلوماته العلمية طابعه الخاص.

أَلْفِرد الانكليزي او أَلْفِرد سارشيل. (ALFRED DE SARESHEL)

تعترضنا صعوبات في الحديث عن هذا الرجل فالذين ارخوا له قالوا انه عاش في القرن الثالث عشر بينما آخرون يقولون انه عاش في القرن الثاني عشر.

اشتغل في جميع فنون المعرفة، كان واقفا على لغات عديدة، وبعد ان درس في بلاده تردد الى اهم المدارس الفرنسية والايطالية حيث اكمل دراساته، يعتبره «بيكون» من المترجمين المجيدين. توجه الى رومة فطلب منه البابا اربانوس الرابع ان يرافق في مهمة الى انكلترة الكردينال «اتوبوني» «Ottoboni» نظرا لفطنته وعلمه.

تلك هي آثاره:

- تعزية الفلسفة عند بويسيوس: «In Boetium de consolatione philosophiae»
- في الآثار العلوية لارسطو «In meteora Aristotelis»
- في النباتات «In eumdem de vegetalibus»
- في طبيعة الاشياء. «De naturis rerum»
- في الموسيقى. «De musica»
- في حركة القلب.[١] «De motu cordis»
- في تربية الصقور «De educatione accipitrum»

علا شأنه حوالي عام ١٢٧٠.

والجدير بالذكر ان البابا اربانوس الرابع اعتلى كرسي رومة من عام ١٢٦١ الى ١٢٦٤، اشتهر أَلْفِرد بترجمته من العربية الى اللاتينية مقالة «النبات» المنسوبة الى ارسطو او الى نقولا الدمشقيّ. وقد اهدى هذا الكتاب الى احد اصحابه كما جاء في بعض المخطوطات التي تذكر حرف «ر»، ومخطوطات اخرى تذكر الاسم كاملا: «روجير» مثلا المخطوط رقم ٦٣٢٣ الموجود في المكتبة الوطنية بباريس. ولقد اعتقد «جوردين» ان روجير هذا هو «روجير

---

١ – حقق هذا الكتاب ونشره «بومكير» «Cl. Baeumker» تحت عنوان

«Des Alfred des Sareschel (Alfredus Anglicus) Schrift «De motu cordis» en Beit. zur Gesch. der Phil. des Mittelaters XXIII (1923), Heft 1 et 2».

وقد نسب البرتوس الاكبر هذا الكتاب الى «الكسندر نيكام» وفي بعض الاحيان يكتفي بذكر كلمة «اسكندر» كما جاء في الخلاصة اللاهوتية لابرتو الكبير.

هارفورد » ، ولكن هذا الرجل عاش مائة سنة قبل هذا التاريخ ، ومن المعروف ان المترجمين القدامى اعتادوا ان يستهلوا ترجماتهم بمقدمة وهذا ما فعله « أَلْفِرد » في ترجمة هذا الكتاب من العربية الى اللاتينية ، وزاد عليه بعض الاضافات التي تتطلبها دقة كل لغة ، واهداه الى احد اصدقائه الاخصاء « روجير » من ايرلندة «Puer de Hebardia» ومهما كانت قيمة هذه الكلمة التي اعطيناها اسم ايرلندة فمن الصعب علينا الاعتقاد ان هذا الرجل هو روجير هارفورد وان لم يكن من المستبعد اهداء الكتاب الى رجل اصبح في عالم الاموات.

وهناك صعوبة اخرى فانه من بين المؤلفين في القرن الثالث عشر استفادوا من كتاب « النبات » « فينسان دي بوفي » «Vincent de Beauvais» الذي وضع كتابا آخر في علم النبات عنوانه «Speculum» المرآة ، وقد انجزه عام ١٢٥٩ ، ولذا لا بدّ من الاخذ بان كتاب أَلْفِرد دي ساراشيل قد ترجم قبل عام ١٢٥٩ ، بينمًا يقولون لنا ان اسم « أَلْفِرد » قد ذاع في عام ١٢٧٠ . ولمّا لم يتوصل « ميير» «Meyer» الى تفسير هاتين الصعوبتين لجأ الى القول : ان شخصين يحملان اسم « روجير» وشخصين آخرين يحملان اسم « أَلْفِرد » ، لم يميز المؤرخون بينهم .

ومهما يكن من امر ، ليس من السهل البت في هذه القضية حسب المعلومات السائرة بين ايدينا ، ولكن مما لا شك فيه ان ترجمة أَلْفِرد مأخوذة عن نص عربي نظرا لتشويه الكلمات اليونانية من جهة ولورود كلمات عربية كثيرة في النص اللاتيني من ناحية اخرى.

وقد برهن جوردين على حد قول « لكليرك » ان النص اليوناني ليس هو النص الاصلي بل مترجم عن النص اللاتيني المنقول بدوره عن النص العربي.

ويرى جوردين ان النقد الذي اثاره « روجير بيكون بشأن كلمة «Belinum» تبرهن ان المؤلف اشتغل في اسبانية ، فكلمة «Belinum» الواردة في ترجمة « أَلْفِرد » تعني « البنج » بالعربية ، وهذا يدل على ان روجير بيكون كان عنده المام بالكتابة العربية.

طبع كتاب « النبات » في ليبزيغ عام ١٨٤١ ، والناشر هو « ميير» مؤلف تاريخ علم النبات وكان اسحق بن حنين قد نقله من اليونانية الى العربية وصححه ثابت بن قرّة ومن ثابت بن قرّة الى اللاتينية وقد طبعت الترجمة العربية في القاهرة عام ١٩٣٣ – ١٩٣٤ ثم اعاد طبعه عبد الرحمن بدوي في القاهرة ايضا عام ١٩٥٤.

وقد نسب المؤرخون الى أَلْفِرد سارشيل كتابا في علم النبات لارسطو وهذا الكتاب يختلف

عن السابق لانه لم ينظر به نقولا الدمشقيّ ، لان الكتاب الذي ترجمه اسحق بن حنين كان لنقولا الدمشقيّ مأخوذا عن ارسطو...

نجده في المخطوط رقم ١٤٧٠٠ في المكتبة الوطنية بباريس تحت هذا العنوان :

«Commentum Alvredi super librum Aristotelis de vegetalibus»

« شرح ألْفِرد على كتاب ارسطو للنباتات ».

وكتاب « حركة القلب » موجود في المخطوط رقم ١٦٦١٣ بالمكتبة الوطنية بباريس من ورقة ٦٨ الى ٩٠ وينتهي هكذا : «Explicit liber magistri Alvredi de motu cordis»

انتهى كتاب المعلم « ألْفِرد » بعنوان « حركة القلب ». ويقسم هذا الكتاب الى ستة عشر فصلا.

الفصل التاسع

نقل القرآن الى اللاتينية

من المعروف ان اول اتصال بين الحضارة المسيحية الغربية والاسلام وقع في الديار الاسبانية في منتصف القرن التاسع: «الواثق بالله «SPERA IN DEO» و «الباره القرطبي» «A LVARO» والقديس «اخلج» «EULOGIO» (1)

شرع العالم المسيحي الغربي يهتم بالحركة العلمية المتطورة في البلدان الخاضعة للاسلام، وفي الوقت نفسه، اطلت بادرة مشكورة نهض بها رئيس اساقفة طليطلة «ريموندو» وشاركت «سلرنه» «وبرشلونة» «وترازونة» وطليطلة في هذه النهضة الى جانب بعض الانجازات الفردية من قبل بعض الدارسين.

والغرض من هذه الترجمات معرفة الفكر اليوناني المنقول الى الغرب عن طريق العرب، ومعرفة روح الاسلام والديانة الاسلامية.

وقد تحمّل هذا الجهد الاخير «الآباتي» المحترم من رهبانية «كلوني» «CLUNY» الفرنسية. فأوعز في اول رحلاته الى اسبانية الى روبرت الكتيني «ROBERT DE KETENE» ترجمة القرآن الى الاتينية، وانجزت في اواسط عام ١١٤٣ واهتم بها الغربيون طيلة القرون الوسطى المتأخرة وعصر النهضة وما بعد عصر النهضة.

ان المشروع الذي طلع به الآباتي بطرس المحترم من ترجمة القرآن الكريم الى اللاتينية هو فريد في نوعه وجديد تماما بالنسبة الى العالم الغربي. فقد ادرك الآباتي الفرنسي اهمية معرفة

---

١ – سيمون الحائك: عبد الرحمن الاوسط: المعاهدون.

النصوص القرآنية لكي يستطيع مكافحتها بالقلم لا بالسيف. وتحوّلت النظرية الجديدة الى شغل «يوحنا الشقوبي» الشاغل في القرن الخامس عشر.

وبعد الآباتي بطرس المحترم جاء اسقف طليطلة «رذريق شيمنس الرادي» (١١٧٠ – ١٢٤٧) فقام بالدور ذاته، وشجّع المترجمين واورد نواحي كثيرة من حياة النبي العربي في كتابه «تاريخ العرب» «HISTORIA ARABUM» وقد برهن عن معرفة القضايا العربية وعن نقص ايضا لا يلام عليه لانه كان سائدا في عصره.

والشخصية البارزة في هذه الحركة الدينية هي «مرقس الطليطلي» فقد نقل القرآن الى اللاتينية وانتشر اكثر من ترجمة روبرت الكتيني الذي جنده «الآباتي بطره» لترجمة القرآن كما ذكرنا. فقد احتفظ مرقس الطليطلي بتقسيم السور القرآنية وعناوينها، وجاءت ترجمته حرفية وفي بعض الاحيان غامضة وغير منسجمة.

بدأت هذه الحركة في اسبانية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر وقد اشترك بها بعض الاجانب الذين يعدون على اصابع اليد الواحدة.

ثم دخلت عوامل جديدة خلال القرن الثالث عشر: انتشار جمعية القديس عبد الاحد وجمعية الفرنسيكان وانتعشت الهجرة الى الشرق في ذلك العهد وتمّ الاتصال المباشر مع الشعوب الاسلامية عن طريق الحملات الصليبية، غير ان هذه الحملات لم تساعد في نقل العلوم والفلسفة الى العالم الغربي.

ان الفشل المتكرر الذي مني به الصليبيون في القضاء على الاسلام أدّى الى نشوْ فكرة كسب النفوس عن طريق التبشير والتعليم المسيحي، وهذا ما حمل رهبان عبد الاحد والفرنسيسكان الى خلق الرسالات لكسب النفوس. فبدت الحاجة الى معرفة لغة وادب البلدان التي يقصدونها.

يعتبر الراهب «ريموندہ مرتي» اول مستشرق اوروبي وكتابه «خنجر الايمان» موجه ضد اليهود والمسلمين على السواء.

«ريموندہ لوليه» من الرهبان الفرنسيسكان (١٢٣٣ – ١٣١٦)، ظهر نشاطه في عدد كبير من المدن الاوروبية: باريس مونبليه، ورومة وجنوى ونابولي، كما تجوّل في مناطق مثل قبرص وارمينية ورودس ومالطة وتونس. اسس مدرسة «ميرا مار» «MIRAMAR» (١٢٧٤ – ١٢٧٧) لدراسة اللغات بقصد التبشير بالانجيل. لم يكتف بالقول فانتقل الى الفعل

فطالب في مجمع فينا المنعقد في فرنسة (تشرين الاول ١٣١١)، انشاء ثلاثة معاهد لتعليم اللغات الشرقية : واحد في باريس والآخر في رومة والثالث في طليطلة. ناقش المجمع المذكور هذا الطلب وقرر تأسيس معهد في رومة لتعليم اللغات العربية والعبرانية والسريانية واليونانية، كما تدرّس في جامعات بولونية وباريس واكسفورد وسلمنقه. مشاريع جيدة ولكنها لم تأت بالثمار المطلوبة منها.

قد يكون «ريمون ليول» اول من تذوق الجمال الادبي في القرآن غير ان دراسته جاءت ناقصة ومبعثرة.

وقد صان الدراسات الاسلامية في القرن الثالث عشر الملك الفونسه العاشر الحكيم، فترجم ونقل كتبا كثيرة من العربية الى الرومانسية واللاتينية وانشأ كرسيا لتعليم اللغة العربية في جامعة اشبيلية عام ١٢٥٤ واثبتها البابا اسكندر الرابع.

شخصية اخرى اسبانية اهتمت بالدراسات الاسلامية هي القديس «بطرس بشكوال»، مطران «جيان»، استشهد على ايدي الغرناطيين. وضع تأليفين احدهما يحمل عنوان: رسالة في حرية الارادة خلافاً لما يدعيه المسلمون في القضاء والقدر. والكتاب الآخر: «مطران جيان ضد الطغمة الاسلامية». مصادر كتبه غزيرة ولكنها لا تخلو من بعض الخرافات حول النبي العربي، كانت سائدة في ذلك العصر.

و يمكن القول ان الاسبان وحدهم اهتموا بالروحانية الاسلامية، بينما في صقلية وايطالية الجنوبية وباريس ومونبيلييه واكسفورد نقلوا الى اللاتينية مؤلفات علمية عربية.

شرعوا في اسبانيا في القرن الرابع عشر يترجمون القرآن الى «الرومنسي»، اللغة العامية والى القطالانية بامر من الملك بطرس الثالث الاراغوني.

اخذ الخطر التركي يتزايد ويقترب من اوروبة ويهدد القسطنطينية، فهب رجال السياسة والادب والدين مطالبين بحرب صليبية. وفي غمرة الموجة العدائية الغاشمة، اطلت شخصية «يوحنا الشقوبي» الذي اتخذ شعاره «عن طريق السلام والعقيدة»
«Per viam pacis et doctrinae»

تطلع يوحنا الشقوبي الى الماضي ووجد ان جميع ما بذل من اموال ودماء في حروب صليبية جاءت بنتائج سلبية. ووجد ان جميع ما كتب وترجم يشوبه النقص ويعتريه التشويش ولاسيمّا في ترجمة القرآن، فعمد الى كتابة قرآن بلغات ثلاث : العربية والاسبانية واللاتينية، وهو كتاب فريد اعتمدوا عليه في عصر النهضة.

ولم يستقل بالعمل لنقل القرآن الى اللغتين اللاتينية والاسبانية فاستشار ثلاث شخصيات من اشهر ما عرف في ذلك العهد : المطران الفرنسي ، «جان جرمين» ، والكردينال الالماني «نيقولاوس دي كوسا» والعالم الانساني الكبير البابا بيوس الثاني.

وبعد هذه المقدمة نتوسع في النقاط المذكورة فيها.

بطرس المحترم

نجده متورطا في قضية «ابيلار «ABELARD» والوييز» «ELOISE» ولا بأس في تعريف هذه القصة التي اهتم بها الشعراء والادباء اهتماما كبيرا وما زالوا حتى اليوم. فهذا جان جاك روسو في القرن التاسع عشر كتب قصة عنوانها «الوييز الجديدة» «Nouvelle Eloise» والوييز هذه فتاة تلقت علومها الابتدائية في دير يقع بضواحي باريس. وظهرت فيها مواهب خارقة العادة وحرص شديد على الدرس والتحصيل. والدروس في ذلك الوقت مقتصرة على المزامير والكتاب المقدس وبعض ادباء لاتين. درست ايضا تاريخ «آباء الكنيسة»، و «اوفيديوس وسنيكا الفيلسوف الاسباني القرطبي» غير ان تطلعها الى المعرفة لا حد له ، فقد رغبت في دراسة الفنون الحرة واللاهوت وعلم الجدل فتوجهت الى باريس وبقيت تحت رعاية خالها الكاهن الاكبر، لان والديها توفيا.

وابيلار العالم اللاهوتي الكبير كان يشاهدها عندما يتمشى مع تلامذته على طريقة ارسطو ويتجادلون في القضايا اللاهوتية والفلسفية التي تشغل اذهانهم. ويتأمل الفتاة ببعض الاهتمام لانها بارعة الجمال ، فقد قال عنها فيمّا بعد : «جمعت كل ما يدعو الى الحب : قامة هيفاء انسجام في تقاطيع الوجه ، شعر أشقر ناعم مثل الحرير ، لامع كالذهب ، فشغف بها حباً هو اللاهوتي الكبير الذي لم يشغل باله سوى الجدل المنطقي ، وها هو الآن يشعر بحب يشب في اعماق فؤاده فقد تنبهت غريزته الجنسية ولذات حواسه الخارجية.

وثق علاقاته مع خالها الكاهن في الكاتدرائية ورغب اليه ان ينزل عنده ضيفا لقاء أجر معين. فسُرّ الخال كل السرور باستضافة استاذ له الشهرة العظيمة ، ويتاح في الوقت نفسه لابنة أخته الاستفادة من معارف هذا اللاهوتي الكبير، فوضعها تحت رعايته. ولم يحلم ابيلار ان الامور تتم بمثل هذه السهولة وقال له خالها : اذا وجدتها مقصرة في المعرفة فلا تتردّد في معاقبتها...

ولنسمعه يروي قصته : «لقد جمعنا سقف واحد ، وشعرت منذ الوهلة الاولى ان الوييز

اصبحت ملكا لي. لها من العمر ثمانية عشر عاما وهي تقدر العلم والمعرفة والشهرة قبل اي شيء آخر ووجدتها جميعها في ابيلار الفيلسوف وارسطو عصره والمفكر الذي يبسط نفوذه على الشباب، بالاضافة الى وسامة في الوجه وقوة اقناع في رنة صوته. وكيف لا تتأثر فتاة في مثل عمرها وفي مثل مزاياها بهذه الصفات التي تتعشقها كل فتاة في الرجل. خلق الواحد للآخر، انها حبه الاول وانه حبها الاول. ويقول عن ذاته: «بقدر ما تملكتني عاطفة الحب بقدر ما ابتعدت عن لذة الدرس. النهار للتدريس والليل للحب. فعندما يرقد الجميع ويخيم الصمت على الدير يتسلل الى غرفتها.

وتحدث الخاص والعام عن غرام «الوييز وابيلار» وما طال الامر ان اكتشف الخال العلاقات الاثيمة بينهما فتحول حبه واحترامه لابيلار الى كراهية واشمئزاز لا حد لها. فطرد ابيلار من الدير الذي دخله بحافز الشهوة فخرج منه بحافز الحب الجارف. ووثقت الفرقة بين القلبين، ولم يخشيا الفضيحة لاسيمًا بعد ان اطلعت الوييز ابيلار انها حامل. فاغتنم فرصة تغيب خالها عن الدير ودخل اليها سراً وخطفها وفرّ بها وهي بزي راهبة وانزلها في بيت اخته في بريطانية بشمال فرنسة وهناك وضعت طفلا سماه «بطرس الاسطرلابي»

وتوجه ابيلار الى لقاء خالها وكان لقاء صاخبًا وتوسل ابيلار ووعد بالتفكير لدرجة انه اقترح الزواج بالوييز على شرط ان يظل سرا لكي لا يضر بسمعة الفيلسوف الكبير.

وظن ان المسألة انتهت وان الوييز ستوافق على هذا الحل المرضي للجميع. ولكن صاحبة العلاقة رفضت الزواج سرا وعلنا لانه يحول دون تنفيذ غايته كمدرس، وهي نفسها لا تريد ان يكون معبودها رجلا متزوجا. ومن ناحية اخرى تريد ان يكون حبها له مجانا يتغذى بالحب فقط. حبها الجارف يمنعها عن قبول الزواج منه.

وعادا الى باريس وتركا الطفل في رعاية عمته. وبعد ايام قليلة تزوجا سرا. غير ان خالها لم يصبر على هذا العار الذي لحقه فرشا خادم ابيلار بالمال فارشده الى بيته فدس عليه من قطعوا له اعضاءه التناسلية وفروا...

وشاع الخبر في اليوم التالي، ورثى الجميع لحال ابيلار الذي دخل الدير ولبس المسموح، والوييز ايضا لبست ثوب الراهبة...

وعاد ابيلار الى التدريس واتهم بالهرطقة، وعقد مجمع في سواسون وحكم عليه.

وصلت هذه الاخبار الى اسماع الآباتي بطرس المحترم الذي يعرف قصة الوييز وابيلار اكثر

من اي انسان آخر لانه رافقها ، وتحسر لعذاب هذين الشخصين وشاء تعزيته وفتح له ابواب دير «كلوني » في وجهه.

تلك هي قصة ابيلار والوييز رأينا من الضرورة الاشارة اليها لانها دخلت في حياة المحترم بطرس. فبطرس هذا دخل في رهبانية «كلوني » وهو فتى لا يتجاوز السابعة عشرة من سنه. وعندما ادرك الرابعة والعشرين اشرف على ادارة مدارس رهبنة « فزيلاي » «VEZELAY» المرتبطة برهبانية «كلوني » . «CLUNY» وكان يفكر في الوييز التي لا يعرفها ويقول عنها : عندما كان كل الناس يكره دراسة هذه العلوم الفكرية رفعك اندفاعك وغيرتك الشديدة على هذه الدروس فوق جميع النساء ولم يتخطك الا القليل من الرجال ».

توفي رئيس عام رهبانية كلوني « هوغو الثاني » ، واجتمع رؤساء الاديار لانتخاب خلف له وما كاد الراهب بطرس يدخل القاعة التي ضمت المجتمعين حتى نهض الرهبان وتوجهوا نحوه واقتلعوه من كرسيه واجلسوه على كرسي الرئاسة وادوا له يمين الطاعة والخضوع كما جرت العادة في انتخاب الآباتي او الرئيس العام. ونال بعد قليل لقب « محترم » وسمي بطرس المحترم وليس له من العمر اكثر من ثلاثين سنة. تمتد سلطته على خمسمائة دير وكنيسة ورهبانية يهيمن عليها طيلة ثلاثين سنة ، هو الرجل المريض المنطفىء ، ليس في ظاهره ما يستلفت النظر سوى رقته وعذوبة الفاظه وتهذيبه الجم ، انه حبيب الجميع ...

وصل الى اسماعه قرار مجمع «سواسون » بادانة « ابيلار » ورغم وظيفته الجديدة التي تنهك قواه وتستنزف جهوده وتستحوذ على انتباهه فقد وجد الفرصة والوقت اللازمين ليكتب الى الفيلسوف الكبير اولى رسائله الرسمية الصادرة عن مركز الرهبنة المشهورة. فقد شعر بالالم المستحوذ على « ابيلار » من جراء ظلم الناس له وعدم تفهمهم قضيته ، فكتب اليه هذه العبارات اللطيفة :

« لماذا يا صديقي العزيز تتنقل من مدرسة الى مدرسة ؟ ولماذا نراك تارة معلما وطورا تلميذا ؟ لماذا كثرة الكلام وانت بكلمة واحدة تحصل على ما تبغيه ؟ان الفلاسفة الاقدمين قد استنفدوا جهودهم في البحث عن السعادة. حاولوا بشق النفس اخراج سر الوجود الدفين في احشاء الارض ولم يدركوا غرضهم ، ومن هنا جاء اختراع الفنون والحجج. جميع هذه الملل والنحل التي لا تحصى تتصادم وتتعارك وتتنافس وتتناحر ولا تدرك الطريق الى الهدى. فمنهم من جعل السعادة في لذة الحواس وغيرهم وجدها في فضائل النفس. وبينما يخدعون غيرهم ويخادعون انفسهم على هذا الشكل طالبين من النفس البشرية النور الذي لا يستطيع اعطاءهم

اياه الا الله وحده واهب الحقيقة ، خاطبهم قائلا : «تعالوا ايها المتعبون وانا اريحكم» .

فبدون اللجوء الى تأملات افلاطون وجدل الاكاديميات وحجج ارسطو وآراء الفلاسفة ، يرشدنا الله الى مكان السعادة . هلم يا ولدي ، الى حيث يدعوك المعلم الالهي . ادخل في عالم الفقر الروحاني وعندئذ تصبح فيلسوف المسيح حقا . اكتب اليك كولد لي . ان المساعدة الربانية لن تنقصنا وسنقهر العدو وعندما نقهره نصبح فلاسفة حقيقيين ونصل الى غاية الفلسفة اي السعادة الابدية » .

اجل ، فتح الآباتي بطرس المحترم ابواب رهبانيته لابيلار ولكن دعوته لم تلق ردا .

تميز بطرس المحترم بانتباهه الى جميع الذين يختلف اعتقادهم عن مذهبه ، فكتب الى جميع المبشرين بالحروب الصليبية يحثهم على قراءة القرآن . ووجه كلامه الى المسلمين قائلا : «احاربكم لا بقوة السلاح بل بقوة الكلمة ، لا احاربكم بالبغض بل بالمحبة» .

بطرس المحترم في اسبانية :

وفي عام ١١٤٢ شوهد بطرس المحترم في اسبانية حاجا الى مدينة سانتياقوب ومثل في بلاط الفونسه السابع في برغش . شاء ترجمة القرآن فلجأ الى المعلم «بطرس» الطليطلي ورفيقين له هما هرمان الدلماطي الصقلبي «Hermann el Dalmata» والانكليزي روبرت اوف تشستير «Robert of Chester» المقيمين في اسبانية والمنصرفين الى ترجمة الكتب العربية .

انجزت ترجمة القرآن عام ١١٤٣ ، اهتمام يشعرون به نحو العالم العربي ، فقد هز اكتشاف الادب العربي عقول النصارى في القرون الوسطى وادرك الغرب من الوجهة الدينية المحضة ان المسلمين يملكون ثقافة اصيلة فلا بدّ اذا من مكافحتهم فكريا ، عن طريق دراسة معتقداتهم وفي الوقت ذاته التعرف على علومهم وآدابهم تلك هي المهمة التي نفذها رهبان عبد الاحد والفرنسيسكان في رسالاتهم خلال القرن الثالث عشر .

الصراع ضد المبادىء الروحية الاسلامية صراع عقيدة ضد عقيدة اخرى يفرض التعمق في حقل اللاهوت الاسلامي ومعرفة النصوص الدينية والاطلاع التام على كتبهم المقدسة .

تلك فكرة بطرس المحترم في قدومه الى اسبانية حيث تجلت له قوة الاسلام باجلى مظاهرها في جميع الحقول فزار الاديرة التابعة لرهبنته وانصرف ايضا الى التعرف على الثقافة الاسلامية غير مدخر وسعا في انفاق المال وتجنيد الرجال لهذا الغرض الفكري الجديد .

يعتبر هذا العمل جديدا في الغرب المسيحي وليس بجديد في العالم البيزنطي فالقرآن نقل الى السريانية في القرن التاسع الميلادي وكثيرا ما نشاهد عند الذين كتبوا باللغة اليونانية تعليقات عديدة على العقيدة الاسلامية. ولكن مهما كان حجم هذه التعليقات والتفسيرات والشروح ومهما بلغ انتشارها فلم تصل الى الغرب المسيحي وبالتالي لا نفوذ لها فيه لانها لم تترجم الى اللاتينية ولا يمكن الرجوع اليها مباشرة لان الاوروبيين يجهلون اللغة اليونانية(١).

نقص في ترجمة «روبرت اوف تشستير»

لم تكن هذه الترجمة كافية لادراك الغرض الذي يسعى اليه المحترم اي :

١ – ما هو السبب الحقيقي الذي حمل الناس على اتباع مذهب محمد النبي العربي؟

٢ – لماذا ادرك المسلمون في اول عهدهم هذا الازدهار المادي الكبير؟

٣ – بماذا يتفق القرآن مع الكتاب المقدس واين يختلف عنه؟

٤ – ما هي الوسائط الفعالة والملائمة لحل المشكلة الاسلامية؟

لا يمكن الاجابة على هذه الاسئلة من مجرد قراءة ترجمة «روبرت اوف تشستير» لان نواقصها جوهرية من حيث الشكل الخارجي ومن حيث التركيب الداخلي.

اشترك في هذه الترجمة كل من بطرس الطليطلي Pedro de Toledo و«بطرس من بواتيه» Pedro de Poitiers وعالمان فلكيان هما هرمان القرنثي وروبرت اوف تشستير وكل واحد منهم انجز اعمالا خاصة به بصرف النظر عن تعاونه مع الآخرين.

ومن ناحية التحريف لدينا امثلة كثيرة: يسمي اعجوبة «حيث يذكر النص كلمة» «شعر». ويترجم «الشبان المتشحون بالبياض» بينما هم في الحقيقة «الحواريون» اي الرسل.

المؤلفات التي ترجمت بناء على طلب «المحترم»:

١ – مقدمة عامة

٢ – ملخص عن حياة النبي محمد وخلفائه

(١) Padre Cabanelas: Juan de Segovia y el Coran. Revista Al-Andalus, Vol. XIV fasc. 1 pp. 149-173.

٣ – عرض لعقيدته وما فيها من اخطاء

٤ – القرآن

٥ – حياة النبي محمد مفصلة

٦ – رسالة من مسلم يحاول ان يكسب نصرانيا للاسلام

٧ – رد على رسالة المسلم وضحد البراهين التي ذكرها وضحد العقيدة الاسلامية على العموم. تلك هي المؤلفات التبريرية المناهضة للاسلام حققها ووضعها «بطرس المحترم» في منتصف القرن الثاني عشر، واتخذت هذه المؤلفات مرجعا في جميع المناقشات مع المسلمين الى جانب «دراسات في العقيدة الاسلامية» اكثر عمقا توسع بها رامون مرتي ورامون لول وبدره بشكوال في القرن الثالث عشر. وغيرهم وقد وصلت كل هذه المؤلفات التبريرية الى عصر النهضة وطبعت للمرة الاولى عام ١٥٤٣، كما خرجت عن ايدي المترجمين والمتعاونين الذين جندهم بطرس المحترم لذلك الغرض.

في المخطوط رقم ١٨٤ الموجود في اكسفورد.

نقرأ: الصفحة الاولى:

ويقول في المقدمة:

«In hoc liber continentur ista: prologus imprimis cujus modi fuerit vita seu doctrina Mahumet. Deinde cronica mendosa Sarracenum de creatione mundi et de quibusdam prohetis et de ortu atque nutritura et sublimatione ejusdem Mahumeti in regem et gestis ipsius pudendis et condelibus atque successorum suorum. Item aliae fabulae portentosae de generatione et nutritione ejus. Item gesta quaedam seu ridiculosa disputatio ejus et quaestionum stultarum soluciones frivolae cum quodam Abdia Judaeo. Deinde Corpus leis quam Alcoram vocant, i.e. collectionem praeceptorum quae sibi per angelum Gabrielem a Deo missa Mahumet more suo mentitus est.

Deinde sequitur epistula cujusdam sarraceni quemdam sanctum et doctum christianum ad legem suam verbis stulis et inanibus invitantis.

Deinde rescriptum sive reponsio ejusdem christiani vehementer et copiose multisque probabilibus argumentis et rationibus totam impiam sectam cum auctore suo destruentis, et ad nihilum refigentis».

انه يذكر في هذا النص اللاتيني السابق جميع المؤلفات التي اشرنا اليها سابقا وقد نظمت جميعها بناء على امر صدر عن الآباتي بطرس المحترم.

بطرس الطليطلي :

جئنا على ذكره وقلنا انه من المتعاونين مع بطرس المحترم في نقل الكتب الدينية الاسلامية الى اللاتينية. يعطيه بطرس المحترم لقب «المعلم»، ولا شك انه حازه في احدى الجامعات في ذلك العهد وعلى الارجح جامعة باريس. اما كيف عثر عليه «المحترم» فهذا ما سيجري ذكره.

يتبين لنا من الرسالة التي وجهها «المحترم» الى القديس برنردس ان بطرس الطليطلي هو مترجم كتاب «الخلاصة ضد الهراطقة والملة الاسلامية كما يسميه» «دبليناندر» ناشر هذه المؤلفات الدينية عام ١٥٤٣. وعلى ما يبدو ان ترجمة بطرس الطليطلي جاءت بعد ترجمة روبيرت وهرمان.

ويتبين ايضا من المخطوطات : Seldem supra ٣١، و Corpus Christi ١٨٤ وتورينو ١٥٦، ان بطرس الطليطلي هو صاحب ترجمة جديدة للقرآن، او انه على الاقل راجع الترجمة التي خرجت عن يد روبرت كما انه راجع ترجمة الرسائل والمناقشة بين الفيلسوف المسلم والفيلسوف المسيحي بشأن العقيدة الاسلامية. وقد اجمع الكثيرون من المؤرخين على ان بطرس الطليطلي قد ترجم القرآن لان ترجمة «روبرت» صعبة الفهم ولم ترق للاباتي. وهذا هو رأي ستاينشنيدر معتمدا على رأي «بوفي Beauvais وجوردن Jourdain الذي قال ان بطرس الطليطلي كان يملي على روبرت اوف تشستير وعلى «بطرس من بواتيه» امين سر الاباتي. كما ان كلمات روبرت بالجمع تعني ان العاملين هم اكثر من واحد ولكن كل هذا يقتضي له بعض التوضيح.

يستدل من الرسالة التي وجهها الاباتي بطرس المحترم الى القديس برنردس، ومن مقدمة كتاب : «رسالة ضد الملة الاسلامية»، على ان الآباتي المذكور جمع روبرت وهرمان وبطرس الطليطلي والمسلم المتنصر محمد ووزع عليهم العمل وشرعوا بالمهمة عام ١١٤١ اي بعد مقابلة الآباتي مع الملك الفونسه السابع. ولكن الامور لم تجر على هذا النحو بل على الشكل الآتي :

وصل الآباتي بطرس المحترم الى اسبانية وصادف في منطقة نهر الابره «هرمان القرنثي» «وروبرت الكتيني» عاكفين على دراسة علم الفلك. دعاهما للعمل له ووزع عليهما الشغل، وهما صديقان حميمان، فاوكل الى هرمان ترجمة حياة محمد وعقيدته، والى روبرت ترجمة القرآن. هذا ما اكده روبرت في المقدمة التي لم تطبع حتى الآن.

وحدث ان هرمان الكرنثي انفصل عن الجماعة وظهر في ليون عام ١١٤٢ وترجم ما اوكل اليه اي حياة النبي محمد وعقيدته...

ان تدخل بطرس الطليطلي في اصلاح وتهذيب اسلوب روبرت وهرمان اللاتيني جاء بعد ذلك . الى اي الفريقين شاء الآباتي ان ينضم محمد المتنصر؟ الى فريق روبرت – هرمان او بطرس الطليطلي وبطرس بواتيه؟ نعتقد انه انضم الى الفريق الاول لانه مهما بلغ هذا الفريق من الجودة في معرفة اللغة العربية فلا يصل الى مقدرة بطرس الطليطلي . ان الفريق الاول بحاجة الى مساعدة محمد المتنصر في ترجمة القرآن الكريم اكثر من الفريق الثاني اذ ان بطرس الطليطلي يجيد العربية .

وقد اعتمدت جماعات المرسلين والمبشرين بالانجيل خلال القرن الثالث عشر في البلدان الاسلامية على هذه الترجمات كمرجع اساسي لها وكان لهذه الترجمات تأثير كبير في فلورنسة وعند دانتي بنوع خاص في «الكوميديا الالهية» .

نظرة فاحصة على الآباتي المحترم :

لا شك ان زيارة الآباتي عام ١١٤٢ لاسبانية لمقابلة الملك الفونسه السابع لها طابع سياسي يتعلق مباشرة بالشؤون القشتالية وباصلاح الكنيسة في اسبانية المسيحية بتحويل الطقس المستعرب الى طقس لاتيني ، لان المستعربين في اسبانية كان لهم طقس ديني خاص بهم يختلف عن الطقس اللاتيني ، فجاءت رهبنة كلوني وغيرت طقسهم . واذا كان الآباتي بطرس قد احتل هذا المكان المرموق في القرون الوسطى من حيث الدفاع عن المسيحية فهذا يرجع الى الكتاب الذي وضعه ضد اليهود والمسلمين ويحمل عنوان :

«LIBER CONTRA SECTAM SIVE HAERESIM SARRACENUM».

اي ضد جماعة الملة الاسلامية الهرطوقية . فالآباتي لا يهتم على الاطلاق بأي ثقافة عربية اسلامية او مسيحية تخرج عن النطاق التقليدي المسيحي كما انه لم يظهر عن اهتمام ديني واهتمام لاهوتي لكي يطلع العالم الاوروبي المسيحي على العقيدة الاسلامية . بل جل غايته ، كما فسرها في رسالته «لبرنردوس كلارافيل» تقوم في اتباع النهج الذي سلكه آباء الكنيسة بعدم السكوت عن اي هرطقة مهما صغرت بل يكشف عن ضلالها بواسطة الكتابة والمناقشة شجبا واستنكارا .

فالسبب الحقيقي الذي حث الآباتي على التصرف كما تصرف به من ترجمة الكتب الدينية الاسلامية يتفق ومبادىء رهبنية «كلوني» في تنبيه العالم المسيحي المتعلم الى الاخطاء الفاحشة والى هرطقة بغيضة اسلامية ، في ظرف اعتبره الآباتي نقطة حاسمة بالنسبة للتفكير المسيحي ونظرا للهيبة والاحترام اللذين تنعم بهما الثقافة العربية الاسلامية ، الامر الذي يثير غيرته الاصلاحية ،

لان المسيحيين الغربيين لا يعرفون الديانة الاسلامية ، وبسبب هذا الجهل لا يتحركون للرد على الآباتي .

اذاً ، لا بدّ من اعادة النظر في دور الآباتي بطرس المحترم في التاريخ الفكري في اسبانية بالخصوص واروبة على العموم.

ان هذا المشروع الذي انطلق به الآباتي بطرس المحترم لا يحتاج الى عبقرية وبطولة من حيث ادخال دراسة الديانة الاسلامية الى اوروبة . على العكس يشتم منه انه نتاج عسكري ديني لا تطلع فكري ثقافي .

فخلافا لما قيل ، ان النشاط الادبي الذي بدأ به الاباتي لم يؤد الى معرفة افضل للديانة الاسلامية والثقافة العربية ، بل على العكس فان كتاباته اصبحت السبب المباشر في خلق الاسطورة السوداء للاسلام في العالم الغربي .

يقول « فيسنتي كنترينو » في كتابه بين رهبان ومسلمين : ... من المأسوف له ان اسبانية التي تعتبر نقطة انطلاق للثقافة العربية في مسيرتها نحو اوروبة ، واسبانية ملتقى الاوروبيين الباحثين عن المعرفة اليونانية العربية ، واسبانية المنصة التي منها اخذ الفكر الاوروبي يعبر باللغة اللاتينية عن الافكار العربية – اليونانية والعربية الصرفة واسبانيا التي اسهمت على هذا النحو في خلق فكرة جديدة عن الثقافة في اوروبة ، لم تستفد من هذه الثقافة العربية وظلت بمعزل عنها[1] .

مرقس الطليطلي :

وهذا مترجم آخر من طليطلة ، ومن جملة ترجماته القرآن الكريم . عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ، نجد اسمه في عقود البيع والشراء والتنازل وغيرها في أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر. إنه اكليركي وخادم رعية في الكاتدرائية . ظهر للمرة الاولى عام ١١٩١ باسم «مرقس الشماس» «Marchus diaconus» ثم في كانون الثاني ١١٩٤ شاهداً في عدة صكوك ، ثم في عام ١١٩٧ مثبتاً صكوكاً اخرى الى جانب اسماء بعض رجال الاكليروس . وفي عام ١٢٠٣ يثبت وثيقة على هذا النحو :

«Ego Marchus diaconus, canonicus, confirmo»

وفي تموز ١٢١١ وشباط ١٢١٢ نراه شاهداً في وثيقة وكذلك في عام ١٢١٦ .

١ – Vicente Cantarino: «Entre monjes y musulmanes...». Alhambra edic. 1978.

قلنا انه ترجم القرآن. وقد ذكر في مقدمة طويلة هذه الترجمة وترجمات اخرى طبية على شرف رئيس اساقفة طليطلة «لذريق شيمنس»، ورئيس الشمامسة المعلم موريس. ويذكر في آخر المقدمة تاريخ انتهاء مهمته في الترجمة، بالسنة الهجرية والمسيحية، فالتاريخ المسيحي غير واضح بينما الهجري يشير الى سنة ٦٠٦ اي من ٦ تموز ١٢٠٩ الى ٢٥ حزيران ١٢١٠.

ثم تلي هذه المقدمة مقدمة اخرى مؤرخة عام ١٢١٣ اي سنة واحدة بعد معركة العقاب. فيقول مرقس الطليطلي: «شاء ان يقدم عرضا للعقيدة الاسلامية تكون في متناول اللاهوتيين المسيحيين لكي يفهموا تعاليم القرآن على حقيقتها. وهذه الترجمة الاخيرة ليست سوى عقيدة المهدي بن تومرت. يرجع اختيار هذا الكتاب الى رئيس الشمامسة «موريس».

من هو هذا المهدي؟

ابن تومرت:

هو عبد الله بن تومرت من قبيلة مصمودة من بلاد السوس طلب العلم في اشهر معاهد المغرب والمشرق. وبعد ان درس في معاهد قرطبة والقاهرة رحل الى بغداد لكي يستمع هناك الى دروس الفيلسوف الشهير ابي حامد الغزالي. وكان الغزالي قد وضع كتابا انكره فقهاء قرطبة وقضوا بتكفير مؤلفه نظرا لما احتواه من اقوال ضد السنة. وعمل سلطان المرابطين علي تاشفين برأيهم وامر بان تحرق كتب الغزالي كلها في انحاء مملكته الشاسعة باعتبار مؤلفها مارق من الدين. وكتاب الغزالي المقصود هو «احياء علوم الدين».

في تلك الآونة نفسها قصد ابو عبد الله بن تومرت الغزالي في بغداد، فعرف الفيلسوف من لغة الفتى وزيه انه غريب. ولمَا علم انه قدم من المغرب وانه درس طويلا في قرطبة سأله كيف استقبل هناك كتابه: «احياء علوم الدين»؟ فلم يخف عليه ابو عبد الله ان علي بن تاشفين امر باحراقه نزولا على قرار معاهد قرطبة ومراكش وفاس والقيروان. وكان هذا اول نبأ تلقاه الغزالي عن مصير كتابه في المغرب. فبدا عليه التأثر لهذه المفاجأة ودعا على من انكر كتابه او احرقه وخص علي بن يوسف بن تاشفين بلعنته ورفع يده بالدعاء قائلا: «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما احرقوه».

فقال ابو عبد الله: «ايها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدي».

فقال: «اللهم اجعله على يد هذا الرجل».

وما كاد عبد الله يعود الى وطنه عام ١١١٦/٥١٠ حتى شرع يبث تعاليمه الجديدة في مدن المغرب ، وقد اثار بغريب زيه وبالغ زهده وورعه وتقشفه وخطبه القوية الحارة التي يشدد النكير فيها على مثالب الطبقة العليا ونقائص الرجل العادي بين الناس ايما اهتمام . فهرع الناس الى سماعه من كل صوب وكان يخلب الباب المتبرمين من شظف العيش بمـا يستعرضه من الوان الغطرسة والمرح والترف التي يغرق فيها البلاط والاكابر. وكان من الطبيعي ان يهتم ولاة المدن التي يخطب فيها باحتشاد الناس من حوله وان يعتبروا هذا النبي الجديد مهدداً للنظام والامن ولكن الرجل الفطن كان يظفر بالنجاة في كل مرة اما بالفرار في الوقت المناسب وبالاختفاء عند بعض الاصدقاء. وكان قد التف حوله بعض التلامذة الذين يخلصون له من اعماق قلوبهم. واصطفى من بينهم فتى جميل الطلعة هو عبد المؤمن بن علي فعنى بتثقيفه في تعاليمه الجديدة اتم عناية واختاره وزيرا.

وبعد ان طاف ابو عبد الله بكثير من بلدان المغرب واعظا ، وحشد حوله الانصار والتلاميذ اينما حل سار بصحبة اخص تلاميذه الى مراكش عاصمة المرابطين. ثم قصد يوم الجمعة الى مسجدها الجامع وقت الصلاة وكان غاصا بالمصلين وجلس في المكان المخصص لامير المسلمين بين استحسان الجمهور واعجابه . ولمّا اراد بعض سدنة الجامع ان يزيحه عن موضعه التفت اليه في هدؤ وحزم وتلا عليه الآية : ... وان المساجد لله. واخذ يفسرها والجمهور يرمقه بمنتهى الاعجاب والتقدير.

ولما جاء سلطان المرابطين ليشهد الصلاة نهض الحضور جميعا كالعادة الا ابا عبد الله فانه لم يتحرك من موضعه ولم يرمق الامير ولم يبد اقل اشارة تشعر باهتمامه بامره . فلما انتهت الصلاة نهض لتحية الامير وقال له : « غير المنكر وارفع الظلم ببلادك فانت المسؤول عن رعيتك امام الله » .

فالفى الجمهور قوله صوابا وايده باعتبار ان ما قاله حق . ولكن عليا لم يجب بشيء وظن ان محدثه من اولئك الزهاد الورعين المنقطعين الى العبادة والذين لا حرج عليهم في مخاطبة الامير بمثل ذلك. فسأله عندئذ عما اذا كان له حاجة فأجابه ابو عبد الله : «لست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها غير اني آمر بالمعروف وانهي عن المنكر».

ولم يمض سوى قليل حتى زاد اهتمام علي بن تاشفين بأمر هذا الرجل . وكان ابو عبد الله يعظ في المدينة وفي الساحات العامة وفي المساجد ويحمل على الملاذ الدنيوية وعلى فساد الطبقة العليا بين هتاف الجمهور واستحسانه . فأمر علي العلماء بامتحان الرجل واصدار رأيهم فيه . وقال العلماء : ان ابا عبد الله لا يبغي بالتحدث عن البدع والمدهشات سوى استهواء العامة واثارتهم ،

وإنه يجب لصون الامن والنظام أن يحال بين الرجل والناس وأن يزج في الحال في السجن.

وكان الوزير عثمان بن عمر عارض هذا الرأي بحجة ان اخذ ابي عبد الله بالعنف يدل على خوف الامير منه وانه لا يجب أن تعلق مثل هذه الاهمية على رجل حقير مثله. فوافق الامير على هذا الرأي ولم يتخذ اي اجراء عنيف ضد ابي عبد الله وتركه حرا في سبيله ولكن ابعد عن مراكش الى فاس، وتابع مواعظه هناك.

ثم عاد الى مراكش بعد بضعة ايام ليستأنف الوعظ فيها بمحضر من البلاط. وعاد صوته يدوي في الساحات والمساجد ضد الفساد والمنكر وشرب الخمر والانغماس في الملذات. ثم عمد الى آلات الطرب فأخذ يحطمها بحماسة، وكانت تستعمل للرقص الخليع والغناء المستهجن ومضى في وعظه غير حافل بالسلطات ولم يقصر حملاته على المعاصي وحدها بل تعداها الى مرتكبيها والتنويه باستحقاقهم للعقاب... فبذل عندئذ المنغمسون في اللهو والترف كل ما استطاعوا للايقاع به، وأبدوا لسلطان المرابطين ما يحيق به من الاخطار وبحكومته اذا ترك هذا الواعظ المثير وشأنه دون عقاب. فاستدعاه علي بن تاشفين اليه وخاطبه برفق وسأله عما اذا كان حقا ما يقال عنه وهو انه يحرض الناس على الثورة.

فأجابه عبد الله: «ماذا يمكن أن يقال لك عني سوى اني رجل فقير اطلب الآخرة ولست بطالب دنيا، وليس لي في هذه الدنيا شأن غير شأني وهو ليس في الواقع من شؤون هذه الدنيا».

فدهش علي لجوابه. ولما لم يكن في نفسه منه شيء رأى أن يحسم الامر بالمعروف، فاستدعى فقهاء البلاط لمناظرته بحضرته في آرائه وتعاليمه. فطال الجدل والنقاش بين الفريقين. ولم يرتح علي لأقوال عبد الله ورأى أن ينزل عند نصح علمائه لصون السكينة في عاصمته. فحظر الوعظ على الداعية وأمر بنفيه من مراكش خصوصا وقد اجترا ابو عبد الله ذات يوم حينمَا لقي اخت علي بن تاشفين في الطريق حاسرة قناعها فأنبها على تبذلها ودخلت على اخيها باكية لما نالها من تقريعه.

وما ان بدأت مطاردة ابي عبد الله بن تومرت على هذا النحو حتى اخذت قضيته تسير نحو النجاح، فسار يرافقه عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه الى موضع منعزل قرب مراكش وابتنى له هناك كوخا بين القبور، فهرعت اليه جموع غفيرة تطلب الاستماع اليه والتف حوله الف وخمسمائة رجل كانوا على استعداد دائم لاحتمال كل شيء في سبيل استاذهم وسيدهم.

وبدا ابو عبد الله منذ ذلك الحين يصف حكومة المرابطين بأشنع النعوت، وكيف انها عاكفة

على نشر الالحاد والفساد والمنكر والفجور وانه يجب قتالها والا اصيب الاسلام بالصميم ، وصار يلقب بالمهدي ، وهو الذي ورد ذكره في الحديث بأنه يقوم برد الدين الصحيح وتطهير قلوب المؤمنين من الشوائب وارشادهم الى طريق الحق والعدل ومعرفة الله الفرد الصمد.

وذاع صيت ابي عبد الله بسرعة وكثر انصاره فاصدرت السلطة في الحال الأمر بالقبض عليه واعدامه ولكن وقف ابو عبد الله على الامر في حينه وفر من مطارديه سريعا وقصد الى اغمات ثم انتقل الى «تينمال» من بلاد السوس يصحبه رهط من اخلص انصاره.

وهناك في وطنه عكف يحدث جموع الشعب المتزايدة حوله عن رسالته الالهية باعتباره «المهدي» المنتظر ويحثهم على الثورة ضد المرابطين الملاحدة.

ولمّا كان المرابطون قد اثاروا بغطرستهم وترفهم وعدم حرصهم على الكثير من التقاليد الدينية ، سخط المسلمين المحافظين ، لاقت تعاليم المهدي وتحريضاته الاستحسان والتأييد في كل مكان ، وبادر النبي الجديد من جانبه الى انشاء نوع من الدولة ليتم بذلك ثورته على حكم المرابطين ، وذلك بأن بايعه عشرة من اخلص اصدقائه وتلاميذه تحت شجرة خرنوب باعتباره الامام المهدي. وكانت المبايعة على الطاعة المطلقة وأن يفتدوه بارواحهم واموالهم. وبايعه بعدهم كثير من رجال القبائل واطلقوا على أنفسهم اسم الموحدين. ويقول ابن خلدون في تعليل هذه التسمية : «وكان المهدي يسمي اصحابه بالموحدين تعريضا بلمتونة في اخذهم في العدول عن التأويل وميلهم الى التجسيم».

وقسم ابو عبد الله اتباعه الى عشر طبقات اولها وارفعها طبقة الجماعة أو العشرة وهم اول من بايعه وكانوا يشاطرونه الحكم ويتولون لديه مناصب الوزارة والقيادة.

وتتألف الثانية من اهل الخمسين والثالثة من اهل السبعين وهما ضرب من المجالس النيابية ، ويتولى اعضاؤها في الوقت نفسه مناصب الادارة وتنظيم اعمال البر ويعاونون العشرة باعباء الحكم.

وتتشكل الرابعة من العلماء الطلبة ، والخامسة من الحفاظ ، صغار الطلبة ، والسادسة اهل الدار (اسرة المهدي) ، والسابعة اهل «هرغة» ، قبيلة المهدي والثامنة اهل «تينمال» ، والتاسعة اهل «جرميوت» ، والعاشرة من الجند من مختلف القبائل.

وكان اصحاب المهدي يومئذ زهاء عشرين الفا اختار منهم عشرة آلاف وزودهم بالاعلام البيضاء ، وكانت اعلام المرابطين سوداء ، ووضعهم تحت قيادة ابي محمد البشير احد العشرة المختارين.

ودارت المعركة بين الطرفين ورجحت كفة الموحدين على المرابطين.

وكان المهدي قد اشتد به المرض والضعف فجمع حوله صحبه وودعهم وداعا مؤثرا مؤثرا شاعرا بدنو اجله وتختلف الرواية العربية في امر موته فالبعض يقول انه توفي بعد ذلك في شهر رمضان ٥٢٤ ايلول ١١٣٠ والبعض الآخر يقول انه عاش طويلا بعد ذلك ، او حملوا الشعب على الاعتقاد انه ما زال في قيد الحياة[1].

ذلك هو ابن تومرت الذي ثار على المرابطين واطاح بدولتهم.

مؤلفاته المشهورة هي : «العقيدة والمرشدة». وعلى ما يظهر ان انتشار ترجمة العقيدة كان محدودا جدا...

فيكون ماركوس الطليطلي قد ترجم القرآن الى اللاتينية ثم كتاب «العقيدة» لابن تومارت.

وقد عثر على قرآن بين كتب البابا بندكتوس الثالث عشر وهو يحمل رقم ١٦٥٠ في فهرس الكتب الخاصة بالمكتبة الحبرية في «افنيون» «AVIGNON»

وقد نقل المخطوط احد رجال الاكليروس من ابرشية «سان ماله» «Saint Malo» اسمه «جان دغوى» «JEAN DOGUET» وهذا المخطوط يحمل رقم ٧٨٠ في مكتبة مزرين «MASARINE» فرغ من كتابته في ٢٣ تشرين الاول ١٤٠٠ وجاء في الورقة ١١٣ ما يلي:

«Explicit liber Alchorani... scriptus per me Johanem Dogueti, clericum Macloniedinis diocesis in Britania... tempore Benedicti tercii decimi de natione Cathalanorum».

ومن المحتمل ان يكون جان دغوى هذا نسخ المخطوط في شبه الجزيرة الابرية ، يستدل من الخط بالحروف الكبيرة ذات الطابع الاسباني.

قلنا ان مرقس الطليطلي ترجم ايضا كتاب «العقيدة» لابن تومرت الى اللاتينية بناء على طلب المطران «لذريق شيمنس الرادى» «Rodrigo Jimenez de Rada» الذي انتخب رئيس اساقفة طليطلة عام ١٢٠٨ ، فقد ادرك هذا الاسقف كما ادرك قبله الاباتي بطرس المحترم بسبعين عاما انه لا يكفي محاربة المسلمين بالسلاح بل يجب معرفة عقيدتهم ، فالناحية الروحية والادبية في الحرب الصليبية تهمه اكثر من التوسع عن طريق احتلال الاراضي وضمها الى الممالك المسيحية. وقد جاء انتخابه في الوقت الذي شرع فيه الملك الفونسه الثامن يعد العدة لمقاتلة الموحدين. وقد لعب الاسقف «لذريق شيمنس الرادى» دوراً هاماً في اعداد تلك الحملة منذ عام ١٢٠٩ ، فانه في عام ١٢١١ توجه سفيرا من قبل الملك القشتالي الفونسه الثامن الى الملك فليب اغسطس الفرنسي لكي يساند ملك قشتالة في المعركة التي سيخوضها مع الموحدين وانتهى اعداد الحملة بمعركة العقاب عام ١٢١٢ التي قضي فيها على الموحدين في شبه الجزيرة الابرية.

---

١ - هذه المعلومات التاريخية مأخوذة عن المؤرخ الالماني يوسيف اشباخ ، تعريب محمد عبد الله عنان.

وتشير بعض الدلائل على ان مرقس الطليطلي قبل انصرافه الى الدروس الطبية والى الابحاث في اللاهوت الاسلامي درس جيدا اللغة اللاتينية وآدابها، يستدل على ذلك من اسلوبه وكلماته الادبية والعلمية والتقاليد الخاصة المقتبسة في الوسط الطليطلي، فان ترجماته متأثرة بتركيب الجملة العربية فقد عمد مثل العرب، الى اشتقاق كلمات: هو اشتقت منها كلمة هوية. كم=كمية. ما=ماهية.

كلمة «اوبي» جاء منها «Ubitas» المكانية و «اونوس»=«Unitas» ولا شك في ان مرقس الطليطلي قد تعرف على جيراده الكريموني ودومنقه غندسلبه.

وعندما يستوحي مرقس يحاول تقليد شيشرون، ويستعمل الكلمات الكلاسية ولغة التوراة وآباء الكنيسة ولاسيمَا «بويسيوس». ونجد في مقدمة القرآن وقد كتبها، اقوالا من القديس امبروسيوس والقديس اغسطينوس وآباء الكنيسة في اسبانيا من القرن التاسع المسيحي مثل «ايولوخيو» اخلج «والفاره»

وبعد ان ذكرنا الجو الذي عاش فيه مرقس الطليطلي يجدر بنا ان نذكر لائحة كتبه التي يمكن الوصول اليها في الوقت الحاضر:

تلقى دروسه في مدرسة الكاتدرائية ولكنه طلب المزيد من المعرفة فسافر الى الاقطار المسيحية باحثا عن معلمين معروفين.

يستشف من ترجمته كتاب جالينوس «النبض» «De pulsu» انه تابع دروسا في الطب ويعترف الاكابر العارفون بتضلعه من اللغة العربية انهم رغبوا اليه ترجمة بعض الكتب التي استعارها العرب من اليونان. ويقول مرقس: بادرت حالا في العودة الى طليطلة تلبية لهذه الرغبة المحمودة وشرعت في عملي بعد تفكير طويل، واخترت اول ما اخترت «الايساغوجي» لحنين بن اسحق، لاني وجدته كاملا وجليل الفائدة فترجمته بمعونة الله.

ثم، وعملا بقول الانجيل: «اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم» (لوقا ١١/٩)، بحثت في المكتبات العربية فوجدت مجلدا يتضمن مقالات لجالينوس حول «النبض»، فدفعتني غيرتي الى نقله للغة اللاتينية لكي يكون في خدمة من يعرف هذه اللغة وبعد ذكر اسم الله ترجمت هذه المقالات النافعة لكي يستفيد منها العاملون في صناعة الطب رغم توصلهم الى كتاب آخر عن النبض وضعه «فيلارتوس» «Philarete» ولكن المقالات المترجمة هي اكثر فائدة بحيث ان الفرق بينهما هو كالفرق بين الذهب والرصاص. وهذه المقالات عن فائدة النبض وحركات الاعضاء لم يعرف عنها انها نقلت سابقا عن اليونانية او العربية.

ولكن هذه المقدمة لا تخلو من المبالغة لان المقالة او الرسالة في النبض عند جالينوس ليست من احسن مؤلفاته فهي مقسومة الى اربعة فصول ونجدها في كتب الطب منذ القرن الثالث

عشر، فقد ترجمت قبل عام ١١٨٠ عن اصل يوناني والمترجم هو «برغنديه دي بيسه» «Burgundio de Pisa» ولكن على ما يظهر ان مرقس الطليطلي لم يطلع على هذه الترجمة.
والصعوبة الثانية نجدها في كلامه عن «الايساغوجي» الذي كتبه حنين بن اسحق، فهذا التأليف موجود في مخطوطات كثيرة منتشرة في اوروبة قبل ميلاد مرقس. نجده في مخطوط بدير «مونته كاسينه» في القرن الحادي عشر. ومخطوط آخر في باريس من التاريخ نفسه. وعلى ما يظهر انه واحد من النصوص الاوائل التي شرحت في مدرسة «سلرنه» الطبية وهو مدرج في كثير من فهارس المكتبات في القرن الثاني عشر.

اعلن مرقس الطالب في الطب انه عثر عندهم «apud eos» اي العرب على «ايساغوجي» حنين بن اسحق بصورة اكمل واكثر فائدة ونحن نعلم ماذا يقصد بذلك، فانه بالواقع يوجد بين مخطوطات «ارفورت» «ERFURT» ترجمة لاتينية عن نص يختلف عن مخطوطة حنين بن اسحق، موضوعة على شكل حوار. والمترجمان معروفان هما: روفينه الاسكندري»، عمل تحت اشراف معلمه اللغة العربية الاخ المبشر «دومنيكوس مروكيني» «Dominicus Marrochini» في مدينة مرسية التي تعتبر اول مدينة أُنشئت فيها مدرسة للغات خاصة برهبان الدومنكان في اسبانية.

اما المؤلفات الثلاثة الاخرى المنسوبة الى جالينوس فيقول عنها مرقس انه عثر عليها في مخطوط عربي واحد، فقد نسخت مرات عديدة والامضا يشير الى ان مترجمها هو مرقس الطليطلي.

وهذه المخطوطات هي:

١ - النبض De pulsu انه منسوب الى جالينوس ولا يوجد في لائحة كتبه.

٢ - فائدة النبض: طبع النص اللاتيني في البندقية عام ١٥٢٨ من ضمن مؤلفات جالينوس.

٣ - حركات الاعضاء السائلة: طبع ايضا في البندقية عام ١٥٢٨ بقي علينا ان نطرح سؤالا وهو: اين هي تلك المدرسة الطبية التي يتحدث عنها مرقس؟

نحن نعلم انه في ذلك العهد وجدت مدرستان للطب: الواحدة في سلرنه «والاخرى في مونبليه». ونظن انه درس في هذه الاخيرة لقربها من قطالونية ولعلاقتها بالممالك الاسبانية المسيحية.

وقد انشأت في ذلك العهد جامعة «بولونية» في ايطالية وقد درس فيها لذريق شيمنس الرادى نفسه.

وعلى كل حال فاننا لا نعرف شيئا عن نشاطه الفكري قبل ان يوعز اليه «دون لذريق» رئيس اساقفة طليطلة في اوائل عام ١٢٠٩ ترجمة القرآن وقد انجزها كما اشرنا في السنة الهجرية ٦٠٦، يقابلها ١٢١٠ مسيحية ويكون بذلك قد نفذ المهمة في اقل من ثمانية عشر شهرا وهذا رقم قياسي.

يرى لكلرك ان ترجمة روبرت مثل ترجمة مرقس متساويتين في الرداءة. قد يكون لوسيان لكلرك صارما في حكمه على الراهب الطليطلي الذي ضحى بجودة الاسلوب لاجل الامانة في الترجمة. حاول مرقس الترجمة الحرفية، كلمة كلمة وفضل ان يظل نصه غامضا، كما انه حافظ على العناوين التقليدية في اكثرية السور القرآنية التي اهملها روبرت. كما انه لم يلمح الى اي ترجمة اخرى سابقة ولا الى المجموعة من الترجمات الدينية الاسلامية التي انجزت تحت اشراف الآباتي بطرس المحترم قبل سبعين سنة تقريبا. هل كان يجهل وجودها؟ انه لمن المستبعد جدا لانها جرت في اسبانية وفي طليطلة. ان سكوته يعني عدم موافقته عليها.

نميل الى الاعتقاد ان هذا الاهمال لا ارادي، لان تلك النصوص تتضمن معلومات مفصلة عن حياة النبي العربي ونقل القرآن والعادات الاسلامية، وقد كان استفاد منها مرقس الطليطلي في تحرير المقدمة التي تحدث فيها عن كل هذه الامور. وبالفعل فانه اشار في مقدمته الى محمد والعقيدة الاسلامية، ورغم بعض الملاحظات المجحفة بحق الاسلام فان مرقس الطليطلي سلك طريق الوضوح والاخلاص. نجد عنده بعض العبارات المستعارة من «اخلج» القرطبي، عثر عليها في مخطوط وجده في دير «ليري» «Leyre» القريب من بنبلونة.

لا نجد في مقدمة مرقس الطليطلي اي تلميح الى اسطورة المعراج التي انتشرت انتشارا كبيرا في شبه الجزيرة الابرية وقد ترك لها «المطران لذريق رئيس اساقفة طليطلة مكانا بارزاً في كتابه «تاريخ العرب». «Historia Arabum»

يوجد في مخطوط باريس رقم ٣٣٩٤ بعد ترجمة القرآن مقالة تتضمن لائحة الترجمات والمؤلفات التي حققها مرقس الطليطلي.

انها مقالة تنتقد الديانة وتحمل عنوان «Contrarietas alfolica» «تناقضات الفقهاء» لأن كلمة «الفوليكا» هي تحريف لكلمة «الفقهاء» الذين احتلوا منزلة سامية في العالم الاسلامي الغربي ولا سيّمَا في بلاط المرابطين. وقد ثار المهدي بن تومرت ضدهم، كما رأينا.

وتعتبر هذه المقالة «التناقضات الفقهية» بمثابة اعترافات مسلم مرتد وتعكس صراع الاسلام الداخلي في الغرب.

وهذه المعطيات تسمح لنا بتحديد الزمن الذي كتبت فيه هذه الرسالة ، فقد تكون من القرن العاشر والحادي عشر وفي البيئة التي عاشها ابن حزم القرطبي او بعد ذلك بقليل.

يتبين من الترجمة القرآنية التي وضعها مرقس الطليطلي انه يجيد قواعد اللغة العربية الصرفية والنحوية ، فالترجمة تعطي صورة حقيقية للاصل العربي وإن لم يتوصل في بعض الاحيان الى التخلص من الترجمة الحرفية السائدة في عصره...

شاء مرقس الطليطلي اخراج نص لاتيني مفهوم مطابق للنص العربي ، ولم يشأ ترجمة حرفية تجعله في كثير من الاحيان غير قابل الفهم ، كما يلاحظ في الترجمات اللاتينية عن العربية ، السائدة في ذلك العصر في اسبانية المسيحية ، ففي كثير من الاحيان بدل الصيغة العربية وتوفق عادة ، وقد سمح لذاته باجراء اضافات كثيرة تعريفا وتوضيحا للنص اللاتيني.

عمل ايضا على تغيير الكلمات بادخال مرادفات حتى لا يكرر الكلمات العربية ذاتها ، فقد استعمل اربع كلمات مترادفة لكلمة واحدة عربية ، والعكس بالعكس فإنه يستعمل كلمة واحدة لاتينية للدلالة على اربع اوخمس اوست كلمات عربية. وقد اجهدت الآنسة «دالفرني» نفسها واعدت جدولا في هذا المعنى :

كلمة عربية واحدة استعمل لها كلمتين لاتينيتين	:	٨٩	كلمة عربية
كلمة عربية واحدة استعمل لها ثلاث كلمات لاتينية	:	٢٦	كلمة عربية
كلمة عربية واحدة استعمل لها اربع كلمات لاتينية	:	٧	كلمات عربية
كلمة عربية واحدة استعمل لها خمس كلمات لاتينية	:	٢	كلمتين عربيتين
كلمة عربية واحدة استعمل لها ست كلمات عربية	:	١	كلمة عربية
	المجموع :	١٢٥	كلمة عربية

كلمة لاتينية استعمل لها كلمتين عربيتين	:	٨١	كلمة لاتينية
كلمة لاتينية استعمل لها ثلاث كلمات عربية	:	٢٨	كلمة لاتينية
كلمة لاتينية استعمل لها اربع كلمات عربية	:	٧	كلمات لاتينية
كلمة لاتينية استعمل لها خمس كلمات عربية	:	٣	كلمات لاتينية
كلمة لاتينية استعمل لها ست كلمات عربية	:	١	كلمة لاتينية
كلمة لاتينية استعمل لها سبع كلمات عربية	:	١	كلمة لاتينية
	المجموع :	١٢١	كلمة لاتينية

مفردات مرقس اللاتينية فقيرة، كما انه برهن عن جهله اللاهوت الاسلامي.

وتستخلص الآنسة الفرني ان خطأ مرقس الطليطلي كان أكثر من اصابته وعلى كل حال فإنه يعتبر افضل من مترجمي عصره من يهود ونصارى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[1].

نقدم بعض النماذج عن الترجمات القرآنية:

سورة الفاتحة:

«Capitulum azohare matris libri septem verba continens:

Misericordi pio que Deo Universitatis Creatori judicium cujus portrema dies expectat, voto supplici nos humiliemos adorantes ipsum suae que manus suffragium semitae que donum et dogma qua suos ad se benevolos nequaquam hostes et erroneos adduxit jugiter sentiamus».

هذه الترجمة تؤدّي المعنى بالاجمال ولكنها ليست دقيقة.

سورة الفيل: «ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل...

(Azora de bove)

Numquid te latet qualiter Deus artes hominum elephantis errore coegit, immittens illis volucrum multi modorum cohertes quam plurimas, quae per nigrarum lapidum injectum illos velut tritici corticem evacuabant».

يترجم كلمة الفيل بـ «ثور».

سورة الاخلاص: وآياتها ٤: «قل هو الله احد الله الصمد ولم يلد ولم يولد...

(cotee CXXII)

«Constanter dic illis Deum unum esse et incorporeum, qui nec genuit nec est generatus, nec habet quemquam similem sibi».

قد تكون هذه السورة اصدق ترجمة.

وتقول الخاتمة:

«Explicit liber legis diabolicae Sarracenorum qui arabice dicitur Alchoran, id est collectio capitulorum seu preceptum».

---

١ M. T. D'Alverny et G. Vajda: Al-Andalus vol. X VI, fasc. 1, p. 1-37.

فهذه الخاتمة تصور تصويرا صادقا الروح التي أوحت هذه الترجمة والروح ذاتها موجودة في الترجمات الاخرى التي رافقت القرآن وترجمته.

يوحنا الشقوبي :

شغلت شخصية يوحنا الشقوبي الربع الثاني من القرن الخامس عشر وانطفأت فجأة بعد مماته.

ولد في شقوبية. ابوه دياغه غنصالس وامه انجلينة اليونانية ابنة يوحنا المجري دوق «سلافونيا»، جاءت امه الى اسبانية عام ١٣٩٨ وتزوجت من دياغه غنصالس واستقرا عام ١٣٩٩ في شقوبية حيث رزقا طفلين وابنة، والطفل الثاني جاء الى العالم حوالي سنة ١٤٠٠.

ابتدأ دروسه في سلمنقة حوالي عام ١٤٠٧. مكث عشرة اعوام في مسقط رأسه، ويعترف انه كان يعلم المسلمين المتنصرين مع ان الذين يسكنون شيقوبية لا يزيد عددهم على الخمسين.

شرع عام ١٤٠٧ يدرس قواعد اللغة، ومن المحتمل أن يكون يوحنا الشاقوبي نال البكالوريا عام ١٤١٣. ولكي يحصل على لقب «بتشلير» بكالوريوس في اللاهوت عليه أن يدرس هذه المادة طيلة خمسة اعوام وهكذا صار، نال اللقب عام ١٤١٨ ثم تدرج في الالقاب فنال لقب معلم باللاهوت قبل عام ١٤٢٦، لأنه في ذلك العام كان ملفانا يدرس في سلمنقة. واستمر في مهنة التدريس حوالي خمسة عشر عاما في مادة اللاهوت. ورغم اضطراره للتغيب في مهات يوكلها اليه البابا مرتين الخامس، او الجامعة نفسها، تظل كرسيه محفوظة. وحتى بعد ذهابه الى «باسيل»، فكتب من تلك المدينة مقدما استقالته لأنه توقع أن يطول المجمع المنعقد في تلك المدينة اكثر من اللازم.

في عام ١٤٢٧ نجده في رومة حيث إن بطريرك القسطنطينية طلب اليه الاهتمام بالقضية الاسلامية ورجاه ارسال مصحف من اسبانية لأنه على ما يظهر لم يكن متوافرا في ايطالية.

يرجع الى بلاده عام ١٤٢٨ وفي ١٤٣٠ يظهر في قرطبة بمهمة وكّله بها البابا مرتين الخامس. ثم في السنة التالية يرجع الى قرطبة للمناقشة مع بعض المسلمين الذين يشكلون حرس «يوسف بن المول»، امير غرناطي انضم الى ملك قشتالة.

مجمع باسيل :

انعقد هذا المجمع في ٢٥ تموز ١٤٣١ وبدأت الجلسات برئاسة «يوحنا البالوماري»

«Juan de Palomar» من التابعية الاسبانية ممثلا الكردينال سيزاريني «Cesarini» ، غير انه لاسباب لا مجال لذكرها يحل البابا اوجينيوس الرابع المجمع وينقل عقد اجتماعه الى مدينة بولونية الايطالية ، غير ان اساقفة باسيل لم يعجبهم القرار وقرروا البقاء في المجمع المنحل تحت الهام الروح القدس.

وفي عام ١٤٣٤ نجده مرة اخرى في رومة برفقة الكردينال «سرفنتس» للتوفيق بين مجمع باسيل والبابا الذي الغى قرار الحل ارضاء لاساقفة باسيل في سويسرا.

وفي آذار ١٤٣٦ يوكل اليه الدفاع عن بتولية العذراء في مجمع باسيل المسكوني.

وفي أيار ١٤٣٨ تطرح من جديد قضية الحبل بلا دنس ، فتشكلت لجنة عمل يوحنا الشقوبي عضوا فيها واخيرا في ١٧ ايلول ١٤٣٨ يقرأ المرسوم الصادر عن المجمع مثبتا قضية الحبل بلا دنس ويتقرر الاحتفال بعيد الحبل بلا دنس في كل سنة خلال شهر كانون الاول . وقد اعدّ يوحنا الشقوبي صلاة العيد ونظرت فيها اللجنة وأقرّتها بموافقة المجمع.

في ١٢ تشرين الاول يرقى الى رتبة كردينال الا انه يتنازل عن هذه الرتبة وينحبس في احد الاديار منصرفا الى ترجمة القرآن.

غير أن البابا نقولا الخامس يرفعه الى رتبة مطران ابرشية «ارل» الفرنسية «Arles» ولكن تراجع البابا عن هذا التعيين في ١١ ايار ١٤٥٠.

وفي ١٣ تشرين الاول من سنة ١٤٥١ يستلم ابرشية «سابويا» الايطالية ويظل فيها حتى ١٤٥٣ ويتخلى عنها برضاه ويعين رئيس اساقفة القيصرية بفلسطين وينزوي في احد الاديار.

وقد وضع نصب عينيه في عزلته ثلاث قضايا : انشاء مكتبة غنية ، وكتابة تاريخ مجمع باسيل المسكوني وثالثا حل المشكلة الاسلامية التي تفرغ لها طيلة خمسة اعوام.

وفي نيسان ١٤٥٧ اشتد مرضه الذي لازمه تسعة عشر شهرا وفي نهاية شهر تشرين الاول ادرك انه عاجز عن اتمام عمله فجمع الاوراق وضمها الى بعضها لكي لا تضيع.

وفي شهر ايار من سنة ١٤٥٨ ساءت حالته الصحية وعجز عن الكتابة وفي ٢٤ من الشهر المذكور اغلقت عيونه الى الابد على نور هذا العالم برائحة القداسة ويقال انه ظهرت عجائب بشفاعته.

لم يكن عالما جامعا لمختلف فروع العلم بل إنه لاهوتي بالدرجة الاولى ، وكتاباته عن الثالوث الاقدس تدل على قدرته اللاهوتية التي لا تتوافر عند الكثيرين.

ونختصر نشاطه الادبي على النحو التالي :

في سلمنقة : دراسات ذات طابع قانوني ومناقشات اكاديمية.

في باسيل : دافع عن عقيدة الحبل بلا دنس.

اشترك بالبحث في قضية انشقاق الروم.

في رهبانية «ايتون» : انصرف الى كتابة تاريخ مجمع باسيل المسكوني ، وعمل في المشكلة الاسلامية بترجمة القرآن الى ثلاث لغات.

ومن جملة المؤلفات التي كتبها : مقالة ضد شريعة الاسلام ، وهوكتاب مهم جدا موجود في جامعة سلمنقة ، وقد طلبه المعلم «فرنسيسكه سانشه» لينسخه لأن ديوان التفتيش بحاجة الى نسخة منه. وما زال هذا الكتاب موجودا في مكتبة جامعة سلمنقة.

ولكن المجهود الاكبر أوقفه على القضية الاسلامية في اعداد قرآن بثلاث لغات ، وقد وصل به الى نهاية حسنة بفضل التضحيات الجمة ومساعدة فقيه شيقوبية «عيسى ذا جابر».

وقد تبادل بشأن هذه القضية الاسلامية رسائل مع ثلاث شخصيات كبيرة لها تأثير عظيم في الحياة الدينية في ذلك العصر وهم : نقولا الكوسي ، «Nicolas de Cusa» «يوحنا جرمين» و«انياس سلفيو بيكوليني» «ENEAS SILVIO PICCOLOMINI»

عندما انصرف يوحنا الشقوبي الى عزلته زاره احد خدمة الهيكل عام ١٤٥٣ واخبره بسقوط القسطنطينية بايدي الاتراك. فقرر الكتابة الى الكردنال سرفنتس ليطلعه على اسلوبه في حل سلمي نهائي للمشكلة الاسلامية ولكن قبل ان ينهي هذه الرسالة لكردينال اشبيلية المطّلع على الشؤون الاسلامية لقربه من المسلمين الذين ما زالوا يسيطرون على مملكة غرناطة ، غادره الراهب. وهذه الرسالة القصيرة تحولت الى مجلد ضخم ضعفي حجم القرآن.

وفي اواخر عام ١٤٥٤ كتب الى الكردنال « نقولا الكوسي » «Nicolas de Cusa» الالماني يقول انه قبل انهاء كتابه يرغب في الاتصال باحد العلماء المسلمين ليطلع اطلاعاً كاملاً على فحوى القرآن والشروح والتفسيرات التي يقدمها المسلمون لكثير من النقاط الغامضة فيه. وكان ينوي تقدمة كتابه وترجمة القرآن الى البابا نقولا الخامس الذي كان على معرفة به ولكن لمّا بلغه استعداد البابا لحرب صليبية جديدة عدل عن قصده وترك تأليفه غير كامل ، غير انه لم يتخل عنه ، على العكس واصل تتميمه وتصحيحه وتنقيحه وادخال زيادات عليه ولاسيمَا في ما يتعلق بالثالوث الاقدس.

القرآن باللغات الثلاث : العربية واللاتينية والقشتالية :

حجة يوحنا الشقوبي : ان المسيحيين الذين يملكون الحقيقة عليهم ان ينشروها ويطلعوا الناس عليها.

ويقول ايضا : اذا كنا نريد معرفة الحركة الدينية في العالم الاسلامي يقتضي علينا ، كخطوة اولى ، ان ندرس القرآن دراسة عميقة بجميع نواحيه ، وهذا يعني معرفة اللغة العربية معرفة جيدة او اللجؤ الى ترجمة صادقة.

ويعجب يوحنا الشقوبي من دهشة العالم المسيحي للتوسع الاسلامي السريع ، ويتأخر المسيحيون ، مع ذلك ، خمسمائة وعشرين عاما حتى يطلعوا على اول ترجمة للقرآن وضعها « روبرت الكتيني » بمبادرة من الآباتي بطرس المحترم من رهبانية «كلوني » كما رأينا.

لم يشر يوحنا الشقوبي الى هذه الترجمة ولا الى ترجمة مرقس الطليطلي مع ان ترجمة روبرت ، رغم عيوبها الكثيرة انتشرت جدا وقد اعتمد عليها « نقولا الكوسي » « ويوحنا تركمادا » « والفونسه الاسبيني » « ويوحنا الشقوبي » حتى تأكد من انها لا تتفق تماما والنص العربي فعدل عنها.

ويستخدمها ايضا في القرن السادس عشر « اندريا اريفابيني » «Andrea Arrivabene» وينقلها الى الايطالية وان ادعى انه نقلها رأساً عن العربية ، فقد اكتشف هذا البهتان سلفستير دي ساسي «Sylvestre de Sacy» ، كما نقلها الراهب الفرنسيسكاني « دومنقه جرمانوس السليزي ».

وبقدر ما كان يوحنا الشقوبي يتأمل بالنص اللاتيني الذي وضعه روبرت ويحلله باسلوبه وطرق تعبيره وتنظيمه وفحواه بقدر ما يتقوى شكه بان هذا النص لا يتفق والنص العربي. وقد تحول الشك الى يقين بعد ان وجه بعض الصفحات من ذلك النص الى اسبانية لكي تدرس ، وتبين له بعد الترجمة الجديدة الى القشتالية الاسبانية التي قام بها الفقيه الشقوبي ان الترجمة اللاتينية غير مطابقة للنص العربي.

ويرى يوحنا الشقوبي ان ترجمة روبرت لها حسنات منها انها قد فسرت بعض الآيات تفسيراً حسناً يصعب جداً التقاطها مباشرة من النص العربي وقد استحسن الفقيه الشقوبي هذه الشروح ولكن النص فاسد. من الذي وضع هذه الحواشي؟ بطرس الطليطلي ، معاون روبرت؟ او بطرس دي بواتيه؟ او روبرت نفسه؟ او الثلاثة معا؟

ويلاحظ الشقوبي ان كثيرين قد كتبوا عن الاسلام ولكن كتاباتهم لا تتفق وحقيقة النص القرآني ، فقد اتبعوا على العموم هواهم ، وهذا من شأنه ان يلحق ضرراً كبيراً بالقضية لاننا اذا نسبنا الى الاسلام اموراً غير حقيقية تكون براهيننا ضعيفة وبعيدة عن الصواب . فتوقف عن العمل ريثما تصل الى يده ترجمة صادقة وامينة .

وفي عام ١٤٣٧ سافر الى المانية وعثر في احدى المكتبات على نص للقرآن وجده مقبولا فنقله ، كما ان نقولا الكوسي اعطاه نصا آخر عن روبرت ، وهكذا يكون يوحنا الشقوبي قد استعان بثلاثة نصوص عن ترجمة روبرت الكتيني .

واخيراً قرر يوحنا الشقوبي الاستعانة باسبانية فطلب نصا باللغة الاسبانية . ولكن ارسل له تأليف وضعه « بدره بشكوال » عن المسلمين ولم يرضه لانه يتضمن عقائد ينسبها الى المسلمين ولكنها غير موجودة في القرآن . واخبره الرسول انه يستحال وجود نص أمين للنص العربي لان المسلمين يكرهون الكره كله ترجمة كتابهم المقدّس لكي لا يطلع عليه النصارى .

لجأ يوحنا الشقوبي الى ملك قشتالة لكي يأمر باخراج نص جديد للقرآن يشرف عليه احد الفقهاء الذين يعيشون في مملكته ... ويرد عليه الملك : ان المسألة ليست في هذه السهولة .

عند ذلك طلب الى فقيه شقوبية ان ينتقل الى دير « ايتون » لكي يضع هناك ترجمة اسبانية للقرآن ويفسر له ما غمض من بعض النصوص ، ووعده بالمكافأة السخية . يريد في الحصول على نص اسباني مطابقا اكثر ما امكن للنص العربي بدون شروح ولا تعليقات ، ويريد ايضاً تفسير بعض المقاطع الغامضة من فم المترجم نفسه .

طلب الفقيه لقاء هذا العمل اجراً يصل الى عشرين ديناراً « دوبلا «Dobla» ولا يدخل في هذا البدل اجور الناسخ . ووعد بتبديد جميع الشكوك التي تخالج المعلم السلمنتي . وقد تأفف من السفر الى دير ايتون ، غير انه وعد بالقيام بالرحلة اكراما للمعلم السلمنتي وعائلته وانه ينتظر الجواب . لم يصل الينا الجواب ، ولكن من المعلوم انه في ٥ كانون الاول عام ١٤٥٥ وصل الى الدير الفقيه الشقوبي برفقة مسلم آخر بعد ان توثق من كافة الضمانات على شخصه وعلى اجوره من قبل اقارب واصدقاء المعلم الشقوبي .

وعند وصول المترجم ترك يوحنا الشقوبي جميع اشغاله وانصرف الى تحقيق حلمه الذهبي . مكث الفقيه اربعة اشهر كاملة في دير « ايتون » . في الشهر الاول نسخ القرآن بنصه العربي ، وفي الشهر الثاني وضع الحركات على الكلمات وفي الشهر الثالث كتب بخط يده النص الاسباني وفي

الشهر الرابع قابلا الترجمة، مسك الفقيه النص العربي والراهب شقوبية النص الاسباني.

اظهر الفقيه نشاطا كبيرا في العمل فقد كان يقتل اثنتي عشرة ساعة في كل يوم باستثناء يوم الجمعة. وفي بعض الاحيان ينهض من نومه في غير اوقات العمل ليدون فكرة او ملاحظة عرضت له خشية ان ينساها في الصباح.

واثر وصول الفقيه الى منطقة «سافوا» احب الناس التعرف على مسلم لانهم قلما شاهدوا مسلماً في تلك النواحي فاظهر لهم كل بشاشة ولطف وتهذيب مع انه في اول امره فضل ان يظل في الخفاء.

وعند انتهائه من عمله احب العودة سريعا الى اسبانية بحجة انه تزوج قبل قدومه الى الدير بقليل، ورغب في اخذ النص الاسباني الذي ترجمه.

اشتغل الفقيه الشقوبي باخلاص وتفان رغبة في ارضاء المعلم السلمنقي وحرصا على تعليمه الآداب العربية، فسلمه شرحا موجزا للسور القرآنية وكتابا يتضمن ثلاثة عشر فصلا في تعليم الديانة الاسلامية. وكتب له ايضاً باختصار حياة النبي العربي واصله، وامورا اخرى تتعلق بالاسلام.

ودرست باهتمام مسألة بدء السنة الهجرية وقد اضطروا الى الاستعانة بعالمين في الحساب لكي يضبطاها. وكان المعلم الشقوبي قد دخل في الستينات وما زال بشوق الى الولوج في اسرار الديانة الاسلامية ولكن لم يساعده الحظ. فيقول:

وبعد هذا كله، رجوت الفقيه بالحاح كي يمكث معي شهرين آخرين لمواصلة دراسة اللغة العربية فقد اصبحت اعرف الحروف ولكن لا احسن تهجيتها. واقترحت عليه النقاش في عقيدة القرآن ولم احظ بموافقته. ولمّا تحقق لي ان هذا الاقتراح لا يرضيه، اما لانه يريد انجاز عمله بسرعة للعودة الى مسقط رأسه واما لاسباب اخرى اجهلها، فاضطررت الى الاقلاع عن طلبي. غير انه عندما حانت ساعة الفراق واستلم اجوره بسخاء، وعدني انه سيرسل لي اخاه وهو فقيه مثله ولم يتزوج بعد، لكي يعلمني اللغة العربية. ولكن بعد عودته الى اسبانية افادني الدليل الذي رافقه ان المعلم المذكور لم يقو على التغلب على الخوف الذي ساوره من سفر طويل الى بلاد غريبة. مع انه بالحقيقة ليس هناك ما يوجب الخوف لان دوق «سافوا» اعطاه بطاقة مرور ووضع هذا الدوق تحت حمايته جميع المسلمين الذين يقصدونني او يخرجون من عندي.

من هو الفقيه الشقوبي؟

يقول يوحنا الشقوبي : في الخامس من كانون الاول عام ١٤٥٥ وصل الى مسكني في دير « ايتون » اشهر علماء الاسلام في مملكة قشتالة وهو الفقيه عيسى ذو جابر المقيم في شقوبية.

انه مفتي وفقيه الجامع في شقوبية وقد ترجم القرآن الى « الرومنسي » ، بناء على طلب بعض الكرادلة. وكان يتمنى يوحنا الشقوبي ان تكون الترجمة التي انجزها الفقيه عيسى ذو جابر مفيدة لجميع الادباء الغربيين. وهذا يتطلب نقل النص الاسباني الى اللاتيني لاجل اولئك الذين يجهلون الرومنسي الاسباني. وقد شاء يوحنا الشقوبي القيام بهذا العمل بعد ان يتمكن جيدا من اللغة العربية.

وكتب الى الاب العام لرهبانية الفرنسيسكان كي يرسل له راهبا يجيد العربية واللاتينية معا واعدا اياه بالمكافأة السنية. وقد عثر في رومة على راهب يرضي رغبات المعلم السلمنتي ولكن شاء اختباره قبل وصوله فارسل اليه سورة قرآنية مرفقة بترجمتها اللاتينية لكي يصدر حكمه فيها. وعلى ما يظهر ان الاجابة كانت مرضية ولكن يأسف لانه لم يتوصل معه الى اتفاق على الشروط المطلوبة.

كتب الى احد الفرنسيين المقيمين بالقرب من « سابويا » ، فاجاب راضيا ولكن لمّا عرض عليه السورة لامتحانه لم يحسن قراءتها ولا تفسيرها مع انه اكد انه يجيد العربية اذ مكث خمس عشرة سنة امين سر ملك قبرص وقد قام بمهمات عديدة في دار الاسلام ووصل في رحلاته الى مكة المكرمة. ولكن دل على انه يعرف العربية العامية لا الفصحى ، لغة القرآن.

وبحث عن مترجم ولم يعثر على احد ، فاحب ان يقوم بذاته بترجمة القرآن وان كان عليه ان يشتغل على النص الاسباني. وبعد جهد طويل توصل الى اخراج القرآن الكريم بالنص اللاتيني.

ولكن لسوء الحظ ضاع هذا النص وبقيت المقدمة اللاتينية كتبها يوحنا الشقوبي عام ١٤٥٦ فيقول : انه على الصفحة ذاتها كتب النص العربي بيد الفقيه وقبالها الترجمة القشتالية باحرف كبيرة وبين السطور كتب النص اللاتيني باحرف حمر وهو النص الذي اعده الشقوبي بنفسه والمخطوط مؤلف من ٣٣ دفتراً في كل دفتر ٥ ورقات فيكون المجموع ١٦٥ ورقة.

ولم يتنعم طويلا بهذه النصوص لانه اصيب بمرض عضال لم يمهله طويلا اذ انه لم يكتب سوى رسالتين بعد ترجمته القرآن الى اللاتينية عن النص الاسباني ، احداها موجهة الى احد الاصدقاء والاخرى الى كردنال « سيانا » قبل ثلاثة اشهر من انتخابه بابا باسم « بيوس الثاني »

ونعرف ان نسخة من القرآن اهديت لجامعة سلمنقة ولكنها غير موجودة في المكتبة ولم يعرف تاريخ فقدها والى اين صارت. ونقرأ في احد سجلات مكتبة الجامعة ان هذه النسخة قد استعارها عام ١٤٦٨ رئيس اساقفة سانتياقوب لكي ينسخها.

والعثور على هذا القرآن بثلاث لغات مفيد جدا اذ يتيح لنا مقابلته مع ترجمة روبرت الكتني، ونعرف مقدرة هذا الفقيه المسلم في اللغة الاسبانية ومعرفة بعض الكلمات العربية التي دخلت في اللغة الاسبانية والى اي حد وصلت الروح النقدية عند يوحنا الشقوبي.[1]

نقولا الكوسي ١٤٠١ – ١٤٦٤ «Nicolas de Cusa»

ذكرنا سابقا ان يوحنا الشقوبي استشار ثلاثة علماء اشتهروا في ذلك العصر ومن بينهم « نقولا الكوسي ». نسبة الى قريته «Cues» قرب نهر الموزيل. في عام ١٤١٦ نجده في جامعة هيدلبرج يدرس علوم الاقدمين ثم الحقوق في جامعة « بادوا » بايطاليا وتخرج دكتورا في الحقوق وتثقف في علوم الفيزياء والفلك والحساب، واخيرا انصرف الى دراسة العلوم اللاهوتية وتميز بين اقرانه.

في السادسة والعشرين من عمره اصبح عميد جامعة كوبلنز (١٤٢٧) وبعد خمسة اعوام نشاهده في مجمع باسيل، وفي ١٤٣٣ نشر كتابه: « الوئام الكاثوليكي » «De concordancia catholica» واهداه الى الامبراطور سجسموند «Segismund» والكردينال سيزاريني «Cesarini» وانتشر هذا الكتاب بصورة مدهشة نظرا لعدم تحيزه ولدفاعه عن المجمع المسكوني الذي هو فوق البابا.

وفي مجمع باسيل بسويسرة تعرف نقولا الكوسي على يوحنا الشقوبي ونشأت بينهما صداقة متينة فقد اعجب الكوسي بيوحنا الشقوبي وسعة اطلاعه ومعارفه.

ارسل الى القسطنطينية ليهيىء الوحدة مع الروم الارثوذكس، فساعده هذا السفر على زيادة معارفه الاسلامية وفي عام ١٤٤٨ سامه البابا نقولا الخامس كردينالا نظرا لاستحقاقاته الكثيرة وعين في العام ذاته ممثلا للبابا في المانية.

---

١ – اكثرية هذه المعلومات مستقاة من كتاب عنوانه « يوحنا الشقوبي والمشكلة الاسلامية » وهو موضوع بالاسبانية وعنوانه «Juan de Segovia y el problema islamico» والمؤلف هو الراهب «كبانلاس» استاذ كرسي اللغة العربية بجامعة غرناطة. وقد صدر الكتاب بمدريد عام ١٩٥٢.

حظه اوفر من حظ صديقه يوحنا الشقوبي فقد طبعت مؤلفاته اربع طبعات الاولى في القرن الخامس عشر والطبعات الثلاث الاخرى في القرن السادس عشر.

هذا هو نقولا الكوسي كما يصفونه، جمع صفات رجال عصره مثل «سيزاريني» «واورسيني» «وبيسارون» «وتركمادا» «والبرغاتي» واضاف اليها تعمقا اكثر في الشطحات العلمية والميتافزقية والدينية، يعزى اليه بعض الجرأة في افكاره ولسانه ولكن لا احد ينكر عليه حدة ذهنه وصفاء نيته وشدة غيرته.

وليست كل هذه الصفات ولا بعضها ولا النفوذ الواسع الذي ينعم به نقولا الكوسي ولا الصداقة القديمة التي جمعت بينه وبين يوحنا الشقوبي لكي يطلب هذا الاخير مشورته، بل لانه يعتبره اختصاصيا حقيقيا في المادة التي من اجلها ذهب اليه، فقد اشتغل جديا في معرفة المشكلة الاسلامية.

فلنسمع من شفة الكردينال نقولا الكوسي اقواله حول هذه القضية:

«بذلت كل ما في وسعي لمعرفة الشريعة الاسلامية، فقد استعنت في باسيل بترجمات الآباتي بطرس المحترم من رهبانية «كلوني»، بما فيها من معلومات ترجع الى اصل محمد النبي العربي وخلفائه الاثني عشر ومائة سؤال وجواب عن الاسلام. تركت هذا الكتاب ليوحنا الشقوبي وتوجهت الى القسطنطينية وهناك وجدت في دير الآباء الفرنسيسكان قرآنا باللغة العربية وقد فسر لي اولئك الرهبان الكثير من سوره بقدر معرفتهم لها. وفي دير رهبان عبد الاحد وجدت مجموعة اخرى من ترجمات الآباتي بطرس المحترم وهي شبيهة بالنسخة التي عثرت عليها في باسيل، وبحثت بين الروم عمن انتقد القرآن وعلمت ان القديس يوحنا الدمشقيّ قد كتب شيئا حول الموضوع.

ولقيت في القسطنطينية مسيحيا كبيرا لما رآني منهمكا بالقضية الاسلامية اخبرني كيف ان عالما مشهورا بين الاتراك، تثقف سرا في «بيرة» «PERA» ودرس الانجيل وحاول مع اثني عشر آخرين من رفاقه زيارة البابا اذا انا زودتهم بتأشيرة. وقد عرفت بواسطة الرهبان ان ما قاله هذا التاجر صحيح، الامر الذي حركني على تنفيذ رغبتهم.

ولمّا كان ذلك الرجل رئيسا اعلى لجميع المستشفيات شاء زيارتها وتفتيشها قبل السفر بغية اللحاق برفاقه في مكان متفق عليه سابقا حيث تنتظرهم سفينة تقلهم الى رومة. غير ان جميع هذه الاستعدادات لم تنفذ لان الرجل مات بالطاعون اثناء زيارته المستشفيات.

وبعد عودتي من القسطنطينية شجعت الاخ « ديونيسيوس كارتو خانو[1] »ليرد على تعاليم القرآن ، وهكذا صار وارسل الرد الى البابا ، ومؤخرا شاهدت في رومة كتاب الاخ ريكولدو من جمعية المبشرين ، كان قد درس اللغة العربية في بغداد ، وقد ترك تأليفه في نفسي انطباعا افضل من جميع ما قرأته عند غيره[2] . ووقفت على رسائل اخرى من بعض الرهبان تتعلق بهذه المواضيع منها رسالة القديس توما :

«De rationibus fidei ad Cantorem Antiochenum»

ومؤلفات الكردنال « تركمادا » ضد اخطاء المسلمين.

ثم يوضح الكردنال نقولا الكوسي الغرض الذي يرمي اليه في كتابه « غربلة القرآن » «Cribatio Alchorani» . لانه من الواضح ان الجهل يولد الخطأ والشر اذ انه ليس من احد يتعرف على المسيح ويستطيع ادبيا الابتعاد عنه او مخالفة وصاياه . ان محاولته هي اتخاذ الانجيل قاعدة ، ثم غربلة القرآن ليستخرج منه الحجج التي تثبت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، ثم يبرهن على ان جميع تلك العقائد الاسلامية التي تختلف عن العقائد المسيحية هي وليدة الجهل او سؤ النية .

ولكن نقولا الكوسي قبل ان يكتب غربلة القرآن بسنوات الف مقالة صغيرة عنوانها «De pace fidei»وهي رسالة لطيفة تقرأ حتى اليوم باهتمام وهي تصف رجلا كان يتأمل دائما بالشرور التي لا تحصى الناتجة عن اختلاف الاديان ، وتظهر له رؤيا كيف ان الله يتقبل المرسلين من هذا العالم الحاملين الشكوى والتذمر من المظلومين بسبب الديانات الكاذبة . ويقترح عند ذلك رئيس الملائكة ويقول : ان على الله ان يظهر للعالم كي يعرفه الجميع ويعبدوه ، ولكن الله يجيب من عرشه : انه ترك للناس حريتهم ورأيهم .

ويتدخل عند ذلك « الكلمة الانسانية » اي المسيح ويقول حتى وان كانت جميع اعمال الله كاملة ، وقد تركت للانسان حريته في عمله فانه يحتاج الى مساعدة من فوق لكي يستطيع معرفة « الكلمة الالهية » معرفة كاملة ولكي تشرق حقيقتها ساطعة .

---

١ – هو ديونيسيوس دي لويس ١٤٠٢ – ١٤٧١ ، رافق الكردينال الكوسي طيلة وجوده في المانية وبناء على طلبه ألف كتابا عنوانه «Contra Alchoranum et sectam mahometicam» ضد القرآن والملة المحمدية . وقد نشر هذا الكتاب في «كوئلن» ١٥٣٣ .

٢ – في مكتبة مستشفى «كويس» يحفظ مخطوط رقم ١٠٧ من « ريكولده » كان يخص نقولا الكوسي ، ذكر ذلك عليه بخط يده .

واخيرا دعا الباري تعالى الملائكة الحراس لجميع الشعوب وامر كل واحد منهم ان يحضر امام «الكلمة المتجسدة» (المسيح) الانسان الاكثر علما ومعرفة في أُمته. وبعد ان نفذت هذه الاوامر واجتمع الكل خاطبهم «الكلمة المتانسة» على هذا النحو:

«ان الله يصغي الى شكوى المظلومين عند كافة الملل والنحل، ويريد ايقاف الجميع تحت لواء دين واحد والله يريد منكم اظهار معرفتكم في هذا الامر.

فتكلم الروماني ثم العربي ثم الهندي فالكلداني فاليهودي وعرضوا الاسباب التي تحول دون حصول هذا الاتفاق والمصالحة في دين واحد. فرد الكلمة على كل واحد منهم وحل له مشكلته.

ثم تكلم الافرنسي والفارسي والسوري والاسباني والتركي والالماني فأجابهم القديس بطرس نيابة عن «الكلمة المتانسة».

واخيرا تكلم التتري والارمني والبهيمي والانكليزي وأجابهم القديس بولس بعد نيله التفويض مثلما ناله القديس بطرس قبله.

وعندما انتهى جميعهم تم الاتفاق على قبول ديانة واحدة فأمر ملك الملوك كل واحد من العلماء ان يرجع الى بلاده ويعمل فيها لاجل احلال الدين الواحد الحقيقي وامر الملائكة الحراس ان يساعدوهم في مهمتهم لكي يصل جميع الناس الى ان يؤمنوا ايمانا واحدا ويستقروا فيه وينعموا بالسلام الدائم ويظل خالق الكون مسبحا الى الابد.

بعث هذه الرسالة الى يوحنا الشقوبي لكي يظهر له انه متفق معه تماما في السبيل الذي يجب ان يسلكه ليس فقط تجاه المسلمين بل تجاه جميع الذين لا يدينون بالديانة المسيحية.

ولمّا توفي الكردنال «خوان سرفنتس» الاسباني عام ١٤٥٣ وكان المعلم الشقوبي قد وضع فيه امله، فانصرف الى الكردنال نقولا الكوسي راجيا منه اصدار حكمه فوجه اليه رسالة في ٢ كانون الثاني ١٤٥٤.

شاء المعلم السلمنقي ان يستشير قبل ان يعلن طريقته، فلم ير افضل من الكردنال نقولا الكوسي لانه عماد الكنيسة واسقف وكردينال ولانه حاد الذكاء ليس في هذه القضية بل في جميع القضايا ولانه يعرف ان يميز بالتمام والكمال الفوارق عند كل جماعة دينية، ولكل هذا ينتظر من الكردنال ان يساعده حتى تتكلل مساعيه بالنجاح.

ثم يذكر السلمنقي كيف ان سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ في قبضة الاتراك حركه على ان يخط بالقلم وعلى الورق الفكرة التي تراوده منذ ثلاثين عاما وهي: «ان المشكلة الاسلامية يجب

ان تسوى سلما لا حربا». ولكن هذه الرسالة الصغيرة تحولت الى مجلد ضخم.

ويقول ايضا ان الخطأ الاكبر عند المسلمين قائم في رفضهم سر الثالوث الاقدس وسر التجسد، وعدم الاكتراث بالانجيل، ويعتبرون المبادىء الاساسية للخلاص تقوم في الايمان باله واحد وبالمحافظة على الشرائع الطبيعية. ويرى يوحنا الشقوبي ان المسلمين يخطئون ايضا عندما يعتبرون ان الله هو سبب جميع الشرور والخطايا ومع ذلك فانه يقاصص بصرامة مرتكبيها ما عدا اولئك الذين يعتنقون الديانة الاسلامية. ويدرس اخيراً مسألة تعدد الزوجات في القرآن، ويصف الجنة التي وعد بها محمد المسلمين.

وقد شاء الشقوبي معرفة رأي الكردنال نقولا الكوسي في اختيار السلم والعدول عن الحرب للوصول الى تنصر المسلمين.

وبعد ان طرح المسألة بوضوح يدرس المكاسب التي جناها الصليبيون ويجد ان الحروب الصليبية سلبية النتائج.

وفي نهاية الرسالة يعتذر لانه اطال فيها الشرح ولكن ثقته كبيرة في ان الكردينال يتقبل بطيبة خاطر كل ما يرجع لمجد الله وشرف الكنيسة كما تشهد له بذلك جهوده البطولية بتنشيط الاصلاح الكنسي في ألمانية.

وكما ان المريض الذي يطلب الشفاء عليه اولاً ان يكشف ذاته للطبيب، والذي يرغب في نيل غفران خطاياه عليه اولاً ان يعترف بها امام الكاهن هكذا انا آمل ان احصل على نصيحة وقد اسهبت في الكشف عن مشاعري لان ما يفيض عن القلب ينطق به اللسان.

يختم الشقوبي رسالته متوسلا الى الكردنال نقولا الكوسي ان يكتم الطريقة لانها ما زالت بحاجة الى تصليح واعادة نظر كما انه يوجد سبب آخر يحمله على لزوم الصمت في الظروف الحاضرة وسيحدثه عنها في رسالة على حدة يبعثها اليه مع احد اخصائه الحائز على كامل ثقته.

وقد تكون الظروف الحاضرة تعني في نظر يوحنا الشقوبي الاستعدادات الجارية في ذلك الحين لشن حملة صليبية جديدة.

رد الكردنال الكوسي:

وصل رد الكردنال الالماني في ٢٩ كانون الاول ١٤٥٤، شاكراً المعلم الشقوبي على رسالته ويبتهج لها لان اواصر المودة ظلت ثابتة، وتقوت اكثر فأكثر كما يظهر من البادرة الصادرة عن

الشقوبي اذ اطلعه قبل اي شخص آخر عن نواياه وهذا برهان على ان الصداقة بين الاثنين ليست بالعاطفة فقط بل بالافعال ايضاً.

ويظهر اعجابا من فحوى الرسالة لان المعلم الشقوبي يستخدم ذكاءه في ضحد القرآن ولم تشعر الكنيسة في اي وقت مضى بحاجة الى مدافع غيور مثلما تشعر الآن بحاجتها الى هذا المعلم العبقري، ويعتبره بدون اي مجاملة الشخص الملائم لهذا المشروع لانه لمّا بحث في باسيل موضوع مثل هذا شرحه بلباقة وحنكة ودراية بحيث انه لم يترك فيه زيادة لمستزيد.

ويمكن تقسيم رد الكردنال الكوسي الى ثلاثة اجزاء:

١ – اطلاع الشقوبي على الموقف العام المترجرج لاجل القيام بحملة صليبية جديدة.

٢ – يعرض نظريته بشأن الاسلوب السلمي ويدخل عليه بعض الملاحظات التكميلية.

٣ – ينصحه في طريقة العمل على نشره.

الاستعداد لحملة صليبية:

ويقول نقولا الكوسي انه ليس له ما يضيف على ما يعرفه يوحنا الشقوبي عن المسألة الاولى، فانه، بناء على الحاح الامبراطور حضر اجتماع «راتسبون» وعرض الحبر الاعظم تقديم اسطوله لاجل الحرب ضد الاتراك. وبعد انفضاض الجلسة تعاهدت البندقية مع الاتراك، مع انها وعدت سرا بانضمامها الى القوات الصليبية عندما يتهيا الجيش. ودعي الى اجتماع فرنكفورت ولكن لم يتمكن من الحضور لاسباب خاصة تتعلق بحل قضية طلب اليه الحبر الاعظم حلها. كل هذه الاجراءات والاجتماعات ظلا حبراً على ورق ولم تطبق سوى قضية ارسال النجدات الى ملك المجر بعد الالحاح الشديد من قبله ومطالبة البابا بانجاز وعده من حيث ارسال الاسطول. الخلاصة انه لا امل يرجى من حملة صليبية جديدة.

ويحاول الكردنال الكوسي في هذا القسم الاول من الرسالة ان يبرىء ساحته بقدر الامكان من تشاركه في الاستعدادات للحرب الصليبية لانه يعلم ان يوحنا الشقوبي يكرهها.

ومن الناحية التطبيقية، لا شك ان تدخلا سلميا من بعض الامراء يسهل بصورة ملموسة عقد مؤتمرات واجتماعات مختلطة دينية وعلمانية من شأنها ان تخفف حدة التعصب ضد الاسلام، وهذا امر من الاهمية بمكان في كل مشروع يتطلع الى آفاق بعيدة... ويكون من الموافق ايضا استدعاء بعض النصارى الذين يقيمون في القاهرة والاسكندرية وحيفا، وكذلك

بعض الرهبان الذين يسكنون في اليونان وارمينية وهم يعرفون جيدا السنة الاسلامية وعادات المسلمين.

اما فيمَا يتعلق بالناحية اللاهوتية فلا يظن الكردنال نقولا الكوسي انه يصعب على اليهود والمسلمين القبول بالاقانيم الثلاثة ولكن الصعب هو اقناعهم بانها ثلاثة اقانيم في إله واحد لان لا تكافؤ بين المتناهي واللامتناهي وكيف ان المتناهي يمكنه ان يتحد مع اللامتناهي.

بشأن الثنائية في المسيح اي ان فيه طبيعتين: إلهية وانسانية فيرى الكردينال انه يمكن التغلب على هذه الصعوبة بالاعتماد على الصلة الجوهرية القائمة بين النعمة والطبيعة اللامتناهيتين وبهذه الواسطة يتوصل النصارى الى ادخال هذه الحقيقة في عقول المسلمين.

ويرى الكردنال من الاوفق ضحد الفكرة الغالطة الراسخة في صدور المسلمين عن الجنة، باللجؤ الى علمائهم مثل ابن سينا «في كتابه ما وراء الطبيعة» فيقول انه يفضل الجنة بملاذها الفكرية على الملاذ الحسية الموصوفة في القرآن الذي في عدة اماكن يتحدث عن الملاذ السماوية بانها شبيهة بالملاذ الارضية. وبالنتيجة علينا ان نستخدم نصوصهم الدينية التي تلائم حججنا...

بقيت عملية الفداء كيف ان المسيح مات على خشبة الصليب لينقذ العالم من الخطيئة الاصلية. يقول الكردنال ان هذا القضية غير واردة في القرآن ولكن هذه الاعتبارات يمكن ان تتلاشى بسبب الاستعمال المتواتر لكلمة «الصليب» في المحيط الاسلامي...

ويحث الكردنال المعلم السلمنقي على مواصلة عمله والاستعانة بالفقية في المشاكل التي تلتبس عليه. ويذكر له ثلاث نسخ عن القرآن فحصها في ألمانية: نسخة في دير «روري» «Rorre» ونسخة اخرى في «كولن» (ألمانية) والثالثة في كنيسة «رويرموند»[1] حيث كتب «ديونيوس الناسك» مقالة ينتقد فيها القرآن وهي دراسة قصيرة لا تقاس بالعمل الجليل الذي صدر عن يوحنا الشقوبي.

بشأن نشر الكتاب، فيرى الكردنال الكوسي ان يطلع البابا عليه ثم يخبره اي الكردنال، واخيرا ينشره بين عامة الناس، ويقال «حَبذا لو ان البابا يقابلك شخصياً، فانه وان كان مرضه يحول بينه وبين القراءة فاذنه تسر بالحديث، وقد لحظت ذلك في مناسبات عديدة وهو يكن لك عطفاً كبيراً».

---

١ - كنيسة في هولندة على مصب نهر روير وقد مر بها الكردنال نقولا الكوسي في رحلته الاصلاحية الى هولندة.

ويرى الكردنال وهو الدبلوماسي الخبير انه يجب استخدام جميع الوسائل للوصول الى الغرض المطلوب. ويختم الرسالة قائلا:

«لم اذكر جميع هذه المسائل لكي اعلّم عالماً كبيراً مثلك، بل على سبيل الاشارة، كما انه في رسالتك قد بحثت كل هذه القضايا بطريقة مسهبة».

جان جرمين: «JEAN GERMAIN»

رجل آخر من الاكليروس اهتم بالقضية الاسلامية في القرن الخامس عشر. تعرفنا على يوحنا الشقوبي الاسباني وعلى نقولا الكوسي الكردنال الالماني، وهذا جان جرمان الفرنسي، اسقف «نفير» «NEVERS» بفرنسة منذ عام ١٤٣٠. اشترك ايضا في المجمع المسكوني بباسيل. ولمّا شاهد الصورة التي اخذ يرتديها المجمع تخلى عنه ولكن ظل يعمل لاجل الاتفاق بين الحبر الاعظم والمجمع وحث المجتمعين على مراعاة الفطنة فيمَا يمس سلطة البابا واستقلاله وشرف الكرسي الرسولي مؤكداً ان قداسة الحبر الاعظم «اوجينيو الرابع» (١٤٤١ – ١٤٤٧) مستعد للاصغاء الى طلبات المجمع والامراء.

وقد توثقت العلاقات في باسيل بين المطران جرمان والمعلم السلمنقي، وعندما انزوى هذا الاخير في دير «ايتون»، تذكر صديقه المطران جرمين واستشاره في طريقته.

والحافز الذي دفعه لاستشارته ليس حافز الصداقة ولا المكانة التي يحتلها مطران «نفير»، بل اضطلاعه بالقضية التي يعمل لاجلها يوحنا الشقوبي، فقد قرأ له مؤلفات في الدفاع عن الديانة الكاثوليكية وفي انتقاد الديانة الاسلامية في بعض النواحي، ثم لمس رغبته في اشعال حرب صليبية جديدة الى جانب دوق برغونية، بينمَا منذ اثنتي عشرة سنة كان يعمل لاجل السلم لمّا وجه رسالة الى البابا نقولا الخامس خليفة اوجينو الرابع اي من عام ١٤٤٧ الى ١٤٥٥، والى امراء المانية وملوك فرنسة وانكلترة واراغون...

الف المطران جرمين كتابا عنوانه: «الحوار بين المسيحي والمسلم» «Dialogue du chretien et du sarrazin» وهي رسالة مكتوبة بالفرنسية وموجهة الى دوق برغونية «فليب الصالح» «Philippe le Bon» وكتب ايضا رسالة باللاتينية عنوانها: «Contra legem Maumeti» ضد شريعة محمد وهي معروفة في بلاط برغونية.

وقد ألمت خيبة أمل كبيرة بالمعلم السلمنقي لان المطران جرمان رفض طريقته رفضا باتا،

واليكم الخبر: قلنا سابقا ان الاثنين جمعتهما الالفة في المجمع المسكوني بباسيل من اعمال سريسرة ، فأحب يوحنا الشقوبي ان يعرف رأي هذا المطران في الطريقة التي يريد ان ينهجها نحو الاسلام فكتب اليه رسالة طويلة من عزلته في دير «ايتون» مؤرخة في ٣١ تموز ١٤٥٥.

في ٢٤ تموز ١٤٥٥ وصل الى «ايتون» راهب كرملي من برغونية ، مأذون باللاهوت ، ليزور المعلم السلمنتي. فاغتنم هذه البادرة اللطيفة وسأل الراهب عن صحة المطران جرمين وعن مؤلفاته المتعلقة بالاسلام لانه يتشوق منذ عهد بعيد الى معرفة انتاج ذلك الدماغ المفكر وهو على ثقة تامة بان المطران لم يدفن عبقريته.

فاخبره الزائر عن التأليفين اللذين وضعهما المطران جرمين: الاول يقسم الى خمسة فصول والثاني اصغر حجما ، وقد كتب بالفرنسية اكراما لدوق برغونية كما اشرنا ، ثم نقله الى اللاتينية لكي تعم فائدته.

سر الشقوبي لانه خال له ان العناية الالهية تنوي الكشف عن امور عظيمة لصالح الايمان الكاثوليكي اذ اوحت الى رجلين الفكرة ذاتها ، رغم المسافات الشاسعة بينهما ، ورغم جهل الواحد ما كتب الآخر.

وجه اليه رسالة يقول فيها: انه منذ سنتين وهو يدرس الفكرة لاجل حل المشكلة الاسلامية وقد استشار الكردنال نقولا الكوسي وحبذ فكرته ، ويفترض ان المطران جرمين سيوافق عليها ايضا ، على الاقل في هدفها الاساسي الذي هو الدفاع عن الايمان الكاثوليكي ونشره ولكنه يريد معرفة ما اذا كان المطران يفضل طريقة السلم او طريقة الحرب. ويرفق بالرسالة الكتاب الذي وجهه الى الكردنال الالماني.

واخيراً يطلب من صديقه المطران التحفظ التام.

وصل الجواب الى الشقوبي في ٣ ايلول ١٤٥٥ ثم تبعه جواب آخر دون انتظار الرد ، مؤرخ في ٩ ايلول ايضا فيصل الكتاب الاول في ١٨ ايلول والثاني في ٥ تشرين الاول ، وقد فقدا ، غير ان جواب الشقوبي عليهما ينم عن مضمونهما.

سر الشقوبي كل السرور من الكتابين اللذين وجهها اليه المطران جرمان لانه يحب الجدال في هذه القضية ، فانصرف ، منذ الخامس من تشرين الاول الى ١٨ كانون الاول ١٤٥٥ الى اعداد جوابين: الاول قصير جدا وهو نوع من المجاملة ، يطلع فيه المطران على بعض الاخبار ويفسر له السبب الذي دعاه الى التأخير في اجابته على رسالتيه السابقتين. اما الرد الثاني فهو

طويل ويعتبر مقالة حقيقية نظراً لعمقها واتساع مواضيعها ، وقد تكون من الناحية اللاهوتية احسن ما كتب المعلم السلمنتي...

ويرسل الجوابين مرفقين بمؤلفات اخرى اشتغل في اعدادها اكثر من عشرة اعوام ردا على التعاليم الاسلامية. ولمّا استلم المطران جرمين الجوابين كتب اليه يقول : انه لم يتمكن من قراءة ما جاء بهما نظرا لكثرة اشغاله المتعلقة باقتراب الاعياد الميلادية غير انه مستعد لقراءتها والاجابة عليهما بما تستحقان. بقي ان نعرف رد الشقوبي على خطابي المطران جرمين.

رد الشقوبي :

يعدد المعلم السلمنتي الاسباب التي اوردها المطران جرمان في انكاره الاسلوب السلمي لاجل صعوبته وقلة فائدته وكثرة اخطاره واثارة ريبته.

١ - يقول المطران جرمين في كتابه ان الاسلوب السلمي عمل به في ايام الرسل والشهداء الاوائل لان العجائب رافقته آنذاك. اما اليوم لسؤ الحظ ، انقضى زمن العجائب.

يرد عليه الشقوبي : اجتراح الاعجوبة لم يكن وقفا على الرسل الذين حل عليهم الروح القدس على شكل برقليط ، واذا كانت العجائب قد انتهت بوفاة آخر رسول فهذا لا يعني ان الالزام بالتبشير بالانجيل قد توقف. ثم ان الكلام الفصيح والبليغ ليس في حد ذاته سبب لازب لاعتناق الدين المسيحي فاليهود الذين لمسوا عجائب الرسل لم يؤمنوا في الحال بل ان بعضهم ذهلوا والبعض الآخر ظنوا انه من فعل الخمرة. ولكن عندما عرض عليهم القديس بطرس اسرار الايمان كما جاءت في شهادة الكتاب المقدس انضم في الحال الى الكنيسة الناشئة ما يقارب ثلاثة الآف شخص. الآيات المجترحة كثيرة ولكن ليس من يرويها. وتجترح العجائب حتى في ايامنا هذه (القرن الخامس عشر) واذا كان الله يسمح بحدوث هذه الآيات على يد اوليائه ليثبت قداستهم ، فكم بالحري لاثبات حقيقة وجوده في سر الثالوث الاقدس وللدفاع عن براءة ابنه ضد اخطاء المسلمين وانقاذ شرف الكنيسة والمؤمنين ابنائها الذين اسيء الى سمعتهم بقحة وغباوة.

واذا كان المسيح فرض على تلامذته التبشير: «اذهبوا وبشروا جميع الامم» فانه وعدهم ايضا بالمساعدة الدائمة من اعالي مجده. وهو ذاته حدد عقيدته انها جامعة ويجب ان تنشر بين جميع الامم كما يقول : ... وانا معكم الى نهاية الدهور ، ولذلك ، لا سبب يدعو الى منع هذه

الرسالة السلمية عن المسلمين وقد اوصى بها المسيح وهي واسطة جوهرية لبقاء هذه الكنيسة ونموها.

٢ – يقول المطران جرمين: الاسلوب السلمي عاجز عن اقناع المسلمين، ولذا فقد تخلت عنه الكنيسة منذ عهد قسطنطين الا في تلك المناطق التي يهيمن عليها المسيحيون.

يرد عليه الشقوبي: لدينا البرهان التاريخي، والمثال على ذلك في تنصر انكلترة والمانية والمجر وبولندة، وفي ايامنا الحاضرة «الهوسيت» في بوهيمية، فقد خضعوا اخيرا عن طريق اللين لمّا عجزت القوة عن اخضاعهم.

٣ – بعد الاضطهادات استعمل دائما الاسلوب الحربي. يرد عليه الشقوبي قائلا: من المعروف ان الحروب مستمرة في العالم منذ الطوفان وستظل حتى ابد الآبدين ليس فقط مع غير المؤمنين انفسهم. بقي علينا ان نعرف ما اذا كان الغرض من تلك الحروب تنصير الاعداء او لغايات زمنية محضة لاستعادة امجاد او لتحصيل شرف. لا اقصد هنا الحروب المعلنة شرعيا ضد المسلمين لانهم اجتاحوا اراضي مسيحية مثل الحروب الصليبية التي كانت نتائجها هزيلة بعد اربعمائة سنة من الصراع واراقة الدماء... واذا كان بعض اتباع محمد تقبلوا المعمودية للنجاة من الموت فانهم في اول مناسبة تخلوا عن ايماننا واعتنقوا من جديد الديانة الاسلامية.

٤ – المطران: سلك طريقة الحرب الاباطرة الكبار وملوك الافرنج.

جواب الشقوبي: لا ريب في ذلك، ولكن كم هو عدد المسلمين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية عن هذه الطريق؟ نأخذ مثلا اسبانية وانا اسباني واعرف جيدا الحروب التي دارت خلال الاربعين سنة الاخيرة ضد المسلمين والحروب في الاجيال التي سبقتها وقد تبين لي من كل ما قرأت وسمعت ان الطريق الافضل هو طريق السلم للوصول الى تنصر المسلمين.

٥ – المطران: اسلوب الحرب مقبول لدى الكنيسة الرومانية، لدرجة انها منحت الغفران الكامل مرات عديدة لكي تطبق الاسلوب الحربي.

الجواب: بتغير الازمان تتغير الاحوال، فانه وان كانت بعض الامور شرعية فليست دائما ملائمة. عندنا المثال على ذلك في بوهمية فان «الاسيت» لم تفعل فيهم القوة، ففعل فيهم السلم. حارب الملك داود الفلسطينيين وشعوبا اخرى كثيرة مجاورة ولكن قليلون جدا الذين اعتنقوا ديانة اسرائيل.

٦ – لا يحق لاي مؤمن استنكار الحرب ضد غير المؤمنين، وعندما تكون الحرب بين

المؤمنين انفسهم ، فقد ذكر العهد القديم اثني عشر سببا تبرر هذه الحرب.

الجواب : والاسباب التي تبرر السلم اكثر بكثير من التي تبرر الحرب و يمكن كسب العدو بالحسنى اكثر من كسبه بقوة السلاح وقد جاء في الكتاب المقدس : اذا جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقه لانك بذلك تجمع فوق رأسه جذوات من النار. ما هي النار التي يجب ان نقذفها على رؤوس المسلمين؟ هي ذاتها التي اسعى لاستعمالها في طريقتي. لا اريد تحديد المدة في استعمال هذه الطريقة ، قد يكون غدا او بعده او في هذا العام او خلال عشرة اعوام ، بل اريد القول ان هذا الاسلوب يجب ان يظل واردا في حساب الكنيسة الكاثوليكية ، ولا اريد القول ان المنظمات العسكرية الرهبانية لا منفعة منها ، فان الملوك في كثير من الاحيان عندما يتفاوضون يهيئون للحرب.

٧ – قبل استعمال الاسلوب السلمي علينا ان نحظى بموافقة الملوك المسلمين والقرآن يحظر على المسلمين الجدال مع النصارى في امور الدين.

الجواب : هذا ما يقوله الذين يجهلون القرآن الذي يتكلم عن الجدال في مواضع عديدة وبنوع خاص في السورة التاسعة والعشرين (سورة العنكبوت) الآية ٤٥ : «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون».

والترجمة اللاتينية لهذه الآية على النحو التالي وفيها الكثير من التصرف :

«Omnes homines legum, praeter malos, honestis verbis disputando semper alloquere, et confitere et semper te in Deum credere et praeceptis sibi missis parere, cum Deus suus sit tui Deus et omnium omnibus adorandus».

وهي من ترجمة روبرت اوف كتيني.

جرمان

٨ – وهذه صعوبة اخرى ، لكي ندخل اسلوب المسألة في حيّز التطبيق يصبح من الضروري السماح للفقهاء المسلمين بالدخول الى الاراضي المسيحية للتبشير بدينهم بين النصارى ، وهنا نتعرض لمصيبة جديدة وهي انه من المحتمل ان يوجد بعض النصارى الراغبين باعتناق الديانة الاسلامية للاستفادة من تعدد الزوجات وممارسة حق الانتقام او اخذ الثأر والنهب والسلب وغير ذلك ، ويأملون مع ذلك دخول الجنة. ومن ناحية اخرى فان هؤلاء الفقهاء يبشرون بالاله الواحد ولا يقبلون بالثالوث والاقانيم و يهزأون من سر التجسد والتألم

وموت السيد المسيح ابن الله وينكرون ايضا سر الافخارستيا ولا يعترفون بسر التوبة المبغوض ايضا عند المسيحيين انفسهم اذ انه في بعض بلدان النصارى لا يمارسون سر الاعتراف الا مرة واحدة في الحياة كل هذه الامور تتحول الى فضيحة ويدخلون عند ذلك في الاسلام افواجا افواجا ، واذا تنصر مائة مسلم فان مائة الف مسيحي يدخلون في الديانة الاسلامية.

الجواب : يوحنا الشقوبي : لم اسمع قط في حياتي انه يوجد مكان في العالم حيث يعترفون بخطاياهم مرة واحدة في الحياة واقل منه في الدول التي زرتها وقد اقمت في كل واحدة منها وقتا طويلا : اربع سنوات في ايطالية ، اربع عشرة سنة في ألمانية ، ثمان سنوات في فرنسة وولدت في اسبانية.

اما بشأن دخول النصارى افواجا افواجا في الاسلام فان شعوري يختلف تماما في هذا القبيل والبرهان على ذلك اسرانا الموجودون في سجون المسلمين فلا يتخلون عن ايمانهم ولو اغروهم بجميع ملذات الدنيا.

واذا كان المسلمون يهزأون من سر التجسد وتألم وموت ابن الله فلا يجب ان يدهشنا هذا التصرف من قبلهم ، فانهم مصابون بعمى جهلهم. اما من حيث التوبة فان القرآن يحثهم عليها ايضا : السورة ٣ الآية ١٢٨ – ١٣٠ : ... ولله ما في السموات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم. يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي اعدت للكافرين.

في النص اللاتيني تحريف ظاهر وقلما يتفق المعنى مع الاصل والترجمة هي لروبرت اوف كتيني. وتقول :

«In tempore famis et ubertatis, sua pro Deo distribuentes et condonantes injurias et pro peccatis paenitentes... Deus illis veniam faciens, in paradiso, quemquam secundum merita sua ditans locabit».

اما بشأن الايمان باله واحد عند المسلمين ، فهذا ما يقوله النصارى ايضا الذين يعتقدون بتثليث الاقانيم في هذا الاله الواحد.

وعبثا انتظر يوحنا الشقوبي الاجابة على هذا الرد فقد ادرك المطران جرمين تفوق زميله فلم يجسر على الجواب فخيب آمال الراهب فيه. وبعد عامين وخمسة اشهر من هذا الجواب الذي لم يحظ برد توفي يوحنا الشقوبي في شهر ايار ١٤٥٨ ، وقبل وفاته بقليل كتب رسالة الى الكردنال « سينا » بالمعنى ذاته.

انياس سلفيو : «ENEAS SILVIO»

يعتبر من المع الشخصيات في عصر الانبعاث او على الاقل في القرن الخامس عشر.

ولد «انياس سلفيو» في ١٨ تشرين الاول ١٤٠٥ في قرية صغيرة من اعمال «سيانا» «SIENA» ، توجه الى جامعة هذه المدينة ليدرس الحقوق مع انه لا يحب هذه المهنة ، يميل الى الادباء الكلاسيين فقد كان يستعير مؤلفاتهم من اصدقائه ويقضي الليالي ساهرا على دراسة هذه المؤلفات ، وتوصل الى نسخ بعضها حتى لا يزعج اصدقاءه باستعارتها ولخص الكثير منها ويفضل شيشرون وفرجيليوس على سواهما من الرومان.

توجه بعد ذلك الى فلورنسة وبعد اقامة سنتين فيها ونزولاً عند رغبة اهله عاد الى سينا لمواصلة دراسة الحقوق. ولمّا مر الكردنال «كبرنيكا» «CAPRANICA» في تلك المدينة قاصدا باسيل شاهد «انياس» الذي لم يبلغ من العمر اكثر من ست وعشرين سنة واعجبه فيه ذكاؤه وحدة ذهنه ومظهره الخارجي الناعم فعينه امين سره. وتوجه معه الى «باسيل» في ربيع ١٤٣٢ ولكنه اضطر للتخلي عن الكردنال ، وعندما انتخب المجمع المسكوني حبرا اعظم جديدا في شخص فلكس الخامس فضمه اليه وجعله في امانة سره.

وادرك الفتى ان هذا المنصب لا يلبث ان يزول واستفاد من دعوة الامبراطور فردريك الثالث الذي عرض عليه وظيفة في المستشارية الامبراطورية عندما كان انياس سلفيو عام ١٤٤٢ يحضر مؤتمر فرنكفورت. ولم يطل امره حتى نال رتبة امين سر في تلك المستشارية وشعر انه قد اساء الى البابا الحقيقي اوجينيو الرابع وتصافى معه نهائيا بعد ان تراجع عن جميع كتاباته ضده.

ومنذ ١٤٤٦ اخذ يتدرج في معارج الكهنوت فعين عام ١٤٤٧ اسقفا على «تريستي» من قبل البابا نقولا الخامس وبعد سنتين سلمه كنيسة «سيينا» ثم سيم كردنالا عام ١٤٥٦ على عهد كالكستو الثالث (١٤٥٥ — ١٤٥٨) وخلفه في السدة البابوية في ١٩ آب ١٤٥٨ تحت اسم «بيوس الثاني».

تعرف في باسيل على يوحنا الشقوبي وشبت بينهما صداقة استمرت على روعتها حتى وفاة المعلم السلمنتي.

وتبودلت الرسائل بينهما الى ان اصبح «انياس» كردنالا فأحب معرفة نظرية يوحنا الشقوبي منه شخصيا فطلب اليه في رسالة ان يطلعه على القضية الاسلامية.

شكره يوحنا الشقوبي على حثه اياه على نشر الترجمة القرآنية وفي الوقت ذاته ضحد ما جاء في القرآن. وكان يوحنا الشقوبي في آخر ايام حياته وقد اقعده المرض عن الكتابة، ومع ذلك استجاب لرغبة صديقه الكردنال وارسل اليه بعض ماكتبه عن الاسلام، وتنبا له بانه سيصل الى كرسي رومة وفعلا بعد ثلاثة اشهر كان انياس سلفيو يُنتَخب حبراً اعظم باسم بيوس الثاني كما اشرنا.

وبعد هذه المقدمة القصيرة يعرض الشقوبي السبب الذي حمله على كتابة هذه الرسالة. فان جميع المؤرخين يذكرون انه منذ القديم عمل المسيحيون على استئصال شافة الاسلام بالحديد والنار وفي بعض الاحيان بموافقة الكنيسة وفي اكثر الاحيان بدون مشورتها... ويجب علينا ان ندرس النتائج التي وصلوا اليها، فاذا استثنينا حالة فرنسة واسبانية حيث ان المسلمين يتراجعون فني غير مكان نراهم يتقدمون بصورة تدعو الى الذعر. ويأسف يوحنا الشقوبي لان الكنيسة درست بقية الهرطقات بينمَا لم تسع الى دراسة المذهب الاسلامي ومعرفة فحواه.

لقد شاء الشقوبي الكلام شخصيا مع صديقه الكردنال ومع كرادلة آخرين ليس عن الاحداث الغابرة بل عن طريقة العمل في المستقبل، وانه واثق من تنفيذ هذه النظرية السلمية تجاه المشكلة الاسلامية.

لا ندري اذا حصل رد من قبل الكردنال لان الشقوبي توفي بعد قليل في اليوم الرابع والعشرين من شهر ايار نفسه عام ١٤٥٨.

ان يوحنا الشقوبي شخصية برزت في الربع الثاني من القرن الخامس عشر في اسبانية وفي اروبة.

في المرحلة الاولى من حياته برز معلما للاهوت في جامعة سلمنقة.

اشترك في المجمع المسكوني في باسيل وكان من ابرز الوجوه فيه حمل لواءه متجولا في عدة مدن اروبية لكي يربح المؤيدين لاجل البابا الدجال «فلكس الخامس». «FELIX V»

وبعد انتهاء المجمع واستئصال الانشقاق شعر يوحنا الشقوبي ان البابا نقولا الخامس يكرمه غير انه فضل الانزواء في دير «ايتون» في «السفوا» حيث قضى بقية حياته في دراسة المشكلة الاسلامية التي اخذت تشغل باله مذ سنوات التدريس في جامعة سلمنقة.

وكانت نقطة انطلاقه ترجمة القرآن الى اللاتينية والاسبانية، بذل فيها قصارى جهده حتى تحقق حلمه.

استشار ثلاثة علماء من ابرز علماء عصره : كردنال نقولا الكوسي والمطران يوحنا جرمين واخيرا الكردنال «انياس سلفيو» الذي اصبح حبرا اعظم.

لا شك ان يوحنا الشقوبي سبق عصره ولذلك فانه ما زال حديث الساعة فتصرفه المسيحي تجاه الشعوب الاسلامية قابل التطبيق في ايامنا هذه «عن طريق السلام والعقيدة»[1]
«Per viam pacis et doctrinae».

---

١ - الاب كبانيلاس : المصدر السابق صفحة ١٦٥ - ٢٥٩.

ALCORANI

EPITOME, ROBERTO KETENENSE ANGLO INTERPRETE.

ORATIO ARABVM.



N DEO IRAM ET MISERIcordiam ponunt, quod ipſum, in ſe uerũ eſt, Solis puris quale eſt uidetur. Quos Deus obdurauit, nemo molliet, aut inſtruet. Qui ore, non opere, uirtutem laudant, ſeipſos decipiũt, nihil aliud niſi detrimentum animæ ſuæ lucrantes. Cũ omnis qui peccat, ſeruus ſit peccati, ille tamen ſeruus eſt ſordidus, qui cum peccati ſit ſeruus, ſe lotum & liberum oſtentare conatur. Secta Maumethis promittit ſummum bonum, id eſt, Deum, dicens, quòd diuitiæ noſtræ erunt ipſe Deus. Qui ueritate ſibi oblata, falſa complectitur, illis ſimilis eſt, quibus ignis accenſus extinguitur, tenebræq; ſuccedunt: Aut illi, qui nube coruſca tonitrua fulguraq; geſtãte præoccupati, aures timore mortis obſtruunt, atq; nimio fulguris ipſius ſplendore uiſu ferè priuantur. His autem ſerenitas turbationem, tenebræ quietem inducunt, uiſusq; & auditus diuinæ potentiæ, ab his procul exiſtit.

Veritas lux eſt, falſitas tenebræ. Incontinens ſimilis eſt illi, cui ignis accenſus extinguitur, Intemperans illi, qui lumine magno cæcatur, ſonituq; ſui deſcit.

Præcepta

القرآن الكريم ، ترجمة روبرت الانكليزي

Præcepta Dei ad homines. Inferi & paradisi uolupta tes. Multi sunt boni recto calle gradientes, mali autem plu res. Improbus sibi sæpe supplicium est. Creatio Adæ & præceptum ad eum. Homo similis in terra. Multa Deus scit, quæ ignorant angeli. Angeli humiliati sunt Adæ, præ ter Belzebub. Tentatio Adæ à diabolo. Expulsio Adæ & Euæ ex paradiso. Deus Iudæis exprobrat beneficia colla ta, & Prophetarum occisiones, & idololatriam. Alchora nus est Legis Hæbreorum firmamentum.

Præcepta Dei ad homines temperantiæ. Neque ue ro falsa ueris miscenda sunt, neque cognita uera tacenda. Virtutis opera, sicut prauis molesta & grauia sunt, sic bo nis leuia atque iucunda. Animas uestras necate. Omnis re cte uiuens, id est Deum adorans, boniq; operator, siue Iudæ us, sit siue Christianus, seu lege sua relicta ad aliam tendat, 1.
proculdubio diuinum amorem consequetur. Vacca quam Moyses sacrificari uoluit, qualis esse debebat. Moysis ma gica per carnes uaccarum. Iesus filius Mariæ, cui spiritus diuinus auxilium & testimonium extitit. Solomon bonus magicā ab angelis malis didicit, quā Iudæi didicerunt, post in Babilone à malis Angelis, id est, Aroth, & Maroth. Spiritus in quem uult, & quo uult, & quando uult spirat. Nemo sine Deo animæ suæ prodesse potest. Deus, qui se creta cordium introspicit, suum cuique rependit meritum. Christiani & Iudæi utrique Legislatores bonos habuerunt, sed utrique ab ipsis deuij sunt. Cum Dei sit Oriens & Occi dens, uersus quamlibet partem orationes fundens, Deum inuenit. Dei pietas nullo loco circumscribitur. Dei sapien tia cuncta complectitur. Deus cuncta cōprehendit. Deus à nullo comprehenditur. Qui Deum habere filium dicunt, inscij sunt. Deus omnia uerbo, iussuque perficit. Nulla lex 2.

e bona

الفصل العاشر

كتاب اللاهوت المنسوب لارسطو
THEOLOGIA ARISTOTELIS

كتاب الخير المحض:

يطلق عليه ايضاً اسم كتاب الخير المحض اوكتاب العلل de causis وقد تضاربت الاراء بشأنه وخبطت فيه خبط عشواء الى ان ظهرت الحقيقة. اعرض ثلاثة آراء

الواحد للاب اليسوعي الونسه الونسه

والثاني لعبد الرحمن بدوي

والثالث للاب لوسيانه روبيه الاغسطيني ومترجم هذا الكتاب الى الاسبانية عام ١٩٧٨

رأي الاب الونسه الونسه اليسوعي:

ينسب تأليف هذا الكتاب «الخير المحض» الى ابن داود او يوحنا الاسباني وقد نسب هذا الكتاب في بعض المصادر الى الفارابي، وما علينا الا ان نقابل بين هذا الكتاب «الخير المحض وكتاب عيون المسائل» للفارابي.

وقد عمد الاب الونسه الى تلخيص القضايا على النحو التالي:

١ - تعرف ابن سينا على رسالة «De principiis omnium» من تأليف اسكندر الافروديسي ولكن ليس هذا الكتاب هو الخير المحض ولا كتاب العلل.

٢ - «عيون المسائل» للفارابي تحل المشكلة ذاتها الموجودة في كتاب العلل.

٣ - «عيون المسائل» وكتاب «العلل» وكتاب «Epistola de principiis» كما اشار اليه البرتوس الكبير تتفق جميعها مع المقالة التاسعة من ميتافيزقا ابن سينا.

٤ – واخيرا فان كتاب العلل مأخوذ عن بروكلس كما اشار الى ذلك القديس توما الاكويني في تعليقه على كتاب العلل، فالاتفاق الموجود بينهما يرجع الى كونهما من تعاليم الافلاطونية المحدثة.

٥ – كتاب العلل وضع باللغة العربية كما تشير اليه الكلمات العربية الكثيرة الموجودة فيه والتركيب في الجملة تركيب عربي في النص اللاتيني، الى جانب علامات اخرى ولذلك كتب توما الاكويني:

«In arabico vero invenitur hic liber qui apud latinos de Causis dicitur, quem constat de arabico esse translatum et in greco penitus non haberi».

٦ – ولكن هذا التأليف ليس من الفارابي للاسباب التالية حسب الاب الونسه الونسه.

أ – لا يوجد في لائحة الكتب التي وضعها الفارابي.

ب – انه يناقض اقوال وآراء الفارابي.

ج – براهين عديدة تثبت ان كتاب «العلل» هو من تأليف «يوحنا الاسباني» وبالتالي ليس من تأليف الآخرين. والبرتوس الكبير ينسبه ايضا الى يوحنا الاسباني وقد عثر على هذا الخبر في المخطوطات التي استعملها.

د – المخطوط اللاتيني رقم ١٤٧١٩ الموجود في المكتبة الوطنية بباريس يقول في آخره ما يلي: Explicit liber Causis causarum editus a David et cum commento ab eodem edit.

وربما هناك مخطوطات اخرى تذكر المعلومات ذاتها اذا احببنا ان نثق باقوال مونك «Munk» وغيره

هـ – في خاتمة مخطوط اكسفورد نقرأ: «Explicit Metaphysica Avendauth» وليس من شك في انه يقصد بهذه العبارة كتاب العلل وهذا التأكيد الاخير هو لصالح يوحنا الاسباني وبالتالي لا يمكن نسبته الى الفارابي وابن داود هذا ليس سوى «Avendar israelita philosophus» الذي ترجم ابن سينا وقد ذكره البرتو الكبير في «كتاب المقولات». «Liber praedicalibus»

واخيراً DAVID داود الذي تذكره بعض المصادر هو ابن داود لانه في تلك الحقبة لا يوجد فيلسوف اسرائيلي يناسبه هذا النعت غير «يوحنا الاسباني» «Juan Hispano»

وهذه المجموعة من البراهين كافية وحاسمة لو لم يظهر ان بعض المخطوطات تنسب الكتاب

الى الفارابي ، مثل المخطوط الموجود في باريس المكتبة الوطنية ، رقم ٨٨٠٢ و ١٦٠٨٢ ، فهذا الاخير يقول في الورقة ٣٢١

«Explicunt cannones Aristotelis... sive de intelligentiis sive de esse sive de essentia purae bonitatis sive de causis... ab Alpharabio».

ويظهر ان « خيل دي روما » «Gil de Roma» كان اول من قال بنسبة كتاب الخير المحض الى الفارابي ، وان كان ينقل ما سمعه.

ولكن هذا الكتاب ليس للفارابي ، فأول ما يستنتج ان الفارابي ليس ناقلا يؤلف كتبه من سرقات من هنا وهناك ، فالفارابي له اسلوبه الكتابي الخاص ، وان كانت افكاره ليست مبتكرة انما يضعها بقالب جديد. بينمَا نرى ان «كتاب العلل» هو عبارة عن مجموعة من النصوص ترجمت عن بروكلس في قسمها الاكبر. قلت في قسمها الاكبر لان النص عند بروكلس يتكلم عن الالهة الوثنية بينمَا في «كتاب العلل» لا يتكلم الا عن اله واحد.

الفارابي يأخذ الافكار ويصوغها بقالب خاص به اما كتاب العلل فانه يبدل المعنى في كثير من الاحيان باستعماله حرف عطف او حرف جر وهذا ما لا نجده عند الفارابي لانه لا يستخدم كلمات غريبة عنه ولا اضافات او اهمالات. الفارابي يكتب دائما على طريقته الخاصة.

كما اننا نلاحظ فروقا في اللغة : فالكائن في كتاب « العلل » يسمى « انية » وفي منتصف الكتاب وما بعده يسمى « هوية » ويمكن القول ان كتاب الخير المحض يطبق على اسم الباري تعالى كلمة « هوية » بينمَا « انية » يستعملها في كلامه عن المخلوقات.

نرى في كتاب « عيون المسائل » للفارابي وفي مؤلفاته الاخرى انه يستعمل كلمة « موجود » وكلمة « وجود ».

كيف يفهم الفارابي المادة الاولى وكيف يفهمها كتاب العلل؟

يقول الفارابي : تنبثق الصورة من العقل الاخير من العقول المفارقة وهو سبب الانفس الارضية من وجه وسبب وجود الاركان الاربعة بواسطة الافلاك من وجه آخر.

والاجسام الكائنة من الاركان الاربعة فيها قوى تعطيها الاستعداد للفعل وهي الحرارة والبرودة ، وقوى تعطيها الاستعداد لقبول الفعل وهي الرطوبة واليبوسة وفيها قوى اخرى فاعلة ومنفعلة كالذوق الفاعل في اللسان والشم الفاعل في آلة الشم وكالصلابة واللين والخشونة واللزوجة وهذه كلها تظهر من تلك الاربعة التي هي الاولى والجسم الشديد الحرارة بطبعه هو النار والشديد البرودة هو الماء والشديد الجرى هو الهواء والشديد الانعقاد هو الارض. وهذه

المواد الاربع هي اصول الكون والفساد قابلة لاستحالة بعضها الى بعض. والاشياء الكائنة الفاسدة التي تظهر انمَا تظهر من الامزجة التي تظهر فيها على النسب المختلفة التي تعطيها الاستعداد لقبول الخلق المختلفة التي بها قوامها. وتظهر من هذه الصور الكيفيات المحسوسة، وهذه الكيفيات يبطلها ويخلفها غيرها. والصور باقية بحالها وما يحصل من الامزجة الاربعة تبقى قواها وصورها ولا تفسد.

اما مؤلف كتاب «العلل»، فبصفته تلميذ برقلس لا يستطيع ان يرى في المادة الاولى سوى العدم والهيولي «ايس» له الوجود بالقوة وليس له وجود على الاطلاق، وبمَا انه لا يوجد فلا علة له ولا يمكن السؤال عن علته. ولذا فان مؤلف كتاب العلل لا يقول شيئا عن المادة الاولى.

اذاً من هو مؤلف كتاب العلل؟ ليس ارسطو وان ورد اسمه مرارا عديدة عند المدرسيين وان اكده العديد من المخطوطات. ارسطو لا يستطيع النقل عن بروكلس. وكذلك بروقلس ليس مؤلف الكتاب.

وليس الكتاب من تأليف الفارابي فالتحليل الداخلي يبين لنا الفوارق بين كتاب العلل «وعيون المسائل» فالتأليفان يتشابهان فيمَا لا يمكن ان يتشابها به فالاثنان مشتقان من الافلاطونية الحديثة ولكنها يختلفان في الاشياء التي يجب ان يتفقا بها فيما لو كان المؤلف واحدًا والدلائل الخارجية التي تخالف هذا القول متأخرة جداً في الزمان فهي تعارض المصادر العربية مثل الغزالي وابن رشد وابن القفطي وابن ابي اصيبعة يجهلون هذا الكتاب. هل يستطيع الغرب ان يعرف عن الفارابي اكثر ممّا يعرفه هؤلاء؟

اخيراً فليس «جلبرت ديلا بوري G. De la Porrée واضع كتاب العلل.

وهنا تظهر مشكلة المترجم، والحقيقة ان المسألة ثانوية فانها لا تغير شيئا في النتائج. فالذين يقولون ان جيرارده الكريموني مترجم كتاب العلل، لا يميزون بين هذا الكتاب وكتاب آخر عنوانه De expositionis bonitatis purae, وينقلون الترجمة الى ما بعد ١١٦٧ ولا شيء من هذا يخالف النتيجة وهي ان ابن داود هو مؤلف كتاب العلل.

والخلاصة التي توصل اليها الاب الونسه الونسه هي ان جميع الذين ينسب اليهم كتاب العلل يقف ضدهم الكثير من المغالطات، بينمَا جميع الحجج هي لصالح ابن داود وهي ثابتة [1].

(١) Temas filosoficos medievales - Ibn Dawud y Gundisalvo. Por et P. Manuel Alonso, Comillas 1959 pp. 59-60, 96-99.

رأي عبد الرحمن بدوي :

وقد رد عبد الرحمن بدوي ردا عنيفا على الاب الونسه الونسه ، فيقول هذا الكتاب له قصة طويلة لا بدّ من تفصيل القول فيها وان كنا سنرى في نهاية المطاف انها قصة لا اصل لها من الواقع التاريخي بل نشأت عن خلط عند اللاتين من الباحثين في فلسفة العصور الوسطى فاعتمدوا على المصادر اللاتينية دون الاصول العربية.

تبدأ القصة في العالم الغربي : « فهرس ما ترجمه جيرارده الكريموني من العربية الى اللاتينية ، وضعه تلميذه ، فقد ورد في هذا الفهرس ان من بين ما ترجمه جيرارده من الكتب العربية كتاب ارسطو في « ايضاح الخير المحض » .

توفي جيرارده سنة ۱۱۸۷/۵۸۳ هـ مما يجعل ترجمة الكتاب قبل هذا التاريخ ولم يكن من عادة جيرارده ان يذكر اسمه في ترجماته ولهذا خلت مخطوطات ترجمة « الخير المحض » اللاتينية من ذكره . والمخطوط الوحيد اللاتيني الذي ذكر له اسمه هو مخطوط « بروج » «BRUGES» في بلجكة اذ نسب الترجمة الى « جلبرتس بورتانوس » «Gilbertus Porretanus» المتوفي سنة ۱۱٥٤ ، ٥٤۹ هـ ولكن الباحثين يميلون الى استبعاد النسبة ويرجحون ان تكون الترجمة من عمل جيرارده فيمَا بين سنة ۱۱٦۷ و ۱۱۸۷ م.

فتكون اوروبة اللاتينية عرفت كتاب الخير المحض في الربع الاخير من القرن الثاني عشر السادس الهجري ، وعرفته انه لارسطوطاليس لا لبرقلس ولا لاي محدث ، يهودي او مسلم ، ومنذ هذا التاريخ اصبح يدرس على انه عمد الالهيات عند ارسطو ، وعن طريقه دخل برقلس والافلاطونية المحدثة في عهد مبكر جدا التفكير الفلسني في العصور الوسطى المسيحية كما وقع تماما في التفكير الفلسني الاسلامي بفضل كتاب « لاهوت ارسطو » .

وقد عرفته العصور المسيحية اولا بعنوان : Liber Aristotelis de expositione bonitatis purae او في صورة مختصرة de bonitate purae ثم عرفته ثانيا بعنوان : Liber de causis « كتاب العلل » وهو كتاب نجده في بعض الوثائق التي بقيت لنا من العقد الخامس من القرن الثالث عشر ، ولعل السبب في هذا العنوان الجديد انه بحث في العلة الاولى وصدور سائر الموجودات عنها في ترتيب تنازلي اذ يرد فيه ان العلة الاولى علة سائر العلل وعلة لعلية سائر العلل وانها اسبق من الدهر لانها اسبق من « الانية » ومن العقل ولهذا فانها اعلى من الصفة.

ويواصل الدكتور عبد الرحمن بدوي قوله : الى هنا لم يكن ثمة مشكلة فان اسكندر الهالسي Alexandre de Hales المتوفي سنة ١٢٤٥ يذكره في كتابه «الخلاصة اللاهوتية Summa Theologica المنسوبة اليه والقديس «بونونتورة» BONA VENTURA يشير اليه في مقدمة القسم الثاني من شرحه على كتاب «الاقوال» مما يجعل وجوده يرجع الى حوالي سنة ١٢٥٠.

جاءت المشكلة من نص غامض لالبرتوس الكبير في كتابه «في علل ونشؤ الكون» الكتاب الثاني، المقالة الاولى طبعة ليون سنة ١٦٥١ جزء ٥ صفحة ٥٦٣ – ٥٦٤، قال البرتوس :

«لمّا كنا قد حددنا فيمَا سبق صفات واجب الوجود وصفات ما ابدعه، بقي علينا الآن ان نحدد العلل الاولى، ولهذا اخذنا بكل ما قاله الاوائل من آراء جديدة جمعها قبلنا رجل يدعى داود اليهودي، التقطها من اقوال ارسطو وابن سينا والغزالي والفارابي ورتبها على هيئة جمل قصار واضاف اليها شرحا على شاكلة ما فعله اقليدس في الهندسيات. فكما ان شرح اقليدس يبرهن عن النظرية الموضوعة، كذلك يفعل شرح ابن داود، فمَا هو الا برهان على النظريات المعروضة، وبالمثل وصل الينا كتاب في الطبيعيات انجزه الفيلسوف نفسه وقد سمي ذلك الكتاب «الميتافيزيا» واضاف اربعة اسباب لهذا العنوان. السبب الاول، وقد تبين ان كتاب «الميتافيزيا» هذا الذي يشير اليه البرتوس هو كتاب الخير المحض كما عرفه اللاتينيون. ومن هنا نشأ الافتراض ان يكون كتاب الخير المحض من تأليف ابن داود.

ونص البرتس غامض، غير واضح في ذهن صاحبه كما قال عنه «روبرت ستيل». كما انه لا بدّ ان يكون قد كتب قبل سنة ١٢٦٨، اذ في هذه السنة ١٨ مايو منها على وجه التحديد اتم «غليوم الموربكي» MOERBEKE الذي كان يترجم من اليونانية الى اللاتينية ترجمة كتاب «عناصر الثاولوجيا» لبرقلس وترجم ثلاثة مؤلفات اخرى لبرقلس هي «المسائل العشر المعضلات في العناية»، وكتاب «في العناية والقدر»، وكتاب «في بقاء الشرور»، كما ترجم شروح «برقلس على طيماوس». ولم يكد توما الاكويني ١٢٢٥ – ١٢٧٤ يقرأ هذه الترجمة حتى ادرك في الحال ان كتاب «الخير المحض» مأخوذ من عناصر «الثاولوجيا» لبرقلس فيكون اللاتين قد ادركوا في حدود ١٢٧٠ ان «كتاب الخير المحض» عبارة عن جمل قصار مستخلصة من كتاب عناصر «الثالوجيا» لبرقلس وبالتالي ليس لارسطو ولا من اقوال ابن سينا والغزالي والفارابي و«ابن داود».

ولا بدّ ان القديس البرتس نفسه ادرك بفضل اشارة توما الاكويني هذه ان ما رواه عن كتاب الخير المحض وهم في وهم.

وكان من المنتظر بعد اكتشاف توما الاكويني لكتاب الخير المحض ان يستقر في اذهان المشتغلين به من رجال القرن الثالث عشر الميلادي وما تلاه ان الكتاب ليس لارسطو ولكن يظهر ان القوم لم يستطيعوا ان ينتزعوا هذا الكتاب من ارسطو.

ولكن اذا كانت مشكلة الكتاب ومصدره قد حلها القديس توما الاكويني منذ عام ١٢٧٠ تقريبا فقد بقيت المسألة الاخرى دون حل، وهي من الذي وضع هذا التلخيص المستخلص من كتاب «عناصر الثالوجيا» لبرقلس. والفروض لحل هذه المسألة تتناول ثلاثة اشخاص:

١ – ابن داود اليهودي المتنصر.

٢ – ابو نصر الفارابي.

٣ – مؤلف قبل العصر الاسلامي.

الافتراض الاول هو الذي اشار اليه القديس البرتس ثم رجع عن رأيه بعد ان اكتشف تلميذه توما الاكويني ان الكتاب مأخوذ من عناصر «الثالوجيا» لبرقلس كما رأينا.

نشر بردنهيفر نصه العربي وفقا للمخطوطة الوحيدة الموجودة في مكتبة جامعة ليدن، هولندة، رقمها ٢٩ كما نشر معه النص اللاتيني اعتمادا على مخطوطتين في «مونشن» وكانت اول نشرة للنص العربي واول نشرة نقدية للترجمة اللاتينية، وقد راعت التقسيم الوارد في النص العربي فقسمت الكتاب الى احدى وثلاثين فقرة بينما الترجمة اللاتينية تقسمه الى اثنتين وثلاثين فقرة كما راعت النص العربي في عدم تقسيم الفقرة الى جملة اساسية هي الاولى وشرح يتلوها كما تفعل الترجمة اللاتينية بل تركت الجملة الاولى مدمجة في سائر الفقرة فأصبحت الفقرة وحدة واحدة.

وعلى اثر ذلك قام بعض الباحثين ينظرون في مشكلة هذا الكتاب، فبحث فيه شتينشنيدر في كتاب «الترجمات العبرية في العصور الوسطى» ١٨٩٣ ثم في بحثه في الترجمات العربية عن اليونانية وقد انتهى الى ان ابن داود اليهودي الذي اشار اليه البرتس الكبير هو يوحنا الاشبيلي المترجم المشهور الذي بعد ان تنصر اطلق عليه اسم يوحنا بن داود وعرف في النصوص اللاتينية باسم Avendauth. وفي سنة ١٩٣٤ قام باحثان يستنكران هذا الافتراض، هما روبرت ستيل،

والثاني الاب دي فو[1] فقال ان مشكلة المصدر الذي استقى منه البرتس هذه المعلومات يجب ان تترك للاجيال المقبلة من الباحثين في الشؤون العربية. وقال ايضا: ان من العسير جدا تفسير ما يقوله البرتس الكبير عن كتاب الخير المحض وطالما لم تفحص قيمة معلومات البرتس في هذا الصدد بردها الى المصدر الذي استقاها منه فيكون من المجازفة ان نستنتج من كلامه شيئا واضحا او حجة.

جاء بعدهم الاب الونسه الونسه الاسباني فنشر اربعة ابحاث في هذا الموضوع في مجلة «الاندلس» التي كانت تصدر بمدريد.

لقد درسنا رأي الاب الونسه الونسه فلا حاجة الى التكرار.

ويقول الدكتور بدوي: لنبحث عن المشكلة من اساسها:

ونسأل اولاً: هل الاصطلاح «الخير المحض» ممّا جرى على اقلام الفلاسفة المسلمين قبل القرن السادس الهجري؟

الجواب بالايجاب اذ نجد ابن سينا في الهيات «الشفاء» يذكر الله بهذا النعت قال: «فصل في كيفية صدور الافعال من المبادىء العالية ليعلم من ذلك ما يجب ان يُعْلَم من الحركات المفارقة المعقولة وانها بذاتها المعشوقة». ولنحقق هذا البيان ولنفتح آخر فنقول: «ان قوما لما سمعوا قول فاضل المتقدمين (اسكندر الافروديسي) اذ يقول ان الاختلاف في هذه الحركات وجهاتها يشبه ان يكون للعناية بالامور الكائنة الفاسدة التي تحت القمر... فقالوا ان نفس الحركة ليست لاجل ما تحت القمر ولكن للتشبه بالخير المحض والشوق اليه».

اذاً العبارة «الخير المحض» للدلالة على الله الواحد الاول كانت مألوفة في الفلسفة الاسلامية في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس الهجري.

ونسأل ثانيا: هل ذكرت المصادر العربية لبرقلس كتابا في الخير؟

— نعم ذكر ابن النديم في الفهرست نشرة فلوجل صفحة ٢٥٢ من بين اسماء مؤلفات برقلس «كتاب الخير الاول» وابن النديم ألّف كتاب الفهرست سنة ٩٨٧/٣٧٧ فهل هذا هو نفس «كتاب الخير المحض» ومن اين هذا العنوان واختلافه؟

(١) Manuel Alonso Alonso: Las fuentes literarias del «Liber de Causis» en Al-Andalus Vol. 10 fasc. 2, p. 377.

اذا تأملنا في الباب ١٩ من «الخير المحض» نجده يذكر العبارة «الخير الاول مرتين» في سطرين متواليين: «اما الخير الاول فانه يفيض بالخيرات على الاشياء كلها فيضا واحدا الا ان كل واحد من الاشياء يقبل من ذلك الفيضان على نحو كونه وانيته. والخير الاول انمّا صار يفيض الخيرات على الاشياء كلها بنوع واحد»...

فلمّا وقع هذا الكتاب عند اللاتين فسمي باسم «الخير المحض» كما سمي باسم «في العلل» لانه بحث في العلل، كذلك نظن انه وقع له في العالم الاسلامي، فكان يسمى اولا «الخير الاول» ثم سمي باسم «الايضاح في الخير المحض» «De expositione bonitatis purae»

واذا نظرنا في المصادر العربية التي ذكرته نجد:

١ – ان عبد اللطيف البغدادي في كتابه «ما بعد الطبيعة» ذكره ونقل عنه يقول عنه: «ايضاح الخير» وينسبه الى الحكيم ارسطوطاليس.

٢ – ابن ابي اصيبعة يذكره بعنوان «ايضاح الخير المحض»، ويعده من كتب ارسطوطاليس[١].

٣ – ابن سبعين ولد سنة ٦١٣/١٢١٦ – ٦٦٨/١٢٧١ يذكره مرتين في كتاب «المسائل الصقلية» بعنوان الخير المحض وينسبه الى ارسطوطاليس[٢].

فماذا نريد ان نستنتج من هذا؟

١ – ان كتاب الخير المحض هو بعينه كتاب «الخير الاول» الذي ذكره ابن النديم في الفهرست.

٢ – ان الاسم الاول لهذا الكتاب هو «الخير الاول» ثم اصبح فيمَا بعد الخير المحض وكلا اللفظين موجود في صلب الكتاب نفسه كما ذكرنا من قبل.

٣ – وهنا يأتي سؤال ثالث: هل ترجم هذا الكتاب «الخير الاول» الى العربية؟ مسألة تناولها لا بالنسبة الى هذا الكتاب بل بالنسبة الى عناصر الثاولوجيا لبرقلس.

اولا: «بردنهوير «BARDENHEWER» قال: لا يوجد حسب علمي اسانيد خارجية يمكن الاعتماد عليها ان تؤكد بيقين كاف وجود ترجمة عربية لعناصر الثاولوجيا وفي

١ – ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء – الجزء الاول دار الثقافة – بيروت صفحة ١٠٥

٢ – الكلام عن المسائل الصقلية لإبن سبعين نشرة محمد شرف الدين بالتقايا المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٤١.

مقابل هذا يبدو لي ان من الممكن استنتاج وجود مثل هذه الترجمة من كتابنا هذه «الخير المحض» دون ان يكون في هذا الاستنتاج خطر تسرع في الحكم.

وثانيا: تناولها الأب الونسه اليسوعي فقال ان من التسرع جدا تأكيد وجود ترجمة عربية لكتاب «عناصر الثاولـجيا» بيد اني لا اتعجل وانكر امكان وجود مثل هذه الترجمة ومع ذلك فقد عاد مباشرة فاستخلص نتائجه على اساس عدم امكان وجود ترجمة عربية وهو يرمي من هذا الى القول بانه ما دام لم يترجم الى العربية وهو الاساس الوحيد الجدي لكتاب «الخير المحض» فليس في وسع فيلسوف اسلامي لا يعرف اليونانية مثل الفارابي وسائر فلاسفة الاسلام ان يضع كتاب الخير المحض.

ولو كان الاب الونسه منطقيا مع نفسه هنا لقال ايضا: وليس في وسع ابن داود الذي زعم انه واضع كتاب الخير المحض، ان يضعه هو الآخر لان ابن داود لم يكن يعرف اليونانية والا لما ترجم الآثار اليونانية من العربية الى اللاتينية بل كان يترجمها من اصلها مباشرة. ولمّا احس الاب الونسه ان هذه النتيجة تلزمه فتقضي على كل محاولة له قال: ولا يمكن لمن عاش في طليطلة في منتصف القرن الثاني عشر الا يكون له صلة بهرمان الدلماسي الذي كان يعرف اليونانية. وهذا قول لا يقدم ولا يؤخر. فهل هناك دليل على ان هرمن هذا ترجم كتاب «عناصر الثاولوجيا» لبرقلس من اليونانية الى اللاتينية طبعا؟ لا يوجد دليل بل لا يمكن ان يوجد والا حلت المشكلة منذ البداية وعرف الناس ان كتاب الخير المحض مستخلص من عناصر «الثاولوجيا لبرقلس». اذا فحجج الاب الونسه الونسه هنا اوهى من خيط العنكبوت، والحق انه في خلال ابحاثه الاربعة هذه يسرف في التأكيدات المجانية.

ان مجرد صمت ابن النديم عن ذكر ترجمته لكتاب من الكتب اليونانية لا ينهض دليلا ولا شبه دليل على انه لم يترجم.

ونعتقد ان اخطر حجة تستخدم في البحث التاريخي هي حجة الصمت ولذا نرى استبعادها قدر المستطاع خصوصا وان الاكتشافات تتوالى كل يوم وتدلنا على ان حجة الصمت لا قيمة لها.

ولذا ايضا لا نرى قيمة لاحتجاج الاب الونسه بصمت ابن رشد على ذكر كتاب الخير المحض للتدليل على ان ابن رشد كان يجهل نسبة هذا الكتاب الى ارسطو فابن رشد لم يذكر «اثولوجيا ارسطاطاليس»، ونفسر صمت ابن رشد عن ذكره لانه ادرك بنافذ معرفته لمذهب ارسطو ان الكتاب منحول عليه فاغفل ذكره.

على انه سواء لدينا اترجم كتاب «عناصر الاثولوجيا» لبرقلس ام لم يترجم الى العربية فان هذا الامر لا يؤثر فيمَا ذهبنا اليه من ان كتاب «الخير المحض» هو كتاب «الخير الاول» الذي ذكره ابن النديم.

والفارابي وابن سينار تأثرا بكتاب «الخير المحض» او «الخير الاول» وكذلك نرى اثره في ابي البركات البغدادي المتوفي سنة ١١٥٣م.

مسألة اخرى تعرض هنا: ما هي اقدم المصادر العربية التي ذكرته ونقلت عنه؟

– عبد اللطيف البغدادي ويعرف بابن اللباد ولد في بغداد سنة ٥٥٧ درس الفقه والحديث وانتقل الى كتب الغزالي.

وهنا نضع السؤال الحاسم التالي: من اين عرف عبد اللطيف البغدادي كتاب الخير المحض ونقل عنه معظم ما فيه بحروفه؟

نسب البغدادي الكتاب الى «الحكيم» ويقصد به قطعا ارسطوطاليس كما يظهر من سائر كتبه. والبغدادي لم يرحل الى الاندلس فلا يمكن ان يكون عرف الكتاب هناك.

مارس ابن داود الترجمة مع تلميذه الارشدياقن دومنقه غندسلبه في الفترة ما بين ١١٤٠ و١١٦٠ في طليطلة وترجما المؤلفات الفلسفية من العربية الى اللاتينية.

فتأليفه المزعوم يجب ان يكون قبل تنصره اذ بعد اعتناق الديانة المسيحية درس اللاتينية وصار يكتب بها ويترجم اليها فمَا كان ان يكتب بالعربية.

وهنا نتساءل: لماذا لم يترجمه هو نفسه الى اللاتينية اذ ان الترجمة فيمَا نعلم هي من عمل جيرارده الكريموني المتوفي سنة ١١٨٧.

ثم هل كان ابن داود يتقن العربية على هذا النحو الرائع الذي نجده في كتاب «الخير المحض» فان اسلوبه اجمل من اسلوب الفارابي وابن سينا ويذكرنا باسلوب حنين بن اسحق وابنه اسحق.

لهذا نرى ان الحجج كلها تعارض ما افترضه الاب الونسه من ان كتاب «الخير المحض» من وضع هذا المجهول المدعو ابن داود او يوحنا الاسباني.

ونلخص رأينا النهائي فنقول:

ان الخبر الذي اورده القديس البرتوس الكبير بشأن مؤلف كتاب الخير المحض، هو زائف وقد عدل عنه مؤخرا.

ومن التعسف ان يعتمد الباحث على ما ورد في مخطوط واحد (مخطوط اكسفورد) على غموضه واضطرابه ويدع سائر المخطوطات التي تذكر اسم الفارابي بدل ابن داود، فلو كان لنا ان نأخذ بمَا في خاتمات المخطوطات اللاتينية لكان علينا ان نقول بانه الفارابي ولكننا نرى ايضا ان الفارابي ليس هو واضع كتاب «الخير المحض».

... ان ذكر عبد اللطيف البغدادي، وان عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر واوائل الثالث عشر اي بعد الزمن الذي افترض فيه الاب الونسه ان ابن داود المزعوم قد الف كتاب «الخير المحض» مع عدم سفره الى الاندلس وصعوبة انتقال المؤلفات من دار الحرب الى دار الاسلام في الاندلس وبالاحرى الى المشرق ان لم يكن استحالة الامر، هو عندنا دليل حاسم على ان الكتاب لم يوضع في اسبانية. وبالاحرى والاولى لم يضعه يهودي عاش في دار الحرب واصبح بعد اعتناقه الكثلكة رئيس اساقفة طليطلة. وكان نشاطه منصبا على الترجمة من العربية الى اللاتينية بنفسه او مشرفا على غيره فكل هذا كلام لا ينهض على قدميه بل افتراضات وهمية صنعت صنعا لحاجة في نفس من صنعوها ولا يقبلها باحث جدي ابدا.

وبعد البغدادي نجد ان ابن ابي اصيبعة يذكره منسوباً الى ارسطو وابن ابي اصيبعة توفي سنة ١٢٧٠ وكان على صلة ومراسلات مع عبد اللطيف البغدادي وان لم يجتمع به فيمَا يظهر من كلامه.

ثم ابن سبعين المرسي الاشبيلي المتوفي سنة ١٢٧١ الذي ذكره مرتين في كتاب «المسائل الصقلية» ثم نقل عنه نصوصا كثيرة في هذا الكتاب وفي كتاب «بد العارف» استخلص منه الاب لاتور حوالي ١٥ موضعا.

واخيرا نرى نحن (عبد الرحمن البدوي) ان كتاب «الخير المحض» هو كتاب «الخير الاول» الذي ذكره ابن النديم في الفهرست. وتبعا لهذا نرى ان الكتاب قد ترجم او صنف قبل سنة ٩٨٧ وهي السنة التي وضع فيها ابن النديم كتابه الفهرست.

وتبعا لهذا نظن ان الذي استخلص هذا الكتاب من عناصر «الثاولوجيا» لبرقلس هو احد تلاميذه او احد رجال الافلاطونية المحدثة المتأخرين ونسبه الى برقلس نفسه.

بقيت مشكلة اخرى دون حل وهي: من الذي ترجمه الى العربية؟ ويغلب على ظننا انه لا بد ان يكون احد كبار المترجمين المتمكنين من اللغة العربية ونرجح هنا بين اسحق بن حنين وبين ابي علي عيسى بن زرعة اذ اسلوبه اقرب الى اسلوب كليهما.

اما نسبته الى الفارابي فنستبعدها كما استبعدنا ابن داود المزعوم[1].

وبعد ان قرأنا هذه الآراء المتضاربة نسمع رأيا جديدا يتعلق بكتاب «الثاولوجيا» «اللاهوت» المنسوب الى ارسطو، وقد تبين من جميع هذه الآراء انه ليس لارسطو.

امامي ترجمة لهذا الكتاب اسبانية وضعها الاب «لوسيانه روبيه». «LUCIANO RUBIO» وقد ترجمه عن النص العربي ووضع له مقدمة لا نرى مانعا من تعريب القسم الاكبر منها لنرى رأيه في كل ما جاء عن هذا الكتاب وهو الرأي الاصح وبه تكون قد انتهت قضية كتاب «اللاهوت» لارسطو وحلت هذه المشكلة التي طالمّا شغلت عقول الباحثين طيلة اجيال.

يقول الاب روبيو: «نقدم باللغة الاسبانية كتابا فلسفيا له قيمة محدودة بذاته، غير انه لعب دورا هاما جدا في فلسفة القرون الوسطى الاسلامية واليهودية والنصرانية وفتح الطريق امام مناقشات لا حد لها منذ عام ١٨٥٧ حتى ايامنا هذه».

المقصود به كتاب «اثولوجيا» «لاهوت ارسطوطاليس» ولكن لا بد من الاسراع في القول ان هذا الكتاب ليس من تأليف ارسطو ولا يتبع الاسلوب الارسطوطاليسي بل انه من الافلاطونية المحدثة. كثيرا ما تذكره كتب التاريخ في الفلسفة انه مقتطفات من التواسيع الرابعة والخامسة والسادسة لافلوطين. وهذا التأكيد الذي ينطوي على أساس من الصحة يحتاج الى بعض التوضيح.

فلاهوت ارسطو الذي كتب بالاصل باللغة اليونانية وصل الى ايدينا مكتوبا باللغة العربية وفي نصين مختلفين سميا النص الاول، والنص الثاني. فالنص الثاني الذي انتشر في اوروبة يتمثل بترجمة لاتينية طبعت في رومة عام ١٥١٩ وببعض المخطوطات العربية المكتوبة باحرف عبرية من مجموعة «فيركوفيتش».

واصل الترجمة اللاتينية يرجع الى انه في عام ١٥١٦ زار فرنسيسكو روسي الرافيني مكتبة دمشق الشهيرة وعثر فيها على مخطوط عربي من «لاهوت ارسطو» وترجمه الى الايطالية بواسطة طبيب يهودي قبرصي اسمه «موشى روفاس او اروفاس»، فهذا ترجم النص من العربية الى الايطالية ووضع ترجمة اخرى من العربية الى العبرية. وعلى اساس هذه الترجمة الايطالية اخرج «بدره نيقولاس كاستلياني» «Pedro Nicolas Castellani» ترجمة لاتينية فاسدة. ولذلك ونظرا للاهمية التي ارتداها هذا الكتاب وضع «جاك شاربنتيه» «Jacobus

---

١ – عبد الرحمن بدوى: الافلاطونية المحدثة عند العرب، الكويت ١٩٧٧ ص ١ – ٣٠.

«Carpentarius ترجمة لاتينية اصح من الترجمة الاولى وقد طبعت هذه الترجمة الثانية في باريس عام ١٥٧١ تحت عنوان :

«Libri quatuardecim qui Aristotelis esse dicitur, De secretiore parte sapientiae secundum Aegyptios».

وبصرف النظر عن ان شاربنتيه نقّح النص اللاتيني السابق فقد وضع حواشي وتوضيحات وملاحظات اما الباقي فقد حرص على ان يتبع النص الذي وضعه «بدره نقولاس كاستلياني» ، وقد اعيد طبع هذه الترجمة الجديدة مرارا عديدة.

اما النص العربي الاول فقد طبع في ليبزيغ عام ١٨٨٢ الدكتور دياتريشي تحت عنوان : «Die sogenante Theologie des Aristoteles» وفي عام ١٩٥٥ نشر في القاهرة عبد الرحمن بدوي : افلوطين عند العرب وهو يضم كل ما ترجم الى العربية من تاسوعيات افلوطين والترجمة الاسبانية التي نحن بصددها اخذناها عن النص العربي الذي اقره عبد الرحمن بدوي.

الفرق بين النصين :

نرى من المناسب ذكر الفوارق التي تميز بها النصان العربي واللاتيني وهذا ما يسهل لنا فهم الكثير من المشاكل التي اثيرت حول هذا الكتاب.

النص الاول : مشكل من عشرة ميامر بينما النص الثاني مؤلف من اربعة عشر فصلا.

اختلاف آخر بسيط على اسم المؤلف فالمخطوطات العربية تقول كتاب ارسطوطاليس الفيلسوف ، المسمى باليونانية «ثاؤلوجيا» اي اللاهوت شرح مطول لفرفوريوس الصوري ونقله الى العربية عبد المسيح بن عبدالله ابن ناعمة الحمصي واصلحه ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي لاحمد بن المعتصم بالله.

اما العنوان باللاتيني كما رأينا سابقا فهو كما يلي :

«Aristotelis Theologia seu philosophia mystica».

والمترجم هو Sarracenum Abenaman

وهذا يمكن مطابقته بسهولة مع ابن ناعمة.

لاهوت ارسطو والتواسيع :

هل ان لاهوت ارسطو هو ترجمة عربية عن التاسوعات الثلاث الاخيرة من افلوطين كما قال احد المؤرخين او على الاقل مستخلصة منها كما يقول الآخرون؟ ليس كتاب لاهوت ارسطو ترجمة عن التواسيع الرابعة والخامسة والسادسة من مجرد المقابلة. هل هي مستخلصة؟ ان مجرد مقابلة بين نص اللاهوت والتاسوعات الثلاث الاخيرة يبين انها ليست ملخص لها، فاللاهوت لا يضم جميع ما في هذه التواسيع الثلاث، فان مواضيع كثيرة فيها غير مذكورة في كتاب ارسطو. ولكن القسم الاكبر من هذا الكتاب يوجد له مقابل في التواسيع. والمعروف ان افلوطين املى هذه التواسيع بدون نظام او تنظيم، ويعرف على وجه التقريب من حياة افلوطين التي كتبها فورفوريوس التنظيم الزمني الذي وضعت فيه تلك التاسوعات. وفرفوريوس عندما طبع تأليف معلمه لم يتبع التنظيم الزمني بل نظاما اعده بنفسه.

سؤال آخر يطرح : من هو مؤلف هذه المختارات من افلوطين، وهذا التفسير المطول واضافة بعض المقاطع التي لا مقابل لها عند افلوطين؟

لقد اعطيت اجابات كثيرة على هذا السؤال ولكن ليس من اجابة واحدة يرضى عنها وما زلنا لا نملك معلومات اوسع واضمن نرى من الموافق ان ننتظر او ان نستعين بالمعلومات الواردة في المخطوطات العربية الاولى فبعد ان نسب الكتاب خطأ الى ارسطو جاء تفسير فرفوريوس الصوري وقد نقله الى العربية عبد المسيح بن ناعمة وصلحه ابو يعقوب بن اسحق الكندي.

ولقد رأينا سابقا ان الفقرات في الهيات ارسطو مأخوذة من التاسوعات الثلاث الاخيرة وليست ترجمة حرفية عنها بل شروح، الامر الذي يحدو بنا الى الاعتقاد ان المؤلف المباشر للاهوت ارسطو هو فورفوريوس تلميذ افلوطين وجامع التاسوعات والمترجم من اليوناني ما كتبه فرفوريوس هو عبد المسيح بن ناعمة، مسيحي يعقوبي وله ترجمات اخرى من اليونانية والسريانية الى العربية. وهذه الترجمة العربية كما تقول المقدمة اللاتينية قد صححت والمصحح هو الفيلسوف المعروف الكندي، واذا كان اصلحها فلا شك انه ادخل عليها تعديلات قد تكون سببت في خلق نص جديد. وهكذا يكون عندنا نصان : النص الاول الذي وضعه ابن ناعمة من اليوناني الى العربي والنص الآخر الذي صححه الكندي.

ونسبة هذا الكتاب الى ارسطو راجعة الى خطأ بسيط، فقد يعتقد البعض ان هذا الخطأ

عائد الى كون هذا الكتاب قد ارفق بمؤلفات ارسطو ، ولكن التفسير الاصح والاقرب الى الصواب وهو ان افلوطين لم يسمع العرب باسمه بل اطلقوا عليه لقب « الشيخ اليوناني » . ونظرا للشهرة التي ينعم بها ارسطو عند العرب اعتبارا من القرن التاسع ، فلا عجب ان بعضهم لمّا رأى اسم « الشيخ اليوناني » ظنه ارسطو وهكذا حل ارسطو نهائيا محل افلوطين.

ومن مجرد ان ارسطو ظهر بهذا المظهر تجاه المفكرين العرب ظنوا انه اعتنق في آخر ايامه مذهب افلوطين وهكذا وصل الى الغرب بوجهه الافلاطوني عندما نقلت كتب ابن سينا الى اللغة اللاتينية.

ولكن النقاش حول هذا الكتاب اخذ يظهر في القرن التاسع عشر لمّا نشر في عام ١٨٥٧ « مونك » «MUNK» كتابه الشهير «Miscelanea» « منتخبات من الفلسفة اليهودية والعربية » وقد استهل كتابه بمختصر باللغة العبرية لكتاب « ينبوع الحياة » لابن جبرول لكي يبرهن ان فلسفة ابن جبرول مستقاة من مدرسة الاسكندرية ، ففحص كتاب اللاهوت لارسطو في نصه العربي واعطى رأيه بشأن الكتاب عندما اكتشف انه يحتوي على فصول كثيرة من التاسوعات . وقد يكون ابن ناعمة ترجم الكتاب عن السريانية وليس عن اليونانية . ومن الغريب ان مونك الذي فحص الترجمة اللاتينية ولم يلحظ ما جاء في المقدمة للكتاب التاسع والتي تقول انه لم يتمكن من ترجمة الفصل الاول لان المخطوط اليوناني متآكل فقد افسده العث.

وفي عام ١٨٦٢ نشر « هنبرغ » «HANEBERG» « دراسته حول كتاب اللاهوت » فقال ليس فقط يختلف النص اللاتيني عن النص العربي بل لقد حور الاصل وفي بعض الحالات يعتبر التحوير جوهريا.

وفي عام ١٨٨٢ جاء دياتريشي «Dieterici» ونشر النص العربي وفي السنة التالية اي ١٨٨٣ نشر الترجمة الالمانية.

وفي السنة ذاتها اي ١٨٨٣ درس الكتاب « فلنتين روز » «Valentin Rose» ونعته بانه شرح للتاسوعات الرابعة والخامسة والسادسة لافلوطين ، وبها ظهر تأثير افلوطين في القرون الوسطى . وقد رفض ان يكون هناك نصان بل اعتبر النص اللاتيني تحريفا للنص العربي لجعله مطابقا والتعليم المدرسي.

وفي عامي ١٨٩٣ و١٨٩٧ جاء « شتانشنيدر » والتقط المعلومات الواردة عند « مونك »

و«هنبرغ» واعتبر ان الترجمة اللاتينية مأخوذة عن النص العربي الاصلي مع تحريف ظاهر.

وفي اوائل القرن العشرين جاء من يقول انه بالفعل يوجد نصان مختلفان للاهوت ارسطو والفضل راجع لـ«بريسوف» «Borrisov» على اساس اكتشاف ثلاثة مخطوطات عربية مكتوبة بالاحرف العبرية وموجودة في مجموعة «فركوفيتش» «Firkowitsch» بمكتبة لنينغراد (١).

وعلى هذا النحو انتهت قصة كتاب «الاثولوجيا» اللاهوت المنسوب لارسطو وكما رأينا فان عبد الرحمن بدوي كان اقربهم الى الصواب وقد احسن في تعليقه ولم يخطئ الا في ذكر اسم المترجم.

وقد نقل كتاب «اللاهوت» المنسوب الى ارسطو الى الاسبانية الاب «لوسيانه روبيو» من جمعية رهبان الاغسطينيين المشرفين على دير الاسكوريال والمكتبة.

وقد جاء في الميمر الاول ما يلي:

En el nombre de Dios, el clemente, el Misericordioso, Gloria a Dios, dueño de los mundos y bendición a Mahoma y a su familia.

TRATADO PRIMERO

Del libro de Aristoteles, el Filosofo, llamado en griego «THEOLOGIA» que es la doctrina sobre la Divinidad, parafrasis de Porfirio de Tiro, que trasladó al arabe Abd al-Masih ben Abd Allah ben Naʿima de Emesa, y corrigió Abu Yusuf Yaʿcub ben Ishaq al-Kindi, Dios haya tenido misericordia de él, para Ahmad ben al-Mutasim bil-Lah.

الترجمة: باسم الله الرحمن الرحيم المجد لله رب العالمين والبركة على محمد وآله.

الميمر الاول:

من كتاب ارسطوطاليس الفيلسوف، المسمّى باليونانية «ثاولوجيا» اي كتاب اللاهوت، شرح مطول فورفوريوس الصوري، وقد نقله الى العربية عبد المسيح بن عبدالله بن ناعمة الحمصي، وصلحه ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي رحمه الله، لاحمد بن المعتصم بالله.

(١) Pseudo-Aristoteles «TEOLOGIA» Ediciones Paulinas. Traducción del arabe, introducción y notas: Luciano Rubio, O.S.A. 1978.

الفصل الحادي عشر

الكيمياء في الشرق

كان قدماء المصريين يسمّون بلادهم «كمت» وهي كلمة مشتقة من الفعل «كم» بمعنى «اسود لونه» اما التاء المتصلة بها للتأنيث، وكمت في لغة المصريين معناها الارض السوداء وفيها اشارة الى ان تربة وطنهم سوداء خصبة [1].

وقد حرف اليونانيون هذه الكلمة فجعلوها «كيمياء» وفي عهد البطالسة استعمل اغريق الاسكندرية هذه الكلمة للدلالة على الصناعة.

طبق المصريون الكيمياء في صناعة وتحضير الاصباغ وتجهيز النبيذ والعقاقير واستخلاص الفلزات من خاماتها وتدبير البرونز بسبك النحاس مع القصدير، وتقليد الاحجار الكريمة.

نشأت اول مدرسة للكيمياء بمصر على عهد بطليموس الاول ٣٢٣ – ٢٨٥ ق. م. علم اللاهوت كان في الطابق العلوي اما الكيمياء ففي الطابق السفلي لان المشتغلين بها كانوا في نظر جمهور العلماء قوما ماديين لا يسعون الا وراء جمع الثروة.

ويقول ابن النديم: «زعم اهل صناعة الكيمياء وهي صناعة الذهب والفضة من غير معادنها ان اول من تكلم على علم الصناعة هرمس الحكيم البابلي المنتقل الى مصر عند افتراق الناس عن بابل وانه ملك مصر. وكان حكيما فيلسوفا وان الصنعة صحت له، وله في ذلك عدة كتب وانه نظر في خواص الاشياء وروحانياتها وصح له ببحثه ونظره علم صناعة الكيمياء ووقف على عمل الطلسمات وله في ذلك كتب كثيرة.

وقد قيل ان ذلك قبل هرمس بالوف السنين على مذهب اصحاب القدم.

---

١ – محمد فياض: سلسلة: اقرأ دار المعارف بمصر وقد استعنت بهذا الكتيب لكتابة هذا الفصل عن الكيمياء وتاريخها في المشرق العربي.

وقال الرازي انه لا يجوز ان يصح علم الفلسفة ولا يسمّى الانسان العالم فيلسوفا الا ان يصح له علم صناعة الكيمياء فيستغني بذلك عن جميع الناس ويكون جميعهم محتاجا اليه في علمه وحاله.

حكاية في الهرمين:

يقول ابن النديم في الفهرست صفحة ٤٩٥ : قرأت في كتاب وقع لي يحتوي على قطعة من اخبار الارض وعجائب ما عليها من الابنية والممالك واجناس الامم. اخبرني ابن محمد الاشموني ان بعض ولاة مصر احب ان يعلم ما على قلة احد الهرمين واشرأبت نفسه الى ذلك فتوصل اليه بكل حيلة حتى وقع اليه رجل من اهل الهند فبذل له الصعود الى رأسها. قال وانمّا يعجز الانسان من الصعود لمَا يلحقه عند ترقيته وتسلقه من هيجان المدار والجزع عند نظره الى ما بين يديه. قال : وهذه البنية طولها بالذراع الهاشمية اربعمائة ذراع وثمانون ذراعا على مساحة اربعمائة وثمانين ذراعا في اربعين ذراعا ، هذا بالهندسة فاما الرجل الذي صعد فذكر عند نزوله انه رأى القلة فكانت مقدار مبرك عشرين بختيا من الجمال ، قال وكان على وسط هذا السطح قبة لطيفة في وسطها شبه قبر وعند رأس ذلك القبر صخرتان في نهاية النظافة في الحسن وعلى كل واحدة منها شخص من حجارة صورة ذكر وانثى وقد تقابلا بوجهيهما بيد الذكر لوحة فيها كتابة وبيد الانثى مرآة وآلة من ذهب تشبه المنقاش وبين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب ، قال فاجتهدت في قلعه حتى قلعته فريات فيها شبيه بالقار بغير رائحته قد يبس. قال فادخلت يدي فيه فوقع فيه حقة ذهب فنزعت رأسها فاذا فيها دم عبيط ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم والى ان تمكنت من النزول جف. قال : وعلى القبر اغطية حجارة لم ازل احرص حتى قلعت عنه الغطاء فاذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة والجفاف بين الخلقة ظاهر الشعر والى جانبه امرأة على هيئته ، قال : وذلك السطح مقعر نحو قامة وكما يدور مثل المسمار ذات ازاج من حجارة فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة.

والاغريق في الاسكندرية نحوا بالكيمياء ناحية هوت بمكانتها الى الحضيض لانهم كرسوا جهودهم لاتقان عمليات التزييف والتقليد وجعلوا غرضهم الاسمى تحويل المعادن الدنيئة الى الذهب او الفضة ، وقد ساعد على ذلك معرفتهم ان النحاس يتغير بتأثير بعض المواد الكيمائية وانه يكتسب لون الفضة ومظهرها بفعل الزرنيخ ، وقد اوهموا الناس انهم حوّلوا المعادن الدنيئة الى ذهب صرف. ووضعوا في ذلك مؤلفات غامضة مبهمة ولكنها نالت رواجا اصابوا بها ربحا

طائلا وربمَا كان هذا هو السبب الذي دفع ديوكليسيانوس الى حرق كتب الكيمياء في الاسكندرية.

وقد اعتقد علماء مصر منذ اقدم العصور ان العالم تكون من الماء والشمس والارض والهواء والسماء وضع «ديمقرطس ولوسيبوس» نظريتهما على هذا النحو وهي اقرب النظريات الى الحقيقة :

١ – المادة مخلخلة التركيب واجزاؤها ليست مفلززة متلاصقة.

٢ – تتكون المادة من ذرات غير قابلة للانقسام ولا للفناء.

٣ – ذرات المادة الواحدة تكون مفصولة بفضاء.

٤ – ذرات المواد المختلفة تختلف في الشكل والحجم والوزن وهي حركة مستمرة في خط مستقيم.

٥ – تختلف المواد في الخواص باختلاف طبيعة الذرات المكونة وعددها وترتيبها.

ولو كانت هذه النظرية قائمة على التجربة والمشاهدة لكان للاغريق فضل على الكيمياء خالد الاثر ولكنها لم تكن الا وليدة الخيال ولهذا كان نصيبها الاهمال الى ان بعثها من قبرها العلامة «دالتون» الانكليزي في اوائل القرن التاسع عشر واتخذها نواة لنظريته الشهيرة.

يقول ارسطو: تتركب المادة من اربعة عناصر تتكون منها جميع المواد وهي الماء والهواء والتراب والنار، وتوجد اربع خواص اولية يتصف كل عنصر باثنين منها هي : الرطوبة واليبوسة والسخونة والبرودة، فالنار ساخنة جافة والهواء ساخن رطب والماء بارد رطب والتراب بارد جاف وهناك مادة اولية : الهيولي تدخل في تركيب هذه العناصر وبفضلها يمكن تحويل بعضها الى بعض وليس لهذه المادة الاولى وجود مستقل ولكنها متى اتحدت بالهيئة اصبح لها وجود ذاتي وابسط نتائج هذا الاتحاد بين المادة الاولى والهيئة هي العناصر الاربعة.

اعتقد كيماويو العرب بصحة هذه النظرية، وانتقلت الى الغرب بواسطة العرب في الاندلس. وكان طبيعياً ان يستنبط من هذه النظرية امكان تحول المعادن الدنيئة الى الذهب والفضة لانها تقول بان العناصر يمكن ان يتحول بعضها الى بعض بفضل وجود المادة الاولى في كل منها. وقد اتجهت مباحث الكيمياء الى هذه الناحية فاصبح الغرض منها ماديا لا علميا واشتغل الناس بتدبير الذهب قرونا عديدة لا فرق في هذا بين عالم وعامل وطبيب وراهب. وغني عن البيان ان جهودهم قد ذهبت ادراج الرياح وان كانت النتائج التي توصلوا اليها في اثناء

بحوثهم التجريبية ذات اثر جليل في الكشف عن كثير من الظواهر الكيمائية ومعرفة طرق تحضير بعض المواد ودراسة خواص المادة والاملاح.

ولمّا فتح العرب مصر في القرن السابع الميلادي واستوطنوها سمعوا بعلم الكيمياء الذي ازدهر بالاسكندرية في عهد البطالسة الاول وعرفوا ان هناك كتبا اغريقية متداولة تبحث في هذا العلم وتصف طرق تحويل المعادن الرخيصة كالحديد والنحاس الى الذهب والفضة وتشرح الوسائل التي تجهز بها الادوية الكفيلة بشفاء الامراض واطالة العمر وغير ذلك ما كان شائعا عن مؤلفات الاغريق في هذا العهد. واهتم العرب بهذا العلم وارادوا ان يشتغلوا به. وكان هذا هو مبدأ اتصال العرب بالكيمياء.

ترجموا الكتب الى العربية مستعينين بفئة من الاغريق واقباط مصر الذين يعرفون اليونانية والعربية، وما كاد يحل القرن الثامن الميلادي حتى ظهر عدد كبير من كتب الكيمياء الاغريقية في ثوب عربي.

ولمّا انشأ العباسيون بغداد سنة ٧٦٦ ميلادية انتقل اليها مركز الثقافة العلمية في العالم المتمدن بفضل تعضيد خلفائهم للعلم والعلماء، ونشطت حركة الترجمة في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون فنقلت الى العربية كتب الاغريق في الكيمياء وغيرها من العلوم كالفلسفة والطب والحساب والمنطق والفلك. وكان عدد من هذه الكتب مترجم الى اللغة السريانية بواسطة النساطرة ثم نقلت الى العربية وما زالت بعض الترجمات السريانية في الكيمياء باقية الى الآن.

اول عربي اهتم بالكيمياء هو خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان وقد ولد سنة ٦٣٥ وتوفي سنة ٧٠٤ ميلادية وقد وصفه صاحب الفهرست كما يأتي:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم بني مروان. وكان فاضلا في نفسه ومحبا للعلوم، خطرت بباله الصنعة فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل بمدينة مصر وقد تفصح بالعربية وامرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي وهذا اول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة».

وقد كتب ابن خلكان في وفيات الاعيان عن خالد:

«كان من اعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما وله رسائل دلت على معرفته وبراعته واخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانوس الرومي»

وللامير خالد رسائل في الكيمياء منها :

١ – كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة.

٢ – الفردوس وهو ديوان شعر في الكيمياء.

وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة (ابن النديم) ورأيت من كتبه كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبير – كتاب الصحيفة الصغير.

وخالد بن يزيد بن معاوية كان خطيبا وشاعرا فصيحا حازما ذا رأي وهو اول من ترجم كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جوادا كما يقول محمد بن اسحق الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة.

وقيل لخالد يوما : فعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة. فقال له خالد : «ما اطلب بذاك الا ان اغني اصحابي واخواني. اني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني ، فلم اجد منها عوضا الا ان ابلغ آخر هذه الصناعة فلا احوج احدا عرفني يوما او عرفته الى ان يقف بباب السلطان رغبة او رهبة»...

ويقال والله اعلم ، انه صح له علم الصناعة ، وله في ذلك عدة كتب.

اسماء كتب الفهما الحكماء :

ورأيناها (ابن النديم) وعرفنا الثقة انه رآها وذكرها العلماء في هذه الصنعة في كتبهم :

– كتاب الاسكندر في الحجر.
– كتاب الكبريت الاحمر.
– كتاب صطفن.
– كتاب مارية الكبير.
– كتاب نوادر الفلاسفة في الصنعة.
– كتاب بلقيس ملكة مصر الذي اوله لما صعدت الجبل.
– كتاب سرخس الراس عيني الى قورى الاسقف الرهاوي.
– كتاب النصراني الذي يقول فيه ان الحكمة حكمة كاسمها.
– كتاب الاخوة السبعة الحكماء في الصنعة.
– كتاب كرمانوس بطرك رومية في الصنعة.

– كتاب سرخس الراهب في الصنعة. وغيرها كثير.

وثاني من اشتغل في الكيمياء من العرب الامام جعفر الصادق، ذكره وفيات الاعيان في عبارة ملخصها:

«هو ابو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب. كان من سادات اهل البيت ولقب بالصادق لصدقه، له كلام في الكيمياء وكان تلميذه ابو موسى جابر بن حيان الصوفي وكانت ولادته سنة ٨٠ للهجرة وتوفي سنة ١٤٨/٧٠٠ – ٧٦٦ ودفن بالبقيع وقد ألف كتبا تشتمل على الف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

ابن حيان:

في اواخر الدولة الاموية كان يعيش في الكوفة رجل يسمى «حيان» ويشتغل بها عقارا وهو من اصل عربي حميم لانه ينتسب لقبيلة «الازد» التي كانت منازلها متاخمة لليمن. ولمّا قامت الحركة العباسية ضد الامويين انضم اليها وتحمس لها واخذ ينتقل مع زوجته من بلد الى بلد لنشر الدعوة للعباسيين، ووصل الى طوس ببلاد العجم وهناك ولد له ولد وهو الذي نعرفه باسم ابي موسى جابر بن حيان. وكان ذلك سنة ٧٢٠ ميلادية على الارجح.

درس جابر علوم الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعي والفلسفة ونبغ فيها جميعا واعتنق مذهب الصوفية الذي نشره ابو هاشم الكوفي وتضلع فيه. له مؤلفات عديدة ما زال قسم كبير منها محفوظا، يمكن مراجعتها في كتابي «عروق الذهب»[1].

واظهر ما يلاحظ في مؤلفاته اعتماده على الناحية العملية وتقصيه الحقيقة عن طريق التجربة والمشاهدة الدقيقة وهو يوضح هذا المبدأ في كتاب الموازين قائلا ان كل نظرية تحتمل التصديق والتكذيب فلا يصح الاخذ بها الا مع الدليل القاطع.

وذكر في كتاب الخواص الكبير انه لم يشرح فيه الا ما رآه بعينه مهملا ما وصل اليه عن طريق السماع او القراءة.

جاء في كتاب «الرحمة الموجود مخطوط منه في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣/٢٦٠٥.

---

١ سيمون الحايك: «عروق الذهب في مناجم الروم والعرب». صفحة ١٣٣ – ١٤١.

حصل على حجر مغناطيس ورأى انه يحمل كتلة من الحديد زنتها مائة درهم ، ثم تركه مدة من الزمن واراد بعدها ان يختبره فعرض له قطعة اخرى من الحديد فلم يستطع حملها فظن انها تزن اكثر من مائة درهم ولكنه وزنها فوجد انها اقل من ٨٠ درهما فاستنبط من ذلك ان قوة المغنطيس تضعف بمرور الزمن .

كان جابر يعتقد بنظرية ارسطو في تكوين المادة من العناصر الاربعة الماء والهواء والتراب والنار ولكنه وضع نظرية جديدة في تكوين المعادن مؤسسة على نظرية ارسطو وقد نشرها في كتابه : المائة والاثني عشر والايضاح ويمكن اجمالها فيما يلي :

تتكون المعادن من عنصرين احدهما دخان ارضي والثاني بخار مائي وبتكاثف هذين العنصرين في جوف الارض ينتج الكبريت والزئبق ، وباتحاد هاتين المادتين تتكون المعادن والفرق بين المعدن واخيه راجع الى الفرق في النسبة التي يتحد بها الكبريت والزئبق . في الذهب يكون بينهما اتزان تام وفي الفضة يكونان متساويين في الوزن ، والنحاس يحتوي من العنصر الارضي على اكثر ما تحتوي الفضة اما الحديد والرصاص والقصدير ففيها اقل .

ولمّا كانت المعادن جميعها مركبة من هذين العنصرين فليس من المتعذر ان يحول بعضها الى بعض وبهذا يستطيع الكيمائي ان يتمم في وقت قصير ما تعمله الطبيعة في زمن طويل ، اذ يقال ان الطبيعة تستغرق عشرة آلاف سنة في تكوين الذهب .

ولم يقصد جابر بهذه النظرية ظاهر معناها لانه كان يعرف جيدا ان الزئبق المعتاد والكبريت المألوف اذا اتحدا نتج عنهما « الزنجفر » اي كبريت الزئبق وهذا ليس بمعدن ، فالكبريت والزئبق المشار اليهما في نظريته ليسا كبريت العوام ولا زئبقهم ولكنهما مادتان مثاليتان اقرب شبه لها الزئبق والكبريت الشائعان .

ولجابر في الاتحاد الكيمائي رأي ناضج وقد وضحه في كتاب المعرفة بالصفة الالهية والحكمة الفلسفية عند تفسيره لاتحاد الزئبق مع الكبريت :

ويظن البعض خطأ انه عندما يتحد الزئبق والكبريت تتكون مادة جديدة في كميتها ، والحقيقة ان هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتها وكل ما حدث لها انهما تجزأتا الى دقائق صغيرة وامتزجت هذه الدقائق بعضها ببعض ، فاصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينهما . وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب . ولو كان في قدرتنا الحصول على وسيلة نفرق بها بين دقائق النوعين لادركنا ان كلا منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة ولم يتأثر مطلقا .

وهذه الصورة التي تخيلها جابر لا تخرج عن النظرية المعروفة الآن وهي ان الاتحاد الكيمائي يكون عن طريق اتصال ذرات العناصر بعضها ببعض.

وكان جابر يفهم نظرية ارسطو بالصورة الآتية:

— ١ — المادة الاولى في الكون الهيولي لا تتخذ صورة مادة الا اذا اتحدت بهيئة ذاتية.

— ٢ — ابسط الهيئات الذاتية التي اذا اتحدت بالهيولي نتج عنها احد العناصر الاربعة وهي الماء والهواء والتراب والنار.

— ٣ — لكل من هذه العناصر صفتان يتميز بهما عن غيره، فالماء رطب بارد والهواء ساخن رطب والنار ساخنة جافة والتراب بارد جاف.

— ٤ — يمكن تحويل عنصرين احدهما الى الآخر اذا اشتركا معا في احدى خاصتيهما فالهواء والنار مثلا يشتركان في خاصة السخونة ولذلك اذا سخن الهواء يستحيل ناراً وبالمثل اذا برد الماء اصبح ترابا.

— ٥ — جميع المواد تتركب من العناصر الاربعة بنسب متباينة.

— ٦ — بتغيير الهيئة الذاتية للمادة يمكن تحويلها الى مادة اخرى. ويكون هذا التحويل على درجتين متواليتين:

في الاولى تتقدم الهيئة الذاتية الاصلية وفي الثانية تتخذ الهيولى هيئة اخرى.

والمعادن في نظر جابر افراد من نوع واحد، والذهب اكملها لان فيه اتزاناً تاماً بين الكبريت والزئبق. اما المعادن الاخرى فالاتزان فيها مختل بالزيادة او النقص. ويمكن ازالة الزيادة او اكمال النقص بتأثير الاكسير ولتحويل احد المعادن الى ذهب يلزم استخدام اكسيرين احدهما اكسير ابيض لتحويله اولاً الى فضة والثاني اكسير الحمرة لتحويل الفضة الى ذهب. والبحث في الطرق التي يتحقق بها الاتزان اكسب الكيمياء اسما آخر هو علم الميزان.

وكان جابر يعتقد انه تمكن من تدبير الذهب، ولم يحتفظ بالطريقة التي توصل بها الى هذا الغرض سراً دفيناً في قلبه ولكنه اذاعها وفصلها في كتاب الخواص بمقطوعة شعرية، وتوجد هذه المقطوعة في مخطوط عربي منسوب لجابر وهو محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٥/٢٦٢٥ وعنوانه: «خواص الاكسير الذهب في سبعة عشر بيتا». والطريقة هي هذه:

خذ جزءاً من قشر البيض المكلس وجزءاً من الشعر المقطوع الناعم النظيف وجزءا من ملح النشادر وامزجها جيدا واسحقها على حجر مستطيل حتى تصير كالطين ثم اذب المزيج في قارورة

الاذابة لتحصل على سائل احمر وخذ اوقية من الزنجفر ومثقالا من ورق الذهب واسحقها وند المسحوق السائل وضعه في قارورة التشميع بعد ان تسدها باحكام ثم سخنها بنار هادئة وعندما تشتد حرارتها ابعدها عن النار واتركها حتى تبرد ، ثم افتحها واسحق ما بها من المزيج ونده بالسائل وغطها ، ثم اعدها الى النار ، وكرر ذلك مرتين اخريين مراعيا الا تفتح القارورة وهي ساخنة حتى لا تتطاير الارواح (المواد المتطايرة) الملونة ثم خذ المشيج واسحقه واضف اليه قدر وزنه من الزئبق فيتشربه . بعد ذلك عرض الجسم الذي حصلت عليه للهواء ليلة كاملة فيصبح متجانس المظهر اصفر اللون . احتفظ بهذا الجسم فانك اذا اثرت بجزء منه على ٤٥ جزءا من الفضة استحالت ذهبا صرفا . والعمليات في هذه التجربة معقدة وليس من السهل تفسيرها وعلى الاخص لانه لم يذكر العامل الذي يذيب المواد الثلاث الاولى ولكن التفاعل ينتج عنه مملغم من الذهب والزئبق ممزوج بكبريتدات معدنية وشوائب اخرى واذا صهر مع الفضة تكونت سبيكة من الفضة والذهب ذات لون اصفر يتعذر التمييز بينها وبين الذهب . ولا شك انه اعتقد انه ذهب صرف.

بعض اعمال جابر:

كان جابر خبيراً بالعمليات الكيمائية الشائعة كالاذابة والتبلد والتقطير والتكليس والاختزال وغير ذلك . وكثيراً ما كان يصفها ويبين الغرض منها والتغييرات التي تحدث فيها ويشرح افضل الطرق لاجرائها وفقا لنتائج تجاربه .

يقول ان عملية التكليس ضرورية في الكيمياء وتكاد تكون مقصورة على المعادن لانها تبدأ بالتسخين الشديد الذي لا تقوى عليه الارواح (ملح النشادر) فتتطاير ، والغرض من التكليس ازالة الشوائب الممتزجة بالمعدن وحرقها فتتركه نقيا . والتسامي بالارواح هو بمنزلة التكليس للمعادن .

ولجابر بحوث في الكيمياء كثيرة :

١ – كشفه ان مركبات النحاس تكسب اللهب لونا ازرق .

٢ – استنباطه طرقاً صالحة لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن وصبغ الجلود والشعر .

٣ – توصله الى تحضير مداد مضيئ من المرقشيشا الذهبية «بريت الحديد» اوكبريتد النحاس . ليستخدم بدل الذهب الغالي في كتابة المخطوطات الثمينة .

٤ – تحضيره نوعا من الطلاء الذي يقي الثياب البلل و يمنع الحديد من الصداء.

٥ – توصله الى معرفة ان الشب يساعد على تثبيت الالوان في الصباغة.

٦ – بحثه في المواد المعدنية والنباتية والحيوانية الشائعة ومعرفة فوائدها في مداواة بعض الامراض.

٧ – تمكنه من صنع ورق غير قابل للاحتراق.

ومن الصفات التي امتاز بها جابر انه لم يترك نتائج بحوثه مشتتة غير مرتبطة اذ كانت له قدرة على التعميم المبني على الاستقصاء الدقيق، مثلا معالجته موضوع الارواح (الاجسام المتطايرة) في كتاب «اخراج ما في القوة الى الفعل» فقد قسمها الى ثلاثة انواع:

١ – طائر غير محترق ممازج كالزئبق.

٢ – طائر غير محترق ولا ممازج كالنوشادر والكافور.

٣ – طائر محترق ممازج كالكبريت والزرنيخ والدهن.

يقول جابر في كتابه الاحجار: «اعمد الى سبيكة ذهب احمر خالص نقي جيد يكون وزنها درهما وسبيكة فضة بيضاء خالصة يكون وزنها درهما، ثم ضع الذهب في احدى كفتي ميزان والفضة في الكفة الاخرى ثم دل الكفتين في ذلك الماء الذي صني دغله وقذره الى ان تغوصا فيه فانك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح الكفة التي فيها الفضة وذلك لصغر جرم الذهب وانتفاش الفضة وذلك لا يكون الا من اليبوسة التي فيه.

خلفاء جابر – الرازي:

هو ابو بكر محمد بن زكريا ولد سنة ٨٦٦ وتوفي سنة ٩٢٤ كان في شبابه يضرب بالعود ويغني ومالت نفسه الى الطب، ويقال ان هذا الميل نشأ عن حادثة وقعت له اذ كان يقوم بعمل احدى التجارب الكيمائية فاستنشق غازا سبب له مرضا شديدا وعالجه احد الاطباء حتى شفي وطلب اجرا قدره خمسمائة دينار عندئذ قال الرازي: «حقا هذه صناعة الذهب».

ويقال انه كان يتردد على صديق له يشتغل بالصيدلة. ولمّا بلغ الاربعين من عمره كان اشهر اطباء عصره وقد تولى ادارة مستشفى بغداد وهو الذي انتخب البقعة.

والمعروف انه كان شفيقا رفيقا بالفقراء رحيما سخيا. ألّف كتابا في الكيمياء سمي «المنصوري» نسبة الى صاحب خراسان ابو صالح منصور وقد اثبت فيه امكان تحويل المعادن

الرخيصة الى ذهب او فضة وقصد به المنصور وقدمه اليه فقرأه واعجب به واهداه الف دينار ثم قال له: اريد ان تخرج هذا الذي ذكرت في الكتاب الى الفعل. فقال الرازي:

«ان هذا ممّا تتمون له المؤن ويحتاج الى الآلات وعقاقير صحيحة والى احكام صنعة وفي ذلك كلفة.» فقال له المنصور: «كل ما احتجت اليه احضره لك كاملاً حتى تخرج ما ضمنته كتابك الى العمل.

فاحجم الرازي عن اجابة هذا الطلب وغضب المنصور وظن ان الرازي يخدعه وقال: ما اعتقدت بان حكيما يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيمَا لا يعود عليهم من ذلك منفعة. ولقد كافأناك على قصدك وتعبك بمَا صار اليك من الالف دينار ولا بدّ من معاقبتك على تخليد الكذب.

ثم حمل السوط على رأس الرازي وأمر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتمزق. ثم جهزه وسيره الى بغداد، فكان ذلك الضرب سببا في نزول الماء على عينيه واصابته بالعمى، وقد رفض ان تعمل له عملية جراحية قائلاً: «لقد رأيت الدنيا».

وعاش بعد ذلك سنتين.

وكان الرازي يعتقد بامكان تحويل المعادن الى ذهب متأثراً في ذلك بمذهب ابن حيان واراد الرازي ان يدافع عنها بادلة علمية فوضع كتاب المنصوري الذي جلب له الضرر والاذى.

ومن مآثر الرازي على الكيمياء قدرته على اجراء التجارب العملية وقوة ملاحظته واستنباطه السليم وهو اول من وضع تقسيماً للمواد الكيمائية وهي في نظره على ثلاثة انواع:

حيوانية ونباتية ومعدنية، وتنقسم المعادن الى ست طوائف: الارواح والاجساد والاحجار والزاجات والبوارق والاملاح.

والارواح مواد سهلة التطاير تتسامى او تتبخر بسهولة بتأثير الحرارة كالكبريت وملح النشادر والزئبق والزرنيخ (كبريتد الزرنيخ). والاجسام هي فلزات الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير والحديد والحارصيني (الحارصين). والاحجار هي الشب والطبشور والجص والزجاج والتوتيا (اكسيد الحارصين) والمرقشيش (بيريت الحديد) او (كبريتد النحاس) والكحل (كبريتد الانتيمون) والرصاص والزجاج.

والزاجات مواد تشبه الزجاج لها لون اخضر او ازرق او احمر او اصفر او ابيض، ومن

امثلتها الزجاج الاخضر (كبريتات الحديد والزجاج الازرق كبريتات النحاس)

والبوارق النطرون (كبريتات الصوديوم الطبيعية) ورماد العظام والتنكار (بورقكس) او البورق والاملاح هي ملح الطعام والملح المر والملح الحلو والقلى (كربونات البوتاسيوم) وملح الرماد (كربونات الصوديوم).

اما المواد الحيوانية المستعملة في الكيمياء فهي الشعر والجمجمة والعظام والمخ والدم والمرارة واللبن والصوف والقرون.

وعني الرازي بالاجهزة الشائعة الاستعمال في التجارب:

الفرن – المنفاخ – البوتقة الصغيرة والكبيرة – الملعقة – المقراض – الهاون – المرجل – الانبيق – القابلة – القرعة – اي المعوجة – الاثال – الاحواض الزجاجية – القوارير – الوجاق – الطابستان – العمياء.

والآثال آلة للتصعيد على شكل بوتقة لا قاع لها توضع فوق اناء يتضمن اعداد المراد تصعيدها وتسد فتحتها من اعلى بوعاء مستدير اجوف وتسخن المادة فيتصاعد بخارها ويتكثف على جدار السداد.

والطابستان وعاء من الفخار على شكل نصف كرة توضع فيه المواد المتفاعلة ويسخن بعد ان يغطى باناء به ماء بارد فيتكاثف على جداره الخارجي ما قد يتسامى من المواد المسخنة...

المجريطي:

هو ابو قاسم مسلمة بن احمد المجريطي، عاش بمدريد ايام الحكم المستنصر ٩٦١ – ٩٧٦ ومات سنة ١٠٠٧.

والشائع عنه انه رحل الى الشرق ودرس الفلسفة والرياضة والكيمياء وضرب فيها بسهم وافر ثم عاد الى الاندلس وواصل الدرس حتى اصبح اعلم زمانه في الفلك والرياضة (راجع كتابي عروق الذهب: المجريطي، ابو مسلمة).

وينسب اليه كتاب رتبة الحكيم في الكيمياء والمطلع على هذا الكتاب يدرك ان واضعه كان كيمائيا ممتازاً يعتمد على التجارب العملية والملاحظة الدقيقة والاستنباط الصحيح. وممّا ذكره في مقدمته ان لكل غرض سببا وان السبب الذي دعاه لوضع هذا الكتاب اعتقاده ان معاصريه يهيمون في الجهالة ويقرأون ما لا يفهمون وينشدون ما لا يفقهون وقد بلغ بهم الغرور حدا

توهموا معه انهم ادركوا نهاية العلم واصبحوا في غنى عن قراءة كتب المتقدمين من الحكماء وعن تفهم الفلسفة التي هي ضؤ الايمان. ولا يجوز لاي رجل ان يدعي العلم اذا لم يكن ملماً بالكيمياء. وطالب الكيمياء يجب ان تتوفر فيه شروط معينة لا ينجح بدونها اذ يلزمه اولاً ان يتثقف اولاً في الرياضة بقراءة اقليدس وفي الفلك بقراءة المجسطي لبطليموس وفي العلوم الطبيعية بقراءة ارسطو او ديمقرطس او ابولونيوس، وفي المنطق بقراءة ترجمة الكندي لارسطوطاليس.

ثم ينتقل الى كتب جابر بن حيان والرازي ليتفهمها. وبعد ان يكون قد اكتسب المبادىء الاساسية للعلوم الطبيعية يجب عليه ان يدرب يديه على اجراء التجارب وعينه على ملاحظة المواد الكيمائية وتفاعلاتها على التفكير بها. ولمّا كان سلوك الطبيعة واحدا لا يتغير لانها لا تعمل الشيء الواحد الا بطريق معينة وجب على الطالب ان يتبع خطواتها. فمَا هو الا خادم لها مثله مثل الطبيب يشخص الداء ويصف الدواء ولكن الطبيعة نفسها هي التي تقوم بالعمل.

وكتاب «رتبة الحكيم» لا يختلف في نظرياته عن كتب جابر والرازي ومؤلفه يقدر هذين العالمين تقديرا عظيما. وفي هذا الكتاب يظهر تطور الكيمياء في المائة والخمسين سنة التي مضت بعد جابر وعلى الاخص في الناحية العملية وفيمَا جمعه الكيماويون من معلومات.

وقد وصف المجريطي تجربة اجراها بنفسه كان لها اثر خالد في تاريخ العلوم وهي تتلخص فيما يلي:

«اخذت الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب ووضعته في قارورة زجاجية على شكل بيضة وادخلتها في وعاء يشبه اواني الطهي واشعلت تحته نارا هادئة بعد ان غطيته وتركته يسخن اربعين يوما وليلة مع مراعاة الا تزيد الحرارة عن الحد الذي استطيع معه ان اضع يدي على الوعاء الخارجي. وبعد ذلك لاحظت ان الزئبق الذي كان وزنه في الاصل ربع رطل صار جحيمه مسحوقا احمر ناعم الملمس وان وزنه لم يتغير.

وفي مثل هذه التجربة يلزم ان يزيد الوزن بقدر جزء من مائة من الرطل ولكن المجريطي لم يلحظ ذلك ولا شك ان السبب راجع الى ان جزءاً من الزئبق قد تبخر وكان نقص الوزن ناتج من ذلك معادلا للزيادة الناشئة من اتحاد باقي الزئبق بالاكسيجين وانه لمن الجحود ان تنسب امثال هذه التجارب لعلماء من الافرنج دون ان تشير الى البادئين بها العرب.

وللمجريطي علاقة بكتاب آخر يسمى «رسائل اخوان الصفاء» كانت له شهرة عالمية واثر

علمي جليل اذ يقال انه هو الذي حمله من الشرق الى الاندلس.

ولا يبعد ان يكون المجريطي قد اتصل بواضعي هذه الرسائل اثناء اقامته بالشرق واشترك معهم في وضعها وعلى الاخص الجزء الكيمائي منها وهو يصرح بهذا في كتابه «رتبة الحكيم» ويشير فيه الى فقرات كثيرة من رسائل اخوان الصفاء».

والجزء المخصص للكيمياء في هذه الرسائل مكتوب بلغة سهلة واضحة دقيقة ويشتمل على الموضوعات الآتية:

١ – نظرية تكوين الفلزات في الزئبق والكبريت.

٢ – وصف الفلزات والمواد الشائعة الاستعمال في العمليات الكيمائية.

٣ – تصنيف المواد المعروفة الى اقسام مختلفة.

٤ – مبدأ ارسطو في العناصر الاربعة.

وقد نالت رسائل اخوان الصفاء قسطا وافراً من عناية علماء الغرب. سندرس ذلك في حينه.

ابن سينا:

انقسم الباحثون في الكيميا الى فريقين: فريق يرى انه من الممكن تحويل معدن خسيس الى معدن كريم، والفريق الآخر ينكر امكان هذا التحويل. وقد رأينا ان الرازي ينتمي الى الفريق الاول... ما هو رأي ابن سينا في الامر؟

يقول ابن سينا: «ان اقسام الاجسام المعدنية اربعة: الاحجار والكباريت والاملاح والذائبات ويقسم الاجسام الى ما هو سخيف الجوهر ضعيف التركيب والمزاج، والى ما هو قوي الجوهر. وهذا منه ما ينطرق ومنه ما لا ينطرق. اما ضعيف الجوهر فمنه ما هو ملحي تحله الرطوبة بسهولة ومنه ما هو دهني لا ينحل بالرطوبة وحدها بسهولة.

بحث ابن سينا في الزئبق والكبريت وذهب الى ان اصحاب الحيل لا يبعد عندهم ان يحاولوا حيلا تصير بها احوال انعقادات الزئبق بالكبريت انعقادات محسوسة بالصناعة. ولكن هذه الاحوال الصناعية تكون مشابهة او مقاربة ولذلك يظن البعض امكان تحول المعادن من هذه المشابهة ولكن الصناعة وان اجتهدت فانها قاصرة ولا تلحق بالطبيعة.

ينكر ابن سينا صناعة الكيمياء فيمَا يتعلق بالصلة بين الزئبق والكبريت وتحويل المعدن الخسيس الى ذهب او فضة. ولكنه يسلم مثل الرازي بامكان صبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وان يزال عن الرصاص اكثر ما فيه من النقص.

واذا لم يكن في الامكان احداث هذا التحويل في جوهر المعادن لان لكل منها تركيبا خاصا لا يمكن ان يتغير بطرق التحويل المعروفة والتي كثر عنها الحديث من جانب العرب بامكان الكيمياء في عصر ابن سينا وما قبله، فانه من المستطاع احداث تغيير ظاهري في شكل المعدن وصورته بحيث يصل الى حد من الاتقان قد يظن معه ان المعدن قد تحول بالفعل وبجوهره الى غيره... وهو يوضح ذلك تمام التوضيح في رسالته في الاكسير اذ فيها نجد فرقا بين تحويل جوهر معدن الى معدن آخر وبين اصباغ المعدن.

ويقسم ابن سينا هذه الرسالة الى تسعة فصول تبحث في الجوهر المختلط وفي طلب الصنعة وفي التركيب وفي غير المعدنيات وفي التدبير للتصعيد وفي اتمام العمل.

يقول ابن سينا: «ان ما يدعيه اصحاب الكيمياء فيجب ان تعلم انه ليس في ايديهم ان يقلبوا الاوضاع قلبا حقيقياً لكن في ايديهم تشبيهات حسية حتى يصبغوا الاحمر صبغا ابيض شديد الشبه بالفضة ويصبغونه صبغا اصفر شديد الشبه بالذهب وان يصبغوا الابيض اي صبغ شاؤا حتى يشتد شبهه بالذهب او النحاس، وان يسلبوا الرصاصات اكثر ما فيها من النقص والعيوب الا ان جواهرها تكون محفوظة وانما يغلب عليها كيفيات مستفادة بحيث يغلط في امرها...

وعلى ذلك تكون اعمال الكيمائيين عنده باطلة شأنها شأن أعمال المشتغلين بالتنجيم اذ ان ما يخلقه الله تعالى بواسطة الطبيعة تعجز عنه الصناعة. وانكاره هذا قائم على الفصل بين جوهر كل معدن والمعدن الآخر، فلا سبيل الى حل المزاج الى المزاج الآخر. اما صبغ المعادن او ازالة الصبغة عنها فهو ممكن اذ لا يقوم برهان على امتناعه والمهم هو انكار تحويل معدن الى آخر لان تركيب كل واحد منها غير تركيب الآخر، ويقول ابن سينا: «ويشبه ان تكون النسبة التي بين العناصر في تركيب كل جوهر غيرها في تركيب الآخر واذا كان كذلك لم يعد اليه الا ان يفك التركيب اعادة اياه الى تركيب ما يراد احالته اليه وليس ذلك ممّا يمكن بادائه حفظ الاتصال وانما يختلط به شيء غريب او قوة غريبة. – الشفاء – الطبيعيات.

ابن خلدون :

اهتم ابن خلدون بدراسة موضوع الكيمياء في كتابه «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»، الجزء الاول طبعة المطبعة الادبية عام ١٨٧٩ صفحة ٤٨١ وما بعدها نلخص ما جاء في الفصل السابع والعشرين. يقول ابن خلدون :

«في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها :

اعلم ان كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع الى انتحال هذه الصنائع ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه في اقتناء المال ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وانما اطمعهم في ذلك رؤية ان المعادن تستحيل وينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون انها من ممكنات عالم الطبيعة ، ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم «بالحجر المكرم» هل هي العذرة او الدم او الشعر او البيض اوكذا اوكذا مما سوى ذلك. وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة ان تمهى بالفهر على حجر صلد املس وتسقى اثناء امهائها بالماء ، وبعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي او تطبخ بالنار او تصعد او تكلس لاستخراج مائها او ترابها فاذا رضي بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته اصول صنعته حصل من ذلك كله تراب او مائع يسمونه الاكسير ويزعمون انه اذا القي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا او النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً الى الغذاء ، وكذلك اكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه اليهما ويقلبه الى صورتهما...

... فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون احكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة من قبلهم يتداولونها ويتناظرون في فهم لغزها اذ هي في الاكثر تشبه المعمى كتآليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ، ومسلمة المجريطي في كتابه «رتبة الحكيم» والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في اجادة النظم وامثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها. ففاوضت يوما شيخنا ابا البركات التلفيني كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها ، فتصفحه طويلاً ثم رده الي وقال لي : وانا الضامن له ان لا يعود الى بيته الا بالخيبة...

ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط ، اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب او النحاس بالفضة او خلطها على نسبة جزء او جزئين او ثلاثة ... او الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتلبيسه البزوق المصعد فيجيء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الا على النقاد المهرة فيقدر اصحاب هذه

الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء اخس الناس حرفة.

... واما من انتحل هذه الصنعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن افساد سكة المسلمين فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع انا لا نعلم ان احدا من اهل العالم تم له هذا الغرض او حصل منه على بغية انما تذهب اعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها او وقف على الوصول، يقنعون باستماعها والمفاوضات فيها ولا يستريبون في تصديقها.

... ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول وكلها انواع قائمة بنفسها او انها مختلفة بخواص في الكيفيات وهي كلها اصناف لنوع واحد فالذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الاندلس انها نوع واحد وان اخلافها انما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها اصناف لذلك النوع الواحد.

والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة بالفصول وانها انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الانواع وبنى ابو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع امكان انقلاب بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ. وبنى ابو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على ان الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه خالق الاشياء مقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة، وغلطه الطغرائي من اكابر اهل هذه الصنعة في هذا القول ورد عليه بان التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه وانما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الاجسام بالصقل والامهاء ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفته. قال: واذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره اصحاب الفلاحة من تكوين النحل اذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد ان يكون فيها استعداد اول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحولها بالعلاج الى ان يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها.

لنا في الرد على اهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم اجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك ان حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى احالته ذهبا او فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان اقصر لانه تبين في موضوعه ان مضاعفة قوة الفاعل تنقص

من زمن فعله وتبين ان الذهب انما يتم كونه في معده بعد الف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه اقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه او يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في احالته ذلك هو الاكسير على ما تقدم. واعلم ان كل متكون من المولدات العنصرية فلا بدّ فيه من اجتماع العناصر الاربعة على نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لمّا تم امتزاجها فلا بدّ من الجزء الغالب على الكل ولا بدّ في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بدّ من اختلاف اطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم الى نهايته ، ونسب الاجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الاول هو الاخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ الف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيمياء الى ان يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى ان يتم. ومن شرط الصناعة ابدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة للحكماء اول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة اول العمل فلا بدّ من تصور هذه الحالات للذهب في احواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن او تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق انسان من المنى ونحن اذا سلمنا له الاحاطة باجزائه ونسبته واطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان ، وانى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى ان يتم كون الجسم المعدني او تخليق مادة بقوى وافعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعياً فتصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات احوال الطبيعة المعدنية».

ابو المنصور الموفق :

في السنوات الاخيرة من القرن العاشر الميلادي ظهر كتاب في الصيدلة لابي منصور الموفق الفارسي حوى طائفة من المعلومات الكيمائية نستخلص منها ما يأتي :

١ — التمييز بين النطرون «كربونات الصوديوم» والقلى «كاربونات البوتاسيوم» وشرح طريقة استخلاص الاخير من رماد بعض النباتات البحرية ووصفه بانه مادة بيضاء متميعة ذات طعم حريف كاوٍ.

٢ – استخدام الجير الحي او لبن الجير في ازالة الشعر من الجلود.

٣ – وصف كلس الزرنيخ «اكسيد الزرنيخ» والطباشير «حامض السليسيك» المستخرج من الخيزران.

٤ – اذا عرّض النحاس للهواء فانه يتحول الى مادة خضراء واذا سخّن بشدة نتجت عنه مادة سوداء يمكن استخدامها لتكسب الشعر لونا اسود.

٥ – مركبات النحاس والرصاص سامة وعلى الاخص الزاج الازرق وابيض الرصاص.

٦ – اذا سخّن الجص كبريت الكلسيوم تحول الى مادة جيرية وهذه اذا مزجت بزلال البيض نتج عنها لاصق صالح لمعالجة كسر العظام.

والمادة المشار اليها في الفقرة الاخيرة هي نوع ممّا نسميه الآن عجينة باريس، وابو منصور هو اول من كشف فائدتها في الجراحة، كما يقول محمد محمد فياض في نشأة الكيمياء.

ابو القاسم العراقي:

عاش في القرن السابع الهجري على عهد الظاهر ركن الدين ويرجح انه مات سنة ١٣٠٠ ميلادية تقريبا.

مؤلفه المشهور: «العلم المكتسب في زراعة الذهب».

وقد بدأ فيه بالدفاع عن نظرية تكوين الذهب من المعادن الاخرى. ونقل وصف طبيعة الاكسير وطريقة تحضيره مستشهدا باقوال العلماء المتقدمين ومشيرا الى تجارب عملية كثيرة اجراها بنفسه وطريقته في تحضير الاكسير، ليست واضحة كما هي العادة ولكن الكتاب له اثر عظيم في تاريخ الكيمياء لانه يعطي صورة واضحة جلية للمبادئ والنظريات التي سار عليها هذا العلم ابان القرن الثالث عشر.

وهو يقول ان الفلزات الستة افراد من نوع واحد يختلف بعضها عن بعض في الشكل والخواص ولكنها ليست كافراد النوع الواحد من الحيوان والنبات لانها قابلة للتبدل والطبيعة الذاتية كامنة في هذه الفلزات ولا يفرق بينها سوى بعض الخواص العارضة التي يمكن ازالتها. والمعروف انه لا يمكن تحويل نوع من الكائنات الى نوع آخر مخالف له الجوهر والذاتية كالانسان والحصان، ولكن هذا لا يصح تطبيقه على الفلزات لانه يمكن تحويل الرصاص الى فضة، فاذا اثرت النار في الرصاص اصلحته وانضجته وتطاير الجزء الاكبر منه وتخلفت بقية صغيرة من

الفضة . وبهذه الطريقة يمكن الحصول على ربع درهم من الفضة النقية من رطل من الرصاص . ولمّا كان من الميسور تحويل جزء من الرصاص الى فضة فليس من المستبعد تحويله كله .

وبنفس الطريقة يمكن تحويل الفضة الى ذهب مع تطهير نار السبك لانها تصبغ بالنار اذ ذاك وتتقوى وتستحيل ذهبا . ولو كان الذهب والفضة نوعين مختلفين لمَا امكن تحويل احدهما الى الآخر .

وممّا تجدر ملاحظته ان الذهب يوجد في خامته الطبيعية كاملا او ناقصا والناقص منه يمكن تطهيره بالنار فينفصل منه الذهب والفضة . وكذلك توجد الفضة في خاماتها ممزوجة بالرصاص ويسهل فصلها عنه . ووجود الفضة في خامات الذهب راجع الى ان الحرارة في باطن الارض تنضج اجزاء الخام القريبة منها فتستحيل ذهبا اذا كان الخام من خامات الذهب والى فضة اذا كان من خامات الفضة ولكنها تعجز عن انضاج الاجزاء البعيدة عنها .

وظاهر ان الفلزات الست كلها من نوع واحد يتميز احدها عن الآخر بخواص عرضية . والذهب اكملها لخلوه من هذه العوارض . اما الفضة والرصاص والقصدير فتشوبها البرودة بعكس النحاس والحديد اللذين يتميزان بالسخونة وهذه الكيفيات الست لعنصر واحد اشبه بالحمى التي تصيب الشخص السليم اذا عولج وبرئ منها اكتسب اكمل حالة صحية ...

الجلدكي :

آخر علماء الاسلام الذين اشتهروا في الكيمياء هو عز الدين ايدمر بن علي الجلدكي الذي عاش بمصر في القرن الرابع عشر وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٦٠ تقريبا .

والجلدكي اول من قال ان المواد لا تتفاعل الا باوزان معينة وهذا هو قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيمائي .

وهو اول من ادرك امكان فصل الفضة عن الذهب بتأثير حامض النتريك «ماء النار» الذي يذيب الفضة ويترك الذهب . وله كتابان في الكيمياء ويسمى الاول «نهاية الطلب» والثاني «التقريب في اسرار التركيب» ويعتبر هذان الكتابان مرجعا يوثق بهما في الكيمياء عند العرب .

يقول في كتاب «القريب» :

١ — موضوع صناعة الكيمياء هو الجواهر الذائبة المنطرقة والبحث عن خواصها الذاتية

وهي الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والزئبق والخارصيني وهذه الجواهر متفقة في النوعية مختلفة في الكيفية.

٢ – الذهب جوهر تام في طبيعته كامل في صورته والجواهر الاخرى ناقصة وسبب النقص عرض من الاعراض التي تزول بالتدبير ومتى زال النقص من الجوهر اصبح ذهبا لان كل نوعين طبيعيين مختلفين لا يمكن نقل احدهما وتحويله الى الآخر بوجه من وجوه التدبير كالانسان والفرس.

٣ – الاسرب «الرصاص» ينسب الى زحل جسم ثقيل بطباعه ويذوب بالنار ذوبا سريعا ويحترق فيها ويتولد منه بالاحتراق «المرتك والاسرنج» ومرتكه اصفر واسرنجه احمر واذا طرق التطريق حتى يسرع اليه التفتت والتقصف ويسرع اليه التصديد بالحموضات وبخل العنب الى ان يصير اسفيداجا.

٤ – الخارصيني منسوب لعطارد ومعدنه ببلاد الصين. فيه يبوسة مفرطة وبينه وبين الحديد مناسبة شديدة بحيث انه اذا الق عليه لينه جدا.

٥ – الاجزاء المعدنية الداخلة في العلاج هي الاملاح والبواريق والزاجات والكباريت والزرانيخ والتواتيت والمغانيس والمرقشيشات والنوشادرات والزنجارات والزيابق والزجاج والطلق والجير والمرمر والبلور والرخام.

٦ – تستخرج املاح النبات بعد حرقها بالنار الى ان تصير رمادا هامدا ثم يحل ويذاب الرماد بالماء على النار الى ان يخرج الملح كله في الماء ثم يستقصى في تصفيته بعد الاستقصاء في غليانه الى ان يبقى من الماء الثلث او دونه يعقد (يرسب او يبلر) بالتقطير او بحر الشمس.

٧ – الصابون مصنوع من بعض المياه الحادة المتخذة من القلي والجير (محلول الصودا الكاوية) والماء الحاد يهرئ الثوب، فاحتالوا على ذلك بان مزجوا الماء الحاد بالدهن الذي هو الزيت وعقدوا منه الصابون الذي ينقي الثوب ويدفع ضرر الماء الحاد عن الثوب وعن الايدي.

قال المجريطي في كتاب «مفاخرة الاحجار»: ان الزئبق اسمه ارميس يدخل في منافع شتى وادوية كثيرة مثل الجرب والحكة والقمل وهو روح لطيف طاهر في الاجساد غائص في اعماقها هارب من الحرارة فاذا اشتدت عليه كسر الاناء وفر، وله مضار شديدة لانه يورث الرعشة والفالج والبرص والرياح ويقلع الاسنان وتدفع مضرته بشرب النبيذ واستعمال الاشياء الحارة اليابسة.

من خواص الذهب انه اذا وضع منه لوح مربع زنته خمسة مثاقيل على صدر انسان فانه يزيل عنه الخفقان.

واذا صنع منه ميل (مرود) يمره الانسان في عينيه من غير كحل ويعقل ذلك في اليوم والليلة فانه يقوي العين وينشف الدمعة ويمنع المواد السائلة.

وان خلط منه مثقال بمثقال من الفضة الخالصة وعمل منه صفيحة وقعت في شراب عتيق ثلاثة ايام واسقي الشراب من به غشيان شديد ازاله وان علقت الصفيحة على جبين المصروع نفت عنه الصرع.

الكيمياء الاسلامية:

قام هذا العلم بين العرب على اسس معينة ذات غرض واضح:

١ – الاعتقاد بنظرية ارسطو في تكوين المادة، فالهيولي هي المادة الاساسية في جميع الكائنات ولكنها لا توجد منفردة مستقلة ويلزم ان تتحد اولا بالهيئة الجثمانية فتصبح جسما وهميا ثم بالهيئة الذاتية فتصبح جسما معينا. وابسط الهيئات الذاتية ما ينتج من اتحاده مع الجسم الوهمي عناصر الماء والهواء والنار والتراب، وتتركب جميع الكائنات الاخرى من هذه العناصر بنسب مختلفة ولكن المادة الاولية فيها واحدة.

٢ – اذا اتحد الجسم الوهمي بالهيئة الذاتية المعدنية نتجت عنه الفلزات التي تعتبر والحالة هذه كيفيات مختلفة من نوع واحد. ويفسر السبب في وحود فلزات مختلفة الى ان الذهب هو انقاها واطهرها واكملها اما الفلزات الاخرى فقد اصابتها اعراض معينة باعدت بينها وبين الذهب واذا ازيلت هذه الاعراض صار الفلز ذهبا.

المؤثر الذي يزيل الصفات العارضة عن الفلزات الرخيصة هو الاكسير ويلزم استخدام اكسيرين احدهما للبياض والثاني للحمرة، الاول يحول معدن الفضة والثاني اذا القي على الفضة استحالت ذهبا.

٤ – لمّا كان مذهب العرب في تركيب المادة يؤدي الى نتيجة منطقية وهي امكان تحويل المعادن الى ذهب فقد انحصرت جهودهم اولا في تجهيز الاكسير واتجهت بحوثهم نحو هذه الناحية حتى سميت الكيمياء علم تدبير الذهب واصبح الغرض منها ماديا يرمي الى جمع الثروة. ولم يترك كيماويو العرب وسيلة لتحضير الاكسير الا جربوها ويقول الجلدكي انهم حاولوا تدبير

المواد والعظام والحوافر والالبان والكثير من النبات والاملاح والمركبات الكماوية الاخرى وعرفوا طريقة تحضيرها وتنقيتها وتأثير الحرارة فيها وكانت اولى محاولاتهم اذابة الفلزات وغيرها في سوائل ملائمة ولم يكن معروف لديهم سوى حمض العنب «حامض الخليك» الذي يذيب النحاس فاهتدوا الى تحضير كثير من المذيبات المائية لحامض الكبريتيك والنتريك وذوب الصودا والبوتاس والكاويتين والنوشادر وكانوا يطلقون على هذه المذيبات اسماء خاصة كالماء الحاد والماء الحريف والماء المثلث وقد تختلف الاسماء باختلاف الاشخاص الذين ينسب اليهم تحضير المذيب فالماء الحاد يستعمله جابر وقد يختلف في تركيبه وطريقة تحضيره عن الماء الحاد الذي يستخدمه الرازي.

ومن التجارب التي استعانوا بها على تبييض الفلزات وتحميرها املا في تحويلها الى ذهب تمكنوا من تحضير كثير من المواد الكيمائية النافعة: فمن الرصاص وحده جهزوا المرتك الاصفر والاسرنج الاحمر والاسفيداج الابيض ولمّا كانت هذه التجارب الكثيرة لا تصلح الا باتقان العمليات الكيمائية فقد عني كيمائيو العرب بعمليات الحل (الاذابة) والعقد (الترسيب) او التبلر والتسخين والتكليس ثم التقطير والتصعيد بانواعها المختلفة وقد ادخلوا تحسينات كثيرة على الاجهزة المستخدمة في كل منها وابتكروا اجهزة اخرى، والرازي له الفضل الاكبر في هذه الناحية العملية.

كان لنتائج بعض التجارب اثر خداع في نفوس القائمين بها. ومن النوادر التي تروى ان دجالا فارسيا استحضر قطعا من الذهب وبردها ومزج البرادة بالدقيق ومسحوق فحم الخشب والصمغ وجزأها الى كرات صغيرة وتدثر في زي الدراويش وذهب الى دمشق وباعها لاحد العقارين بثمن زهيد مدعيا انها دواء نافع مشهور يسمى «طبرمق خراساني» ثم تخفى في ثياب العلماء ودخل على الوزير واوهمه انه كيماوي خبير يستطيع تدبير الذهب فاصطحبه الى السلطان فرحب به وطلب منه ان يثبت بالفعل مقدرته الكيمائية فكتب بطاقة ذكر فيها اسماء بعض العقاقير ومنها «طبرمق خراساني»، فاستحضروها له واجرى تجربته التي اسفرت عن تحضير حبات ظاهرة من الذهب الخالص. واراد السلطان ان يحصل على كميات وفيرة من الذهب ولكن الخبر كان قد شاع في المدينة ونفد الطبرمق لاقبال الناس على شرائه، وغضب السلطان لذلك فاخبره الدجال انه يعرف كهفا في خرسان به مقادير عظيمة من الطبرمق فجهزه السلطان بقافلة من الابل والخدم واعطاه مبلغا كبيرا من المال ليستعين به على نفقات السفر والعودة ولكنه ذهب ولم يرجع واختفى اثره.

ابن سينا وحده لم يعتقد بامكان تحويل المعادن الخسيسة الى معدن ثمين.

٥ – من اظهر ميزات الكيميا الاسلامية اعتمادها على الدليل العملي فبمجرد القول ان النقل عن عالم مشهور لا يعد برهانا على صدق ظاهرة او عملية كيمائية وكان جابر اسبق من وجه النظر الى ضرورة اتخاذ التجربة والمشاهدة اساسا لتقصي الحقيقة. وقد وضع شروطا معينة لاجراء التجارب والقائمين بها.

واهتمام العرب بالناحية العملية يعتبر بغير شك خطوة واسعة في سبيل تقدم الكيمياء وقد تفوقوا في ذلك على الاغريق الذين كانوا يؤمنون بالقول المأثور عن هرمس اله الحكمة ومبتدع الكيمياء في نظرهم وهو: «لقد علمت ابني الكيمياء في ثلاثة ايام دون ان استخدم جهازا حتى ولا انبيقا».

٦ – كان العرب يعتقدون بتأثير الاجرام السماوية في المعادن وقد نشأ هذا الاعتقاد من البابليين الذين درسوا انتقالات الكواكب وقاسوا حركاتها وعينوا منازلها في الاثني عشر شهرا من السنة ونسبوا اليها مظاهر الحياة على الارض من نور وظلمة وحرارة وبرودة وتوالي الليل والنهار وتتابع الفصول وغير ذلك. ثم انهم ربطوا كل معدن من المعادن السبعة التي كانت معروفة بهم بكوكب خاص وكانوا يشيرون اليه باسم هذا الكوكب. ونقل الاغريق عن البابليين هذا المذهب.

واخذ العرب هذه الفكرة عن الاغريق ولكن البارزين من علمائهم لم يتقيدوا بها في تجاربهم العلمية اذ لم يتخذوا احتياطا لتدخل الكواكب فيها.

اما اسماء الاجرام السماوية التي كان العرب يطلقونها على الفلزات السبعة فهي كما يأتي منقولة عن الجلدكي:

١ – الرصاص الاسرب	وهو بطبع زحل
٢ – الرصاص القلعي (القصدير)	وهو بطبع المشتري
٣ – الحديد	وهو بطبع المريخ
٤ – الذهب	وهو بطبع الشمس
٥ – الفضة	وهو بطبع القمر
٦ – النحاس	وهو بطبع الزهرة
٧ – الخارصيني	وهو بطبع عطارد

وكانوا ينسبون الزئبق الى عطارد مثله في ذلك مثل الخارصين وقد بقيت هذه الاسماء الى وقتنا الحاضر حتى في اللغات الاجنبية.

ويستخلص ممّا تقدم ان الكيمياء الاسلامية كانت خالية من مظاهر التنجيم والحقيقة انها كانت مبنية على اساس عملي متين لا دخل فيه للعوامل الوهمية كالسحر والتعاويذ وتأثير الكواكب...

٧ – اهتم كيماويو العرب بعملية الوزن الدقيق مع ان الاوروبيين لم يستعملوا الميزان في العمليات الكيمائية حتى القرن الرابع عشر. وفي كتب جابر والرازي وغيرهما نرى عناية وحرصا شديدين بذكر اوزان المواد المتفاعلة التي تستخدم في التجارب العملية. ولا شك ان اهتمامهم بالوزن هو الذي هداهم الى استنباط القانون الذي ذكره الجلدكي وهو ان المواد تتفاعل بمقادير معينة من حيث الوزن.

وفيمَا يلي بيان بالاوزان التي كانوا يستعملونها:

القيراط : $\frac{١}{٥}$ ٤ حبات

الدانق : ٢ قيراط

الدرهم : ٦ دوانق

المثقال : $\frac{٣}{٧}$ ١ من الدرهم

الاوقية : $\frac{١}{٢}$ ٧ مثاقيل

الرطل : ١٢ اوقية

وينتج من هذا ان الحبة وهي اصغر اوزانهم تساوي $\frac{١}{٦٤٨٠}$ من الرطل.

ولا شك ان تقدير مثل هذا الجزء من الرطل يستلزم استعمال ميزان حساس.

٨ – لم يهمل العرب تطبيق الكيمياء على الحياة العملية فقد استعانوا بها على تحضير الاملاح والادوية والروائح العطرية ولهم في هذه الناحية مؤلفات تدل على مبلغ عنايتهم باستخدام الكيمياء لفائدة الانسان.

وليعقوب بن اسحق الكندي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي رسائل في الكيمياء التطبيقية تحمل العناوين التالية:

– الابخرة المصلحة للجو من الاوباء – الادوية المشفية من الروائح المؤذية – اشفية السموم

– انواع الجواهر الثمينة – تلويح الزجاج (تلوينه) – ما يصبغ فيعطي لونا – ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتثلم – كيمياء العطر.

٩ – كانت كيمياء الاغريق عندما بدأ العرب يدرسونها ذات ثلاثة اركان منعزلة لا اتصال بينها : فلسفي وتجريبي وباطني. وكان الاخير يستوجب استعمال التعاويذ والرقي والمؤثرات الوهمية التي ناصرها علماء الاسكندرية في عهدها الاخير. ويقال ان خالد بن يزيد اراد ان يتفهم اسراره وغوامضه ولكنه تاه في بيدائه المظلمة. اما جابر بن حيان فقد اعرض عنه ولم يؤمن بتأثيره واسس الكيمياء على الجانب العلمي محاولا تفسير ظواهره بالنظريات الفلسفية التي كانت شائعة في عصره. وسار على نهجه العلماء الذين اتوا بعده فطهروا الكيمياء من شوائب الدجل ومظاهر التعمية والسحر.

وكان هذا الفصل ضروريا لمعرفة مدى تأثير الكيمياء العربية على الكيمياء الغربية التي سنتحدث عنها في الفصل المقبل، ولذا فان هذا الفصل يعتبر مقدمة طويلة للفصل الآتي وهو «الكيمياء في الغرب».

الفصل الثاني عشر

الكيمياء في الغرب

انهارت الامبراطورية الرومانية شيئا فشيئا خلال القرنين الثالث والرابع المسيحيين وافسحت المجال لظهور البرابرة مثل الافرنج والقوط والالمان والساكسون والفندال، وجاء «عطيلا» واجتاح رومة كما هو معروف وانغمس الغرب في ليل كالح السواد وتحولت كلمة «روماني» الى اهانة واصبحت كلمة التعليم في نظر البرابرة تعني انحطاط الامبراطورية الرومانية، وانتشر البغض تجاه العلماء والفلاسفة في كل مكان. والكنيسة الظافرة انضمت الى البربر واطلقت الحرم الكنسي على الدراسات الوثنية وازداد الجهل في القرنين السادس والسابع.

وتنازل ملوك الفرنج عن سلطتهم للوكلاء في البلاط وتدعمت عائلة كارل مرتيل بعد ان توصلت الى ايقاف الزحف العربي في «بواتيه» ٧٣٢، وبلغ الانحطاط الفكري اقصى درجة.

وجاء «بيبين القصير» PEPIN LE BREF واتفق مع الجرمن البرابرة لاعتقاده ان هذا الاتفاق يجر معه السلام الى الغرب، وعرفانا بالجميل منحه البابا اسطفانوس الثاني (٧٥٢-٧٥٧) لقب «الشريف الروماني» يحمله وتحمله سليلته بعده. وكان لهذا الحدث تأثير كبير اذ ان السلطة الاولى الروحية في الغرب اعترفت بسلطة «عائلة بيبن». وعندما استلم ابنه «كارلوس السلطة رفع لواء الكنيسة، وفي عيد الميلاد عام ٨٠٠ وضع البابا لاوون الثالث (٧٩٥-٨١٦) التاج الامبراطوري على رأس شارلمان واعتبره «باعث الامبراطورية الرومانية المقدسة».

وولدت اسطورة «اللحية المزهرة» ومن يقرأ التاريخ الفرنسي يذكر القصة الجميلة حيث ان الطلاب الاذكياء يجلسون على يمين الامبراطور والطلاب الاشرار عن يساره عقابا لهم. ولكن ما ابعد هذه الاسطورة عن الحقيقة، فان الامبراطور وان كان احاط به العلماء فانه لم يتوصل قط

الى القراءة المقبولة والكتابة المصطلحة . شغف بلذة العيش وعرف كيف يتذوقه الى جانب نسائه الخمس الشرعيات وحظياته الاربع وجواريه العديدات . ولذت له رفقة الاشراف ولم يعارض العلاقات الغرامية التي مارستها بناته بعد ان حكم عليهن بالعزوبة الدائمة لكي يتمتع بقربهن طيلة حياته .

وقرر اخيرا بعث التعليم في امبراطوريته فدعا الى بلاطه اشهر علماء الغرب في ذلك الحين «الكوين» «AL QUIN» السكسوني واوكل اليه تنظيم الدروس فوجد الراهب المسكين انه في موقف محفوف بالمصاعب اذ لا شيء بين يديه من الكتب العلمية ومن التراث اليوناني الذي كان العرب قد نقلوه الى لغتهم .

لم يكن علم الكيمياء يدخل في التعليم الجامعي والسبب بسيط وهو انه لم يوجد كتاب يتحدث عن الكيمياء . غير انه عثر في مكتبة بـ«لوكا» «LUCCA» (ايطالية) على مخطوط كتب في عصر الامبراطور شارلمان عنوانه : «اساليب التلوين» اي الطرق المستعملة في تلوين الفسيفساء والجلود وتزيين الحديد والكتابة بالاحرف الذهبية والتلحيم والتلصيق . وقد وضع المخطوط هذا باللغة اللاتينية ، المليئة بالاخطاء الصرفية والنحوية ، ولم يتورع الناسخ عن كتابة الكلمات اليونانية التي لا يفهمها باللغة اللاتينية وشوهها ، ويرجع هذا المخطوط الى اصل بيزنطي . وطريقة كتابة الكلمات باحرف من ذهب هي ذاتها كما عرفتها العصور الاولى المسيحية في مصر .

وعلى ما يظهر ان مؤلف كتاب «اساليب التلوين» لم يهتم بمعرفة طرق الوصول الى الذهب الاصطناعي .

ان الازدهار في الادب والفنون كما شاء شارلمان تعميمه في امبراطوريته لم يعمر طويلا ، اذ لم يتمكن خلفاؤه من قمع الثورات التي نشبت بين تلك الشعوب التي اخضعت بالقوة . ظل رجال الاكليروس يدرسون ولكن على مستوى منخفض جدا بحيث ان الكنيسة اضطرت الى اصدار اوامر للاساقفة لكي يختاروا الكهنة بين اولئك الذين يحسنون قراءة الانجيل وتفسيره للمؤمنين من ابناء رعاياهم ...

وانحطت الاخلاق الى ادنى درجة عند طبقة الاشراف ، ولم يعط الاكليروس القدوة الصالحة في سلوكه ، فاستنتج من ذلك ان العلم لا يخدم سوى انحطاط الاخلاق فيجب الاقلاع عن العلم .

وفي وسط هذا الجهل الفاضح والبربرية السائدة في العالم الغربي ، كان لحسن الحظ ، توجد رقعة في اوروبة انعم الله عليها ، هي اسبانية ، تحترم العلم ، فقد ادركت فيها الحضارة الاسلامية شاوا بعيدا . ولماذا في اسبانية ؟ لان المسلمين الاسبان ورثوا عن العرب المشارقة شحنة كبيرة من العلوم ، فقد بلغت شهرة قرطبة في القرن العاشر الى اسماع الغربيين فقصدوها ومن جملة من قصدها الراهب الفرنسي «جربرت» المتوفي عام ١٠٠٣ بعد ان وصل الى درجة البابوية حاملا اسم «سلفستر الثاني» (٩٩٩-١٠٠٣).

وفي القرن الحادي عشر تأسست اول جامعة لاتينية : مدرسة الطب في سلرنه (ايطالية) ، فقد وصل اليها قسطنطين الافريقي في القرن الحادي عشر وترجم عن العربية الى اللاتينية كتبا طبية عديدة . ونعرف من هذا العصر مترجمين مثل «جيرارده الكريموني وروبرت اوف تشستير» وغيرهما عرّفوا الرازي وجابر بن حيان على الغربيين الذين حتى ذلك التاريخ لم يرثوا من علم الكيمياء سوى الناحية التقنية المحضة اليونانية . اما الآن فقد تعرفوا على حقيقة هذا العلم .

ومن جملة الترجمات الشهيرة في ذلك العصر كتاب «Turba Philosophorum» «مجمع الفلاسفة» منقول عن العربية ولكن النص العربي مفقود ، غير ان النصوص اللاتينية كثيرة منها : «ARTIS AURIFERAE» «صناعة الذهب» طبع في باسيل (سويسرة عام ١٥٧٢ ، ونص آخر : «THEATRUM CHIMICUM» طبع في استراسبورغ عام (١٦١٢-١٦١٣).

واخيرا «BIBLIOTHECA CHEMICA» جنيف عام ١٧٠٢ المجلد الاول البحث ٢٣ وقد كان لهذا الكتاب «مجمع الفلاسفة» تأثير حاسم حتى في القرن الثامن عشر باوروبة .

وكما اسمه يدل عليه فقد اجتمع فلاسفة يونانيون هم «فيثاغورس وبرمندس وافلاطون وارسطوطاليس ومرينو وغيرهم تكلم الواحد بعد الآخر ، ولا علاقة لمّا يقول الاخر بمّا قال سابقه ، فانهم اوردوا في اقوالهم هذه اعتباراتهم واحكامهم ووصفاتهم وتوصياتهم ممتزجة بعضها ببعض حتى انه يوجد منها ما لا معنى له . ولكن الخطأ يقع على المترجمين لا على النصوص . نقدم مثلا على ذلك في وصفة صدرت عن «برمندس» تقول :

«خذ من الزئبق وذوبه مع المغنيزا ومع الكحول او مع الكبريت الذي لا يحترق حتى يصبح الجميع ابيض فاذا القيت هذا اعلى النحاس ابيضّ» .

فقد ترجمت هذه الوصفة على الشكل التالي : «خذ من ماء النار وجمدها بجسدها

وبكبريتها الذي لا يحترق واجعل منها طبيعة بيضاء وعلى هذا النحو فكل شيء يصبح ابيض».

انه مترجم جاهل قليل الخبرة.

هناك ثلاثة نصوص لاتينية لكتاب «مجمع الفلاسفة» متفقة في الجوهر مختلفة في الظاهر، وهذا الاختلاف ناتج عن تحويرات ادخلها الناسخون على الاصل. يجب ان نرى فيها ثلاث ترجمات لنص عربي واحد، منقول بدوره عن اليوناني وقد يكون الناقل من السريان. اهتم الكيمائيون اللاتين بهذا الكتاب اهتماما كبيرا لانهم تعرفوا على التراث الاسكندري الكيمائي عن طريقه دون سواه.

وقد حرفته الترجمات العديدة تحريفا فاحشا ولكن يمكن اعادة تركيب النص الاصلي.

ومثل هذا الكتاب كُتُب أخرى من أصل عربي أو يوناني نُقِلَت إلى اللاتينية مثل كتاب «الكهنة»، موجود في المكتبة الوطنية بباريس رقمه ٦٥١٤ وهو مجموعة من الوصفات وللمرة الأولى تظهر كلمة «لتون» وهو مادة يحصل عليها من مزج النحاس المذوّب مع معدن الزنك وقد حملهم الاعتقاد على أن الجسم الجديد هو من الذهب.

كتاب آخر وهو لجابر ابن حيان عنوانه «السبعون كتاباً» وقد ذكره ابن النديم في الفهرست وترجمه جيرارده الكريموني إلى اللاتينية ولكن النص العربي مفقود.

احتوى هذا الكتاب على نظرية جابر بن حيان كاملة في ٣٢ كتاباً يتحدث فيها عن تشكيل المعادن، ويذكر فيه حواراً شيّقاً بين الذهب والزئبق وقد استرعى هذا الحوار انتباه الكيمائيين الغربيين.

يقول الذهب للزئبق: لماذا تريد أن يفضّلوك عليّ؟ فأنا سيّد الأجسام التي لا تتأثر بالنار.

فيجيبه الزئبق: أنا ولدتُك وأنت لا تدري أنك جئت إلى الوجود عن طريقي. إن جزءاً صغيراً مني يحيي عدداً كبيراً من الأجزاء منك، بينما أنت، في شحّك، ولا تعطي شيئاً من ذاتك في المعالجات.

ما هو المقصود بالزئبق وأي نوع من الزئبق يعني؟. هل يعني الزئبق العادي الذي يمتزج بسهولة مع الذهب ويستخدم في تزيين المعادن الأخرى وبنوع خاص الفضة؟ أم زئبق الفلاسفة الذي هو المادة الأولى لجميع المعادن ما هي العلاقات بين هذين الزئبقين لقد اعتقد اللاتين أن زئبق الفلاسفة يستخرج من الزئبق العادي بعد أن يطهّر وقد جاء هذا الالتباس بسبب بعض الكلمات التي صدرت عن ابن سينا.

والتجديد الذي جاء في هذا الكتاب قائم في أهمية الكيمياء الحيوانية ، فكما يوجد اكسير للمعادن لكي يحوّلها إلى ذهب هكذا يجب أن يكون هناك اكسير للحياة يطيل في العمر ويُعيد الشباب ويوقف الشيخوخة أو على الأقل يؤخّرها إلى أقصى ما يكون وهذه الفكرة الجديدة كانت عزيزة على قلب جابر بن حيّان.

عندنا كتاب آخر عنوانه «الكتاب السرّي» ينسبه «أرتيفيوس» إلى أحد الكيميائيين العرب المجهولي الاسم. كان لهذه الترجمات الكثيرة المنقولة عن العربية أثرها في نشوء الدعوة عند الكثيرين من الغربيين نحو الكيمياء ، ومن الصعب معرفة أول عالم كيمائي أوروبي ، فقد يكون «ميخائيل سكوت» الانكليزي.

وُلِدَ في أواخر القرن الثاني عشر وفي عام ١٢١٧ نجده في طليطلة ينقل بعض المخطوطات العربية إلى اللاتينية ولا سيّمَا مؤلفات ابن رشد. وفي عام ١٢٢٠ يمارس مهنة الطب في «بولونية» (ايطالية) ، وقد ميّزه البابا أنوريو الثالث (١٢٢٧ – ١٢١٦) والبابا غريغوريوس التاسع (١٢٤١ – ١٢٢٧) بأن منحه إنعامات كثيرة كنسيّة في انكلترة. وما طال الأمر أن انتقل ميخائيل سكوت إلى خدمة الامبراطور فردريك الثاني (١٢٥٠ – ١١٩٤) الذي نشط العلوم والمعارف والفنون في صقلية. ولقد طابت له الحياة هناك على الطريقة الشرقية ، فأصبح ميخائيل سكوت العالم الفلكي في بلاط هذا الامبراطور وترجم إلى اللاتينية مؤلفات من أرسطو وابن رشد وابن سينا ، وفي عام ١٢٢٨ أهدى إلى الامبراطور كتابه «LIBER PARTICULARIS» وهو عبارة عن مزيج من علم الفلك والحساب وعلم العالم وعلم النجوم. وعندما حاول تفسير نشوء العالم تكلم عن تولّد المعادن عن الزئبق والكبريت والتراب كما قالها العرب من قبله وخاصة ابن سينا فإن إدخال التراب إلى الكبريت كما صنع ابن سينا يعتبر محاولة عقلية معقولة لتفسير فكرة هذا الفيلسوف العربي.

ويرى ميخائيل سكوت أن الذهب يحتوي على مادة كبيرة من الكبريت غير متناسبة مع مادة الزئبق بينما الفضة تتضمن كمية أكبر من الزئبق بالنسبة إلى الكبريت والتراب كما ان الحديد يملك مادة أكبر من التراب. وبعد هذه التحليلات النظرية يقول ميخائيل أن الكيمائيين حاولوا تبديل المعادن بمزجها بأرواح خاصة : الزئبق والكبريت والزرنيخ وملح الأمونياك وهي الأرواح الأربعة الموجودة عند الرازي واستخدام هذه الطريقة يخلق مادة جديدة لها ظواهر الذهب.

ويقول أنه من الممكن تحويل النحاس إلى ذهب والزئبق أو الحديد إلى فضة ولم يتحدث

قط عن الحجر الفلسفي. وقد ذكر بطريقة غير مباشرة أنه على اتصال ببعض الكيمائيين العرب في جزيرة ميورقة وحلب وتونس.

عام الألف:

عندما اقترب عام الألف دبَّ الرعب في قلوب البشر على اعتقادهم أن العالم قد انتهى وستقوم القيامة كما جاء في رؤيا مار يوحنا. ولكن ما كاد العام يتوارى ويبتدي عام ١٠٠١ حتى عاد الأمل والرجاء إلى النفوس مما ساعد على انتشار الفلسفة والرغبة في التوفيق بينها وبين اللاهوت. قام بهذه الحركة الجديدة راهب إيرلندي اسمه «سكوت اريجين»١٠ فهذا المفكر الجريء يعتبر أن الفلسفة لا تختلف عن الدين، ونعرف أن الأفلاطونية الحديثة قد تسرّبت إلى الغرب بلباس أرسطو وظلَّ الأمر كذلك حتى القرن الثالث عشر لما اكتشف أرسطو على حقيقته بواسطة الترجمات. وكانت قضية الكليات والجزئيات موضوع مناقشات لا حدّ لها في المدارس والجامعات، وكانوا يقولون أن فكرة الإنسان موجودة حتى ولو لم يوجد إنسان واحد على الأرض.

وظهرت الموسوعات العلمية، أول موسوعة ظهرت في فرنسة كانت لبرتولومي غلانفيل، راهب فرنسيسكاني انكليزي وكان قارئاً في باريس عام ١٢٢٠ وعلى ما يظهر انها سبقت موسوعة البرتوس الكبير إذ لا يأتي على ذكرها ونالت نجاحاً كبيراً ونسخت مراراً عديدة وترجمت إلى الفرنسية ثم طبعت في عصر الانبعاث وما لبثت أن تناساها الناس شيئاً فشيئاً.

اهتمَّ برتولومي هذا بالكيمياء ولكنه لم يجرِ تجارب بل اقتصر عمله على إيراد ما جاء قبله عن أرسطو وابن سينا والرازي.

ثم صدرت موسوعة أخرى نالت شهرة واسعة توازي شهرة سابقتها وصاحبها هو «فينسان دي بوفي» «VINCENT DE BEAUVAIS» وكـان قارئاً للويس التاسع ملك فرنسة توفي بعد عام ١٢٦٠ لأنه في هذا العام بالذات كتب إلى الملك لويس التاسع يعزّيه بفقد ابنه وليّ العهد.

تميّز «فنسان» في المدرسة بذكائه فوجّهه معلموه نحو الاكليروس فتعلم اللغة اللاتينية واليونانية والعربية والعبرية، مما أتاح له الاطلاع على النصوص الأصلية. انخرط في سلك رهبنة عبد الأحد ولكنه لم يتوصل إلى التعليم لأنه لم يحصل على درجة «دكتور» ومع ذلك فقد ذاعت

شهرته بحيث أن الملك لويس التاسع عيّنه قارئاً في البلاط ومشرفاً على دروس أولاد الملك وكتب للملك مقالة في تعليم وتربية ورثة العرش.

مرآة العالم الكبرى:

موسوعة من عشرة مجلّدات، في المجلّد الثامن درس المعادن، واستعان بمؤلفات الرازي وابن سينا وجابر بن حيان. والترتيب الذي تبنّاه «فينسان دي بوفي» قريب جداً من ترتيب الرازي: يتحدث عن أربعة أرواح معدنية، ونشوء المعادن يتّفق مع ما قاله ابن سينا بشأنها. ويتحدث عن التلوين ولكنه مثل سابقيه يجهل الحجر الفلسفي القادر على تحويل جميع المعادن إلى ذهب، ولم يعرف سوى الأصباغ بالأبيض والأصفر فيخلق من ذلك الذهب والفضة ويقول: انه من المستحيل تحويل الفضة إلى ذهب باستعمال الصباغ الأحمر الذي لا يتغيّر بتأثيرات العوامل التي تحرق الفضة ولكن لا تؤثر على الذهب. وكذلك فإن الصباغ الذي يُبيِّض به النحاس لا يصونه من العوامل التي تذيب النحاس ولا تؤثر على الفضة.

ان الموسوعتين اللتين كتبهما «برتولومي غلانفيل» و«فينسان دي بوفي» هما عبارة عن أفكار علمية جاءت عن العلماء الاسكندريين وعن العرب وأحدثت تأثيراً عظيماً جداً. وقبل هذا العصر بجيلين أي في القرن العاشر تحدّث «جربرت» الذي أصبح البابا سلفستر الثاني عن أهمية الدراسات العلمية، فهذا هو المشعل الذي أضاءه أشرق على المدرسيين الكبار أمثال «ألبرتوس الكبير» الملفان الجامع، وتوما الاكويني، الملفان الملائكي و«روجير بيكون» الملفان العجيب.

ألبرتوس الكبير: (١١٩٣ – ١٢٨٠)

وُلد في سوابية (المانية) من عائلة شريفة وتثقّف ثقافة عالية. زار المانية وفرنسة وايطالية جرياً على عادة الأشراف في ذلك العهد، وربطته صداقة مع الأب جوردين رئيس رهبنة الإخوة المبشّرين. ومن المعروف انه في القرن الثالث عشر كانت حياة الإنسان العلماني معرّضة للخطر حتى وان كان من الأشراف، فإذا شاء أحدهم الانصراف إلى العلم عليه أن يعتنق الحياة الرهبانية وتمكن الراهب جوردين من إقناع تلميذه بالانخراط في سلك رهبنته. وبعد سنوات قليلة شاهدنا ألبرتوس في «كولن» الالمانية يشرح العلوم المقدسة والعلوم الطبيعية. ونالت دروسه شهرة واسعة فانتقل إلى «فريبورج» ثم إلى راتسبون. وفي عام ١٢٤٥ قرر رؤساؤه إرساله إلى

باريس للحصول على درجة «معلم» وقد بلغ من كثرة الحاضرين للاصغاء إليه أن ضاقت بهم القاعة فاضطر إلى إعطاء الدروس في العراء وفي ساحة أُطلق عليها اسم ساحة المعلم ألبرت.

وفي عام ١٢٥٤ أصبح رئيساً إقليمياً لمنطقة ساكسون، ودعاه البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ – ١٢٦١) إليه غير أنّ ألبرت فضَّل الهدوء والدرس في غرفته بكولن وتخلى عن جميع وظائفه لينصرف تماماً إلى الدراسة كما تخلى أيضاً عن رتبة أسقف راتسبون لما وعده بها البابا. وساءت صحته في آخر حياته فقد أُصيب بداء السكتة فتحوّل إلى جسد بدون نفس وعاش بعدها ثلاثة أعوام حياة نباتية.

مؤلفاته ضخمة مشكّلة من ٢١ مجلّداً مطبوعة بليون عام ١٦٥١، قلما نجد فيها أفكاراً مبتكرة، فقد استقى معارفه من الترجمات اللاتينية ومن العلماء العرب. لقد رغب في تدعيم أُسس اللاهوت بتركيزه على العلوم العلمية.

درس فن الكيمياء في خمسة كتب بشأن المعادن والفلزات، وقد طُبعت هذه الكتب في روان عام ١٤٧٦ والبندقية عام ١٥٤٢.

لقد تسرّب الشك في صحة نسبة بعض الكتب إليه.

نجد عنده المبدءين: الكبريت والزئبق. شارك أهل عصره في معتقداتهم فقد نسب كما نسبوا إلى حجر الالماس حسنات تأتي على الإنسان، وإلى حجر القمر سيّئات وويلات تصيبه.

في الكتاب الثالث من هذه الكتب الخمسة يتحدث عن تركيب المعادن فإن فيها رطوبة إذ انها تستطيع أن تتحول إلى سوائل إذا سلّطت عليها النار.

ويرى ألبرت أن بعض المعادن كالذهب لها صورة واحدة كاملة أما المعادن الأخرى فصورتها غير كاملة، فيها بعض النقص ومن اللازم شفاؤها من هذا النقص عن طريق الأدوية أو بإكسير مركّب بحيث أنه يدخل في المعدن الذي نريد معالجته، مثلاً لكي يتحول النحاس إلى فضة حقيقية والرصاص إلى ذهب والحديد إلى فضة، ولكي يتم شفاء هذه المعادن يجب إخضاعها للنار فاذا استطاعت احتمالها فمعناها أنها شفيت من مرضها.

وبعضهم يرى أن كل فلز له صورتان الواحدة منظورة والأخرى مستترة ويستطيع الفن إخراج هذه الأخيرة إلى الظهور مثل الرصاص له صورة وخواص الذهب فإذا أحرقنا مظهره الخارجي ظهر ما اختفى منه وبان الذهب.

والذين يأخذون بالرأي الأول عليهم أن يضيفوا إلى الفلز ما ينقصه لبلوغ الكمال.

وقد اعترض ابن سينا على قضية إمكان التحويل من حالة إلى أخرى بطريقة اصطناعية، فانه يرى أولاً إعادة الفلز إلى المادة المعدنية الأولى وحتى إلى المادة الأولية التي تتشارك فيها جميع الفلزات وهذا خارج عن القدرة البشرية وأماناتها، وقرأ ألبرتوس الكبير هذا الاعتراض الذي أبداه ابن سينا غير انه لم يثبط عزائمه، فاذا كان الأطباء ينقذون المرضى من عِلَلِهم فلماذا لا يتصرّف الكيمائيون على هذا الشكل ويقتدون بالطبيعة ومختبرها الضخم؟ ولهذا يكفي معرفة تصرفات العوامل الفلكية أي كيف أن الأجرام السماوية تؤثر على الكائنات الأرضية.

في كل فلز كبريت:

يقوم الفن الكيمائي بالقضاء على الازدواج المعدني لنزع صورته منه وانتاج صورة اخرى فاذا لم يتبدل جوهريا، واذا اكتفينا بتبييضه او تحميره بصباغ اصفر فاننا لم نتوصل الا الى تزييف الفضة او الذهب ويقول البرت: «اني لاحظت ذلك بنفسي اذ وقع تحت يدي ذهب كيمائي ولكنه ليس ذهبا، فقد سلطت عليه عامل النار ست او سبع مرات فتلاشى ولم يبق منه سوى الرماد».

غير ان التأثيرات العلوية غير كافية فان الفلزات لا تتولد في اي مكان من الطبيعة بل في اماكن ملائمة لها ويريد البرت ان يشير الى الرمال الفضية على ضفاف الرين او يقصد مناجم في فريبورج من اعمال سكسونية فان الاستعدادات والمؤهلات الموجودة في هذه الامكنة سمحت للابخرة ان تمر في تلك الاماكن ما شاءت من المرار لكي تصطبغ بصبغة تلك الارض وتحولها الى عروق ذهبية او فضية.

والكتب الخمسة عن الفلزات تدرس خواص هذه العناصر، مثل الذوبان واللون والذوق والتأكسد اي تدمير الفلزات بواسطة النار وهذه العملية هي كيمائية بينما الخواص الاخرى فيزيقية وميكانيكية، ويرى البرت الملفان العالمي ان اللون مهم جدا وتبديله يعني تحويل الفلز الى فلز آخر.

ويصف في الكتاب الرابع تركيب المعادن من الكبريت والزيبق اللذين هما اب وام جميع المعادن كما يقول ابن سينا فالزئبق العادي هو الزئبق الاصلي الممزوج بقليل من الكبريت، والرصاص يحتوي على نسبة عالية من الكبريت غير الصافي وزئبقه ليس من النوع الجيد. والذهب هو الفلز الوحيد الذي لا تشوبه شائبة فالكبريت فيه صاف تماما وزئبقه مزيج متزن تماما من الحرارة والرطوبة.

والكتاب الخامس والاخير يحلل بطريقة مماثلة الاملاح والمعادن الاخرى فحجر الشبه «ALUMBRE» زئبقه من الدون وقد تجمد ليس بفعل الكبريت فقط بل ايضا بواسطة الزرنيخ شقيق الكبريت وهذان الروحان هما تؤامان ويستطيع الكيمائيون استخدامها بدون تمييز لاجل التلوين.

لقد استعمل البرت الكبير في كتبه الخمسة كلمة «الفة» اي تفاعل كيمائي بين العناصر فيقول: نفهم بالكبريت هذا الجسم الكيمائي العادي، يحرق الفلزات بسبب «الالفة» في الطبيعة.

نسب لالبرت كتاب عنوانه «حول الكيمياء». هل هو من تأليفه؟ كلا – لان فيه افكارا وآراء ترجع الى القرن الخامس عشر ولكن قد يكون هذا الكتاب عبارة عن توضيحات وملاحظات كتبت على هوامش احدى المخطوطات ثم اضيفت مع الزمن الى النص الاصلي. وقد اعتاد المؤرخون ان يردوا هذا الكتاب الى جابر، ولا نقصد جابر ابن حيان بل جابرا آخر وضع كتاب «SUMMA PERFECTIONIS» «الكمال الاسمى» متأخر التأليف، وكتاب الكيمياء المنسوب الى البرت الكبير ليس سوى ملخص للكتاب السابق وهذا الاخير يتضمن فكرة جديدة هامة جدا وهي «الحجر الفلسفي» وهو كناية عن صبغة عامة شاملة تستطيع تحويل المعدن الخسيس الى ذهب او فضة. بينما البرت في كتبه الخمسة التي اشرنا اليها لا يتكلم عن هذا الحجر الفلسفي، ولذلك فالكتاب منحول، وليس هو الكتاب الوحيد الذي نسب الى البرت الكبير دون ان يكون من تأليفه فقد نسبت اليه كتب كثيرة مثل «تركيب التراكيب» ومقالة في الحجر الفلسفي، وقد تكاثرت هذه الاعمال المنحولة من قبل اشخاص شغفوا بعلم الكيمياء، وعلى كل حال فمن السهل تمييز الحنطة من الزؤان.

توما الاكويني:

نقل ألبرت الكبير معارفه لتلميذه توما الاكويني صاحب «الخلاصة اللاهوتية والخلاصة ضد الأمم». وُلد في ايطالية في حضن عائلة شريفة النسَب أبوه على صِلَة رحم بامبراطور المانية وأجداد أمه توارثوا عرش صقلية. تقبّل «القند» اكينو الفتى علومه الابتدائية عند رهبان مونتي كاسينو. ثم أرسله أبوه إلى جامعة نابولي فقرّر الانعزال عن العالم والتحق برهبانية «عبد الأحد» (الدومنكان)، وألبرت الكبير ينتسب إليها فشبَّ بين الاثنين صداقة حميمة، وما لبث توما الاكويني أن انتقل إلى باريس للتخرّج من جامعتها عام ١٢٥٢. ورفض، مثلما رفض معلمه

قبله ، الوظائف التي عرضها عليه البابا مثل مطرانية نابولي والاشراف على دير مونتي كاسينو ، ففضّل الانصراف إلى الدراسة وتخلى عن جاه العالم وفخفخته.

ويعلّق الدكتور الملائكي وهو لقبه ، أهمية على تأثير الكواكب على العالم الأرضي ، فهو يرى أن الأجرام السفلية يسيّرها الله بواسطة الأجرام العلوية ، وهذا التأثير يتم عن بُعد وهو شبيه بعمل المغناطيس أي عملية الجاذبية . ففي رأيه أن الكواكب تمارس تأثيراً غير مباشر على إرادات البشر ودون أن تتوصّل تماماً إلى القضاء على حريتهم في أعمالهم ، وبهذا ينقذ الحرية الإنسانية.

نسب الناحلون إلى توما الاكويني مقالة في «الحجر الفلسفي» ونسب إليه أيضاً كتاب يحمل عنوان : «**الفجر الناهض**» «AURORA CONSURGENS» ولكن جميع هذه النصوص المنحولة ترجع إلى ما بعد العصر الذي عاش فيه توما الاكويني ويرى توما الاكويني أن الكيمائيين يحصلون على مادة يظنون أنها ذهب وليست ذهباً وإن كانت تملك جميع خواص الذهب الخارجية ولكنها ليست ذهباً . لأنه يستحيل الحصول على ماهية الذهب باستعمال حرارة النار فقط مثلما يصنع الكيمائيون ، فلا بدّ من حرارة الشمس في مكان طبيعي حيث تستطيع قوتها الطبيعية أن تعمل على مهل وهكذا فإن الذهب الكيمائي لم يصل إلى النوع المطلوب منه.

ولو ان الكيمائي يملك العلم من أطرافه لاستطاع خلق جميع الظروف وتكافئها.

اختراع الحجر الفلسفي : «روجير بيكون» Roger Bicon

لا شك أن ألبرت الكبير أجرى تجارب في المختبر على حسابه الخاص ، ولكن توما الاكويني لم يتبع هذه الطريقة ولا أصحاب الموسوعات في ذلك العهد ، ومن الطبيعي أن المعرفة لا تتقدّم إذا اكتفى العلماء بمراجعة آراء الأقدمين بدل أن يدرسوا بأنفسهم العوامل الطبيعية . لقد اعتاد الناس أن ينسبوا الأسلوب الاختباري إلى روجير بيكون وهو تلميذ ألبرت الكبير غير أن كلمة اختبار لا تعني في مدلوله ما تعنيه اليوم فالاشراق المنبثق من عند الله على الصوفيين يعتبر اختباراً عند روجير بيكون في القرن الثالث عشر والاختبار العلمي في المختبر ليس سوى الدرجة الأولى من درجات الحكمة . ورغم كل ما قيل عن روجير بيكون فانه مدرسي لم يتخطَّ عصره وحياته مليئة بالشقاء خلافاً لحياة زملائه . وُلد رُجير بيكون عام ١٢١٤ في انكلترة ودرس في جامعة اكسفورد على معلمين مشهورين جداً مثل روبرت غروستستي البعيد كل البُعد عن تعاليم أرسطو ، وفضَّل أعمال الحكماء العرب.

لم تنعم جامعة اكسفورد بالشهرة التي نَعِمَت بها جامعة باريس فتوجّه روجير إلى العاصمة الفرنسية أُسوة بجميع طلاب العصر وتلقّى الدروس فيها من فم ألبرت الكبير من عام ١٢٤٨ إلى عام ١٢٥٠، ولكن حكمه عليه صارم جداً فلنسمعه: «اني ولا شك آخذ بكلامه أكثر من جميع العلماء العاديين لأنه رجل يحب الدرس، قرأ كثيراً وجمع ملاحظات والتقط معلومات مفيدة». وهنا ينتهي المديح ويبتدئ الهجو يواصل الكلام عنه: «انه مخطئ من أساسه، لا يعرف شيئاً، ولم يدرس اللغات ولا شيء من العلم الاختباري، ومع ذلك فانه في باريس يعتبر الملفان الأكبر، وأخجل العلم... انها سخرية لم يعرفها العالم قط».

ثم يعذره من ناحية أخرى فيقول عنه: «ان الجهل لا يعتبر جريمة يوجد عدد كبير من الناس من اكليروس وعلمانيين جهّال ومع ذلك فلهم فائدة في هذا العالم الأسفل».

فهذا التصرّف من قِبَل روجير بيكون من شأنه أن يجلب له متاعب بغنى عنها، فانه قد تعرّض لعلماء عصره الآخرين: توما الاكويني هذا الرجل الشهير الكثير الأخطاء. اسكندر الهالي «يجهل الفيزياء وعلم ما وراء الطبيعة والمنطق وقد عفنت مؤلفاته لأنه ليس من أحد يقراؤها».

والقديس بونونتورا أيضاً لم ينجُ من لسان روجير بيكون فهو يعزي نفسه على جهله ويروي سفسطائياته لشعب أحمق يسمع له..

روجير بيكون تعرّض لجميع علماء عصره بالذم ولكنه احتفظ بمدائحه لشخصيات أقل شهرة، فانه خص معلماً اسمه «بطرس»، بالتقريظ فالمعلم بطرس يعرف فن الشفاء والعلاقات بين العناصر السماوية والعناصر الأرضية يعرف تذويب المعادن وقد ولج في أسرار الذهب والفضة اخترع آلات حرب رهيبة. ولكن هذا الرجل المتواضع لم يسعَ نحو الشهرة ولا نكاد نعرف شيئاً عنه (١).

ورأى بيكون أن لا مندوحة له عن اعتناق الحالة الرهبانية إذا شاء أن ينصرف إلى التأمل في جميع الأفكار والمعلومات التي تضطرب في دماغه، وبتأثير من صديقه «غروستستي» الذي كان يكره رهبان عبد الأحد أي الدومنكان انخرط في سلك رهبان الفرنسيسكان، غير أن اختياره جاء وبالاً عليه فقد تعرّض للاضطهاد من اخوانه الرهبان بجميع الوسائل الممكنة حتى

(١) يظهر انه «بيار دي ماريكور» وهي قرية صغيرة من بيكارديا، وقد أثر بيار على روجير بيكون، وله تأليف في المغناطيس وضعه عام ١٢٦٩.

أطفأوا فيه عبقريته فلسانه الذي لا يراعي أحداً مهما كان جلب عليه المصاعب والويلات ، ولكن بعض المؤرخين يرى أن هذه المتاعب حصلت له من جرّاء أفكاره الجريئة في علم النجوم.

رأينا تفكير توما الاكويني في تأثير النجوم على البشر ولم يتعرض للاضطهاد بسبب هذه الفكرة فلماذا تعرّض له «روجير بيكون» فهذا الملفان العجيب كما يلقّبونه ، بحث بحثاً دقيقاً في علم النجوم ، باذلاً جهده في التمييز بين علم النجوم المأذون به وعلم النجوم المحظور تعاطيه. وهذا الأخير يفترض أن جميع الأشياء تجري حتماً بقوة الكواكب فليس من شيء عارضاً وليس من شيء يحدث صدفة وليس من شيء يتم عن اختيار الارادة. ولا تطبق أحكام النجوم على الحالات الفردية الخاصة بل على الحالات العامة ، ويرى أن علماء النجوم يقتصرون على التأمل في كيف أن عمل السماء يؤثر على الأجسام وكيف أن هذا التأثير في الجسد يحثّ النفس على تنفيذ بعض الأفعال العامة والخاصة ، ولكن حرية الخيار تظل بنجوة في جميع الأحوال ، فالنفس العاقلة ليست على الاطلاق خاضعة لأحكام العوارض الفلكية.

يقول روجير بيكون للبابا اقليمندوس الرابع (١٢٦٥ – ١٢٦٨) : «ادرس تطور جميع الأديان التي توالت منذ بدء العالم متّبعاً بذلك رأي العالم الفلكي العربي «أبي معشر».

وفي مكان آخر يقول : لقد بحث الفلاسفة سير الديانات الست الكبرى في العالم انطلاقاً من توافق المشتري مع بقية الكواكب ، والديانة المسيحية ناتجة عن التوافق بين المشتري وعطارد. وفي هذه النظرية كثير من الجرأة والهرطقة ، فاذا كان الدين المسيحي ناتجاً عن الانسجام بين عطارد والمشتري فماذا ترك لعمل الوحي الالهي المتأتي من السيد المسيح؟

وهذا الرأي كلّفه النفي من قِبَل رئيس عام الفرنسيسكان بونافنتورا إلى أحد الأديار في باريس وحظر قراءة مؤلفاته بعدما وضعت في أمكنة لا تصل إليها الأيدي.

يعتقد روجير بيكون بقوة العلم التي لا حد لها ، فقد أوصلته مخيلته إلى تصور باخرة تسير بدون ملاحين أو يستطيع ملاّح واحد أن يقودها بسرعة أكبر مما لو كانت مشحونة بالملاّحين ، وتخيل أيضاً سيارات تسعى بسرعة مدهشة دون أن يجرّها شيء ، وآلات للطيران يجلس فيها الانسان ويضغط على رقّاص يحرّك أجنحة اصطناعية تضرب الهواء مثلما تصنع الطيور.

من أين جاء بهذه المعارف؟ لا شك أنه قرأ بعض الكتب العربية المفقودة.

وآراؤه عن الكيمياء مدهشة أيضاً فقد تحدث في مؤلفاته عن فكرتين مجهولتين وهما «الحجر الفلسفي» واكسير الحياة فيقول : إذا صوّبت أوقية من الحجر الفلسفي على ألف أوقية من

الرصاص حوّلتها إلى ذهب. ويستطيع الانسان أن يصل إلى أبعد من ذلك فالقوّة الموجودة في الحجر الفلسفي تستطيع أن تطهّر المعادن غير النقية من جميع أدرانها.

فهذا التأثير العجيب على المعادن لا يرضي مخيلة «الملفان العجيب» فقد أضاف إليه اكسير الحياة. في أحشاء الأرض يوجد الذهب بعيار أربعة وعشرين قيراطاً. والعملية الطبية السرية قادرة على استخراج جميع الأجزاء الفاسدة من المعدن الخسيس ويحوّله إلى ذهب، كما انه بواسطة الفن يمكن الوصول إلى ما لا حدّ له من القراريط. وبواسطة هذا السر العجيب يمكن تطهير الطبيعة البشرية من جميع أدرانها، وهكذا يطول عمر الانسان. لا يمكن تحويل الإنسان الميت إلى إنسان حي قبل أن يتحوّل إلى مادته الأولى، وهذا هو الانسان المتّزن الكامل الذي نلبسه في القيامة العامة.

كيف الوصول إلى الحجر الفلسفي؟

يقول روجير بيكون في كتابه «OPUS MINUS» ما يلي:

قال ابن سينا في رسالته الموجّهة إلى حسن... انه للوصول إلى الذهب لا بدّ من قطع أربع مراحل والفضة ثلاث مراحل وبهذا يتولّد مزيج كامل بفضل «المياه الخاصة»... كل هذا مبهم تماماً ولا ندري أين وجده روجير بيكون عند ابن سينا.

عندما نتحدث في القرن العشرين عن هذا الانتاج «الحجر الفلسفي» يجب أن نقدّمه على شكل محدود شبيه ببعض الأجسام الكيمائية المعروفة، غير أن الحجر الفلسفي يختلف تمام الاختلاف عن هذه الكيانات الروحية التي نسميها الملاك أو الشيطان، ولكن في نظر روجير بيكون الملاك والحجر الفلسفي والصدأ هي من درجة الاختلاطات ولا تختلف إلا من حيث درجة اللطافة.

تشريح المعادن: يذكر روجير بيكون في كتابه المذكور أعلاه، صفات كل معدن من جهة ويقابله بالكبريت والزئبق من جهة أخرى ويستعين بابن سينا في كتاب «أحجار الشب» والأملاح.

الفضة: باردة رطبة تحتوي على الكثير من الزئبق وقليل من الكبريت.

النحاس: رطب وحارّ وزئبقه ليس نظيفاً وكبريته أصفر وتطبيخه في أحشاء الأرض لم يكن من الكمال الذي حصل في تطبيخ الذهب.

القصدير : حارّ ورطب زئبقه كثير البياض والاشراق ولكن كبريته ضعيف جداً لسؤ الحظ .

وكما نرى فإن هذا التحليل غامض ولا يقوم على اختبار .

ارناو فيلانوفا ١٢٤٥ – ١٣١٣ «ARNAU VILLANOVA»

لا يُعرَف بالضبط أين وُلد في اسبانية أم في جنوب فرنسة والحقيقة انه وُلد في قرية صغيرة من قضاء بلنسية . درس في «اكس» وعندما بدأ يمارس الطب كان قد تعلم العبرانية والعربية . وقبل أن يعود إلى «مونبليه» ليتقن ثقافته الطبية مكث في باريس حوالي عشرة أعوام ، رغم انهم في هذه المدينة لا يدرسون الطب . اكتشف العلوم العربية ، ولكي يعرفها على حقيقتها توجه إلى اسبانيا ، وفي عام ١٢٨٦ أعطى دروساً في الكيمياء الطبية بمدينة برشلونة . وحدث أن ملك أراغون بطرس الثالث أُصيب بمرض فأمر بإحضار «ارناو فيلانوفا» ، ولكن لسؤ الحظ وصل بعد فوات الأوان فإن حكمة أرناو لم تتوصل إلى إنقاذ المريض الكريم .

ثم انتقل إلى رومة ولم تطل إقامته فيها إذ انه في عام ١٢٨٩ نجده من جديد في مونبلييه مديراً لمدرسة الطب فيها ونال شهرة واسعة خوّلته التعرّض لرجال الاكليروس بحيث انه توصل إلى القول : ان أعمال البرّ والمحبة تجاه المساكين والفقراء وتطبيبهم يفضلها الله على القداسات الاحتفالية .

أخذت دواوين التفتيش تراقبه ولمّا لم تستطع مهاجمته مباشرة اتهمته بالتعاطي بعلم الفلك والتنجيم على شاكلة بيكون ...

وضع كتاباً عنوانه «TRATADO SOBRE ANTICHRISTO» «مقالة حول المسيح الدجال» ؛ تنبّأ في هذا الكتاب عن أن المسيح الدجال سيأتي في عام ١٤٦٤ ، بسبب تلاقي المشتري مع زحل في بيت الحوت ، فهو يرى أن الحوت يتحكّم بمصير المسيحية . وقد ارتكب أرنو الحماقة لما قبل أن يكون سفيراً للملك جقمه الثاني الأراغوني في باريس في بلاط الملك فيليب الجميل ، فاعتقله هناك ديوان التفتيش ، ونجا بفضل تدخل أصدقاء نافذين فهرب والتجأ إلى إيطالية حيث شفى البابا «بونيفاسيوس» الثاني (١٢٩٤ – ١٣٠٣) من مرض خبيث . مكث بعض الوقت في بلاط نابولي ثم توجه إلى باريس لنشر أفكاره في إصلاح العبادة الكاثوليكية . وكان الردّ سريعاً ، استؤنفت الاضطهادات ضده واستطاع الفرار بصعوبة وأخيراً

وجد حماية في صقلية فدعاه البابا اقليمندوس الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤) الذي أُصيب بمرض عضال وقد أُتيحت له الفرصة هذه المرة للانتقام من مضطهديه ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى أفنيون ، كرسي البابوية الجديد ، فقد توفي في الطريق وقد تكون وفاته بحادث غرق . واضطهدته محكمة التفتيش بعد موته فحرمت مؤلفاته وأُحرقت بعض كتبه .

ومع ذلك فتآليفه ضخمة : عمل في الطب وعلم النجوم والفلسفة والأحلام والسحر والكيمياء طبعاً . من مؤلفاته في الكيمياء :

«شجرة ورد الفلاسفة»	:	- EL ROSAL DE LOS FILOSOFOS
«زهرة الزهور»	:	- LA FLOR DE LAS FLORES
«النور الجديد»	:	- LA LUZ NUEVA

شجرة الورد :

يقسم إلى قسمين : عشرة فصول نظرية واثنان وثلاثون فصلاً تطبيقياً ، يتبع التقليد في الفصول النظرية ويعتبر أن الزئبق الذي هو أصل المعادن ، خرج من أرض بيضاء وماء زلال ، وعند اتحاده بالكبريت الكائن في الأرض تكوّنت المعادن بالتطبيخ الطويل . وعلى الكيمائي أن يقتدي بهذا العمل الذي تقوم به الطبيعة ، إذا شاء صنع الدواء القادر على شفاء المعادن غير الكاملة . ولكي تزهر شجرة الورد الكيميائية في حديقة الفلاسفة يجب احترام الشرائع الطبيعية .

يعتقد أرنو أن الزئبق يحتوي على الكبريت وهذا ما يسمح له بالتحويل إلى ذهب إذا تكافأت الشروط المطلوبة ، ويستطيع الكبريت المختبئ بالزئبق أن يمارس عمله اذا سلّطت حرارة ملائمة على جسم رطب بطبيعته ، وبالتالي قابل للذوبان . فالنار الخارجة من الفرن تثير في الدرجة الأولى انحلالاً يتميّز باللون الأسود الذي يصيب الأجسام المنحلّة ، فاذا استمرَّ تسليط عمل الحرارة على المخلّفات من الزئبق والكبريت يتحول السواد إلى بياض ثم إلى اصفرار وأخيراً إلى احمرار وهذه هي العلامة التي لا تقبل الشك بأن هذا الجسم قد وصل إلى درجة عالية من الكمال .

كيف يُعالَج هذا الحجر الفلسفي : ؟

كيف تجترح هذه الأعجوبة ؟ وما هي المواد الضرورية لحدوثها ؟ من الناحية النظرية ، يمكن

العودة إلى المادة الأولى التي تتركّب منها المعادن ولكن العملية مستحيلة من الناحية التطبيقية ومن الأفضل استعمال تلك الأشياء المختلطة التي هي أشبه ما يكون بالكمال المطلوب . الفضة تحتوي على أحسن وأجود كبريت أبيض ، والذهب يحتوي على أجود كبريت أحمر وهذان المعدنان هما أب الطب وأُمه .

وقد ورد في شجرة الورد الفلسفية ، المراحل الأربع أو طرق العمل وهي : التذويب ثم التنظيف ثم التحويل وأخيراً تثبيت الصورة .

تذويب أو تحويل المادة الأساسية الجافّة بواسطة الزئبق ويحولها إلى المادة الأولى ثم توضع فوق نار خفيفة بحيث ان العناصر تتطبّخ وتفسد حتى تصبح سوداء .

والمعالجة الثانية تقوم بتنظيف هذا السواد وتطهير العناصر الأربعة الموجودة في المركّب المنحلّ .

ثم يُكرَّر على نار خفيفة لاستخراج الماء منه . ثم تقوّى النار ، فالهواء الذي امتزج مع الجزء من النار الذي يتركب منه الجسم المركّب يتبخّر على شكل زيت التراب يظل في الكير .. يعمل الكيمائي على أن يغسل بعناية كل واحد من الأجسام المستخرجة ويبلّل رواسب التراب بالماء المقطّر ، ويعدّ عدّة عمليات تكرير فيقترب أكثر فأكثر من الزئبق الفلسفي .

والمعالجة الثالثة تقوم في تحويل الناشف بواسطة الرطوبة للحصول على مادة متصلّبة ناصعة البياض تتخذ صورة نهائية في المعالجة الرابعة بمزجها بجسم يحملها وحينئذٍ يمكن زيادة كمية الدواء الذي حصلنا عليه إذا تكرّرت العملية ، ففي كل مرة يربح واحدًا على عشرة ، وإذا كان الجزء الأول يستطيع تحويل مائة جزء إلى ذهب أو فضة ففي العملية الثانية يمكن الحصول على ألف وفي الثالثة على عشرة آلاف والرابعة مائة ألف والخامسة مليون (ألف ألف) .

هؤلاء اشتغلوا في الكيمياء خلال القرون الوسطى واستمر العمل بالصنعة في عصر الانبعاث بحثاً عن الاكسير أو الحجر الفلسفي لتحويل المعادن إلى ذهب ولكن لم يتوصل أحد منهم إلى هذا الغرض المنشود .

وسار على خطى هؤلاء رامون لول ١٢٣٥ – ١٣١٥ و «بدره لمبرده» ، ونقولا فلاميل ١٣٣٠ – ١٤١٧ ، وبرونشويك و «باراسلسو» المولود عام ١٤٩٤ .

وهكذا منذ ابن سينا والرازي وألبرت الكبير وتوما الاكويني ورامون لول وارنو فيلانوفا واغريكولا وبارسلسو وغيرهم كثيرون من العصور القديمة والمتوسطة والنهضة والحديثة عملوا في

الكيمياء، ولا يجب أن نعتقد أن جميعهم حاولوا تحويل الرصاص والكبريت إلى ذهب خالص. المهم عندهم محاولة تفسير حدوث العالم بصورة منطقية على أساس نظرية العناصر الأربعة... وجاء العصر التاسع عشر عصر الاختبار والتجربة وأخذ يتساءل كيف أن علماء بهذا الذكاء المعروف عنهم حاولوا تفسير تركيب الأجسام بالماء والتراب.

وعلم الكيمياء يُعرَف بأسماء كثيرة منها «السر الأعظم» والسر المكتوم «والصنعة الالهية» والحجر المكرّم والحجر الفلسفي. وكان غرضهم في مزاولة الكيمياء تحضير المعادن النفيسة من المعادن التي دونها مرتبة أو تحضير دواء يشفي الأسقام والعِلَل أو لأسباب أخرى لا منفعة مادية منها بل فلسفية محضة.

والطرق التي استعملها الكيمائيون العرب ونقلها عنهم الغربيون هي هذه:

التقطير : وهو من أولى العمليات التي قام بها العرب وأحبّها إليهم إذ بواسطة جهاز التقطير أمكنهم أن يفصلوا الجسم المُراد تحضيره وتصعيده إلى بخار ثم تكثيفه إلى سائل. ويتكوّن جهاز التقطير من إناء يوضع فيه الجسم المُراد تصعيده وانبيق وقابلة التقطير.

الملغمة : وهي ذوبان المعادن في الزئبق ثم استخلاصها بواسطة التصعيد.

التسامي : تمكّن العرب من فصل الجسم الطيّار بتسخينه حيث يتكاثف بخاره إلى مادة صلبه دون المرور على الحالة السائلة، والتسامي للأرواح هو بمنزلة التكليس للمعادن.

التكليس : وهي تسخين الجسم في الهواء وتشمل هذه العملية على الأكسدة وتكاد تكون مقصورة على المعادن لأنها تبدأ بالتسخين الشديد الذي لا تقوى عليه الأرواح (ملح النشادر) فتتطاير، والغرض منه إزالة الشوائب الممتزجة بالمعدن وحرقها فتتركه نقياً.

التبلر والتبلور : تستعمل هذه العملية كأداة للتنقية كما في فصل البلورات من ماء البحر المالح.

الترشيح : كانوا يرشحون موادهم بواسطة مناخيل أو قطع من القماش.

وتقدّم العرب في علم الكيمياء ساعدهم على التقدّم في علم الصيدلة فهم الذين اكتشفوا حامض الكبريتيك وحامض البتريك والقلويات (هيدروكسيد الصوديوم، وكلوريد

الزئبقيك ، ويوديد الزئبق والانتيمون ونيترات الفضة والبورق وحمض الطرقيروالكحول وروح الخل) .

واذا لم يتوصل علماء العرب ولا علماء الغرب إلى صناعة الذهب من المعادن الخسيسة ، فانهم اليوم في عصرنا الحاضر قادرون على هذه الصناعة وتحويل الحديد أو النحاس مثلاً إلى ذهب ولكن تكاليفه أكثر من قيمته.

لقد كانت نظرية العرب صحيحة وان لم يتمكنوا من تنفيذها.

الفصل الثالث عشر

ترجمات تحققت في ايطالية

سالم بن فرج «FERRAGUTH»

معلوماتنا عن هذا الرجل مأخوذة من مقدمة لاحدى ترجماته. نعرف عنه ترجمتين: الحاوي للرازي والتقويم لابن جزله[1] وقد جاء الكتاب على هذا العنوان:
«Tacuini aegritudinum»

اما معلوماتنا عن الناقل فنستقيها من كتاب الحاوي.

اسيء فهمه اساءة كبيرة، فمن مجرد قراءة اسم الملك شارل المسيحي، جعلوا من سالم بن فرج «فراغوت»، طبيب شارلمان واضافوا اليه زميلا من الاطباء الذين ترجمهم.

يستهل مقدمة ترجمة كتاب الحاوي باعطاء صورة تاريخية عن الطب، ويتوقف عند الرازي. ثم يتحدث عن كتاب الحاوي. فقال عنه انه ظل مجهولا عند اللاتين حتى تأثر بشهرة هذا الكتاب الملك شارل D'Anjou (دانجو) المالك على القدس وعلى صقلية، واقتنع بانه سيكون جليل الفائدة له ولجميع النصارى، فقد شاء هذا الملك ان يجمع بين السيف والقلم فامر بترجمة كتاب «الحاوي».

طلب الكتاب من ملك تونس بواسطة سفارة كبيرة ضمّت رجلا لبقا واثقا من نفسه

---

١ – يقول عنه ابن ابي اصيبعة: انه يحيى بن عيسى بن علي بن جزلة، وكان في أيام المقتدي بأمر الله وقد جعل باسمه كثيرا من الكتب التي صنفها، وكان من المشهورين بعلم الطب وعمله وهو تلميذ ابي الحسن سعيد بن هبة الله. ولابن جزلة ايضا نظر في علم الادب. وكان يكتب خطا جيدا منسوبا وكان نصرانيا قد اسلم والف رسالة في الرد على النصارى وكتب بها الى اليا القس.

ولابن جزلة من الكتب كتاب تقويم الابدان – رسالة في مدح الطب وموافقته الشرع والرد على من طعن عليه – رسالة الى القس اليا سنة ست وستين واربعمائة هـ.

يحسن العربية واللاتينية (لا شك انه مترجم هذا الكتاب كما يقول لوسيان لكليرك..)

شرع في الترجمة واعاد النظر بها بواسطة معلمين واطباء من البلاط وخارج البلاط، من نابولي وسلرنه فاعطاهم الوقت الكافي لهذا العمل الجليل، واجمع الكل بالشهادة بحسن الترجمة وبجودة المؤلف.

ويقول هذا المترجم: «اذا لم تأت الترجمة دقيقة في بعض الاحيان فمضمون الكتاب يحتوي الكثير من الفائدة نظرا لجدته».

والامانة التي يتحدث عنها فرج بن سالم ليست متوافرة في عمله الترجمي. فليس فحوى الكتاب غامضا، او فاسدا انما الغموض متأت من نقل الكلمات التقنية العربية واسماء الاعلام. والظن كل الظن ان المترجم اعتمد على مخطوط واحد لم يستطع السيطرة عليه اذ ان الاسماء المذكورة فيه والمكررة قد حرفت بصورة فاضحة بحيث انه يستحيل قراءتها بدون العودة الى النص العربي.

ان هذا النقل المضطرب معزو الى المترجم لانه، اما لم يترو في ترجمته واما لم يضبط الوسائل الكفيلة بمراقبة هذه الترجمة واما لانه يجهل تاريخ الطب عند اليونان والعرب...

فيكون فراغوت قد اهدى ترجمته هذه الى الملك شارل دانجو سيد نابولي وصقلية شقيق الملك لويس التاسع الفرنسي القديس. توفي شارل دانجو عام ١٢٨٥ وبهذا يمكن ان نضعه في مصاف الملك الفونسه العاشر الحكيم القشتالي والامبراطور فردريك الثاني الالماني.

ومن الواضح ان هذه الترجمة لم تصنف قبل الحملة الصليبية الثامنة، اي قبل عام ١٢٧٠.

نجدها في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٦٩١٢ في خمسة مجلدات ضخمة مكتوبة بخط واضح ومزينة بالصور تزيينا جميلا..

نقرأ في نهاية المجلد الخامس:

«Explicit translatio libri el «hawy» in medicina compilati per Mahumed bizaccaria el Razy, facta de mandato Excellentissimi regis Karoli, gloriae gentis christianae, coronae filiorum baptismatis et luminis peritorum, permanus Magistri Ferragii judei filii magistri Salem de Agregento, devoti interpretis ejus... die lune XIII februarii VII indictionum, apud Neapolim».

وهذا يعني انه في عام ١٢٧٩، انجز فراغوس اليهودي ابن المعلم سالم من «اغريجنت»

ترجمة كتاب «الحاوي» في مدينة نابولي وشارل دانجو في هذا العهد كان مازال في اوج عزه اذ توفي كما اشرنا عام ١٢٨٥.

تعتبر هذه الترجمة من اهم الترجمات في تاريخ الطب ولكن لسوء الحظ ان اسماء الاعلام محرفة تحريفا فاضحا بحيث ان الاسم الواحد يأتي مختلفا عشر مرات. وعلينا ان نرجع الى كتاب الادوية المفردة لسرابيون لنجد هذا الاختلاف في ذكر اسم العلم الواحد في اسماء متعددة.

طبع كتاب «الحاوي» اربع مرّات.

ثانيًا: ترجمة كتاب «تقويم الابدان» لابن جزلة، وهذا الاسم محرف ايضا في الترجمة تحريفا غريبا.

نقرأ في مستهل الطبعة الاولى مقدمة صادرة عن المترجم فقد اعتبر ابن جزلة طبيب الملك شارل دانجو الخاص او ان التأليف مهدى اليه.

ونقرأ ايضا في هذه المقدمة ان الترجمة حققت بناء على رغبة الملك شارل دانجو، والمترجم او الناقل هو فراغوس اليهودي (سالم بن فرج)».

ونظراً لقلة اسماء الاعلام لم تقع هذه الترجمة في الاخطاء الفاضحة التي وقعت بها ترجمة «الحاوي».

ثالثًا: يمكن ان ننسب اليه ترجمة «تقويم الصحة» لابن بطلان [1] وقد طبعت الترجمة في استراسبورج تحت عنوان:

«Tacuimi sanitatis Elluchasem Elimithar (Abulhasen Majtar)»

وهذا الاسم اقل تحريفا وتشويها في مخطوط باريس رقم ٦٩٧٧.

---

١ – هو ابو الحسن المختار بن بطلان نصراني من أهل بغداد وكان قد اشتغل على ابي الفرج عبد الله بن الطيب. وكان ابن بطلان معاصرا لعلي بن رضوان الطبيب المصري وكانت بينهما مراسلات عجيبة يسفه الواحد رأي الآخر في كل كتاب يؤلفه... سافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر في سنة احدى واربعين واربعمائة واقام بها ثلاث سنين في دولة المستنصر بالله من الخلفاء المصريين وجرت مع ابن رضوان وقائع كثيرة. ولابن بطلان من الكتب كناش الاديرة والرهبان. كتاب تقويم الصحة الذي ترجمه فراغوت، مقالة في شرب الدواء المسهل، مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقي الادوية المسهلة وتركيبها. كتاب المدخل الى الطب، كتاب دعوة الاطباء، كتاب وقعة الاطباء كتاب دعوة القسوس، مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة.

رابعًا : في المكتبة الوطنية بباريس يوجد مخطوط يحمل رقم ٧١٣١ عنوانه :
«Cyrurgia Johannis Mesue quam Magister Ferranus judeus transtulit in Neapoli in latinum».

ولا يوجد اثر لهذه الترجمة في اي مكان آخر، وهذه احجية بالنسبة لنا فانه لا اثر للجراحة في لائحة مؤلفات يوحنا بن ماسويه.

يقسم هذا التأليف الى خمسة فصول : في المقالة الاولى يتحدث عن علم البدن، في الثانية عن الادوية.

وعندما يتحدث عن الكسر يستعمل كلمة الجبر.

شاء لكليرك ان يرى في هذا الرجل غير «فراجوت» اليهودي او سالم بن فرج.

اما من حيث كلمة «Cyrurgia» «الجراحة» فانها لا تعني الجراحة كما جاء في هذا الكتاب المنسوب الى يوحنا بن ماسويه، اذ يذكر ان المقالة الاولى تتحدث عن علم البدن او التشريح والثانية عن الادوية وكما نرى ان لا ذكر للجراحة فيه.

وقد اصاب لكليرك حين قال انه من المحتمل ان يكون عاش على عهد شارل دانجو، اذ ان الترجمة جرت في نابولي واكثر الترجمات جرت في عهد الملك شارل دانجو الذي بقي عشرين سنة في الملك من عام ١٢٦٥ الى ١٢٨٥.

اسطفن المسيني Stephanus de Messena

لا نعرف عن اسطفن المسيني سوى ما ذكره لكليرك في كتابه تاريخ الطب العربي وهو ان اسطفن هذا ترجم مقالة في علم الفلك تحمل اسم هرمس وهذه الترجمة موجودة في المخطوط رقم ٧٣١٦ والمخطوط رقم ٧٣٥٧ في المكتبة الوطنية بباريس تحت عنوان :
«tractatus de judiciis C. propositionum»

والعنوان بالعربية هو: فصول لعطارد الحاسب في الاسرار السماوية».

والمخطوط العربي الاصلي موجود في مكتبة الاسكوريال رقم ٩٣٩ وفي فهرس الغزيري رقم ٩٣٤ ويقول الغزيري انه يحتوي على مائة فصل من علم الفلك عن عطارد البابلي. ويضيف الغزيري ان المقصود به هو هرمس الاول المثلث النعم «Trismegiste» فانه كان قبل الطوفان. ومعنى هرمس لقب كما يقال قيصر، وتسميه الفرس في سيرها «اللهجد»

وتفسيره ذو عدل. وهو الذي تذكر الحرانية نبوته وتذكر الفرس ان جده كيومرت وهو آدم ويذكر العبرانيون انه احنوخ وهو بالعربية ادريس.

قال ابو معشر: هو اول من تكلم في الاشياء العلوية من الحركات النجومية، وان جده كيومرث وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار وهو اول من بنى الهياكل ومجد الله فيها واول من نظر في الطب وتكلم فيه وانه الف لاهل زمانه كتبا كثيرة باشعار موزونة وقواف معلومة بلغة اهل زمانه في معرفة الاشياء الارضية والعلوية وهو اول من انذر بالطوفان ورأى ان آفة سماوية تلحق بالارض من الماء والنار.

كان مسكنه صعيد مصر فبنى هناك الاهرام ومدائن التراب وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وهو الجبل المعروف بالبربابر باخميم وصور فيها جميع الصناعات نقشا وصور جميع آلات الصناع واشار الى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصا منه على تخليد العلوم لمن بعده. وان ادريس اول من درس الكتب ونظر في العلوم وانزل الله عليه ثلاثين صحيفة وهو اول من خاط الثياب ولبسها ورفعه الله مكانا عاليا.

هذا ما جاء عنه في «عيون الانباء»... لابن ابي اصيبعة.

اهديت الترجمة اللاتينية الى الملك منفريد وقد جاء فيها.

«Suo Manfredo inclito regi Siciliae Stephanus de Messana hos flores de secretis astrologie divi hermetis transtulit».

مهداة الى الجليل مولاي منفريد ملك صقلية من اسطفانوس المسيني هذه الزهور في اسرار النجوم المترجمة.

وقد ظهرت طبعة في البندقية عام ١٤٩٢ تقول بدل «Suo Manfredo»
«Domino Manfredo»

مانفريد الصقلي Manfred

هو ابن فردريك الثاني من احدى السيدات الايطاليات الجميلات، هو ولد غير شرعي. لمّا توفي والده الامبراطور عام ١٢٥٠ تبوّأ عرش المانيا ابنه كونراد الرابع، غير ان الامبراطور الجديد لا يستطيع ضبط الامور في المانية وفي صقلية البعيدة فاستلم الامور هناك اخوه من ابيه، منفريد وسار على خطى الوالد، «ومن يشابه اباه فما ظلم». فاشتغل في الادب والعلم وقرب اليه العلماء ولا سيّمَا العرب فانه مثل والده اعتمد عليهم.

يقال عنه انه ترجم كتابا من العربية الى اللاتينية عنوانه «De pomo» «كتاب التفاحة» وقد نسب هذا الكتاب الى ارسطوطاليس ، فيقال ان ارسطو في ساعته الاخيرة كان يتلهى مع تلاميذه وفي يده تفاحة.

وكما قلنا فان نسبة هذا الكتاب الى ارسطو ليست صحيحة فبالحقيقة كتاب التفاحة ليس سوى صورة جديدة لكتاب «فدرا» وضعه افلاطون وترجمه الكندي ، ووصل الى «اخوان الصفاء» ، وعرف في شمال اسبانية.

في المخطوط رقم ١٤٧٠٠ بالمكتبة الوطنية بباريس يظهر هذا الكتاب منقولا الى اللاتينية وتقول المقدمة ان الناقل هو منفريد.

ولكن هناك صعوبة صغيرة فالمقدمة تقول ان الكتاب قد نقل من العربية الى العبرانية ومن العبرانية الى اللاتينية. فهل كان منفريد يعرف العبرانية ايضا؟ هذا امر مشكوك فيه.

توصل هذا الامبراطور منفريد الى تكلم اللغة العربية لانها كانت تقع في اذنيه باستمرار والمسلمون عزيزون على قلبه ، واعتمد عليهم دون سواهم عندما حرمه البابا ، فان عشرة آلاف مسلم رافقوه في المعركة التي خاضها ضد شارل دانجو ولكنه قتل فيها لان انصاره من الايطاليين والالمان تخلوا عنه في اشد ساعات المعركة التي جرت في «بنفنتو» «Benevento»

ونجد عن منفريد هذا مقطعًا جميلا في تاريخ ابي الفدا احتفظ به جمال الدين تلميذ ابي الفدا.

وكان جمال الدين قد ارسله السلطان بيبرس سفيرا الى منفريد ، ويقول عن هذا الاخير انه محبا للعلم وعنده كتاب اقليدس. وجمال الدين هذا كتب لمنفريد مقالة في المنطق عنوانها الامبراطوري.

JOHANNES BRISCIENSIS, PROFATIUS يوحنا البريشي وبروفاسيوس

وهذان مترجمان آخران يعملان معا هما يوحنا البريشي وبروفاسيوس اليهودي نعرفهما من خلال ترجمة مقالة الصفيحة للزرقالي الموجودة في المخطوط رقم ٧١٩٥ في المكتبة الوطنية بباريس عنوان المقالة :

«Liber tabulae quae nominatur saphea patris Isaac Arzachelis, translatus de arabico in latinum anno 1263, Profatio gentis hebreorum vulgarisante et Johanne brisciensi in latinum reducente».

كتاب الصفيحة للزرقالي نقله من العربية الى اللاتينية عام ١٢٦٣ بروفاسيوس المترجم باللغة الدارجة ، ثم حوله الى اللاتينية البروسنسي . وبروفاسيوس هذا كما اشرنا يهودي ولد في انكلترة حوالي عام ١٢٨٠ وترك مقالة حول حركة الكرة الثامنة .

في مكتبة بودليان مخطوط يحمل رقم ١٠٢٦ يقول ما يلي :

«Tractatus de novo quadrante M. Profacii judei Marsiliensis sapienti Aaroni in monte pessulano dedicatus, anno 1293».

دروغون DROGONE

نعرفه من ترجمتين :

الاولى «لمشاء الله» وهي موجودة في المخطوط رقم ٧٣١٦ وتحمل هذا العنوان :

«Epistola Messehalloe in pluviis et ventis, a Magistro Drogone translata de arabico in latinum».

– «رسالة ما شاء الله في الامطار والرياح ، نقلها عن العربية الى اللاتينية المعلم دروغوني » .

اما الترجمة الثانية فهي هذه :

«Epistola Alkindi de aeribus et pluviis a Magistro Drogone de arabico».

– «رسالة الكندي في الرياح والامطار نقلها من العربية المعلم دروغوني » .

نجدها في المخطوط رقم ٧٤٣٩ من المكتبة الوطنية بباريس .

بتافينوس «PATAVINUS» وابن زهر

لم يأت اسم هذا المترجم دائما على هذا الشكل فمرة يأتي « باتافيسيوس » «Patavicius» ومرة اخرى « بارافسيني » «Paravicini» ولا شك ان هذا الاسم هو لقب او شهرة المترجم الذي ولد في « بادوا » بايطاليا وكانت هذه المدينة مركزا للدراسات العربية .

نعرفه من خلال ترجماته كأكثرية زملائه الذين جئنا على ذكرهم . ساعده في الترجمة « يعقوب اليهودي » قد تكون الترجمة مأخوذة عن العبرية ، فقد وضعها يعقوب اليهودي باللغة الايطالية ثم نقلها باتافينوس الى اللاتينية . وهذا النوع من الترجمات ليس غريبا علينا

فقد شاهدنا امثاله في طليطلة بين دومنقه غندسلبه ويوحنا الاسباني وبين جيرارده الكريموني ومساعده غالب.

وجاء عنوان الكتاب «التيسير» لابن زهر على هذا الشكل:

«Liber Theizir dahalmodana va haltadabir cujus est interpretatio rectificatio medicationis et regiminis, editus in arabico a perfecto viro Abimeron Abyn Zoaher».

وخاتمة الكتاب جاءت على الشكل التالي في طبعة البندقية عام ١٥٥٤:

«Completus est liber» theyscir el mudawar editus in arabico a discreto viro Abymeron..., translatus Venetiis ab hebraico in latinum a Magistro Patavino physico, ipso sibi vulgarisante Magistro Jacobe hebree in medicina et aliis scienciis plurimum erudito, currente Anno 1281, 21 Augusti, Ducante Joanne Dandolo, sui ducatus anno secundo, anno Arabum 679».

وفيها الكثير من الاخطاء، ولا عجب في ذلك فهي مأخوذة عن الايطالية، وطبع مع كتاب «التيسير» مقالة في الحميات وهي بالفعل فصل من «التيسير».

وقد ترجم كتاب التيسير ايضا الى اللاتينية «كامبانوس»، وقد نسبوا الى هذا المترجم نسبة خاطئة كتاب اقليدس. ويقول المترجم في المقدمة كيف انه كشح ظلام اليهودية ليحل محله نور الكثلكة، وكيف انه انصرف الى دراسة الآداب العبرية واللاتينية وكيف قرر ترجمة كتاب «التيسير» بناء على وصية احد رؤساء الاساقفة.

«Explicit liber taysir medicinarum sapientis Habenzoar, translatus ex lingua hebraica in latinam, ad honorem catholice fidei et ad vite augmentum honorabilis patris et archiepiscopis Brachancuus... Johannes humilis servus Christi de campana, qui per Dei gratiam in utraque lingua peritus exstitit».

ابن زهر

والاسم الكامل لابن زهر هو ابو مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر لحق بابيه في صناعة الطب وكان جيد الاستقصاء في الادوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة قد ذاع ذكره في الاندلس وفي غيرها. وكان على ايام الخليفة الموحدي عبد المؤمن ومن مؤلفاته: «التيسير في المداواة والتدبير» الفه للقاضي ابي الوليد بن رشد بين عامي ١١٢١ - ١١٦٢ ويقول ابن رشد في نهاية كتاب «الكليات»: «فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء واحب ان

ينظر بعد ذلك في الكنانيش فاوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي الفه في زماننا هذا ابو مروان بن زهر، وهذا الكتاب سألته انا اياه وانتسخته».

وكتاب التيسير في المداواة والتدبير مرتب حسب الترتيب التقليدي اي ذكر امراض الاعضاء من الرأس حتى القدم. **مخطوطات الكتاب**: واحدة في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٩٦٠، ونسخة اخرى في بودليان رقم ٢٥٥ واخرى في فيرنزى (ايطاليا) رقم ٢١٥.

يتحدث عن الكبد وامراضها ومعالجتها فيقول انه احد الاعضاء الرئيسية والكبد بذاتها عضو رئيسي له آثار عظيمة وافعال جسيمة ولذلك قال ابقراط: ان كنا نحيا حياة طيبة فبصحة اكبادنا، والكبد ينبوع القوة الطبيعية التي بها يكون الهضم والانضاج والجذب والدفع

متى اصاب قوتها المغيرة ضعف عرضت في البدن آفات بحسب ذلك الضعف كالاستسقاء. واما ضعف الكبود الذي يكون فيها من حيث انها عضو آلي فمثل السد ومثل الورم فان الورم من امراض الاعضاء المتشابهة الاجزاء فان برء ذلك بتفتح السدة ان كان السدة واذهاب الورم ان كان ورما فان كان شيء عرض في الكبد مثلا صلابة تعرض فيها بسبب شرب ماء بارد على غير ما ينبغي او ضعف قوة بسبب افراط في اكل الخلول، فما كان عن صلابة لشرب ماء شديد البرد فليس يعالج من ذلك بمَا يسخن جزافا وما يكون فيه مع تسخينه قوة مقوية بالقبض المعتدل والعطرية والبابونج مع زهر الورد دواء نافع في ذلك ولتعلم انه قد تتركب انواع الاستسقاء كما تتركب انواع الحميات، واذا اجاد الطبيب النظر في الانواع كل على حدته سهل عليه ما يتركب واذا اجاد النظر ودققه في علاج كل نوع منها لم يصعب عليه ما يتركب منها كل بتوفيق الله وعونه.

ان كان ضعف الكبد عن افراط اكل الخلول فعالج من ذلك بما اصف وهو زبيب شمسي منزوع العجم وعود سوس مجرود، من كل واحد نصف رطل، قرصعنة وغافت من كل واحد ربع رطل، مصطكا اوقية، يرض من هذه الادوية ما يجب رضه فرادى وينقع ليلة في حدود ربع من ماء مغلي ويرفع غدوة على نار لينة حتى يذهب من الماء النصف فحينئذ يصفى ويضاف اليه الصفو من السكر نحو عشرة ارطال ومن العسل خمسة ارطال ويطبخ حتى يأتي شرابا محكما. والمأخود منه كل غدوة اوقيتان بست اواق من ماء عذب فاتر على خمسة دراهم من ذبيد الورد العشارى ويدهن الكبد من خارج بدهن حب الضرو ودهن فقاح البابونج بشطرين.

ويعرض في جوهر الكبد الورم وما كان في جوهرنا وقاح فاني لا ارجو برء ذلك بوجه لانه ينبوع قوى وبمرضه تختل تلك القوى ولاختلالها يعاجل الموت.

ويعرض في الكبد السدة وعلاج السدة في الكبد تفتيحها بماء طبخ فيه الغافت وكزبرة البئر والسقولفندريون وما اشبه ذلك ولعصارة الرازينج اثر محمود في ذلك.

ويعرض في غشاء الكبد ان تتمدد كما تتمدد سائر الاعضاء فيجد العليل بما يخيل اليه في الكبد وجعا لا يطيق احتماله وانما كان حس هذا الغشاء ذكيا لان كل ما يأتيه من العصب انما ينقسم فيه وهو صغير فيكون حسه حسا ذكيا. وهذا الوجع كان كثيرا ما يصيب علياً، وعالجته منه بدهن استخرجته من محاح البيض مع شحم بط فبرىء من يومه وكان يصيبه بعقب ذلك الوجع يرقان اصفر.

وعلي هذا هو ابن يوسف بن تاشفين المرابط.

ذكر ما يعرض في مراق البطن من الفتوق:

والمراق يعرض فيه الفتق اما لصدمة من عود او حجر على امتلاء البطن اما لوثبة عظيمة وخاصة على الشبع وقد يعرض لادمان السعال الشديد او لرفع الثقل العظيم ونحو ذلك.

والمرق متى عرض ذلك فيه وان كان الانسان صغيرا لا يزال يزداد عظما حتى يعظم جدا فيبرز شيء من المعي ويبقى لا تواريه الا جلدة البطن فيحدث في المعي القراقر واوجاع في البطن وتسؤ حال العليل بسبب انفتاق مراق البطن وخاصة اذا كان ممن يجهد نفسه ويتعبها اما بالمشي واما بالركوب وركض الخيل او الاعمال الشاقة، والانفتاق متصل التزيد اذا حدث لان الانسان لا بد له ان يتحرك حركات شديدة. واما فيمن يمكنه السكون والدعة فانه اذا قلل من التصرف وادام الرقاد على الظهر ويتجنب الصياح ويلطف في ان لا يسعل ولا يعطس ورد المعي وربط فوق البطن على ضماد يكون قابضا ولا يكون غليظ الجوهر ما امكن والتزم ذلك فيه فربما انتفع به.

والمراق جوهر رطب فلذلك يعثر التئامه وبسبب انه كثيرا ما يتحرك بحركات البدن. وقد رأيت رجلا كان صديقا لي عرضه فتق وكان قد بقي زمنا بسببه وكنت في ذلك الوقت فتى. فاصابت الرجل اوجاع شديدة لا اشك ان سببها كان اما اكل تفاح اكثر منه واما اكل عنب كثير فحدثت به اوجاع حادة عمت بدنه كله فكان لا يمكنه ان يتحرك الا عن مشقة شديدة

وبقيت اعالجه وحميته عن الاغذية اجمع الا يسير الخبز المختمر بصغار العصافير تفايا بيضاء يجاد طبخها حتى يكاد لحم العصافير ان يتهرأ. وبقي الرجل مدة كثيرة نحو شهرين راقدا على ظهره لا يصلي الا ايماء، وبعد ذلك ارتفعت الاوجاع بنفاد مادتها وبرىء منها برءا تاما وافاق وقام لا محالة وقد برىء مما كان يشكوه قبل من الفتق الذي كان اعياني بسبب تصرفه في ذلك الوقت. فلما اقام والتزم السكون افاق على طريق العرض فانه برقاده على ظهره انصرف المعي الى موضعه وبقي الموضع ساكنا كان غذاؤه يسيرا فكان بطنه خميصا فبرىء باجتماع هذا من غير ان يقصد احد علاجه من الفتق.

ذكر جراحات البطن:

ويعرض في البطن الجرح اما بحديدة او بخشبة تشق جلدة البطن والمراق معا فيبرز الثرب وعند بروزه يجب ان يصرفه صانع اليد وان اصابه تراب او غبار او نشارة خشب فيجب ان يغسل ذلك عنه بماء فاتر ثم يصرفه برفق فان تمزق منه جزء واسود فالحزم ان تقطع عنه ما تمزق وفسد، ثم يصرفه الى البطن وتخيط عليه بخيط حرير ابريسم وصانع الكف كفيل بعمل ذلك وانما عرفه علما لا عملا ويضع على الخياطة ما يعين على الالتحام ومع ذلك فيجب بسبب الجرح ان يلطف الغذاء ما يمكنه ليقل انصباب المواد. وان لم يخرج دم كثير فلا يضره ان يستفرغ من دم العروق الاكحل شيئا، وهذا أمر شامل في جميع الجراحات ليقل انصباب المواد. وربما خرج مع الخرج شيء من المعي وان خرج المعي صحيح لا آفة فيه كبيرة ولا صغيرة حاشا بروزه الى خارج فيجب المبادرة الى رده برفق كيلا يعرض عليه انتفاخ فلا يسع من حيث خرج فان وقع توان حتى اصاب المعي انتفاخ فيجب عند ذلك ان تصب ماء عذبا معتدلا في حرارة بحيث يلتذه الانسان بصفحه خده يصب منه على ما انتفخ صبا متواليا حتى تذهب النفخة فاذا ذهبت تسعى في رده بغاية الرفق ثم بعد ذلك يخاط الخرق من الجلدة ومن المراق بحرير ابريسم على غاية الرفق، الزم العليل السكون والا يرفع صوته ولا يتحرك ولا يتملأ من الطعام ولا من الشراب، وغذه بما يكون قليل الكمية كثيرة التغذية كاخصية الديوك تفايا يكفيك منها خصية ديك واجهد نفسك في نقل المواد وابعادها عن موضع الجرح ويجب ان يدهن من بعد حول الجرح بزيت ورد عطر طيب متناه ولا يتصرف العليل حتى يلتئم الخرق بحول الله.

واما ان اصاب المعي جرح من تلك الحديدة فان كانت في الامعاء الدقاق وكثيرا ما

يكون ذلك فما اظن الى علاجه من سبيل واما ان كان في المعي الغلاظ فربما عاش المريض.

فان كان الخرق انما حدث في طبقة واحدة من المعاء يمكن ان يبرا، واما ان كان انخرقت الطبقتان كلتاهما وخاصة ان كان خرقها له قدر فان البرء من ذلك بعيد جدا غير انه قد يمكن ان يعيش الانسان على تلك الحال، ورأى الاطباء ذلك وشاهدوه في الناس وفي الحيوان، فاما انا فرأيت رجلا يتغوط من جرح كان اصابه وبقي كذلك مدة طويلة وكان يتصرف في طلبه الرزق كثيرا وتمادت حياته غير انها كانت حياة سؤ.

ذكر امراض المعدة:

والمعدة يصيبها الهلاس والضعف حتى يدق جرمها ويكون كالخرقة فلا تهضم غذاء وانما ذكرت هذه الآفة وقدمتها لاغفال الناس لها وما كان على هذا فاحذر فيه الادوية المشهورة لتقوية المعدة مما يقبض ويجفف وربما اسخن. واما علامة هذه الآفة فهي ان يكون العليل لا يجد تهوعا في معدته ولا يجد عندما ينام جرى ريق من فيه وتكون شهوته ضعيفة جدا وهضمه اضعف بكثير وان يخرج ثفله غير منهضم ولا منسق ويكون الثفل قليل النتن يحرز لون المأكول ولا يتجشأ وان تجشا يسيرا وان يتعاهده الفواق وان تضر به الاطعمة المجففة كانت حارة او باردة وان يكون نبضه ضعيفا صلبا غير مختلف، فاذا رأيت هذه الاعلام فثق بان الآفة انما هي هلاس جوهر المعدة وهزاله، وان شهد لك مع ذلك ان ترى المعدة من خارج اذا رقد العليل على ظهره كأنها حفرة فلتزد ثقتك فان كان مع ذلك وكنت ذكي جس اللمس ووضعت يدك عليها ببعض شدة ولم يألم العليل لذلك وأحسست بحركة نبضه تحت يديك فاعلم ان حدسك صادق صحيح وان المعدة قد اصابها الهلاس، لان تلك الحركة النبضية انما تكون من الشريان المار على سلسلة الظهر من داخل، وبين ان تلك الحركة النبضية لم تكن تحس بها لولا هلاس المعدة. فلازم حينئذ دهنها بدهن اللوز الحلو مع يسير من دهن حب الضرو واجعل للاوقية من دهن اللوز الحلو درهمين من دهن حب الضرو واخلط الى ذلك ولو مثل عشر الجميع من ماء فاتر وضربه جدا وادهن المعدة من خارج وغذ العليل بالدجاج الفتايا الاناث تفايا يكون زيتها دهن لوز وتابلها صريرة مصطكا واجعل على المعدة من خارج خرقة خشنة قد مددت عليها زفتا قد لينته بدهن اللوز بعض التليين وليكن وضعك اياها على المعدة زمانا معلوما فانك ان ابقيتها اكثر مما تستحق اضررت بالعليل ولتكن المدة التي تقيم الزفت على المعدة من نصف ساعة الى ما حول ذلك ثم تزيل الخرقة بزفتها عن

المعدة وتدهن المعدة بدهن اللوز الذي اتخذ عليه دهن الورد، واسق العليل من لبن المعز لحين ما يحلب قبل ان يتمكن الهواء به وغذه بالدجاج او باخصية الديوك خير له من لحوم الدجاج واجعل غذاءه مقسوما على مرات وتوخ ان يكون سريع الهضم وجنبه من جميع الاغذية اليابسة كانت حارة او باردة...

هذه بعض مقاطع من كتاب «التيسير» لابن زهر وهو من أهم الكتب العربية في الطب وقلما خلت منه عيادة طبيب مسيحي في القرون الوسطى المتأخرة وعصر الانبعاث.

اوجانيوس سيقولوس Amiratus Eugenius siculus

اوجينوس سيقلوس ولد في صقلية ولا نعرف عنه شيئاً سوى انه ترجم كتاب النواظر لبطليموس.

يعتقد جوردين انه عاش في القرن الثالث عشر بينما «كوسين» (Caussin) يرده الى القرن الثاني عشر وهذا هو الصحيح اذ ان ترجمته ظهرت عام ١١٥٤.

ومن المعروف ان علم البصريات دخل الى اوروبة النصرانية في القرن الثاني عشر. فان اديلار الباثي ترجم كتاب البصريات لاقليدس عن ترجمة عربية اخرجها حنين بن اسحق واصلحها ثابت بن قرة. دخل بطليموس الى اوروبة بعد اقليدس بقرن تقريبا [١]

نجد هذه الترجمة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٧٣١٠ و ١٠٢٦٠، وتحمل هذا العنوان:

«Liber Ptolomei de opticis, sive de aspectibus, translatus ab Ammiraco Eugenio Siculo de arabico in latinum».

يستهل الكتاب بمقدمة ويرى ان عبقرية اللغات تخلق الصعوبات ولذلك اقتضى عليه ان يضع لهذا الكتاب مقدمة يشرح فيها موضوع بحثه.

والعنوان هو هذا: كتاب بطليموس في البصريات او المناظر ترجمه اميراكوس اوجنيوي الصقلي من العربية الى اللاتينية.

---

(١). A. Lejeune: «L'optique de Claude Ptolémée dans la version d'après l'arabe de l'Emir Eugene de Sicile, edition critique et exégetique, Louvain, 1956».

سيمون الجنوي وابراهيم الطرطوسي.

SIMON DE GENES, IBRAHIM DE TORTOSA

وهذا مترجم نصراني آخر يتعاون مع يهودي مثلما كان الامر على عهد رئيس اساقفة طليطلة « دون ر يمونده ». سيمون الجنوي راهب في دير روان بفرنسة ، طبيب البابا نقولا الرابع الذي انتخب عام ١٢٨٨. سافر الى صقلية واليونان ودرس علم النبات

نجد مؤلفاته في المكتبة الوطنية بباريس في المخطوطات رقم ٦٨٢٣ و ٦٩٥٨ و ٦٩٥٩ تحمل عنوان: «Glossarium medicinae, autore Simone Januensi Nicolai IV medico».

تهمنا ترجماته : اول ترجمة له مقالة في الادوية المفردة لسرابيون عنوانها كما ذكره لكليرك :

«Liber Serapionis agregatus in medicinis simplicibus secundum translationem Simonis Januensis interprete Abrahamo judeo tortuosiensi de arabico in latinum».

«كتاب سرابيون في الادوية الفردة حسب نقل سيمون الجنوي وابراهيم اليهودي الطرطوسي من العربية الى اللاتينية عام ١٢٩٠ ».

يقدمون لنا الترجمة مأخوذة عن العربية ولكن التأثير العبراني واضح فيها ، كما انه يمكن القول ان ابرهيم الطرطوسي لم يكن يعرف العربية معرفة جيدة اذ ان ترجمته فاسدة فالكلمات التقنية مهشمة تهشيا فاضحا.

٢ — الترجمة الثانية التي اداها المترجمان المذكوران تحمل عنوان :

«Liber servitoris liber XXVIII libri s ervitoris Bulchasim ben Aberazerin translatus a Simone Januensi, interprete judeo tortuosiensi».

وهذا الكتاب ليس سوى الفصل الثامن والعشرين من موسوعة الزهراوي « التصريف لمن عجز عن التأليف ». وهذه الترجمة تبحث في الصيدلة وقد نقلها الى الاسبانية « الفونسه ردريغس التطيلي» وطبعت في بلد الوليد عام ١٥١٦ ».

كما انه ترجم قسم منه الى القطالانية عام ١٣٣٢ ومنها الى اللاتينية [١] لا نعرف لهذين المترجمين غير هاتين الترجمتين.

---

(١) Juan Vernet: «La cultura hispano arabe en Oriente y Occidente». pag. 161.

غليوم الطرابلسي GUILLAUME DE TRIPOLI

انه من النصارى القلائل الذين استفادوا من اقامتهم في الشرق العربي حتى يدرسوا اللغة العربية.

ولد غليوم على الارجح في طرابلس من والد ووالدة مسيحيين، دخل في رهبنة الدومنكان في عكا، تجول في فلسطين وبشر بالديانة المسيحية، وتنصر على يده مسلمون واتراك. كان عليه ان يرافق «ماركو بولو» في رحلته الى الشرق الاقصى ولكن الغزوات حالت دون رغبته فتوقف في ارمينية. له مؤلف عنوانه «Statu Sarracienum» «دولة المسلمين». يبحث فيه عن تأسيس الاسلام وانتشاره.

نجد هذا التأليف في المخطوط رقم ٧٤٧٠. يبتدىء هكذا:

«Incipit tractatus fratris Guillelmi Tripolitani ordinis praedicatorum de Machumeto seductore sarracenorum, quis et qualis vitae et gentis fuerit et quando et qualiter tantam protestatem habuerit, et de sectae ejus et Alchorano, et quando secta sua debet finiri et fides Christi praevalere».

الترجمة: تبتدىء مقالة الراهب غليوم الطرابلسي من رهبانية الدومنكان عنوانها: «محمد، حياته وملته وقرآنه».

انتهى من كتابة هذه المقالة عام ١٢٧٣.

أهدى هذا الكتاب الى «تيبو» «THIBAUD» الذي كان موجودا في عكا لما وصل اليه نبأ انتخابه بابا عام ١٢٧١ واخذ اسم غريغوريوس العاشر. وهذا البابا هو الذي حمل الفونسه العاشر الحكيم ملك قشتالة (اسبانية) على التخلي عن لقب امبراطور المملكة الرومانية المقدسة لصالح الملك الالماني رودولف الهبسبوري. الذي شاء ان يعد حملة صليبية.

غليوم المربكي Guillaume de Morbeke

ولد في موربيك «Morbeke» وهي محلة في ضواحي بروكسيل، توفي عام ١٢٨٦، لا يعرف تاريخ ميلاده بالضبط، ولد في اوائل القرن الثالث عشر. انخرط في سلك رهبانية الدومنكان توصل الى ان يصبح مطرانا على قرنثية عام ١٢٦٨، تعلم اللغتين اليونانية والعربية كما يقول مؤرخو جمعيته، وهذا ما حمل رؤساءه على ارساله الى اليونان. رافق البابا غريغوريوس العاشر الى مؤتمر ليون وهناك مع الاساقفة اليونانيين رتل القداس في عيد القديس يوحنا. اصبح

كردينالا قضى فترة من حياته النشيطة في ايطالية حوالي عام ١٢٧٤

انصرف غليوم الى الترجمة من اليونانية الى اللاتينية ومن العربية ايضا ، غيران اكثر ترجماته مأخوذة عن اليونانية رأسا أو صحح الترجمات اللاتينية الموجودة في أيامه بناء على طلب توما الاكويني الذي ينتسب ايضا الى جمعيته الرهبانية.

اهتم بنوع خاص في ترجمة تلك المؤلفات من ارسطوطاليس التي لم تنقل الى اللاتينية :

١ – كتاب السياسة لارسطو وقد ذكره توما الاكويني للمرة الاولى في تأليفه «خلاصة ضد الامم» وقد قام بهذه الترجمة عام ١٢٦٠.

٢ – ريطوريقا، الخطابة لارسطو أيضا.

٣ – المقالة الحادية عشرة والثانية عشر من كتاب ما وراء الطبيعة لارسطو.

٤ – الاثار العلوية لاسكندر الافروديسي في مدينة نيقية عام ١٢٦٠. «Meteoros»

٥ – في طيباس عام ١٢٦٠ انهى كتاب اجزاء الحيوان «De partibus animalium»

٦ – كتاب شرح «قاطيغورياس (المقولات) لارسطو» والشارح هو سمليقيوس، المقالة الرابعة.

٧ – ترجمة شرح كتاب النفس لارسطو من قبل ثمسطيوس. عام ١٢٦٧.

٨ – كتاب السماء لسمبليقيوس، عام ١٢٧١ «De coelo»

كل هذه الترجمات وغيرها مأخوذة من اليونانية الى اللاتينية.

وقد نقل ايضا كتابا عن العربية كما يقول القديس توما الاكويني وهو كتاب «الجواهر العالية» لبرقلس وقد اطلق عليه اسم «Elementatio theologica» انهى الترجمة في فيتربو عام ١٢٦٨ نجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقمه ١٦٠٩٧

– نقل ايضا كتاب الاغذية لجالينوس.

– كتاب تقدمة المعرفة لابقراط.

وهذا النقل عن العربية نجده في المخطوطين رقم ٦٨٦٥ و ٧٣٣٧ في المكتبة الوطنية بباريس.

ارمنغود ARMENGAUD DE BLAISE

طبيب مونبيليه كان من حاشية الملك فليب الجميل وعاش في اواخر القرن الثالث عشر.

تعلم اللغة العربية مع اليهود في مونبيليه. واصبح طبيبا للملك جقمه Jaime الثاني الاراغوني واقليمندوس الخامس بابا رومة

نُعرّف له ثلاث ترجمات :

١ – ارجوزة ابن سينا في الطب شرح ابن رشد ، والترجمة موضوعة تحت عنوان : «A VICENNAE CANTICA» وظهرت عام ١٢٨٠ .

كان تأثيرها عظيماً طوال أجيال عديدة انعكس عند اطباء كثيرين منهم :

الدروتي ALDEROTTI (١٢٢٣ – ١٢٩٥).

برندون BRENDON (١٣٠٠ – ١٣٧٢).

برنغاريو من كبري BERENGARIO DA CARPI (١٤٦٠ – ١٥٣٠).

ادواردیس EDWARDES (١٥٠٢ – ١٥٤٢).

اوستاخي EUSTACHI (١٥٠٠ – ١٥٧٤).

وانعكست ايضا في اعمال الطبيب الغرناطي اليهودي موسيس هامون ، طبيب سليمان الفاتح وهذا الطبيب عاش من سنة ١٤٩٠ – ١٥٥٤ Moses Hamon

٢ – **الكليات لابن رشد** COLLIGET ان ما يجعلنا ان ننسب هذه الترجمات الثلاث الى ارمنغود وجودها في مخطوط واحد ، والترجمة مأخوذة عن نص عربي لا عبراني .

غير ان «فيرنيت» يرى ان مترجم كليات ابن رشد هو «بوناكوسا» «BONACOSA» وقد طبعت هذه الترجمة في البندقية عام ١٤٨٢ [١]

٣ – **في الصحة** «De sanitate» لموسى بن ميمون ونجد المخطوط في مكتبة بودليان رقم ٩٧٤ والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو «**مقالة في تدبير الصحة**» ، نقلت ، عام ١٢٩٠ كان قد صنفها ابن ميمون للملك الافضل علي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ١١٩٨

(١) Juan Vernet: LA CULTURA HISPANOARABE EN ORIENTE Y OCCIDENTE, Ariel Historia. Barcelona 1978. pag. 257.

٤ — نقل الى اللاتينية عن العربية «**مقالة في الربو**» لموسى بن ميمون كتبها في مصر حوالي عام ۱۱۹۰ ويرى ابن ميمون ان مناخ مصر الجاف يساعد على ازالة الربو وقد نقلها « ارمنغود بن بليز» الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وقد نقلت هذه المقالة الى العبرية مرتين في المرة الاولى عن اللاتينية وفي المرة الثانية عن العربية.

٥ — نقل ايضا الى اللاتينية مقالة اخرى لموسى بن ميمون عنوانها : «**كتاب السموم والمتحرز من الادوية القاتلة**» عنوان هذه المقالة باللاتينية «DE VENENIS» وقد وضعها ارمنغود للبابا اقليمندوس الخامس وقد نالت هذه الترجمة بعض الشهرة.

الفصل الرابع عشر

توما الاكويني وابن رشد

العقل والايمان عند سيغر البرابنتي وتوما الاكويني

فيلسوفان من القرن الثالث عشر، بطلا نظريتين متعارضتين بشأن العلاقات التي يجب ان تكون بين العقل والوحي. تبنى الاثنان وجهات نظر متباينة.

ومع ان سيغير لم يعرض نظريته بطريقة واضحة تدل على استقلال العقل ازاء الوحي فقد لخصها «ماندوني» من بعض جمل متفرقة ومن مواقف سيغر نفسه. ففي كل مرة يأتي بقضية جريئة مخالفة للعقيدة المسيحية يعلن أنه اتبع سلطة ارسطوطاليس وليس متطلبات العقل الطبيعي رغم اعتقاده ان تلك السلطة تتفق وهذه المتطلبات. فالمسائل الغامضة عند ارسطو تتضح عند ابن رشد. وعندما يناقش البرتو الكبير او توما الاكويني يقول انهما ليسا ضد العقل الطبيعي بل ضد فكرة ارسطو وبكلمة فان الفلسفة في نظر سيغير هي ارسطو ولا يستطيع العقل ان يصل الى ابعد مما وصل اليه ارسطوطاليس.

وتجاه هذه الطاعة العمياء للسلطة البشرية يرى القديس توما الاكويني ان غاية الفلسفة لا تقوم في تحقيق ما قاله العلماء بل في معرفة حقيقة الاشياء. ورغم ان توما الاكويني يَعتَبر ان حجة السلطة البشرية اوهى الحجج فلا ينكر قيمتها ولا ينكر ايضا ضرورة استشارة اعمال الفلاسفة الذين سبقوه وسلطوا عليها الاضواء التي تكشف الصالح منها والفاسد. وبالفعل هذا ما نهجه توما الاكويني في الكثير من مؤلفاته مؤكداً على شريعة الاستمرار التي يتطلبها تقدم العلم وتوسيع آفاق الفكر.

غير ان «سيغر» يتبع نهجاً على طرفي نقيض مع نهج توما الاكويني عندما يريد ان يحل مشكلة العلاقات بين العلم والايمان فيرى «سيغر» واتباعه ان الطريقة العلمية تناقض تماما

الطريقة الدينية بينما توما الاكويني يرى انهما متفقتان وان لم تكونا متجانستين.

ومن الواضح ان ما يسمونه المذهب الرشدي القائل بوجود حقيقتين لم يظهر واضحا عند أي أحد من الذين اتبعوا هذا المذهب وهم في اكثرهم من الاكليروس ولا تبلغ بهم الجسارة الى هذا الحد بل اقتصروا على الدفاع عن نظريتهم سرا ومع تلاميذهم، بل واكثر من هذا فان «سيغر» نفسه في كتابه «النفس العاقلة» يعلن بالحاح حقيقة الوحي المسيحي المطلقة ويؤمن بها بكل تواضع، ولكن هذا لا يمنعه عن المجاهرة فيما بعد بان العقل الطبيعي المتجسد في ارسطو يعلّم عكس ذلك.

الموقف الذي تبناه القديس توما الاكويني يقوم في ان الفلسفة أي **البحث العقلي عن ماهية الاشياء** تستطيع بذاتها ان تقود الانسان الى معرفة بعض الحقائق لا جميعها. فانه توجد حقائق فائقة الطبيعة تسمى «اسرارا» يستطيع العقل ان يدرك وجودها لا ماهيتها فيؤمن بشهادة الله المعصومة عن الخطأ والتي أوحاها لبني البشر بواسطة الانبياء في العهد القديم وبواسطة ابنه في العهد الجديد. وفعل الايمان هذا ليس مخالفاً للعقل بل يقوم على أسس تقنع ارادة المؤمن مثل العجائب والنبؤات التي يمكن البرهان عنها بالحقيقة التاريخية وبالعقيدة الموحاة.

كما أن ضرورة الوحي تشمل ايضا تلك الحقائق الطبيعية التي تستطيع الفلسفة ان تبرهن عنها لانها لو لم توح لكانت اقتصرت معرفتها على فئة قليلة جدا من الناس أي الفلاسفة وحتى هؤلاء يجهدون في الوصول اليها ممزوجة بكثير من الأخطاء.

ولذلك لكي يتوصل جميع الناس الى ادراك السعادة القصوى كان لا بدّ من الوحي من الناحية الادبية.

العقل والايمان في نظر ابن رشد:

لنسمع من فم ابن رشد أهم القضايا التي وردت عند توما الاكويني يقول ابن رشد في فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من اتصال: «ان كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها، وانه لما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فبيّن ان ما يدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب اليه.

... واذا تقرر ان الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس او بالقياس ، فواجب ان نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي. وبيّن أن هذا النحو النظر الذي دعا اليه الشرع وحث عليه هو اتم انواع النظر بأتم أنواع القياس وهو المسمى برهانا. واذاكان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان كان من الافضل أو الامر الضروري لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان ان يتقدم اولا فيعلم انواع البراهين وشروطها وبماذا يخالف القياس البرهاني القياس الجدلي والقياس الخطابي والقياس المغالطي ... فقد يجب على المؤمن بالشرع الممثل أمره بالنظر في الموجودات ان يتقدم قبل النظر فيعرف هذه الاشياء التي تتنزل من النظر منزلة الآلات من العمل.

... واذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وانواعه كما يجب النظر في القياس الفقهي فبيّن أنه ان كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وانواعه أنه يجب علينا ان نبتدىء بالفحص عنه وان يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة به ، فانه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه من ذلك كما انه عسير ان يستنبط واحد جميع ما يحتاج اليه من معرفة انواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي أحرى بذلك ، وان كان غيرنا قد فحص عن ذلك فبين أنه يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك سواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة فان الآلة التي تصح بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك اذاكانت فيها شروط الصحة واعني بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام.

واذاكان الامر كذلك وكل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغي ان نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صوابا قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه. فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها نقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها. فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب ان نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي افدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية.

وبيّن ايضا ان هذا الغرض انما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد وان يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم ، فانه لو فرضنا صناعة

الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام انسان واحد من تلقاء نفسه ان يدرك مقادير الاجرام السماوية واشكالها وابعادها ، بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك . مثال ان يعرف قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعا ، الا بوحي أو شيء يشبه الوحي . بل لو قيل له أن الشمس اعظم من الارض بنحو مائة وخمسين ضعفا أو ستين لعُدَّ هذا القول جنوناً من قائله وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياما لا يشك فيه من هو من أصحاب ذلك العلم.

واما الذي احوج في هذا الى التمثيل بصناعة التعاليم ، فهذه صناعة أصول الفقه والفقه نفسه لم يكمل النظر فيها الا في زمن طويل . ولو رام انسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من أهل المذهب في مسائل الخلاف التي وضعت المناظرة فيها بينهم في معظم بلاد الاسلام = ما عدا المغرب = لكان اهلا ان يضحك منه لكون ذلك ممتنعا مع وجود ذلك مفروغا منه . وهذا أمر بيّن بنفسه ليس في الصنائع العلمية فقط بل وفي العملية فانه ليس منها صناعة يقدر ان ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة.

واذا كان هذا هكذا فقد يجب علينا ان الفينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظراً في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، ان ننظر في الذي قالوه من ذلك وما اثبتوه في كتبهم فما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم.

هذا ما قاله ابن رشد ، أما توما الاكويني ومعلمه البرتو الكبير فقد اوردا جميع هذه الافكار جاء في الخلاصة اللاهوتية لتوما الاكويني ، الجزء الاول ، المسألة ٩٧ ما يلي :

Humanae rationi naturale esse videtur ut gradatim ab imperfecto ad perfectum perveniat. Unde videmus in scientiis speculativis quod qui primo philosophati sunt u quaedam imperfecta tradiderunt, quae post modum per posteriores sunt tradita magis perfecte. Ita etiam et in operabilibus.

يمكن مراجعة اسين بلاسيوس في كتابه :

«Huellas del Islam. Espasa-Calpe p. 21-24»

وقد جاء في مواضع كثيرة من كتاب « خلاصة ضد الامم » «Summa contra gentes» مقاطع كثيرة مثلا الكتاب الاول فصل ٣ يقول :

«Est autem in his quae de Deo confitemur duplex veritatis modus. Qauaedam namque vera sunt de Deo, quae omnem facultatem humanae rationis excedunt, ut Deum esse trinum et unum. Quaedam vero sunt ad quae etiam ratio naturalis pertingere potest, sicut est Deum esse, Deum esse unum et alio

hujusmodi, quae etiam philosophi demonstrative de Deo probaverunt, ducti naturalis lumine rationis».

الترجمة : من حيث الايمان من عند الله أنه يوجد نوعان من الحقيقة هناك حقائق من عند الله تتخطى قدرة العقل البشري مثل : الله واحد ومثلث الاقانيم. وتوجد حقائق أخرى يستطيع ادراكها العقل الطبيعي مثل وجود الله ووحدته كما برهن عن ذلك الفلاسفة مسترشدين بنور العقل الطبيعي.

وفي مكان آخر يقول :

«Nam ad substantiam ipsius capiendam intellectus humanus naturali virtute pertingere».

الترجمة : لان العقل البشري لا يستطيع الوصول بطريقة طبيعية الى جوهره.

«Sunt igitur quaedam intelligibilium divinorum, quae humanae rationis sunta pervia, quaedam vero, quae omnino vim humanae rationis excedunt».

والنتيجة اذا أنه توجد حقائق الهية يستطيع العقل البشري ان يقبلها واخرى تتخطى قدرته تماما.

«Sicut igitur maximae amentiase esse idiota qui ea quae quae a philosopho proponuntur falsa esse assereret propter hoc quod ea capere non potest, ita, et multo amplius, nimiae stultitiae est homo si ea quae divinitus angelorum ministerio revelantur falsa esse suspicatur ex hoc quod ratione investigari non possunt».

الترجمة : وهكذا مثلا تعتبر حماقة كبيرة من لدن الجاهل الذي يزعم بانه يحكم بخطأ المقترحات الصادرة عن الفيلسوف واكثر من ذلك يكون حماقة كبرى عندما يشك الانسان بأن هذه القضية غالطة لان العقل لا يستطيع كنهها وقد أوحيت اليه بواسطة الملائكة.

وفي الكتاب الاول الفصل الخامس يقول :

«Duplici igitur veritate divinorum intelligibilium existente, unam ad quam rationis inquisitio pertingere potest, altera quae omne ingenium humanae rationis excedit».

اذا يوجد طبقتان من الحقائق الالهية يستطيع العقل بجهوده الخاصة ان يدرك احدها أما الاخرى فتتخطى قدرته.

ويقول توما الاكويني في الخلاصة اللاهوتية : السؤال الاول المادة الاولى :

«Necesaarium fuit ad humanam salutem, esse doctrinam quadam secundum

revelationem divinam, praeter philosophicas disciplinas, quae ratione humana investigantur. Primo quidem, quia homo ordinatur ad Deum sicut ad quendam finem qui comprehensionem rationis excedit, secundum illud Isaiae 44,4: Oculus non vidit Deus absque te, quae praeparasti diligentibus te». Finem autem oportet esse praecognitum hominibus, qui suas intentiones et actiones debent ordinare in finem. Unde necessarium fuit homini ad salutem quod ei nota fierent quaedam per revelationem divinam, quae rationem humanam excedunt».

الترجمة: من الضروري لخلاص الجنس البشري انه بصرف النظر عن التعاليم الفلسفية وابحاث العقل البشري توجد عقيدة قائمة على الوحي الالهي في الدرجة الاولى لان الانسان متعلق بالله تتخطى مفهوم عقلنا كما قال أشعيا ٤٤، خارجا عنك يا الله لم ترعين ما اعددته لمن يحبونك. اذا، البشر الذين ينظمون اعمالهم ونواياهم نحو غاية يجب أن يعرفوها ولذلك فلكي يخلص الانسان عليه ان يعرف عن طريق الوحي الالهي بعض الحقائق التي تفوق قدرة العقل البشري.

«... Licet ea quae sunt altiora hominis cognitione, non sint abhomine per rationem inquirenda, suntamen, a Deo revelata, suscipienda perfidem».

... واذا كان الانسان لا يجب ان يجهد ذاته في أن يتحقق بواسطة عقله عما يفوق قدرته فعليه أن يقبل بالايمان ما أوحى الله اليه.

«Respondeo dicendum sacram doctrinam esse scientiam. Sed sciendum ést quod duplex est scientiam genus. Quaedam enim sunt, quae procedunt ex principiis notis lumine naturali intellectus, sicut arithmeticam, geometria et hujusmodi. Quaedam vero sunt, quae procedunt ex principiis notis lumine superioris scientiae: sicut perspectiva procedit ex principiis notificatis per geometriam, et musica ex principiis per arithmeticam notis. Et hoc modo sacra doctrina est scientia. Quia procedit ex principiis notis lumine superioris scientiae, quae scilicet est scientia Dei et beatorum. Unde sicut musica credit principia tardita sibi ab arithmetico, ita doctrina sacra credit principia revelata sibi a Deo».

الترجمة: ان العقيدة المقدسة هي علم ولكن تجب الاشارة الى أنه يوجد نوعان من العلم، احدهما يقوم على مبادىء معروفة بواسطة النور الطبيعي للعقل مثل الحساب والهندسة وما شابهها، وغيرها يستند على مبادىء مستقاة من الهندسة والموسيقى ومبرهن عنها في الحساب. وعلى هذا النحو فان العقيدة المقدسة هي علم اذ انها منبثقة عن مبادىء معروفة بواسطة نور علم آخر اسمى الذي هو علم الله والطوباويين، وبالتالي كما أن الموسيقى تنقل المبادىء التي يقدمها لها

الحساب هكذا ايضا العقيدة المقدسة تؤمن بالمبادىء التي أوحاها الله وعلى هذا النحو توجد مشابهات كثيرة في الخلاصة اللاهوتية الفصل الرابع وفي «الخلاصة ضد الامم» «Summa contra gentes» الجزء الاول الفصل السادس واماكن كثيرة لا تعد ولا تحصى عند توما الاكويني.

في بعث الرسل

تكلم عن هذه القضية ابن رشد في كتاب فصل المقال والكشف عن منهاج الادلة في عقائد الملة من صفحة ١٠٩ الى صفحة ١٢٠ = طبعة دار الآفاق الجديدة، يبرهن عن وجود الرسل فيقول: والنظر في هذه المسألة في موضوعين: احدهما في اثبات الرسل والموضع الثاني فيما يبين به ان هذا الشخص يدعي الرسالة واحد منهم وانه ليس بكاذب في دعواه.

فأما وجود مثل هذا الصنف من الناس فقد رام قوم اثبات ذلك بالقياس، وهم المتكلمون، وقالوا قد ثبت ان الله متكلم ومريد ومالك لعباده وجائز على المتكلم المريد المالك لامر عباده في الشاهد ان يبعث رسولا الى عباده المملوكين، فوجب ان يكون ذلك ممكنا في الغالب. وشدوا هذا الموضوع بابطال المحالات التي تروم البراهمة ان تلزمها عن وجود رسل من الله. قالوا واذا كان هذا المعنى قد ظهر امكان وجوده في الغالب كوجوده في الشاهد وكان ايضاً يظهر في الشاهد انه اذا قام رجل في حضرة الملك فقال: ايها الناس اني رسول الملك اليكم وظهرت عليه علامة من علامات الملك يجب ان يعترف بأن دعوى ذلك الرسول صحيحة. وقالوا هذه العلامة ظهور المعجزة على يدي الرسول وهذه الطريقة هي مقنعة وهي لائقة بالجمهور بوجه ما لكن اذا تتبعت ظهر فيها بعض اختلال من قبل بعض ما يضعون في هذه الاصول، وذلك انه ليس يصح تصديقنا للذي ادعى الرسالة عن الملك الا متى علمنا تلك العلامة التي ظهرت عليه هي علامة الرسل للملك، وذلك أما يقول الملك لاهل طاعته ان من رأيتم عليه علامتي المختصة بي فهو رسول من عندي او بأن يعرف من عادة الملك ان لا تظهر تلك العلامات الا على رسله. واذا كان هذا هكذا فلقائل ان يقول من أين يظهر ان ظهور المعجزات على أيدي بعض الناس هي العلامات الخاصة بالرسل فانه لا يخلو ان يدرك هذا بالشرع لان الشرع لم يثبت بعد والعقل ايضا لا يمكنه ان يحكم ان هذه العلامة هي خاصة بالرسل الا ان يكون قد ادرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر على أيدي سواهم وذلك ان تثبّت الرسالة ينبني على مقدمتين: احدهما ان هذا المدعي الرسالة ظهرت على يده

المعجزة ، والثانية ان كل من ظهرت على يده معجزة فهو نبي فيتولد من ذلك بالضرورة ان هذا نبي.

ثالثا : الوحي بمَا فيه الحقائق الطبيعية ضروري أدبيا لكي يستطيع جميع البشر الوصول الى سعادتهم القصوى ، الله أوحى للبشر عن طريق الرموز والامثال التي هي قريبة من متناول الشعب [1] التأويل عند ابن رشد هو اخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة من غير ان يُخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه مقارنه أو غير ذلك من الاشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي واذا كان الفقيه يفعل هذا في كثير من الاحكام الشرعية ، فكم بالحري ان يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان. فان الفقيه انما عنده قياس ظني ، والعارف عنده قياس يقيني ونحن نقطع قطعاً ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . وهذه القضية لا يشك فيها المسلم ولا يرتاب بها المؤمن وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول.

بل نقول أنه ما من منطوق في الشرع مخالف بظاهره لما أدى اليه البرهان ، الا اذا اعتبر الشرع وتصفحت سائر اجزائه وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أو يشهد.

ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل واختلفوا في المأول منها من غير المتأول.

فان قال قائل : ان في الشرع اشياء قد أجمع المسلمون على حملها على ظواهرها واشياء على تأويلها واشياء اختلفوا فيها ، فهل يجوز أن يؤدي البرهان الى تأويل ما اجمعوا على ظاهره او ظاهر ما أجمعوا على تأويله ؟ قلنا أما لو ثبت الاجماع بطريق يقيني لم يصح وان كان الاجماع فيها ظنيا فقد يصح . ولذلك قال ابو حامد وابو المعالي وغيرهما من ائمة النظر : انه لا يقطع بكفر من خرق الاجماع في التأويل في أمثال هذه الاشياء.

ويقول ابن رشد في مكان آخر من كتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكم من اتصال (صفحة ٢٧) .. «واما الاشياء التي لخفائها لا تُعلم الا بالبرهان فقد تلطف الله فيها لعباده الذين لا

---

١ - كتاب فلسفة ابن رشد ١٦ و ١٠٢ و ٦ و ٧ و ١٩ و ٦٠ وعند توما الاكويني في كتاب خلاصة ضد الامم الجزء الاول فصل ٤.

سبيل لهم الى البرهان. أما من قبل فطرهم من قبل عادتهم واما من قَبل عدمهم أسباب التعلم، بأن ضُرب لهم أمثالها واشباهها ودعاهم الى التصديق بتلك الامثال، اذ كانت تلك الامثال يمكن ان يقع التصديق بها بالادلة المشتركة للجميع أعني الجدلية والخطابية وهذا هو السبب في أن انقسم الشرع الى ظاهر وباطن فان الظاهر هو تلك الامثال المضروبة لتلك المعاني والباطن هو تلك المعاني التي لا تنجلي الا لاهل البرهان. وهذه هي أصناف تلك الموجودات الاربعة أو الخمسة التي ذكرها أبو حامد في كتاب التفرقة واذا اتفق –كما قلنا– ان نعلم الشيء بنفسه بالطرق الثلاث لم نحتج ان نضرب له امثالا وكان على ظاهره لا يتطرق اليه التأويل، وهذا النحو من الظاهر ان كان في الاصول فالمتأول له كافر مثل من يعتقد ان لا سعادة آخروية ههنا ولا شقاء، وإنه انما قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض في أبدانهم وحواسهم، وانها حيلة وانه لا غاية للانسان الا وجوده المحسوس فقط».

واذا تقرر هذا فقد ظهر لك من قولنا ان ههنا ظاهرا من الشرع لا يجوز تأويله، فان كان تأويله في المبادىء فهو كفر وان كان فيما بعد المبادىء فهو بدعة. وههنا أيضا ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله وحملهم اياه على ظاهره كفر وتأويل غير أهل البرهان له واخراجه عن ظاهره كفر في حقهم أو بدعة ويقول ابن رشد في الكشف عن منهاج الادلة في عقائد الملة صفحة ١١٧ وما يليها:

..«ومعرفة السعادة الانسانية والشقاء الانساني تستدعي معرفة ما هي النفس وما جوهرها وهل لها سعادة آخروية وشقاء آخروي ام لا وان كان فما مقدار هذه السعادة وهذا الشقاء فبأي مقدار تكون الحسنات سبباً للسعادة، فانه كما ان الاغذية ليست تكون سبباً للصحة بأي مقدار استعملت، وفي أي وقت استعملت بل بمقدار مخصوص. كذلك الامر في الحسنات والسيئات. ولذلك نجد هذه كلها محدودة في الشرائع وهذا كله او معظمه ليس يتبين الا بوحي او يكون تبينه بالوحي أفضل. وايضا فان معرفة الله على التمام انما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات ثم يحتاج الى هذا كله واضع الشرائع ان يعرف مقدار ما يكون به الجمهور سعيدا من هذه المعرفة، وأي الطرق التي ينبغي ان تسلك بهم في هذه المعارف؟ وهذا كله بل أكثره ليس يدرك بتعلم ولا بصناعة ولا حكمة وقد يعرف ذلك على اليقين من زاول العلوم وبخاصة وضع الشرائع وتقرير القوانين والاعلام بأحوال المعاد، ولما وجدت هذه كلها في الكتاب العزيز على أتم ما يمكن علم ان ذلك بوحي من عند الله وان كلامه القاه على لسان نبيه. ولذلك قال تعالى منبها على هذا: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله. ويتأكد هذا المعنى

بل يصير الى حد القطع واليقين التام اذا علم انه صلى الله عليه وسلم كان أميا نشأ في أمة عامية بدوية لم يمارسوا العلوم قط ولا نسب اليهم علم ولا تداولوا الفحص عن الموجودات على ما جرت به عادة اليونانيين وغيرهم من الامم الذين كملت الحكمة فيهم في الاحقاب الطويلة ».

ويقول توما الاكويني في «الخلاصة ضد الامم» الجزء الاول فصل سادس: (نذكر الترجمة فقط) «ان الذين يؤمنون بهذه الحقائق التي لا يقبلها العقل البشري، لا يؤمنون ايمانا سطحيا كما لو كانوا يسعون وراء الاساطير والخرافات كما جاء في رسالة القديس بطرس الثانية، ان الحكمة الالهية التي تعرف كل شيء على احسن ما يرام تنازلت واوحت للبشر اسرارها الخاصة وكشفت عن حضورها وعن حقيقة العقيدة والالهام بواسطة براهين واضحة بحيث انها جعلت اعمالا تتخطى قدرة الطبيعة ان تشاهد بطريقة حسية لتثبيت تلك الحقائق. ولا عجب من ذلك الوحي للعقول البشرية بحيث ان الجهال والبسطاء المملوئين من الروح القدس يتوصلون في لحظة الى الحكمة السامية والفصاحة العليا... ، فان العديد ليس من البسطاء فحسب بل أيضا من احسن العلماء اعتنقوا الديانة المسيحية، ولم يجر هذا الاعتناق بطريقة ارتجالية ولا عفوية بل بقرار الهي شاء ان يكون على هذا النحو، على لسان الانبياء وبدعاء الهي، بحيث ان الله لم ينقطع في ايامنا هذه عن اظهار المعجزات بواسطة قديسيه تثبيتا للايمان».

ويقول توما الاكويني في مكان آخر من «خلاصة ضد الامم» الجزء الاول فصل ٤ ما ترجمته: «نتحدث اولا عن الحقائق التي هي في متناول العقل لكي لا يعتقد البعض ان لا فائدة من الايمان بالوحي الخارق الطبيعة ما دام العقل يستطيع الوصول اليها.

اذا اعتمدنا على مجهود العقل وحده ينتج عن ذلك ثلاثة موانع: الاول، قليل من الناس في هذه الحال يتوصل الى معرفة الله، يوجد كثيرون من الذين يستحيل عليهم العثور على الحقيقة التي هي ثمرة البحث الدقيق، وذلك لثلاثة أسباب:

البعض بسبب اعراض بدنية تمنعهم من طبيعتهم عن الوصول الى المعرفة، فهؤلاء يستحيل عليهم الوصول في أي حال من الاحوال الى أعلى درجة في المعرفة الانسانية التي هي معرفة الله.

وغيرهم يمنعهم اهتمامهم بامورهم العائلية. فمن الضروري وجود اشخاص يكرسون ذواتهم للعلم بالامور الزمنية وهؤلاء لا يستطيعون قضاء الوقت المطلوب للتنقيب عن أعلى درجة للمعرفة التي تقوم بمعرفة الله.

والكسل هو مانع يعترض آخرين ومن الضروري سابقا معرفة أمور كثيرة مطلوبة لمعرفة ما

يستطيع العقل الوصول اليه عن الله، لان الفلسفة بالذات هي المتطلعة الى معرفة الله. ولذا فان علم ما وراء الطبيعة الذي يهتم باللاهوت هو الجزء الاخير الذي يعلم في الفلسفة فلا يمكن اذاً الوصول الى معرفة تلك الحقيقة الا بالتعب الكبير وشق النفس، ولا شك ان الذين يريدون تحمل هذه المشقة الكبيرة حبا بالعلم هم قليلون جدا رغم ان الباري تعالى وضع في نفس الانسان الرغبة في الوصول الى الحقيقة.

العائق الثاني وهو ان الذين يصلون الى تلك الحقيقة يبلغونها بصعوبة كلية وبعد زمن طويل اذ انها نظرا لعمقها لا يستطيع العقل البشري ان يلتقطها عقليا الا بعد ممارسة طويلة.

فقد شاءت الحكمة الالهية ان تزود الناس بحقائق يجب الايمان بها ويستطيع العقل البشري التقاطها واكتشافها لكي يتوصل الجميع الى معرفة الالهايات.

ويقول في مكان آخر من «الخلاصة اللاهوتية»: السؤال الاول المادة الاولى ما يلي:

«وكان ايضا من الضروري ان الانسان يتفقه بالوحي الالهي بشأن الحقائق نفسها التي يستطيع العقل البشري اكتشافها عن الله، لان الحقائق المتعلقة بالله وقد بحث عنها العقل البشري، تصل الى الناس القليلين وبعد زمن طويل وممتزجة بكثير من الاخطاء، مع هذا، وعلى معرفتها يتوقف خلاص الانسان وهذا الخلاص هو في الله. اذا لكي يصل الخلاص بسرعة مضمونا الى البشر، كان من الضروري تعليم البشر عن طريق الوحي الالهي للوصول الى ما هو الهي».

وهناك مراجع كثيرة ذكرها «اسين بلا سيوس» في الخلاصة اللاهوتية والخلاصة ضد الامم لا حاجة لذكرها كما ان اسين بلاسيوس ترجم الى الاسبانية النصوص التي لها ما يجانسها عند ابن رشد(١).

التلاقي بين ابن رشد وتوما الاكويني:

من مجرد قراءة النصوص السابقة ينكشف لنا موقف الفيلسوفين ولقاء وجهات نظرهما عندما يطرحان قضية التوفيق بين الحكمة والشريعة او علاقات الشريعة مع العلم، فالاثنان يضعان ثقتهما بالعقل البشري في الكشف عن الحقيقة مع انهما يعترفان بضعفه وخذلانه امام الغوص في جوهر الاسرار.

---

١ – اسين بلاسيوس: آثار الاسلام، غير مترجم الى العربية.

فتجاه الصوفية التي ترى كل شيء في الايمان وتشك في القوى العقلية من جهة، وتجاه «العقلانية» اللادينية التي تنظر كل الامور من خلال العقل، من جهة ثانية وقف الفيلسوفان موقف الوسيط فاعطيا كل فريق حقه.

وكانت النتيجة ان جلبا على انفسهما سخط المتصوفين التقليديين، فقد تعرض القديس توما الاكويني ومعلمه القديس البرتوس الكبير لانتقادات الرهبان الفرنسيسكان ورهبان جمعيتهما «الدومنكان» التابعين مذهب القديس اغسطينوس، فلا ينظرون بعين الرضى الى تعاليم ارسطو ومن ذهب مذهبه.

وابن رشد ايضا كما نعلم تعرض للنقمة والاضطهاد من قبل الفقهاء فيقول لنا التاريخ ان الخليفة يعقوب الموحد اكرم ابن رشد مثلما فعل سلفه يوسف حتى سنة ١١٩٥ م التي شهدت تشريد ابن رشد وشهرت الحرب على الفلسفة والفلاسفة، فابعده الخليفة بعد تجريده من مناصبه ومحاكمته، الى مدينة «لوسينة» القريبة من قرطبة، وامر باحراق جميع كتبه الفلسفية الا انه أبقى على الكتب الطبية والحسابية وعلم الفلك وارسلت الاخبار الى كافة الامصار بمروقه وكفره. وقد كان ذلك دون ما اراده اعداء ابن رشد الذين يريدون التخلص منه نهائياً. وقد قوبل ابن رشد بالاهانة والتحقير وتناوله الشعراء بالقدح والذم ارضاء للخليفة، فمن شعر ابن جبير الاندلسي:

لم تلزم الرشد يا ابن رشد ... لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ... ما هكذا كان فيه جدك

ومن شعر ابن جبير في مدح الخليفة على اثر ابعاد ابن رشد:

تداركت دين الله في اخذ فرقة ... بمنطقهم كان البلاء الموكل
اثاروا على الدين الحنيفيِّ فتنة ... لها نار غيّ في العقائد تشعل
وقد كان للسيف اشتياق اليهم ... ولكن مقام الخزي للنفس اقتل

وتجاه العقلانية اللادينية اعلن الفيلسوفان وجود الوحي الالهي المبرهن عنه بواسطة النقد التاريخي. وبعد ان يسلما بهذا الواقع مع الاعتقاد بأن الله معصوم من الغلط وان العقل عاجز عن الولوج الى ماهية الوحي فعليه ان يخضع للوحي فليس من تناقض بين الحقيقتين اللتين هما بالفعل حقيقة واحدة، هي الحقيقة الالهية... وفي حال وجود خلاف بينهما، على العلم ان يخضع للايمان وهذا ما نادى به ضمنياً ابن رشد فيقول:

«ان النفس ، مما تخلل هذه الشريعة من الاهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة ، في غاية الحزن والتألم وبخاصة ما عرف لها من ذلك من قبل من ينسب لنفسه الحكمة ، فان الاذاية من الصديق هي أشد من الاذاية من العدو. أعني أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والاخت الرضيعة ، فالاذاية مما ينسب اليها أشد من الاذاية مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة وقد آذاها أيضا كثير من الاصدقاء الجهال ممن ينسبون أنفسهم اليها ، وهي الفرق الموجودة فيها والله يسدد الكل ويوفق الجميع لمحبته ويجمع قلوبهم على تقواه ويرفع عنهم البغض والشنآن بفضله ورحمته وقد رفع الله الكثير من هذه الشرور والجهالات والمسالك المضلات بهذا الامر الغالب وطرق به الى كثير من الخيرات وبخاصة على الصنف الذين سلكوا مسلك النظر ورغبوا في معرفة الحق ، وذلك انه دعا الجمهور من معرفة الله الى طريق وسط ، ارتفع عن حضيض المقلدين وانحط عن تشغيب المتكلمين ونبه الخواص على وجوب النظر التام في أصل الشريعة والله الموفق والهادي بفضله» . (١)

فكما نرى ان ابن رشد يثق ثقة عمياء بالنصوص الموحاة ويأسف لسلوك من ينسب نفسه الى الحكمة . فكان ابن رشد سبق ونظر الى اخطاء النصارى الذين اتبعوا مذهبه بعده ونسبوا اليه «الحقيقتين» . أي الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية . وكذلك ايضا ارتكبوا الحماقة في ان يطلعوا عامة الناس على عقائد لا يستطيع ادراكهم المغلق على كنهها فلا يتخطى ظواهر اللفظ والنصوص ففسروها تفسيراً يتفق وهواهم واميالهم لكي يستسلموا الى جموح اهوائهم ونزاعاتهم الامارة بالسوء ...

مصادفة أم اقتداء؟ :

هذا تساؤل طرحه «اسين بلاسيوس» على نفسه ، هل ان هذه اللقاءات الكثيرة بين توما الاكوين وابن رشد اللذين يفصل ما بينهما قرن تقريبا من الزمن هي صدفة ام عن سابق تصميم؟

انها مطابقات كثيرة بين الاثنين ، فالصدفة تأتي من مطابقة واحدة أو مطابقتين لا أكثر، أما أن تكون هذه المطابقات في التصرف ووجهة النظر العامة وفي الافكار وفي الامثال وفي بعض

١ – ابن رشد: «فصل المقال» ص ٣٨ منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت.

الاحيان حتى في الكلمات كما تبين من النصوص التي اوردناها عن الفيلسوفين العربي واللاتيني ، العربي ابن رشد المتوفي عام ١١٩٨ م والآخر اللاتيني توما الاكويني بعد ثلاثة ارباع القرن من الاول عام ١٢٧٤ .

ويقول اسين بلاسيوس ايضا : «كيف يمكن ان نفسر هذه المطابقة ؟ هل هي مجرد صدفة خلقتها الظروف التي عاشها الرجلان ؟ كلا .

اذا شئنا القول انها صدفة عارضة نكون قد تركنا المسألة دون حل وهذه عادة متبعة في الكسل الفكري ، او الرغبة في تنزيه المفكرين المسيحيين عن أي تأثير. وهذا ما حدث أيضا عند الفلسفة اليونانية ، فقد شاءوا ان يجعلوها مستقلة عن الفكر الشرقي وتأثيره بحيث انه انقطعت هذه اللحمة التي شاءت الشريعة الابدية ان تجعلها متواصلة سواء كان في الحياة النفسية او الجسدية .

ويقول اسين ايضا : «ان الحالة التي نحن بصددها لا يمكن ان تكون وليدة الصدفة . فمن المعلوم ان القرن الثالث عشر الذي عاش فيه توما الاكويني شهد تطورا ملحوظا في العلوم والثقافة بفضل وصول الموسوعة العلمية العربية الى الغرب ، ولاسيمًا تلك الشروح الطويلة التي حققها ابن رشد لمؤلفات ارسطو الفلسفية ، فالاتصال بين العامل الاسلامي والعامل السكولستيكي المسيحي حقيقي ومبرهن عنه تاريخيا بمًا لا مجال للريب فيه اطلاقا ، وبالتالي يجب ان ننحي فكرة المصادفة بين ابن رشد وتوما الاكويني.

اليس من المحتمل ان يكون القديس توما الاكويني استقى معارفه من آباء الكنيسة ؟

يجيب «اسين بلاسيوس» قائلا : وهذا امر غير قابل الاحتمال ، فلم يوجد أحد من آباء الكنيسة عرف العلاقات القائمة بين الفلسفة واللاهوت مثل توما الاكويني ، انها ثورة حقيقية قام بها في حقل اللاهوت كما يشهد له تلميذه «غليوم التوكي» «Guillermo de Toco» الذي أكد بالحاح على التجديدات التي ادخلها معلمه على دراسة اللاهوت : تجديد في الاسلوب ، تجديد في العقيدة ، تجديد في الاسئلة والشكوك وتجديد بالحجج والبراهين.

جميع المعاولات التي جيء بها قبل القديس توما الاكويني لتخطيط الحدود الفاصلة بين الوحي والعلم والتوفيق بينهما باءت بالفشل التام ، فقد شاء ابيلار الذي جئنا على ذكره سابقا و «سكوت اريوجين» «وبرنغار» وغيرهم محو العلاقة بين الدين والفلسفة فذوبوا اللاهوت بها . وغيرهم اتبع مذهب القديس اغسطينوس القائل : «Crede ut in telligas» أي «آمن لكي

تفهم». فارتموا في احضان التصوف التقليدي الذي نهج موقف ردة فعل ضد الفلسفة العقلية فوقع في العيب المقابل أي انه مَزَج الفلسفة واللاهوت فذوب الفلسفة في اللاهوت خلافا لاولئك.

ثم جاءت عقيدة القديس توما الاكويني في القرن الثالث عشر فاعطت الفلسفة حقها واللاهوت حقه لا يمكن تجاهل المحاولة التي قام بها القديس «انسلم من كانتربري» ١١٠٩ – ١٠٣٣ في وضع اسس لمذهب انسجامي بين العقل والايمان، ولكن وضع البرنامج شيء وتطبيقه شيء آخر، فقد اضطر القديس «انسلم» في الناحية العملية الى الميل نحو الافلاطونية الجديدة الاغسطينية التي ترفض أكثر من اللازم قوانين العقل في البحث عن الحقيقة فاتجه نحو مذهب اشراقي عادي قريب جدا من المذهب الانطولوجي[1] لنجاح طريقته.

ومن ناحية أخرى فان القديس انسلم لا يستطيع تحقيق برنامجه وان كان وضعه بالدقة ذاتها التي وضع بها القديس توما الاكويني طريقته لان الفلسفة في زمان القديس انسلم كانت ناقصة لدرجة كبيرة، فالموسوعة الارسطوطولية مجهولة وبالتالي لم يكن يستطيع حتى في الحلم بالموافقة بين العقيدة المسيحية وارسطو لتكشيح النزاع بين العقل والايمان وهي مسألة لم تكن بعد مطروحة...

وقد ذكر «ماندوني» ثلاثة اتجاهات عقائدية في الفلسفة المسيحية خلال القرن الثالث عشر:

مذهب القديس اغسطينوس، والمذهب التوماوي ومذهب ابن رشد.

تَميز الاتجاه الاول الاغسطيني بتغيب أي تمييز صوري بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والوحي. والاتجاه الثالث أي الرشدية، فهذا المذهب جعلها متناقضين.

ومذهب توما الاكويني هو الوحيد الذي توصل الى أن يجمع بينهما. فاذاً بما ان المدرسة الاغسطينية في القرن الثالث عشر هي امتداد للقديس انسلم، كما تتضح هينمة التعاليم اللاهوتية والافلاطونية في العقيدتين، لا تستطيعان خدمة المذهب التوماوي الفلسفي – اللاهوتي المستوحى من ارسطو.

---

١ – «الانطولوجية»: ميل الفكر إلى الانطولوجية من حيث انها تبحث عن صفات الموجود في ذاته وهو مذهب من يرى ان الفكر تابع للوجود.

هل يمكن ان نفسر هذه المشابهات المشار اليها بانها اقتباس اخذه توما الاكويني وابن رشد من مصدر مشترك؟

هذا ما يلوح للوهلة الاولى فابن رشد وتوما الاكويني يفاخران بانهما استشارا مؤلفات الاقدمين، وفي هذه المرة استشارا كتاب النفس لارسطو، كل واحد على حدة لان الزمان بعد بينهما، ولكن هذه النظرية تسقط من اساسها اذ ان كتاب النفس «De anima» لارسطو وصل الى الغرب عن طريق الترجمات اللاتينية لشروح ابن رشد على هذا الكتاب في مطلع القرن الثالث عشر. وقد أجمع مؤرخو الفلسفة على الاعتراف بانه اذا استفاد المدرسيون المسيحيون من المسلمين بشيء فان أول ما استفادوه منهم هو كتاب الفيزياء والنفس لارسطو.

واكثر من هذا فان نظرية الوفاق بين الحقيقتين العلمية والدينية لا يمكن ان يكون مرجعها الى الفيلسوف اليوناني لان ارسطو لم يهتم على الاطلاق في مسائل لاهوتية من هذا النوع.

النتيجة هي انه لم يبق امامنا سوى قبول فكرة الاقتداء المباشر بالعرب، اذا شئنا اعطاء تفسير علمي لعامل المشابهة العارض امامنا.[1]

اسين بلاسيوس: المصدر السابق صفحة ٥٣.

لقاءات اخرى

البراهين عن وجود الله :

وقد أخذ توما الاكويني عن ابن رشد برهانين عن وجود الله : **دلالة العناية – ودلالة الاختراع**.

يقول ابن رشد : «واما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ووجود النبات ووجود السماوات وهذه الطريقة تنبني على اصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس ، احدهما ان هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات كما قال تعالى : ان الذين تدعون من دون الله لم يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له فانّا نرى اجساما جمادية ثم تحدث فيها الحياة فنعلم قطعا ان ههنا موجودا للحياة ومنعما لها . وهو الله تبارك وتعالى . واما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفترانها مأمورة بالعناية بما ههنا ومسخرة لنا والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة . واما الاصل الثاني فهو ان كل اختراع فله مخترع . فيصح من هذين الاصلين ان للموجود فاعلا مخترعا له . وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدم الاختراعات ، ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفة ان يعرف جواهر الاشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات لان من لا يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع والى هذه الاشارة قوله تعالى :

«او لم تنظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء»؟

وكذلك ايضا : من تتبع معنى الحكمة في موجود ، اعني معرفة السبب الذي من أجله خلق الغاية المقصودة به ، كان وقوفه على دليل العناية اتم ، فهذان الدليلان دليلا الشرع .

والآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى : «الم نجعل الارض مهاداً والجبال اوتاداً ... وجنات الفافاً» . ومثل قوله :

«تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا» أما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى :

«فلينظر الانسان مما خلق من ماء دافق» .

وقوله تعالى: «افلا ينظرون الى الابل كيف خلّقت»؟

ومثل قوله تعالى: «يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له».

واما الآيات التي تجمع الدلالتين فهي كثيرة ايضا بل هي الاكثر مثل قوله تعالى:

«يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم»، الى قوله: «فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون.» فان قوله: «الذي خلقكم والذين من قبلكم»، تنبيه على دلالة الاختراع وقوله: الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء، تنبيه على دلالة العناية.

... فقد بان من هذه ان الادلة على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنسين: دلالة العناية ودلالة الاختراع. وتبين ان هاتين الطريقتين هما طريقة الخواص واعني بالخواص العلماء وطريقة الجمهور، وانما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل أعني ان الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الاولى المبنية على علم الحس، واما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الاشياء بالحس ما يدرك بالبرهان – فلسفة ابن رشد صفحة ٦١ وما بعدها (دار الآفاق الجديدة).

تبنى القديس توما الاكويني في الطريقة الخامسة لاثبات وجود الله نظرية ابن رشد طريق دلالة العناية.

الطريقة الخامسة للبرهان على وجود الله عند توما الاكويني:

يقول توما الاكويني: توجد كائنات لا تعقل ومع هذا فانها تعمل لغاية أي بطريقة ثابتة كل واحد حسب طبيعته. فهذه الطريقة الثابتة في التصرف عند الكائنات الخالية من المعرفة وتسعى نحو هدف لا يمكن ان يفسر عملها بانه متات منها. فان تنظيم الوسائل نحو غاية يتطلب معرفة الغاية، فاذا كانت هذه الكائنات لا تعرف الغاية يقتضي لها كائن عاقل يسيرها ويدبرها أي أنه يجب أن يوجد في الكون عقل موجه ومنسق لهذه الخلائق ليوجهها ويسيرها نحو اغراضها الخاصة ونحو الغاية العامة للكون.

والآن نتساءل هل هذا العقل المدبّر يدبّر ذاته ويدبر الآخرين أم هو مدبّر من قبل غيره ونستطيع أن نصعد في سلّم الكائنات ولكن ليس صعودنا الى ما لا نهاية له اذ انه من الضروري الوصول الى عقل متسام ينظم جميع الاشياء لغاياتها الخاصة ضمن النظام العام الشامل.

في الجائز والواجب :

وقد انتقد ابن رشد هذه الحجة في كتاب الفلسفة ضد ابي المعالي. يقول ابن رشد : ... «واما الطريقة الثانية فهي التي استنبطها ابو المعالي في رسالته المعروفة بالنظامية ومبناها على مقدمتين : احدهما ان العالم بجميع ما فيه جائزان يكون على مقابل ما هو عليه حتى يكون من الجائز مثلا اصغر مما هو اكبر مما هو او لشكل آخر غير الشكل الذي هو عليه او عدد اجسامه غير العدد الذي هو عليه او تكون الحركة ، كل متحرك منها الى جهة ضد الجهة التي يتحرك اليها ، حتى يمكن في الحجر ان يتحرك الى فوق وفي النار الى اسفل وفي الحركة الشرقية ان تكون غربية وفي الغربية ان تكون شرقية.

والمقدمة الثانية ان الجائز محدث وله محدث اي فاعل صيّره باحدى الجائزين أولى منه بالآخر فاما المقدمة الاولى فهي خطبية في بادىء الرأي واما في بعض اجزاء العالم فظاهر كذبها بنفسه. مثل كون الانسان موجودا على خلقة غير هذه الخلقة التي هو عليها وفي بعضه ، الامر فيه مشكوك مثل كون الحركة الشرقية غربية والغربية شرقية اذ كان ذلك ليس معروفا بنفسه. اذ كان يمكن ان يكون لذلك علة غير بيّنة الوجود بنفسها او تكون من العلل الخفية على الانسان. ويشبه ان يكون ما يعرض للانسان في أول الامر عند النظر في هذه الاشياء شبيها بما يعرض لمن ينظر في اجزاء المصنوعات من غير ان يكون من أهل تلك الصنائع وذلك ان الذي هذا شأنه قد سبق الى ظنه ان كل ما في تلك المصنوعات او جلها ممكن أن يكون بخلاف ما هو عليه. ويوجد عن ذلك المصنوع ذلك الفعل بعينه الذي صنع من اجله اعني غايته. فلا يكون في ذلك المصنوع عند هذا موضع حكمة. واما الصانع الذي يشارك الصانع في شيء من علم ذلك فقد يرى ان الامر بضد ذلك وانه ليس في المصنوع الا شيء واجب ضروري او ليكون به المصنوع اتم وافضل ان لم يكن ضروريا فيه وهذا هو معنى الصناعة. والظاهر ان المخلوقات شبيهة في هذا المعنى بالمصنوع فسبحان الخالق العظيم.

فهذه المقدمة من جهة انها خطبية قد تصلح لاقناع الجمع ، ومن جهة انها كاذبة ومبطلة لحكمة الصانع فليس تصلح لهم وانما صارت مبطلة للحكمة ، لان الحكمة ليست شيئا أكثر من معرفة اسباب الشيء ، واذا لم تكن للشيء اسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره. كما انه لو لم تكن ههنا اسباب ضرورية هي وجود الامور المصنوعة لم تكن هناك صناعة اصلا فلا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع. واي حكمة كانت تكون في الانسان لو كانت جميع افعاله

واعماله يمكن ان تتأتى بأي عضو اتفق او بغير عضو حتى يكون الابصار مثلا يتأتى بالاذن ، كما يتأتى بالعين والشم بالعين كما يتأتى بالانف وهذا كله ابطال للحكمة وابطال للمعنى الذي سمّى به نفسه حكيما تعالى وتقدست اسماؤه عن ذلك. وقد نجد ان ابن سينا يذعن لهذه المقدمة بوجه ما ، وذلك انه يرى ان كل موجود ما سوى الفاعل فهو اذا اعتبر بذاته ممكن وجائز وان هذه الجائزات صنفان : صنف هو جائز باعتبار فاعله ، وصنف هو واجب باعتبار فاعله ، ممكن باعتبار ذاته وان الواجب بجميع الجهات هو الفاعل الاول. وهذا قول في غاية السقوط ، وذلك ان الممكن في ذاته وفي جوهره ليس يمكن ان يعود ضروريا قبل فاعله الا لو انقلبت طبيعة الممكن أي طبيعة الضروري فان قيل انما يعني بقوله ممكنا باعتبار ذاته اي انه متى توهم فاعله مرتفعا ارتفع هو قلنا هذا الارتفاع هو مستحيل وليس هذا موضع الكلام مع هذا الرجل ، ولكن للحرص على الكلام معه في الاشياء التي اخترعها هذا الرجل استخرنا القول الى ذكره فلنرجع الى حيث كنا.

نقول ان القضية الثانية وهي القائلة ان الجائز محدث فهي مقدمة غير بينة بنفسها وقد اختلف فيها العلماء فاجاز افلاطون ان يكون شيء جائز ازليا ومنعه ارسطو وهو مطلب عويص ولن نبيّن حقيقته الا لاهل صناعة البرهان وهم العلماء الذين خصهم الله بعلمه وقرن شهادته في الكتاب العزيز بشهادته وشهادة ملائكته.

واما ابو المعالي فانه رام ان يبين هذه المقدمة بمقدمات احداها ان الجائز لا بدّ له من مخصص يجعله باحد الوصفين الجائزين اولى منه بالثاني.

والثانية ان هذا المخصص لا يكون الا مريدا.

والثالثة ان الموجود عن الارادة هو حادث ، ثم بيّن ان الجائز يكون عن الارادة أي عن فاعل مريد من قبل ان كل فعل اما ان يكون عن الطبيعة واما عن الارادة والطبيعة ليس عنها احد الجائزين المماثلين اعني لا تفعل المماثل دون مماثلة بل تفعلها. مثال ذلك ان السقمونيا ليست تجذب الصفراء التي في الجانب الايمن من البدن مثلا دون التي في الايسر. واما الارادة فهي التي تختص بالشيء دون مماثله ، ثم أضاف الى هذه ان العالم مماثل كونه في الموضع الذي خلق فيه من الجو الذي خلق فيه ، يريد الخلاء لكونه في غير ذلك الموضع من ذلك الخلاء فنتج عن ذلك ان العالم خلق عن ارادة. والمقدمة القائلة ان الارادة هي التي تخص أحد المماثلين صحيحة والقائلة ان العالم في خلاء يحيط به كاذبة او غير بينة بنفسها. ويلزم ايضا وضعه هذا الخلاء أمر شنيع عندهم وهو ان يكون قديما لانه اذا كان محدثا احتاج الى ان الارادة التي بالفعل هي مع الفعل

المراد نفسه ، لان الارادة من المضاف. وقد تبين انه اذا وجد احد المضافين بالفعل وجد الآخر بالفعل مثل الآب والابن ، واذا وجد احدهما بالقوة وجد الآخر بالقوة ، فان كانت الارادة التي بالفعل حادثة فالمراد ولا بدّ حادث بالفعل. وان كانت الارادة التي بالفعل قديمة فالمراد الذي بالفعل قديم.

= الكشف عن منهاج الادلة في عقائد الملة ، صفحة ٥٥ – ٥٨

فهذا البرهان ممكن الوجود وواجب الوجود الذي انتقده ابن رشد اتخذه توما الاكويني برهانا لوجود الله وهو البرهان الثالث فيتحدث عن الكائن ممكن الوجود والكائن واجب الوجود.

فيقول في العالم توجد كائنات ابتدأت بالوجود وينتهي وجودها اي كائنات يمكن ان توجد اولا توجد وهذا الشيء له حد في بدايته وحد آخر في نهايته ، ولكن اذا كان جميع الكائنات ممكنة الوجود فني هذه الحالة لا يمكن ان يوجد أي كان ، ولذا من الضروري وجود كائن واجب الوجود. وعلى هذا الكائن يطرح السؤال هل اخذ الوجود من أحد أو هل هو موجود بذاته فانه من المستحيل ان يستمر الى ما لا نهاية له ، وهذا يحملنا على التأكيد على وجود كائن واجب الوجود موجود بذاته ولم يستلم الوجود من احد.

ويسمي ابن رشد « الطريق » للبرهان عن وجود الله. ويسميه توما الاكويني طريق فيكون ان التوماويين اخذوا الكلمة عن العرب والعرب بدورهم اخذوها عن اليونان لان الكلمة اليونانية « متودوس » «Metodos» هي بالاصل تعني «طريق».

وحدانية الله :

يتحدث توما الاكويني عن وحدانية الله في كتابه « الخلاصة ضد الامم » الكتاب ١ الفصل ٤٢ ، وابن رشد يتحدث عنها في كتابه الكشف عن منهاج الادلة في عقائد الملة صفحة ٦٥ – ٦٩.

يتحدث ابن رشد عن التنزيه عند الله : بقي علينا ان نعرف ايضا الطرق التي سلكها بالناس في تنزيه الخالق سبحانه عن النقائص.

أما معرفة هذا الجنس الذي هو التنزيه والتقديس فقد صرح به ايضا في غير آية من الكتاب العزيز وابينها في ذلك واتمها قوله تعالى : « ليس كمثيله شيء « وهو السميع البصير».

وقوله : «فمن يخلق كمن لا يخلق ، وذلك انه من المغروز في فطر الجميع ان الخالق يجب ان يكون أما على غير صفة الذي لا يخلق شيئا والا كان من يخلق ليس بخالق.

ويقول توما الاكويني في الكتاب الاول الفصل الرابع عشر ١٥/١ :

«Est autem via remotionis utendum praecipue in consideratione divinae substantiae, Nam divina substantia omnem formam quam intellectus noster attingit sua immensitate excedit et sic ipsam apprehendere non possemus cognoscendo quid est. Sed aliqualem ejus habemus notitiam quid non est».

لكي ندرس صفات الله يجب ان نعتمد على طريق التنزيه لانه يتخطى ، نظرا لعظمته جميع صيغ عقلنا فلا نعرف ما هي ولكن نعرف ما ليست هي.

وبهذا يتفق توما الاكويني وابن رشد فيضعان في الله جميع الصفات التي تعني كمالا في الخلائق وينزهان عنه جميع تلك الصفات التي تتضمن نقائص وعيوبا. ويتفق الاثنان على استعمال الكلمات ذاتها

اوصاف الكمال : Attributa perfectionis

صفات النقص : Attributa imperfectionis

والاثنان يفسران كيف ان عامة الناس ترى في الله الاها جسديا.

توما الاكويني يقول في «خلاصة ضد الامم»، المجلد الاول الفصل ٢٠ :

«Ex premissis etiam ostenditur quod Deus non est corpus. Omne, enim corpus cum sit continuum, compositum est et partes habens. Deus autem non est compositus, ut ustensum. Igitur corpus non est».

الترجمة : ان الله ليس ذا جسم لان كل جسم هو متواصل وهو مركب من اجزاء ولكن الله ليس مركبا على الاطلاق وبالتالي ليس بجسم.

اما ابن رشد فقد تحدث مطولا عن هذا الموضوع فيقول من بعض ما يقول :

«... فان قيل ما تقول في صفة الجسمية هل هي من الصفات التي صرح الشرع بنفيها عن الخالق او هي من المسكوت عنها فنقول انه من البيّن أمر الشرع انها من الصفات المسكوت عنها وفي التصريح باثباتها في الشرع اقرب منها الى نفيها وذلك ان الشرع قد صرح بالوجه واليدين في غير ما آية من الكتاب العزيز وهي آيات قد توهم ان الجسمية هي له من الصفات التي فضل فيها الخالق المخلوق كما فضله في صفة القدرة والارادة وغير ذلك من الصفات التي هي مشتركة بين الخالق والمخلوق الا انها في الخالق اتمّ وجوداً ولهذا صار كثير من أهل الاسلام الى ان يعتقدوا في

الخالق انه جسم لا يشبه سائر الاجسام وعلى هذا الحنابلة وكثير ممن تبعهم.

والواجب عندي في هذه الصفة ان يجري فيها على منهاج الشرع فلا يصرح فيها بنفي ولا اثبات ويجاب من سئل في ذلك من الجمهور بقوله تعالى: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

وينهي عن هذا السؤال وذلك لثلاثة معان: احدها ان ادراك هذا المعنى ليس قريبا من المعروف بنفسه برتبة واحدة ولا رتبتين ولا ثلاث وانت تتبين ذلك من الطريق التي سلكها المتكلمون في ذلك، فانهم قالوا ان الدليل على انه ليس بجسم انه قد تبين ان كل جسم محدث، واذا سئلوا عن الطريق التي منها يوقف على ان كل جسم محدث سلكوا في ذلك الطريق من حدوث الاعراض، وان ما لا يتعرى عن الحوادث حادث. وان هذه الطريق ليست برهانية ولو كانت برهانية لمّا كان في طباع الغالب من الجمهور ان يصلوا اليها، وايضا فان ما يصفه هؤلاء القوم من انه سبحانه **ذات وصفات زائدة عن الذات** يوجبون بذلك انه جسم أكثر مما ينفون عنه الجسمية بدليل انتفاء الحدوث عنه.

واما السبب الثاني فهو ان الجمهور يرون ان الموجود هو المتخيل والمحسوس وان ما ليس متخيلا ولا محسوسا هو عدم فصار عندهم من قبيل المعدوم.

واما السبب الثالث فهو انه اذا صرح بنفي الجسمية عرضت في الشرع شكوك كثيرة مما يقال في المعاد وغير ذلك.

فلسفة ابن رشد صفحة ٧٩ — ٨٠

توجد مشابهات أخرى كثيرة = بين توما الاكويني وابن رشد

ومن هذا نستخلص:

١ — ان ابن رشد وتوما الاكويني يتفقان في أهم القضايا اللاهوتية التي خالفتها تماما المدرسة الاغسطينية. وهذا يفسر لنا لماذا مؤيدو هذه المدرسة حاولوا ان يزجوا توما الاكويني بين انصار المدرسة الرشدية فادرجوا في تلك القضايا التي وقع عليها الحرم الكنسي بعض قضايا تتعلق بالقديس توما الاكويني.

كثير من اللاهوتيين واغلبهم من الفرنسيسكان دافعوا في اللاهوت كما في علم النفس عن أسبقية الارادة على العقل والخير على المعرفة. وقد سلك هذا المذهب «غانت» «Gante»

وتبعه « اسكوت » SCOT واوكام وسموا هذا المذهب « مذهب الارادية في القرون الوسطى » وهو المذهب الذي اتبعته المدرسة الاغسطينية.

وقد اجمع المؤرخون على ان هذه المدرسة مناؤة لمذهب توما الاكويني ، فاطلقوا على مذهبه اسم « مذهب العقلية الوسطية ».

واذا انتقلنا الى الحقل اللاهوتي وجدنا توما الاكويني يتفق مع ابن رشد والاثنان متفقان مع ارسطو في فكرته القائلة ان الله عقل متسام. فيرى ابن رشد حكمة الله ظاهرة في خلق الكائنات ، فاثارها حرباً عوانا على الاشعرية التي تنكر وجود المسببات وان الخلق ناتج عن ارادة الله ، فيقول ابن رشد :

« ... واما نحن فلما كنا نقول انه وجب ان يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن ان يوجد أتقن منه ولا أتم. وان الامتزاجات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة وان هذا دائما لا يخل ، لم يمكن ان يوجد ذلك عن الاتفاق لان ما يوجد عن الاتفاق هو أقل ضرورة ، والى هذه الاشارة بقوله تعالى : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » واي اتقان يكون ، ليت شعري ، في الموجودات ان كانت على الجواز. لان الجائز ليس هو أولى بالشيء من ضده ...... واي تفاوت أعظم من أن تكون الاشياء كلها يمكن ان توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه. ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة فمن زعم مثلا ان الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن في ذلك فرق في صنعة العالم. فقد ابطل الحكمة وهو كمن زعم انه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يمينا لم يكن في ذلك فرق في صنعة الحيوان. فان أحد الجائزين كما يمكن ان يقال فيه انما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار. وكذلك ممكن ان يقال انه انما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق وانت تتبين ان الناس باجمعهم يرون ان المصنوعات الخسيسة هي التي يرى الناس فيها انه كان يمكن ان تكون على غير ما صنعت عليه ، حتى انه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة ان يظن انها حدثت عن الاتفاق ، وانهم يرون ان المصنوعات الشريفة هي التي يرون فيها انه ليس يمكن ان تكون على هيئة أتم وافضل من الهيئة التي جعلها عليها صانعها. فاذا هذا الرأي من آراء المتكلمين هو مضاد للشريعة والحكمة. ومعنى ما قلناه ان القول بالجواز هو أقرب الى نفي الصانع من أن يدل على وجوده مع أنه ينفي الحكمة عنه : هو أنه متى لم يعقل ان ههنا اوساطا بين المبادىء والغايات في المصنوعات ترتب عليها وجود الغايات ، لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب واذا لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة على ان لهذه الموجودات فاعلا مريدا عالما لان الترتيب والنظام وبناء المسببات على

الاسباب هو الذي يدل على انها صدرت عن علم وحكمة ، واما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن ان يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل ان يقع حجر على الارض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه دون جهة ، وعلى موضع دون موضع فان هذا القول يلزم عنه ضرورة ، اما ابطال وجود الفاعل على الاطلاق ، واما ابطال وجود فاعل حكيم عالم ، تعالى الله تقدست اسماؤه عن ذلك ».

كتاب فلسفة ابن رشد صفحة ١٠٤ – ١٠٥

يقابل هذا الكلام ما جاء عند توما الاكويني في كتابه « خلاصة ضد الامم » (الكتاب الثاني الفصل ٢٤) الذي يحمل عنوان : « الله يتصرف حسب حكمته ».

فبعد ان يذكر ان الله يأتي باعماله عن حكمة وبما انه لا يوجد عند الله سوى الادراك العقلي ولا يفهم شيئا سوى فهمه ذاته ، وفهمه ذاته هذا يعني انه كائن حكيم فينتج عن ذلك ان الله يتصرف حسب حكمته.

وينتهي توما الاكويني الى القول : لقد اخطأ أولئك الذين يقولون ان كل شيء مرتبط بالارادة الالهية ويستنتج الاثنان توما الاكويني وابن رشد بالبراهين ذاتها والامثال نفسها ان نظام الكون وانسجامه يقضيان بوجود الشر.

يقول ابن رشد في كتابه : « فلسفة » :

« ... ولمّا كان الاخلال شرا وكان لا خالق له سواه وجب ان ينسب اليه كما ينسب خلق الشر. ولكن ليس ينبغي ان يفهم هذا على الاطلاق. لكن على انه خالق للخير لذات الشر، وخالق للشر من أجل الخير، أعني من أجل ما يقترن به من الخير. على هذا خلقه للشر عدلا منه ومثال ذلك ان النار خلقت لما فيها من قوام الموجودات التي ما كان يصح وجودها لولا وجود النار ، لكن عرض عن طبيعتها ان تفسد بعض الموجودات لكن اذا قيس بين ما يعرف عنها من الفساد الذي هو الشر وبين ما يعرض عنها من الوجود الذي هو الخير كان وجودها أفضل من عدمها فكان خيرا ».

فلسفة صفحة ١٣٢

أما توما الاكويني فيقول في كتابه « خلاصة ضد الامم » ، الكتاب الثالث فصل ٧١ ، نترجمه دون ايراد النص اللاتيني الذي يبتدىء هكذا :

انه من المستحيل ان الفاعل يخلق الشر الا لذات الخير والحال العناية الالهية التي هي سبب كل خير ليس من شأنها ان تزيل من الاشياء المخلوقة وبصفة عامة ما يقترن بها من خير والا لازيلت خيرات كثيرة من العالم والمثال على ذلك : النار لو ازيل منها الغرض الذي هو انتاج شيء شبيه بها ينتج عنه شر أي اتلاف الاشياء القابلة الاحتراق ، وفي الوقت ذاته يزول الخير الذي هو تولد النار وما فيها من قوام للموجودات . اذا لا يوافق العناية الالهية ان تلغي الشر تماما من الاشياء.

العلم الالهي :

والمصادفة الغريبة بين الرجلين نجدها في القضية التي طالما أثير حولها الجدل وهي العلم الالهي. وقع فيه الفلاسفة العرب والرشديون واللاتينيون الذين انكروا على الله معرفة الجزئيات ، بينما ابن رشد يقول بان الله يعرف الجزئيات ولكن معرفة تختلف عن معرفتنا . فنظرية ابن رشد هذه تبناها القديس توما الاكويني ليحل تلك العقد اللاهوتية العويصة . لنقابل بين أقوال الاثنين :

يقول ابن رشد :

... «وحل هذا الشك يستدعي كلاما طويلا الا اننا هنا نقصد للنكتة التي بها ينحل. وقد رام أبو حامد الغزالي حل هذا الشك في كتابه الموسوم بالتهافت لشيء ليس فيه مقنع ، وذلك أنه قال قولا معناه هذا : وهو انه زعم ان العلم والعلوم من المضاف وكما انه قد يتغير أحد المضافين ولا يتغير المضاف الآخر في نفسه ، كذلك يشبه ان يعرض للاشياء في علم الله سبحانه أعني ان تتغير في انفسها ولا يتغير علمه سبحانه بها . ومثال ذلك في المضاف أنه قد تكون الاسطوانة الواحدة يمنة زيد ثم تعود يسرته وزيد بعد لم يتغير في نفسه . وليس بصادق فان الاضافة قد تغيرت في نفسها وذلك ان الاضافة التي كانت يمنة قد عادت يسرة ، وانما الذي لم يتغير هو موضوع الاضافة أعني الحامل لها الذي هو زيد واذا كان ذلك كذلك وكان العلم هو نفس الاضافة فقد يجب ان يتغير عند تغير المعلوم ، كما تتغير اضافة الاسطوانة الى زيد عند تغيرها وذلك اذا عادت يسرة بعد ان كانت يمنة.

والذي ينحل به هذا الشك عندنا هو ان يعرف ان الحال في العلم القديم مع الموجود خلاف الحال في العلم المحدث مع الموجود وذلك ان وجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا والعلم القديم علم زائد كما يحدث ذلك في العلم المحدث ، وهو قياس الغالب على الشاهد ، وقد عرف فساد هذا

القياس. وكما انه لا يحدث في الفاعل تغير عند حدوث معلومه عنه فاذا قد انحل الشك ولم يلزمنا انه اذا لم يحدث هناك تغير، أعني في العلم القديم فليس يعلم الموجود في حين حدوثه على ما هو عليه، وانما لزم ان لا يعلمه بعلم محدث الا بعلم قديم، لان حدوث التغير في العلم عند تغير الموجود انما هو شرط في العلم المعلول عن الموجود وهو العلم المحدث.

فاذا العلم القديم انما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث، لا أنه غير متعلق اصلا كما حكي عن الفلاسفة أنهم يقولون لموضع هذا الشك انه سبحانه لا يعلم الجزئيات وليس الامر كما توهم عليهم بل يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها، اذ كان علة لها لا معلولا عنها كالحال في العلم المحدث، وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب ان يعترف به.

فانه قد اضطر البرهان الى أنه عالم بالاشياء لان صدورها عنه انما هو من جهة انه عالم، لا من جهة انه موجود فقط، او موجود بصفة كذا، بل من جهة انه عالم، كما قال تعالى: «الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير». وقد اضطر البرهان الى انه غير عالم بما يعلم هو على صفة العلم المحدث. فوجب ان يكون هنالك للموجودات علم آخر لا يكيف وهو العلم القديم سبحانه وكيف يمكن ان يتصور ان المشائين من الحكماء يرون ان العلم القديم لا يحيط بالجزئيات، وهم يرون انه سبب الانذار في المنامات والوحي وغير ذلك من انواع الالهامات؟

• فلسفة ابن رشد – ضميمة المسألة ص ٣٩ – ٤٢

ويقول في مكان آخر ان ابا حامد قد غلط على الحكماء المشائين فيما نسب اليهم من انهم يقولون انه تقدس وتعالى لا يعلم الجزئيات اصلاً بل يرون انه تعالى انما يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا بها. وذلك ان علمنا معلوم للمعلوم به فهو محدث بحدوثه ومتغير بتغيره، وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا فانه علة المعلوم الذي هو الموجود فمن شبه العلمين احدهما بالآخر فقد جعل ذوات المقابلات وخواصها واحدة وذلك غاية الجهل فاسم العلم اذا قيل على العلم المحدث والقديم فهو مقول باشتراك الاسم المحض كما يقال كثير من الاسماء على المتقابلات. مثل الجلل المقول على العظيم والصغير والصريم المقول على الضوء والظلمة ولهذا ههنا يشمل العلمين جميعا كما توهمه المتكلمون من أهل زماننا.

... وكيف يتوهم على المشائين انهم يقولون انه سبحانه لا يعلم بالعلم القديم الجزئيات؟ وهم يرون ان الرؤيا الصادقة تتضمن الانذارات بالجزئيات الحادثة في الزمان المستقبل، وان ذلك

العلم المنذر يحصل للانسان في النوم من قبل العلم الازلي المدبر للكل والمستولي عليه وليس يرون انه لا يعلم الجزئيات فقط على النحو الذي نعلمه نحن بل ولا الكليات المعلومة عندنا معلولة ايضا عن طبيعة الموجود ، والامر في ذلك بالعكس ولذلك ما قد أدى اليه البرهان ان ذلك العلم منزه عن ان يوصف بكلي او جزئي فلا معنى للاختلاف في هذه المسألة أعني في تكفيرهم او لا تكفيرهم .

فلسفة ابن رشد صفحة ٢٣ – ٢٤

وقد كرس توما الاكويني صفحات عديدة لهذه القضية : معرفة الكليات والجزئيات فبعد ان نقض البراهين السبعة عند الذين يقولون بان الله لا يعرف الجزئيات لانها فردية ولانها ليست بالفعل ولانها من حركات الارادة ولانها غير محدودة ولانها كائنات خسيسة وصغيرة ولانها شريرة وفيها نواقص وعيوب ...

يضحد كل هذه الآراء فيقول كما قال ابن رشد : « انه يعلمها تعالى بعلم غير مجانس لعلمنا ، وذلك ان علمنا معلوم للمعلوم به فهو محدث بحدوثه ومتغير بتغيره وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا فانه علة للمعلوم الذي هو الموجود » .

«Amplius. Divinus intellectus ex rebus cognitionem non sumit sicut noster, sed magis per suam cognitionem est causa rerum». Et sic ejus cognitio quam de rebus aliis habet, est ad modum practicae cognitionis.

توما الاكويني الخلاصة ضد الامم ص ٢٥٦ جزء أول «باك»

وفي كل مرة يتعرض توما الاكويني لهذه القضية أي معرفة الله للكليات دون الجزئيات يحلها على طريقة ابن رشد أي أن **علم الله علة الاشياء**.

ينتج من كل هذه المقارنات :

١ – ان ابن رشد وتوما الاكويني يتفقان في أهم القضايا اللاهوتية التي عارضتها المدرسة الاغسطينية .

٢ – ان ابن رشد والرشديين يتفقون في قضيتين فلسفيتين ويختلفون في نتائجها اللاهوتية وهما : وحدة العقل عند جميع الناس وازلية العالم .

ومن المعروف ان موقف ابن رشد من أزلية العالم ظاهر واضح فقد قال ابن رشد بهذه الازلية ، فقد كشف عن موقفه في كتاب فلسفة ابن رشد صفحة ٢٤ – يقول :

« أما مسألة قدم العالم أو حدوثه فان الاختلاف فيه عندي – بين المتكلمين من الاشعرية

وبين الحكماء المتقدمين – يكاد ان يكون راجعا للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك انهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان وواسطة بين الطرفين. فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واختلفوا في الواسطة فأما الطرف الواحد فهو موجود ، وجد من شيء غيره وعن شيء ، أعني عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه ، أعني على وجوده. وهذه هي حال الاجسام التي يدرك تكونها بالحس ، مثل تكون الماء والهواء والارض والحيوان والنبات وغير ذلك. فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والاشعريين على تسميتها محدثة. واما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان. وهذا ايضا اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديما وهذا الموجود مدرك بالبرهان وهو الله تبارك وتعالى ، الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له قدره. واما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء ، أعني عن فاعل وهذا هو «العالم بأسره».

موقف ابن رشد هذا موقف ارثوذكسي صحيح ضمن التنظيم اللاهوتي الاسلامي والمسيحي ، والبرهان على ذلك الموقف الذي سلكه تلميذه توما الاكويني بعده في هذه القضية. ومن المعروف ان القديس توما الاكويني هو أول من دافع عن نظرية ابن رشد عند اللاهوتيين عن امكان خلق العالم منذ الازل ab eterno مخالفاً بذلك جميع معاصريه ، وقد حذا حذوه اتباعه التوماويون وما زالوا حتى الآن يدافعون عن نظرية امكان خلق العالم منذ الازل رغم معارضة جميع اللاهوتيين الآخرين الشديدة. وهذا الرأي الذي تفرد به القديس توما الاكويني بين الفلاسفة المدرسيين يرجع أصله الى ابن رشد الذي يقول كما رأينا ، ان العالم صادر عن الله منذ الازل... وينبه القديس توما الاكويني الى حجج ابن رشد القوية ويرى ان هذه القضية لا تعارض الوحي المسيحي فهو يقول : ان العالم خلق من العدم ولكن الله قد يكون خلقه منذ الازل ، والايمان فقط يمكنه ان يحملنا على الاعتقاد بخلق العالم في الزمان أما العقل فلا يقدر على اثبات ذلك.

من جهة خلود النفس فان ابن رشد لم ينكر قط خلود النفس ولا العقاب والثواب في الحياة العتيدة. يقول في كتاب فلسفة صفحة ١٣٤ وما بعدها :

«ولمّا كانت النفس الناطقة جزئين : جزء عملي وجزء علمي وجب ان يكون المطلوب الاول منه ان يوجد على كماله في هاتين القوتين أعني الفضائل العلمية والفضائل النظرية وان تكون الافعال التي تُكسب النفس هاتين الفضيلتين هي الخيرات والحسنات ، والتي تعوقها هي

الشرور والسيئات ، ولمّا كان تقرير هذه الافعال أكثر ذلك بالوحي وردت الشرائع بتقريرها...

فلسفة ابن رشد صفحة ١٣٥

لقد لاحظ رينان تأثير ابن رشد على توما الاكويني في كتابه : «ابن رشد والرشدية : البرتوس الكبير مدين بكل شيء لابن سينا ، وتوما الاكويني بصفته فيلسوفا مدين تقريبا بكل شيء لابن رشد».

ولاحظ رينان أيضا ان ابن رشد يلعب دور شخصين في الفلسفة المدرسية المسيحية : فمن جهة دور الكافر المجدف الذي يعلن فساد الاديان الثلاثة ، انه سلطان الملحدين. ومن ناحية أخرى انه الشارح الكبير المفسر الممتاز للفلسفة. ولكن توما الاكويني لم يرَ فيه سوى الناحية الثانية وعرف ان يقدره حق قدره ولاسيمَا فيمَا يتعلق بالتوفيق بين العقل والايمان ولذلك لا نجد عند توما الاكويني تلك النعوت الجافية ضد ابن رشد بينما رددها المدرسيون الآخرون بدون حساب. وقد سمح توما الاكويني لنفسه ان يسميه «Depravator philosophiae peripateticae» «أو مفسد فلسفة المشائين» «في وسط الحماس الشديد في النقاش ضد متبعي مذهب الرشديين اللاتين لمّا خشي ان يهدد مذهبهم الغالط في وحدة العقل وعقيدة خلود النفس البشرية الفردية. ولكن تجاه هذا النعت الذي خرج من ريشة توما الاكويني في ساعة اضطراب قابل التفسير والتبرير، نراه يرافق الفيلسوف القرطبي في جميع مؤلفاته ويقتدي به كما رأينا.

المسالك التي أوصلت توما الاكويني الى ابن رشد :

بقي علينا أن نحدد المسالك التي أوصلت توما الاكويني الى ابن رشد. لو أنهم في القرون الوسطى اتبعوا الطريقة في الكتابة والنقد التي يتبعها كتاب اليوم لسهل علينا معرفة المصادر التي استقى منها توما الاكويني ، ولكن لسوء الحظ لم يجد المدرسيون ذاتهم مضطرين لذكر المصادر في مؤلفاتهم. غير ان المدرسيين الذين عاشوا في القرن الثالث عشر مثل توما الاكويني وغيره وفي القرن الثاني عشر ايضا عندما وصلت الى أيديهم المواد الغزيرة عن طريق الترجمات في طليطلة رغبوا في الحصول على معلومات ونصوص جديدة لادخالها في مؤلفاتهم محاولين التوفيق بين هذه

النصوص والعقائد الايمانية دون الاهتمام بمعرفة المصادر اليونانية والعربية التي رافقتها اسماء عربية وغير عربية مشوهة تماما ، فلم يهتموا بالاسماء.

كيف توصل توما الاكويني لمعرفة عقيدة ابن رشد ، مثلا في الموافقة بين العقل والايمان ؟ الموحي هو واحد : الله ، يوحي حقائقه الى الناس عن طريقين : طريق الوحي وطريق العقل الفلسفي ، وهذا الاخير لا يوجد سوى عند الحكماء ، ونظرا الى ان هؤلاء هم الفئة القليلة النادرة بين الناس فنتج ان الوحي ضروري أدبيا لجميع البشر.

لم يتقيد توما الاكويني بمعلمه البرتوس الكبير في ذكر المصادر التي استقى منها لان « الخلاصة الاهوتية والخلاصة ضد الامم » هما قبل كل شيء كتب معدة للمناقشة والتعليم. غير ان اسين بلاسيوس يقول : « قد عثرت على الخيط الذي يقودني الى معرفة القضية التوماوية في « ضرورة الوحي » قال الاكويني « انه اعتمد على خمسة أسباب في حل قضية الوحي ، أخذها عن موسى بن ميمون. ومن المعروف ان هذا الفيلسوف اليهودي تأثر بابن رشد ، فنتج ان مؤلفات ابن رشد وصلت الى توما الاكويني بواسطة ابن ميمون ، ولكن توما الاكويني لم يذكر المصدر لا في الخلاصة اللاهوتية ولا في الخلاصة ضد الامم » فاعتبرت القضية أنها من عنديات توما الاكويني.

ولكن لا أرى حاجة في اللجؤ الى مؤلفات ابن ميمون فقط ، عندما نعرف ان مؤلفات ابن رشد وصلت الى توما الاكويني فانه منذ عام ١٢١٧ كانت كتب ابن رشد تتنقل في المدارس ولاسيمَا شروحه لارسطو وقد نقلها ميخائيل سكوت الى اللاتينية على الارجح في طليطلة كما رأينا. وان كان ابن رشد في هذه الكتب لم يناقش المشاكل اللاهوتية ، فمن المعروف جيدا العلاقة الوثيقة بين الفلسفة واللاهوت في القرون الوسطى سواء كان عند المسلمين أو عند النصارى. واذا حللت شروح ابن رشد بدقة وقوبلت بمؤلفات توما الاكويني لوجد التأثير ظاهراً حتى في القضايا اللاهوتية.

ويضيف اسين بلاسيوس قائلاً : ان المذهب « العقلاني » «Intelectualisme» عند توما الاكويني لمّا دخل في الحقل اللاهوتي اعتمد القضية التي أشرنا اليها سابقاً وهي أن « علم الله هو علة الاشياء » ، ليحل عقدة المشكلة بين العلم الالهي للجزئيات وعدم تغيره لكونه الهاً.

رأينا كيف ان جمعية رهبان عبد الاحد « الدومنكان » التي ينتمي اليها القديس توما الاكويني اشتهرت منذ ذلك العهد بتحمسها للعلم والمعرفة وما زالت حتى اليوم ، ولاسيمَا بعد

أن ترأسها «الأب العام» القطالاني «ريمون دي بينيافور» فأنشأ هذا الأب العام مدارس لتعليم اللغات الشرقية فيتخرج في هذه المدارس الرهبان الذين يتوجهون الى الرسالات في البلدان النائية. فتخرج في تلك المدارس من جملة من تخرج راهب اسمه «رامون مرتي» فتعلم العربية والعبرية والكلدانية وقد كتب بعض المؤلفات ينتقد فيها المسلمين واليهود، وبين هذه المؤلفات كتاب «Pugio fidei» «خنجر الايمان» ويستدل من هذا الكتاب ان صاحبه مطلع تمام الاطلاع على القرآن الكريم واحاديث البخاري، والفلاسفة العرب المعروفين مثل الفارابي وابن سينا والغزالي وابن الخطيب والرازي وابن رشد فقد استشهد خاصة بابن رشد وترجم كلماته الى اللاتينية ترجمة صحيحة لتأييد وجهة نظره ضد المسلمين واليهود على السواء اما الكتب التي ذكرها «رامون مرتي» لابن رشد فهي شروحه الكبيرة لارسطو على «ما وراء الطبيعة» وشرح «ارجوزة ابن سينا» وكتاب «تهافت التهافت».

وقد تعرف رامون مرتي على كتاب «فلسفة ابن رشد» ولكنه لم يذكره على الاطلاق مع انه ذكر عبارة موجودة في هذا الكتاب وهي:

«Quoniam autem, ut ait Aben Resched, nescit nodos solvere, ut convenit, qui eos prius nodare non noverit».

وقد جاءت هذه العبارة في كتاب فلسفة ابن رشد «فانه من لم يعرف الربط لم يقدر على الحل» صفحة ٣٩ أثر آخر له أهمية كبيرة وهو ان «رامون مرتي» بعد ان برهن ضد الفلاسفة على أن الله يعرف الجزئيات سواء كانت من الجزئيات الحاضرة وغير الحاضرة والممكنة والمستقبلات العارضة والعوامل النفسية وان كانت هذه الاشياء لا متناهية في العدد وخسيسة في نظرنا أو شريرة، ينهي مقاله بفصل رقم ٢٥ عنوانه:

«Qualiter Aben-Rost pertractet hanc questionem, videlicet utrum Deus cognoscat singularia».

كما بحث ابن رشد هذه المسألة أي ان الله يعرف الجزئيات.

وقد اطلع «رامون مرتي» على رسالة قصيرة لابن رشد في علم الله، فهذه الرسالة موجودة عند رامون مرتي وقد سماها «Epistola ad amicum» «رسالة الى صديق» بينما تسمى هذه الرسالة في كتاب فلسفة ابن رشد «ضميمة المسألة» وهي على شكل رسالة وربما كانت موجهة الى الخليفة ابي يعقوب يوسف اذ ان مستهل الرسالة عبارة توجه عادة الى أولي الامر: «ادام الله عزتك وابقى بركتكم وحجب عيون النوائب عنكم ...».

ويرى اسين بلاسيوس ان رامون مرتي كان المصدر الاساسي الذي أخذ عنه توما الاكويني، بينما غيره يقول ان رامون مرتي هو الذي نقل عن توما الاكويني.

وهكذا دخل في صميم الفلسفة المدرسية النبع الضخم من فلسفة ولاهوت ابن رشد مطهرين من الاخطاء التي تخالف الديانة المسيحية... وهذا اللاهوت الذي نادى به ابن رشد مأخوذ بدوره من العقيدة المسيحية المشرقية بعد أن أدخلت عليها تعديلات جاء بها الغزالي وابن باجه وابن طفيل وابن رشد، كما يقول اسين بلاسيوس في كتابه «آثار الاسلام».
«Huellas del Islam».

الفصل الخامس عشر

رامون مرتي «RAMON MARTI»

ولد رامون مرتي في «سوبيرات» SUBIRATS (Aragon) . نجهل تاريخ ميلاده بالضبط ودخوله في دير القديسة «كاتالينا» . يظن انه ولد حوالي ١٢٣٠ ، درس في باريس ، معلمه البرته الكبير. مدة دراسته ثلاثة أعوام من ١٢٤٥ الى ١٢٤٨ . قد يكون التقى على مقعد الدراسة بالقديس توما الاكويني.

في عام ١٢٤٠ أحرقت أربع عشرة شحنة من الكتب اليهودية وست شحنات أخرى من الكتب على عهد الملك لويس التاسع بناء على أمر صدر عن البابا غريغوريوس التاسع.

وعادوا في عام ١٢٤٨ الى فحص الكتب ، فاوعز البابا الى ٤١ معلماً من الجامعة وعلى رأسهم أسقف المدينة «غليوم الاوفرني» «Guillaume d'Auvergne» المدرس في الجامعة . وكان أحد أعضاء اللجنة من اليهود المرتدين إنضم الى جمعية رهبان الدومنكان وترجم من العربية الى اللاتينية كتاب «التلمود» ، ومن أعضاء اللجنة أيضا المعلم «البرت الكبير» ويظهر توقيعه على الوثيقة التي تشجب كتاب التلمود. تاريخ الوثيقة ١٥ أيار ١٢٤٨ .

لا ندري بالضبط اذا كان رمون مرتي حضر هذه الاحداث التي جرت وقائعها في باريس.

اوعز اليه الملك «جقمة» الاول في ٢٧ آذار ١٢٦٤ ليشترك في اللجنة التي تفحص الكتب اليهودية . نستطيع التأكيد بدون حذر انه في عام ١٢٥٠ شرع رامون ينفذ المشروع الذي وضعه القديس رامون دي بنيافور لنصرنة المسلمين واليهود . وقد انعقد في هذه السنة مجمع في طليطلة ، وتم اختيار ثمانية رهبان من البلاد القطلانية لدراسة اللغة العربية في مرسية ومن بينهم الراهب رامون مرتي بعدها نجده في تونس يمارس أعمال الرسالات بين المسلمين.

في عام ١٢٦٩ يبحر مع أحد رهبان الجمعية الى برشلونة ووصلا اليها أثر عودة الملك جقمه

الاول Jaime I من حربه الصليبية في الاراضي المقدسة ، وانزوى الراهب مرتي في دير رهبان الدومنكان في برشلونة حتى آخر حياته منصرفا الى التأليف وربما الى التعليم ايضا .

ويقول عنه المؤرخ «دياغو» انه توفي بعد خمسين عاما من انخراطه في الرهبنة أي حوالي ١٢٨٥ وقد وصفه مؤرخ الملك جقمه الاول «بدره مرسيليه» (Pedro MARSILIO) هكذا :

«Multum sufficiens in latino, philosophus in arabico, magnus rabinus et magister in hebraico, et in lingua Chaldaica multum doctus».

الترجمة : تضلع من اللاتينية فيلسوف بالعربية معلم باللغة العبرية والكلدانية – عالم كبير. فالعلوم التي تلقاها في مدرسة مرسية صيرته مستشرقاً كامل الصفات متضلعا من اللغتين العربية والعبرانية واقفا على اسرار الفلسفة واللاهوت ، وكل هذا جعله ان يلعب دورا خطيراً في سد الحاجات الروحية المتطلبة منه في بلده وفي زمانه ، فالتعايش مع اليهود والاتصال المستمر بالمسلمين يشكلان في اسبانية خلال القرن الثالث عشر المسيحي حدثاً عادياً في حد ذاته ولكن قد ينجم عنه تسرب بعض العقائد الدينية المناوءة للتعاليم المسيحية. والخطر الاكبر متأت من الجماعات اليهودية الدائبة بكل جد ونشاط على تعليم الديانة اليهودية ونشرها...

وعى رامون مرتي هذا الخطر على الدين المسيحي في نفوس الشعب فانصرف الى مهاجمة المعتقدات العدوة وفي الوقت ذاته اجتذاب نفوس اليهود والمسلمين نحو الديانة المسيحية ، وهما الهدفان اللذان سعى اليهما مرتي طيلة حياته.

وضع كتابا ضد اليهود عنوانه : «Capistrum jadaeorum» «رسن اليهود» وكتابا آخر عنوانه «Pugio fidei» «خنجر الايمان» وله مؤلفات أخرى أقل أهمية هي : «Explanatio Symboli Apostolorum...» «توضيح قانون الايمان لتعليم المؤمنين»... وله قاموس عربي – لاتيني ، ولاتيني – عربي ، تنوسيت هذه المؤلفات طيلة أجيال ثم أزيح عنها ستار النسيان ، ففي القرن السابع عشر ظهر كتاب «Pugio fidei» «خنجر الايمان» وهو من أهم مؤلفاته طبع مرتين والغريب في الامر ان الناشر في المرة الثانية هو من البروتستانت... ظهرت الطبعة الاولى في باريس عام ١٦٥١ ، والاخرى في المانية عام ١٦٨٧ بليبسيغ.

ظل كتابه «Explanatio Symboli...» «توضيح قانون الايمان» مجهولا حتى عثر على مخطوطه في مكتبة كاتدرائية طرطوسة عام ١٨٨٧ ونشر في اوائل القرن العشرين (١٩٠٨) الكتاب الآخر «Capistrum Judaeorum» «رسن اليهود» كان يظن انه مفقود ولكن عثر

عليه مؤخرا في المكتبة الوطنية بباريس وفي مكتبة كاتدرائية جيروندة (اسبانية) وفي محفوظات كاتدرائية قرطبة، ثلاثة مخطوطات لم تنشر...

نشر «ساباريللي» «Sciaparelli» القاموس العربي اللاتيني في الثلث الاول من هذا القرن.

بقي مجهولا تأليف رامون مرتي «الخلاصة ضد قرآن المسلمين» «توضيح قانون الايمان لتعليم المؤمنين»: كتبه عام ١٢٥٧، وهو عبارة عن مدخل الى علم اللاهوت وشرح لقانون الايمان عند النصارى. يقسم هذا الكتاب الى اثني عشر فصلا، يفترض في كل فصل ان واحدا من الرسل قد وضعه.

يستهل هذا الكتاب بعبارة صدرت عن بولس الرسول وهي هذه: «نحن الآن كمن ينظر في المرآة أما هناك فوجها لوجه».

«Videmus nunc per speculum in aenigmate, tunc autem facie ad faciem».

وقد مهر هذا الكتاب بالطابع الافلاطوني الاغسطيني، يقول: «في حياتنا الحاضرة لا نعرف الله مباشرة بل بواسطة الايمان. ان الايمان هو على شكل مرآة تبين لنا الالوهية على شكل الالغاز وبطريقة غير كاملة. اننا في هذا العالم الارضي اشبه شيء بانسان مستلقٍ داخل غرفة بحيث انه لا يستطيع ان يرفع رأسه لمشاهدة سقف الغرفة واذا رغب في مشاهدة الرسوم هناك عليه ان يلجأ الى مرآة. وهكذا العقل البشري يحتاج الى الايمان للتأمل بالامور الالهية. واذا استطاع ذلك الرجل بعد حين رفع رأسه يدرك الفرق بين صور المشهدين، وهكذا الانسان عندما يصل الى الحالة الطوباوية يفهم اسرار الايمان.

ويستدل من الفصل الاخير من البحث ان المؤلف مطلع اطلاعا كافيا على الفلسفة العربية، فيذكر ابن سينا والغزالي لاسيمّا كتابه «مقاصد الفلاسفة» المنقول الى اللاتينية وكتاب «احياء علوم الدين» وكتاب «ميزان العمل». ومن الفارابي كتاب «السماع الطبيعي، وكتاب في العقل». ولا تنتهي معرفته بالفلسفة العربية عند هذا الحد، بل يأتي على ذكر القرآن مرارا عديدة والفلسفة اليونانية المنقولة من العربية الى اللاتينية، مثل كتاب «الخير المحض».

لا ندري اذا كان رامون مرتي قد اورد مصادر عربية في كتابه «Capistrum judaeorum» «رسن اليهود» فمعرفتنا بهذا الكتاب مقتصرة على بعض شذرات منه وردت في آخر كتابه «خنجر الايمان»... الذي وضعه عام ١٢٧٨ أي بعد كتابه السابق بعشرين عاما، وعنوانه الكامل. «خنجر الايمان ضد اليهود» أو بمعنى آخر الدفاع عن

الايمان ضد اليهود. فعلى ما يظهر ان رامون مرتي لم يكن راضيا عن مناقشته الشفوية مع حاخامي اليهود ، لان استشهاداته تأتي باللغة اللاتينية فيحتج عليه الحاخاميون ان النصوص محرفة ولا تطابق ما جاء في النص العبراني ، فعمد مرتي الى تأليف هذا الكتاب في الدفاع عن الدين المسيحي وهدم الدين اليهودي فجاء الكتاب باللغة اللاتينية ولكن الاستشهادات مذكورة باللغة العبرية كما هي واردة في كتب اليهود المقدسة.

لقد اتبع رامون مرتي النهج ذاته الذي استعمله الغزالي في كتابه : « احياء علوم الدين » ، فقد قسم الناس حسب اعتقاداتهم ، فمنهم الذين لا يؤمنون بشيء وهؤلاء يطلق عليهم اسم « الامم » «Gentiles» واناس يؤمنون ، فالاولون يسلكون بموجب الشريعة الطبيعية ، بينما الآخرون يمارسون الشريعة الموضوعة ويعتبرونها موحاة. ثلاثة هي الاديان الموضوعة شرائعها في الكتب أي الديانة المسيحية واليهودية والاسلامية فعلى الواعظ او المدافع عن الايمان المسيحي الا يستعمل ضد اليهود والمسلمين ما جاء في الكتب المسيحية والانجيل بنوع خاص ، فعلى المؤلف ان يستقي مصادره من التوراة والتلمود والقرآن لكي يبرهن عن أنه بالمسيح اكتملت النبؤات.

في القسم الاول من كتابه هذا يتفق مع توما الاكويني الذي يقسّم الناس في كتابه « خلاصة ضد الامم » الى ثلاث فئات :

١ — فئة اتبعت مذهب « ابوقور » الناكر وجود الله والقائل بأن اللذة هي الخير الاسمى للانسان.

٢ — الطبيعيون الذين يعتقدون ان النفس مائتة ، وهذه عقيدة مضرة جدا نظراً لنتائجها الاخلاقية فاذا انتهى كل شيء بالموت فلا ينتظر شيء ولا يخشى شيء ، وقد نسب هذا المذهب الى جالينوس وقد اعتنقه كثيرون من المثقفين ومن الاميين على السواء.

٣ — الفلاسفة. لم يقعوا في الاخطاء التي وقع فيها انصار المدرستين السابقتين والفلاسفة هؤلاء هم على شاكلة سقراط وافلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي الذين لم يستطيعوا تجنب ثلاثة اخطاء كبيرة ، وهي : ازلية العالم ، جهل الله للجزئيات واستحالة حشر الاجساد.

ذكر الفلاسفة العرب في كتابه « خنجر الايمان » ٦٣ مرة ، ذكر « تهافت الفلاسفة » للغزالي واستقى منه الفصل الاول في القسم الاول ، ولجأ الى ابن رشد مراراً عديدة بالاضافة الى الرازي الطبيب والفيلسوف ، غير أن التأثير الاكبر وصل اليه من اللاتين فيستشهد في القسم الثالث من الكتاب ببدره الفونسه الحاخام الكبير قبل اعتناقه الديانة المسيحية...

استعان ايضا بالبرت الكبير وتوما الاكويني. وذكر المستشرق الاسباني اسين بلاسيوس العلاقة الوثيقة بين كتاب «الخلاصة ضد الامم» من تأليف الاكويني وخنجر الايمان لمرتي، وظن اسين بلاسيوس ان توما الاكويني أخذ عن مرتي بينما آخرون يقولون عكس ذلك أي أن رامون مرتي نسخ عن توما الاكويني وكلاهما من رهبان عبد الاحد «الدومنكان». وحجة اسين بلاسيوس ان رامون مرتي يعرف اللغة العربية فنسخ نظرية أزلية العالم عن ابن رشد، ولكن على ما يظهر ان «كتاب خنجر الايمان» شاهد النور عام ١٢٧٨ أي بعد أربعة أعوام من وفاة توما الاكويني. ولكن اسين بلاسيوس يقول ان القسم الاول من الكتاب الذي يقع عليه الشك قد ألفه رامون مرتي قبل سنوات عديدة من القسمين الآخرين، وهذا معقول لعدم الانسجام بين القسم الاول والقسمين الآخرين من الكتاب، ولذلك فان احتجاج الاب «جيتنه» «Getino» القائم على الدليل الزمني لا يصلح.

ورغم ذلك فان المشكلة ما زالت قائمة فالفصل الاول من كتاب «خنجر الايمان» مأخوذ بكامله عن الغزالي، والفصل الخامس والعشرون منقول عن ابن رشد والفصل الثالث هو مزدوج التأثير أي عربي ولاتيني، والفصل الرابع عشر منقول في نواحي كثيرة منه عن العرب.

لا يهمنا كثيراً سواء تأثر توما الاكويني برامون مارتي أو العكس، المهم في الامر ان اجزاء كثيرة من هذا الكتاب منقولة عن الفلاسفة العرب وأثرت تأثيراً كبيراً في بسكال الفرنسي الذي عاش في القرن السابع عشر.

المؤلفات العربية التي ذكرها رامون مرتي:

يستشهد في كتابه «شرح قانون الايمان» بالفلاسفة العرب كما أشرنا ولاسيمَا في الفصلين الآخرين من الكتاب عندما يتكلم عن بعث الاجساد والسعادة الابدية. والنتيجة ان «شرولّي» «Cerulli» استخدم القسم الاخير من شرح قانون الايمان ليبرهن في كلامه عن المصادر العربية الاسبانية للكوميديا الالهية لدانتي كيف انهم في ذلك العصر تعرفوا على عقيدة المسلمين ووصف الفردوس الاسلامي كما يصوره القرآن والعقيدة الاسلامية. وتحدث اسين بلاسيوس ايضا عن كتاب «توضيح قانون الايمان» عند مارتي وكلامه عن فردوس اسلامي بالمعنى الروحي.

وقلنا ايضا ان رامون مرتي استخدم كتابين للفارابي هما «مقالة في معاني العقل» وقد نقل هذا الكتاب الى اللاتينية في مدرسة الترجمات بطليطلة واصبح معروفاً جداً لدى اللاتين في القرون الوسطى المتأخرة وعثر على المخطوط العربي لهذا الكتاب في اسطمبول واستعان مرتي

بالنص العربي دون اللاتيني وبذلك تخلص من الكثير من الشوائب والنواقص التي تزخر فيها الترجمة اللاتينية غير الواضحة في كثير من الاحيان.

والكتاب الآخر للفارابي الذي استعمله مرتي هو « السماع الطبيعي ». وهو شرح الفارابي للفيزياء عند ارسطو. وتأثر أيضا بابن سينا فيذكر له كتاب الميتافيزقا المترجم الى اللاتينية وهو جزء من موسوعة الشفاء المعروفة عند المدرسيين باسم Sufficientia أو Communia naturalia والمقطع الذي ذكره مرتي يرجع الى المقالة الرابعة الفصل التاسع من « الشفاء » وهو مطابق تماما للترجمة اللاتينية التي وضعها يوحنا الاشبيلي أي المقالة التاسعة الفصل السابع.

ويذكر الغزالي أكثر من سواه من الفلاسفة العرب. يذكر له اولا كتاب « مقاصد الفلاسفة » «Intentionum philosophorum» ، وقد تعرف اللاتين على هذا الكتاب بواسطة الترجمة التي وضعها « دومنقو غندسلبه » في العهد الاول من مدرسة الترجمات في طليطلة ، ويوجد من هذه الترجمة ترجمات عديدة الى لغات اوروبية.

وقد اورد مرتي مؤلفا ضخما للغزالي هو « احياء علوم الدين ». وقد ذكر له ايضا مؤلفا آخر عنوانه « ميزان العمل » وهو مترجم الى اللاتينية : «Statera factorum» ويذكر رامون مرتي كتابا آخر للغزالي عنوانه باللاتينية «Trutina operum» وبالحقيقة ليس كتابا مستقلا بل أنه القسم الرابع من كتاب احياء علوم الدين ويسمونه بالعربية «كتاب التوبة» «De paenitentia» كما أنه يذكر مصادر عربية أخرى.

أما المصادر غير العربية ، ولكن قرأها بالعربية ، هي من افلاطون وارسطو وكتاب الخير المحض وهرمس وفرفوريوس والقديس ازيدورس ويوحنا الدمشقي والقديس اغسطينوس ، وهذه الاستشهادات تدل على سعة اطلاع المؤلف ، والكتاب من الناحية الفلسفية افلاطوني اغسطيني أكثر منه ارسطاطاليسي توماوي.

في كتابه « خنجر الايمان » الذي جئنا على ذكره وهو موجود في مخطوطات لاتينية كثيرة في الاسكوريال ومونيخ رقم ٢٤١٥٨ من القرن الخامس عشر ، وفي المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣٣٥٦ و ٣٣٥٧ وفي مكاتب أخرى عديدة ومصادر هذا الكتاب عديدة ايضا نظرا لمعرفة المؤلف باللغات اللاتينية والعربية والعبرية.

اترك جانبا المصادر المأخوذة من الكتاب المقدس والتوراة واتوقف عند المصادر العربية التي تهمنا في هذه الدراسة...

يظهر اسم الفارابي مرتين في «كتاب خنجر الايمان» دون الاشارة الى أي كتاب من كتبه، وقد جاء ذكره صدفة عند الحديث عن كتاب الغزالي «المنقذ من الضلال».

يذكر ابن سينا مرات عديدة:

١ – كتاب الاشارات والتنبيهات يسميه «Liber invitationum vel Nutuum»

٢ – كتاب «النجاة» يسميه باسمه العربي «Annage, Amuge»

٣ – كتاب «النفس» «De Anima» مرتان.

٤ – ويستشهد بابن سينا مرارا عديدة دون ذكر الكتاب المستقى منه الاستشهاد.

رامون مرتي والغزالي:

لم يعرف اللاتينيون في القرون الوسطى الغزالي معرفة صادقة وكاملة فقد اعتبروه من اتباع مذهب ارسطو والفارابي وابن سينا او مقلداً مذاهبهم، وبنوع خاص مذهب ابن سينا، جاهلين الناحية المناوئة للفلاسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة». ونعزو هذه المعرفة الخاطئة الى عدة اسباب، وقد اكتشفها رامون مارتي لانه لجأ الى المصادر نفسها أي الى مؤلفات الغزالي بالعربية لانه، كما رأينا، يعرف العربية معرفة صحيحة.

وهذه هي اسماء كتب الغزالي الواردة في كتاب «خنجر الايمان»: «Pugio fidei»

١ – «المنقذ من الضلال». ورد عدة مرار باسمه العربي وباسمه اللاتيني على هذا الشكل:
«Liber qui eripit ab errore»

٢ – «ميزان العمل». ينقل مارتي مقتطفات من هذا الكتاب ذاكراً عنوانه باللاتينية:
«Liber staterae factorum»

٣ – «مشكاة الانوار». جاء ذكره مرة واحدة باسمه اللاتيني:
«Algazel in libro quem vocat lampadem luminum»

وقد ذكر المستشرق «اسين بلاسيوس» «Asin Palacios» المقطع الذي اقتطفه رامون مرتي في مؤلفه:

«La espiritualidad de Algazel y su sentido cristiano t. IV, Crestomatia algazaliana. Madrid-Granada 1941, pp. 264-272».

٤ - «كتاب المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى». يذكره مرة واحدة باسمه اللاتيني:

«Philosophus quidam Algazel nomine, dicit in libro de nominibus Dei».

٥ - «تهافت الفلاسفة». استعان بهذا الكتاب أكثر من أي كتاب آخر لانه شاء معرفة نظرية الغزالي على حقيقتها، ولكي يستعمل البراهين والحجج ذاتها التي استعملها الغزالي في نقض أقوال الفلاسفة ويذكره دائماً باسمه اللاتيني «Liber praecipitii»: أو ايضاً «Liber de ruina Philosophorum»

٦ - «Epistola ad amicum» «رسالة الى صديق»، وينسبها رامون مرتي الى الغزالي في كتابه «خنجر الايمان» «Pugio fidei»

٧ - ويذكر ايضا كتابا آخر للغزالي عنوانه «Probatorio» «المصداق»:

«ut ait autem Algazel in probatorio».

ويستشهد بالغزالي ايضا احيانا كثيرة دون الاشارة الى كتاب معين من كتبه.

رامون مرتي وابن رشد:

يأتي ذكر هذا الفيلسوف العربي بانواع مختلفة: Aben, Reshod, Abenrois, Commentator. Aben Rost وفي أكثر الاحيان لا يشير الى الكتب التي إستعان بها.

١ - شرح ابن رشد لكتاب «ما وراء الطبيعة» لارسطو يستشهد به ويقتطف منه مقاطع أكثر من مرة، ومن المعلوم ان ابن رشد وضع ثلاثة شروح لارسطو: الصغير والمتوسط والكبير، فالمقاطع مأخوذة من الشرح الصغير، وقد لاحظ ذلك الاب «بويج» عند دراسته:

«Grand Commentaire d'Averroes sur la Métaphysique d'Aristote».

وان استشهادات مرتي غير مأخوذة من الشرح الكبير.

٢ - شرح ارجوزة ابن سينا.

٣ - شرح «طوبيقا» لارسطو...

٤ – « ضميمة المسألة » يذكر هذه الرسالة باللاتينية باسم «Epistola ad amicum» وقد تكون هذه الرسالة موجهة الى الخليفة يعقوب يوسف وتبتدىء هكذا : ادام الله عزتكم وابقى بركتكم وحجب عيون النوائب عنكم لمّا فقتم بجودة ذهنكم وكريم طبعكم كثيرا مما يتعاطى هذه العلوم ، وانتهى نظركم السديد الى أن وقفتم على الشك العارض في علم القديم سبحانه مع كونه متعلقا بالاشياء المحدثة وجب علينا لمكان الحق ولمكان ازالة هذه الشبهة عنكم ان نحل هذا الشك بعد ان نقول في تقريره فانه من لم يعرف الربط لم يقدر على الحل [1].

وقد نقل هذه الرسالة الى الاسبانية الاب « رامون الونسه » الى جانب الترجمة اللاتينية التي وضعها رامون مرتي لهذه الرسالة [2] ، وقد جئنا على ذكرها في مكان آخر من هذا الكتاب.

٥ – « فصل المقال ... » لا يذكر اسم هذا الكتاب غير ان اسين بلاسيوس ذكر المقاطع التي اخذها مرتي منه ، فهو يعرفه تمام المعرفة لان « رسالة الضميمة » التي أشرنا اليها هي من ضمن كتاب « فصل المقال » فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال.

٦ – « تهافت التهافت » وهذا الكتاب هو ايضا لابن رشد يرد فيه على كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي. ولمّا كان رامون مرتي يأتي مرارا على ذكر الغزالي ، كان يلجأ الى هذا الكتاب للرد عليه. ويرى الاب بويج ان رامون مرتي استعمل كتاب « التهافت » فقد أخذ منه مقاطع سبقت الترجمات اللاتينية والعبرية...

وقد استعان رامون مرتي بالطبيب العربي الرازي ليرد فيه على جالينوس :
«Medicus atque Philosophus in principio sui contra Galenum».

ويذكره ابن الخطيب فيقول عنه انه وضع كتابا يسميه باللاتينية :
«Investigationum Orientalium»

ويقول « غنصالس بلانسية » : ان هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة ضخمة فلسفية لاهوتية وضعها ابن الخطيب قبل ثلاثين سنة من تاريخ استشهاد رامون مرتي بها. واخيراً يستشهد بالقرآن الكريم واحاديث البخارى وغيره [3] . واستعان رامون مرتي بكتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون.

١ – ابن رشد فلسفة ابن رشد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ص ٣٩

٢ – Téologia de Averroes. - Madrid-Granada 1947, 355-365.

٣ – Legitur idem in libris authenticis apud Sarracenos, quorum unus vocatur «Albokari», alter vero «Moselim». Pars III, dist. III, cap. VII, XV p. 75.

تأثير كتاب «خنجر الايمان» : «Pugio Fidei»

تأثير هذا الكتاب كبير، فقد لجأ اليه المرسلون والواعظون العاملون في الاجواء الاسلامية واليهودية الاسبانية في ذلك العهد، وقد اقتدى به الفونسه دي ساموره «Alfonso de ZAMORA» في كتابه «كتاب حكمة الله» واستعمله اليهودي «بابلو سانتا ماريا» قبل اعتناقه الديانة المسيحية. واستعان به ايضا «الفونسه دي اسبينا» «Alfonso de ESPINA» في كتابه «De Fortuna» «Fortalitium fidei»

وقد هاجم هذا الكتاب «خنجر الايمان» اليهودي سليمان بن ابراهيم بن عذرا: «SALOMON BEN ABRAHAM BEN ADRET» وقد نسب الى رامون مارتي قاموس اسمه: «El vocabulista in arabico» وهو يقسم الى قسمين الاول عربي لاتيني والآخر لاتيني عربي، والقسم الثاني أطول بكثير من القسم الاول. اكتشفه ميخائيل عماری «Michael AMARI» في مكتبة «Biblioteca Riccardiana» مخطوط رقم ٢١٧ في فلورنسة وطبع عام ١٨٧١. توجد نسخة منه في ليدن رقم ٢٣١. وهذه النسبة صحيحة لانه في الحوار بين المسلم والمسيحي يقول له: «يا من اسمه رامونده ولقبه مرتين».

رامون مرتي المدافع عن الايمان المسيحي :

ليس قصد جميع الذين انصرفوا الى دراسة اللغات الشرقية ونقلوا الى اللغات الاوروبية انتاجا فلسفياً عربياً، نشر افكارهم ومذاهبهم الخاطئة تحت ستار الاسلام واليهودية، بل ان الكثيرين منهم كانوا مسحيين اقحاحا يستفيدون من النقل عن العربية لكي يدافعوا عن القضايا اللاهوتية المسيحية واحد هؤلاء هو رامون مرتي. ان طريقة دفاعه عن الدين الكاثوليكي تختلف عن سابقاتها، فهي عبارة عن كتاب لاهوت أدبي طبيعي يضحد فيه العقائد الفلسفية الناتجة عن دراسة الفلسفة المشرقية، ولكنه يعتمد في ضحد هذه الفلسفة على آراء الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» ويعتمد ايضا على فلاسفة مسلمين آخرين.

يقسم رامون مرتي اعداء المسيحية الى فئتين: فئة تدين بشريعة ما، وفئة أخرى لا شريعة لها سوى الشريعة الطبيعية فالذين لا يدينون بشريعة يجدون سعادتهم في اللذة وينكرون وجود الله، والذين يدينون بالشريعة الطبيعية يعتقدون بوجود الله ولكنهم ينكرون خلود النفس. والفلاسفة يحاربون هؤلاء واولئك ولكنهم يرفضون الخلق وحشر الاجساد ومعرفة الله للجزئيات أمثال ابن سينا والفارابي على قول الغزالي الذي أخذ عنه رامون مارتي هذا التقسيم.

يثبت وجود الله بخمسة براهين:

١ – ضرورة العلة الاولى

٢ – ضرورة المحرك الاول.

٣ – ضرورة الانسجام.

٤ – لان نفسنا كان لها بداية.

٥ – بالتأمل بالكائنات المخلوقة.

يقول صاحب «خنجر الايمان» ان السعادة القصوى لا تقوم على اللذة ويبرهن عن ذلك بحجج استقاها من الكتاب المقدس وتعاليم آباء الكنيسة ومن الفلاسفة المدرسيين والفلاسفة العرب أمثال الغزالي وابن سينا وخاصة من كتاب «الاشارات والتنبيهات» ومن ابن رشد ايضا.

يبرهن عن خلود النفس:

– بالفائدة الاخلاقية لهذا الاعتقاد.

– بالعدالة الالهية، لان العدالة في هذه الحياة غير كاملة.

– في ان النفس تدرك كمالها خارجا عن الجسد.

– لا تضعف معه.

– انها غير قابلة الفساد ولا يجب ان نخلطها بالمزاج كما شاء جالينوس وبعض الاطباء الذين عاشوا في أيام رامون مرتي.

وقد اعتمد هذا الراهب الدومنيكي على آراء الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة». ويقول من ناحية أخرى: ليس كل ما قاله الفلاسفة فاسداً وخاطئاً.

مذهب الحلوليين:

يدافعون عن أزلية العالم بحجتين: الاولى من حيث الله، والاخرى من حيث المخلوق.

فيقولون ان الله يتصرف منذ الازل على النحو ذاته وان ارادته وخيره لامتناهيان وازليان وبالتالي وجب ان يكون الخلق غير متناه.

يجيب رامون مرتي :

١ – ان التجديد في العمل الالهي لا يعني تجديداً في العمل عند الله لان عمله هو ما ه

٢ – من أزلية العمل لا تستخلص أزلية ما صدر عنه.

٣ – انه وان كانت غاية الارادة الالهية لا تختلف عن خير الله وصلاحه فلا تتصرف طريق الضرورة ، لان صلاح الله أزلي لا يتغير ولا يمكن ان يقال ان الله يتصرف ليحسن لانه هو الصلاح الكلي ولذلك فهو يخلق او يعمل بحرية.

من جانب المخلوق : يدافع الفلاسفة عن أزلية حفظ الانواع من حيث انه يستحيل وجود خلائق وعدم فساد خلائق.

ويجيب رامون مارتي : ان ضرورة الوجود عند المخلوقات هي ضرورة مرتبطة ونظامي يبحث في النفس وطبيعتها ووحدتها وتكاثرها ويرفض النفس الواحدة عند جميع المخلوقات مذهب الرشدية وذلك لان كل مركب يحتاج الى صورة جوهرية تعتبر كماله الاول والنف العاقلة هي الصورة الجوهرية لكل فرد بشري.

٢ – لان مبادىء الاشياء الفردية هي فردية ايضا.

٣ – لانه ليس من محرك يأتي بحركات مختلفة متناقضة في وقت واحد.

٤ – لانه لو كانت النفس واحدة عند جميع الناس لكان لهم صورة واحدة جوهر

ثم تأتي قضية أخرى هامة جداً وهي : هل ان الله يعرف شيئاً خارجاً عنه او مميزاً عنه ؟ ن لكون الاشياء الفردية هي مادية وعرضية زائلة ومتعددة وفاسدة ، فيجيب رامون مرتي ذلك قائلاً :

١ – ان الله يعرف الاشياء الفردية لانه هو مسببها ولانه يعرف مبادءها ولانه يعرف الكليا ولان معرفته ذاته هي علة الاشياء.

٢ – ان الله يعرف الاشياء التي توجد لانه يعرف الاسباب ولان الصانع يعرف ماذا يستطيع يصنع وان لم يصنعه.

٣ – لان الله منذ الازل له معرفة بالجزئيات العارضة لانه يعرف اسبابها.

٤ – لان الله يعرف اشياء لا تُحد ولان كيانه غير محدود ولان العقل الانساني بالقوة عار اشياء لا تحصى.

٥ – لان الله يعرف الارادات والافكار ولانه يفهم ويعرف الاشياء باسبابها.

٦ – والله يعرف الامور الصغيرة التافهة الحقيرة لان الحقارة لا تؤثر بذاتها في من يعرفها جوهرياً بل عرضياً.

٧ – ان الله يعرف الشر من حيث هو نقيض الخير ولان معرفة الشر ليست شراً.

وينتهي كتاب خنجر الايمان بترجمة مقالة لابن رشد عندما يتحدث عن معرفة الله للجزئيات والاعراض. ويترجم ايضا براهين الغزالي بشأن قيامة الاموات.

وكما نرى فان العقيدة هي ذاتها التي نادى بها توما الاكويني ولكنها معروضة بشيء من الابتكار وبمعرفة عميقة للفلسفة العربية. ولم يكتب في اسبانية خلال القرن الثالث عشر بحث لاهوتي أكمل من بحوث رامون مرتي فقد بين هذا الفيلسوف اللاهوتي المسيحي كيف تستطيع الفلسفة المسيحية الارثوذكسية ان تستفيد من الفلاسفة العرب...

الفصل السادس عشر

البطروجي والبرتو الكبير ALBERTUS MAGNUS et ALPETRAGIUS

مؤلفات هذا العالم الكبير البرتوس مليئة بالمراجع اللاتينية واليونانية والعربية واليهودية. ويعترف بأن كتاباته جاءت بناء على طلب اخوانه في رهبنة الدومنكان، فوضع في متناول ابناء عصره آراء أرسطو والشروح عليها.

لم يخلق البروتوس الكبير في علم الفلك مذهباً خاصاً به، بل اكتفى بجمع أقوال الاقدمين والمحدثين بشأن هذا الموضوع رغبة منه في أن يطرح أمام أنظار الغربيين أقوال من سبقوه في علم الفلك مع ابداء رأيه في كل نظرية من النظريات المطروحة.

يرى البرت أن علم الفلك لا يتناقض ومبادىء الديانة الكاثوليكية، كما أنه يحافظ على اخلاصه لمبادىء أرسطو، وما دامت هذه الآراء لا تعارض أقوال الكنيسة فلا بأس من عرضها كما صنع في كتابه: «De causis et prouniversitatis» اذ أنه عدّد فيه آراء ارسطو وابن سينا والغزالي والفارابي واسكندر الافروديسي وفورفوريوس وابن رشد وابن ميمون والبطروجي وغيرهم كثيرين من الفلاسفة العرب حول ما اذا كانت السماء تتحرك بواسطة النفس والطبيعة والعقل أو باثنتين أو ثلاث منها، وينتهي الى القول أنه ليس من رأي يفرض ذاته، فيترك البرتو للقارىء حرية اختيار ما يلائم طبعه من بين هذه الآراء المعروضة.

يدرك البرتو الصعوبة التي ينطوي عليها علم الفلك نظراً للمسافات الشاسعة التي تفصلنا عن النجوم، فليس من السهل الحصول على براهين عملية بل يجب الاكتفاء بالحجج المقنعة.

لا يميز البرتو بين علم الفلك وعلم النجوم مجاراة لعصره اذ يجب اعتبار البرتو من علماء القرون الوسطى وهكذا يجب أن نفهمه، كما يقول «كورتباريا» [1]، أي أنه يلتقط من المعلومات ما

(١)- A. CORTABARRIA: El astronomo Alpetragio en las obras de San Alberto Magno. LA CIUDAD DE DIOS: VOL. CXCIII, Nº 3 Septiembre 1980.

تصل اليه يده ويقدمها لمعاصريه ، ولا شك ان تلميذه توما الاكويني تعرف منه على النظريات الفلكية .

مؤلفات البرتوس الفلكية :

كتاب واحد صغير عنوانه : « مرآة الفلك »«Speculum astronomicum»مع ان بعض المؤرخين نسبه الى روجير بيكون . وبصرف النظر عن هذا الكتاب فعلم الفلك عند البرتو الكبير موزع في كافة مؤلفاته مثل«De coelo et mundo» « السماء والعالم » فانه يتضمن الكثير من علم الفلك .

— كتاب آخر «Meteorum» « الآثار العلوية » من أربعة كتب يتحدث فيه أيضا عن علم الفلك .

— كتاب «De physica» في الفيزياء من ثمانية كتب .

— « الخلاصة اللاهوتية » «Summa Theologiae» يتطرق فيها الى موضوع الفلك . والنجوم .

يرى البرتو أن جميع العلوم مترابطة متماسكة مع بعضها البعض ولا يجب أن يشذ علم الفلك عن ذلك .

يذكر من أول ما يذكر الكلدانيين والمصريين والبابليين ، فيقول : لقد أخذنا عنهم الكثير والكهنة المصريون هم الذين أصغوا أولاً الى صوت الطبيعة السماوية ، وجميع هؤلاء القدامى مارسوا علم الحساب الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الفلك وارسطو نفسه استعمله . وفي تساؤله عن تحرك السماء كما أشرنا يقدم لنا آراء جميع الذين تكلموا بهذا الموضوع ...

وفي كلامه عن القدامى يعني بطليموس بنوع خاص فيذكر له كتاب « المجسطي » ، وكتاب « الاربعة » . غير أن المقام الاكبر في علم الفلك عند البرتو مخصص للمؤلفات الفلسفية والعلمية العربية .

مصادره الاولى من **الكندي** فتأثير هذا العالم والفيلسوف العربي واضح عند البرتو في الفلسفة وفي علم الفلك ، يذكر له كتاب : «Liber de diversitate aspectus lunae» كتاب اختلاف وجوه القمر قد يكون هذا الكتاب هو نفس الكتاب : « رسالة في القضاء على الكسوف » .

- **من ابن رشد**: «شرح كتاب السماء والعالم».
- **ومن ارسطو**: «جوهر الكون».
- **ومن ابن سينا** «كتاب الشفاء»: السماء والعالم.

«De sufficientia coeli et mundi»

- ويأتي **ابو معشر** بكثرة في مؤلفات البرتو ولاسيمَا كتابه «القرانات» «De conjunctionibus» ويقع هذا الكتاب بثمانية فصول وله عناوين أخرى لاتينية.
- كتاب آخر مشهور عنوانه: «Introductorium in astronomiam» المدخل الى علم الفلك نقل هذا الكتاب الى اللاتينية عام ١١٣٠ و ١١٥٠ وطُبع عدة مرار عام ١٤٨٩ و ١٤٩٥ و ١٥٠٦.
- عالم فلكي آخر مشهور في العالم الاسلامي «**ما شاء الله**»، استعان البرتو بكتابه «الكرة المتحركة»، ويذكر البرتو مؤلفات «ما شاء الله» الاخرى في علم الفلك.
- **البتاني** حظي أيضا بعطف البرتو الكبير، فهذا العالم الفلكي العربي ترجمت مؤلفاته مرتين الى اللاتينية ومرة الى الاسبانية.
- **البطروجي**: هو ابو اسحق نور الدين البتروجي توفي ١٢٠٤. ولد في ضواحي قرطبة في محلة فحص البلوط اسمه باللاتينية «البتراجيوس» «ALPETRAGIUS»، تتلمذ على يد ابن طفيل وشاء تكميل مذهب معلمه في علم الفلك وهو مذهب يختلف عن مذهب بطليموس.

تميز البطروجي بمعارفه الفلكية وأثر بنوع خاص في البرتو الكبير... نجد نظرية البطروجي بعلم الفلك في كتاب «في الهيئة» نقله الى اللاتينية ميخائيل سكوت نحو عام ١٢١٧، واستعان بهذا النقل البرتو عنوان هذه الترجمة: «Opus Alpetragii de motu corporum coelestium» «كتاب البتروجي في حركة الاجسام السماوية» يوجد منه مخطوطات عديدة وتحمل اسماء مختلفة:

«Liber Alpetragii de verificatione motuum coelorum».
«Aben Alpetragius de motibus coelorum».
«Liber Aven Alpetragii in Astrologia».

نُقلت مؤلفات البطروجي الى العبرانية عام ١٢٥٩ ثم نقل الترجمة العبرية الى اللاتينية «كالونيموس» بن داود حوالي عام ١٥٢٨ ثم طُبعت بالبندقية عام ١٥٣١ مع كتب أخرى.

نعت نللينو هذه الترجمة بالبربرية، واستعان بها اليهودي الطليطلي ابراهيم هاكوهين. وطبع

«كارمودي» «Carmody» عام ١٩٥٢ ترجمة ميخائيل سكوت تحت عنوان :
«Al-Bitrugi: De motibus celorum. Critical ediction of the latin translation of Michael Scott, University of California, Press. Berklei 1952».
وكذلك «غولدستين» Goldstlin نشر النص العربي تحت عنوان كتاب في الهيئة الى جانب النص العبري الذي نقله موسى بن طبون عام ١٢٥٩. والمخطوط العربي موجود في الاسكوريال تحت رقم ٩٦٣.

يقول «كرمودي» في طبعة «حركات السموات» «De motibus celorum» ان البطروجي انطلق من فكرة ابن طفيل وابن رشد بعد أن درس كتب الاقدمين ولاسيمَا كتاب بطليموس «المجسطي».

ورغم انتاج البطروجي الضئيل فان نظريته عرفت في القرون الوسطى والجميع مقتنعون انه اقتفى مذهب ارسطو وعارض بطليموس كما يقول في كتابه «في الهيئة»: «... وفي مواضع جزئية من كتابه وقع لبطليموس فيها وهم واصلحها جابر وتممها على الاصول التي وضعها بطليموس ولم أزل مستريباً بتلك الاوضاع منافراً لما تنافر منها الطباع...»[1]

يظهر البطروجي في بعض الاحيان وكأنه مؤسس علم فلك جديد.

كان «لفي غرسون» المتوفي عام ١٣٤٤ واسحق الاسرائيلي الطليطلي قد نوّها الى التهجمات التي تعرضت لها نظرية بطليموس من قبل أحد علماء العرب ولم يذكر اسم هذا العالم، غير أن «مونك» وجد فيه البطروجي. ولقد حصل نزاع بين اولئك الذين يريدون انقاذ «فيزياء ارسطو» واولئك الذين يتشبثون بمذهب بطليموس القائم على المشاهدة الطبيعية وعلى المعلومات التي استطاعت الاجهزة في ذلك العهد تقديمها.

والذين أيدوا مذهب البطروجي هم «روبرت غروستست» «وروجير بيكون» «غليوم الاوفرني» «وغليوم الانكليزي» «ودانز سكوت».

والذين رفضوا مذهب البطروجي هم «جيديوس الروماني» وتعلقوا بمذهب بطليموس من حيث اللاتمركزي وفلك التدوير «epycicle»

وتعرّف علماء الفلك الطليان في القرون الوسطى المتأخرة على البطروجي، منهم «برتولومي البرماوي» «Bartolome de Parma» وبدره الابني «Pedro de Abano» وهذا

---

١ - مخطوط البطروجي رقم ٩٦٣ بدير الاسكوريال ص ٢.

الاخير يميز ثلاثة أنواع من مذاهب علم الفلك والمذهب الثالث هو الذي اخترعه البطروجي ويورد ملخصاً للنظرية الفلكية العربية ويتهمها بأنها لا تفسر الكثير من العوامل التي نلحظها في الافلاك.

ظل اسم البطروجي يتردّد في عصر النهضة فيذكره «كوبرنيك» «ورجيومنتانه» «Regiomontano» وفي العصور الحديثة ورد اسمه أيضا عند «دلمبر» «DELAMBRE» «ومونك» «MUNK» «ودرير» «DREYER» وغيرهم.

وبالاختصار فان الحركة التي قامت في الاندلس ضد بطليموس لم تجد الصدى المطلوب في القرون الوسطى وعصر الانبعاث، فظل اسم البطروجي يتردد فيها ولكن لكي يرفضوا مذهبه.

يذكره البرتو الكبير دون ان يعلق عليه وقد لاحظ ان مذهب البطروجي يخالف مذهب بطليموس، وهذا يعني ان البطروجي سلك مذهباً جديداً على حد قول البرتو.

أحدث هذا التجديد ردة فعل مزدوجة فالبعض، احتراماً لمذهب ارسطو في كتاب «السماء والعالم» قبلوا مذهب البطروجي وآخرون وهم الموالون لمذهب بطليموس اظهروا عن استيائهم من هذه التجديدات التي ادخلها العالم الفلكي العربي.

قبل البرتو الكبير بعض آراه البطروجي وخالف البعض الآخر.

يرى البرتوس ان مذهب البطروجي من حيث «مقدار ما بين المركزين» «Excentricité» ومقدار قطر فلك التدوير «Epycicle» خاطيء لانه اذا افترضنا وجودهما يجب ان نضع بينهما جسماً يملأ الفراغ وهذا الجسم المفترض الذي يهبط مرة ويرتفع أخرى لا يمكن ان يكون مستديراً كما يجب ان تكون الاجسام السماوية...

البطروجي في مؤلفات البرتو الكبير:

جاء اسم البطروجي مراراً عديدة في مؤلفات البرتو نذكر منها:

١ - «السماء والعالم»: البحث الثاني الفصل الخامس ص٧٧-٧٩ «de coelo et mundo»

البحث الثاني الفصل الخامس صفحة ١٥٩ - ١٦١

البحث الثالث الفصل الثامن ص ١٨٥ - ١٨٦

البحث التاسع صفحة ١٩١ - ١٩٢

الفصل الحادي عشر ص ١٩٥

٢ – «في الـــكـون «De generatione et corruptione»
والفساد» : البحث الاول الفصل ١٢ الصفحة ٤٢٦

٣ – «في الآثار العلوية» : البحث الثالث الفصل الثاني صفحة ٥٦٥ «Meteororum»
البحث الاول الفصل ٢١ الصفحة ٦٧

٤ – «في النفس» : البحث الرابع الفصل الثالث صفحة ٢٩٧

٥ – «في أسباب الكون
وتطوره» : البحث الثاني الفصل الاول صفحة ٤٧٩ – ٤٨٠

٦ – «منظر الكواكب» : الفصل الثاني ص ٦٣٢

٧ – «في الـــرتب
السماوية» : الفصل السابع الفقرة ١٣ ص ٢٠٣

٨ – «الخلاصـــة
اللاهوتية» : المقالة الثانية السؤال ١١ البحث ٣٢ ص ١٤٤

أخذت هذه المعلومات عن المصدر الذي أشرنا اليه سابقاً.

وكيف زدان لمن للمؤمن من اجل لم للمؤمن

ان امري كله للمؤمن من امري للمؤمن خار الله له

كتاب في الهيبه للعبد الفقير الى

رحمة الله تعالى البطر ورجى من الله

ان يرحم عليه وجميع المسلمين

امين



بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله تعالى بقاءك يا أخي إن غرضي
بعد حمد الله كثيرا والصلاة على نبيه دائما أن
أعلمك بأمر اختلج في صدري وأبث إليك من مكنون
سري معنى جليا سنح لفكري من بعد حيرة لقيت
فيها أكثر عمري وأرغب إليك وإلى من نظر إليه بعد
أن يحسن الظن بي ويدرأ عني التنزيل إلى ... ...
بالملوم على ما قد ... في ما القن الأولين من العلماء ومناقضتي
أقاويل الجلة الفضلاء فإني علم الله لم أتعمد ذلك
ولا تيمنني فيما هنالك إلا أني منذ صباي حين نظرت
في الجزء التعليمي في حركات السماء وتتبعت فيها أقاويل
القدماء حسب ما وضعه رئيس هذا الفن بطليموس
وتابعه عليه من أتى من بعده من العلماء ولم يخالفه أحد منهم

شوى ابى اسحق ابرهيم بن يحيى المعروف بالزرقاله
في حركة كرة الكواكب الثابتة وابى محمد جابر بن افلح
الاشبيلي في ترتيب فلك الشمس وفلكي الزهرة وعطارد
وفي مواضع جزئية من كتاب بطلميوس فيها وهم
وان لهما ايضا براهين على الاصول التي وضعها بطليموس
لم ازل مستريبا بتلك الاوضاع منافرا لما تنافر
منها البتاح وذلك انه يقول في ابواب الثانية
من المقالة الاولى ومما ذكرنا ينبغى ان تكون
من جملة ما يتقدم ايضا ان الحركات التي في السماء
ثنتان احداهما التي تحرك الكل ابدا من المشرق الى
المغرب بحال واحدة وادوار متساوية وعلى
دواير موازية بعضها لبعض مدارها على قطبي الكرة
التي تدير الكل باستواء وتسمى اعظم هذه الدواير معدل

عمر رضا

الفصل السابع عشر

مدرسة سلرنه الطبية:

يقول كومستون: «عندما نشأت المدارس الطبية في منتصف القرون الوسطى حوالي القرن الحادي عشر لم يكن الطب العلمي قد خطا خطوة واحدة الى الامام منذ عهد جالينوس. جل ما في الامر ان جمعت في موسوعات المعارف المستقاة في العهود السابقة. أما من حيث علاجات الامراض فكانت أدويتهم خرافية شعوذية قائمة على السحر، جيء بها من الشرق. وعندما أصبحت المسيحية دين الدولة منعت استعمال السحر والشعوذات ولكنها في الوقت ذاته خنقت الطب مع بقية العلوم. وقد ساد الاعتقاد في ذلك الحين ان الشيطان اتخذ له مسكنا في أجسام المرضى، فاذا طرد منها شفي العليل. فاستخدموا العلاج الذي يقوم بوضع اليدين على رأس المريض أو على مكان آخر من جسمه وتتلى الصلاة والتعاويذ. وان الكثيرين من آباء الكنيسة رفضوا بقية العلاجات فاقتصر الطب في هذه الاجيال القائمة على الرهبان في الاديرة، المنصرفين الى ترجمة ونسخ لانحات لا نهاية لها من الصيغ والنصوص من مؤلفات كلاسية قديمة ممزوجة بشعوذات وتركيبات صيدلية مضحكة[1]

لا نعرف بالضبط تاريخ تأسيس هذه المدرسة، ولكنها أخذت تزدهر لمّا تطعمت بالطب العربي، عندما وصل الى تلك المدرسة في منتصف القرن الحادي عشر قسطنطين الافريقي القادم من تونس.

غير أن مدرسة «سلرنه» لم يؤسسها قسطنطين الافريقي هذا، كما اعتقد البعض، ولا امراء «لمبردية» ولا الرهبان البندكتان، بل الاطباء أنفسهم الذين غصت بهم المدينة وتجمع حولهم طلاب كثيرون راغبون في الاستماع الى تعاليمهم، والذين مارسوا الطب في سلرنه لم يقصدوا تأسيس مدرسة بل نقل معلوماتهم الطبية الى أولئك الذين يجهلونها. غير أن شهرة هؤلاء الاطباء

---

(١) Comston: Histoire de la médécine. Traduction de Mmr. Dispan De Floran Paris. 1931 p. 256 et suivantes.

أخذت تنتشر الى ما وراء حدود المدينة وهرع الطلاب اليها بكثرة رغبة منهم في الحصول على معارف يستفيدون منها.

يمكن ان نرد تأسيس هذه المدرسة الى القرن التاسع الميلادي اذ ان سجلات مملكة نبولي تذكر في عام ١٨٤٦ اسماء بعض الاطباء في سلرنه. ومن الواضح انه وصلت شهرة هذه المدرسة الى شمالي فرنسة في القرن العاشر.

أما بشأن تاريخ هذه المدرسة فالمعلومات التي بين أيدينا هزيلة لا ترجع الى أبعد من سنة ١٠٠٠، ولم تصل الينا مخطوطات أو نصوص عن المعلمين الذين مارسوا مهنة الطب في تلك المدينة، ولا نعرف سوى اسماء اطباء في أواخر القرن التاسع مثل بطرس الثالث الذي كان طبيباً واسقفاً في الوقت ذاته.

غير أنه انطلاقاً من عام ١٠٠٠ حتى ١٠٧٥ أي عند وصول قسطنطين الافريقي الى ايطالية كثُرت الاسماء والوثائق، وهذا يدلنا على أهمية هذه المدرسة في القرن الحادي عشر فانها حتى ذلك التاريخ لم تكن قد تلقحت بالطب العربي بل سلكت التقليد اليوناني واللاتيني متبعة مذهب جالينوس.

لنذكر بعض الاسماء:

«**الفانوس**» «**Alphanus**» : لا نعرف شيئاً عن مؤلفاته وأقل منه عن حياته (١٠٤٠). كان من عائلة شريفة في سلرنه. درس الطب وأصبح رئيس أساقفة ثم كردنالا وتوفي متقدماً في السن، وقد ذكر عنه أنه كان طبيباً بارعاً، اذ أن رئيس دير مونتي كسينو «ديسيدريوس» الذي أصبح فيمَا بعد بابا يحمل اسم «فيكتور الثالث» (١٠٨٧ – ١٠٨٦)، حضر الى سلرنه ليستشير «الفانوس» في مرض خبيث أصابه نتيجة الصيام الطويل والتقشفات المتواصلة.

ألّف كتاباً عنوانه «أربعة أخلاط جسم الانسان» «De quatuor humoribus corporis humani» يبحث في علم وظائف الاعضاء وعلم الامراض. لم يصل هذا الكتاب الى أيدينا بل وصل كتاب آخر يحمل العنوان ذاته محرفا قليلا.

غريوبنتوس «**Gariopontus**» : من أقدم الاطباء الذين عملوا في سلرنه. له بعض المؤلفات، وعلى ما يبدو انه نال بعض الشهرة عام ١٠٣٠، أكثر كتبه منقول، غير أننا نجد له بعض الافكار الخاصة به طبيبه المفضل «بريسياني» «Prisciani» ولكنه يستعين بمؤلفين

يونانيين ولاتينيين أمثال اسكندر الترالي وبولس الاجيناطي ، ويعجب بجالينوس ، فقد درس جميع مؤلفاته واستوعب أفكاره ، غير أنه لا يسير سيراً أعمى وراء هذه العقائد ففي كثير من الاحيان يتبنى مذاهب جريئة على طريقة الاسلوبيين الذين يكرهون جالينوس أو جالينوس يكرههم. فهذا المذهب يبحث عن علل الامراض في القبض والاسهال. ويقول أنه ليس من أحد يستطيع اتهامه بالاخذ عن الآخرين لانه يذكر اسماء الذين نقل عنهم في كتاباته. وقد نُسبت الى غريوبنتوس مقالتين عنوانهما :

- De Catharticis.
- De simplicibus medicamentibus ad Paternianum

الاولى تحتوي على مبادىء الاسلوبيين ، والثانية موضوعة على الترتيب الهجائي فيعدد سلسلة طويلة من الادوية وطرق استعمالها مأخوذة من مملكة الحيوان والنبات والجماد وهي واردة عند « برسياني » المذكور اعلاه و « بلينيوس » و « جالينوس » ، وقد أهدى هذا الكتاب الى من يسميه « الاخ الحبيب ».

عندنا طبيب آخر اسمه « **بلاتياريوس** » «Platearius» زوج الطبيبة الشهيرة « تروتولا » «Trotula» ولا نعرف عنه الا ما ذكر ابنه في كتابه « براكتكا » «Practica» الذي يقدر أنه وضع بين عامي ١٠٩٠ و ١١٠٠ ، يصف فيه كيف ان أباه عالج التسبيخ «Letargo» وداء النقطة والبحة والسل.

من جميع ما تقدم ان مدرسة « سلرنه » خلال الفترة الاولى التي عاشتها ، كانت تملك ميزة خاصة بها والنظريات مأخوذة عن أطباء يونان ولاتين ، ولا علاقة لها بالطب العربي. وجميع المؤلفات مكتوبة على شكل محاضرات ، ثم أخذت العناصر العربية تدخل شيئاً فشيئاً في التعاليم الطبية بهذه المدرسة.

ولا يكون البحث كاملاً عن الاطباء الذين مروا بمدرسة سلرنه قبل وصول الطب العربي اليها اذا لم نذكر اسماء الطبيبات اللواتي اشتهرن في تلك المدرسة ومن بينهن « تروتولا » «Trotula» وقد نعمن بشهرة واسعة ومقام مرموق ، وقصدهن المرضى من كل فج وصوب. ولهن وصفات طبية حسنة ، منها دهان يستعمل ضد ضربة الشمس ودهان آخر يستعمل لكي يحافظ الشعر على طراوته.

ووصفة أخرى ضد البواسير نذكرها باللاتينية :

«Quaedam autem mulier Salernitana probavit quod ad omnes Hemorroides ficus valet succus ejus».

« عصير التين لمكافحة البواسير » . ووصفة أخرى لاجل الحيض . وعندهن أدوية لانتفاخ الوجه ولشلل الاطفال . ولا تخلو هذه الادوية من شعوذات وخرافات كانت تستعملها النسوة الطبيبات . يصفن قطاف بعض النباتات في يوم عيد الصعود المصادف ٢٥ آذار ، في الساعة الثالثة صباحاً ، ولكي يكون لهذه الحشائش مفعولها الكامل يجب ان تتلى الصلاة الربية عند قطافها أي : « ابانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتكَ كما في السماء كذلك على الارض ... »

وصلت الينا اسماء بعض النساء الطبيبات : « كالندا » – ابيلا – رفقة – استفانية ... وأشهرهن على الاطلاق المعلمة « تروتولا » فقد دخلت في عالم الاساطير . يقول التقليد عنها انها نالت شهرتها حوالي عام ١٠٥٠ أي قبل وصول قسطنطين الافريقي الى سلرنه بقليل . وبعضهم شك في وجودها فيقول ان أحد الاطباء اسمه « تروس » ترك مؤلفات طبية تحمل عنوان « لا تروتولا » ، والاسطورة تعهدت بالباقي .

وقد نسب اليها تأليف يحمل عنوان: «De morbis mulierum et eorum cura» « في أمراض النساء وشفائها » .

نذكر النصيحة التي تقدمها للمرأة التي تشكو السمنة فتقول : « على هذه المرأة اذا كانت ترغب في إزالة سمنتها ان تأخذ حمامات على الرمل قرب البحر فتزول السمنة بسبب العرق الناتج عن حرارة الرمل » .

وتصف علاجات لبعض أمراض الاعضاء التناسلية عند المرأة .

وتتحدث أيضا عن التهابات في الاعضاء التناسلية عند الرجل .

وتذكر لنا طريقة غريبة في معرفة ما اذا كان الجنين ذكرا أو انثى وهو ما زال في الرحم .

«Ad cognoscendum utrum mulier gestet masculum vel feminam accipe aquam de fonte, et mulier extrahat dues vel tres guttas sanguines aut lactis de dextro latere et infundentur in aquam, et si fundum petent masculum gerit si supernatant, feminam».

الترجمة : « يؤخذ ماء من النبع ويستخرج نقطتين أو ثلاث نقط دم من الجانب الايمن من المرأة وتلقى هذه النقط في الماء ، فاذا هبطت الى القعر فالجنين ذكر واذا سبحت فالجنين انثى » . لا ندري ماذا يقول الطب الحديث في هذه الطريقة التي استعملت في القرن الحادي عشر في مدرسة « سلرنه » الطبية .

ولم يقتصر عمل المعلمة «تروتولا» على تطبيب المرأة وما يتعلق بها من حمل وولادة وحيض، بل كتبت أيضا عن امراض العيون والاذن والاسنان واللثة، ونجد ان وصفاتها الطبية عملية أكثر مما هي نظرية. وهي تنتهج نهج جالينوس.

قسطنطين الافريقي

سافر أحد التجار من قرطاجة في تونس الى ايطالية واتصل بأمير ذلك البلد وبأخيه الطبيب. ولكن ما عتم ان عاد هذا التاجر التونسي الذي نجهل اسمه، وانصرف الى دراسة الطب وجمع المعلومات عن الاطباء العرب. ولمّا شعر من ذاته انه قد ملك ناصية هذا العلم أبحر الى «سلرنه» «SALERNO» وصحب معه مخطوطات طبية عديدة منها مؤلفات مواطنه ابن الجزار. غير ان عاصفة هوجاء هبت على الباخرة وأتت على أكثرية المخطوطات، وأنقذ ما يمكن انقاذه، ووصل الى سلرنه واعتنق الديانة المسيحية واتخذ اسم قسطنطين وشرع في ترجمة المخطوطات العربية التي استطاع انقاذها من العاصفة ثم اعتزل العالم بعد أن لبس ثوب الكهنوت في دير «مونتكسينو» حيث توفي عام ١٠٨٧.

تعود المؤلفات التي ترجمها قسطنطين الافريقي الى علي بن العباس والى ابن الجزار واسحق الاسرائيلي وحنين بن اسحق ومؤلفات يونانية منقولة الى العربية مثل فصول ابقراط وشرح ابقراط على جالينوس.

غير أن قسطنطين الافريقي نسب هذه الترجمات اليه. ولم تعرف حقيقتها الا بعد مقابلتها بالاصل العربي. وقد جمعت هذه المؤلفات في مجلدين مطبوعين في «باسيل» سويسرة بين عامي ١٥٣٦ – ١٥٣٩ ساعد قسطنطين في ترجماته هذه تلميذه «Joannes Fallacius Sarrasenus» يوحنا افلاسيوس المسلم حوالي عام ١٠٤٠ – ١١٠٣ وقد استقر في دير مونتي كاسينه راهباً مثل معلمه.

هذا هو قسطنطين الافريقي الذي غادر افريقية بعد ان قضى أربعين عاماً في الدرس، ومهما كان السبب الذي حمله على مغادرة مسقط رأسه تونس الى مدينة «سلرنه»: الاختيار او الصدفة او الحاجة او شهرة المدرسة بعد ان وصلت الى اسماعه فان هذه المدرسة استقبلته بالاكرام والترحيب لان شهرته كانت قد سبقته.

تقسم مؤلفات قسطنطين الافريقي الى قسمين: الترجمات والمؤلفات التي هي من عندياته،

وقبل الكلام عن هذين القسمين من المخلفات التي تركها قسطنطين الافريقي يجدر بنا ذكر اسماء الكتب التي تركها وقد اوردها مؤرخه «بيار دياكر» «Pierre Diacre» في دير «مونتي كاسينو» «MONTE CASINO» يقول بيار هذا : ان قسطنطين الافريقي ترجم كتباً كثيرة ومن بينها «Pantegni» الذي قسمه الى اثني عشر فصلاً وعرض فيه جميع ما يجب على الطبيب معرفته :

- «La Pratique» وهو المحافظة على الصحة ومعالجة الامراض في اثنتي عشرة مقالة.
- كتاب الحميات : مترجم عن العربية.
- كتاب البول.
- الاعضاء الداخلية.
- الجماع.
- زاد المسافر في سبعة فصول.
- الاصول . Aforismi
- آراء افلاطون وابقراط.
- الادوية المفردة.
- جسم المرأة واعضاؤها.
- تشخيص الامراض.
- ملاحظات . ملاحظات على النبات.
- فن التشريح.
- مقالة في طب العيون.

غير أن هذه اللائحة ليست صحيحة تماما اذ ان كتابي Pantegni, Pratique ليسا سوى كتاب واحد، وكتاب الفصول هو شرح لجالينوس.

ويقال ان قسطنطين الافريقي ترجم مؤلفات عديدة من عدة لغات ولا يذكر سوى كتاب الحميات انه منقول عن العربية.

والمعلومات التي يقدمها لنا «بيار دياكر» ليست الوحيدة التي نعرفها عن الافريقي. فالمقدمات التي تسبق أكثر الكتب تفيدنا افادة كبرى في التعرف على أشياء لم يذكرها مؤرخه،

بعض هذه المؤلفات مهدى الى « ديديه » رئيس ديركاسينو ، والى « الفانوس » «Alphanus» رئيس اساقفة سلرنه والى « اتو » ويوحنا تلميذيه.

وعلى كل حال فان لترجماته طابعاً يختلف عن ترجمات الذين سبقوه ففي المقدمات التي وضعها لم يهتم الا بالاشارة الى العورات التي سدها ولا يهمه ان تكون مؤلفاته منقولة او من صنعه ، يكفيه انه يلبي الحاجات العامة والخاصة.

يذكر لنا مرة واحدة اسم المؤلف الذي نقله الى اللاتينية ، أما في بقية ترجماته فيصمت عن ذكر اسم المؤلف ويذكر اسماء اطباء يونان كما لو كان يريد تبديل اسم باسم ، ورغم ذلك فان الكثير من مؤلفاته يرجع الى أصل عربي.

وقد قوبل كتاب « الملكي » الذي وضعه علي بن العباس وترجمه اسطفان الانطاكي ، مع كتاب قسطنطين الافريقي وظهر ان قسطنطين ناسخ هذه الترجمة. (١)

ويقول « لكليرك » انهم في الآونة الاخيرة لم يهتموا الا بكتابين يزعم قسطنطين الافريقي انهما من تأليفه وهو الكتاب المذكور اعلاه وكتاب « زاد المسافر » وكان الاجدر النظر في جميع مؤلفاته كل واحد منها على حدة.

١ – «**Pantegni**» ليس هذا الكتاب سوى ترجمة « الملكي » لعلي بن العباس ، كما أشرنا ، مع بعض الاضافات والتحويرات. فقد حرف مقدمة « الملكي » وأضاف اليها فصولا من جالينوس.

٢ – « **زاد المسافر** » «**Viaticum**» وهذا كتاب آخر نقله الافريقي عن العربية وهو لابن الجزار مواطنه والعنوان الاصلي العربي هو « زاد المسافر وقوت الحاضر » ترجم الى العبرية والى اللاتينية وترجم ايضا الى اليونانية.

كتب قسطنطين الافريقي في اهداء كتاب «Pantegni» الى سيدي الآباتي لدير مونتي كسينو الاجل المحترم والدرة اللامعة في طبقة الاكليروس ، من قسطنطين الافريقي راهبكم الحقير.

---

١ – علي بن العباس المجوسي من الاهواز. وكان طبيباً جيداً متميزاً في صناعة الطب وهو الذي صنف الكتاب المشهور الذي يعرف «بالملكي» ، صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة ابي علي حسن ابن بويه الديلمي ، وهو كتاب جليل مشتمل على اجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها. وكان علي بن العباس المجوسي قد اشتغل بصناعة الطب على ابي ماهر موسى بن سيار وتتلمذ له. وكتاب الملكي في الطب يقع في عشرين مقالة...

ونقرأ ايضا في هذا الاهداء : «لمّا ادركت فائدة هذا الفن ونقبت في المؤلفات اللاتينية ، وراجعت كتب الاقدمين والمحدثين وبحثت في مؤلفات ابقراط وجالينوس والاسكندر الافروديسي وبولس واوريباسيوس... »

كيف تجاسر قسطنطين الافريقي وكتب كل هذه الامور مع ان الكتاب ليس سوى ترجمة كتاب الملكي لعلي ابن العباس؟

لا شك ان قسطنطين الافريقي عندما لجأ الى اليونانيين كان يفكر ان ترجمته أو تأليفه يلاقي قبولا أكثر مما لو نسب هذا الكتاب الى الاطباء العرب لاسيمًا وان المهدى اليه هذا الكتاب هو رئيس دير مونتي كسينو. وهذا الكتاب موجود في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٦٨٨٥ و ٦٨٨٦ و ٧٠٤٢ و ١١٢٢٣.

وقد يكون قسطنطين الافريقي حافظ على العادة المتبعة في ذلك العصر وما بعد بأن ينقل المتأخرون عن المتقدمين فصولا كاملة دون ذكر المصدر المستقى منه.

وقد شاء الالماني «تيرفلدير» «Thierfelder» ان يُنسب الكتاب الى اسحق بن سليمان الاسرائيلي وهذا رأي لا يعتمد على أساس من الصحة.

وقد ظهر هذا الكتاب «Pantegni» أيضا تحت عنوان : «Theorica et Practica» نرجع الى كتاب «زاد المسافر» «Viaticum» وهذا الكتاب ليس من تأليف قسطنطين الافريقي بل من ابن الجزار التونسي ، وأكثر من ذلك فقد نبه القارئ الى لصوص العلم وحذره من سرقاتهم الادبية ويقول عنهم انهم لا يتورعون عن سرقة مؤلفاته وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب ما يلي :

يقول «تليوس» «Tullius» في كتاب الخطابة : قد نفتش عن الشيء لاجل الشيء أو لاسباب أخرى. ويرى البعض انه يجب التفتيش عن الطب لاجل الطب ، والبعض الآخر يبحث عن صناعة الطب لاجل نيل الاكرام الذي يأتيه من جراء ممارسة فن الطب. وأنا قسطنطين الافريقي الراهب المنتسب الى دير مونتي كاسينو ، العامل لخير الجميع ، قد نشرت كتاب «البانتغني» الذي يهم البعض من الناحية النظرية والبعض الآخر من الناحية النظرية والعملية معا. وقد ألّفت كتاباً آخر أكثر سهولة ورأيت من واجبي ان أوقع اسمي على هذا الكتاب لان القحة بلغت عند بعض الحُساد انهم عندما يقع كتاب بين ايديهم يستملكونه بالغش

والخداع ويضعون عليه اسمهم. سميت هذا الكتاب «زاد المسافر» لان حجمه الصغير لا يضايق المسافر في رحلاته.

ولكن ممن يخشى قسطنطين سرقة كتبه؟ لا شك من المدرسين في مدرسة «سلرنه». تشير بعض المخطوطات الى أن كتاب «زاد المسافر» منقول عن العربية. نجده في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم ٦٨٨٩ و ٦٨٩٠ على هذا العنوان:

«Liber Viatici quem Constantinus ex sarraceno in latinum transtulit».

ونجد هذا الكتاب ايضا في المخطوط رقم ١٤٣٩٠ في المكتبة الوطنية بباريس.

وقد عثر «دارمبرج» «DAREMBERG» في دراسته لكتاب «زاد المسافر» على تعابير يونانية فعزا ذلك الى استمرار الدراسات اليونانية في الغرب. ولو أنه عرف كيف كانت تجرى الترجمات من العربية الى اللاتينية أو من اليونانية الى العربية لمّا ارسل الكلام جزافا في هذه القضية.

من الواضح ان الناقلين الأوائل لم يملكوا المقدرة على تزويد الكتب المترجمة بالتعابير التقنية الموجودة في الكتب اليونانية، فاقتضى ترجمة الاسماء التي يمكن ترجمتها بانتظار ظهور مترجم جيد يعثر في اللغة العربية على كلمات تؤدي الاصل اليوناني. وبالفعل فان اكثر التعابير اليونانية ما طال الامر عليها ان أبيدت عن بكرة أبيها وأُبدلت بتعابير عربية صرفة. وبعض التعابير ظلت على حالها بعد أن أَقرَ المترجمون بعجزهم عن وجود كلمات مناسبة لها.

ناقش «دارمبرج» قضية معرفة ما اذا كان «زاد المسافر» عند قسطنطين الافريقي منقولا عن نص يوناني، لان زاد المسافر نقل الى اليونانية، فلجأ الى ارنست رينان يسأله طالباً رأيه في القضية. فأجابه رينان في منتصف القرن التاسع عشر، ان معرفة اللغة العربية من قبل راهب مسيحي يعيش في القرن الحادي عشر غير محتملة، ولهذا يميل رينان الى الاعتقاد ان الترجمة اللاتينية مأخوذة عن اليونانية. غير أن «دالمبيرج» نسي أن يذكر لرينان ان قسطنطين الافريقي عاش مسلما طيلة خمسين عاماً.

ودرمبرج نفسه يجهل أصل قسطنطين الافريقي وماضيه فانه لم يأتِ على ذكر «بيار دياكر» المؤرخ للافريقي ورغم هذا الخطأ فانه يميل الى الاعتقاد أن «زاد المسافر» منقول عن العربية.

قلنا في السابق أن «زاد المسافر» قد نقل الى اليونانية تحت عنوان «افوديس» «Ephodes» والغريب في الامر ان المترجم الى اليونانية يحمل ايضا اسم قسطنطين.

ونتساءل: أليس هذان الشخصان شخصا واحداً؟ ودارمبرج الذي أثار القضية لم يبت بها، غير أنه من الصعب جداً أن يكون المترجم الى اليونانية هو قسطنطين الافريقي نظراً لماضيه، فيصعب عليه تعلم اليونانية واللاتينية معاً طيلة إقامته في مونتي كاسينو. يمكن القول انه ترجم الكتاب بمعاونة شخص آخر، وهذا محتمل الأخذ به، كما كان يجري في طليطلة اذ أن المترجم الى اللاتينية يستعين بمن يجيد العربية.

وكما أشرنا فقد نقل «زاد المسافر» الى العبرية أيضا وهو موجود في المكتبة الوطنية بباريس في مخطوط رقم ٦/١١٧٣ وقد طبع هذا الكتاب باللاتينية تحت هذا العنوان:

«De omnium morborum co gnitione et curatione»

٣ – **مقالة في البول** «De urinis» : وهي لاسحق بن سليمان الاسرائيلي[1]، يقع هذا الكتاب في عشرة فصول. اعترف قسطنطين الافريقي بصراحة انه نقل هذا الكتاب عن العربية لمّا قال:

«عندما لم أجد في الكتب اللاتينية أي مؤلف يتحدث عن البول بمعرفة صادقة، لجأت الى العرب ووجدت معلومات ممتازة نقلتها الى اللاتينية.

٤ – **مقالة في الحميات** «liber de febribus» لا يعرف مصدر هذا الكتاب. يقول قسطنطين الافريقي «لقد أثرت دموعك في نفسي يا ابني يوحنا، أنا قسطنطين فلم أرفض أن أكتب ما قرأت وما وجدت مفيداً في الطب. نقلت هذا الكتاب عن العربية الى اللاتينية.»

٥ – شرح فصول جالينوس:

وهذا ايضا منقول عن العربية. يوجه قسطنطين الكلام الى تلميذه «اتون» «ATTON» قائلاً: «لقد توسلت اليَّ يا ابني» اتون. لكي أنقل من العربية الى اللاتينية بعض مؤلفات جالينوس، وبادرتك بالرفض في كل مرة لاني لم أجسر على ترجمة مؤلفات فيلسوف كبير مثل هذا. ونظراً لالحاحك وتوسلك وقولك انك تتألم بسبب حرمان اللغة اللاتينية من معرفة هذا الرجل الكبير، رضخت وانصرفت الى ترجمة أحد مؤلفاته، أي شروحه على فصول ابقراط العظيم.

١ – سيمون الحايك: «عروق الذهب في مناجم الروم والعرب» صفحة ٣٠٢ – ٣٠٥.

وكما نرى فانه حتى ذلك العهد أي منتصف القرن الحادي عشر أو في النصف الثاني منه لم تتعرف اللغة اللاتينية على مؤلفات جالينوس.

تلك هي الترجمات التي خرجت عن قسطنطين الافريقي وقد ذكرت له ترجمات أُخرى، اعترفَ ببعضها وأنكَر البعض الآخر. ونحن نعلم أن تلميذه يوحنا جمع في نابولي ماكتبه معلمه، ومن المحتمل أن تكون هذه المؤلفات خرجت على غير هذا النحو. ونعتقد انه حصل ضغط على قسطنطين الافريقي من قبل الاباتي «ديديه» أسفر عن سكوته عن ذكر المصادر العربية على الاقل في المؤلفات الاولى، وقد يكون هذا الاعتراف بذكرها، لو حصل، لحمل الاذى الى رئيس دير كاسينو.

نرى قسطنطين الافريقي يتذمر من الناحلين، وليس اسهل عليه من أن يذكر المصادر العربية فيخرس السنة الناقدين، ويتجنب كل مذمة وعندها لم يعد من مجال للانتحال.

وكما أشرنا سابقاً فقد نُسبت الى قسطنطين الافريقي مؤلفات ليست سوى مجرد ترجمة مؤلفات عربية ببعض التصرف مأخوذة من كتب ابن الجزار واسحق بن عمران الاسرائيلي، مثل كتاب المعدة، والملنخوليا، وداء الفيل.

كتاب المعدة: اهداه الى رئيس أساقفة «سلرنه» «الفانوس» الذي اشتكى الى قسطنطين الافريقي مراراً عديدة من ألم في معدته، ويدهش قسطنطين الافريقي من عدم وجود هذا الكتاب عند الاقدمين، فيقول انه نقله عن عدة مصادر... وقد طُبع المخطوط.

كتاب العيون: اهداه قسطنطين الافريقي الى تلميذه يوحنا لانه لم يجد في اللغة اللاتينية أي كتاب عن هذه المادة.

وقد ذُكرت لقسطنطين الافريقي كتب أُخرى منها كتاب: «التمييز بين الروح والنفس».

وقد يكون هذا الكتاب منقولاً عن قسطا بن لوقا «كتاب الفصل بين النفس والروح» كما يذكره ابن النديم[1] أو كتاب الفرق بين النفس والروح كما يذكره ابن ابي أصيبعة.

وبهذا يكون قد نَقل قسطنطين الافريقي أو حرف وانتحل الكتب التالية كما جاءت في لائحة «ليون دوستي» وهي تتضمن اسماء الكتب التي طُبعت للمرة الاولى عام ١٥٣٦ أو ١٥٣٩ تحت عنوان:

«Summi in omni philosophia viri Constantini Africani medici operum reliqua hactenus desiderata»:

---

١ – ابن النديم صفحة ٤١١ – دار المعرفة بيروت. وابن ابي اصيبعة صفحة ٢٤٥ جزء ٢ دار الثقافة بيروت.

١ – زاد المسافر. 1 - Viaticum de morborum cognitione et curatione.

٢ – في معرفة الامراض وشفائها. 2 - De remedium et aegritudinum cognitione.

٣ – في البول. 3 - De urinis.

٤ – في أمراض المعدة الطبيعية وغير الطبيعية. 4 - De stomachi affictionibus...

٥ – في الملنخوليا. 5 - De Melancolia.

٦ – في أمراض النساء. 6 - De mulierum morbis.

٧ – في التشريح. 7 - De Chirugia.

٨ – في درجات الادوية المفردة. 8 - De gradibus simplicium.

وفي نهاية هذه الطبعة توجد رسالة موجّهة الى الآباتي «ديديه» يقول فيها قسطنطين الافريقي «انه بعد أن نَظر في المؤلفين القدامى والمحدثين من يونان ولاتين استخلص من مؤلفاتهم ما وجَده نافعاً للطب، والبعض اطالوا في الشرح والبعض الآخر اقتضَبَ أكثر من اللازم».

ويقول ايضا: «انه ليس من أحد يستطيع شراء جميع الكتب». ويأمل الا يلومه أحد على ما كتب بعد أولئك الرجال العظام.

ويقول لكليرك: «اننا نعتقد مع «دارمبرج» اننا مدينون بالكثير لقسطنطين الافريقي لانه كشف للعالم اللاتيني عن كنوز الشرق فاستحق ان يحمل لقب باعث العلوم الطبية في الغرب، وانه لمن العدل ان يرفع له تمثال في ضواحي سلرنه»[1] SALERNO

والاطباء الذين يفضلهم قسطنطين الافريقي هما ابن الجزار واسحق الاسرائيلي، وتجدر الاشارة الى أنه لم يترك لنا مؤلفات خاصة به بل اقتباسات مصيبة. ولكنه بدل أن يترجم ويقتبس من المؤلفات اليونانية عَمَدَ الى ترجمة واقتباس المؤلفات العربية، وقد يكون له عذره اذ انه يثق من معرفته اللغة العربية أكثر من معرفته اللغة اليونانية، المشكوك كثيراً في تعلّمها.

كما أنه حرص كل الحرص على أن يزيل من ترجماته كل ما من شأنه ان يكشف عن حقيقة هذه الترجمات ومصدرها، فقد ألغى جميع اسماء الاعلام الشرقية ووضع اسمه مكانها بحجة انه لا يريد أن يُفسح المجال أمام الآخرين لكي يستغلوا جهوده الفكرية ويستملكوها.

---

(١) الدكتور لوسيان لكلرك: الجزء الثاني – تاريخ الطب العربي. اعادت طبعه وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية للمملكة المغربية – الرباط ١٩٨٠.

والمؤلفات التي صدرت عن قسطنطين الافريقي هي أقل تطبيقاً من أكثرية مؤلفات عصره ، فهو يعتمد على جالينوس في علم تشريح الانسان والفيزيولوجيا « أي علم وظائف الاعضاء » يعتمد على نظرية الارواح والقوى الجسدية ، وهذه القوى هي ثلاث : حيوية وحيوانية وطبيعية . الاولى مقرها القلب والثانية مسكنها الدماغ والثالثة بيتها الكبد.

يصدر عن القوة الحيوية خفقان النبض وينقل الى القلب والشرايين بواسطة قوة الخفقان والعمليات الطبيعية تُجرى بواسطة « قوة الخفقان » «Pneuma» والتوالد والغذاء والنمو يضعها قسطنطين الافريقي في الكبد مثل جالينوس.

« علم الامراض » «Patologia» متات أيضا من جالينوس ولكن أدخل عليه قسطنطين الافريقي بعض التبديلات بسبب الاضافات التي جاءت من العلماء العرب . يَعتقد قسطنطين أن الامراض تأتي من تغييرات تطرأ على الارواح الحية والخوالط الاربعة في الجسم.

« علم مداواة الامراض » «Terapeutica» يعطينا الافريقي نصائح قيّمة فينبه الطبيب الى ضرورة ملاحظة قوى المريض خلال تطور الداء ، ودراسة هذا الاخير دراسة دقيقة ، غير أن قسطنطين وان اتبع مذهب جالينوس الا أنه تأثر ايضا بمذهب النظاميين في مدرسة سلرنه مثلا عندما يشير الى فائدة الاسترخاء أي تفتح المسامات.

الصيدلة عنده غنية أكثر من صيدلية جالينوس وقد تبنى صيدلية بولس الاجيناطي.

يقول في « مقالته عن أمراض المعدة » وهي مقالة مهداة الى « المطران الفانوس » كما أشرنا أنه أخذ هذه المقالة عن عدة مؤلفين قدامى لانه بذلك يسهم في المحافظة على هذه المؤلفات من الضياع.

تأثرت مدرسة سلرنه الطبية بمبادئ المدرسة الاسلامية بفضل قسطنطين الافريقي فقد نمت في عهده نموا كبيرا بحيث أن الاسس التي قامت عليها لم تعُد ثابتة بل تحتاج الى دعائم أقوى والينابيع التي استقت منها عن طريق الترجمات العربية الى اللاتينية لم تعد كافية فانها كانت تستوعب بسرعة وتنفذ حالاً فاقتضى التفتيش عن ينابيع جديدة طبية حتى تستطيع هذه المدرسة أن تكفي ذاتها بذاتها . فعمدت في هذه المرة الى المصادر السريانية ، فالجسم الطبي السرياني مكون من الترجمات عن اليوناني وعن العربي.

ومهما يكون من أمر فان قسطنطين الافريقي أدخل الى مدرسة سلرنه وجهاً عربياً لم يكن غريباً عنها تماما لانها ألفت شيئاً منه عن الترجمات التي جاءت بها رأساً عن اليونانية ، ولذلك لم يكن

عليها من الصعب هضمه فهضمت من بعض ما هضمت مؤلفات ابن الجزار التي ترجمها قسطنطين في سلرنه ولاسيمّا كتابه «زاد المسافر» «وقوت الحاضر» وكتاب «المعدة» وكتاب «ابدال العقاقير».

ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الكتب تنتشر في اوروبة أو ينسجون على منوالها في مؤلفاتهم مثل القصيدة الطبية التي حملت عدة عناوين مثل :

- Regimen sanitatis.
- Flos medicinae et Scola Salernitana.
- Regimen virile.

كلها عناوين لقصيدة واحدة طبع منها بين عامي ١٤٧٤ و ١٨٤٦ مئتان وست واربعون طبعة ، مجهولة المؤلف ، ولكن التأثير العربي ظاهر فيها.

وقد أهديت هذه القصيدة الى ملك الانكليز وكلها نصائح طبية : استنشاء الهواء النقي. الاعتدال في كل شيء.

غسل الوجه والايدي عند النهوض في الصباح.

تمشيط الشعر وتنظيفه وتنظيف الاسنان ايضا.

لا يجب تناول الطعام الا على جوع ولا الشراب الا على عطش.

«Non bibe ni sitas et non comedas saturatur».

لا تبدأ وجبة طعام جديدة قبل هضم السابقة.

الفصل الثامن عشر

بطرس الاسباني PEDRO HISPANO

اسم ابيه يوليان، ولد في البرتغال ودرس في مدرسة الكاتدرائية بلشبونة. والمدرسة هذه ابتدائية فقط فاضطر والده لارساله الى مدرسة عليا لمواصلة دروسه. دخل جامعة باريس المعروفة في ذلك العهد اذ اننا في القرن الثالث عشر، فاطلق عليه اسم «الاسباني» «Hispanus»

درس في كلية الفنون واشتهر بها حوالي ١٢٤٠ اسم معلمه غليوم «شيرسوود» «Shyreswood» اثر على بطرس الاسباني في «الدايلكتكا» اي علم الجدل «Dialectica»

غير ان تشوقه الى المزيد من المعرفة دفعه الى تلقي الدروس في الكليات الاخرى والحصول على شهادات علمية، فاستمع الى دروس اللاهوتي الشهير «يوحنا البرماوي» «Juan de Parma» في كلية اللاهوت.

شعر بطرس الاسباني برغبة ملحة في دراسة الطب بجامعة باريس نفسها حيث يدرسون فلسفة ارسطو بعد ان رفع الحظر عنها. ومن المحتمل ان يكون حضر دروس البرتوس الكبير، فقد اخذ عنه بعض النصوص الطبية.

اكمل الطب في جزيرة صقلية وفي مدرسة «سلرنه» الشهيرة في ذلك العهد. ولمّا تأسست مدرسة «سيانا» في ايطاليا دعي لتدريس الطب فيها ومنذ ذلك الحين فقدنا اثره طيلة خمسة عشر عاما.

لا شك انه خلال هذه الاعوام الطويلة اتصل برجالات الكنيسة، لانه عندما عثرنا عليه من جديد عام ١٢٦١ وجدناه يوقع على محضر برفقة الكردينال «اوتوبونوس» «OTTOBONUS» الذي اصبح بعدئذ البابا ادريانوس الخامس (١٢٧٦)

ثم غاب عنا طيلة سبعة اعوام، عينه بعدها البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) طبيبه الخاص اما بمعرفة شخصية واما بتوصية من الكردينال «اتوبونوس».

وفي آذار او نيسان سنة ١٢٧٣ اخذ يترقى في المدارج الكنسية العليا فاصبح رئيس اساقفة براغة، في البرتغال. وكان البابا غريغوريوس العاشر ما زال حيا فعينه كردينالا على ابرشية «تسكلوم» «Tusculum» ليكون قريبا منه.

رافق البابا لحضور المجمع المسكوني الثاني في ليون، ثم اوكل اليه البابا غريغوريوس العاشر الاشراف على رهبنة نسائية في «ابرة» «EBORA» الحالية في البرتغال، كانت تأسست حديثا فوضع لها القوانين الرهبانية.

وبعد وفاة البابا غريغوريوس العاشر ١٢٧٦، اعتلى كرسي رومة لمدة قصيرة بابوان احدهما «انشونسيوس الخامس» الذي لم يستقر اكثر من نصف سنة على كرسي رومة وتوفي فاعتلاها الكردينال «اتوبونوس» صديق بطرس الاسباني واتخذ اسم ادريانوس الخامس ولكنه لم يدبر شؤون الكنيسة الرومانية اكثر من ثمانية وثلاثين يوما.

دعي الكرادلة الى انتخاب بابا جديد فلم يحضر سوى تسعة كرادلة وبعد تأخير وتأجيل انتخب بطرس الاسباني بابا بالاجماع في شهر ايلول ١٢٧٦، وقد اسهم في انتخابه حدثان او بالاحرى عاملان: احدهما انه كان الكردينال الوحيد الذي يحضر مجلس الكرادلة ولم يكن ايطاليا وفرنسيا، اذ ان مجمع الكرادلة انقسم الى قسمين متساويين بالعدد بين ايطاليين وفرنسيين، فانتخبوه، والعامل الآخر هو الرغبة العامة في انتخاب بابا يعمر طويلا. تمّ تتويجه في كاتدرائية القديس لورنسو في «فيتربو» «Viterbo» سلمه الخاتم البابوي والشعارات البابوية الاخرى الكردينال «ارسيني» «Orsini» الايطالي ورئيس الجماعة الكردينالية الايطالية، وقد خلف بطرس الاسباني على كرسي رومة باسم نقولا الثالث (١٢٨٠-١٢٧٧).

حمل البابا الجديد بطرس الاسباني اسم «يوحنا الواحد والعشرين»، فعاقب الذين حركوا الشغب في مدينة فيتربو اثناء انتخابه والغى الانظمة التي صدرت عن مجمع ليون المسكوني ممّا احدث تذمرا بين فئات الاكليروس. ولكن البابا الجديد يريد سنّ دستور من شأنه تجنب حدوث فترات طويلة تشغر فيها كرسي رومة بسبب وفاة البابا والتأخر في انتخاب حبر جديد. غير ان المنية داهمته ولم تترك له الفرصة لتنفيذ خطته.

تدخل مباشرة او بواسطة ممثليه في الشؤون السياسية الاوروبية. وقف الى جانب شارل دانجو

ضد «رودولف هابسبورج» في حمل لقب «سيد الامبراطورية الرومانية المقدسة». كما ان البابا الجديد دبر السلم بين ملك فرنسة «فليب الجسور» وملك قشتالة الفونسه ، فقد شبت بين الاثنين عداوة بسبب عرش نبارة ومن يرثه. غير انه لم يوفق مع ملك البرتغال الذي قطع علاقاته بالكرسي الرسولي واستولى على اموال الاوقاف رغم الرسالة الودية التي وجهها اليه البابا بطرس الاسباني البرتغالي الجنسية ايضا.

تفاوض مع ملك انكلترة بشأن مداخيل الحملة الصليبية ومصاريفها وانقاذ ابنة سيمون دي منفور المودعة في السجن ، طالبا توسط رئيس اساقفة كانتربري «جون بيكام» متبادلا معه رسائل طريفة في هذه الامور.

لم يهمل البابا يوحنا الواحد والعشرون شؤون الكنيسة الرومانية رغم هذه التدخلات السياسية العديدة في مدة قصيرة ، فالحملة الصليبية تحتاج الى اموال ، فالضرائب المفروضة لجباية هذه الاموال لاقت صعوبات من حيث تحصيلها ومن حيث ايداعها فرتب البابا كل هذه الامور مع ممثليه في مختلف البلدان الكاثوليكية فجمعت اموال ضخمة.

كما انه تابع سياسة سلفه «انوشنسيوس» الخامس إزاء الامبراطور البيزنطي ميخائيل بليولغوس وابنه بشأن وحدة الكنيستين اللاتينية والبيزنطية. ولكن فشل الاتحاد بسبب قضايا سياسية لا مجال لذكرها ، مع انه توصل الى ان يحظى منهما ومن بطريرك القسطنطينية «يوحنا بيك» بوثيقة اعتراف بالإيمَان الكاثوليكي.

نشّط اعمال الرسالات في البلدان التي لا تدين بالكثلكة. وتجدر الاشارة في هذا النحو الى الرسالة التي وجهها اليه «خان التتر» طالبا منه ارسال مبشرين الى بلاده لتعليم الديانة المسيحية ووعده بتقديم مساعدة لاجل الحرب الصليبية.

وبعد شهرين من انتخابه حبرا اعظم كتب وثيقة صدرت عن «فتربو» في ١٦ تشرين الاول ١٢٧٦ ، يوافق فيها على تأسيس مدرسة «ميرامار» في ميورقة لانجاب مرسلين ومبشرين بالديانة المسيحية. وكانت هذه المدرسة قد تأسست بامر من الملك «جقمة» بناء على طلب الفيلسوف رامون لول. ويثني المؤرخون على هذا البابا لانه ساعد الطلاب بطرق شتى لاجل تحصيل العلوم كما خصص منحا مالية ومكافآت لاولئك الاكليروس الراغبين في الذهاب الى باريس لتكميل دراساتهم.

وفي ١٨ كانون الثاني ١٢٧٧ اصدر البابا يوحنا الواحد والعشرون براءة بابوية ضد بعض

اساتذة كلية الفنون بجامعة باريس، يرجع فيها الى ذكرياته الجميلة فيها ويأسف لادخال افكار جديدة في هذه الكلية من قبل اساتذة يعطون الدروس فيها وقد تعرضت لانتقاد اللاهوتيين، ويطلب في الوقت ذاته من مطران باريس اطلاعه على تلك الاخطاء اللاهوتية المرتكبة وعن مسببيها لكي تتخذ الاجراءات الضرورية بحقها. ولكن المطران «طامبييه» «Tempier» بدل ان يتقيد بوصية البابا تخطاها محتميا وراء البراءة فحرم ٢١٩ قضية تعليمية عقائدية ارسطوطالية تدرس في كلية الفنون وذلك في ٧ آذار ١٢٧٧.

وقد شاء البابا معرفة ما يجري في كلية اللاهوت فوجه براءة اخرى في ٢٨ نيسان يطلب فيها من المطران «طامبييه» فتح تحقيق بالتعاليم اللاهوتية.

نفذ المطران طلبه هذه المرة بحذافيرها وشاء ارسال التحقيق الى البابا ولكن حدث في هذه الاثناء امر لم يكن في الحسبان اودى بحياة البابا يوحنا الواحد والعشرين. وذلك انه بنى مسكنا جديدا محاذيا لقصره البابوي في مدينة فيتربو، وما كاد يستقر فيه حتى هبط عليه السقف فاصيب بجراح بليغة لم تمهله اكثر من ستة ايام، فقضى نحبه في ٢٠ ايار ١٢٧٧. وهذه مرة اخرى لم ينعم العالم المسيحي الكاثوليكي بفترة بابوية طويلة، فدفن في كاتدرائية القديس لورنسو في «فيتربو».

كان لهذه الوفاة المفجعة تأثير على مخيلة العامة فنسجت حول هذا البابا اسطورة سوداء. رأوا في وفاته على تلك الصورة يمين العلي التي ثقلت عليه فعاقبته على خطايا ارتكبها، لان الاطباء في القرون الوسطى اتهموا باستحضار الارواح، وبطرس الاسباني هذا كان طبيبا، واتهم ايضا بالتعاطي مع الشيطان. واحتفظ رهبان الدومنكان بذكريات سيئة منه فقد اشاعوا ان سبب وفاته هو اضطهاده لرهبان عبد الاحد وبينهم توما الاكويني تلميذ العرب وتلميذ ارسطو. غير ان هذه الاشاعة عن البابا يوحنا الواحد والعشرين لا تقوم على اساس من الصحة لانه وقف موقفا محايدا من الرهبانيات.

بيد ان اللوم الاكبر الذي يعزى اليه هو انه اهمل بعض الشيء تدبير الكنيسة لان المعاملات البورقراطية تزعجه الى حد كبير. فميله الطبيعي الى الدرس حمله على العزلة عندما تتيسر له، للقراءة والانصراف الى العمل الفكري.

مؤلفاته:

عمل في جميع حقول المعرفة ولكنه فضل المنطق والطب على سواهما من العلوم. له كتاب

«خلاصة في المنطق» من ١٢ مقالة نال تأثيرا عظيما حتى القرن السادس عشر طبع ٤٨ طبعة في كولونيا ونورمبرج والبندقية وباريس وباسل وفيينا وليون وروان واشبيلية وليدن ولوفين.

قد يكون بطرس الاسباني اول من اوصل «كتاب الحيوانات» لارسطو وشروح ابن رشد عليها، الى العالم اللاتيني. فقد استعان بالترجمة التي وضعها ميخائيل اسكوت عن العربية في ١٩ مقالة بطليطلة قبل عام ١٢٢٠.

كيف توصل الى هذا النص؟ قد يكون تعرف شخصيا على ميخائيل اسكوت في بلاط الامبراطور فردريك الثاني في ايطالية اذ ان الاثنين كانا على علاقة بهذا الامبراطور.

غير ان بطرس الاسباني اهتم بالطب اكثر من اي فرع آخر من العلوم فقد عرف له ١٨ تأليفا طبع بعضها.

وفي هذه المجموعة من التآليف يجب ان نميز بين الشروح وبين الكتب التي خرجت من دماغ المؤلف، فقد اعتمد في الاولى على فصول ابقراط وشروحها التي كانت سائدة في ذلك العهد، وعلى مؤلفات جالينوس وارسطوطاليس وبنوع خاص على الاطباء العرب، وعلى حنين بن اسحق الذي ترجم الى العربية ابقراط وجالينوس. كما اعتمد بنوع خاص على مؤلفات اسحق الاسرائيلي وابن الجزار. تلك هي شروحه اما مؤلفاته فهي «كنز الفقراء»، وكتاب في «حفظ الصحة»:

نذكر المؤلفات واحدا واحدا:

١ – «Thesaurus pauperum» «كنز الفقراء»

عبارة عن كتاب جامع في الطب مأخوذ من مؤلفات طبية عديدة، معد للطلبة الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الكتب الغالية الثامن التي وضعها الاطباء المشهورون. ويتناول الامراض التي تصيب كافة اعضاء الجسم من قمة الرأس حتى اخمص القدمين، ومعالجة هذه الامراض. وقع الكتاب بين ايدي كثيرة حورت فيه وبدلت وحذفت واضافت بحيث انه لا توجد نسخة واحدة تطابق النسخة الاخرى. طبع في «امبير» و«ليون» و «فرانكفورت» و«باريس»، و«فلورنسة» و«البندقية» و«اشبيلية» (١٥٤٧) ومدريد (١٧٦٢) ولندن (١٥٥٠).

٢ – «Liber de morbis oculorum» «**امراض العيون**»

هذا المخطوط موجود في لندن «سلوان» ١٢١٤ من القرن الخامس عشر.

– اكسفورد من القرن الثالث عشر، غونفيل وكايوس من الورقة ٤٩ الى ١٤٢.

– مونيخ مخطوط رقم ١٦١ من القرن الثالث عشر ومخطوط رقم ٤٠ من الرابع عشر ومخطوط رقم ٣٨١ من الرابع عشر أيضا ومخطوط ٤٣٨.

– باريس المكتبة الوطنية مخطوط رقم ٦٩٥٧ و ٧٥٢١.

٣ – «Summa de conservanda sanitate» «**خلاصة في حفظ الصحة**»

مخطوط موجود في لندن المكتبة الملكية مخطوط رقم ١٣ – ١ – ٧ من القرن الخامس عشر.

ينتهي هكذا : «Explicit summa magistri P. de conservanda sanitate...»

وموجود في مونيخ رقم ١٤٥٧٤ من القرن الخامس عشر.

– في باريس المكتبة الوطنية رقم ٧٦١٦.

٤ – «Tractatus mirabilis aquarum» «**مقالة عجائب المياه**»

نجده في لندن «سلوان» من القرن الرابع عشر صفحة ٥٦.

– في المكتبة الوطنية باريس رقم ٦٩٥٧ من القرن الخامس عشر ورقم ٧٣٤٩ من القرن ذاته.

٥ – «Epistola Petri Hispani missa ad imperatorem Fridericum super Regimen sanitatis».

«**رسالة وجهها بطرس الاسباني الى الامبراطور فردريك الثاني حول تدبير الصحة**»

نجده في باريس المكتبة الوطنية رقم ٧٤٤٦ من القرن الخامس عشر.

– لندن، هيرلين ٥٢١٨ و ٢٢٥٨

– مونيخ رقم ٦١٥ من القرن الثالث عشر – الرابع عشر.

٦ – «De Anatomia» **مقالة في التشريح**.

نجده في برما رقم المخطوط ١٠٦٥ من القرن الرابع عشر من ورقة ١٤٧ الى ١٥٢.

٧ – «Isagoge ad artem parvam Galeni»: Hunain Ibn Ishaq. «**شروح على كتاب حنين بن اسحق على الايساغوجي للفن الصغير لجالينوس**».

وقد كتب حنين ابن اسحق الى علي بن يحيى رسالة يقول فيها بشأن هذه الكتاب ما يلي :

«كتابه في الصناعة الطبية. هذا الكتاب أيضا مقالة ولم يعنونه جالينوس الى المتعلمين لان المنفعة في قراءته ليست تخص المتعلمين دون المستكملين، وذلك ان غرض جالينوس فيه ان يصف جميع جمل الطب بقول وجيز وذلك نافع للمتعلمين وللمستكملين، اما المتعلم فكيما يسبق فيتصور في وهمه جملة الطب كله على طريق الرسم ثم يعود بعد ذلك في جزء منه فيتعلم شرحه وتلخيصه والبراهين عليه من الكتب التي بالغ فيها في الشرح، واما المستكمل فكيما يقوم له مقام التذكرة لجملة ما قد قرأه وعرفه بالكلام الطويل. واما المعلمون الذين كانوا يعلمون في القديم الطب بالاسكندرية فنظموا هذا الكتاب بعد كتاب الفرق ثم من بعده في النبض الى المتعلمين وبعده المقالتين في مداواة الامراض الى اغلوقن وجعلوها كانها كتاب واحد ذو خمس مقالات وعنونوها عنوانا واحدا عاما الى المتعلمين. وقد كان ترجم هذه المقالة اعني الصناعة الطبية عدة منهم سرجس الراس عيني قبل ان يقوى في الترجمة ومنهم ابن سهدا ومنهم ايوب الرهاوي وترجمته انا بعد لداود المتطبب. وكان داود المتطبب هذا رجلا حسن الفهم حريصا على التعليم وكنت في الوقت الذي ترجمته شابا من ابناء ثلثين سنة او نحوها وكانت قد التأمت لي عدة صالحة من العلم في نفسي وفيما ملكته من الكتب ثم ترجمته الى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى.

استعان بطرس الاسباني بهذا المخطوط فوضع شرحا له ونجده في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٦٩٥٦ وهو من القرن الرابع عشر.

يوجد مخطوط آخر في مدريد رقم ١٨٧٧.

٨ – «Ars parva» Galeno **تعليقات على جالينوس** : «**الفن الصغير**».

وهذه الشروح مثل السابقة مأخوذة عن حنين بن اسحق كما جاء في مستهل المخطوط. وموجود ايضا في مخطوط مدريد من الورقة ٤٨ الى ١٠٩.

٩ – «De regimene acutorum» Hipocrates **شرح ابقراط – في معالجة الاخطار**».

وهذا المخطوط موجود في باريس رقم ١٨٧٧ ويبتدئ في الصفحة ١١٠ وينتهي في ١٢٣

وينتهي على هذا الشكل :

«Explicunt problemata super regimentum acutorum Ypocrati»

١٠ – «Liber pronosticorum» «شروح على ابقراط في تشخيص الامراض».

وهذا المخطوط ايضا موجود في المجلد ذاته من صفحة ١٢٤ الى ١٤١ يبتدئ هكذا :

«Incipit: Scriptum super libro pronosticorum, - Omnis qui medicine artis studio et cetera: Iste liber cujus subectum est signum pronosticorum, dividitur in tres partes».

١١ – «Viaticum»: Abn Yazzar... شرح لكتاب ابن الجزار : زاد المسافر.

موجود في المخطوط ذاته ويبتدئ من الصفحة ١٤٢ حتى ٢٠٥ يستهل هكذا :

«Incipit: Questiones super viatico. - Capillus est ex fumo gressu adusto et cetera. Circa allopiciam duo queruntur».

وينتهي على هذا الشكل :

«Expliciunt questiones supra viaticum segundum Magistrum Petrum hyspanum Deo gracias. Omnis homo primum bonum».

١٢ – «في تدبير الغذاء ، شرح اسحق الاسرائيلي . من الورقة رقم ٢٠٦ – ٢٣٧ يبتدئ هكذا :

«Incipit: Scripti et questiones super libro de dietis particularibus. Circa ingressum scientie dietarum particularium VII sunt determinanda».

وينتهي :

Explicit tractatus a Magistro Petro hyspano editus supra dietas particulares. Laus Deo Patri.

١٣ – «De dietis universalibus» في التدبير الغذائي على العموم لاسحق الاسرائيلي.

يبتدئ في الورقة ٢٣٨ من المخطوط الموجود بمدريد رقم ١٨٧٧ حتى الورقة ٢٤٤ استهلاله :

«Incipit: Questiones super libro de dietis universalibus - Quod coegit in primis antiquos disputare de nuturis ciborum et cetera»...

انتهاؤه

Explicit et propter hoc talia animalia carent dentibus in superiori maxilla».

١٤ – «De urinis» «في البول» تعليق على تأليف اسحق الاسرائيلي».

يبتدئ في الورقة ٢٤٤ حتى ٢٤٧.

يستهل هكذا :

Incipit: Questiones super libro de urinis. - Signorum quedam sana...

ويختم هكذا : «Explicit: per vapores et fumos insensibilies et cetera»

١٥ – «De crisibus, de diebus decretoriis». «تعليق على كتابي جالينوس في البحران وايامه».

يقول حنين بن اسحق في الرسالة التي اشرنا اليها سابقا : انه قد ترجم كتاب جالينوس في البحران ، هذا الكتاب جعله جالينوس في ثلث مقالات وغرضه فيه ان يصف كيف يصل الانسان الى ان يتقدم فيعرف هل يكون البحران ام لا وان كان فمتى يحدث وبماذا والى اي شيء يؤول امره. وقد كان ترجمه سرجس واصلحته وبالغت في تصحيحه ليوحنا بن ماسويه وترجمته ايضا الى العربية لمحمد بن موسى.

كتابه في ايام البحران. هذا الكتاب ايضا جعله جالينوس في ثلاث مقالات وغرضه في المقالتين الاوليين ان يصف اختلاف الحال من الايام في القوة يكون فيه البحران وايها لا يكون في البحران واي تلك الايام التي يكون فيها البحران ، يكون البحران الحادث محمودا وايها يكون البحران فيها مذموما وما يتصل بذلك.

ويصف في المقالة الثالثة الاسباب التي من اجلها اختلفت الايام في قواها هذا الاختلاف. وقد كان ترجم هذا الكتاب الى السريانية سرجس واصلحته مع اصلاحي الكتاب الذي قبله وترجمته ايضا الى العربية لمحمد ابن موسى وهذا الكتاب والكتاب الذي قبله يعدان من سابق العلم.

ابتداؤه في الورقة ٢٤٨ وانتهاؤه في الورقة ٢٥٠.

يستهل على هذا النحو :

«Incipit: Questiones super libro de crisi et super libro de diebus decretoriis».

ويختتم :

«Explicit: multiplices alterius figure et luci et magis figure quam luci».

١٦ — «De pulsibus» «في النبض». شرح على «فلرتوس» «Filaretus»
يبتدئ في الورقة ٢٥١ حتى ٢٥٥.

استهلاله : «Incipit: Questiones de pulsibus Filareti».

خاتمته : «Explicit: et illi continuantur arterie matris et ita sit».

له شروح على ارسطوطاليس في تاريخ الحيوانات الكتاب العاشر وفي اقسام الحيوان الكتاب الرابع وكتاب توالد الحيوان وهو الكتاب الخامس ومن هذه الكتب الثلاثة شكل العرب كتابا واحدا يقع بتسع عشرة مقالة نقلها ميخائيل سكوت من العربية الى اللاتينية كما هي ثم تداولها من بعده الشارحون والمعلقون ومنهم بطرس الاسباني.

وقد ذكره ابن ابي اصيبعة في كلامه عن مؤلفات ارسطوطاليس فقال عنه انه يقع في تسع عشرة مقالة. (عيون الانباء، جزء اول صفحة ١٠٥ دار الثقافة — بيروت — لبنان).

وله ايضا كتاب في النفس.

شرح كتاب ارسطو في الموت والحياة وفي اسباب طول الحياة وقصرها.

يمكن اعتبار بطرس الاسباني تلميذا للعرب، ففي نظرية المعرفة تخلى عن مذهب الفلاسفة المدرسيين وتبع مذهب ابن سينا في نظرية العقل الفعال والعقل الممكن او المنفعل فقد نسب الى العقل الفعال اشرف نشاط تقوم به النفس وهو معرفة الله والارواح المحضة وهو خالد لا يموت، مفارق دائم.

وعن الطب ايضا، فقد رأيناه يشرح كتب الاطباء العرب ابن الجزار واسحق بن عمران الاسرائيلي وحنين بن اسحق. ويكون بطرس الاسباني بذلك قد أغنى العالم اللاتيني بالثقافة اليونانية المنقولة الى العربية ومضاف اليها ما انتجه العرب طيلة قرون عديدة في حقل الفلسفة والطب والصيدلة بنوع خاص.

المراجع العربية :

١ — ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء. دار الثقافة ببيروت.

٢ — عبد الرحمن بدوي : دراسة ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ١٩٨١.

٣ – سيمون الحايك: عروق الذهب في مناجم الروم والعرب.

المصادر الاجنبية:

PEDRO HISPANO: De anima. P. Manuel Alonso. Madrid 1941.

- CARRERAS Y ARTAU: Historia de la Filosofia española - Filosofia cristiana, siglos XIII al XV, tomo I. Madrid 1939.

- MAURUS SCHELLHORN OSB: San Pedro y susu sucesores. Libro documento. Barcelona 1967.

الفصل التاسع عشر

اخوان الصفاء في الغرب – المرافعة بين الحمار والاخ انسلمه ترمدة.

الراهب انسلمه : ANSELMO TURMEDA

ولد الراهب انسلمه في جزيرة ميورقة في اواسط القرن الرابع عشر. درس في «لردة» و «بولونية». وبعد سيامته كاهنا التحق باحدى الرهبانيات : «الاخوة الصغار» ، وانتقل الى تونس وهناك جحد الديانة المسيحية واعتنق الديانة الاسلامية واتخذ اسم عبد الله. فأوكل اليه السلطان ابو العباس احمد وولي العهد ابو فارس عبد العزيز تدريس اللغات وادارة الجمارك ، فوضع كتيبا باللغة العربية حوالي ١٤٢٠ يجادل فيه الديانة المسيحية وينتقدها. ينعم هذا الكتاب بشهرة كبيرة في العالم الاسلامي. ونشر كتابين آخرين باللغة القطالانية عنوانهما :

١ – كتاب التعاليم الحسنة El libre de bons ensenyament

٢ – كتاب النبؤات «Las profecias»

وفي عام ١٤١٧ ظهر كتابه «المرافعة بينه وبين الحمار».

مات برائحة القداسة عام ١٤٢٠ وما زال المسلمون التونسيون يكرمون ضريحه.

قليلون هم الادباء الذين توصلوا الى ادراك شهرة «انسلمه تورمدة» عن طريق كتبهم ، فقد راجت كتبه باللغة القطالانية رواجا لم يسبق له نظير في وطنه. كما ان انتقاده للديانة المسيحية ما زالت متداولة حتى الآن بين المسلمين. وكتابه «مرافعة الحمار» الذي نقل الى الفرنسية استحق أن يحظى باربع طبعات منذ عام ١٤٤٥ الى ١٦٠٦ ، بصرف النظر عن الطبعة الوحيدة باللغة القطالانية المفقودة ، وطبعة أخرى المانية عام ١٦٠٦. وهذا النهم الذي التهم به القارئ الفرنسي هذه الطبعات الاربع له ما يبرره ، فإن الكتاب بصرف النظر عن بعض القصص التي لا تخلو من الخلاعة دسها الراهب المارق الى الدين ، يستهوي القارئ بهذه القصص المكتوبة بلسان

الحيوان ، وهذا راجع حسب «منيندس بلايه» الى الخيال الخصب وحدة الذهن التي يبثها في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب [(١)] .

المهم الآن هو أن نعطي كل ذي حقه فندرس ابتكارات «تورمدة» وندرس ايضا سرقاته من العرب.

يفسر الراهب انسلمه السبب الذي أدّى الى هذا الحوار فيقول : انه في يوم من الايام الحارة ، خرج الى الحقل واستسلم للرقاد فرأى فيمَا يرى النائم ان جميع الحيوانات اجتمعت لانتخاب ملك جديد مكان الاسد الذي توفي دون ان يخلف وريثاً له. وكان الحصان المسمى «بجار» مستشار الملك المتوفي ، طلب من المجلس اختيار احد اقارب الاسد. وبعد المشاورة صوت لصالح الفرس الابيض لكي يختار الملك الجديد ، فاقترح عليهم الاسد الاحمر ابن عم الملك المتوفي. فسر الجميع لحسن الخيار. واستيقظ الاخ انسلمه عند سماعه الضجة ودهش امام هذا المنظر الغريب ، واشتكى الارنب الى الملك الجديد من حضور انسي وسط هذا المجمع من الحيوانات وأوضح للملك أن هذا الانسان يتجاسر ويدافع عن تفوق الانسان على الحيوان ، وان الحيوانات قد خلقت لخدمة الانسان.

استشار الملك وزراءه بشأن التدبير الذي يجب اتخاذه ضد الانسان النمام فأشاروا عليه بالمثول امام الملك والدفاع عن نفسه ضد التهم الموجهة اليه. فوجه الملك الثعلب ليكون سفيرا الى الانسان ليرغمه على المثول امام محكمة الحيوان.

شرع الاسد يوضح للراهب انسلم التهمة الموجهة اليه ، فاقر بصحة التهمة وتقدم بالبرهان عن افضلية الانسان على الحيوان ، فارتفعت اصوات الحيوانات مطالبة بانزال اشد العقوبات بالمتهم. ولكن الفهد رئيس الوزراء حال بينه وبينهم. فتشاور الملك مع وزرائه واتفقوا على قبول المناظرة واوعزوا الى الحمار ليكون محامي الحيوانات.

هيئة المرافعة :

١ — يقدم الراهب انسلم الحجة الاولى في سمو الانسان على الحيوان بحسن صورته وتقويم بنية هيكله وانتصاب قامته وجودة حواسه ودقة تمييزه وتناسب اعضائه خلافا للحيوانات القبيحة المنظر ، وغير متناسبة الاعضاء مثل الفيل والجمل والثور وكبش الغنم فيرد عليه الحمار ضاحدا حججه واحدة واحدة.

---

(١) Menendez Pelayo: Origenes de la novela: Historia de los Heterodoxos españoles, I p. 646-648.

٢ – الحجة الثانية قائمة في كمال الحواس عند الانسان الظاهرة والباطنة.
يرد الحمار فيشيد بقوة الحواس عند الحيوانات مثل الحصان والنسر والقط والخنفساء والكلب والكبش والسنونو.

٣ – الحجة الثالثة، التمييز بين الجميل والقبيح وحسن المشورة والفطنة عند الانسان في تعلم الفنون والتجارة والادارة.
يرد عليه الحمار فيذكر سياسة النمل والنحل والجراد.

٤ – تذوق الانسان الاطعمة اللذيذة والاشربة.
يقول الحمار مفسرا الاهتمام والانزعاج اللذين يسببهما اعداد الاطعمة والملذات الحسية والامراض المتأتية عنها خلافا للحيوان.

٥ – لذة الالعاب واللهو والموسيقى والضحك والفخفخة.
يذكر الحمار منوهًا بالاحزان والآلام والدموع التي يتعرض لها الانسان.

٦ – الله أعطى الانسان ولم يعط الحيوان شريعة دينية وقواعد لمعرفة الخير وطقوسا واحتفالات.
يضحد الحمار هذه الحجة فيقول ان الله حرم على الانسان هذه الرذائل.

٧ – استعمال الالبسة الناعمة التي لا يستخدمها الحيوان:
يحتج عليه الحمار قائلا: ان هذه الالبسة مسلوبة من الحيوانات.

٨ – توجد طبقات عند ابناء آدم فمنهم الملوك والاشراف والحكماء والمحامون والشعراء.
يجيبه الحمار: والحيوانات تعيش ايضا في مجتمعات.

٩ – لا يوجد انسان شبيه بانسان آخر.
يرد الحمار فيقول ولكن الناس يختلفون بالمذاهب والافكار والمعتقدات.

١٠ – ابن آدم يشتري ويبيع ويقدم الطعام للحيوان.
الحمار: هذا التصرف من قبل الانسان انانية.

١١ – الانسان يبني البيوت الفخمة والقصور الشاهقة.
الحمار: والحيوانات ايضا: النحل، العنكبوت والسنونو...

١٢ – الانسان يأكل لحم الحيوان.
الحمار: والحيوان يفترس الانسان وهنا يتدخل الذباب والقمل والسيبان مؤيدة حجة الحمار.

١٣ – الانسان خلق على صورة الله ومثاله.

الحمار: يفسر معنى هذا الخلق بنظرية العالم الصغير والعالم الكبير.

١٤ – بين الناس يوجد رهبان وقسس وجمعيات يخدمون الله.

الحمار: أكثرهم خطأة. وهنا يطلب الاسد من الحمار أن يروي بعض القصص التي تكشف عن الخطايا التي يرتكبها الرهبان.

١٥ – الانسان له نفس عاقلة والحيوان عنده شيء من التمييز الطبيعي فقط.

الحمار يوضح عجائب الغرائز في جميع أعمال الحيوان في الخليقة وتربية الأولاد والحب العائلي.

١٦ – الانسان اكثر نظافة وأزكى رائحة.

الحمار: الروائح العطرية التي يتعطر بها الانسان مسلوبة من الحيوان.

١٧ – الانسان يملك معارف كثيرة لا سيمًا علم الفلك ومعرفة الغيب بينمًا الحيوان لا يعرف سوى الحاضر.

الحمار يتبرع ويقول رغم انه حمار يستطيع معرفة خاتمة الانشقاق في الكنيسة الشرقية الذي فسره الراهب انسلم.

١٨ – البرهان الاخير يقدمه الراهب «انسلم» عن افضلية الانسان على الحيوان وهو ان الله تعالى اتخذ جسما انسانيا ولم يتخذ جسما حيوانيا عندما جاء الى العالم.

يعترف الحمار بهذه الافضلية.

الخاتمة: ينهي الاسد المرافعة ويحكم للراهب انسلم. يخرج الاسد من القاعة مع كافة الحيوانات، ويتوجه الراهب انسلم الى داره.

تلك هي النقاط المذكورة في هذه المرافعة بين الحمار والراهب انسلم. واذا راجعنا رسائل اخوان الصفاء نجد هذه المرافعة مع اختلاف بسيط جدا: بدل البغل الحمار، وبدل الاسد عند «انسلم» نجد في اخوان الصفاء ملك الجن.

وقد فقد النص القطالاني لهذه المرافعة لأن ديوان التفتيش حرمه، ولم يبق سوى النص الفرنسي القديم.

المقابلة بين نص اخوان الصفا ونص «الراهب انسلم» «Fray Anselm»

البرهان الأول في رسائل اخوان الصفاء من حيث أن الحيوانات عبيد لبني آدم:

نقول أن هؤلاء الحيوانات عبيد لنا ونحن مواليها ولنا أن نتحكّم عليها تحكّم الأرباب ، فمَن أطاعنا طاعته لله ومَن عصانا وهرب ، فمعصيته لله.

فقال ملك الجن للانسي : ان الدعاوى لا تصح عند الحكام الا بالبينات ولا تقبل الا بالحجة الواضحة فيمّا قلت وادعيت.

فقال الانسي : ان لنا حججاً عقلية ودلائل فلسفية تدل على صحة ما قلنا.

قال الملك : ما هي؟ بينها لنعلمها.

قال : نعم ، حسن صورتنا وتقويم بنية هيكلنا وانتصاب قامتنا وجودة خواسنا ودقة تمييزنا وذكاء نفوسنا ورجحان عقولنا كل هذا يدل على اننا أرباب وهم عبيد لنا.

فقال ملك الجن لزعيم البهائم : ما تقولون فيمّا قال الانسي؟

قال : اعلم بأن الله جل ثناؤه ما خلقهم على تلك الصورة ولا سواهم على هذه البنية لتكون دلالة على أنهم أرباب ولا خلقنا على هذه الصورة وسوّانا على هذه البنية لتكون دلالة على اننا عبيد ولكن لعلمه واقتضاء حكمته بأن تلك البنية هي أصح لهم وهذه أصلح لنا.

بيان ذلك ان الله عز وجل لما خلق آدم وأولاده عراة بلا ريش على أبدانهم ولا صوف على جلودهم يقيهم من الحرّ والبرد وجعل أرزاقهم من ثمر الأشجار ودثارهم من أوراقها وكانت الأشجار منتصبة في جو الهواء جعل أيضاً قامتهم منتصبة ليسهل عليهم تناول الثمر والورق منها. وهكذا لما جعل أرزاقنا من حشيش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية ليسهل علينا تناول العشب من الأرض.

وفي اليوم الذي خلق فيه آدم كانت الكواكب في اشراقها والزمان معتدلاً كثير المواد ، وكانت متهيئة لقبول الصور فجاءت بنيته في أحسن صورة وأكمل هيئة.

فقال زعيم البهائم : ونحن كذلك فعل بنا أيضاً لم يجعلنا طوالاً ولا دقاقاً ولا قصاراً ولا صغاراً بل بين ذلك فنحن وهم في هذه الصورة والفضيلة والكرامة بالسوية.

فقال الانسي لزعيم البهائم : من أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة وقد نرى الجمل عظيم الجثة طويل القامة صغير الأذنين قصير الذنب ونرى الفيل عظيم الخلقة طويل

النابين واسع الاذنين صغير العينين ونرى البقر والجاموس طويل الذنب غليظ القرون ليس له أنياب من فوق ونرى الكبش عظيم القرنين كبير الالية ليس له لحية والتيس طويل اللحية ليس له الية مكشوف العورة ونرى الأرنب صغير الجثة كبير الاذنين وعلى هذا المثال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهوام مضطربات البنية غير متناسبة الأعضاء..

فقال زعيم البهائم: هيهات ذهب عليك أيها الانسي، احسنها، أما علمت انك لما عبت المصنوع فقد عبت الصانع؟ أو لا ترى وتعلم أن هذه كلها مصنوعات الباري الحكيم خلقها بحكمته لعلل وأسباب وأغراض لجرّ المنفعة اليها او لدفع المضرّة عنها ولا يعلم ذلك الا هو والراسخون في العلم.

هذا هو البرهان الأول الذي ورد عند اخوان الصفاء.

البرهان الأول عند الأخ انسلم:

أيها السيد الحمار، البرهان الاول الذي به نحن أولاد آدم أشرف منكم وأسمى هو في مظهرنا الخارجي اذ انه يوجد تناسب في أعضائنا بحيث أن الرجال لهم اذرع طويلة وأرجل متناسقة مع بقية الاعضاء، هذا من حيث الرجال الطوال، أما الرجال القصار فان أرجلهم وأذرعهم قصيرة أيضاً بينما أنتم، معشر الحيوان تركبت أعضاؤكم بدون انسجام وهذا ما سأبرهن عنه في الحال: الفيل مثلاً عظيم الخلقة واسع الاذنين صغير العينين، والجمل عظيم الجثة كبيرة الرقبة والساقين وله أذنان صغيرتان وذنب قصير، والثيران والجواميس كثيرو الشعر وطويلو الذنب وليس لها أنياب من فوق، والخراف لها صوف طويل ولكن لا لحية لها، بينما الارانب هي حيوانات صغيرة ولها آذان اكبر من أُذني الجمل، وعلى النحو ذاته يمكن أن نذكر اعداداً لا تحصى من البهائم لا انسجام على الاطلاق بين أعضائها وهذا هو فضل الانسان على الحيوان.

ايها الراهب انسلم، انك مخطئ كبير وخاطئ أكبر بدون شك عندما تتجاسر على احتقار الحيوانات التي ذكرتها فاني لا أظنك في هذا الجهل، اذ انك لا تعلم ان من يحتقر أو ينبذ الخليقة إنما يحتقر الخالق. انك تجدّف على خالق العالمين وهذا نتيجة قصر ادراكك وجهلك العميق. اعلم ان الله تبارك وتعالى هو خالق الحيوانات بكل حكمة وكمال وقد جاء في سفر التكوين: ان الله نظر ما خلقه ووافق عليه.

وأقول لك أيضاً ان الفيل الذي له أذنان كبيرتان يستعملها لدفع أذى الذباب عنه فانه لا يستطيع إغلاق فمه بسبب نابيه الكبيرين وكذلك العينان فان العيون الكبيرة قصيرة النظر بينما

العيون الصغيرة تستطيع أن ترى عن بعد مائة ميل اذا كان صاحبها على قمة جبل. واذا كان الجمل له ساقان طويلتان فان عليه أن يأكل الحشيش فخلق له الله رقبة طويلة لكي تمكنه من الوصول إلى العشب وتنظيف أطرافه. وهكذا القول عن بقية الحيوانات ولا أريد الاطالة. ان حجتك ضعيفة وآمل أن تأتي ببرهان آخر اذا كان لك برهان آخر.

البرهان الثاني كما جاء في اخوان الصفاء:

وأما الذي ذكرته من جودة حواسكم ودقة تمييزكم وافتخرتم به علينا فليس ذلك خاصة دون غيركم من الحيوانات لأن فيها ما هو أجود حاسة منكم وأدقّ تمييزاً، فمن ذلك الجمل فانه مع طول قوامه ورقبته وارتفاع رأسه عن الأرض في الهواء يبصر ويرى موضع قدميه في الطرقات الوعرة والمسالك الصعبة في ظلام الليل ما لا يرى ويبصر أحدكم الا بسراج أو مشعل أو شموع. وترى الفرس الجواد يسمع وطئ الماشي من البعد في ظلمة الليل حتى انه ربما نبه صاحبه من نومه بركضة رجليه حذراً عليه من عدوّ أو سبع وهكذا نجد الكثير من الحمير والبقر اذا سلك بها صاحبها طريقاً لم يسلكها قبل ثم رجعت إلى مكانها ومعقلها المألوف فلا تتيه، وقد يوجد من الأنس من يسلك طريقاً دفعات ثم انه يضلّ فيه ويتيه ونجد من الغنم والشاء ما يلد منها في ليلة واحدة عدداً كبيراً وتسرح في الغد إلى المرعى وتروح بالعشيّ وتخلى من الوثاق مائة من البهائم واكثر فيذهب كل واحد الى أمه لا يشكل عليها امهاتها ولا تشتبه وكذلك أولادها على أمهاتها، والانسي ربما يمرّ به الشهر والشهران أو أكثر وهو لا يعرف والدته من أخته ولا والده من أخيه فأين وجود الحاسة ودقة التمييز الذي ذكرته وافتخرت به علينا أيها الانسي؟.

الحجة الثانية عند الراهب انسلم:

يقول الراهب: اقدّم لك برهاناً آخر يبين لك افضليتنا عليكم فان الله أعطانا خمس حواس ظاهرة وهي النظر والسمع والشم والذوق واللمس واذا كان عندكم شيء منها فانكم لا تتوصلون إلى جودة حواسنا.

جواب الحمار: ايها الراهب انسلم، قبل أن أدخل في صُلب النقاش كنت اريد ان اشيد بحكمتك التي ذاع صيتها ولكن الآن كما تفكر يبين لي انك جاهل مغرور. هل أنت في كامل عقلك وصوابك؟ ان طفلاً في الخامسة من سنّه لا يفكر مثلك بل يخجل من التفكير بمثله. ان الله الخالق جل جلاله أعطانا الحواس الخمس مثلكم ولكن بصورة أكمل، وذاكرتنا اصفى

من ذاكرتكم فاصغِ إلى ما سأقوله لك :

الحاسة الأولى هي السمع : ان انساناً ما يسافر على صهوة جواده وعندما يشعر بالتعب يستريح في ظل شجرة ويظل ماسكاً برسن حصانه وهنا يقترب انسان راجل فيسمع الحصان وقع خطواته قبل صاحبه فينبهه بأن يحمحم ويشدّ باللجام فيستيقظ الرجل. وعلى هذا الشكل أمثلة كثيرة فقل لي : مَن هو احسن سمعاً الحصان أم صاحبه؟

الحاسة الثانية هي النظر : قل لي بحقك هل من انسان يستطيع أن يميز شيئاً عن مسافة ميل واحد؟ بينما عقاب الجو يري عند بُعد خمسين ميلاً الارنب أو الحجل أو الجيفة.

الحاسة الثالثة هي الشم : قل لي أيها الراهب انسلم ، اي انسان مهما بلغت جودة الشم عنده يستطيع أن يشمّ على مسافة رمية حجر؟ بينما القط والفار يشمّان على مسافة رمية المنجنيق ، رائحة الجبن. والخنفساء كذلك تشم رائحة روث الحمار أو الحصان على مسافة عشرة أميال ، والكلب ولا سيمَا الكلب السلوقي يقتفي أثر الارنب والحجل ويعرف أين يختبآن.

الحاسة الرابعة الذوق : ترى الحيوان مثل الحصان والبغل أو الجاموس أو الحمل في المرعى يقترب ويذوق العشب الذي ينفعه ويبتعد عن العشب المضرّ واني استطيع أن أُقدّم مائة برهان وبرهان عن حاسة الذوق واللمس عند الحيوان ولكن لا أريد أن أتعب الملك الكريم والاشراف الحضور.

والذاكرة أيضاً عند الحيوان أقوى من عند الانسان فيكفي أن يمرّ الثور او الحصان على الطريق مرة واحدة حتى يتذكرها. والطيور المسافرة من بلد الى بلد تعود الى نقطة انطلاقها الاولى.

اما الانسان فانه عاجز عن ذلك فلو ان شخصاً سافر من ميورقة الى برشلونة بناء على دعوة صديق له يقوده الى بيته فاذا عاد الى ميورقة ثم شاء الرجوع الى بيت الصديق لا يهتدي اليه.

البرهان الثالث عند اخوان الصفاء :

ثم ان ملك الجن نظر الى جماعة الانس وقال لهم : من ملككم؟

قالوا : لنا عدّة ملوك ، قال فأين ديارهم؟ قالوا في بلدان شتى كل واحد في مدينة له جنوده ورعيته. قال الملك لأي علة واي سبب صارت هذه الطوائف من الحيوانات لكل جنس منها ملك واحد مع كثرتها وللانس ملوك عدة مع قلتهم؟

قال زعيم الانس العراقي : نعم ايها الملك ، انا اخبرك ما العلة وما السبب في كثرة ملوك الانس وقلة ملوك سائر الحيوانات مع كثرتها . قال الملك : وما هي ؟ قال : لكثرة مآرب الانس وفنون تصاريف امورهم واختلاف احوالها فاحتاجوا الى كثرة الملوك ، وليس حكم سائر الحيوانات كذلك .

وخصلة اخرى ان ملوكهم إنما هم بالاسم من جهة كبر الجثة وعظيم الخلقة وشدة القوة وان حكم ملوك الانس ربما يكون بخلافه وذلك انه ربما يكون الملك أصغرهم جثة وألطفهم بنية وانما المراد من الملوك حسن السياسة والعدل وتفقّد أحوال الجنود والأعيان وترتيبهم والاستعانة بهم في الأمور المشاكلة لهم .

وذلك ان رعية الانس وجنودها واعوانها اصناف وصفات شتى فمنهم حملة السلاح الذي بهم يبطش الملك باعدائه ومن خالف امره من الثوار والخوارج واللصوص وقطّاع الطرق ومنهم الوزراء والكتّاب والعمال ومنهم البناؤن والدهانون والمزارعون وأرباب الحِرَف .

ومنهم القضاة والعلماء والفقهاء الذين هم قوام الدين وحكام الشريعة

ومنهم التجار والصناع وأصحاب الحرف والمتعاونون في المعاملات والتجارات

ومنهم الخدم والغلمان والجواري والحجاب والوكلاء واصحاب الخزائن

الرد : سياسة النحل : اليعسوب : ومما خصنا به وأنعم به علينا أن جعل الله في ذخائرنا وما يخرج من بطوننا شراباً حلواً لذيذاً فيه شفاء للناس وتصديق مما قاله الله تعالى : «وأوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَحْلِ أنِ اتّخذِي مِنَ الجبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَجَرِ وَمِمَا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي الثَمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختَلِفٌ أَلْوَانُهُ فيهِ شِفَاءٌ لِلنَاس ... (سورة النحل) ...

ثم قال الببغاء : ايها الانسي اما الذي ذكرت بأن منكم صناعاً واصحاب حِرَف فليس ذلك بفضيلة . وبيان ذلك ان النحل هي من الحشرات وهي في اتخاذها البيوت وبناء منازل الاولاد احذق واعلم واحكم من صناعتكم وذلك انها تبني منازلها طبقات مستديرات بعضها فوق بعض من غير خشب ولا لبن ولا آجرّ ولا جص كأنها غرف من فوقها غرف ولا تحتاج في عمل ذلك الى قراءة كتب الهندسة ولا الى آلة البركار والمسطرة .

ثم انها تذهب في الرعي وتجمع من ورق الأشجار والنبات بأرجلها والعسل من زهر النبات ونور الاشجار ووردها تجمعه بمشافيرها ولا تحتاج في ذلك الى زنبيل .

وايضاً ايها الملك لو علم الانسي من حال النمل وكيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل

وبيوتاً وأزقّة ودهاليز وغرفاً وطبقات ومنعطفات وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضاً مصوناً كي لا تجري اليها المياه وبعضها مرتفعاً تخبئ الحب والقوت واذا ابتل منها شيء كيف تنشره أيام الصحو وكيف تقطع حب الحنطة نصفين لعلمها بأنه لا ينبت.

وأيضاً ايها الملك لو تفكر الانسي في أمر الجراد انها اذا سمنت أيام الربيع من الرعي كيف تطلب ارضاً طيبة التربة رخوة الحفرة وكيف تنزل هناك وتحفر بأرجلها ومخاليبها وتدخل أذنابها في تلك الحفرة وتطرح بيضها فيها وتدفنه ثم طارت وتعيش أياماً ثم تاكلها الطيور و يموت من بقي ويهلك من حرّ وبرد.

ثم اذا دارت عليها الحول وجاءت ايام الربيع واعتدل الزمن وطاب الهواء كيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الارض واكلت من ورق الشجر وسمنت وباضت مثل عام أول وهذا دأبها وذلك تقدير العزيز العليم.

البرهان الثالث عند انسلم:

ايها السيد الحمار، بما انك لم تقتنع ببراهيني السابقة اقدم لك برهاناً يدل على ان ابناء آدم هم الارباب وانتم عبيد لهم وخول.

نحن عندنا حكمة وفطنة لتقبل العلوم وسن الشرائع وتنظيم اعمالنا وتجاراتنا، اما انتم فلا شريعة لكم لأنه لا عقل لكم فانكم تتصرفون حسب ما توحيه لكم غريزتكم دون أن يكون للعقل مشورة في اعمالكم.

الحمار يردّ: العاقل يفكر فيمَا سيقوله اما انت فتتصرف خلاف ذلك أي انك تتكلم بدون ترو فتنطق بالغباوة والحماقة.

نحن ايضاً لنا شرائع: انظر النحل فانها تطيع الملكة التي تعيش معها وتراسها. فعندما يأتي الربيع ويطلّ الصيف تنطلق من خلاياها في النهار وفي الليل المقمر باحثة عن الشمع والعسل مستخدمة قوائمها الاربع فتلتقط العسل من الازهار والاعشاب والاشجار ومن كل نبتة نافعة فتبني بيوتها بالشمع مربعة ومستديرة للسكن ولحفظ المؤونة لأيام الشتاء وعندما يقبل الربيع تنطلق من جديد بحثاً عن رزقهن. ولها شرائعها فمن لم يأت في وقته يظل خارج القفير ويعاقب المخالف فتقطع يده أو رجله أو رأسه اذا كان الذنب كبيراً ليكون عبرة لغيره. والزنابير ايضاً تعيش مثل النحل ولكن دون انتاج عسل.

والنملة ايضاً صغيرة بحجمها ولكنها حكيمة وقد تحدّث عنها سليمان الملك في سفر الأمثال فقال في الاصحاح السادس منه : «اذهب إلى النملة ايها الكسلان تامل طرقها وكن حكيماً التي ليس لها قائد او عريف او متسلط وتعدّ في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد اكلها. الى متى تنام ايها الكسلان».

ايها الراهب انسلم ، يمكنك أن تتأمل حكمتها كيف تبني بيوتها تحت الأرض بعضها للاستراحة وبعضها على شكل مخازن لحفظ مؤونة الشتاء فتجمع الحنطة والشعير والعدس والفول والبازيلا واذا تبلّل يخرجنه الى الشمس حتى يجف واذا خشي عليه ان ينبت يقطعن حبة الحنطة شطرين ، وينزعن قشرة الشعير والفول والعدس وعندهن الحكمة لمعرفة ان حبة الحنطة المشطورة لا تنبت وان بقية البذور اذا نزع عنها جلدها او قشورها لا تنبت أيضاً ، واذا وجدت واحدة منهن شيئاً أخذت بعضه وذهبت راجعة مخبرة الباقين وكلما استقبلتها واحدة تهديها الى الطريق وتبشرها بالخبر الكبير مثلما تفعل النساء القطالانيات عندما يلتقين بأحد معارفهن في الطريق وهن عائدات من الكنيسة.

واذا توانت واحدة منهن في العمل او تكاسلت اجتمعت البقية على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها

انصت الآن ايها الراهب انسلم ، إلى حكمة الجراد : في أواخر الصيف تبحث عن ارض رخوة الحفرة وتحفر بأرجلها وتودع بيضها في تلك الحفرة وتتركها مدفونة ثم تتوجه إلى مكان آخر وتعيش اياماً وتاكلها الطيور او تموت من الحر والقر. ولكن عندما يأتي الربيع ويعتدل الزمان ويطيب الهواء ينكسر البيض ويخلق جراد صغير جداً كأنه نمل أسود ثم تنبت له اجنحة ويطير ويغادر العش ثم يسمن ويبيض ويدفن بيضه في التراب على الطريقة ذاتها التي نهجها من سبقها من الجراد ، وهي تطيع ملكها بحيث انها لا تطير حتى ترى ملكها قد طار امامها ولها قوانين وعادات وتعاقب بصرامة اذا خالفتها.

البرهان الرابع عند اخوان الصفاء:

قال انسي آخر اعرابي : نعم ايها الملك لنا خصال ومناقب تدل على اننا أرباب وهم عبيد لنا. قال الملك : هات واذكر منها شيئاً.

قال : طيب حياتنا ولذيذ عيشنا وطيبات مأكولاتنا من ألوان الطعام والشراب والملاذ مما لا يحصى عددها إلا الله تعالى ، وما لهؤلاء معنا شركة فيها بل هي بمعزل عنها وذلك ان طعامنا لب

الثمار ولها قشورها ونواها وحطبها ولنا بعد ذلك ألوان الخبز والرغفان والاقراص والجرادق من السميد والكعك وغيرها ولنا ألوان الطبيخ من السكابج والفطائر والهرائس وألوان الاشربة وألوان الشوى والحلوى والقطائف واللوزبيج.

ولنا ألوان الأشربة من الخمر والنبيذ الخالص الجيد والسكنجين والجلاب والفقاع وألوان الألبان من الحليب الرائب والماست والسمن والزبدة... وكل ذلك عنهم بمعزل وخشونة طعامهم وغلظها وجفافها وقلة الرائحة الطيبة منها وقلة دسومتها وحلاوتها دليل على قلة لذتهم منها وهذه خصال العبيد وتلك حال أرباب النِعَم الاحرار الكرام، وكل هذا دليل على اننا أرباب لهم وهم عبيد لنا وخول.

فنطق الهزار زعيم الطيور وقال:

اعلم ايها الملك الكريم، ان هذا الانسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم ولا يدري ان ذلك كلها عقوبات لهم واسباب الشقاوة وعذاب أليم إذ في حرمانها عذاب وفي حلالها حساب وهم فيما بينهم من الخوف والرجاء.

قال الملك: وكيف ذلك؟ بيِّن لنا.

قال نعم، وذلك انهم يجمعون ذلك ويحصلونه بكد أبدانهم وتعب نفوسهم وجهد أرواحهم وعرق جبينهم وما يلقون في ذلك من الشقاوة والهوان مما لا يعد ولا يحصى من كد الحرث والزراعة واثارة الأرض وحفر الأنهار وسدّ الشق والسقي والحفظ والنظافة والحصاد والحمل والجمع والدرس والتذرية والكيل والقسمة والوزن والطحن والعجن والخبز وبناء التنور ونصب القدور وجمع الحطب ووقود النيران ومقاساة الدخان ومعاكسة القصاب ومحاسبة البقّال والجهد والعناء في اكتساب الأموال وتعلّم الصنائع.

فان كان جمعها في حلال وأنفقها في وجه الله فلا بدّ من الحساب وان كان من غير حل وانفاقه في غير وجه الله فالويل والحساب والعذاب إذ لا بدّ من القوت والثياب مثل ما لا بدّ من الموت والحساب.

ونحن بمعزل من هذه كلها. ان طعامنا وغذاؤنا يخرج من الأرض من امطار سمائها من الوان البقول الرطبة الخضرة اللينة والعشب ومثل ألوان الحبوب اللطيفة المكوّنة في غلفها وسنبلها وقشرها.

وأيضاً اذا اكلنا قوتنا يوماً بيوم تركنا ما يفضل عنا بمكان لا نحتاج الى حفظه ولا نحتاج الى خازن ولا ناطور ولا حارس.

وايضاً فان لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم والوان مشروباتكم فنوناً من العقوبات وألواناً من العذاب مما نحن بمعزل عنه من الأمراض المختلفة والاعلال المزمنة والأسقام المهلكة والحميات المحرقة من الغب والربع والثانية والثالثة والرابعة والتخم والجشاء الحامض والهيضة والقولنج والنقرس والبرسام والطاعون واليرقان والسل والجذام وذات الجنب والبرص والسكتة والصداع والرمل وعسر البول والجرَب والجدري والثواليل والدماميل والحجامة والفصد وشرب الادوية الكريهة الرائحة.

كل ذلك اصابكم لما عليتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته.

البرهان الرابع عند الاخ انسلم:

يقول الراهب انسلم: ايها السيد الحمار، لا حاجة للتفكير حتى اجيبك: انت تعلم والكل يعلم أن من لهم خصال ومناقب يأكلون الأطعمة اللذيذة الشهية بينما الذين ليسوا من الاشراف عليهم أن يتغذوا باللحوم من الدرجة الدون، وهكذا نحن أولاد آدم، عيشنا لذيذ ومأكولنا طيب من خبز الحنطة والطيور مثل الحجل والدرغل والسماني والطيور التي تعيش في الماء مثل البط والدجاج الهندي والحمام. ثم نصطاد الغزلان والجواميس والخنازير البرية والأرانب والماعز البرّي ونأكل أيضاً الغنم والبقر بعد شيّها وقليها ونرفق بها الصلصة البيضاء والسوداء والخل والخردل واللفت والثوم والبصل والسبانغ والخس والبرتقال... ونأكل ايضاً احسن انواع الاسماك ولنا ألوان الاشربة من الخمور والنبيذ الخالص الابيض والاحمر طيلة ايام السنة. أما أنتم فلا شيء لكم من هذا أو ما يشبهه اكلاً أو شرباً، وهذه الخصال للعبيد وتلك حال أرباب النِعَم الاحرار الكرام وكل هذا دليل على اننا أشرف منكم منزلة.

جواب الحمار: لا أكاد أمسك نفسي عن الضحك. ايها الانسي أين فطنتك وحكمتك؟ أخالك كثيف الفهم مثل الفلاحين. ان كل ما تأكلونه يجب عليكم أن تشتروه وكيف تحصلون على المال؟ بالكدّ والتعب والألم المجبول بالخوف والهوان فتتعاطون التجارة وتسافرون براً وبحراً وفي بعض الاحيان تعرّضون أنفسكم للموت غرقاً أو شنقاً وينفونكم أو يسجنونكم. وعندما تصبحون أغنياء يسطو عليكم الهمّ: كيف تحفظون هذا المال وتكثرونه واذا اسأتم استعمال ثروتكم يحكم عليك بالعقاب في نار جهنم ولا تخرجون منها أبداً. ثم انكم لكي تأكلوا الخبز

الجيد من الحنطة عليكم أن تحرثوا الارض وتزرعوها وتحصدوها وتدرسوا ما حصدتموه على البيادر ثم يأتي الكيل والقسمة والطحن والعجن والخبز في الفرن. وعليكم أن تطهوا المأكولات ولأجل ذلك لا بدّ من قطع الحطب واشعال النار ويعميكم الدخان.

ايها الراهب انسلم، ونحن أيضاً نأكل اللحوم الشهية ولا تنقصنا الحنطة الجيدة والشعير والزوان والبازلة والفول والعدس والأرزّ.

أما فيمَا يتعلق بالفاكه نأكل العنب والتين والدراقن والبرقوق والخوخ والتفاح والاجاص والكرز والرمان والليمون والبرتقال والبطيخ وفواكه أخرى لذيذة في وقتها، ومأكولنا لا يكلفنا عناء ولا مالاً. أنتم تدفعون ونحن نأكل انتم تغرسون البقول ونحن نأكلها ولسنا بحاجة إلى الفلاحة والطحن والعجن والطبخ واضرام النار.

وأقول لكم أنكم معرَّضون للامراض بسبب ما تأكلون: علل مزمنة وحميات يومية والربع والثالثة والرابعة وتؤلمكم معدكم وأكبادكم وتصابون بالنقرس والقولنج والهيضة. أمراضكم كثيرة بقدر كثرة أطعمتكم، ولكي تشفوا لا بدّ من مقاساة الآلام مثل الكيّ بالحديد الحامي والحقنة والفصد والحجامة وشرب الادوية المسهّلة والكريهة الرائحة.

أيها الراهب انسلم، اتعتبر هذه الحياة حياة الأسياد؟ أما حياتنا نحن فلا عمل ولا خطر. هل لك حجة أخرى فأتِ بها.

البرهان الخامس عند «اخوان الصفاء»:

لذة اللهو والألعاب والموسيقى...

واما الذي ذكرت بأن لكم مجالس اللهو واللعب والموسيقى والفرح والسرور وما ليس لنا من الاعراس والولائم والرقص والحكايات المضحكة والتحيات والتهنئات والمدح والثناء والحلي والتيجان والخلاخل والاسورة وما شاكلها مما نحن بمعزل عنها فان لكم بكل خصلة منها ضروباً من العقوبات وفنوناً من المصائب، فمن ذلك ان لكم بازاء الأعراس المآتم وبدل التهنئة التعزية وبدل الالحان والغناء النوح والصراخ وبدل الضحك البكاء وبدل الفرح والسرور الغم والحزن وبدل المجالس والايوانات العالية المضيقة من القبور المظلمة وبدل الحلى والتيجان والخلاخيل والأسرة القيود والاغلال والسوامير والمقاطير وما شاكل المدح والثناء الهجو والشتم وسؤ الثناء وبدل كل حسنة سيئة وبدل كل لذة ألم وبدل كل نعمة بؤس وبدل كل فرح غم ونحن بمعزل عنه

وهذه كلها من علامات الاشقياء وان لنا بدلاً من مجالسكم وصحوناتكم وايواناتكم ومنادمتكم هذا الفضاء الفسيح وهذا الجو الواسع والرياض الخضرة على شواطئ الأنهار وسواحل البحار والطيران على رؤوس البساتين والأشجار والتحليق على رؤوس الجبال.

البرهان الخامس عند الراهب انسلم:

فيجيب الراهب انسلم: برهان آخر على نبلنا وشرفنا هو مجالس اللهو واللعب في قصورنا الشاهقة حيث ترقص السيدات على أصوات الموسيقى المتأتية من آلات الطرب مثل الناي والقيثارة وغيرها. ونتزين بأجمل الحلى والثياب وكل هذا من صفات الأسياد لا العبيد.

جواب الحمار: تظهر لي ايها الراهب انسلم انك خالي الرأس من الدماغ، لا تعد قولي اهانة، انك قد هرمت وفقدت ذاكرتك، فمتى كانت الملذات التي تخلق الآلام والدموع تعتبر ملذات حقيقية؟

ومن ناحية أخرى ان ما ذكرته من مجالس اللهو واللعب والاعراس لكم بازائه المآتم وبدل الابتسامة دمعة وبدل الالحان والغناء النوح والصراخ، وبدل القصور الشامخة تحلون في حفرة القبر المظلمة الضيقة، وبدل الحلى يصنعون لكم الحبال والقيود.

قدم لي حجة أخرى فحجّتك هذه واهية.

البرهان السادس عند اخوان الصفاء:

فقام رجل من أهل العراق عبراني وقال: ان الله هو الذي اكرمنا بالوحي والنبوات والكتب المنزلات والآيات المحكمات وما فيها من ألوان الحلال والحرام والحدود والاحكام والاوامر والنواهي والترغيب والترهيب والمدح والثناء والتذكار والاخبار والامثال والاعتبار وقصص الاولين والآخرين، ولنا المنابر والخطب والآذان والمواقيت.

وكل هذه الخصال كرامات لنا وأنتم بمعزل عنها وكل ذلك دليل على اننا أرباب وأنتم عبيد.

قال زعيم الطيور: لو تذكرت أيها الانسي ونظرت واعتبرت لعلمت وتبينت أن هذه كلها عليكم لا لكم، لأنها كلها عذاب وعقوبات وغفران للذنوب ومحو للسيئات ونهي عن الفحشاء والمنكر. ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر.

فمن هذه الخرافات والمجازات التي تجيئ منكم وأنتم المغيرون احكامه والعاصون أوامره

والهاربون من طاعته والجاهلون احسانه فلهذا بعث الأنبياء والرسل اليكم ليوفوا طريق الهدى وسبيل الرشاد اما طوعاً أو جبراً أو جهراً بل قتلاً وصلباً ونحن براء من هؤلاء.

البرهان السادس عند انسلمه:

ايها المعلم الحمار، ان الله أعطى الانسان شريعته ولم يعطها الحيوان فهذه الشريعة تقول انه علينا أن نصنع الخير ونتجنّب الشر ولذلك نصوم ونصلي وندفع العشور ونعطي الصدقة وخرج منا الرسل والانبياء بينما لم يخرج أي رسول أو نبي منكم وهذا يدل على اننا نحن الأسياد وأنتم العبيد.

جواب الحمار: ايها الراهب انسلم، من يكثر من الكلام يكثر ايضاً من الزلل. عندما أعطاكم الله شريعته شاء أن يبرهن لكم أن الشر فيكم وليس في الحيوان لأنه لو ظل الانسان في الحالة الأولى التي خُلق بها لما احتاج إلى شرائع ولكن الانسان تخطى الوصايا الالهية ولذلك عوقب بالطرد من الفردوس. ثم شرع الانسان يسرق ويشهد بالزور ويزني ويحلف باطلاً ويرتكب جميع الآثام والمعاصي القبيحة مثل القتل واللواط فأعطاكم الشريعة.

أما نحن فلا نحتاج اليها لأننا بقينا على الحالة التي خلقنا بها.

أجل انكم تصلّون لكي تغفر لكم خطاياكم ونحن لا نصلي لأننا لا نرتكب أي خطيئة.

تصومون لكي يغفر الله لكم شرهكم.

والعشور والصدقات والزكاة التي تقدّمونها ليست بالحقيقة سوى ثمرة السرقة اما بالقوة واما سراً عن طريق الغش بالأوزان.

أما إرسال الأنبياء فلكي يجعلوا الصالح أكثر صلاحاً ويردّوا الخاطئ إلى التوبة، ونحن لسنا بحاجة إلى أنبياء ورسل لأننا لا نقوى على عمل الشرّ نحو أنفسنا أو نحو القريب.

وكما نرى حتى الآن ان المقابلة بين نص اخوان الصفاء ونص انسلمه المترجم عن الاسبانية لا يختلفان لا بالمعنى ولا بالمبنى.

نواصل تقديم البراهين ومقابلتها.

البرهان السابع عند اخوان الصفاء:

استعمال الالبسة الناعمة التي لا يستخدمها الحيوان.

ثم التفت زعيم السباع إلى المجتمعين من حكماء الجن وزعماء الحيوانات فقال : هل رأيتم يا معشر الخطباء أكثر سهواً وغفلة من هذا الانسي؟ قال الجماعة : وكيف ذلك؟ قال لأنه ذكر من فضائلهم كيت وكيت من حسن اللباس ولين الثياب والدثار.

ثم قال : أيها الانسي أخبرني هل كان لكم هذا الذي ذكرتموه وافتخرتم به إلا بعد أن أخذتم من غيركم من سائر الحيوانات واستعرتموها من سواكم من السباع وغلبتموها عليها. أليس ألين ما تلبسون وأحسن ما تتزيّنون به من اللباس والحرير والديباج الابريسم ليس هي من بني آدم بل هي من جنس الهوام وقد نسجتها على أنفسها ليكون كناً لها ولبيضها ولتنام فيها وتكون لها غطاء ووطاء وحرزاً من آفات الحر والبرد والرياح والأمطار ، فجئتم أنتم وأخذتموها قهراً وغلبتموها عليها جبراً وجوراً فعاقبكم بها الله وابتلاكم بشلّها وغزلها ونسجها وخياطتها وقصارتها وقطعها وتطريزها وما شاكل ذلك من العناء والتعب.

البرهان السابع عند «انسلم» :

وهذه حجة أخرى تدل على اننا نحن أسيادكم وأنتم عبيد لنا ، لأننا نلبس الثياب الناعمة مثل الحرير والبرفير والأرجوان والقطن والصوف. وهذا يلائم الأسياد ولا يوافقكم.

جواب الحمار : أيها الراهب انسلم ، ان ما لا ينظر أمامه تعثر رجله وهذا ما يحدث لك فانك بكلامك اعترفت بلصوصيتك فأنت لص بالحقيقة ، فالثياب التي وصفتها مسروقة من دودة القز ، واذا تحدثتم عن الصوف فا ن الله قد أعطاه الحيوانات لتقيها من آفات البرد والريح والمطر فجيتم وانتزعتموها ، فعاقبكم الله على هذا النهب والسلب بأن بلاكم بغسلها وتنظيفها وتبييضها وشلّها وغزلها ونسجها وخياطتها وقطعها وتطريزها وتفصيلها وما شاكل ذلك من العناء والتعب.

البرهان الثامن عند اخوان الصفاء :

قال الزعيم الفارسي [1] اعلم ايها الملك ان منا الملوك والخلفاء والسلاطين وان منا الروساء والوزراء والكتّاب والعمال واصحاب الدواوين والحجّاب والقوّاد والنقباء والخواص وخدم

١ - في رواية اخوان الصفاء اجتمع ممثلون عن بني آدم من جميع أقطار الدنيا للمدافعة أمام ملك الجان ، بينما في رواية «انسلمة» أجمع الحيوانات على أن يكون الحمار ممثلهم في هذه المرافعة. وليس أمام ملك الجان كما في الرواية العربية وهو الأصح والأقرب الى المنطق ، لأن الخصم لا يمكن أن يكون حكماً.

الملوك وأعوانهم من الجنود ومنا أيضاً التجار والصناع واصحاب الزرع والنسل ومنا أيضاً الأشراف والأغنياء ومنا أيضاً الأدباء وأهل العلم والخطباء والشعراء والمتكلمون والنحويون.

فلما فرغ زعيم الانس من كلامه نطق الببغاء وقال: اعلموا رحمكم الله، ان هذا الانسي قد ذكر اصناف بني آدم وعد طبقاتهم فلو انه تفكر ايها الملك فعادل واعتبر كثرة اجناس الطيور وأنواعها لعلم وتبين له من كثرتها ما يصغر ويقلّ عنده اصناف بني آدم وعدد طبقاتهم.

ولكن خذ الآن أيها الانسي إزاء كل ما ذكرت وافتخرت به بقولك قولاً معكوساً وبدل كل حسن نسبت اصنافاً اخرى قبيحة ونحن بمعزل منها وذلك ان عندكم الفراعنة والنماردة والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين والخوارج وقطّاع الطرق والعيارين ومنكم أيضاً القوّادون والمخانيث والمواجرون واللوطة والسحاقات والبغايا ومنكم أيضاً السفهاء والجهال والاغبياء والناقصون.

ان أول كل شيء مما ذكرت وافتخرت به ان منكم الملوك والرؤساء ولهم أعوان واجناد ورعية.

اما علمت ان جماعة النحل وجماعة النمل ولجماعة الطيور ولجماعة السباع رؤساء وأعواناً وجنوداً وملوكها أحسن سياسة وأشد عناية من ملوك بني آدم بها وأشد تحننا عليها ورأفة بها وشفقة عليها.

وذلك ان ملك النحل ينظر في أمر رعيته ويتفقّد أحوالهم وأحوال جنوده وأعوانه لا لهوى في نفسه وشهواتها وجرّ المنفعة اليها ودفع المضرة عنها بل يفعل ذلك رأفة ورحمة لرعيته.

وهكذا يفعل ملك النمل.

البرهان الثامن عند انسلم:

ايها السيد الحمار: ان سيادتنا عليكم ظاهرة في انه خرج منا الملوك والأمراء والأشراف والأحبار والدكاترة والفلاسفة والرؤساء والمستشارون والمحامون وكاتبو العدل والشعراء والمغنّون والفلاحون وكل هذه صفات تلحق الأسياد لا العبيد.

جواب الحمار: ونحن ايضاً لنا ملوك. حدثتك سابقاً عن النحل. وهذا ملكنا عندما يصطاد فريسة يأكل القليل منها ويترك الباقي لخدمه وبطانته، وهو شجاع لا يهاب جيشاً بكامله وقد ضرب به المثل بالشجاعة فقيل أشجع من الأسد.

وهذا النسر وهو ملك الطيور. والنمل أيضاً لها ملك والجراد كذلك.

وأي مهندس يقاس بالنحل وبالسنونو وكيف تصنع بيوتها، وكذلك عندنا دكاترة وفلاسفة وشعراء وخطباء رغم انكم تهزأون بهم لأنكم لا تستطيعون فهم لغتهم مثلما النصراني لا يفهم المسلم لأنهما يتكلمان لغتين مختلفتين و بما انكم لا تفهموننا تعتقدون اننا ناقصو المعرفة والعلم ولكن أقول لك ان تغريد الشحرور والحسون والبلبل والكنار والببغاء فيه انسجام وتركيبه صحيح.

وكذلك اريد افهامك أيها الراهب انسلم ان ملوكنا أفضل من ملوككم وهم يرفقون برعاياهم أكثر من ملوككم والسبب هو ان ملوككم يستثمرونكم ويفرضون عليكم الضرائب والعشور والمكوس والغرائم لكي يدافعوا بها ضد اعدائهم. وهذا نقص وحسد اذ انه يطلب من الملك ان يكون حكيماً تقياً رؤوفاً عادلاً أي أن يعطي دائماً كل ذي حق حقه ملك النحل ينظر في أمر رعيته وملك السباع وملك النمل.

ابحث عن حجة أخرى أكثر اقناعاً.

البرهان التاسع عند اخوان الصفاء:

لا يوجد انسان شبيه بآخر.

ثم قال ملك الجن للانسي: قد سمعتم ما قال وفهمتم ما أصاب فهل عندكم شيء آخر؟ قالوا: نعم، خصال ومناقب تدل على أنهم عبيدنا ونحن أرباب. قال: وما هي؟ اذكرها. قال: وحدانية صورتنا وكثرة صورها واختلاف اشكالها فان الرئاسة والربوبية بالوحدة أشبه والعبودية بالكثرة أشبه.

فقال الملك للجماعة: ماذا ترون فيما قال؟

تكلم زعيم الطيور وهو الهزار قال: صدق ايها الملك فيما قال ولكن نحن وان كانت صورتنا مختلفة كثيرة فنفوسنا واحدة وهؤلاء الانس وان كانت صورتهم واحدة فان نفوسهم كثيرة مختلفة.

قال الملك: وما الدليل على ان نفوسهم كثيرة مختلفة؟

قال كثرة آرائهم واختلاف مذاهبهم وفنون دياناتهم وذلك انك تجد فيهم اليهود والنصارى والصابئة والمشركين ومن عبدة الأصنام والنيران والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها وتجد أيضاً أهل الدين الواحد مختلفي المذاهب والآراء مثل سامري وغياثي وحانوتي ونسطوري

ويعقوبي ومانوي ومزدكي وبهرمي وشمسي ومعتزلي وسنيّ ، نحن من كل هذه المذاهب براء مذهبنا واحد واعتقادنا واحد وكلنا موحدّون مؤمنون مسلمون غير مشركين ولا منافقين ولا فاسقين ولا مرتابين ولا شاكين ولا ضالّين ولا مضلّين.

البرهان التاسع عند الراهب انسلم :

ايها السيد الحمار ، سبب آخر وحجة أخرى تبين أن الانسان أشرف من الحيوان واننا أسيادكم وأنتم العبيد وهي اننا خُلقنا على صورة الله ومثاله بينما أنتم متنوعون الى اقصى حد من التنوع .

ان الله أعطانا ثلاثة امور تبعث الدهشة والعجب : الاول انه بين مائة ألف رجل واكثر لا يوجد رجل مثل الآخر رغم انهم جميعاً لهم شكل الرجال أي لهم حواجب وجبهة وعيون وأنف واذن وشفاه ولحية الخ .

والأمر الثاني رغم ان جميعهم لهم لسان واحد للكلام والغناء فلا كلامهم ولا غناؤهم شبيه بغناء الآخر بحيث انه يمكن التمييز بسهولة بين هذا الصوت وذلك الصوت .

والأمر الثالث رغم ان لهم ثلاثة وعشرين حرفاً للكتابة لا يوجد بين مائة ألف كاتب من له الكتابة ذاتها .

وهذه الصفات هي من احسن ما انعم الله علينا بها لأننا لو كنا جميعاً متشابهين لحصل عن ذلك ضرر كبير اذ ان الأب في هذه الحال يضاجع ابنته لظنه انها امرأته او امرأة ابنها والنساء لا يعرفن أزواجهن فيستسلمن الى رجل آخر ظناً منهن انه رجلهن . ولا احد يعرف من هو البابا والملك ولا النصراني يعرف اليهودي أو المسيحي .

ولو كنا جميعاً ننطق باللهجة ذاتها لكان أحدهم يطرق باب امرأة قائلاً افتحي لي : وتفتح له ظناً منها انه زوجها ، وتصور الشرور الناتجة عن كل هذا أو غيره .

أما أنتم ، معشر الحيوان تنقصكم هذه الصفات فالشبه بينكم كبير : الاسود والثيران والحملان ولهذا السبب فان الابن يضاجع الأم والأخ الأخت ظنا منه انها زوجته فعندما يخور العجل تعتقد البقرة انه الثور فينزو عليها وهكذا يجري مع الفرس والحصان والكلب والكلبة والقط والقطة والفأر والفأرة ، ونستخلص من كل هذا اننا أشرف منكم .

جواب الحمار : اعتقد أنك مجنون ايها الراهب انسلم ، لانك تتكلم بدون وعي وتفكير ، قد

يكون يوجد بعض الشبه الخارجي فيمَا بينكم ولكن ارادتكم مختلفة وطرق تفكيركم مختلف ايضاً فلو انكم اصبتم لكنتم اتحدتم جميعاً بشريعة الله الواحدة وآمنتم بابنه يسوع المسيح فخلصكم. يوجد بينكم أشرار من اليهود والنصارى والمسلمين والتتر وكثيرون لا يتقيّدون بدين أو مذهب أو شريعة وكلهم يعتقد ان مذهبه هو الأفضل وان الآخرين منغمسون في الضلال. وغيرهم يعبدون الشمس والقمر وغيرهم جعلوا المال ربهم. نحن نعبد الله الواحد خالقنا والله يكافئنا على حسن نوايانا فيعطينا الطعام والشراب دون عناء ودون حاجة الى الحراثة والزراعة أما أنتم الذين تفتخرون بحسن هندامكم فان الله قد عاقبكم اذ انه حكم عليكم أن تأكلوا خبزكم بعرق جبينكم... أين الاعزاز والاكرام ايها الراهب انسلم؟ هل في أكل اللقمة مغموسة بعرق الجبين أم في الأكل والشرب بلذة ودون تعب؟

اذا حصل بعض التزاوج بين الأم والابن فليس ذلك عن نقص في المعرفة مثلما تدّعي بل على العكس لأن الله أعطانا ذلك بدرجة أعلى من الكمال.

وكذلك يولد أبناؤكم ولا يعلمون من مصالح أمورهم شيئاً من جر منفعة أو دفع مضرة، فانكم في اليوم التالي لميلادكم لا تميزون شيئاً وحتى بعد ستة أشهر من ذلك لا تميزونهم عن غيرهم من أولاد الناس فالكل آباؤكم وأمهاتكم.

ونجد اولادنا اذا خرج الواحد من الرحم خرج معلماً او ملهماً الى ما يحتاج اليه من أمر مصالحه ومضاره ومنافعه ولا يحتاج الى تعاليم الآباء والأمهات...

البرهان العاشر عند اخوان الصفاء:

ابن آدم يشتري ويبيع الحيوان ويقدّم له الطعام.

قال زعيم البهائم: وأما الذي ذكر بأنا نطعمها ونسقيها ونكسوها وما ذكره من سائر ما يفعلون فليس ذلك شفقة علينا منهم ولا رحمة لنا ولا تحننا علينا بل مخافة أن نهلك فيخسرون اثماننا وتفوتهم المنافع منا من شرب ألباننا ودثارهم من أصوافنا وأوبارنا وأشعارنا وركوبهم ظهورنا وحملهم أثقالهم علينا لا شفقة ولا رحمة كما ذكر.

البرهان العاشر عند الراهب انسلم:

ايها الحمار المحترم، أنتم موضوع بيع وشراء من قبل الانسان الذي يطعمكم ويسقيكم

ويقيكم من الأسود والذئاب ويشفيكم عندما تمرضون. نصنع كل هذا بدافع من عامل الشفقة عليكم والرأفة بكم، وهذا هو تصرّف الأسياد مع العبيد..

الجواب: ايها الراهب انسلم، هذه الحجة لا قيمة لها لأن النصارى والمسلمين يتصرفون هكذا مع بعضهم البعض وهذا لا يعني أي حق بل هو عمل قوة وحيث توجد القوة لا يوجد الحق.

اما من حيث اطعامنا واهتمامكم بأمرنا ووقايتنا من البرد والحر ومن كل شر فما ذلك إلاّ أنانية منكم مخافة أن نهلك فيضيع مالكم الذي أنفقتموه في شرائنا.

نقدّم لكم الحليب والجبن والزبدة والصوف والجلود التي تقيكم البرد. وأنتم تنزعون الجدي عن أمه لتغتذوا بحليبها مع انه لا تنقصكم المياه ولا الخمور. هل وجدتم حيواناً واحداً يشرب الحليب عندما يكبر؟ كلا. أما أنتم فانكم تشربونه لشرهكم، طيلة حياتكم. وقد بلغ من قساوتكم انكم تأخذون العجول والحملان وتقتلونها وتقطعونها إرباً إرباً وتطبخونها بحضور آبائها وأمهاتها الصامتة المتألمة دون شكوى.

حجتك هذه لا تنفع فهات حجة أخرى اذا كان لك حجة أخرى.

البرهان الحادي عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان يبني البيوت الفخمة والقصور الشاهقة.

الجواب: فليعلم هذا الانسي ان لنا علما ومعرفة.

وهكذا ايضاً ايها الملك، دود القز، التي تكون على رؤوس الأشجار والجبال فانها اذا شبعت من الرعي أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها في رؤوس الجبال شبه العش والكن ثم تنام أياماً معلومة فاذا انتبهت طرحت بيضها في داخل ذلك الكن الذي نسجته على أنفسها ثم ثقبتها وخرجت منها وسدّت ذلك الثقب وخرجت لها أجنحة وطارت فيأكلها الطير أو ماتت من الحر والبرد والريح والمطر وبقي ذلك البيض في تلك الجوزات محروزاً أيام الصيف والخريف والشتاء من الحر والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول ويجيئ أيام الربيع ويحضن ذلك البيض في الجوزات ويخرج من ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار وتدب على ورق الأشجار أياماً معلومة فاذا شبعت أخذت ونسجت على نفسها من لعابها مثل العام الأول وذلك دأبها أبداً.

وكذلك أيضاً حال الزنابير الصفر والحمر والسود فانها تبني أيضاً منازل في السقوف والحيطان ومن بين أغصان الشجر مثلما يفعل النحل وتبيض وتفرخ ولكنها لا تجمع القوت للشتاء ولا تدخر للغد.

وهكذا الخطاف وهو من الطير يبني لنفسه منزلاً ولأولاده مهداً في الهواء معلّقاً تحت السقوف من الطين من غير حاجة إلى سلّم يرتقي عليه أو راقود يحمل الطين عليه أو عمود يسند بيته اليه ولا يحتاج إلى آلة من الآلات أو الأدوات.

واذا عميت أولادها تحمل من الطين حشيشة تسمى الماميراف تحك بها عين الأولاد فيضيءُ بصرها.

وهكذا ايضاً الارضة وهي من الهوام تبني على أنفسها بيوتاً من الطين الصرف شبه الازج والازقة من غير أن تجمع التراب أو تبلّ الطين أو تستقي الماء. فقولوا ايها الحكماء من أين لها ذلك الطين ومن أين تجمعه وكيف تحمله ان كنتم عالمون؟

البرهان الحادي عشر عند الراهب انسلم:

فضلنا عليكم نحن أبناء آدم اننا نبني القصور والأبراج والدُور الفخمة لتكون مأوى لنا ونبنيها على أشكال متنوعة وأنتم عاجزون عن ذلك ومن كان عاجزاً فهو المسود ونحن الأسياد.

جواب الحمار: ايها الراهب انسلم، بقدر ما تتكلم بقدر ما تخطئُ. اما حدثتك عن النحل كيف تبني بيوتها من الشمع فقط بينما الانسان يحتاج الى الرمل والكلس والتراب ويستخدم المطرقة والحجر والخشب والحديد والمنشار والازميل وغيرها. والعنكبوت يبني بيته بمادة واحدة: خيوطه الدقيقة يحيكها بطريقة عجيبة وابن آدم عاجز عن صنع شبر واحد من القماش بدون الاستعانة بمواد كثيرة.

فهذه الحجة ايضاً لا تصلح، عليك بحجة أخرى ايها الراهب انسلم.

البرهان الثاني عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان يأكل لحم الحيوان.

قال الجماعة بماذا يفتخر الانسان علينا؟

قال الرسول: بكبر الجثة وعظم الخلقة وشدة القوة والقهر والغلبة. قال زعيم الزنابير: نحن

نمرّ إلى هنالك وننوب عن الجماعة. قال زعيم الذباب: لا بل نمرّ نحن إلى هناك.

قال زعيم البق: نحن نمر الى هناك

قال زعيم الجراد: نحن نمرّ الى هناك قال لهم ملك الجن: ما لي أرى كل الطوائف قد بادرت الى البراز من غير فكر ولا روية في هذا الأمر؟.

قالت البق: ايها الملك اصغرنا واضعفنا بنية قتل النمرود لعنة الله عليه.

قال الزنبور: أليس اذا احدهم لبس سلاحه الشاك وأخذ بيده سيفه ورمحه وسكينه فيقدم واحد منا فيلسعه بحمة مثل رأس الابرة فتشغله عن كل ما أراد وعزم عليه ويتورّم جلده وتوهن اعضاؤه وتتربد اعصابه حتى لا يقدر على سيفه أو سكينه أو لجام فرسه؟

قال الذباب: أليس أعظمهم سلطاناً وأشدهم هيبة اذا قعد الملك على السرير وقام الحجّاب دونه شفقة عليه أن يناله أذى أو مكروه فيجئ أحدنا من مطبخه أو خلائه ملوث الرجلين والجناحين فيقعد على السرير وعلى ثيابه وعلى وجهه ولحيته ويعذّبه ولا يقدر على الاحتراز منه؟

والحيوان يفترس الانسان أيضاً.

البرهان الثالث عشر الراهب انسلم:

ليس من الضروري أن أعصر دماغي أيها السيد الحمار، لأخرج لك منه حجة تبين لك اننا أشرف منكم وأسمى، فجميع حيوانات البر والبحر والجو هي مادة لطعامنا ومن الواضح ان الآكل خير من المأكول.

جواب الحمار: الفم المغلق لا يدخل اليه الذباب. اذا كانت حجتك قوية لكان الدود سيدك اذ ان الدود يأكلكم وكذلك السباع والوحوش فانها تأكل اللحوم البشرية. ويجب أن تخجل أن يكون للبق والأمل والبراغيث سلطة عليكم فانها تمصّ دماءكم.

وهذه حجة أخرى منقوضة.

وهنا تدخّلت الذبابة طالبة الكلام فسمح لها به فقالت: ان اسمى انسان فيكم يا بني آدم هو البابا والامبراطور أو الملك فعندما يلبسون البرفير والارجوان في الاحتفالات الكبرى ويتضمخون بالمسك وغيره من الروائح الزكية يجئ أحدنا من مطبخه أو بيت خلائه ملوّث

الرجلين والجناحين فيقعد على السرير وعلى ثيابه وعلى وجهه ولحيته فيتلوّث ويسأل الحضور هل تشمّون مثلها أشم؟ ويجاوبونه كلا والمسكين يجهل اننا قضينا غرضنا في لحيته...

البرهان الثالث عشر عند اخوان الصفاء:

يقابله عند انسلمه، خلود النفس البشرية ولاخوان الصفاء رأي خاص في النفس فهي في نظرهم جوهرية روحانية حية بالذات:

«واما الصفات المختصة بالنفس بمجردها فهي انها جوهرية روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علامة بالقوة فعالة بالطبع قابلة للتعاليم فعالة في الاجسام ومستعملة لها ومتممة للاجسام ومفارقة لها. وراجعة الى عنصرها ومعدنها ومبدئها كما كانت أما بربح وغبطة أو ندامة وحزن وخسران كما ذكر الله عز وجل بقوله: كما بدأتم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة. وقال عز وجل: كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا أنا كنا فاعلين. وقال تعالى: افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون.

ويقول ايضاً اخوان الصفاء في رسائلهم: واعلم بأن نفس العالم نفس واحدة كما أن جسمه جسم واحد بجميع افلاكه وكواكبه واركانه ومولداته. ولكن لمّا كانت لنفس العالم أفعال كلية بقوى كلية وافعال جنسية بقوى جنسية، وأفعال نوعية بقوى نوعية وأفعال شخصية بقوى شخصية وهي حركتها من المشرق الى المغرب ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس ومن فوق الى أسفل وبالعكس سميت هذه القوى بافعالها نفوساً جنسية ونوعية وشخصية فتكثرت النفوس بحسب قواها المختلفة وتكثرت قواها بحسب افعالها المفتنة كما تكثر جسم العالم بحسب اختلاف اشكاله وتكثرت أشكاله بحسب اختلاف أعراضه، فأفعال نفس العالم الكلية هي ادارتها وأفعالها الجنسية ما يختص بكل فلك وكل كوكب من الحركات الست العارضة، وما يختص بالاركان الاربعة التي تحت فلك القمر من الحركات الطبيعية، وافعالها النوعية ما يختص بالكائنات المولدات التي هي الحيوان والنبات والمعادن وفعالها الشخصية التي تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجري على أيدي البشر من الصنائع.

وفي مكان آخر يقولون: «واعلم أن في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوى طبيعية واخلاقاً غريزية منبثة في أعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشعوبها النازلين في المحال بتلك المدينة. وان لتلك القوى وتلك الاخلاق افعالاً وحركات منبثة في أوعية هذا الجسد، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم وحركاتهم في طرقاتها وأعمالهم

في أسواقهم. فأما القوى الطبيعية والاخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاثة أجناس: فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها وشهواتها وفضائلها ورذائلها ومسكنها الكبد، وأفعالها تجري مجرى الاوراد الى سائر أطراف الجسد. ومنها قوى النفس الحيوانية وحركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ومسكنها القلب وأفعالها تجري مجرى العروق الغوارب الى سائر أطراف الجسد. ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها ومسكنها الدماغ وأفعالها تجري مجرى الاعصاب الى سائر أطراف الجسد. ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاث ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض ولكنها كلها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة تتفرع من كل غصن عدة قضبان ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار».

هذا قليل من كثير مما قاله اخوان الصفاء عن النفس البشرية.

البرهان الثالث عشر عن الراهب انسلم:

خلود النفس البشرية بعد القيامة

يقول الراهب انسلمه: «سيدي الحمار هذا برهان آخر لصالحنا وهو أن نفس الانسان عندما يموت لا تموت معه بل تنفصل عن الجسد وتصعد الى السماء لتنعم بالمجد الازلي. وهذا لا يحصل للبهائم لان نفسكم تموت مع الجسد دون انتظار قيامة ولا مجد، وهذا من خصائص الاسياد.

رد الحمار: ان مسيء الفهم يفهم الامور على خلاف ما هي وهذا ما حدث لك ايها الراهب انسلم. أنت تعلم أن سليمان الحكيم أحكم من جميع أبناء آدم يقول في سفر الجامعة الاصحاح الثالث:

«قلت في قلبي من جهة أمور بني البشر أن الله يمتحنهم ليريهم انه كما البهيمة هكذا هم، لان ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم، موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للانسان مزية على البهيمة لان كليهما باطل، يذهب كلاهما الى مكان واحد. كان كلاهما من التراب والى التراب يعود كلاهما من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد الى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل الى أسفل الى الارض فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الانسان بأعماله لان ذلك نصيبه. لانه من يأتي ليرى ما سيكون بعده».

كلماتك هي كلمات جاهل، واذا حصل بعد القيامة أن بعضهم يذهب الى السماء وكذلك

فان عدداً كبيراً منهم يذهب الى الجحيم حيث النار الدائمة تحرق نفوسهم الى الابد.

برهانك لا يصلح هات حجة أخرى. اذا كان لديك.

البرهان الرابع عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان خُلق على صورة الله ومثاله. يبرهن اخوان الصفاء عن ذلك بالعالم الصغير والعالم الكبير فيرون أن الانسان عالم صغير.

ليس أمامي نص اخوان الصفاء بل أرجع الى ما قاله الدكتور مصطفى غالب: «اخوان الصفاء» صفحة ٧١ وما بعدها من سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية.

«يؤكد اخوان الصفاء وخلان الوفاء أن الانسان عالم صغير وانه في معنى العالم الكبير يؤدي عن جملته وانه ثمرته وزبدته بما اتحد به من قوة نفسه المتصلة بالجوهر الاول والنور الافضل بما منّ الله سبحانه به عليه من جوده وفضله الذي كان به حسب وجوده بكلمته الممجدة، المتحدة بالامر فكانت منه الاشياء كلها، ككون الاعداد المنبثقة عن الواحد، وكذلك كانت النفس الكلية منبعثة من العقل كانبعاث الواحد المضاف الى الاول الواقع عليه اسم اثنين اذ كان يتلوه وان كانت صورة الثاني مثل الاول وانما بينهما التقدمة باللفظ في السبق وان الاول قد كان متقدم الوجود بالمرتبة، وبما اختص به من الفضل اذ كان موضع الكلمة الممجدة، وكانت النفس موضع الامر الثاني من المبدع الاول وكانت بالابداع الثاني، ثم كذلك ما بدا عنها مما جعل فيها من القوة التامة والنعمة العامة، فبرزت عنها الصورة الهيولانية الاولى فالاولى، وكان منها العالم الكبير بما فيه من الخلائق الروحانيين، من الملائكة المقربين بتدبير إلهي وحكم رباني.

ويضيف الدكتور غالب نقلا عن اخوان الصفاء (الرسالة الجامعة ص ٢٥٥ – ٢٥٦) ما يلي: «ثم كان العالم الصغير بواسطة العالم الكبير، اذ كان ما يتصل به من لطائف النفس التي هي الحياة والحركة لا تتحد به حتى تسرى فيما هو اليها أسبق وبها الحق ثم تتدلى اليه وتنزل عليه وتتصل به فلذلك سمت العلماء والمتقدمون من الحكماء الانسان عالماً صغيراً، اذ كانت صورة هيكله مماثلة لصورة العالم الكبير وان فيه قوى مختلفة = متضادة الافعال متباينة الاعمال فمنها خيرة فاضلة تشبه الملائكة وشريرة رذيلة تشبه الشياطين وخفية مكامنة تشبه السجن وروحانيات الكواكب بادية وظاهرة كظهور الموجودات من النبات والحيوان».

البرهان الرابع عشر عند الراهب انسلم :

يقول الراهب : حجة أخرى تبين اننا أشرف منكم واسمى وهي اننا خُلقنا على صورة الله ومثاله وهذا شرف لا يوازيه شرف نستحق لاجله أن نكون الاسياد وانتم الخول.

الجواب : أيها الاخ أنسلم ، إن من يكثر الثرثرة يكثر الزلل. هل تظن انكم لمجرد كونكم خلقتم على صورة الله ومثاله حُلّت القضية. هل تعتقدون حقيقة ان الله خلقكم على صورته ومثاله ؟ لا ، لم يخلقكم الله على مثاله لان الله ليس له عيون ولا فم ولا يدان ولا رجلان وبالتالي لا جسم له. انتم تستندون في ادعائكم على سفر التكوين : «لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا». كلمات صحيحة لا يمكن ردها ولكن اسأتم فهمها ولستم اهلاً لفهمها لم أحمل لقب دكتور ، لا من باريس ولا من بولونية (ايطالية) ، غير اني سأوضح لك اذا استطاع عقلك السميك ان يتبعني في توضيحاتي.

عليك أن تفهم أيها الراهب انسلم أن الفلاسفة تؤكد أن الانسان هو بالحقيقة «عالم صغير» لانه يحتوي على كل ما في العالم السماوي والارضي ، فكما انه يوجد في السماء اثنتا عشرة علامة هكذا يوجد في الانسان اثنا عشر مجرى : الاذنان والعينان والانف والفم والصدر والذكرة واثنان عند باب البدن.

في الكون توجد أربعة عناصر: النار والهواء والماء والتراب والانسان ينعم أيضاً بأربعة أعضاء : الدماغ والقلب والكبد والرئتان. وكما أن العناصر تتحكم في الكون هكذا الجسد الانساني تسيره الاعضاء الاربعة المذكورة. كما أن لحم الجسم البشري يشبه الارض اذ أن هذا الجسم صنع من جبلة تراب والى التراب يعود. والعظام تشبه الجبال والاذنان تشبهان المغائر في الجبال والبطن يشبه البحر والامعاء تشبه الانهر والعروق الينابيع واللحم العشب والنبات وحيث لا ينبت الشعر فان تلك الاجزاء من الجسم تشبه الاراضي المالحة حيث لا ينبت العشب.

القسم الامامي من الانسان يشير الى اجزاء الكون المسكونة ، ففي هذا القسم توجد المدن والقرى والقلاع مثلما في الهيكل الامامي من الجسم البشري نرى الانف والفم والصدر والقسم الخلفي يشبه المناطق القاحلة في الكون أي الشرق والغرب ، اليد اليمنى هي الجنوب واليسرى الشمال والعطس والسعال وضجة الامعاء تشبه الرعد والدموع والريق والبول شبيه بالمطر. الضحك هو النهار والبكاء هو الليل البهيم والنوم هو الموت والسهر هو الحياة الربيع = الطفولة ، والصيف = الشباب والخريف = الفتوة ، والهرم = الشتاء وكما أن الباري تعالى يدبر العالم هكذا النفس البشرية العاقلة تدبر الجسم.

عندما الباري تعالى يريد شيئاً تتنفذ ارادته في الحال ، فالارادة والعمل شيء واحد عند الله وهكذا يتصرف العقل في الجسم البشري وهكذا يجب ان نفهم العبارة : لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا.

يرى الفلاسفة والاطباء أن النفس البشرية لها ثلاث قوى : الذاكرة والعقل والارادة والثلاث تشكل النفس البشرية وعلى النحو ذاته فان شخص الاب ليس هو الابن والابن ليس هو الروح القدس. وعمل الذاكرة يختلف عن عمل العقل وعمل العقل يختلف عن عمل الارادة والقوى الثلاث تمثل النفس البشرية. ان النفس العاقلة مخلوقة على صورة الله ومثاله وهكذا يجب ان يفهم كلام سفر التكوين.

ورغم كونكم خلقتم على صورة الله ومثاله فاننا نحن أشرف منكم وأسمى لانه بالحقيقة ليس فقط الله الابن بل جميع القديسين مصنوعين على صورتنا ومثالنا. انتم ابناء آدم تصورون الله القوي الجبار على شكل حمل وديع وانتم تعرفون الانجيليين بصور حيوانات : مثلاً لوقا على شكل ثور، القديس يوحنا بصورة نسر، القديس مرقس بصور أسد.

أبحث عن حجة أخرى أكثر صموداً.

البرهان الخامس عشر عن الراهب انسلم :

لا وجود لهذا البرهان عند اخوان الصفاء. الرهبان عندنا يعيشون حياة تقشف وطهارة ولا يتخذون زوجة. ولا شيء من هذا عندكم.

الجواب : أيها الراهب انسلم تجبرني على الادلاء بأمور أفضل أن تظل مستورة. أنت تعلم علم اليقين أنه منذ وفاة القديس فرنسيسكو والقديس لويس في مرسيلية والقديس انطونيو في بادوا لم يبق أي راهب قديس ومنذ وفاة القديس عبد الاحد والقديس توما الاكويني لم نعد نسمع ان الكنيسة رفعت قديساً جديداً على المذابح. أقول لك : في البدء لم يكن يتميز الرهبان أو بالاحرى الاكليروس عن العلمانيين فالعلمانيون يتزوجون امرأة واحدة أما الرهبان فبقدر ما يشاؤن. وهذا القول يصح على أكثر الرهبان والراهبات ، كما أنهم لا يميزون بين امرأة متزوجة أو عزباء. واليك هذه القصة :

اعلم أيها الراهب انسلم انه كان يوجد في مقاطعة قطالونية مدينة اسمها طراكونة (ما زالت هذه المدينة موجودة) ، وخارج هذه المدينة بُني دير للرهبان الدومنكان ، منهم راهب اسمه يوحنا

جوليوت ، جميل الشكل فصيح اللسان محبوباً في مدينة طراكونة . يعيش في المدينة نفسها رجل طيب القلب اسمه يوحنا دستلير متزوج امرأة جميلة . كان ورعا وامرأته أيضاً تقية وهي أجمل نساء طراكونة .

دخلوا في أيام الصوم وجرت العادة أن يعترف الناس في كل يوم من هذه الايام . فقالت السيدة تقلا (وهو اسم المرأة الجميلة) ، لزوجها : « مضت عشرة أيام من الصوم ولم اعترف بخطاياي بينما جاراتي يعترفن كل يوم ، فاذا أذنت لي ذهبت للاعتراف .

فأجابها الزوج : بلا شك ، ولكن بما أنك شابة وهي المرة الاولى التي تعترفين بها اذهبي واعترفي عند الراهب « جوليو » من جمعية الدومنكان لاني اعترف عنده وهو من خيرة المعرّفين . أنت لا تعرفينه ، سلي عنه وهم يرشدونك اليه وقولي له بأنك جئت من قِبَلي .

وهكذا جرى ، ولما رأى الراهب جمال المرأة وفهم من حديثها أنها قصيرة الادراك قرر في نفسه أمراً . فسألها : هل أحببتِ أحداً ؟

أجابت : كثيرون يدورون حولي ولكن لم التفت الى أحد منهم لان زوجي قال لي : اذا تزوجت المرأة واحبت رجلاً غير زوجها جاءت الجنيات ووضعنها في كيس وألقينها في البحر .

— ابنتي ، كم مضى على زواجك ؟

— ستة أشهر يا سيدي ،

— كم مرة يتعاطى زوجك الحب معك في اليوم ؟

— كثيراً ولا فرق عنده في النهار أو في الليل ولذا يستحيل عليّ احصاؤها .

— ما هذه النصرانية التي تدعينها وأنت لا تعرفين كم مرة يتعاطى زوجك الحب معك ؟ وعليك أن تدفعي العشور للمعرف . وكيف استطيع استلامها اذ كنت لا تعرفين العدد ، بالحقيقة تستحقين عقاباً صارماً .

فتوسلت تقلا وبكت وقالت نائحة : سيدي عفوك عني لاني اذا ارتكبت الخطيئة فهذا عن جهل . أعدُكَ اني منذ الآن وصاعداً سأحفظ في ذهني العدد واذا اضطر الامر استعملت حبات السبحة بحيث أنه في كل مرة يجامعني زوجي أعقد عقدة في السبحة .

— اغفر لك باسم الله وارجوك الكف عن البكاء . لنعمل الحساب : قلتِ أنه مضى على زواجك ستة أشهر ، واكراماً لزوجك أحسب الشهر ثلاثين يوماً مع أن بعض الشهور واحد وثلاثون يوماً ، فيكون المجموع مائة وثمانين مرة وعشر هذا العدد ثمان عشرة مرة .

فأكبّت تقلا على رجليّ الراهب تقبلها وقالت : أنا مستعدة لايفاء العشور حسب مشيئتك .

وهناك استلم الراهب قسماً من هذه العشور وقال : انكِ ضعيفة قليلاً بسبب الصوم ، سأتوجه الى بيتكِ لقبض بقية العشور ، لان هذا أمر واجب .

لا أريد يا سيدي أن أظل مدينة لكَ بشيء واذا كنت تريد ذلك فذلك يكون .

حلها الراهب جوليو من جميع خطاياها وقال لها : اذا كنت تريدين راحة الضمير فعليك بكتمان سر الاعتراف كتماناً تاماً لان من فشى هذا السر لا يرى وجه الله اطلاقاً وتأخذه الشياطين الى الجحيم .

— لا سمح الله أن أفشي كلمة من جميع ما دار بيننا وارجو أن تمر بمنزلي لتقبض العشر .

ثم قبلت يد الراهب ورجعت الى بيتها وكان زوجها بانتظارها وسألها عن الراهب فقالت : انه معرف ماهر ، ومن جهتي ، فقد شعرت معه بلذة بحيث اني لا أريد سواه لاعترف له بخطاياي .

وبعد أيام توجه الراهب جوليو الى منزل تقلا ليقبض منها العشر . وتواترت زياراته اليها لكي لا تظل المرأة مدينة له بالعشور .

وقال الحمار للراهب انسلم : تلك هي القداسة التي تدعيها عند الجمعيات الرهبانية ، خير لك أن تصمت وتقر بعجزك .

فقال الراهب انسلم : اذا وجد بعض الرهبان على شاكلة « الراهب جوليو » فهذا لا يعني أن جميع الرهبان يسيرون على منهاجه . حتى يسوع المسيح باعه أحد تلاميذه . ثم أنه يجب أن تعلم أن خطيئة الدعارة هي طبيعية ومن الصعب التخلص منها الا بنعمة خاصة من عند الله لان جمال المرأة الذي هو سم قاتل يعمي بصيرة الرجل فيسقط في الخطيئة . حواء خدعت آدم وداود اخطأ بسبب امرأة وسليمان الحكيم أيضاً ، وشمشون الجبار خدعته أنثى فليس الراهب جوليو أشد مناعة من هؤلاء تجاه امرأة جميلة مثل تقلا .

فيجيبه الحمار : أراك أيها الراهب انسلم تريد تبرئة الرهبان من اقترافهم جميع الخطايا الرئيسية فأنت على خطأ . الخطايا الرئيسية سبعة : الكبرياء والبخل والدعارة والغضب والشراهة والحسد والكسل وجميعها يرتكبها رهبانك الذين تدافع عنهم .

وهنا يروي له سبع حكايات عن كل خطيئة حكاية .

البرهان السادس عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان له نفس عاقلة، الحيوان عنده شيء من التمييز الطبيعي.

عجائب الغرائز عند الحيوان: العنكبوت وهي من الهوام، في نسيج شبكتها أولاً وتقريرها هندامها هي أعلم وأحذق من الحاكة والنساجين منكم وذلك أنها تمد عند نسجها شبكتها أولاً خطا من حائط الى حائط أو من شجرة الى شجرة أو من غصن الى غصن أو من جانب نهر الى جانب آخر من غير أن تمشي على الماء أو تطير في الهواء ثم تمشي على ذلك الذي تمده أولاً وتمد من شبكتها خطوطاً مستقيمة كأنها أطناب الخيم المضروبة ثم تنسج لحمتها على الاستدارة وتترك وسطها دائرة مفتوحة حتى تتمكن فيها لصيد الذباب وكل ذلك تفعل من غير مغزل ولا مفتل.

وهكذا أيضاً دودة القز، وهذا الخطاف يبني لنفسه ولاولاده مهداً معلقاً في الهواء تحت السقوف من الطين من غير حاجة الى سلم يرتقي عليه.

واذا عميت أولادها تحمل من الطين حشيشة تسمى الماميراف تحك بها عين الاولاد فيضئ بصرها، كل ذلك تعليم من الله وانتم محتاجون الى الاستاذين والمعلمين في أدنى صنعة.

وعلى هذا الحال حكم أجناس الطيور في اتخاذ المنازل والاوكار والاعشاش وتربية أولادها تجدها أحذق وأحكم من الانس، فمن ذلك النعامة وهي مركبة من طائر وبهيمة لفراريخها وذلك أنها اذا أجمعت لها أيضا عشرين أو ثلاثين أو اربعين قسمتها ثلاثة أقسام: منها ما تدفنه في التراب وثلثاً تترك في الشمس وثلثاً تحتضنه فاذا خرجت فراريخها كسرت ما كان في الشمس وسقتها ما كان فيها من تلك الرطوبات، فاذا اشتدت فراريخها وقويت أخرجت المدفون منها وفتحت لها ثقباً كي يجتمع فيه الذباب والبق والهوام والنمل والحشرات ثم تطعمها فراريخها حتى اذا قويت عدت ولعبت ورعت.

أما دودة الدرة فهي أصغر حيوان البحر بنية واضعفها قوة وألطفها جثة وأكبرها نفساً وأكثرها علماً ومعرفة وذلك أنها تكون في قعر البحر مقبلة على شأنها في طلب قوتها حتى اذا حان وقت من الزمن صعدت من قعر البحر الى سطح الماء في يوم المطر فتفتح أذنين لها شبه شفتين فيقطر فيهما من ماء المطر حبات فاذا علمت بذلك ضمت الشفتين ضماً شديداً اشفاقاً أن يرشح فيها من الماء المالح، ثم تنزل برفق الى قعر البحر كما كانت بدءاً وتمكث هناك منضمة الى الصدفتين الى أن ينضج ذلك الماء فينعقد منه الدر فأي علماء الانس يعمل مثل هذا خبروني إن كنتم صادقين.

البرهان السادس عشر عند الراهب انسلم :

الراهب انسلم : نحن نملك نفساً عاقلة والحيوان له غريزة .

الجواب : أظنك أيها الراهب انسلم بسيط القلب . أنظُر الى فراخ الدجاج والحجلان فانها لا تفارق أمهاتها وعندما يرتعبن ترتعب معها ويهرعن للاجتماع بها ولا يطول عليها الزمن حتى تستطيع الاكل بدون مساعدة أمهاتها . واذا ضاعت أقبلت على صوت امهاتها والخيل والبقر والغنم والمعزى والقطط وما شابهها تضع دون أوجاع وتقطع حبل السرة والمولود الجديد قادر على الأكل وحده .

وأنتم أيها الراهب انسلم لا تميزون اثداء أمهاتكم اللواتي يضعن الثدي في أفواهكم والا فانكم تموتون جوعاً . ثم أنكم ترضعون الحليب طيلة ستة أشهر ونيف وبعدها اذا لم يُعْد لكم اباؤكم الاطعمة فانكم غير قادرين على الاكل بدون مساعدة امهاتكم . ونساؤكم يضعن بالاوجاع وبمساعدة القابلة وكثيراً ما تموت الأم والطفل أثناء الوضع .

أتريد أن أحدثك عن محبة اليمامة لذكرها؟ عندما يموت تستريح في شجرة خضراء ولا تشرب من الماء الصافي بل على العكس تعكره برجليها قبل أن تشربه ثم لا تريد التعرف على ذكر آخر. بينما نساؤكم على عكس ذلك قبل أن يُبلى زوجها في القبر تفتش عن رجل آخر يحل محله وفي بعض الاحيان تقتل المرأة زوجها للإرتماء في أحضان رجل آخر.

والفيل ، اذا توفي الشخص الذي يعتني به يظل يومين أو ثلاثة أيام دون أكل حزناً على صاحبه .

والنسر يُرغم فراخه على التحديق في الشمس فاذا خرجت من هذا الامتحان اعتبرها صحيحة الجسم والا طردها من العش.

الحدأة لا تهاجم فريستها سوى مرتين فاذا عجزت عنها تركتها وسبيلها . وهذا الطائر يصاب بالنقرس ولذلك فانه في كل ليلة يخطف عصفوراً ويحتفظ به بين رجليه حتى يتدفأ به وفي الصباح يطلق سبيله ولا يأكله ولو أنهكه الجوع .

أنظر طير الوقوق عندما يهرم ويسقط ريشه ، يضعه أولاده في عش جميل ويأتونه بالطعام حتى يموت ... وطير العندس يدرك أن الصيادين يطلبونه رغبة منهم في خصيتيه لاستعمالها في قضايا الطب ، فيقطعها بأسنانه ويلقيها بعيداً عنه فيأخذها الصيادون ويكفون عن مطاردته .

وابن عرس عندما يضطر لمقاتلة الافعى يلف ذاته بعشبة ويأكل أصول الحرشف ثم ينازلها

لانه يعرف أن السم لا يؤثر فيه بسبب هذه الاعشاب.

والايل اذا أصيب بسهم مسموم يأكل من أوراق القطلب هي ضد السم.

والعرانق اذا أصيبت بكتام في المعدة تأخذ من ماء البحر وتغسل به استها.

والثعلب عندما يضر به الجوع يتماوت فتأتي الغربان لتأكله فينقض عليها ويفترسها.

أليس كل ما ذكرته لك أيها الراهب انسلم، دلالة على عقل راجح؟

البرهان السابع عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان أكثر نظافة وأحسن رائحة. الروائح العطرية التي يتعطر بها الانسان مسلوبة من الحيوان.

فقد جعل الله في جبلة نفوس الانس محبة لبس الحرير والديباج والابريسم وما يتخذ منها من اللباس الحسن الذي هو كله من لعاب هذه الدودة الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس، وجعل في ذوقهم الذ ما يأكلون العسل الذي هو بصاق أضعف الحيوانات الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس، الحاذقة في الصنعة. وأحسن ما يوقدون في مجالسهم الشمع الذي هو فضلة من فضلات النحل.

ثم اعلم أيها الانسي، ان الغسل والطهارة انما فرضت عليكم من أجل ما يعرض لكم عند النكاح من الجماع وشدة الشبق وشهوة الزنا واللواط والحلق والسحق ومن نتن الصبيان والبخر ورائحة العرق لاستنكارها واستعمالها ليلاً ونهاراً صحوة وبكرة، ونحن بمعزل عنها لا نهيج ولا نسفد الا في السنة مرة لا لشهوة غالبة ولا للذة داعية ولكن لبقاء النسل.

البرهان السابع عشر عند الراهب انسلم:

حجة أخرى ضدكم وهي نظافة ثيابنا والعطور التي نستعملها بينما الحيوانات عادة تكون قذرة كريهة الرائحة، انكم تحملون القذارة في بطونكم وعلى أفخاذكم.

الجواب: من ينطق بالشر الشر يسمع، سن بسن وعين بعين، كنت لطيفاً معك حتى الآن، أهنتني فسأبادلك الاهانة.

العطور التي تتعطرون بها اخذتموها منا والشمع الذي تستضيئون بنوره متات من النحل

والعسل الذي تصنعون به الحلوى من النحل أيضاً. تلبسون الحرير وهو من دودة الحرير. من أين تأتون بالمسك؟ من الحيوان كما قال شاعركم:

«فان المسك بعض دم الغزال»

يقول الفلاسفة أنكم متحدرون من الشجر ولكن منعكسي الرؤوس فالشجر تدفن جذورها وينشأ منها الجذع أما جذوركم فصاعدة نحو السماء فشعوركم ولحاكم واذرعكم وارجلكم هي شبيهة بالاغصان وتنتهي بالاصابع وفي وسط الاغصان الثمر وهذا يطابق فقط على طبيعة المرأة.

لا فرق كبير بينكم وبين الشجر يا ابناء آدم، عندما تلفحكم الشمس يتصبب العرق من جسمكم وتخرج رائحتكم وهكذا الوردة والريحان عندما تسخنان في الانبق تخرج منها رائحة عطرة. أما السوائل التي تخرج من آذانكم وعيونكم فهي الدنس أما من الشجر فتخرج الزيوت أما أنتم فيخرج منكم الريق والبول والنجاسة ورائحتها كريهة للغاية. أنظر الى الاشجار، يخرج منها الصمغ والبخور والمر واللبان. الثمار تعطيها الاشجار.

أي ثمار تعطونها أنتم؟ الدود التي يخرج منها الدم والطين. هات حجة أخرى لأرُد عليكَ بطيبة خاطر.

البرهان الثامن عشر عند اخوان الصفاء:

الانسان يملك معارف كثيرة مثل علم الفلك ومعرفة الغيب، بينما الحيوان لا يعرف سوى الحاضر.

فأما الذي ذكرت من أمر المنجمين فأعلموا أن لهم تمويهات وتوهيات وتلبيسات ورزقاً رقيقاً ينفق على الجهلاء من العوام والخواص والنساء والصبيان والحمقى ويخفى عليكم وعلى كثير من العقلاء والأدباء وذلك أن أحدهم يخبر بالكائنات قبل كونها ويرجم بالغيب ويرجف به من غير معرفة صحيحة ودلائل عقلية واضحة وبراهين متينة فيقول بعد كذا وكذا شهراً في بلد كذا وكذا يكون كيت وكيت وهو جاهل لا يدري أي شيء يكون في بلده وأي شيء يحدث عليه في نفسه.

ثم أعلم أيها الانسي أنه لا يغتر بقول المنجم الا الطغاة والبغاة من الملوك والجبابرة منكم والفراعنة والنماردة والمغرور بعاجل شهواتها المنكرون أمر الآخرة ودار المعاد الجاهلون بالعلم السابق والقدر المحترم مثل نمرود الجبار وفرعون ذي الاوتاد وثمود وعاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد من قتل الاطفال. يقول المنجمون الذين لا يعرفون خالق النجوم ومدبرها بل

يظنون ويتوهمون أن أمور الدنيا تدبرها الكواكب السبعة والبروج الاثنا عشر ولا يعرفون المدبر الذي فوق الكل الذي هو رب الارباب وحسيب الاسباب ومالك يوم الدين وقد أراهم الله قدرته مرة بعد أخرى ونفاذ أوامره ومشيئته في دفعات وذلك أن نمرود الجبار أخبره المنجمون بمولود في مملكته في سنة من السنين بدلائل القرانات وانه يتربى ويكون له شأن عظيم ويخالف دين عبدة الاوثان.

فقال لهم في أي بيت يكون وفي أي موضع يتربى وفي أي يوم يولد فلم يدروا ولكن أشار وزراؤه بأن يقتل كل مولود يولد في تلك السنة ليكون هو في جملة من قتل وظنوا أن ذلك يمكن وذلك لجهلهم بالعلم السابق والقضاء المحترم والمقدور الواقع الذي لا بدّ أن يكون ففعل ما أشاروا به عليه فيما وقع وخلص الله تعالى ابراهيم خليله من كيدهم ونجاه من حيلتهم وما دبروا من مكرهم.

وهكذا فعل فرعون باولاد بني اسرائيل لما أخبره المنجم بمولد موسى فنجى الله كليمه من كيدهم ومكرهم لما أراد من بلوغ أمره.

ثم أنتم يا معشر الانس، لا تزدادون الا غروراً بقول المنجمين وطغيانا ولا تعتبرون ولا تتفكرون ولا تتنبهون من جهالتكم.

ثم جئتم الآن تفتخرون علينا بأن منكم منجمين واطباء ومهندسين وحكماء متفلسفين.

ثم قال الملك لزعيم الجوارح: اخبرنا ما الفائدة من معرفة الكائنات قبل كونها بالدلائل وما يخبر عنها أهلها بفنون الاستدلالات الزجرية والكهانية والنجومية والفال والقرعة وضرب الحصى والنظر في الكف وما شاكل هذه الاستدلالات اذا كان لا يمكن دفعها ولا المنع لها ولا التحرز منها مما يخاف ويحذر من المناحس وحوادث الايام ونوائب الحدثان في السنين والازمان.

قال الزعيم: نعم يمكن دفع ذلك والتحرز منه أيها الملك، ولكن لا على الوجه الذي يطلب ويلتمس أهل صناعة النجوم وغيرهم من الناس. قال كيف ذلك وعلى أي وجه ينبغي أن يلتمس ويدفع ويحترز منه؟ قال الزعيم: بالاستعانة برب النجوم وخالقها ومدبرها. قال كيف تكون الاستغاثة به؟ قال باستعمال سنن النواميس الالهية وأحكام الشرائع النبوية من الدعاء والبكاء والتضرع والصلاة والصوم والصدقات والقرابين في بيوت الصلوات والعبادات وصدق النيات واخلاص القلوب.

البرهان الثامن عشر عند الراهب انسلم :

الحجة الاخرى هي معرفة الغيب ، وهذا برهان كبير لانه لا يعرف الغيب الا الله .

الحمار : أنا أيضاً أستطيع أن أرجم بالغيب واتنبأ مع أني أحقر الحيوانات . ولقد وصل الى علمي تنبؤك بما سيحصل في ممالك اراغون وتوسكانة ولمبردية وقشتالة [1] أرويها شعراً اذا سمح لي سيدي الملك .

فقال الاسد يسرنا أن نسمع هذه النبؤة لكي يدرك الاخ انسلم رجاحة عقلك ويستسلم ، استحلفك بالله العظيم أن تتلو هذه النبؤة .

وهنا يتلو الحمار نبؤته . لا حاجة الى ايراد هذه النبؤة المنظومة شعراً .

وعند انتهائها قامت ضجة بين الحيوانات وقالوا : هذه النبؤة أصدق من نبؤة الراهب انسلم . ثم توجه الحمار الى الراهب بهذه الكلمات : ما رأيك في هذه النبؤة .

— لا شيء لي يقال ضدها غير أن الكلام المستعمل فيها مبهم شأن كل النبؤات ولكن أريد أن توضح لي بعض النقاط فيها .

— على رسلك أيها الراهب انسلم ، عندما تنتهي المرافعة أفسر لك ما اغلق عليك منها والآن قدم لي برهاناً آخر على أنكم أنتم الاسياد ونحن العبيد والخول .

البرهان الاخير يقدمه الراهب انسلم وهو أن الله تعالى اتخذ جسماً بشرياً ولم يتخذ جسماً حيوانياً عندما جاء الى العالم .

البرهان التاسع عشر عند اخوان الصفاء :

قال الحجازي : وكيف تساوت الاقدار بيننا وبينكم فانّا على أي حالة كانت ، باقون الى أبد الابدين ودهر الداهرين أن كنا مطيعين ، مع الانبياء والاولياء والائمة والاوصياء والحكماء والاخيار والفضلاء والزهاد الصالحين والعباد العارفين المستبصرين واولي الالباب واولى الابصار واولي النهى والذين هم بملائكة الله الكرام يتشبهون والى الخيرات يتسابقون والى لقاء ربهم يشتاقون وفي جميع أوقاتهم عليه مقبلون ومنه يسمعون واليه ينظرون وفي عظمته وجلالته يتفكرون وفي جميع الامور عليه يتوكلون واياه يسألون ومنه يطلبون واياه يرجون .

---

١ —كان الراهب انسلم قد تنبأ عن الهرطقة في الغرب لما وجدت ثلاثة بابوات في الوقت ذاته وكيف تنتهي وعلى ما يظهر أن نبؤته بانتهائها لم تصح .

ولوكنا مردودين نتخلص بشفاعة نبينا محمد عليه السلام ونكون باقين في الجنة مع الحور والغلمان والروح والريحان ولقاء الرحمن ونداء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة في حقنا قال تعالى : «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».

وانتم معشر الحيوانات بمعزل عن جميع ذلك لانكم بعد المفارقة تفسدون وتبلون وتفنون ولا تبقون فهذا دليل على أننا ارباب وانتم عبيد وخول لنا.

فقالت حينئذٍ زعماء الحيوانات وحكماء الجن باجمعهم : الآن جئتم بالحق ونطقتم بالصواب وقلتم الصدق لان بأمثال ما ذكرتم يفتخر به المفتخرون ومثل أعمالهم فليعمل العاملون.

ولكن خبرونا يا معشر الانس عن أوصافهم وبينوا لنا سيرهم وعرفونا طريق معارفهم ومحاسن أخلاقهم وصالح أعمالهم ان كنتم صادقين ثم اذكروها ان كنتم بها عارفين.

فسكت الجماعة حينئذ يتفكرون فلم يكن عند أحد منهم جواب فقال واحد منهم : ان الجنة أُعدت للمتقين. فقام عند ذلك العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر الفارسي السنة العربي الدين الحنفي المذهب العراقي الآداب العبراني المخبر المسيحي المنهج الشامي النسك اليوناني العلوم الهندي البصيرة الصوفي السير الملكي الاخلاق الرباني الرأي الالهي المعارف الصمداني فقال : الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين وصلوات الله على خاتم الانبياء وخلاصة الاصفياء محمد وآله أجمعين.

ثم قال : أيها الملك العادل وانتم معشر الجماعة الحضور أعلموا أن لهؤلاء الذين هم أولياء الله وصفوته من خلقه وخيرته من عباده وبريته أوصافاً حميدة وأعمالاً زكية وعلوماً مفننة وصفاتاً جميلة ومعارف ربانية واخلاقاً ملكية وسيرة عادلة قدسيّة واحوالاً عجيبة قد كلت الالسن عن ذكرها وكثرت أوصاف الواصفين عن كنه صفاتها وأكثر الذاكرون في وصفهم لهم واطال الواعظون الخطب في مجالس الذكر عن بيان طريقتها ومحاسن اخلاقها طول الازمان والدهور ولم يبلغوا كنه معرفتها فكيف يأمر الملك العادل في حق هؤلاء الغرباء وما جوابهم.

فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعهم تحت أوامرهم ونواهيهم ويكونون مأمورين للانس حتى يستأنف الدور. ثم حكم حكماً آخر، ثم قام واحد من خدماء الملك ونادى مناد : «الا قد سمعتم معشر الحيوانات بيان هؤلاء الانس وقبلتم مقالتهم ورضيتم بذلك فانصرفوا أمنين في حفظ الله وامانه».

البرهان التاسع عشر والاخير عند الراهب انسلم :

وهذه حجة أخرى وهي أن الله عندما نزل من السماء وتجسد لم يأخذ جسم حيوان بل جسم انسان كما يقول يوحنا الانجيلي : «الكلمة صار جسداً وحل فينا» ، والقديس اغسطينوس يقول أيضاً : «كلمة الله هي ابن الآب الازلي وابن الام في الزمان»... فهذا الشرف العظيم لا يوازيه شرف ولذا من العدل والواجب أن نكون نحن الاسياد وأنتم العبيد ، ومن هنا قال النبي داود : «أنت يا رب اخضعت تحت قدميك جميع الاشياء بما فيها الانسان والغنم والبقر وجميع الحيوانات والطيور وأسماك البحار».

الحمار : هذه الحجة ليست غريبة عني وقد كنت أخشى أن تدلي بها ، ووقع ما كنت أخشاه . ولما رأيتك انقطعت عن قراءة الكتب المقدسة ظننتك نسيتها . أكرر ما قال الاصحاح الاول من سفر التكوين ٢٦٠ : وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكرا وانثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الارض.

فيا أيها المعلم المحترم أقر بعجزي عن الرد على هذه الحقيقة فأعترف أن ابناء آدم هم أشرف منا وأسمى وقد خلقنا نحن الحيوانات لخدمتهم .

وهنا يتدخل الملك ليحسم القضية فيقول : قبل أن نعرفك أيها الراهب انسلم سمعنا عنك أنك رجل عاقل حكيم ولم نُصب سوى نصف السماع أما الآن فنعترف لك بأن كل ما سمعناه عنك حق وأنت الرابح في هذه المرافعة ونحن نعترف أن ما قلت صحيح أي أنكم أنتم أبناء آدم أشرف منا وأسمى فأنتم أسيادنا ونحن مواليكم .

ثم خرج الملك من الحديقة مع جميع الحيوانات وأنا أمتطيتُ صهوة جوادي مسروراً لاني كنت الظافر في هذه المناظرة وعدتُ الى منزلي والشكر لله[1] .

فرغ من كتابة هذه المرافعة الراهب انسلم في مدينة تونس في الخامس عشر من أيلول ١٤١٨ .

Fray Anselmo Turmeda

١ - استخلصت هذه المقابلة بين «اخوان الصفاء» و «الراهب انسلمه ترمدة» من رسائل اخوان الصفاء ، تحقيق خير الدين الزركلي ، الجزء الاول صفحة ١٧٦ وما يليها ، ولم اتمكن من الحصول على النص الفرنسي «لمرافعة الحمار» فاستندت الى النص الاسباني نقله عن الفرنسي «خيمه أويا» ، Jaime Uyá وصححه «خورخي دالماو» Jorge Dalmau ، طبع في برشلونة عام ١٩٦٩ .

الفَصـل العِشـرُون

المترجمون اليهود

هذا الشعب اليهودي تقوده قوة خفية في مسيرة لا نهاية لها دون أن يعثر في هذه الرحلات المتواصلة في البلدان العديدة على جماعة بشرية تمدّ له يد الضيافة وتقدّم له كنفاً مستقرًّا يحتمي به ويعيش في ظله. هذه القوة الخفية تنقض جميع المواثيق وتفك جميع التعهدات والقيود وتبطل مفعول جميع الوثائق السياسية والدبلوماسية التي تنص على الحماية والتجمّع الدائم والإقامة المسالمة ، وتفسد كل نية صالحة وتخلق من جديد الشقاق والبغضاء والاضطهاد للشعب اليهودي.

تفسير هذه الظاهرة مغلق بالنسبة للمؤرخ فيصبح كابوسا لا يجد سبيلا للتخلص منه اذ ان هذا المؤرخ لا يضع هذه الظاهرة في نطاق فلسفة التاريخ.

ان جهل هذه القوة الخفية او نكرانها وتجاهل هذا السر المغلق او هذا القضاء المحتوم الذي يسيّر مصير هذا الشعب اليهودي المتفرّد بميزاته ، افسح المجال أمام تكهنات وطرح المسائل بطريقة صبيانية فعزا هذا الاضطهاد الذي يصيب الشعب اليهودي الى مؤسسات وهيئات وأنظمة وحكومات ، وبالحقيقة ليست هذه الأنظمة سوى اسباب قريبة لا نزال الاضطهاد بهذا الشعب اليهودي الذي ليس له من روابط خارجية سوى الهيكل ورابط داخلي هو يمين العلي التي ثقلت عليه وسمحت بان يظل هذا الشعب بمعزل عن بقية الشعوب التي يعيش بين ظهرانيها.

لم يقبل هذا الشعب صوت المسيح ، كلمة الآب الالهية والحقيقة المطلقة والازلية رغم الشوق الشديد للوصول والاقتراب منها ومن مصدرها مهما كان. وهذا الشعب المبغوض المتعرض للاضطهادات من جميع الشعوب التي يعيش بينها يصبح الوسيط بين الثقافة العربية المليئة بالحياة العذبة المثمرة فيساعد على نقلها الى تلك الشعوب المتعطشة الى هذه الثقافة فتنهل منها وترتوي.

ان الانبعاث العلمي الذي أوجده العلماء العرب لم يعد انبعاثا اعتبارا من القرن الثاني عشر. انها شريعة الكون والخلق، فهذه النهضة العلمية العربية تحوّلت الى تراث انتجتها عبقرية العرب الخلاقة، غير ان هذه الروح اخذت تفقد قوتها وتخفف من نشاطها بتأثير قوى داخلية وخارجية، بينمَا الجهود الجبارة عند النصارى اخذت تتقوّى وتتوصّل الى تذويق وتنقية وتصفية أسفر عنها ظهور العبقرية المسيحية في الغرب خلال القرن الثالث عشر. ان هذه القوى الروحية الجبارة من الفكر الاسلامي اخذت تتوزّع في عقول المسيحيين واليهود تحت تأثير وهيمنة ونفوذ العقيدة الارثوذكسية عند الطائفتين.

ما أجمل هذا التشبيه الذي جاء به جورج سارتون في كتابه «مقدّمة تاريخ العلوم» لمّا يقول:

«العربة الملكية التي تقل في داخلها أسمى الأماني وأشرف الأفكار البشرية توقفت قليلا لتبديل الجياد قرب نزل على الطريق. فتستريح الجياد وتقدّم لها القوت ويثنى عليها كل الثناء لاجل الخدمات الحسنة التي قدمتها للركاب. جياد أخرى مستريحة ترفس الأرض بأرجلها وقد نفذ صبرها، تريد تكملة المسيرة. كأس أخيرة تقدّمها ربة الفندق الشابة الجميلة للسائق متمنية له سفرا ميمونا. وبعد لحظات قليلة توارت العربة في السهل الفسيح».

انها العربة ذاتها ولكن بين حين وحين تتبدل الجياد التي تجرها وكذلك المسافرون الذين تقلّهم غير ان هذه العربة لا تتراجع القهقرى اطلاقا، انها تسير الهوينا دائما الى الأمام تدفعها الروح الانسانية والذين ساقوا هذه العربة هم اليونان والرومان وشعوب أخرى كثيرة حتى جاء دور العرب. ثم استلم زمام هذه العربة بعد العرب النصارى في الغرب يساعدهم اليهود. وليس المهم اسم السائق ما دامت العربة جادة في السير ثابتة القوائم مترابطة الأوصال تسعى الى الامام على هدى.

ملوك واساقفة بحثوا عن معاونين بين اليهود ليساعدوهم في الوصول الى الفكر الإسلامي بمَا فيه الفكر اليوناني حتى يغذوا ثقافتهم الناشئة. واسبانية في هذا القبيل جدت مجتهدة في هذا التعايش النافع الخيّر والتعاون الصديق. وقشتالة اكثر من سواها شعرت بتأثير ونفوذ وسحر هذه الثقافة الشرقية العربية المتفوقة تفوقا باهرا لا مجال معه الى المقابلة. وقشتالة هذه العائشة على تخوم الدولة العربية في الاندلس، و«صاحب البيت ادرى بالذي فيه»، شملت اليهود بعطفها فساعدها هذا التصرف على نشوء موائل لهذه الثقافة في طليطلة التي تعتبر ممجدة الروح الفكرية في القرون الوسطى. فظهرت فيها مدرسة الترجمات المنبثقة عن الشوق والتشوق الى المعرفة المتوثبة

الى التقاط الفكر الفلسفي الذي جمع بانسجام عجيب مدهش غريب ثلاث ثقافات لا سبيل الى الوفاق فيمَا بينها من الناحية العقائدية.

ثورة ثقافية مسيحية خارقة العادة شبت في القرون الوسطى بفضل التعاون بين العنصر اليهودي والعنصر المسيحي لأجل الوصول الى الثقافة العربية في شتى فروعها، وما علينا الا ان نلقي نظرة على مؤلفات **شتانشنيدر**، **ووشتنفلد**، **وسرتون**، **وتورنديك**، **وهاسكنز**، **ولكليرك**، **وجوردين**. وغيْرهم حتى ندرك كيف ان اليهود ساعدوا في ايصال الثقافة العربية الى العالم الغربي.

ابتدأت الترجمات في اسبانية خلال القرن الثاني عشر الميلادي من العربي الى اللاتيني، اشرف على هذه الترجمات يهودي متنصر اسمه ابن داود او يوحنا الاسباني كما رأينا.

فريق آخر مهم جدا من المدرسة الاسبانية للترجمات في برشلونة تشكل من «**افلاطون التبرتيني**» وربمَا من «**رودولف البروجي**» البلجيكي ومن اليهودي «**ابراهيم برحجة**» الملقب «بصاحب الشرطة».

وبينمَا هذان اليهوديان يكشفان بواسطة الترجمة للعالم الغربي فلسفة ارسطو المستعربة، كان فريق يهودي آخر يحمل الى اخوانه في الجنس وفي الدين الافكار الفلسفية الجديدة والنظريات العلمية التي اكتشفها العرب وتوسّعوا فيها، بان نقلها من العربية الى العبرية، نقصد بهذا الفريق **عائلة طبون** اليهودية.

عائلة طبون:

اذا كانت الترجمات العربية اللاتينية بعيدة عن أي طابع عائلي كما لاحظنا في بحوثنا حتى الآن، فالقضية ليست على هذا النحو في الترجمات من العربية الى العبرية. فالمترجمون ينتسبون الى عائلة واحدة هي عائلة طبون اليهودية المتسلسلة على النحو التالي:

- يهوذا بن شاول بن طبون (١١٢٠ – ١١٩٠)

صموئيل بن يهوذا بن طبون (١١٥٠ – ١٢٥٢)

- ماهر بن صموئيل بن طبون
- موسى بن صموئيل بن طبون، اخو السابق.
- يعقوب بن ماهر بن طبون، ويسمونه «بروفيت» (PROFEIT)

– عاشت هذه العائلة في غرناطة واضطرت للسفر الى جنوبي فرنسة اثر الاضطرابات والقلائل التي رافقت الفترة الانتقالية من عهد المرابطين الى الموحدين. نزلت هذه العائلة في مدينة «لونيل» «LUNEL» حيث يعمل «بنيمين التطيلي» طبيبا عام ١١٦٠.

اشتغلت هذه العائلة ذات الجد الواحد، يهوذا بن شاول بن طبون، في النقل من العربية الى العبرية لتعريف ابناء دينهم على الثقافة العربية، لان اليهود منذ مغادرتهم اسبانية والاستقرار في جنوبي فرنسة نسوا اللغة العربية، فاصبح من اللازم نقل الثقافة العربية الى العبرية وعندما نقول الثقافة العربية نقصد بها جميع المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة سواء كان المؤلفون من النصارى او اليهود او المسلمين ومن المعلوم ان اليهود كتبوا باللغة العربية دون العبرية سواء كان في المشرق العربي او المغرب، مثل «**ما شاء الله**»، **اسحق الاسرائيلي**، **الزرقاله**، **موسى بن ميمون**، **بن جبرول**، **يهوذا هاليفي**، **ابن عزرا وصاحب الشرطة**، وغيرهم.

اشهر أعضاء هذه العائلة على الاطلاق **يعقوب بن ماهر بن طبون** «**بروفيت**» «**Profeit**» عاش في مرسيلية (١٢٣٦–١٣٠٥)، درس في جيروندة الاسبانية، وكان معلمه الحاخام المعروف في ذلك العهد موسى بن نعمان. وهذه العائلة التي عاشت في جنوبي فرنسة ظلت محافظة على علاقاتها مع الجماعات اليهودية في برشلونة وظلت مرتبطة بها من الناحية العلمية.

يهوذا بن طبون:

هو الاب الروحي للمترجمين من هذه العائلة، حقق انجازات استحقّ عليها الشكر، فقد انقذ من الضياع عددا كبيرا من المؤلفات الهامة من الادب اليهودي الاسباني. هاجر الى جنوبي فرنسة وحمل معه مكتبته الممتازة من موطنه غرناطة. وعندما وصل الى جنوبي فرنسة نشر هناك هذه المؤلّفات المجهولة بين الجماعات اليهودية التي لا تعرف اللغة العربية فنقل قسماً كبيرا من هذه الكنوز الثمينة الى اللغة العبرية وخلق مدرسة حقيقية للنقل من العربية الى العبرية واعاد رونق الادب العبري كما هو في التوراة وادخل فيه نموا جديدا وتعابير حديثة.

نقل مؤلفات ابن جبرول «منتخب الدرر» وقد جعل النص العبري مطابقا حرفيا للنص العربي بمَا فيه من تكرارات على الطريقة العربية والتوراة بعبارات قصيرة.

واذا كان قد اختار هذا الكتاب لنقله الى العبرية فمَا ذاك الا لانه يحمل الطابع الاخلاقي والادبي الذي تميز به ابن جبرول.

ليس من أحد يعيب على ابن جبرول عدم ذكر المصادر التي استقى منها تلك الحكم والآراء، وذكر المصادر صفة من الصفات التي يجب ان يتحلى بها الباحث والاديب والكاتب في عصرنا الحاضر غير ان هذه العادة لم تكن متبعة في القرون الوسطى. ولكن يمكن القول ان المصادر التي استقى منها ابن جبرول هي التوراة والتلمود والفلسفة اليونانية واللاتينية وطبعا المؤلّفات العربية من هذا النوع من الادب الاخلاقي.

لا حاجة الى اجهاد الفكر واطالة البحث لنتبين التأثير العربي الظاهر في جميع فروع المعرفة لدى المؤلفين اليهود في القرون الوسطى فالمسألة واضحة كل الوضوح ولا تحتاج الى دليل.

كما ان القصص والحكايات التي تميزت بها المؤلفات العربية نجدها عند المؤلفين اليهود الاسبان. ولقمَان الحكيم الذي اعطي سورة كاملة في القرآن الكريم (سورة لقمان مكية، ٣١) نسبت اليه مجموعة من الحكايات العربية والحكم والامثال وصلت الى القرون الوسطى وانتشرت في العالم العربي والعالم اللاتيني انتشارا كبيرا.

ونجد هذه الحكمة المأخوذة عن الحريزي حرفيا:

«عجبت لمن يشرى العبيد بمَاله ولا يشتري حرا بلين مقاله».

ترجم ايضا يهوذا بن طبون **لبهجة يقودا** المعاصر لابن جبيرول تأليفه: «كتاب الهداية الى فرائض القلوب».

وترجم ايضا كتاب «**سعدية هاغون**» الى العبرية. عنوانه بالعبرية «سفر هامونوت وهاديون»: «كتاب الايمَان والآراء».

وترجم ايضا «**ليونا بن جناح**» مؤلفات في القواعد الصرفية والنحوية، لانه كانت تكتب القواعد الصرفية والنحوية العبرية باللغة العربية.

وترجم ايضا **ليهوذا هاليفي** كتاب «الحزري» من العربية الى العبرية، وهذا الكتاب يشرح كيف ان ملك الخزر اعتنق الديانة اليهودية.

كان على «**يهوذا بن طبون**» ان يتغلب على صعوبات جمّة في تأدية هذه الترجمات من العربية الى العبرية وقد ذكر ذلك في رسالة وجهها الى «**رابي اشير**» يقول فيها: «ان اللغة العربية غنية جدا وواسعة ويسهل بواسطتها التعبير في اي مادة من العلوم وعن اي تفكير بحذافيره لان هذه اللغة متطورة الى أقصى حدود التطور وليست مثل اللغة العبرية المحدودة الكلمات والتعابير، اذ اننا نستقي كل شيء من التوراة وهذا غير كاف لجميع الضرورات فلا نستطيع نقل افكارنا الى

اللغة العبرية بطريقة جميلة وواضحة ومعبّرة مثلمَا نستطيع ان نفعل ذلك بواسطة اللغة العربية » .

اشتغل هذا الغرناطي بالتأليف ايضا في القواعد العبرية ولكن ضاع كتابه في اللغة غير ان مكتبة بودليان تحتفظ بوصيته التي كتبها لابنه صموئيل الذي عليه ان يواصل عمل والده. وتتجلّى في هذه الوصية ثقافة ابن طبون الواسعة ، واكثر من ذلك محبته الفائقة الوصف للكتب وليست الكتب اللاهوتية فحسب بل جميع الكتب على الاطلاق. يعتبر كل كتاب مقدسا ويجب الاعتناء به وصيانته ككنز ثمين. ومع ذلك فان هذا التعلق بالكتاب لا يتحول الى شح او انانية بحيث يودع في خزانة او على رف ، بل يجب تسهيله للفقير الذي يستفيد منه .

وليس من وثيقة اجمل من الوثيقة التي كتبها يهوذا بن طبون لابنه بشأن الكتاب ، يقول له فيها : «لقد شرّفتك يا ولدي بان اقتنيت لك مؤلفات عديدة لكي لا تضطر الى طلب اعارة الكتب كما يصيب الكثيرين من الدارسين الذين في بعض الاحيان يبحثون جادين عن كتاب ولا يتمكنون من العثور عليه فانت بنعمة الله من الذين يعيرون الكتب ولا يستعيرونها. عندك في الغالب نسختان ، وقد اقتنيت لك كتبا في جميع فروع المعرفة وثقتي بك انك تحافظ عليها بعناية . وبمَا ان الله اعطاك قلبا عاقلا ومتفهما للأمور حرصت على البحث لك عن معلمين ماهرين في تلك العلوم التي لا تدخل في نطاق اللاهوت .

ولدي ، اجعل كتبك رفاقك ، واجعل مكتبتك بستان راحتك وفردوسك وتغذ بثمارها وتنعم بورودها ، واجن فواكهها وعطرها وعبيرها . واذا تسرب اليك الملل او الضجر انتقل من بستان الى بستان ومن ثلم الى ثلم ومن صورة الى صورة ، وهكذا تستيقظ رغبتك من جديد وتتلذذ نفسك .

راجع مكتبتك العبرية في كل شهر والعربية كل شهرين ونظمها بطريقة واضحة حتى لا تتعذّب في البحث عن كتاب ترغب فيه . ولكي تدرك موضع كل كتاب على الرفوف التي يجب تغطيتها بالقماش الثمين او الستائر وصيانتها من الماء والفار والاضرار الاخرى ، اذ ان كتبك افضل كنز تقتنيه . وعندما تعير كتابا سجله في الحال في كراس خاص قبل ان يغادر مكتبتك وعندما يعاد اليك امحه من الكراس .

سجل في كل كراس كتب كل رف حتى اذا ما القيت نظرة خاطفة على الكراس تعثر على الكتاب الذي تبحث عنه وبهذا تتجنّب البلبلة والفوضى . واحرص على الرقاع الموضوعة في المخطوطات اذ انها غالبا ما تتضمّن معلومات قيّمة وملاحظات هامة جمعتها انا بذاتي ودوّنتها . الق دائما نظرة على فهرس كتبك لكي تكون على بينة ممّا تملكه من المخطوطات .

لا ترفض ان تعير الكتب اولئك الذين لا يملكون الوسائل المادية للحصول عليها لكن على شرط ان يضمنوا لك ردها».

وتتجلّى في هذه الوصية قدرة يهوذا بن طبون على الاحاطة بفنون الترجمة ومعرفة معاني الالفاظ اللغوية، فهو يتضرع الى ولده لكي يقرأ الكتب العربية في مكتبته الخاصة بالترجمة في كل يوم سبت للتدرّج في فن الترجمة. ويوصيه باتباع اسلوب سهل واضح انيق غير محشو بالالفاظ وليتجنب الكلمات الغريبة والتراكيب المنمقة ويستخدم كلمات ذات نغمة رخيمة وسهلة اللفظ.

«احرص يا ولدي، على ان تكون كتاباتك واضحة واستعمل الورق الجيد والحبر النظيف أيضا».

وفي ذلك الوقت اي قبل ثلاثة قرون من ظهور فن الطباعة كان مصير المخطوط موقوفا على مظهره الخارجي، وعلى وضوح المخطوط. فنصائح يهوذا بن طبون جاءت في محلها.

ثم يقدم لولده نصائح مهنية بشأن معاملة المرضى، فليس له ان يقبل بدلا من المرضى الفقراء، وعليه ان يراقب الادوية في كل اسبوع ولا يجب استعمال تلك العقاقير التي لا يضمن حسن مفعولها بصورة ثابتة. واخيرا عليه الاعتناء بصحته واحترام زوجته، اذ انه على حد قول المثل العربي: «الكريم فقط، يكرم امرأته واللئيم فقط يحتقرها». لا تكن مبذرا مفرطا، واسهر على تربية اولادك.

وقد اجرى يهوذا بن طبون بحوثا صيدلية مثمرة وانصرف الى دراسة النباتات وفن اعداد العقاقير.

صموئيل بن طبون

ابوه يهوذا بن طبون، ولد في «لونيل» «LUNEL» (فرنسة) عمل في «بيزيه» «BEZIERS» عام ١١٩٩ ثم في آرل «ARLES» عام ١٢٠٤ وبرشلونة وطليطلة والاسكندرية. توفي في مرسيلية عام ١٢٣٣، فيلسوف عالم في اللاهوت. يعتبر واحداً من أهم المترجمين في القرن الثالث عشر، من العربية الى العبرية. اشتغل في مؤلفات ارسطو وابن رشد، وموسى بن ميمون بنوع خاص، نقل كتاب «دلالة الحائرين»، مؤلفه موسى بن ميمون بالعربية، الى العبرية في آرل عام ١٢٠٤، نال شهرة بعيدة بسبب هذه الترجمة. وفي عام

١١٩٩ استلم رسالة من موسى بن ميمون ذاته طبيب ابن صلاح الدين الايوبي في ذلك العهد واسمه الملك الافضل نور الدين ، ويشكو ابن ميمون في هذه الرسالة من قلة الوقت ويذكر انه يتعامل فقط مع العرب ولا يجد الفرصة للاجتماع ولا المناسبة لاتكلّم باللغة العبرية ، اللهم يوم السبت .

دلالة الحائرين :

من جملة الكتب الفلسفية التي الّفها ابن ميمون كتاب «دلالة الحائرين» وهو مكتوب بالعربية ، وقد حرّف اعداء ابن ميمون العنوان فبدلواكلمة «دلالة» بكلمة «ضلالة» . انه كتاب عظيم الفائدة يعتبر من احسن المؤلفات في فلسفة القرون الوسطى وقد رأينا ان نتوقّف عنده قليلا معتمدين على الدكتور ماجد فخري في دائرة المعترف بادارة فؤاد افرام البستاني ، الجزء السابع ، صفحة ٩٤ وما يليها. يقول الدكتور فخري :

«يدور قسم هام من مؤلّف ابن ميمون الاكبر «دلالة الحائرين» على بسط أقوال المتكلمين ، من معتزلة واشاعرة وتفنيدها...».

ويلخص ابن ميمون اقوال المتكلمين في الفصل ٧٣ الجزء الاول من «دلالة الحائرين» في ١٢ قضية او مقدمة عامة «كما يدعوها ، هي بمثابة الأسس الكبرى التي يبني عليها المتكلمون ادلّتهم على وجود الله ووحدانيته ، وعلى حدوث العالم ، وعلى قدرة الانسان ، وتقارن الاحداث الطبيعية . وتدور المقدمات الثلاث الاولى على قول المتكلمين بالجزء الذي لا يتجزأ ، وبوجود الخلاء ، وانقسام الزمان الى آنات غير متجزئة كذلك . وهذه الاجزاء – وهي الجوهر عندهم – ليست بذات كم ، فان اجتمع منها عدد ذو «كم» نجم عنها الجسم . فكان «الكون» بحسب هذا الوضع ، عبارة عن اجتماع الاجزاء ، أو «الفساد» عِبارة عن افتراقها. ويشير ابن ميمون الى اختلاف مذهب المتكلمين في الجزء عن مذهب افيقوروس من حيث كونها غير محصورة في الوجود ، اذ ان الله يخلقها دوما متى شاء ، عندهم .

ويقابل الجوهر عندهم الاعراض المقدمات الرابعة حتى التاسعة التي تحل في الاجزاء التي لا تتجزأ ، فتكسب من جراء ذلك صفاتها الخاصة . الا ان هذه الاعراض التي يعرفونها بانها «معاني» زائدة على معنى الجوهر ، لا ينفك الجسم عن احدها او عن ضدها ، لا تبقى زمانين. فاذا خلق الله جوهرا ما خلق فيه عرضا ما ، فيفنى هذا العرض لحينه ، فيعيد الله خلق ذلك العرض فيه ، اذا شاء بقاءه ، او يكف عن ذلك ، فينعدم الجوهر لتوه (المقدمة السادسة).

كذلك الزمان يتألف من اجزاء لا تتجزأ هي الآنات ، وفي تأويل الحركة عمد المتكلمون الى اثبات الخلاء خارجين بذلك على ارسطو واتباعه من المشائين العرب ونفوا تداخل الاجسام ، فكانت الحركة عندهم عبارة عن انتقال جوهر فرد من موضع ما الى موضع آخر. ولمّا كان الزمان لا يدخل في عدد الموجودات المتصلة لم يكن ثمة حركة اسرع من حركة اخرى . فاذا قطع متحركان مسافتين مختلفتين في زمان واحد كان مرد ذلك الى ان الحركة البطيئة تتخلّلها سكنات اقل من الحركة السريعة ، فحور الرحى عندهم ليس اسرع من اجزائها الاخرى وكل ما في الامر ان الرحى تتفكك اجزاؤها عند الدوران فتكون السكنات التي تتخلل الجزء البطيئ اكثر من السكنات التي تخللت الجزء السريع منها. وشهادة الحس لا تقوم دليلا على بطلان ذلك ، عندهم ، لان الحواس يفوتها ادراك الكثير من دقائق المحسوسات.

ويلاحظ ابن ميمون في رده على المتكلمين ان اختيارهم لهذا النظام الفلسفي الغريب ولا سيّمَا انكارهم لبقاء الاعراض والجواهر التي على خلق الاجسام وافنائها الى الله وحده دون واسطة طبيعية ودون شيء آخر كما يقول وهو عين ما يذهب اليه ابن رشد في رده على الاشاعرة من المتكلمين خاصة في في ابطالهم للسببية.

ولم يقتصر المتكلمون ، عند ابن ميمون على انكار فاعلية الاجسام بل تعدوا ذلك الى انكار فاعلية الانسان ايضا . فالفعل الارادي – ويعرف بالقدرة الحادثة – هو عبارة عن «تقارن» عدد من الاعراض ليس بينها رابطة ضرورية ، يخلقها الله في الانسان تباعا فينجم عنها الفعل الذي يسند اليه. فتحريك الكاتب للقلم مثلا هو عبارة عن تقارن اربعة اعراض هي الارادة ، فالقدرة ، فالحركة ، يخلقها الله في الكاتب ، واخيرا التحرّك يخلقه في القلم فيتحرك.

ويبني المتكلمون قولهم بتقارن الاعراض على ما يدعوه ابن ميمون مبدأ التجويز وهو ان «كل ما هو متخيل جائز عند العقل. وآفة هذه الدعوى عنده انها تنطوي على الخلط بين الخيال والعقل (فمَا يجوز في الخيال قد لا يجوز في العقل) وتؤدي الى ابطال الضرورة في اختصاص الاشياء بصور او طبائع او قوى معينة ، فلزم عن ذلك ان الجواهر متماثلة ، وان نسبة كل جوهر الى كل عرض نسبة واحدة. فلم يكن جوهر ما اولى بعرض ما ، ولم يكن الانسان كما يقول فيلسوفنا «اولى ان يعقل من الخنفس».

ومن مآخذ ابن ميمون الكبرى على المتكلمين «من اليونانيين المتنصرين ومن الاسلام» أن دليلهم على وجود الصانع بناء على مقدّمة الحدوث لا يستقيم منطقيا (وهو يشير الى يحيى النحوي الكاتب اليعقوبي الذي تصدّى للرد على برقلس في مسألة ازلية العالم ، وتوفي سنة

٥٦٨ ، ويحيى بن عدي المنطقي + ٩٧٤ واصحابه من جهة وعامة المتكلمين المسلمين الذين تدرعوا «بدليل الحدوث» في اثبات الصانع من جهة ثانية). وحجة ابن ميمون على المتكلمين اولا ان تقرير حدوث العالم او قدمه الذي يبنى عليه هذا الدليل «لا يوصل اليه ببرهان قطعي» ، وان الفلاسفة مختلفون فيه منذ آلاف السنين. ولمّا كان هذا الدليل يقوم على مقدمة جدلية ، يستحيل القطع فيها نفيا او اثباتا ، فبناء دليل وجود الصانع عليها لا يجدي فتيلا ، وكان المتكلمين كما يقول ابن ميمون ، تذرعوا بالقول : «ان كان العالم محدثا فثمت اله ، وان كان قديما فلا اله» (الدلالة فصل ٧١) وهو يختار في هذا الباب نهج ارسطو واصحابه الذين لم يقرنوا اثبات وجود الصانع بتقرير ما اذا كان العالم قديما ام محدثا ، وهو ما تذرع به ابن طفيل في اثبات وجود الله ايضا».

ومن المعروف ان جميع مؤلفات ابن ميمون مكتوبة بالعربية الا كتابه «مشنيح توراه» المكتوب بالعبرية ، كذلك كتابه «دلالة الحائرين» كتب بالعربية ولكن باحرف عبرية فلم يتمكن العرب من قراءته والاستفادة منه وأول طبعة ظهرت له كانت بالأحرف العبرية.

انهى **صموئيل بن طبون** ترجمة كتاب «دلالة الحائرين» في «آرل» عام ١٢٠٤ معتمدا على النصائح التي قدّمها له موسى بن ميمون نفسه فحل كل صعوبة يلاقيها في الترجمة. وقد يكون صموئيل هو الذي اختار عنوان الكتاب «موريح نيبوكيم» وهكذا يعرف هذا التأليف في العالم قاطبة. وقد اشتهر بحيث انه بعد عشر سنوات من ظهوره باللغة العبرية صدرت ترجمة اخرى عبرية قام بها اليهودي الاسباني ، يهوذا بن سليمان الحريزي (١١٧٠–١٢٣٥). وهذه الترجمة سهلة القراءة اكثر من ترجمة صموئيل بن طبون وقد اضاف اليها فهرسا وشروحا ومع ذلك فالترجمة الاولى مفضلة. وقد أخذت الترجمة اللاتينية عن الترجمة الثانية واخرجها «بطرس الطليطلي» في القرن الخامس عشر.

غرض ابن ميمون من وضع كتاب «دلالة الحائرين» هو تنمية روح الشريعة وهداية المتدينين الذين يتبعون مذهب التوراة ، وقد درسوا الفلسفة التي تدخل فيها العلوم ، ثم وجدوا ذاتهم محتارين بسبب المناقضات الظاهرة بين تعاليم الفلسفة والمعنى الحرفي للتوراة. وهذا الغرض شريف وهو من اشرف الاغراض التي يسعى اليها مفكر اختصاصي لانه يعرف جيدا قيمة العلم ومع ذلك فانه لم يتخل يوما عن اعطاء الايمَان الافضلية ، ومن هنا تولدت الضرورة في الموافقة بين اللاهوت العبري ومذهب ارسطوطاليس ، المطابقة بين العقل والايمَان. وهذا ما فعله قبله ابن رشد ثم حذا حذوهما البرتوس الكبير وتلميذه توما الاكويني.

وهذا التوفيق يعتبر مهمة خطيرة اذ على ابن ميمون ان يبحث في وجود الله وصفاته واسمائه ، ثم العالم الذي خلقه واصله وتبديلاته ومصيره ، ثم الانسان في هذا العالم وامام الله والضمير ومعنى الشر وماهية النبوءة وواجبات الانبياء واهمية الشريعة وواجب الانسان الاسمى ومعرفته لله.

والمصادر التي استقى منها ابن ميمون في الدرجة الاولى هي التوراة والتلمود والعلماء اليهود ، وفي الدرجة الثانية الفلسفة اليونانية وخاصة ارسطوطاليس اذ يقتبس منه البراهين عن وجود الله ، ويسمّيه امير الفلاسفة ، وبمَا انه يجهل اليونانية فمعرفته بالفلسفة اليونانية والعلوم مشتقة تماما وكمالا من الترجمات والتعليقات العربية المتوفرة بكثرة في كل مكان. معرفته بافلاطون ضعيفة ومعرفته بافلوطين والافلاطونية الحديثة شبه معدومة ، الا تلك المعلومات التي وصلت اليه بطريق غير مباشر ، كما يقول جورج سارتون.

فالمعلومات والمصادر التي لم يأخذها من التوراة والتلمود وصلت اليه من الفلاسفة العرب مثل الكندي والفارابي واخوان الصفاء وابن سينا والغزالي وابن باجه وابن طفيل ونوعا ما ابن رشد فان تأثير هذا الاخير في ابن ميمون ضعيف لانه كان معاصرا له ولم يتمكن من الحصول على مؤلفات ابن رشد بالسرعة المرغوبة اذ ان الفيلسوف العربي كان يعيش في قرطبة بينمَا اليهودي يعيش في القاهرة... اطلع على الجدل بشأن خلق القرآن او ازليته ، والثالوث الاقدس عند النصارى فقد وصلت الى يده مخطوطات قبطية في مصر ، ومؤلفات مسيحية كثيرة مكتوبة باللغة العربية مثل مؤلّفات يحيى بن عدي وغيرها من المفكرين النصارى. لا نظن انه اطّلع على الانجيل رغم انه نُقِل اكثر من مرة الى اللغة العربية.

معلوماته عن ارسطو مأخوذة من الفارابي.

مصادره اليهودية قليلة قد يكون اطّلع على مؤلفات «**فيلون الاسكندري**» الذي عاش في القرن الاول المسيحي ، وقرأ بعض مؤلفات **ابراهيم بن عزرا** ، ولكن على الاجمَال يمكن القول ان المعلومات التي استقاها من الكتب اليهودية لا توازي واحد على عشرة من المعلومات التي أخذها عن المفكرين العرب المسلمين.

حاول فيلون الاسكندري ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي والفلسفة اليونانية ويفهم بهذه الفلسفة ما جاء على لسان افلاطون وفيتاغوروس. والرواقيين.

ان عمل ابن ميمون بعد الف ومائتي سنة من ظهور فيلون الاسكندري يختلف كثيرا عن هذا الاخير ، اذ ان ابن ميمون حاول التوفيق بين اللاهوت اليهودي وارسطو المسلم مع ان قسما كبيرا

من هذا التوفيق قد حصل قبل ابن ميمون ، من قبل علماء مسلمين ، اذ ان الكثير من النظريات مشتركة بين اللاهوت الاسلامي واللاهوت اليهودي ، ولكن بقي الكثير وتعهد ابن ميمون بالقيام به وقام به على احسن وجه.

ايقظ كتاب «دلالة الحائرين» ضجة كبيرة بين علماء اليهود المتقيدين بالشريعة والناشزين عنها ، فقد بلغ من تعصب بعضهم في لنغدوك «LANGUEDOC» (فرنسة) انهم في عام ١٢٣٤ ، حملهم غضبهم على رفع القضية للسلطة الدينية المسيحية ، لممثل البابا في مونبليه الذي بكل طيبة خاطر امر باحراق كتب موسى بن ميمون.

نال كتاب «دلالة الحائرين» شهرة كبيرة في القرون الوسطى ، واليوم ما هي فائدته؟

يقول سرتون انه ما زال قادرا على ازالة بعض الشك من القلوب ولكنه ليس في مستوى كتب العصر.

موسى بن طبون:

١٢٤٠–١٢٨٣ ، يعتبر من اشهر المترجمين في القرون الوسطى ، فبفضل نشاطه واجتهاده وعبقريته توصلت اوروبة المسيحية الى الاطلاع على عدد كبير من المؤلفات البارزة للفلاسفة وعلماء الفلك والحساب والاطباء العرب مثل **ابن رشد والفارابي وابن سينا وجابر بن حيان والبطروجي والرازي** وغيرهم فقد نقلت مؤلفاتهم اولا الى العبرية ثم الى اللاتينية وطبع قسم كبير منها في ايطالية.

نقل ايضا كتابًا «**لابن السيد البطليوسي**» الاندلسي عنوانه «الحدائق».

وابن السيد هو معاصر لابن باجه وسابق لابن طفيل وابن رشد. ولد ابن السيد في بطليوس على عهد ملوك بني الافطس عام ١٠٥٢ خلال حكم المظفر ثالث ملك في بطليوس على عهد ملوك بني الافطس. توفي في بلنسية عام ١١٢٧ مكرسا اعوامه الاخيرة للتأليف وارشاد الطلبة الذين اقبلوا من كل فج وصوب للاقتباس عنه. وضع حوالي عشرة كتب يهمنا منها كتابه «الحدائق» الذي ترجمه موسى بن طبون وقد نقله اسين بلاسيوس الى الاسبانية واعطاه عنوان «Libro de los cercos» وهذا الكتاب ليس بالحقيقة سوى معلومات ابتدائية لتدرج الراغبين في دراسة الفلسفة ، وهو يعكس بصدق المذاهب الفلسفية الاسلامية في الاندلس

عندما كان ابن باجه يؤلف كتبه وقبل ظهور ابن طفيل وابن رشد[1].

وقد درس اسين بلاسيوس ابن السيد دراسة وافية يمكن الرجوع اليها ، كما يمكن مراجعة ابن السيد البطليوسي في كتابي : «عروق الذهب في مناجم الروم والعرب».

نقل من العربية الى العبرية : «شرح فصول ابقراط» وهذا الكتاب هو تعليق على فصول ابقراط الذي نقله من اليونانية الى العربية حنين بن اسحق في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي. جرى نقل هذا الكتاب من العربية الى العبرية بين عامي ١٢٥٧ و ١٢٦٧ ، ولم تنشر بعد هذه الترجمة كاملة. والكتاب هو لموسى بن ميمون.

– نقل صموئيل ابن طبون ايضا مؤلفا آخر لموسى بن ميمون هو : «كتاب السموم والمحرز من الادوية القاتلة» وكان ابن ميمون قد ألّف هذا الكتاب للوزير الفاضل بمصر عام ١١٩٩.

ترجم هذا الكتاب مرتين الى العبرية واحداها قام بها موسى بن طبون في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وقد نقل النص العربي الى اللاتينية والناقل هو «ارمنغود» للبابا اكليمندوس الخامس ، ونال شهرة بعيدة ، لان الموضوع كان يهم الناس في القرون الوسطى ، اذ انهم في ذلك الوقت كانوا يستعملون السم تخلصا من اعدائهم ، وكان على كل ملك او امير او حاكم ان يصون نفسه من هذا السم ، كما ان الناس كانوا عرضة لنهش الافاعي وعضة الكلاب ولسعة العقارب.

– نقل ايضا كتابا لموسى بن ميمون في «تدبير الصحة» ويعتبر هذا الكتاب من اشهر الكتب التي ألّفها ابن ميمون بعد كتابه : «فصول موسى في الطب» ، وقد اهدي الى الملك الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين الايوبي.

وهذه المقالة في تدبير الصحة تقسم الى اربعة فصول :

الاول : يتحدث فيه عن تدبير الصحة بالعموم بالمحافظة على النظافة وقواعدها العامة ، وكثيرا ما يرجع في هذا القسم الى ابقراط وجالينوس.

القسم الثاني : استعمال ادوية وعلاجات سهلة عندما يكون الانسان على سفر او لا يستطيع استدعاء طبيب.

القسم الثالث : علاج النفس وقد أخذ هذا القسم عن ارسطوطاليس والفارابي بنوع

---

(١) Asin Palacios: Obras escogidas II t III, Madrid 1948 p. 499.

خاص ، وهذا القسم مهم جدا اذ ان ابن صلاح الدين البكركان يشكو من داء نفساني ولذلك وضع له هذا الكتاب.

القسم الرابع : ملخص على شكل فصول وصل عددها الى سبعة عشر.

وقد نالت هذه «المقالة في «تدبير الصحة» شهرة واسعة وشعبية كبيرة والبرهان على ذلك المخطوطات الكثيرة العربية الموزعة هنا وهناك.

نقل هذه المقالة الى العبرية موسى بن صموئيل بن طبون ، وقد نقل هذا الكتاب ايضا الى اللاتينية مرتين : احداهما عن العربية عام ١٢٩٠ والمترجم هو ارمنغود ، واخرى عن العبرية وقام بها «يوحنا من كابوا» لمتطبب البابا(١).

يعقوب بن ماهر بن طبون :

يسمّيه اللاتين «بروفيت» «Profeit» او بروفاسيوس اليهودي. يعتبر من المترجمين البارزين وقد انصرف الى نقل المؤلفات العلمية العربية الى العبرية واللاتينية . تربى على يد موسى بن طبون ، واحد من اهم المترجمين في القرون الوسطى كما اشرنا.

اصبح دون بروفيت عالما فلكيا من الدرجة الاولى ، وله مؤلفات في هذا الحقل.

ولد في مرسيلية قام بنشاطه العلمي في «لونيل» و«مونبيليه». نقل اقليدس وملاو الاسكندري والزرقاله والغزالي وابن رشد.

يعتبر بروفيت من اكبر علماء عصره وقد اشتهر بتقويمه وخالف فيه وجهة نظر الزرقاله ، الّفه في مونبيليه واتّخذ له بداية أول آذار ١٣٠١.

ابراهيم بن عزرا

يهودي اسباني عمل على نقل الثقافة العربية واللاتينية . اشتغل في اسبانية وخارجها حيث الحاجة تتطلّب وجود مترجمين.

ولد في تطيلة عام ١٠٩٢ وتدرج في المعارف العربية الزاهرة في اسبانية وما لبث ان اخذ

---

(١) George Sarton: Ensayos de Historia de la Ciencia. Biblioteca UTEHA de Historia. Mexico 1968.

يجوب الاقطار بحيث يمكن تسميته باليهودي التائه الحقيقي ، فزار عدة مدن ايطالية ثم انتقل الى فرنسة فزار **بزيه** ، **اربونة** ، **انجه** ، ثم توجه الى انكلترة حيث زار لندن و**ونشستير**. يبدو انه توفي في اسبانية في مدينة «**كالهرة**» عام ١١٦٧ ، يملك زمام المعارف في عصره له موهبة النقد والحكم الصادق وحيث نزل ترك مؤلفات باللغة العبرية ولكنه حرص على ان تصل هذه المعارف في الحساب وعلم الفلك واللغة الى اليهود المشتتين في اروبة.

لم يتوقّف تأثير ابراهيم بن عزرا على الجماعات اليهودية بل تعداه الى النصارى. مارس نشاطه في حقلين : اليهودي والمسيحي ، فقد وضع ايضا كتبا باللاتينية منها «مقالة في الاسطرلاب» كتبها في انكلترا.

ولكن يهمنا ابن عزرا المترجم لانه بنفوذه اثر على الثقافة الاوروبية الناشئة في منتصف القرن الثاني عشر اذ حمل الى اوروبة الثقافة العربية – الاسبانية الزاهرة.

قضى اكثر ايامه خارج اسبانية فيقال عنه انه زار الهند ، ومن عام ١١٤٠ الى ١١٦٧ نجده في **رومة** ، **وسلرنه** ، **ومانتوة** ، **وبيسة** ، **وفيرونة** ، **وبرديل** (فرنسة) معلما وناشرا العلوم الاسبانة العربية.

الفصل الحادي والعشرون

ابن النفيس في عصر الانبعاث

يبتدئ عصر الانبعاث عند الغربيين باستيلاء المسلمين الأتراك سنة ١٤٥٣ على القسطنطينية أو اسطمبول الحالية.

كان لهذا الحادث الخطير مغزيان سياسي وعلمي. سياسي فانه أيقظ الغرب وفتح عيونه على الخطر الجاثم على قاب قوسين منه يتهدده بالاجتياح في أي وقت، فراح يستعد لدرئه بجميع ما ملكت يده من وسائل.

والمغزى العلمي هو انه أتاح للغرب أن يقف وجهاً لوجه أمام الحضارة اليونانية التي كانت ما زالت متجسمة في القسطنطينية. فلما سقطت هذه المدينة هجرها عدد كبير من البيزنطيين والمقيمون فيها من أهالي جنوى والبندقية والمدن الأخرى الايطالية وحملوا معهم ما تيسر لهم من المؤلفات اليونانية إلى ايطاليا فاطلع الغرب عليها وعمد الى نقلها للغة اللاتينية السائدة في اوروبة آنذاك وهي لغة العلم في ذلك العصر.

فاذاً عصر النهضة أو الانبعاث أو اليقظة أو الميلاد الثاني كما يدل عليه اسمه الغربي: يعني من الناحية العلمية العودة الى الحضارة اليونانية لأن هذه الحضارة لم تكن مجهولة عند الغرب فقد توصلوا اليها عن طريق العرب لما نقلت للمرة الأولى الى اللغة اللاتينية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. في العصر الحادي عشر بمدينة ساليرنو في جنوبي ايطاليا بما خص الطب، وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر في طليطلة بنوع خاص وفي شبه الجزيرة الابرية وجنوبي فرنسا بنوع عام وقد شمل النقل الحضارة اليونانية بكاملها الى جانب الحضارة العربية ذاتها، الى اللغة اللاتينية الفصحى والى اللغة اللاتينية العامة وهذه الأخيرة في بلاط الفونسه العاشر الحكيم.

ظن علماء عصر الانبعاث انهم قد بلغوا سن الرشد واصبحوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم ووجدوا في ذاتهم المؤهلات التي تخولهم الثقة والكفاءة لفهم الحضارة اليونانية دون حاجة للجوء الى الحضارة العربية ، للمقابلة بين هذه وتلك أو للموافقة بينهما ومعرفة الغث والسمين فيهما .

النتيجة انهم عمدوا الى ترجمة المؤلفات اليونانية فوجدوا ذاتهم متعرّضين للصعوبات ذاتها التي واجهها العرب الناقلون قبلهم بستة قرون ونيف. ولدينا أدلّة كثيرة على ذلك في كافة فروع المعرفة .

اندرس لاغونا Andres Laguna

من جملة الاطباء الاسبان في عصر الانبعاث الذين عمدوا الى نقل الطب اليوناني الى اللاتينية الطبيب «اندرس لاغونا». وُلد في أوائل القرن السادس عشر بشقوبية من أعمال اسبانيا. درس في جامعة سلمنقة ، ثم في جامعة باريس حيث تلقّن العلوم الطبية. جال في انكلترة وهولندة والمانية وايطالية. نقل مؤلفات عديدة من اليونانية الى اللاتينية وفي جميعها كان يستعين بالمفردات التي استعملها العرب قبله لتأدية المعاني المطلوبة. ولما شرع في ترجمة كتاب «ديوسقردس» تبينت له الصعوبة في نقل أسماء الحشائش الموجودة في هذا الكتاب ، الى اللاتينية. فما كان منه إلا أن التجأ الى النص اللاتيني المأخوذ عن العربي ونقل ما يزيد على خمسمائة اسم من الحشائش ، اجهد «سيزار دبلر» Cesar Dabler ذاته في اعطائها الاسماء الغربية الصحيحة (١)

الاسم اللاتيني	الاسم العربي	الاسم اللاتيني	الاسم العربي
Abanus	ابنوس	Alhelut	البلوط
Agileuz	جلوز	Bachala Imania	البقلة اليمانية
Aiachie	اقاقية	Basar Alzir	بصل الزير
Aitmad	اثمد	Camum	كمون
Albaban	حب البان	Athfar Ather	اظفار الطيب (العطر)

(١) Cesar E Dabler: Al-Andalus vol. XVI 1951 pp. 141-164.

Albotin	البطم	Belesem	بيلسان
Alchilemelich	اكليل الملك	Beyd	بيض

واطباء آخرون في عصر الانبعاث سلكوا أيضاً هذا المسلك واكثرهم انصرف الى نقل جالينوس الى اللاتينية واضعين نصب أعينهم الترجمات اللاتينية الاخرى عن العربية الى اللاتينية محاولين في بعض الاحيان مكافحتها وفي بعض الاحيان التوفيق بين آراء جالينوس، وغيرهم يؤيدون العرب. عندنا أسماء كثيرة نقتصر على ذكر بعضها:

غليوم كوش Guillaume Koch : ترجم عدة مؤلفات من اليونانية الى اللاتينية.

جان هاجبو Jean Hagebut : ترجم مؤلفات من بقراط وجالينوس وافلاطون وبلوترك وديوسقردس وغيرهم.

جان جونتير Jean Gunter : نقل الى اللاتينية جميع كتب جالينوس واوريباسيوس وبولس الاجيناطي

واسكندر تراليس Tralles : واورليانوس وغيرهم.

ليونار فوش Leonhard Fuchs : ١٥٦٦ - ١٥٠١ : شرح جالينوس وابقراط وكتب عدّة مجلدات عن علم النبات والحشائش، وله مؤلفات أخرى شاء فيها ان يخلع نير سلطة العرب.

وقد وجد اطباء آخرون كما أشرنا حاولوا التوفيق بين جالينوس والاطباء العرب، وقد توفق في ذلك سلفاتيكوس Sylvaticus ، فقد كان ألبقهم كما يقول كومستون Comston

وفي الربع الثاني من القرن السادس عشر نشب صراع شديد بين الموالين للطب العربي والمناهضين له. نذكر طبيبين من الموالين:

لوران فرييس «Laurent Fries» : في كتابه: الذي ظهر عام ١٥٣٠ وعنوانه:
Defensio medicorum principis Avicennae ad Germaniae medicos 1530.

برنار اونجير «Bernhar Unger» : له كتاب عنوانه:
«Practica epistola pro defensione arabum medicorum 1533».

اشترك في هذا النقاش طبيب فرنسي اسمه «سانفوريان شامبيه» «Symphorien Champier» فهـذا الطبيب الفرنسي يهاجم العرب في كتاب له ظهر عام ١٥٠٦، يدل فيه على جهل تاريخي فاضح، كما انه يشوّه أسماء بعض الاطباء العرب وان تناولهم بالاحترام،

مثل ثابت بن قره وابن سينا وماسويه ، فانه يذكرهم بين الملوك في حين ان الرازي وعلي بن عباس وابن رشد وابن زهر يعتبرهم فلاسفة ؛ كما جاء في محاضرة ألقتها «روزا برابنت» في المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد عام ١٩٧٨ عنوان المحاضرة بالاسبانية :

La medicina arabe y Occidente

تلك نظرة خاطفة على الطب في عصر الانبعاث ، كما يسميه الغربيون ، لأن عصر الانبعاث بالنسبة لنا نحن الشرقيين العرب يبتدئ قبل تلك الحقبة بكثير ، في أواخر القرن السابع وطيلة القرن الثامن وقسم كبير من القرن التاسع ، لما ترجمت الحضارة اليونانية الى العربية.

ولم يعد علماء عصر الانبعاث في الغرب يقبلون بسلطة العرب وجالينوس على عواهنها ، كما فعل علماء القرون الوسطى المتأخرة ، بل يجادلونها ويناقشونها ، فالمعلومات الضخمة التي اقتبسوها من الترجمات العربية الى اللاتينية فتحت أذهانهم وانضجت عقولهم ، انهم تلامذة العرب وتلامذة جالينوس وابقراط ولكنهم تلامذة نبهاء على كل حال.

ابن النفيس :

في غمرة هذه النشوة الفكرية وهذا الانفتاح الرحب الآفاق عند علماء عصر النهضة أطل ابن النفيس بنظريات جديدة بالنسبة لهم.

ابن النفيس هذا هو ابو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم ويعرف أحياناً بالقرشي ، نسبة إلى قرش ما وراء النهر ، ومنها أصله. طبيب وعالم وفيلسوف. ولد في دمشق سنة ٦٠٧/١٢١٠ وتوفي في القاهرة سنة ٦٨٧ /١٢٨٨ وقيل ٦٩٢/١٢٩٣.

درس الطب في دمشق على مشاهير العلماء وخصوصاً على «مهذب الدين الدخوار». ثم نزل مصر ومارس الطب في المستشفى الناصري ثم في المستشفى المنصوري الذي أنشأه السلطان قلاوون سنة ١١٨٤ ، وأصبح عميد اطباء هذا المستشفى وطبيب السلطان بيبرس. وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الامراء وأكابر الاطباء. قيل في وصفه انه شيخ طويل اسيل الخدين نحيفاً ذو مرؤة. وكان قد ابتغى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى ايوانها ، ولم يكن متزوجاً فأوقف داره وكتبه وكل ماله على البيمارستان المنصوري.

وكان معاصراً لمؤرخ الطب الشهير ابن أبي اصيبعة صاحب «عيون الأنباء في طبقات الاطباء» ، ودرس معه الطب على «ابن الدخوار» ثم مارسا في الناصري سنوات ، ولم نشاهد له ترجمة في كتاب ابن أبي اصيبعة الموجود في ايدينا.

كان يعد من مشاهير عصره في الطب وله مصنفات عديدة كما سنرى، اتصف فيها بجرأته وحرية رأيه، اذ كان خلافاً لعلماء عصره يناقض أقوال ابن سينا وجالينوس.

تلك هي نبذة عن حياته نجدها في «شذرات الذهب» للعماد الحنبلي وعند السيوطي وحاجي خليفة ودائرة المعارف التي يشرف عليها فؤاد افرام البستاني، الجزء الرابع.

له مؤلفات عديدة منها: «الكتاب الجامع في الطب» أنجز منه ثمانين مجلداً من أصل ٣٠٠ ولكن فُقد معظمها.

- المهذب في الكحالة، أي في طب العيون.
- المختار من الاغذية في علم الحمية.
- شرح فصول ابقراط.
- شرح تقدمة المعرفة لابقراط.
- شرح مسائل حنين بن اسحق.
- شرح الهداية في الطب لابن سينا
- الموجز في الطب، وهو موجز «كتاب القانون لابن سينا». رتبه على أربعة فنون:

١ - في قواعد أجزاء الطب العلمية والعملية بقول كلي.
٢ - في الادوية والاغذية المفردة والمركّبة.
٣ - في الامراض المختصة بعضو دون عضو.
٤ - في الامراض التي لا تخص بعضو دون عضو وأسبابها وعلاماتها ومعالجتها وقد اشتهر هذا الكتاب وطُبع عدة مرات أولها في الهند وترجم الى التركية مرتين ومرة الى العبرية، ولكنه لا يهمنا لما نحن فيه.

- شرح قانون ابن سينا.
- بغية الفطن من علم البدن.
- شرح تشريح القانون.

هذا الكتاب يهمنا لأنه يتحدث عن الدورة الدموية وكيف يفهمها ابن النفيس وهي مخالفة لمفهوم جالينوس وابن سينا غير ان هذا الكتاب لم يصل الى الغرب في طبعة لاتينية، فالذي ترجمه «اندريا الباجو» عن ابن النفيس الى اللاتينية هو غير هذا الكتاب كما سنرى.. إلا أنه لمن المدهش حقاً كيف ان «ميخائيل سرفي» يصف الدورة الدموية الصغرى بعد ثلاثة أجيال ونيف بالكلمات ذاتها تقريباً التي وصفها ابن النفيس، وهذا غريب حقاً.

ابن النفيس في الغرب :

عائلة «الباجو»

يرجع أصل هذه العائلة إلى قرية صغيرة اسمها «مسترى» «Mestre» من أعمال البندقية انتقلت هذه العائلة في القرن الرابع عشر الى «بللونو» «Belluno» من أعمال البندقية أيضاً. وحدث ان احد افراد هذه العائلة نال لقب «قند» او كونت «الباجو» عام ١٣٢٤.

اما «اندريا الباجو» الذي يهمنا أمره فقد وُلد حوالي ١٤٥٠. درس الطب في جامعة «بدوا» «Padova» وأصبح طبيباً، فطلبه قنصل البندقية في دمشق ليشغل منصب طبيب القنصلية هناك.

ولا حاجة إلى القول ان علاقات مدينة «البندقية» كانت قوية مع الشرق الأدنى. انها علاقات تجارية وفنية، فقد لجأ إلى هذه المدينة «البندقية» عدد لا يستهان به من العلماء اليونانيين تجاه التقدّم التركي في منطقة الشرق، ولا سيمَا من ناحية القسطنطينية، في هذه المدينة الأخيرة كان يوجد حي خاص بالجالية الايطالية من مدينة البندقية اسمه «حي غلاطة» «Galata»

ووجد اندريا الباجو الفرصة سانحة للانصراف الى التجارة بين الشرق والبندقية الى جانب ممارسة مهنة الطب.

انتقل إلى دمشق برفقة ابن أخيه «بولس الباجو» «Paulo Alpago»

تمت الرحلة حوالي عام ١٤٨٧.. وعلى ما يظهر أن اندريا الباجو اثرى هناك، فطلب الاذن من القنصل البندقي بالعودة إلى بلاده بعد ان قضى تسعة عشر عاماً في دمشق. وامام هذا الطلب لم يرَ القنصل في ذلك الحين واسمه «توماسو كونتريني» «Tomaso Contarini» إلا أن يبحث عن طبيب جديد للقنصلية يحل محل الباجو. وفعلاً عثر على طبيب ليشغل المكان الشاغر. ولكن حدث ان اندريا الباجو غير رايه وقرر البقاء في منصبه، لا سيمَا وان مجلس الشيوخ في البندقية ثبته في منصبه براتب قدره ٣٥٠ ديناراً (دوقادو) في السنة.

ولا حاجة إلى القول ان هذا التراجع عن الرأي لم يرض القنصل ولا الطبيب الجديد المعين، فوجه القنصل تهمة الى اندريا الباجو بأنه استغل الوظيفة في القنصلية وهي تعفيه من الرسوم الجمركية فحقق عمليات تجارية هامة ربح منها أموالاً طائلة متستراً وراء ابن أخيه، بولس.

وجّه هذه الشكوى الى مجلس الشيوخ عام ١٥٠٧. ولكن هذه التهمة لم تلاقِ أذناً صاغية في البندقية رغم ان عائلة «كونتريني» تنعم بجاه عريض ونفوذ واسع هناك، فظلّ الباجو في

وظيفته المزدوجة : يمارس الطب ويتعاطى التجارة[1] .

وشاء أيضاً استغلال الناحية الطبية ، فقد انصرف إلى جمع مخطوطات عربية ، وترجمة وطبع نصوص عربية وقد ساعده في ذلك طول اقامته في دمشق إذ مكّنه من معرفة اللغة العربية معرفة صحيحة أتقنها تماماً بحيث انه اصبح قادراً على نقلها إلى اللغة اللاتينية بكل سهولة. ولا عجب في ذلك فانه مكث في دمشق ثلاثين عاماً.

وبعد ذلك قرر اندريا الباجو الانتقال في عام ١٥١٧ الى نيقوسية في جزيرة قبرس وأقام هناك ثلاثة اعوام يمارس مهنة الطب والتجارة أيضاً.

وفي عام ١٥٢٠ عاد مع ابن أخيه الى مسقط رأسه في «بللونو» حاملاً في دماغه نظريات طبية جديدة وفي حقائبه العشرات من المخطوطات العربية ، جمعها طيلة السنوات الطويلة التي قضاها في دمشق ، ومن جملة هذه المخطوطات مؤلفات ابن النفيس بنوع خاص لأنها جديدة على العالم الغربي ولأن فيها نظريات تختلف تماماً عن النظريات التي الفوها بالبندقية وفي جامعة بادوا.

وحين وصوله الى بلاده عين قارئاً للغات الشرقية في جامعة «بادوا» «Padova» . وفي عام ١٥٢١ عيّن استاذ كرسي الطب في الجامعة نفسها ولكن توفي في العام ذاته عن واحد وسبعين حولا .

الترجمات التي حققها اندريا الباجو من العربية الى اللاتينية :

ترجم يوحنا سرابيون المعروف في الغرب باسم Seprapion senior عنوان الكتاب باللاتينية : Practica joannis Serapionis aliter breviarium mencupata

مع ملحق : Synonima Serapionis

وقد ترجم هذا الكتاب مرتين : الأولى قام بها جيراردو الكريموني ، والثانية هي هذه التي قام بها اندريا الباجو.

---

(١) Coppola; E.: «The Discovery of the pulmonary circulation. A, new approch in Bull Hist. Med XXX, 44-77, 1956».

– القانون لابن سينا : ترجم مرتين أيضاً ، الأولى قام بها جيراردو والكريموني ايضاً والثانية اندريا الباجو فقد ترجم : De viribus cordis
Judicium urinae
De syrupo acetosa

– ترجم لابن رشد كتاب الترياق تحت عنوان : De theriaca

– ترجم قسماً من قاموس ابن القفطي تحت عنوان : Bio-bibliografico

وليس من شك ان اندريا الباجو وصلت الى يده مؤلفات ابن النفيس وترجم منها اكثر مما نعرف من ترجماته لها لدينا ترجمة لاتينية عنوانها.

Ebennefis philosophi expositio super quintum canonem Avicennae...

Ab Andrea Alpago ex arabico in latinum versa ac nunc primum in lucem adita Venice 1547.

ظهرت الطبعة عام ١٥٢٧ أي بعد وفاة المترجم بست سنوات والناشر هو ابن اخيه بولس.

وظهرت طبعة أخرى عام ١٥٤٤.

وظهرت طبعة ثالثة عام ١٥٤٧ وهذه الطبعة تحمل العنوان المذكور أعلاه.

المهم في هذا كله ان ابن النفيس وصل الى عصر الانبعاث في القرن السادس عشر، وقد أوصله اندريا الباجو الذي كان قد ترجم قسماً من مؤلفاته الى اللاتينية، لا نعرف بالضبط هذا القسم إلا ما نشر منه بعد وفاة المترجم، ولكن من الاكيد أن قسماً آخر كبيراً لم ينشر لأن الناشر خاف أن يتعرّض للعقاب الصارم من قبل دواوين التفتيش فيمّا لو نشر القسم المتعلق بالدورة الدموية الصغرى، وهذا بالفعل ما حدث لميخائيل سرفي الذي مات حرقاً لأنه تجاسر ونشر في كتابه «اصلاح المسيحية»، كما سنرى، تلك المقاطع المتعلقة بتلك الدورة الدموية.

وعلى هذا النحو فان الدورة الدموية الصغرى قد مرّت بهذه المراحل:

١ – ابن النفيس الذي عاش في القرن الثالث عشر تحدث للمرة الأولى عن الدورة الدموية الصغرى في كتابه: «شرح تشريح القانون».

٢ – في مخطوط موجود في المكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات اللاتينية، رقمه ١٨٢١٢، يتحدث «ميخائيل سرفي» عن الدورة الدموية الصغرى.

٣ – عام ١٥٤٦ «فرنسيسكو ديلارينا» Francisco de la Reyna في كتابه Libro de albeiteria يتحدث عن هذه الدورة الدموية. لم يبقَ أي نسخة من هذا الكتاب، لكن المؤلف نفسه يشير اليه في الطبعة الثانية.

٤ – «برناردينو مونتانيا دي مونسيراتي» «Bernardino Montana de Monserrate» يتحدث في كتابه Liber de la anatomie del hombre. لا يذكر فيه شيئاً جديداً، انه ما زال يتبع نظرية جالينوس.

٥ – طبعة ثانية لكتاب «البيطرة» لـ«رينا» المذكور أعلاه

٦ – ميخائيل سرفي يتحدث عن الدورة الدموية الصغرى كاملة في كتابه «اصلاح الديانة المسيحية» «Christianismi restitutio»

يشير الى الدورة الدموية الصغرى بالكلمات ذاتها التي جاءت في كتاب «شرح تشريح القانون» كما سنرى عندما نقابل بين النصين العربي واللاتيني.

٧ – خوان فالفردي «Juan Valverde» تلميذ كولومبو، نشر كتابه «تاريخ تركيب الجسم البشري» وهو بالاسبانية عنوانه:

«Historia de la composicion del cuerpo humano»

يصف فيه الدورة الدموية الصغرى، تاريخ صدور الكتاب عام ١٥٥٦

٨ – كولومبو Colombo في كتابه de re anatomica الصادر في البندقية عام ١٥٥٩ يصف الدورة الدموية الصغرى دون أن يشير إلى «ميجيل سرفي» «Michel Servet»

٩ – في عام ١٥٩٣، اندريا سيسلبينو Andrea Cesalpino ذكر في كتابه الذي يحمل عنوان Quaestionum peripateticarum آراءه بشأن الدورة الدموية.

١٠ – عام ١٦٢٨ «هارفي» «Harvey» يذكر الدورة الدموية الكبرى في كتابه الذي عنوانه: Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus

١١ – ليبنتز Leibniz عام ١٧٣٧ يؤكد ان المكتشف الحقيقي للدورة الدموية هو ميخائيل سرفي بقي علينا ذكر النصوص عند ميخائيل سرفي لأنه أول من تكلم عن الدورة الدموية في الغرب، وطبعاً بعد ابن النفيس:

يقول ميخائيل سرفي في كتابه:

Cristianismi restitutio

Vitalis spiritus in sinistro cordis ventriculo suam originem habet, juvantibus maxime pulmonibus ad ipsius generationem Est spiritus tenuis, caloris vi elaboratus flavo colore, ignea potentia, ut sit quam ex puriori sanguine lucidus vapor, substantiam in se continens a quae, aëris, et ignis. Generatur est facta in pulmonibus mixtione inspirati aëris cum elaborata

subtili sanguine, quem dexter ventriculus cordis sinistro communicat. Fit autem communicatio haec non per parietem cordis medium ut vulgo creditur, sed magno artificio a dextra cordis ventriculo, longo per pulmones ductu, agitatur sanguis subtilis: a pulmonibus praeparatur, flavus efficitur: et a vena arteriosa, in arteriam venosan transfunditur. Deinde in ipsa arteria venesa inspirato aëri miscetur, expiratione a fulgine repurgatur. Atque ita tandem a sinistro cordis ventrieulo tetum mixtum per diostolem attrahitur, apta supellex ut fiat, spiritus vitalis.

Si quis haec conferat com iis quae scribit Galenus lib 6 et 7 de usu partium, veritatem penitus intelligent ab ipso Galeno non animadversam.

وهذه ترجمة النص اللاتيني :

«الروح الحي يتولد في التجويف الأيسر من القلب ، يساعده الرئة مساعدة كبرى على توليده ؛ انه روح دقيق تكوّن بقوة الحرارة ، لونه أحمر له قوة النار كما لو كان بخاراً هائلاً يأتي من الدم النقي يحتوي في ذاته على جوهر الماء والهواء والنار. يتولد من مزيج من الهواء يجري في الرئة مع الدم الدقيق جداً. فهذا الدم المتكون ينتقل من التجويف الأيمن للقلب الى التجويف الأيسر ولكن ليس بينهما منفذ كما يظنه الناس بل بواسطة عملية كبيرة يذيب الدم الدقيق جداً من التجويف الأيمن الى الرئة وبعد ان ينبت في جرمها فيصبح احمر وينفذ من الوريد الشرياني الى الشريان الوريدي وبعد ذلك في هذا الشريان الوريدي يمتزج بالهواء الذي نستنشه وندفعه الى الخارج فيخرج القسم الفاسد. وأخيراً فان التجويف الأيسر للقلب يجذب هذا المزيج الذي تحول الى مادة صالحة لأن يتكون منها الروح الحيوي ولكن ليس بينهما منفذ فان جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس فان مسام القلب هناك مسدود وجرمه غليظ فلا بدّ وان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الى الرئة لينبت في جرمها ويخالط الهواء ويتصفى ألطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدي ليوصل الى التجويف الايسر من تجويفي القلب وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد الروح. واذا شاء أحد وقابل هذه الأمور مع ما كتبه جالينوس في الفصلين السادس والسابع من كتاب «استعمال الأعضاء» يفهم الحقيقة كاملة التي لم يفهمها جالينوس».

ويقول ابن النفيس في «شرح تشريح القانون» :

«ان القلب له بطنان فقط : أحدهما مملوة من الدم وهو الأيمن والآخر مملؤ من الروح وهو الأيسر ولا منفذ بين هذين البطنين البتة ، والتشريح يكذّب ما قالوه والحاجز بين البطنين أشدّ كثافة من غيره.

فان نفوذ الدم الى البطن الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطن الأيمن كما قررناه. ويقول في مكان آخر من كتابه :

«ولكن ليس منهما ، أي تجويفي القلب منفذ فان جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم ، كما ظنه جالينوس. فلا بدّ وان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الى الرئة ينبث في جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدي ليوصله الى التجويف الايسر من تجويفي القلب وقد خالط الهواء وصلح لأن تولد منه الروح».

الفصل الثاني والعشرون

لائحة باسماء العلماء من يونان وعرب نقلت مؤلفاتهم من العربية الى اللاتينية في القرون الوسطى واسماء الناقلين

اسم المؤلف	عنوان الكتاب	اسم الناقل
ابقراط	– فصول ابقراط مع شروح جالينوس	قسطنطين الافريقي
ابقراط	– كتاب تقدمة المعرفة مع شروح جالينوس	جيرارده الكريموني
ابقراط	– كتاب الامراض الحادة مع شروح جالينوس	جيرارده الكريموني
ابقراط	– كتاب الحقيقة	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب الصناعة الصغيرة	قسطنطين الافريقي
جالينوس	– كتاب فن الشفاء	قسطنطين الافريقي
جالينوس	– كتاب تعرف علل الاعضاء الباطنة	قسطنطين الافريقي
جالينوس	– شروح على فصول جالينوس	قسطنطين الافريقي
جالينوس	– في آراء ابقراط وافلاطون	قسطنطين الافريقي
جالينوس	– كتاب الاسطقسات	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب المزاج	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب العلل والاعراض	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب البحران	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب الايام العصيبة	جيرارده الكريموني
جالينوس	– شرح على تدبير الامراض الحادة	جيرارده الكريموني
جالينوس	– شرح التعرف على علل الاعضاء	جيرارده الكريموني
جالينوس	– في تدبير الصحة	جيرارده الكريموني

جالينوس	– كتاب الاسرار	جيرارده الكريموني
جالينوس	– كتاب الادوية المفردة	جيرارده الكريموني
جالينوس	– حركات السوائل	مرقس الطليطلي
جالينوس	– كتاب تركيب الادوية	فرنشينوس
جالينوس	– كتاب الغذاء	اكورسيوس
جالينوس	– كتاب في العضل	ارنلده فيلانوفا
جالينوس	– في النبات	المعلم ابراهيم
جالينوس	– في الفرق	مغفل
جالينوس	– تركيب الادوية على الجمل والاجناس	مغفل
جالينوس	– تركيب الادوية حسب المواضع	مغفل
جالينوس	– استعمال الاعضاء	مغفل
جالينوس	– كتاب في الصوت	مغفل
افلاطون	– كتاب السياسة (١)	
ارسطوطاليس	– كتاب سر الاسرار (نقل قسما منه)	يوحنا الاشبيلي
ارسطوطاليس	– كتاب سر الاسرار (نقله كاملا)	فليب الطرابلسي
ارسطوطاليس	– في السماء والعالم	غندسلبه
ارسطوطاليس	– كتاب انولوطيقا الثانية	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– انالوطيقا الثانية شرح طمسطيوس	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– في الخير المحض (منسوب اليه)	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب في المسائل الحيلية	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– في السماء والعالم	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– في الكون والفساد	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب في العلل	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب في الآثار العلوية	جيرارده الكريموني

١ – يقول لكليرك : ان هذا الكتاب هو كتاب السياسة وليس كتاب الشرائع وهو موجود في مكتبة مونبيليه ويحمل رقم ٢٧٧ عنوانه : «كتاب المؤسسات ونشاطها لأفلاطون كما يذكر حنين بن اسحق».

«Liber institutionum activarum Platonis, in quo Humayn filius Isaac sic loquitur».

ارسطوطاليس	– كتاب في الحواس	جيrارده الكريموني
ارسطوطاليس	– في الآثار العلوية	اوريليوس
ارسطوطاليس	– في الاخلاق	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– كتاب في صناعة الريطويري (الخطابة)	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– كتاب في صناعة الريطوي شرح الفارابي	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– كتاب في صناعة الشعور	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– اورغانون	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– السياسة	هرمان الالماني
ارسطوطاليس	– كتاب الحيوانات	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– الآثار العلوية	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– السماء والعالم	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– في الحس	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– في الذاكرة	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– كتاب في النوم	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– في الكون	ميخائيل سكوت
ارسطوطاليس	– في التفاحة (منحول)	مانفريدي
ارسطوطاليس	– كتاب الحيل	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب ما وراء الطبيعة	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب الاستقساط	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– تعليق الفارابي على خواص العناصر	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– نعت الاحجار ومنافعها	جيرارده الكريموني
ارسطوطاليس	– كتاب النبات	الفرد سارشيل الانك
اقليدس	– اصول الهندسة (١٥ مقالة)	جيرارده الكريموني
اقليدس	– اصول الهندسة (١٠ مقالات شرح النيريزي)	جيرارده الكريموني
اقليدس	– اصول الهندسة (١٠ مقالات شرح سند بن علي)	جيرارده الكريموني
اقليدس	– كتاب المعطيات	جيرارده الكريموني
اقليدس	– كتاب القسمة	جيرارده الكريموني

اقليدس	– كتاب الاصول	اديلار الباثي
اقليدس	– كتاب الاصول (نقل ابي عثمان الدمشقي)	صاحب الشرطة؟
اقليدس	– كتاب الثقل والخفة	مغفل
اطولوقس	– كتاب الكرة المتحركة (اصلاح الكندي)	جيرارده الكريموني
ارشميدس	– كتاب تربيع الدائرة	جيرارده الكريموني
ابلونيوس	– كتاب المخطوطات (1)	
ثيودورس	– كتاب المساكن	جيرارده الكريموني
ثيودورس	– كتاب الاكر	جيرارده الكريموني
ثيودورس	– كتاب الاكر	افلاطون التبرتيني
منالاوس	– كتاب الاشكال الكرية	جيرارده الكريموني
ابسقلاوس	– كتاب المطالع	جيرارده الكريموني
بطليموس	– المجسطي	جيرارده الكريموني
بطليموس	– المدخل الى الكرة	جيرارده الكريموني
بطليموس	– كتاب الاربعة	افلاطون التبرتيني
بطليموس	– كتاب الاربعة	يوحنا الاشبيلي
بطليموس	– كتاب المائة	يوحنا الاشبيلي
بطليموس	– الكرة المسطحة	هرمان الدلماتي
بطليموس	– الكرة المسطحة	رودولف البروجي
ذوروثيوس	– كتاب الخمسة	مغفل
الاسكندر الافروديسي	– كتاب الرد على جالينوس في الزمان والمكان	جيرارده الكريموني
الاسكندر الافروديسي	– في الحس	جيرارده الكريموني
الاسكندر الافروديسي	– الغذاء والنمّو هما في الصورة لا في المادة	جيرارده الكريموني

١ – نقرأ في المخطوط اللاتيني بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٩٣٣٥ هذه العبارة :

«Ista quae sequuntur sunt in principio Apolonii de piramidibus».

أي مخروطات أبولونيوس.

العلمـاء العـرب

يحيى بن سرابيون	– الكناش الصغير	جيرارده الكريموني
يحيى بن سرابيون	– براكتكا	اندريا الباغو
يوحنا بن ماسويه	– نوادر الطب	مغفل
يوحنا بن ماسويه	– كتاب الحميات	مغفل
يوحنا بن ماسويه	– في الجراحة	مغفل
حنين بن اسحق	– كتاب المدخل في الطب «ايساغوجي»	مغفل
الكندي	– في حدود الاشياء	مغفل
الكندي	– في الايام العصيبة	مغفل
الكندي	– رسالة في ماهية النوم والرؤيا	جيرارده الكريموني
الكندي	– في الغيوم والامطار	مغفل
الكندي	– رسالة في القضاء على الكسوف	مغفل
الكندي	– اختيارات الايام	مغفل
الكندي	– في الابانة ان طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر	مغفل
الكندي	– في العلوم المستقبلة	مغفل
الكندي	– رسالة في السبب الذي له نسبت القدماء الاشكال الخمسة الى الاسطقسات	جيرارده الكريموني
الكندي	– كتاب العناصر الخمسة	جيرارده الكريموني
الكندي	– رسالة في العقل	جيرارده الكريموني
الكندي	– التوحيد	جيرارده الكريموني
الكندي	– في الاحكام	روبرت الانكليزي
الكندي	– شرح الكلام عن ذات الحلق	مغفل
السرخسي	– كتاب المدخل في فن المنطق للبرهان	مغفل
قسطا بن لوقا	– الفرق بين النفس والروح	يوحنا الاشبيلي وقسطنطين الافريقي ارنلده فيلانوفا

ثابت بن قرة	– في حركة الفلك	مغفل
ثابت بن قرة	– حركة الفلك	جيرارده الكريمو
ثابت بن قرة	– المدخل الى المجسطي	جيرارده الكريمو
ثابت بن قرة	– قرستون في الاوزان	جيرارده الكريمو
ثابت بن قرة	– القول في الشكل القطاع والنسبة المؤلفة	جيرارده الكريمو
ثابت بن قرة	– في تأليف النسب	مغفل
ثابت بن قرة	– قسمة الزاوية المستقيمة	مغفل
ثابت بن قرة	– كتاب الصور	يوحنا الاشبيلي
ثابت بن قرة	– في مساحة قطع المخروط	سوتير
الرازي	– المنصوري	جيرارده الكريمو
الرازي	– الحاوي	فرغوت
الرازي	– كتاب الجدري والحصبة (نقله ج. فالا)	سالم بن فرج
الرازي	– تقسيم العلل	جيرارده الكريمو
الرازي	– مقالة في الحصى	جيرارده الكرمو
الرازي	– كتاب المدخل الى الطب	جيرارده الكريمو
الرازي	– امراض المفاصل	جيرارده الكريمو
الرازي	– امراض الاطفال	جيرارده الكريمو
الرازي	– فصول في صناعة الطب	جيرارده الكريمو
الرازي	– رسالة في الفصد	جيرارده الكريمو
الرازي	– كتاب الخواص	جيرارده الكريمو
الرازي	– كتاب سر الصناعة في الطب	جيرارده الكريمو
الرازي	– في البذور والجذور العطرية	جيرارده الكريمو
الرازي	– في الحمام	
الرازي	– كتاب الحميات	
الرازي	– في الاملاح	جيرارده الكريمو
الرازي	– نور الانوار	جيرارده الكريمو
الرازي	– امراض المنادين	

اسحق الاسرائيلي	– كتاب الحميات	قسطنطين الافريقي
اسحق الاسرائيلي	– كتاب البول	قسطنطيني الافريقي
اسحق الاسرائيلي	– كتاب الاسطقسات	جيرارده الكريموني
اسحق الاسرائيلي	– كتاب الاغذية العامة والخاصة	جيرارده الكريموني
اسحق الاسرائيلي	– كتاب الحميات (نقله الى الاسبانية)	خوسه ليانوس
ابن الجزار	– زاد المسافر	قسطنطين الافريقي
ابن الجزار	– بديل العطور	
ابن الجزار	– علاج السعال وازالة حصى الكلي...	
ابن الجزار	– كتاب الخواص	
ابن الجزار	– كتاب طبائع العقاقير على مذهب ابن الجزار	اسطفن السرقسطي
الزهراوي	– الجراحة	جيرارده الكريموني
الزهراوي	– كتاب التصريف	سيمون الجنوى
الزهراوي	– كتاب النظريات والتطبيقات	مغفل
الزهراوي	– كتاب العمل باليد	جيرارده الكريموني
علي بن العباس المجوسي	– كامل الصناعة الطبية «الكناش الملكي»	اسطفن الانطاكي
علي بن العباس المجوسي	– الملكي (السابق)	قسطنطين الافريقي
عريب بن سعيد	– كتاب الانواء	جيرارده الكريموني
ابن سينا	– القانون	جيرارده الكريموني
ابن سينا	– في طب القلب	ارنلده فيلانوفا والباغو.
ابن سينا	– ارجوزة ابن سينا في الطب	ارمغود والباغو
ابن سينا	– في النفس	يوحنا الاشبيلي
ابن سينا	– ما وراء الطبيعة	غندسلفه
ابن سينا	– الفيزياء (عيون الحكمة)	غندسلفه
ابن سينا	– علم الحيوان	ميخائيل سكوت
ابن سينا	– الاشارات والتنبيهات (ترجمة فرنسية)	غواشون
ابن سينا	– اقسام العلوم العقلية	
ابن سينا	– رسالة الحدود (ترجمة فرنسية)	غواشون

ابن سينا	– في السماء والعالم	غندسلبه
ابن سينا	– كتاب الانصاف (ترجمة فرنسية جزئية)	جورج فيدا
ابن سينا	– رسالة حي بن يقظان (ترجمة فرنسية)	هنري قربان ، غواشون
ابن جزلة	– تقويم الابدان	(سالم بن فرج) فيراغوت اليهودي
ابن بطلان	– تقويم الصحة	(سالم بن فرج) فيراغوت اليهودي
ابو القاسم عمر بن علي الموصلي	– امراض العيون	مغفل
عيسى بن علي	– تذكرة الكحالين	مغفل
ابن وافد	– كتاب الادوية المفردة	جيرارده الكريموني
ابن وافد	– كتاب الوساد (نقل الى الاسبانية)	كميلو الفاريس
ابن وافد	– مقالة في الفلاحة (الاسبانية)	ملياس فليبكروسا
ابن زهر	– كتاب التيسير	– يعقوب بتافينوس – يوحنا كابوا
ابن ميمون	– مقالة في تدبير الصحة	ارمنغود
ابن ميمون	– فصول	مغفل
سرابيون	– الادوية المفردة	سيمون الجنوى
علي بن رضوان	– شرح الفن الصغير لجالينوس	جيراردو الكريموني
علي بن رضوان	– شرح كتاب المائة لبطليموس	مغفل
علي بن رضوان	– شرح كتاب الاربعة	الفونسه العاشر
ابن رشد	– الكليات	ارمنغود
ابن رشد	– شرح ارجوزة ابن سينا في الطب	ارمنغود
ابن رشد	– ادوية مسهلة	المعلم مين
ابن رشد	– الترياق	مغفل
ابن رشد	– في السموم	مغفل
ابن رشد	– في جوهر الكون	ميخائيل سكوت
ابن رشد	– شرح السماء والعالم	ميخائيل سكوت
ابن رشد	– شرح النفس	ميخائيل سكوت

ابن رشد	– شرح السماع الطبيعي	ميخائيل سكوت
ابن رشد	– شرح الميتافيزقا	ميخائيل سكوت
ابن رشد	– شرح الاثار العلوية	ميخائيل سكوت
ابن رشد	– شرح الشعر	هرمان الالماني
ابن رشد	– شرح الاخلاق	هرمان الالماني
ابن رشد	– كتاب الجامع	ابراهيم البلمسي
ابن رشد	– انالوطيقا الاولى	فرنسيسكو البوراني
ابن رشد	– الجدل (طوبيقا)	ابراهيم البلمسي
ابن رشد	– الحكمة المموهة (سوفيسطقا)	ابراهيم البلمسي
ابن رشد	– تلخيص كتاب ميتافيزقا	جاكوبو مانتينو
ابن رشد	– تهافت التهافت	كالو كالونيموس
ابن رشد	– مقالة في جوهر الفلك	كالو كالونيموس
ابن رشد	– المسائل المهمة على كتاب البرهان لارسطو	ابراهيم البلمسي
ابن رشد	– السعادة	ابراعهيم البلمسي
الفارابي	– اختصار ريطوريقا لارسطو	مغفل
الفارابي	– كتاب المغالطة لارسطو	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– كتاب القياس	جيرارده الكريموني
الفارابي	– شرح كتاب العبارة لارسطو	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– شرح كتاب المقولات لارسطو	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– شرح رسالة النفس لارسطو	
الفارابي	– احصاء تقسيم العلوم	غندسلبه
الفارابي	– احصاء العلوم	جيرارده الكريموني
الفارابي	– احصاء العلوم (ترجمة عبرية واسبانية)	كالو كالونيموس وبلانسيا على التوالي
الفارابي	– عيون المسائل	يوحنا الاسباني وغندسلبه
الفارابي	– مقالة في معاني العقل	مغفل

الفارابي	– رسالة في النفس	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– رسالة فيمَا ينبغي ان يقدم قبل تعلم الفلسفة	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– كتاب الجمع بين افلاطون وارسطو	(ترجمة فارسية)
الفارابي	– رسالة في آراء اهل المدينة الفاضلة	(ترجمة فرنسية كرم وشلالا (ترجمة اسبانية) الونسو الونسو
الفارابي	– السياسة المدنية	(ترجمة عبرية)
الفارابي	– شرح كتاب المنطق	هرمان الالماني
الفارابي	– فصوص الحكم	(ترجمة المانية)
الفارابي	– رسالة في معاني العقل	دومنقه غندسلبه
الفارابي	– رسالة في معاني العقل (عبرية)	كالونيموس
الفارابي	– رسالة في ماهية النفس (عبرانية)	سراشيا بن اسحق
الفارابي	– رسالة التنبيه على سبل السعادة	(ترجمة لاتينية مغفلة)
الفارابي	– كتاب الموسيقى الكبير	(ترجمة فرنسية)
الفارابي	– رسالة في الكيمياء	مغفل
الغزال	– مقاصد الفلاسفة	غندسلبه
الغزالي	– تهافت الفلاسفة	غندسلبه
ابن جبرول	– ينبوع الحياة	غندسلبه
ما شاء الله	– مقالة في الاسطرلاب	مغفل
ما شاء الله	– في كسوف القمر	يوحنا الاسباني
ما شاء الله	– مقالة في الرياح	يوحنا الاسباني
ما شاء الله	– في العالم	جيراردہ الكريموني
اولاد موسى بن شاكر	– كتاب الاخوة الثلاثة	جيراردہ الكريموني
الخوارزمي	– مختصرمن حساب الجبر والمقابلة	جيراردہ الكريموني
الخوارزمي	– مختصر من حساب الجبر (ترجمة حرة)	روبرت اوف تشتير
الخوارزمي	– الجداول الفلكية	اديلارد الباثي
الخوارزمي	– مختصر السند هند	(ترجمة عبرية)

سند بن علي	– شرح الكتاب العاشر لاقليدس للمستقيمات غير الجذرية	جيرارده الكريموني
النيريزي	– كتاب النيريزي في شرح اقليدس	جيرارده الكريموني
الفرغاني	– كتاب في جوامع علم النجوم واصول الحركات السماوية	جيرارده الكريموني ويوحنا الاشبيلي
ابو معشر	– كتاب المدخل الكبير	يوحنا الاشبيلي
ابو معشر	– كتاب المدخل الكبير	هرمانوس الالماني
ابو معشر	– كتاب احكام تحاويل سني المواليد	يوحنا الاسباني
ابو معشر	– كتاب هيئة الفلك	يوحنا الاسباني
ابو معشر	– كتاب تولد الرياح	مغفل
ابو معشر	– كتاب الاختبارات	مغفل
ابو معشر	– كتاب في جمل من دلالات الاشخاص العلوية	مغفل
البتاني	– كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الافلاك	افلاطون التبرتيني
البتاني	– كتاب المائة	مغفل
البتاني	– كتاب الزيج	مغفل
ابو عثمان بن سعيد الدمشقي	– اصول اقليدس	جيرارده الكريموني
احمد بن يوسف	– كتاب الثمرة (تفسير)	جيرارده الكريموني
علي بن احمد العمراني	– شرح كتاب الجبر والمقابلة لابي كامل	صاحب الشرطة
مؤلف مغفل	– كتاب الجبر والمقابلة	صاحب الشرطة
ابن الهيثم	– كتاب المناظر	جيرارده الكريموني
ابن الهيثم	– الفجر	جيرارده الكريموني
ابو القاسم بن الصفار	– كتاب العمل بالاسطرلاب	افلاطون التبرتيني
الزرقالي	– جداول الزرقالي	جيرارده الكريموني

الزرقالي	– صفيحة الزرقالي	يوحنا بريشيا
الزرقالي	– صفيحة الزرقالي	الفونسه العاشر: ابراهيم اليهودي وفرنانـد الطليطلي وبرنردس البرغشي
جابر بن افلح	– كتاب الهيئة (المقالة ٨)	جيرارده الكريموني
البتروجي	– كتاب في الهيئة	– ميخائيل سكوت
عبد العزيز الشبيتيوس	– احكام النجوم	– يوحنا الاشبيلي
ابو الحسن علي بن الرجال	– البارع في احكام النجوم	اجيديوس التبلديسي

لقد فاتتنا اسماء كتب كثيرة وبالتالي لا نعتبر هذه اللائحة كاملة

المصَـــادر

المراجع العربية:

ابن أبي اصيبعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء – دار الثقافة – بيروت – لبنان.

ابن النديم: الفهرست: دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.

ابن رشد: فلسفة ابن رشد: منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – لبنان.

أبو نصر الفارابي: ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم فلسفة ارسطو. عيون المسائل في المنطق ومبادئ الفلسفة – المكتبة السلفية – القاهرة.

ابن المقفع: كليلة ودمنة.

ابن وافد: كتاب «الوساد»: مخطوط الاسكوريال رقم ٨٠٣.

ابن عباس المجوسي: «تلخيص كتاب الحميات» مخطوط الاسكوريال رقم ٨٨٤.

ابن الطيب: كتاب النكت والثار الطبية: مخطوط الاسكوريال رقم ٨٨٨.

ابن القفطي: تاريخ الحكماء: مخطوط الاسكوريال رقم ١٧٧٨.

أخوان الصفاء: رسائل أخوان الصفاء، تحقيق خيرالدين الزركلي، الجزء الأول.

البطروجي: كتاب في الهيئة، مخطوط الاسكوريال، رقم ٩٦٣.

ابن الجزار: طب الفقراء والمساكين: تحقيق وشرح وتعليق الدكتور سلمان قطاية، مختبرات «مارك شارب ودوم شبرى» – فرنسا.

الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق وتقديم الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف – القاهرة.

ابن رشد: تهافت التهافت، جزءان – تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف – القاهرة، طبعة ثالثة.

الكندي: «رسائل الكندي الفلسفية» تحقيق ابو ريده – دار الفكر العربي، القاهرة.

خالد بن يزيد: ديوان خالد بن يزيد في الكيمياء – دراسة وتحليل فاضل خليل ابراهيم – مجلة معهد المخطوطات العربية – الكويت، المجلد السادس والعشرون، الجزء الثاني، يوليو–دسمبر ١٩٨٢.

الدكتور صلاح فضل: تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي – دار المعارف – الطبعة الأولى عام ١٩٨٠.

محمد فياض: «ابن حيان» سلسلة اقرأ – دار المعارف بمصر.

ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون: المطبعة الكاثوليكية – بيروت.

سيمون الحايك : «السيد عنترة الاسبان» مطبعة الكريم – جونيه – لبنان
«صبح البشكنسية» مطبعة الكريم – جونيه – لبنان.
«عبد الرحمن الأوسط» المطبعة البولسية – جونيه – لبنان.
«عروق الذهب في مناجم الروم والعرب» المطبعة البولسية – جونيه – لبنان.
«الناصر لدين الله» دار النشر للجامعيين – بيروت لبنان.
«عبد الرحمن الداخل» (صقر قريش) – مطبعة الكريم – جونيه – لبنان.
«بلاي الرومي» مطبعة الكريم – جونيه – لبنان.

محمد عبدالله عنان : تراجم اسبانية شرقية واندلسية – مكتبة الخانجي – القاهرة.

يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين – مكتبة الخانجي – القاهرة. (ترجمة عبدالله عنان)

عبد الرحمن بدوي : دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.
– الافلاطونية المحدثة عند العرب – وكالة المطبوعات – الكويت ١٩٧٧.

الرزاي : كتاب المدخل إلى صناعة الطب، وهو ايساغوجي – تحقيق وترجمة الكتاب الى الاسبانية : مارية كونسبسيون فسكس بنيتو – المعهد الاسباني العربي للثقافة – مدريد.
– سر صناعة الطب تحقيق روزا كهني – مجلة القنطرة للدراسات العربية، المجلد الثالث، مدريد ١٩٨٢.

المصادر الغربية

Al-Farabi: Catalogo de las Ciencias: Traducción latina por Domingo Gundisalvo Y Gerardo de Cremona. Traducción española por A. Gonzalez Palencia. Madrid 1932.

Algazel: - Tahafut al-falasifa (Incoherencia de los filosofos), traducción española VI, XVII, XVIII de Asin Palacios.
- Intenciones de los filosofos: Traduccion española del P. Manuel Alonso. Barcelona 1963.

Averroes: «Tahafut at-tahafut» «Destructio destructionis»

Al Tamira: «Historia de españa y de la civilización española. 4 vol. Barcelona 1911.

Afnan S.F.: «El pensamiento de Avicena». Fondo de cultura economica. Mexico 1965.

Aguirre Y Respaldiza: «Rogerio Bacon». Edit. Labor. Barcelona 1935.

Aquino Tomas: - «Suma teologica», Tomo I y tomo II, Biblioteca de Autores cristianos 2a edic. Madrid 1968.
- «Suma contra gentiles»: Edic. bilingüe en dos volumenes B.A.C. Madrid 1967.

Al-Andalus: - «Domingo Gundisalvo». Rev Al-Andalus, nº XVI, 1951.
- «Traducciones del arabe al latin por Juan Hispano» Rev. Al-Andalus, Nº XVII 1952.
- Juan Sevillano: Sus obras propias y sus traducciones». Rev. Al-Andalus Nº XVIII pp. 17-49.
- «Coincidencias verbales tipicas en las obras y traduciones de Gundisalvo». Rev. Al-Andalus Nº XX.
- «Al qiwan y «al-anniyya» en las traducciones de Gundisalvo Rev. Al-Andalus vol. XXII, 1957.
- «Influencia de Algazel en el mundo latino», Rev. AL-Andalus, Vol. XXIII. 1958.
- «El Kitab fusus al-hikam de Al-Farabi», Rev. Al-Andalus nº XXv, 1960.

- El traductor y apologista del «Sextus Naturalium», Al-Andalus Vol. XXVI, 1961. Madrid.
- « Existencia y esencia »Rev. Al-Andalus, Vol. XXVII, Madrid.

Asin Palacios: - «Huellas del Islam», Espasa-Calpe, Madrid 1941.
- «La Escatologia musulmana en la Divina Comedia» Instituto Hispano-arabe de Cultura, Madrid 1961.
- «Obras escogidas». I, II, y III, Madrid 1946, 1948.

Berman Leon: «Histoire des juifs de France». Libraire Lipschutz, Paris 1937.

Bonilla San Martin: Historia de la Filosofia española, I, Madrid 1908.

Burckhardt Titus: «La civilización hispano-arabe, «Alianza Universal, (Versión española) 1977 Madrid.
- «Alquimia», Plaza y Janes (Versión española), Barcelona 1976.

Beaujouan Guy: « L'ensegnement de l'Arithmétique elementaire à l'Univers. de Paris aux XIII et XIV siècles. Homenage à Millas Vallicrosa, Vol. I, Barcelona 1954.

Cantarino Vicente: «Entre monjes y musulmanes...» Edic. Alhambra, Madrid 1977.

Carreras y Artau Tomas: «Filosofpa cristiana de los siglos XIII al XV, dos tomos Madrid 1939.

Cerulli Enrico: «Dante e l'Islam», Al-Andalus vol XXI, 1956. «Conclusiones sobre el libro de la Escala». Al-Andalus vol XXXVII 1972.

Cabanelas Rodriguez Dario: «Juan de Segovia y el primer Alcoran trilingüe», Al-Andalus vol. XIV, 1949.
- «Juan de Segovia y el problema islamico», Madrid, 1952.

Cruz Hernandez: «Historia de la Filosofpa española», Madrid 1957 dos tomos.

Cuevas Cristobal: «El pensamiento del Islam», Colección Fundamentos Edic. ISTMO, Madrid.

D.Alverny Marie Therese- «Marc de Tolède, traducteur de Ibn Tumart» Al-Andalus vol, XVI, Madrid 1951 et vol. XVII.
- «Avendauth, Homenafe a Millas Vallicrosa, vol. I. Barcelona.

Den Berg: «Averroes and Tahafut al-tahafut (the incoherence of the incoherence) 2 vol., Oxford 1954.

Fernandez Fidel: «La medicina arabe en España», Berna 1936.

Gabrieli Francesco: «Estudios recientes sobre la tradición griega en la

civilización musulmana». Revista Al-Andalus vol. XXIV 1959.

Gilson Etienne: «La philosophie au Moyen Age», Payot, Paris.

Gonzalez Maesu David: :«Los arabes maestros de los judpos en la España medieval». Revista de los Estudios islamicos en Madrid, Vol. XI y XII.

Gonzalez Palencia Angel: - Historia de la España musulaman, Barcelona 1932.
- El ArzobispoDon Raimundo de Toledo, Edic. LABOR, Barcelona 1929.
- Historia de la Literatura arabigo-española col. Labor, Barcelona 1928.

Gundisalvo Domingo: «De scientiis», Texto latino establecido por el Padre Manuel Alonso. Madrid 1954.

Holmyard: «AVICENNAE DE CONGELATIONE ET CONGLUNATIONE LAPIDUM»; Paris 1927.

Ibn Sabin: - «Correspondence philosophique avec l'empereur Fréderic II de Hohenstaufen». Al-Andalus 1948.

Levi-Provençal: - «Alfonse VI et la prise de Tolède (1085), «Al-Andalus I, 1933.

Lain Entralgo Pedro: Historia de la medicina, Barcelona 1929.

Maslama Ben Ahmad: «Picatrix» - Editora Nacional, Madrid, 1980.

Max Meyerhof: «La decouverte de la circulation pulmonaire par Ibn Al-Nafis, médécin arabe du Caire XIIIe siècle». Al-Andalus n°II, 1934.
- Esquisse d'Histoire de la Pharmacologie et Botanique chez les musulmans d'Espagne». Rev. Al-Andalus vol. III p. 1-41.

Baron Fernandez Jose: «Miguel Servet». Espasa-Calpe, Madrid 1970.

Marcelino Menendez y Pelayo: «Ensayos de critica filosofica», Madrid, 1918.
- «Historia de los Heterodoxos», B.A.C Madrid 1965.
- «La Filosofpa española». Edic. Rialp S.A. Madrid 1964.

Ramon Menedez Pidal: «poesía arabe y poesía española», Colec. Austral, Espasa-Calpe.

Aldo Mieli: «El mundo Antiguo, Griegos, y Romanos. Espasa-Calpe, Argentina SA, Tomo I.
- «El mundo Islamico» y el Occidente medieval cristiano». Espasa-Calpe, Argentina, SA, TOMO II,
- «La eclosión del Renacimiento», Esp-Calpe, Madrid t. IV.

Mandonnet Pierre: «Siger de Brabant et l'averroisme latin au XIIIe sie. Fribourg 1809.

Eduardo MIllas: «El comentario de Ibn al - Mutanna a las Tablas astronomicas de Al-Jwarizmi». Madrid-Barcelona. 1963.

Millas Vallicrosa: - «ESTUDIOS sobre historia de la ciencia española». Consejo Superior de Investigaciones cientificas, Barcelona 1949.
- «Nuevos estudios sobre historia de la ciencia española». C.S.I.S, Barcelona 1960.
- «Estudios sobre Azarquiel», Escuela de estudios arabes, Madrid 1953-1950.
- «Las traducciones orientales en los manusc. de la Biblioteca Catedral De Toledo», Madrid 1942.
- «Assaig d'historia de les idées fisiques i matematiques à la Catalunya medieval, Barcelona 1931.

Isidoro Montiel: «Calila y Dimna», Editora Nacional, Madrid.

Morata Nemesio: «LOS fondos arabes primitivos de El Escorial», Al-Andalus vol. II, 1934.

Muñoz Sendino Jose: «La Escala de Mahoma», Direccion General de Relationes Culturales, Madrid 1949.

Pernoud Regine: Eloisa y Abelardo, Col. Austral, Espasa-Calpe n⁰ 1548.

Pseudo-Aristoteles: « Teologia», Ediciones Paulinas, Madrid.

Rivera Juan Francisco: «Nuevos datos sobre los traductores Gundisalvo y Juan Hispano, Al-Andalus vol. XXXI, 1966.

Sanchez Albornoz: «El Islam de España y el Occidente». Col. Austral, N⁰ 1560.

Renan Ernest: Averroés et l, Averroïsme, Calmann - Lévy, Paris.

Lucien Leclerc: «Histoire de la médecine arabe», deux tomes, Paris Ernest Leroux 1876.

Simonet: «Historia de los mozarabes de España». Madrid 1897-1903.

Sarton George: «Ensayos de Historia de la Ciencia», Bibliot. Uthea de Historia, traducc. al español, Alfonso Castaño, Mexico.
- La vida de la ciencia, Espasa - Calpe Argentina SA, traducc. José Babini.

Sanchez Perez: «La ciencia arabe en la Edad Media». C.S.I.C. 1954.
- Alfonso X el Sabio, siglo XIII, Madrid,

- Alfonso X et Sabio y et astrologo, Investigación y progreso, IV 1930 Madrid.

Solalinde A.G.: Alfonso X astrologo. «Revista de Filologia española nº XIII, 1926.

Vernet Juan: - «Arquimedes arabe: el tratado de los circulos tangentes». Al-Andalus, vol. XXXIII,

- «Kepler y los horoscopos de Mahoma y Lutero». Al-Andalus XXXVII, 1972.
- «Las obras matematicas de Maslama de Madrid». Al-Andalus vol. XXX, 1965.
- «La cultura hispano-arabe en Oriente y Occidente». Ariel historico, Barcelona 1978.
- «Historia de la Ciencia española». Madrid 1975.
- «Astrología y Astronomía en el Renacimiento». La Revolución copernicana». Ariel 1974. Barcelona.
- «Astrologia en la Cordoba del siglo X». Revista del Instituto de estudios islamicos en Madrid. Vol. XV. 1970.

الفهرس

صفحة

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان

صورة الملائكة ليلة الإسراء والمعراج بالقدسية